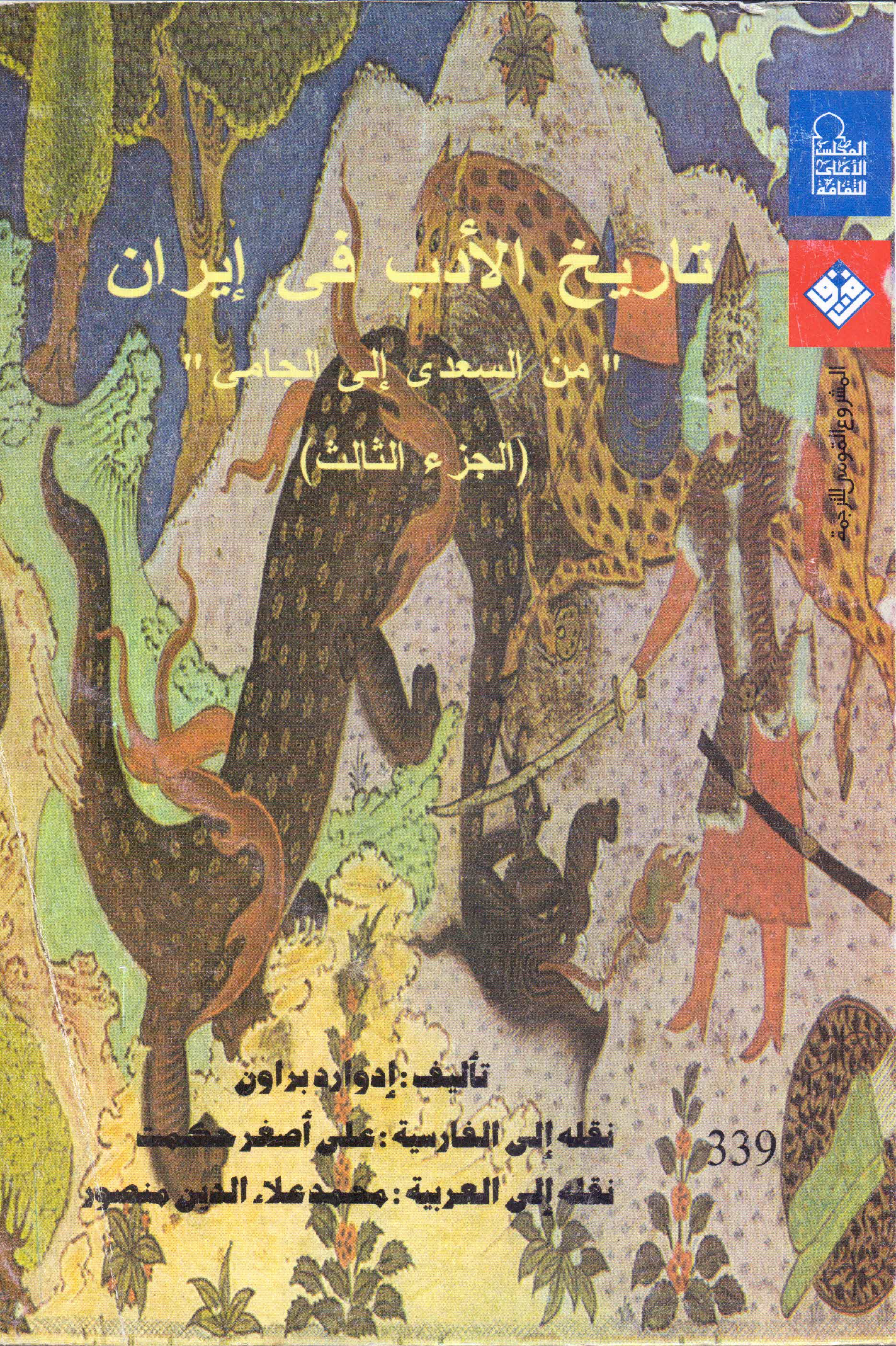


تاريخ الأدب فى إيران

" من السعدى إلى الجامى "

(الجزء الثالث)

تأليف : إدوارد براون
نقله إلى الفارسية : علي أصغر حكمت
نقله إلى العربية : محمد علاء الدين منصور





هذا الكتاب هو الجزء الثالث من الأجزاء الأربعة التى تؤرخ للأدب الفارسى من البداية حتى عام ١٩٢٠م - والذى يبحث تاريخ الأدب الفارسى فى عهد حكم المغول والتيموريين - من تأليف المستشرق المعروف إدوارد جرانفيل براون الإنجليزى، ونقله من الإنجليزية الباحث والأديب الإيرانى على أصغر حكمت. أما السبب فى ركون المترجم إلى الترجمة الفارسية وليس الأصل الإنجليزى فلأن المترجم حكمت قد أكمل نقائص الأصل الإنجليزى؛ لأن براون لم يثبت النصوص الفارسية والعربية من شعر ونثر فى كتابه، وترجم أغلبها إلى الإنجليزية، لكن حكمت أعادها إلى أصلها الفارسى، كذلك عندما راجع الأصول الفارسية للنصوص صادف أخطاء فى ترجمة براون لها خاصة ترجماته للشعر - وأغلبه صوفى رمزى عميق المعنى - فأصلحها فى ترجمته الفارسية.

غلاف : نجلاء فتحى

المشروع القومى للترجمة

تاريخ الأدب فى إيران

« من السعدى إلى الجامى »

٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م - ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م

(الجزء الثالث)

تـأليـف : إدوارد براون

نقله إلى الفارسية : على أصغر حكمت

نقله إلى العربيـة : محمد علاء الدين منصور



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٣٩
- تاريخ الأدب فى إيران (الجزء الثالث)
- إدوارد براون
- على أصغر حكمت
- محمد علاء الدين منصور
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة عن الفارسية لكتاب :

از سعدى تا جامى

تاريخ ادبيات درايران درعهد تاتار وتيموريان

تأليـــف : ادوارد براون

الصادر عن : چاپخانه بانك ملى – تهران – عام ١٩٤٦ م

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House. El Gezira. Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة المترجم

الكتاب الذى ننشره الآن هو الجزء الثالث من الأجزاء الأربعة التى تؤرخ للأدب الفارسى من البداية إلى عام (١٩٢٠م) من تأليف المستشرق المعروف إدوارد جرانفيل براون الإنجليزى ، وأصل عنوانه معناه (تاريخ الأدب الفارسى عصر سيطرة التتار) ونقله من الإنجليزية الباحث والأديب الإيرانى على أصغر حكمت بعنوان (من السعدى إلى الجامى)، وآثرت فى نقله من الفارسية إلى العربية أن أضم العنوانين معًا .

ولد براون فى السابع من فبراير عام ١٨٦٢م، وتوفى فى الخامس من يناير عام ١٩٢٦م ، وهو من الأساتذة المعروفين لجامعة كمبردج ومن أجلّة المهتمين بإيران وتاريخها وأدبها ، أما تأليفه لسائر عصور التاريخ الأدبى لإيران فهو بحق موسوعة فى بابه ، خصص الجزء الأول منه للتأريخ الأدبى لإيران من البداية إلى الفردوسى شاعر الشاهنامه المعروف والمتوفى فى العقد الثانى للقرن الخامس الهجرى ، ثم تتبع الأدب الفارسى فى الجزء الثانى من موسوعته من الفردوسى إلى السعدى ، وهو من فحول أدباء إيران ، والذى تجاوز تأثيره خارجها والمتوفى فيما بين عامى ٦٩١ و ٦٩٤هـ (١٢٩١ و١٢٩٤م)، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم الشواربى – وهو من الرواد المتخصصين فى الأدب الفارسى فى العالم العربى – تحت عنوان (تاريخ الأدب فى إيران : من الفردوسى إلى السعدى)، ونشر بالقاهرة عام ١٩٥٤م ، ثم هذا الجزء الثالث الذى يدرس التاريخ والأدب من السعدى إلى الجامى المتوفى ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م وترجمه أصغر حكمت ونشره بإيران عام (١٩٤٨م) ، ثم الجزء الأخير من بداية العصر الصفوى إلى عام (١٩٢٤م) ونقله إلى الفارسية رشيد ياسمى أستاذ جامعة طهران عام (١٩٣٧م) ، وتقع – فى الحقيقة – أهم دراسات الأدب الفارسى فى الجزأين الثانى

والثالث ؛ لأن الجزء الأول يعد مقدمة له ، والجزء الرابع يؤرخ للأدب بعد أن ضعف بالحكم الصفوى الذى اتخذ المذهب الشيعى دينًا لإيران ، ولم يشجع غير الشعر المذهبى ؛ فانتقل الشعراء والأدباء بهذا الأدب من إيران إلى الهند وتركيا ، ولما صحا الأدب فى أوائل القرن العشرين حاول تقليد الأساتذة الإيرانيين الذى ضمهم الجزآن الثانى والثالث ولم يبلغهما ، وكان أن أثر الدكتور الشواربى أن ينقل إلى المكتبة العربية الجزء الثانى فسد فراغًا خاويًا فى هذه الدراسات ، وبقى الجزء الثالث سواء فى أصله الإنجليزى وترجمته الفارسية غفلاً عن الاهتمام . ورأيت أن أتجشم – خدمة لهذه الدراسات والمهتمين بها – نقل الجزء الثالث من الفارسية إلى العربية مع وجود الأصل الإنجليزى ، أما عن سبب ركونى إلى الترجمة الفارسية فلأن المترجم حكمت قد أكمل نقائص الأصل الإنجليزى ؛ لأن براون لم يثبت – تقريبًا – النصوص الفارسية والعربية من شعر ونثر فى كتابه ، وترجم أغلبها إلى الإنجليزية، لكن حكمت أعادها إلى أصلها الفارسى ، فكان علىّ تحرى الدقة فى النقل عن الأصل الفارسى ، ولما راجع حكمت الأصول الفارسية للنصوص صادف أخطاء فى ترجمة براون لها خاصة ترجماته للشعر – وأغلبه صوفى رمزى عميق المعنى – فأصلحها فى ترجمته الفارسية .

كما زاد من الحواشى والإيضاحات المفيدة خاصة وهو المحقق والأديب وأستاذ الأدب الفارسى بجامعة طهران ، فكان لهذا وذاك أن أعول على الترجمة الفارسية ، أما حكمت فقد بدأ عمله بوزارة المعارف الإيرانية ، ثم انتقل إلى التدريس بجامعة طهران ونشر نصوصًا فارسية منها (مجالس النفائس) فى تذكر الشعراء، التى ألفها الأمير النوائى المتوفى (٩٠٦هـ / ١٠٥١م)، وألف تحقيقات أدبية مثل كتابه عن حافظ وعن الجامى المنشور عام (١٩٤١م) بالفارسية ، وكذلك عن (روميو وجوليت لشكسبير ومقارنة ليلى والمجنون للنظامى به) نشره بطهران عام (١٩٤١م) ، وتأليفه بالإنجليزية مثل (ترجمة فيتزجيرالد للجامى) عن مثنويه (سلامان وأبسال) ونشره بطهران عام (١٩٤٧م) فضلاً عن مقالاته وأشعاره فى مختلف المجلات الأدبية الإيرانية ، ويعد شاعرًا مجيدًا معاصرًا عند باقر برقعى (راجع كتابه ، ص ١٧١) ولد (١٨٩٢م) ومات

(١٩٨٠م) . يبحث كتابنا هذا التطور الأدبى وتاريخ الأدب من شعر ونثر والمؤلفات التاريخية بهذه الحقبة من تاريخ إيران الواقعة بين عامى ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م و ٩٠٧هـ / ١٥٠٢م ؛ التى حكم فيها المغول والتيموريون والتركمان ، وظهر بأولها (السعدى الشيرازى) أفصح المتكلمين وإن كان براون لم يفصل فيه القول ؛ لأنه بحثه بالجزء الثانى ، ثم توسطها (حافظ الشيرازى) أحب شعراء إيران لأهلها وأعظمهم جميعًا عندهم والملقب من قبلهم بلسان الغيب وترجمان الأسرار ، وبينهما خاتم شعراء إيران وهو (الجامى) الثَّرُّ التأليف والإبداع وغيرهم من عشرات الأدباء والمؤرخين والعلماء الذين بلغ بهم الأدب الفارسى أوج استعلائه وفاق أحواله فيما سبقه وفيما تلاه .

ومن البديهى أن تتغير صورة الدراسات التى قدمت لهذه الفترة المبحوثة من بعد ترجمة حكمت إلى يومنا هذا ؛ فقد طبع كثرة من المخطوطات بالغرب والشرق ودرست وترجمت فى مقالات ورسائل جامعية ، وكتب فى أوربا وفى الهند وباكستان ومصر وغيرها ، فضلاً عن إيران ، بما لا يمكن حصره فى هذا المقام، لكن المسلك الذى ينظم جواهر الأنشطة الأدبية وما دار حولها من غالب الدراسات ويقدم دراسة شاملة ودقيقة فى آنٍ هو كتاب براون هذا لهذه الفترة المهمة المعنية بما يجعله ممسوس الحاجة ولازم الضرورة ، والمرجو أن يقع نقله إلى العربية من الدارسين والمختصين والمهتمين والمثقفين العرب موقع الرضا والقبول ، وبالله التوفيق .

محمد علاء الدين منصور

الكتاب الأول

ملوك إيران الإيلخانيون

من موت هولاكو إلى انتهاء الأسرة الإيلخانية

٦٦٣ - ٧٣٧ هـ / ١٢٦٥ - ١٣٣٧ م

الفصل الأول

الإيلخانات المغولية فى إيران

مع أن الدراسة والتحقيق لكل عصر من عصور تاريخ الأمم يختلف من دارس لآخر من ناحية الاهتمام ، كما أن الدارس يمكنه أن يجعل دراسة التاريخ تستلفت الاهتمام بقوة تصوره وبقدر اهتمامه ، إلا أن أوقاتًا معينة تحين فى تاريخ كثير من الشعوب والأمم ، وقد كانت مؤثرة فى هدم حياتها أو تجديدها، ولا مناص لكل عالم من العلم بها ، وإيران لأسباب جغرافية وعنصرية تتمتع بقسط وافر من مثل هذه العصور فى تاريخها ، فيكفى نظرة إلى الخريطة الجغرافية لها لكى تذكر القارئ بأن هذه الأرض ذات الحضارة العريقة والممتدة من سواحل بحر الخزر إلى ساحل الخليج الفارسى كانت على الدوام بمنزلة جسر يربط ما بين أوروبا وآسيا الصغرى من ناحية ، وآسيا الوسطى والشرقية من ناحية أخرى ، وقد عبر هذا الجسر من قديم الزمان جماعات مهاجمة من الشرق والغرب بقصد السيطرة على العالم ؛ ولهذا فإن الأحداث الخاصة التى تربط تاريخ إيران بتاريخ العالم هى كالتالى :

١ – هجوم الإيرانيين على ولايات اليونان فى عهد السلاطين الهخامنشيين (الأكمينيين) فى القرن الخامس قبل الميلاد .

٢ – حملة الإسكندر على إيران والهند فى القرن الرابع قبل الميلاد التى على إثرها زالت الأسرة الهخامنشية ، وخرجت إيران على طول خمسة قرون ونصف القرن من عداد الدول العظيمة فى العالم .

٣ – تجديد حياة الملكية الإيرانية بين الملوك الساسانيين فى القرن الثالث الميلادى والحروب المتوالية بينهم وبين الروم فى القرن الرابع الميلادى وما بعده .

٤ – الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى على إثر ظهور حياة دينية قوية للغاية بين شعب خامل الذكر ، وبعد سنوات عديدة نصب هذا الفتح راية الإسلام من أعماق جزيرة العرب على إسبانيا غربًا وسواحل نهرى : جيحون ، والسند شرقًا .

٥ – الهجوم المغولى والتترى فى القرن الثالث عشر الميلادى الذى كان له تأثيرات بليغة على القسم الأساسى من آسيا وجنوب شرقى أوربا ، ويمكن عده – فى الحقيقة – أحد أسوأ الكوارث التى حلت بالجنس البشرى .

٦ – هجوم التتر مع الغزوات التيمورية (الأمير تيمور جورجان) فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى .

٧ – الحروب المتعاقبة لإيران والدولة العثمانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين التى أكسبت إيران عظمة وأهمية خاصتين فى نظر أوربا والعالم الغربى : إذ اعتبر هذا البلد أحد الموانع المهمة أمام المد التركى ، وسعت البلاد الغربية بحماس بالغ إلى إقامة علاقات صداقة مع إيران .

ومن بين هذه العصور المهمة التاريخية السبعة فى تاريخ إيران يكتسب العصر الرابع والخامس أهمية وأثرًا أكثر عمقًا عن بقية العصور .

مقارنة الفتح العربى بالهجوم المغولى

إن الفتح العربى يختلف ويتباين تمامًا مع الغزو المغولى من كل ناحية إلا فى ناحية واحدة ؛ هاجم العرب إيران من ناحية جنوبها الغربى وهاجمها المغول من الشمال الشرقى، وكان العرب يدفعهم روح يمتلئ بحرارة الإيمان وحماس العقيدة الدينى ، بينما كان المغول تهديهم شهوة السيطرة على البلاد وسفك الدماء والسلب والنهب .

أقام العرب حضارة ونظامًا جديدًا بدلاً من الذى أزالوه ، لكن المغول لم يخلفوا غير الرعب والفناء ، بعبارة أخرى : كان المغول سفاحين سفاكين ماكرين ناهبين سالبين بينما كان العرب – حتى باعتراف أعدائهم الإسبان – شعبًا شجاعًا شهمًا ذا مروءة ، لكن وجه المشابهة بين هذين الشعبين المهاجمين كان شعور التحقير الذى كان يوجده ظاهرهما البائس وعتادهما الحقير فى نظر أعدائهما الكاملى السلاح والمجهزين بوافر العتاد قبل أن يجربوا فضلهما ومهارتهما ، هذا الوجه من التشابه يتضح بنحو أفضل فى كتاب التاريخ العربى الآخاذ المسمى "بالفخرى". والمؤلف فى حدود ١٣٠٠م

أى بعــد سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية بنحو خمسين عاماً ؛ ففى هذا الكتاب بعد أن يذكر مؤلفه "ابن الطقطقى" فتوحات العرب وطعن عظمــاء إيـران وأمرائها على العرب المسلمين سيوفهم المثلومة ورماحهم الواهنة وخيولهم النحيلة ، يحكى لمناسبة المقام قصة لأحد القواد المسلمين، وكان قد توجه لقتال المغول فى غرب بغداد فى واقعة سقوط هذه المدينة الكبرى فى عام ٦٥٦ ، ونص روايته : (حدثنى فلك الدين محمد بن إيدمر قال : كنت فى عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربى من مدينة السلام فى واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحته فرس عربى وعليه سلاح تام ، كأنه وفرس الجبل العظيم ، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحتــه فرس كأنه حمار ، وفى يده رمح كأنه المغزل وليس عليه كسوة ولا سلاح؛ فيضحك منه كل من رآه ، ثم ما إن تم النهار حتى كانت لهــم الكـرة فكســرونا كســرة عظيمــة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الأمر ما كان)[١].

حالة الرعب والآثار المتخلفة عن هجوم المغول

ليس أدنى مبالغة فى بيان الأهمية التاريخية وكذلك الرعب والانقلاب المذهل الذى سببه هجوم هـؤلاء المتوحشين من مغولستان وتركستان وما وراء النهـر فـى النصف الأول للقرن الثالث عشر ؛ فاضمحلال أسرة الخلافة العربية وتقوص السيطرة الإسلامية وظهور تقسيمات سياسية جديدة فى آسيا الغربية وهروب الأتراك العثمانيين إلى آسيا الصغرى ثم إلى داخل أوربا ، وتأخير المسيرة الحضاية وارتقاء أمر روسيا والتأخير غير المباشر للنهضة فى أوربا، كان لذلك كله آثار أو نتائج لهذا الهجوم المشؤم ، وفيما يتصل بالرعب والاضطراب الشامل اللذين ظهـرا عـن الأعمـال

(١) راجع الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، طبعة مصر ، ص ٥٧ .

الوحشية لهؤلاء المغول يذكر دوسون D'ohssn المؤرخ فى كتاب تاريخه النفيس المسمى بتاريخ المغول histoire des mongols ملمحًا لطيفًا فيقول : (كان ممكنًا أن نتهم باطنًا المؤرخين الشرقيين بالمبالغة والإغراق فى وصفهم وقائع المغولى ، وأن وصفهم فى كل وقت لا يتفق والشهادة المباشرة للمؤرخين الغربيين تمامًا (١) ، إلا أن هؤلاء الغربيين قصوا بدورهم ما فعله المغول فى الجنوب الشرقى لأوربا بما يشبه رواية المؤرخين الشرقيين تمام الشبه، ولم يذكروا وحسب إغارتهم على روسيا وبولندا والمجر بل فى داخل سيليزيا ومرايا ودالماسيا حتى ما حدث فى واقعة ليجنتز المهولة (Liegntiz) (فى التاسع من أبريل ١٢٤١م) حين انهزم جيش عظيم مؤلف من ثلاثين ألف جندى ألمانى ونمساوى ومجرى وبولندى تحت قيادة هنرى الملقب بالورع "Henry the Pious" دوق سيليزيا أمام الجيش المغولى ، وقبل ذلك التاريخ بنحو عامين ظهر فزع واضطراب عظيمان بسبب هذا الجيش السفاك فى أوربا الغربية إلى حد أن المؤرخ الحولى لذلك العهد ماتيو باريس Matt hew Paris ذكر فى تاريخه - الذى ألفه فى سانت البانز ST. Albans - فى ذيل وقائع عام ١٢٣٨ م أن صيادى الأسماك من أهالى جوت لاند Goth Land وفريز لاند Fries Land لم يجدوا جرأة على عبور بحر الشمال والصيد فى يارموث Yarmouth ، ونتيجة لذلك زادت فى ذاك العام سمكة (الهرينك) فى إنجلترا ورخص سعرها حتى بيع الأربعون أو الخمسون سمكة منها بعملة فضية واحدة حتى فى الأنحاء البعيدة عن شاطئ البحر ، وفى تلك السنة نفسها قدم وفد ممثل وسفير من طرف الإسماعيلية أو فدائيى الموت إلى فرنسا وإنجلترا يستمد الدول الغربية ضد هؤلاء الأعداء المرعبين ، إلا أن هذه السفارة لم تجد ترحيبًا طيبًا فى بلاطات أوربا ، وأجاب أسقف وينشستر Bishop af winchester لما سمع مطلبهم هذا «علينا أن ندع هؤلاء الكلاب يبتلع بعضهم بعضًا حتى يفنوا ويهلكوا جميعًا، وإذ ذاك نبنى فوق خرائبهم الكنيسة المقدسة ، وحينذاك سوف تصير الدنيا بأسرها رعاية واحدة لها راع واحد" .

(١) المجلد الأول من التاريخ المذكور ص ٧ وعبارته هى : "On croirait que l'historie a exagéré leur atrocitè, si les anna les de les pays n'etaient d'accard sur ce point".

نقل عن ماتيو باريس

نقلنا قدراً كبيراً من روايات المؤرخين المسلمين مثل ابن الأثير وياقوت وسائر معاصرى المغول عن المغول فى المجلد الثانى ولا داعى لتكرارها فى هذا المقام ، إنما يبدو مفيداً هنا أن نقارن رواياتهم برواية ماتيو بشأن المغول ، فهذا المؤرخ – للأسباب التى ذكرها – ربط هؤلاء المغول بطبقات جهنم طبقًا لاشتقاق لغوى عامى فعرفوا فى أوربا باسم تارتار ، يذكر فى ذيل وقائع عام ١٢٤٠ [١] .

« بما أن سعادة الإنسان الفانى لا يجب أن تدوم وتبقى ولا تستمر السعادة الدينوية بدون المحن والآلام طويلاً ، ففى هذه السنة هاجم شعب مكروه مشنوء شيطانى اسمه عسكر التتار الذى لا يحصى ما هو جارح بلادهم الجبلية ، فشقوا الصخور الصماء (جبال القوقاز)، وهاجموا المعالم مثل شياطين جهنم (تارتاروس) [٢] وعفاريتها ، ولهذا السبب نفسه يجب حقًا أن نسميهم التتار أو التتاريين ، غطوا البسيطة مثل الجراد وأحلوا ببلاد شرق أوربا أصناف الشقاء الفظيع ، وأحالوا هذه المناطق دماءً ونيرانًا ، وبعد أن عبروا أراضى المسلمين سووا المدن بالتراب وخربوا الرياض والجنان وأهلكوا الحضر والمدر ، وإذا ما نجا من حد سيوفهم مصادفة مسكين استأسروه وأنزلوه أحط درجات العبودية ووضعوه فى الصفوف الأولى لقتال أخواته وجيرانه ، أما من قصر عن الحرب أو استتر أملاً فى الحياة فقد بحثوا عنه وأهلكوه ، ومن حارب من أجلهم بشجاعة أو هزم لهم جيشًا أو فتح لحسابهم فتحًا عظيمًا لم يسمع منهم كلمة شكر ثوابًا ، وبخاصة أنهم كانوا يسلكون مع أسراهم كأنهم حيوانات وبهائم ؛ لأنهم ليسوا بشراً بل حيوانات مفترسة وضارية وعفاريت فى صورة بشر ومتعطشة للدم، وجعلوا من لحم الإنسان والحيوان غذاء لهم ، لباسهم من جلد البقر المدعم بأسياخ الحديد ، وأجسامهم قصيرة القامة وسميكة وقوية لا تمل

(١) المجلد الرابع ، ص ٧٦ ، ٧٨ من السلسلة الثانية Hakluyt. society ، لندن ١٩٠٠م .

(٢) Tartarus

أو تتعب أو تنهزم ، جردوا ظهورهم من الكساء ودرعوا صدورهم بالدروع . كانوا يتجرعون بلذة وسعادة دماء أبناء نوعهم ، خيولهم عظيمة وقوية تأكل الأعضاء بل الأشجار ، ولما أن راكبيها قصار القامة فكانوا يمتطونها بمعونة السلالم ، هؤلاء الناس يعدمون كل القوانين والقواعد الإنسانية ولا يعرفون الراحة واللذة وأشد فتكًا من الأسود والدببة ، لهم قوارب مصنوعة من جلود البقر ، ولكل عشرة أو اثنى عشر منهم قارب واحد ، يحذقون دقائق الملاحة والسباحة حتى إنهم يعبرون أعظم الأنهار وأسرعها بلا خوف ووجل .

إذا لم يتيسر لهم الدم يشربون الماء المخلوط بالطين ، لكل منهم سيف له حد واحد وعديد من الخناجر ، وهم رماة سهام مهرة لا يماثلهم مخلوق ولا يفرقون بين الشاب والعجوز والرجل والمرأة ، لا يعرفون غير لغتهم ولا يعلم أحد لغتهم ؛ لأنه لم يسافر حتى اليوم أحد إلى بلادهم ولم يسافروا إلى بلد آخر ؛ ولهذا فهم يجهلون عادات المجتمع البشرى العام وأشخاصه تمام الجهل ، تفرقوا بقطعانهم ونسائهم اللاتى تعلمن القتال كالرجال فى الأطراف والأكناف وهاجموا بسرعة البرق حدود البلاد المسيحية وثغورها وانصرفوا إلى عب الدم وسفكه ، وأحلوا فى القلوب الرعب والفزع بما لا مثيل له ، ولهذه الأسباب أراد المسلمون الاتحاد مع المسيحيين على أمل أن يقاوموا هؤلاء الشياطين بقواتهم المتحدة" .

أقدم سفارة أوربية إلى بلاط المغول

وقبل أن يتم هذا الاتحاد تحول أمراء المسيحية وزعماؤها إلى عقيدة هى وجوب أن يفيدوا من وجود المغول ويبيدوا بأيديهم المسلمين حتى تنتهى بحسم المنازعات الطويلة بين هاتين الأمتين ، وما الحروب الصليبية إلا مظهر واضح لها ؛ وعليه فقد انفتح باب العلاقة ما بين أوربا الغربية وقراقروم العاصمة القاضية المرحبة بالضيفان لمغولستان وتبادل الطرفان المراسلات وترددت الرسل بينهما ، تقبل بعض الرهبان المتعصبين مثل جون أف بيان دى كاربين John of Plande Carpine ، ووليام أف روبروك Wiliam af Rubruck أنواع الشدائد والأخطار بجرأة وجسارة تامة، وسلكوا

الطريق الطويلة المليئة بالمشاق بين مغولستان وأوربا وتحملوا على أنفسهم خشونة المغول وكبرهم من أجل أداء الرسالة التى أنيطت بهم .

كان الراهب الأول يحمل رسالة من البابا مؤرخة بالتاسع من مارس ١٢٤٥م، وعاد فى خريف ١٢٤٧م إلى ليون أى استغرقت رحلته سنتين ونصف سنة وحمل معه جوابًا مكتوبًا من خان مغولستان كيوك خان للبابا ، والرحلة الثانية قام بها أيضًا فى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٣م وعاش مدة ثمانية شهور من يناير إلى أغسطس ١٢٥٤ فى معسكر منكوخان وعاصمته وقابله وكلمه مرات عديدة ، وترك كلا السفيرين مذكرات لسفرهما الذى يفيض بالحوادث والمشاق إلى أن ترجمتها أخيرًا جمعية هاكلويت [١] . ووضعتها تحت متناول القراء ، ورحلة الراهب الثانى أى ويليام رويروك على وجه الخصوص بقيمة كبيرة وإفادة عظيمة .

وقام هذان السفيران برسم صور واضحة للبلاط المغولى ، وذكروا الحكايات عن رسومهم وعاداتهم والتحف والهدايا العظيمة التى كان السفراء والرسل المتعددون للملوك الأجانب أو البلاد العربية يقدمونها لبلاط الخان المغولى كذلك عن إفراطهم فى الطعام والخمر ، وكان هذا أمرًا مألوفًا عندهم (وكما سنرى فقد اتصف بلاط تيمور أيضًا بالصفة نفسها بعد هذا بمائة وخمسين عامًا)، كما ذكروا ازدحام سفراء البلاد المختلفة التيجان منها فضلاً عن البلاد الآسيوية بلاد روسيا والكرج والمجر والروتن [٢]، بل والفرنسيين أيضًا .

وعاش بعضهم بين المغول عشرة أعوام أو عشرين بل ثلاثين عامًا، وتعلم لغتهم وكان مستعدًا ومياﻻً لاطلاع هؤلاء السفراء والرسل على كافة الأمور ، ولأن يكونوا مترجمين لهم أو «دلامجة» [٣] ، كانت قضية اللغة بالنحو الذى يفهم من إجاباتهم للبابا

(١) Haklugy society السلسلة الثالثة – المجلد الرابع ، طبع لندن ١٩٠٠م .

(٢) الروتن : اسم شعب من العنصر السلافى سكن فى الحدود الجاليشية والثوانية والمجرية .

(٣) دلامجة : جمع ديلماج ، وهذه الكلمة من أصل تركى ومغولى ، والكلمة الألمانية Dolmetsch بمعنى المترجم وأشار ليون كاهون Léon Cahun فى كتابه (مقدمة تاريخ آسيا) أن اللفظة الألمانية السابقة اشتقت من كلمة (ديلماج) التركية أو المغولية .
وجدير بالذكر أيضًا أن كلمة (ترجمان) العربية اشتقت عن الكلمة الفارسية (ترزبان) أى الفصيح والبليغ ، راجع معجم سرورى .

إحدى المشاكل العويصة ، فقد كان المغول يسألون هل لدى البابا من يعرف الخط واللغة اللاتينية أو الإسلامية أو المغولية ؟ لكن الراهب المذكور رأى من الأفضل أن يكتب الجواب بالمغولية ثم يترجم معه الأصل والترجمة معًا إلى البابا ، وكان الخان المغولي قد طلب أن يرسل برفقة جون الراهب سفارة من قبله إلى أوربا إلا أن الراهب المذكور لم يرض بهذا المطلب لأسباب خمسة نذكر منها هذه الأسباب الثلاثة :

١ - كان يخشى أن يطلع السفراء المغول على الحروب والمشاحنات الناشبة بين المسيحيين فيتشجع المغول على مهاجمتهم .

٢ - وحتى لا يقوموا بالتجسس لحساب المغول .

٣ - ولأن الشعوب الأوربية في الأغلب يتصف أتباعها بالقسوة والعجرفة، ومن الممكن أن يطلوا بالسفراء المغول الأذى والإضرار ، وعادة المغول إذا قتل شعب رسلهم ألا يعقدوا معهم صلحًا إلا إذا اقتصوا من القتلة .

وفى النهاية عاد جون الراهب مع صحبه إلى مدينة كييف، وكان الناس فى سائر روسيا وبولندا وبوهميا ، وحينما عبر أخذوا يهنئونه ويباركون سلامته كرجل نجا من الموت .

العلاقات السياسية بين المغول وأوربا

ذكرت سيروفرد السفارة السياسية التى ترددت بين أوربا وبلاد المغول طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بشكل جدير بالثناء فى مجلدى الكتاب القديم أبل رموسات Abel-Remasat [1] : فقد ورد فى هذا الكتاب بعض النماذج من المراسلات التسع المغولية التى أرسلت إلى بلاط فرنسا عن طريق السفراء المتعددين

(١) Mémoines sur les relations de princas chrétiens et particu lérement les Rois de France avec les Empereurs Mongols.

فى أوقات مختلفة ، وطبعت كذلك هذه الكتابات نفسها ، وضم إليها فى بعض المواضع الترجمة اللاتينية أو الفرنسية لها أيضًا ، ولا يزال أصل هذه المراسلات المذكورة – والتى خط بعضها فى لفافات ورقية خاصة بطول ستة أقدام – محفوظًا فى أرشيف باريس ، ويمكن مراجعته ، ويجدر بالتدقيق كثيرًا من اللهجة التى تفيض بالعجرفة والتكبر لهذه الكتابات . كما توجد فى إحدى التراجم اللاتينية للرسالة التى كتبها باكونيان إلى البابا وترجمت إلى اللاتينية جملة تهديد وتوعيد خاصة يشير إليها المؤرخ الإيرانى الجوينى أيضًا (١) .

ويذكر الجوينى أن ملوك المغول على خلاف بقية الملوك والفاتحين لم يستعملوا قط ألفاظ التهديد الشديدة : فكانوا إذا دعوا العدو إلى التسليم والطاعة لهم كانوا يلتفون بهذه الجملة فى أقصى تهديدهم (إذا لم تطع وتنقد فإننا نعلم ما يعلمه الله القديم) (٢) ، وإذا ما حدثت مقاومة فى وجه المغول أو إذا لم تحدث فما كان يقع – بلا شك – قد كان معلومًا للكافة وهو (حيثما كان ملك أو والٍ أو حاكم مدينة قد ظهر على خلاف لنا أنه ومعه أهله وبطانته وأقاربه يحل بهم الفناء إلى حد أنه لا يظل حيًا غير مائة من مائة ألف إنسان بلا مبالغة ، ومصداق هذا الادعاء ما وقع للمدن من أهوال أثبتناها فى مواضعها) (٣) .

(١) Si vultis super terram vestram aquam et patrimoium seder, oportet ut, tu Papa, in proprâ personâ ad nos venias, at eum qui faciem totius terrae continet accidas, Et si tu praeceptum Dei stabile et lilus qui faciem totius terrae continet non audieris, ilnd nos nescimus Deus scit"

راجع صفحة ٤٢١ – المجلد الثانى للكتاب :

"Memoires de l'Academie Royale des inscriptios et Belles-lettres"

طبعة ١٨٢١ – ١٨٢٢م .

وترجمة هذه العبارة اللاتينية (حين تريد أن تكون صاحب برك وبحرك وبلادك فعليك أيها البابا أن تقدم بشخصك إلين وتنقاد إلى من يتملك البسيطة ، وإذا لم تسمع الإعلام الإلهى وإلى من جعل الله سائر الأرض تحت تصرفه ، فإن الله هو الذى يعلم ونحن لا نعلم «ماذا سيقع») .

(٢) جهانجشا طبعة جيب – المجلد الأول ، ص ١٨ .

(٣) جهانجشا طبعة جيب – المجلد الأول ، ص ١٧ .

سفراء المغول فى بلاد إدوارد الثانى فى مدينة نارتمبتون فى عام ١٣٠٧م

لا نعلم هل يوجد بين الوثائق التاريخية الإنجليزية مثل هذه المراسلات والمكتوبات؟ لكن المسلم به أن فى عام ١٣٠٧م أى بعد وفاة إدوارد الأول بقليل أن رسولين – ذكرا أن اسمهما هما مملاخ Mam Lakh وتومان [١] Tuimán – أحضرا رسائل لإدوارد الثانى باللغة اللاتينية فى ١٦ أكتوبر ١٣٠٧م وعادا بها، وقد كان الهدف الأساسى من إيفاد هؤلاء السفراء فى هذه المرة والمرات السابقة جميعًا هو إقامة اتحاد وحلف بين المغول ودول أوربا ؛ لكى يهاجم الحليفان معًا المسلمين وخاصة ملوك مصر .

ولتحصيل هذا المقصد فقد كان المغول الماكرون يظهرون أنفسهم على أنهم مستعدون لقبول المسيحية ، وكانت هذه الحيلة بليغة التأثير السريع ؛ لأن فى هذا الوقت راجت عقيدة فى أوربا أنه يوجد فى أواسط آسيا الوسط أو آسيا الشرقية أمبراطور مسيحى كبير اسمه (برستوجون Prester John) ، ويمكن الظن بأن هذا الأمبراطور الوهى هو أونك خان نفسه ملك قبيلة الكرائيت [٢] ذوى القرابة إلى المغول [٣] ، وكان لجنكيزخان علاقات قريبة بهم فى أول أمره، وقد حولهم المبشرون المناظرة إلى المسيحية ، لكن حقيقة الأمر أن المذهب الرسمى لمغول إيران كان الإسلام قبل أن يصل السفراء المذكورون إلى بلاط إدوارد الثانى بعشر سنوات على الأقل .

(١) ذكر فى مواضع أخرى أن اسمه هو توماس إيلداكى Thomes Illdaci أو أيولدتشى Iuldoutchi

(٢) Karits أو Kerà'ts

(٣) وضح أبو الفرج ابن الجرى هذا المعنى فى قوله (وفيها وهى سنة ألف وخمسمائة وأربع عشرة ... كان ابتداء دولة المغول ، وذلك أن فى هذا الزمان كان المستولى على قبائل الترك المشارقة أونك خان ، وهو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التى يقال لها كريت ، وهى طائفة تدين بدين النصرانية ... إلى آخره) ، وأونك يا أونك خان تحرف إلى يوخنان فيما بعد ثم إلى يوحنا .

المصادر الكثيرة والمعتبرة لتاريخ المغول

المصادر التاريخية لعصر المغول كاملة وكثيرة بين مؤرخى الشرق بالمصادفة وتشمل :

أولاً : كتاب الحوليات الكبير لابن الأثير الذى يمتد إلى عام ٦٢٨هـ أو ١٢٣١م .

وثانيًا : كتاب شهاب الدين النسوى الذى ألفه فى السيرة الكاملة لسيده جلال الدين متكبرنى الأمير المحارب الخوارزمى، وشرح حروبه وصراعه الشجاع مع الذى أزال أسرته وحكمه وهو جنكيزخان .

ثالثًا : تاريخ أبى الفرج بن العبرى الذى ألف تاريخه بالعربية إلى عام ٦٨٤هـ / ١٣٨٤م أى قبل وفاة هذا المؤلف النصرانى بعامين ، (وله تاريخ آخر بالسريانية أيضًا) .

رابعًا : ياقوت الجغرافى المعروف الذى ذكرناه فى الجزء السابق ، ونقلنا عنه بعض ما ذكر .

وسوف نبحث بالتفصيل فى الفصل الثانى لهذا الكتاب المصادر الفارسية لتاريخ هذا العصر وهى تاريخ جهانجشا أو (فاتح العالم) للجوينى وتاريخ وصاف وجامع التواريخ ، لكن – مع شديد الأسف – لا يزال جامع التواريخ – وهو أفضلها أو أكثرها تفصيلاً وقيمة حتى اليوم – غير مطبوع أغلبه ، وليس فى متناول اليد .

المؤرخون الغربيون لعصر المغول

لابد من ذكر بضع كلمات عن الكتب الثلاثة المشهورة كثيرًا الغربية التى أُلِّفَتْ لعصر المغول ، ويتميز كل منها بنحو خاص ، وأولها كتاب التاريخ الجدير بالثناء لبارون دوسون Barond, Ohssan وعنوانه (تاريخ المغول من جنيكيز إلى تيمور Histoire des Mongols, depuis Tchinguiz khan Jis qu' à Tim aur Bey, ou Tamerlan) ، وهذا الكتاب أثر قيم ويتضح من أسلوبه ومعلوماته أنه أسس على الدراسة العميقة .

وكأى دارس للمغول وله أحكام صائبة ، فقد حكم هذا المؤرخ حكمًا دقيقًا على الأهمية العظيمة والنتائج البعيدة للهجوم المغولى وعدّ المغول شعبًا مكروهًا مشنوءًا فى قوله : (كان حكم المغول عبارة عن انتصار للفساد ؛ لأن أكثر الناس فسادًا هم الذين كانوا يقبلون خدمة هؤلاء السادة المتوحشين السفاكين ويحصلون العزة والدولة والقوة إزاء قسوتهم وكرههم وظلمهم لأبناء وطنهم ؛ ولهذا فإن تاريخ المغول مع أنه موسوم بقبائح الأعمال الوحشية ويوضح مشاهد كثيرة الهلع إلا أنه يرتبط بالكامل بكثير من الأمبراطوريات بما يلزم الاطلاع الكامل على الحوادث العظيمة للقرن الثالث عشر والرابع عشر) [١] .

تاريخ السير هنرى هوارث

وكتاب التاريخ المغربى الثانى من حيث الترتيب الزمنى من تأليف السير هنرى هوارث الذى رتبه فى أربعة مجلدات ضخمة باسم (تاريخ المغول History of Mangois) ويختلف فى الرأى دوسون بشأن المغول ؛ لأنه عد هذا الشعب مقاسيًا للمشاق والمصاعب ولد فى مهد الاحتياجات والشدائد وامتزج دمه واعتجن بالدم كأنهم خلقوا لأجل هذا الزمان ؛ لكى يهاجموا من حين آخر الشعوب الثرية والماجنة ويفنوها ويدفنوا صنائعها وثقافاتها – التى نشأت فى حصن الغنى ومحيط الراحة والدعة – فى أرضهم وثرتهم ويبدلوا جنة السعادة البشرية التى نتجت بالمشقة والتعب إلى صحراء جرداء كان المغول كالطاعون أو القحط أو آلة ووسيلة للفناء ، وإزالة المجتمع البشرى ، وحكاية أفعالهم مع أنها بسائرها مؤلمة ومحزنة قد يتعين علينا قراءتها لمعرفة المسيرة العظيمة لرقى الإنسانية [٢] .

(١) راجع تاريخ المغول تأليف دوسون – المجلد الأول .

(٢) راجع تاريخ المغول للسير هنرى هوارث Sir Henry Hoqorth ، الجزء الأول ص X – طبعة ١٨٨٨م .

ويذكر هذا المؤلف أسماء شعوب عديدة كانت تعيش جميعًا تحت ظلال حضارة متعالية ، لكنها ممتزجة بالمجون ولذائذ الحياة ؛ ولأجل هذا انهارت حضارتهم ودخلت فى قالب جديد ، يقول : (إن مصير الشعوب التى انغلبت أمام سيوف المغول كان على الوتيرة نفسها إلى حد ما ، كانت عزتهم ومجدهم جميعًا ظاهريًا وخاويًا ، وكانت عظمتهم غالبًا صورية وبلا أساس ، كانت أجسادهم المريضة بحاجة إلى الدواء العاجل ، وكان الغثيان والصرع المسيطر على مجتمعاتهم لا يقبلان علاجًا غير الفصد وإسالة الدم الكثير ، كان من الضرورى أن تنقلب مدنهم رأسًا على عقب وحيل محلها صحراء ، وتحقق عروق سكانها بدم جديد وظاهر لشعب صحراوى) [١] .

ويشـــرح هذا المــؤلف بحكم دقيــق كيــف امتزجت الشعــوب فى شرق العالم وغـربــه أحـدها بالآخـر ، وكان يفصل بينها آلاف الفراسخ واقترب بعضها إلى الآخر نتيجــة لهجـوم المغـول وفتوحــاتهم ، ثم يستنتج فى النهاية قائلاً : لا يخالطنى شك قط فى أن فن الطباعة واختراع البوصلة والأسلحة النارية وقدرًا كبيرًا من تفضيلات الحيـاة الاجتماعيــة لم تكتشــف فى أوربـا بــل انتقـل جميع ذلك إليها تحت تأثير المغول ونفوذهم) .

تاريخ ليون كاهون

الكتاب الثالث الجدير بالملاحظ فى هذا الموضوع خاصة من ناحية نفوذه وتأثيره فى تركيا وظهور ينى توارن Yene Turan أو حركة القومية الطورانية ، ومع أنه لا يمكن الثناء عليه من الناحية السياسية ، هو كتاب التاريخ نفسه تأليف المسيو ليون كاهون Léon Cahun المسمى بـ (مقدمة لتاريخ آسيا تاريخ الترك والمغول من البداية إلى عام ١٤٠٥م)

(gntroduct ion à L Histoire de L Asie : Tvrcset Mongols. des Origeines à 1405)

طبعة باريس ١٨٩٦م .

(١) المصدر السابق ص ١١ .

زاد هذا المؤلف عن سابقه : إذ إنه يعد المغول وسائر طوائف الترك التى شكلت القوام ذا الهيئة لكل من أتباعها جديرين بالثناء والمدح أكثر من هوارث ، ويديم امتداح صفاتهم الحربية وتعصبهم لتركيبتهم وانحيازهم لعنصريهم [١] ويثنى على وحدتهم السياسية إزاء حكم الساسانيين الإيرانيين وضد النفوذ الإسلامى من بعدهم الدينى ، وكان مركزه إيران ، يمجد جرأتهم وبسالتهم وانتظامهم وحسن ضيافتهم وقلة تعصبهم الدينى وتشكيلاتهم المحكمة ، وهذا الكتاب مع تفرق موضوعاته وبساطتها ، لكنه يتصف بالدقة ، ويجدر بالدراسة من كل ناحية خاصة من ناحية تأثيره فى بعض المحافل القومية التركية فى تركيا بما يشبه الأسطورة التاريخية المتصلة بالمغول من تأليف المؤلف نفسه ، والتى ترجمت إلى الإنجليزية أيضًا وعنونت «بالراية الزرقاء» Blue Banner .

حركة ينى طوران أو طوران الفتاة

ذكرنا اختصارًا فى موضع آخر ما يتصل بظهور الشعور الجديد للعصبية التركية المسماة بطوران الفتاة [٢] ، ولا يناسب المقام شرح هذا الموضوع وتفصيله مع أن الدائرة اللغوية ويراهن هذه الحركة قد اتسعت الآن عن السابق ، فمن الناحية الأدبية كان هدف هذه الحركة تفضيل الألفاظ التركية على نظائرها العربية والفارسية ، وكذلك مقاومة التأثير العربى والفارسى فى البلاد التركية اللغة ، ومن الناحية السياسية فإنها تهدف إلى تأسيس دولة تركية العنصر مخلوطة ومركبة من شعوب مختلفة تركية فى أطراف بحر الخزر من منغوليا إلى بلاد البلغار ، بمعنى تأسيس حكم عظيم طورانى تمتد حدوده امتداد أمبراطورية جنكيزخان ، كانت آراء هذه المدرسة الثرية وعقائدها

(١) ص ٧٩ من "Culte du drapeau, la glorification du/nom-Turc puis Mongol, le chevinisme"

(٢) راجع كتاب براون فيما يتصل بالصحافة والشعر الحديث الإيرانى ص XXXIX ، كما طبع أرنولد توينبى مقالة له فى مجلة التايمز بتاريخ الثالث حتى السابع من يناير ١٩١٨م فى الموضوع نفسه .

تنشر فيما سبق فى مجلة خاصة تسمى (ترك يردو) أو (مقر الترك) ، وأسست فى ديسمبر ١٩١١م [١] .

حالة إيران فى عصر المغول

لا نود فى هذا الكتاب الحديث بصورة كلية عن الحكم المغولى ، وليس من ضرورة لكى نذكر كافة التفصيلات المتعلقة بتاريخ إيلخانات المغول بعد هولاكو بالصورة التى شرحها دوسوف وهوارث فى تاريخهما ؛ لأن موضوع بحثنا هو إيران فى عهد حكم المغول ، فبينما تمزقت أراضى إيران بوحشية المغول إلا أن أدبًا مثيرًا للحيرة وعظيمًا ظهر عن الإيرانيين فى تلك المدة نفسها بما يبدو عجيبًا وغريبًا كثيرًا .

السلامة النسبية لجنوب إيران

وبوجه عام ، فيجب أن نذكر أن جنوب إيران الذى وقع على حاشية الطرف الغربى لخط سير الهجمات المغولية قل عن البلاد الواقعة فى شمال إيران ووسطها وغربها فى الخسارة والضرر ، فقد ابتليت أصفهان بالمجازر والمذابح العامة التى راح ضحيتها أحد الشعراء [٢] . لكن شيراز لم يصبها ضرر بسبب القرار العاقل والحكيم لأتابكها

(١) قوى إحساس تصفية اللغة التركية من الألفاظ والكلمات الفارسية والعربية بعد الحرب العالمية الأولى وتأسيس الجمهورية التركية تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك أكثر مما سبق ، وظهرت نظرية «لغة الشمس» التى فضلت اللغة التركية على سائر اللغات وأرجعت غالب كبار العلم والحكمة والأدب ومشاهيرها الذين ظهروا فى خلال القرون السابقة فى بلاد إيران وما وراء النهر وأفغانستان والعراق وغيرها إلى العنصر التركى ، وبعد تبديل الأبجدية العربية إلى اللاتينية فى عام ١٩٢٨م أمرت هيئة اسمها (ديل كورومو) بتغيير الألفاظ العربية والفارسية إلى نظائرها التركية ؛ فقامت بتغييرات عجيبة فى تلك اللغة .

(٢) راجع تاريخ الأدب فى إيران ، تأليف براون – المجلد الثانى ، ص ٥٤١ .

ولأجل هذا السبب يشير السعدى بلطف قريحته فى مدحه للأتابك فى مقدمة كتابه (بوستان) إلى هذه المأثرة بقوله [١] :

إن الإسكندر ضيق الخناق على يأجوج بسد يحجبهم عن العالم من النحاس والحجر

لكن بنيت سداً من الذهب على يأجوج الكفر لا من النحاس مثل سد الإسكندر

ويقصد الشاعر فى هذين البيتين بيأجوج الكفر جنكيزخان الذى صالحه الأتابك سعد حاكم شيراز وأعطاه خراجًا وأنقذ أرواح مسلمى هذا البلد من إضراره ، وهنا الشيخ سعدى يفضله على الإسكندر ؛ لأن الإسكندر بنى سداً أمام هجوم يأجوج بمانع نحاسى ، لكن الأتابك سد على حملة يأجوج الكفر بالذهب ، وقبل أن ينشئ العدى ما سبق بخمس وعشرين سنة وجد شمس الدين محمد بن قيس الرازى ؛ الذى كان قد فرض أمام أول هجمات المغول شيراز مأمنًا مرامًا فوقف بها على إكمال ما نقص من تأليفه فى موضوع علم الشعر والعروض الفارسية باطمئنان ، وهذا يدل على أن الحياة فى شيراز فى تلك الأيام العصيبة التى تزفر بالمصائب كانت هادئة إلى حد ما ، وقلما أصابها الاختلال [٢] .

سبب أن بعض فروع العلم لم يصبها ضعف عظيم

النقطة الأخرى التى يتوجب ملاحظتها ، هى أنه على الرغم من أن الفضلاء وطلاب العلوم وهدم المدارس ، والمساجد ، والمكتبات ، وسائر المؤسسات الدينية وبوجه عام جميع شعب العلوم والأدب بسبب المذابح ابتلوا جميعًا بالجمود والاختلال والتبديد

(١) راجع بوستان السعدى – المقدمة فى مدح أبى بكر سعد بن زنكى ، تاريخ تأليف البوستان هو ٦٥٥هـ الموافق لعام ١٢٥٧م ، لكن التاريخ كتب سهوًا فى الأصل ٦٦٥هـ .

(٢) راجع المقدمة الفارسية لمحمد قزوينى على كتاب «المعجم فى معايير أشعار العجم» (وهذا الكتاب طبع مرة ثانية بسعى وتصحيح الأستاذ الفاضل مدرس رضوى فى ١٣١٤هـ ش فى طهران فى طبعة تميزت عن طبعة بيروت عام ١٩٠٩م) .

إلا أن الأضرار الوثنيون بالطبع كثيراً بالفلسفة والحكمة الإلهية ، لكنهم كانوا يبذلون اهتماماً زائداً بالطب والعقاقير والنجوم وسائر العلوم الطبيعية ، وكانوا يميلون خاصة إلى إثبات أعمالهم بأقلام المؤرخين الحاذقين بصورة كامل وصحيحة على صفحات التاريخ ، كما أنهم اعتنوا أيضاً بمدائح الشعراء لهم وعلى نحو ما شرحنا هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الكتاب فإنه لم يظهر من المؤرخين المتميزين فى اللغة الفارسية بقدر ما شهر فى هذا العصر ، لكن لا ينبغى أن نغفل أن واضعى التواريخ العامة كانوا ممن تعلموا ودرسوا فى الفترات السابقة لظهور المغول التى تفيض بالفضل والعلم ؛ ولذلك لم يؤلف ويدون كتب فى مثل رفعة درجتها بعد آثارهم التاريخية مثل تاريخ جهابخشا للجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله ، وغيرهما من النسخ النادرة .

(وتاريخ جزيدة) أو التاريخ المختار مع أنه يفضل تواريخ مثل تاريخ ميرخوند وخوندمير إلا أنه لم يصل إلى مقام جامع التواريخ ، وسوف نبحثها فى آخر هذا الكتاب .

والخلاصة ، يمكن القول بجرأة إنه فى هذا العصر من الأزمة المفجعة التى عاشت إيران فيها أيام تغطى بالمشاق حين سيطر الملوك الوثنيون على بلاد الإسلام ونصبوا الوزراء اليهود والنصارى رؤساء على المسلمين أى فى عهد السيطرة المغولية من تاريخ موت هولاكوخان (٨ فبراير ١٢٦٥م) من موت آخر موسى آخر إيلخان مغولى (١٣٣٧م) كانت إيران غنية بالآثار العلمية والأدبية وثرية بها .

وقبل أن ندخل فى بحث تفضيلات التاريخ الأدبى هذا العصر نشير باختصار إلى التاريخ الخارجى لهذا العصر الذى ينشطر بسبب سلطنة (غازان) إلى عهدين متساويين تقريباً ، ومع أن هذا الملك لم يكن أول سلطان مغولى اعتنق الإسلام ، لكنه كان أول سلطان أعاد هذا الدين الحنيف إلى عظمته وجلاله الأول وزكى البلاد وصفاها من وثنية المغول .

أباقاخان ٦٦٣ - ٦٨٢هـ / ١٢٦٥ - ١٢٨٢م

أباقاخان : أول خليفة لهولاكو خان ، هو ابنه أباقا أو أباقاخان الذى توج فى ساعة سعد من يوم ١٩ يونيو ١٢٦٥م اختارها له نصير الدين الطوسى الفيلسوف والمنجم المعروف فى هذا العصر ، والذى بحثنا فى المجلد السابق شرحًا لمعارف اللامعة ونجاحه السياسى المبهم.

أواخر أيام نصير الدين ووفاته

فى هذا التاريخ كانت أيام عمر هذا العالم متجهة إلى نهايتها ولا نسمع عنه خبراً إلا أنه نقل عنه بعد هذا التاريخ بخمس سنوات أى فى ٦٦٩هـ ١٢٧٠م تفصيل معالجة أباقا خان ؛ إذ إن هذا الإيلخان المغولى أصابه قرن ثور وحشى فى المصطاد بجرح ، وتورم الجرح وظهر دمله ، ولم يجرؤ أحد من أطباء البلاط على فتح هذا الدمل ، حتى فتحه نصير الدين وشفى الخان ، ثم وافته المنية بعد ذلك بعام واحد عن عمر بلغ الخامسة والسبعين ، ويشير إليه ابن العبرى فى كتابه مختصر الدول إشارة مقرونة بالثناء ، ويصفه بأنه صاحب مرصد مراغة وصاحب الفضائل والعالم بجميع أنواع الحكمة ، ويقول إن جميع الأوقاف فى البلاد التى فتحها المغول كانت تحت نظره وله مؤلفات كثيرة فى : المنطق ، والعلوم الطبيعية ، وعلم الكلام ، والحكمة الإلهية ، وإقليدس والمجسطى ، كما أن له مؤلفًا بالفارسية فى علم الأخلاق (يقصد كتابه المعروف أخلاق ناصرى) جمع فيه آراء أفلاطون وأرسطو فى الحكمة العملية فى غاية الحسن ، وشرح فيه آراء المتقدمين ورد شبهات المتأخرين [١] .

(١) نصّ ما ذكره ابن العبرى : «وفى هذا التاريخ توفى خواجه نصير الدين الطوسى الفيلسوف صاحب المرصد بمدينة مراغة ، حكيم عظيم الشأن فى جميع فنون الحكمة ، واجتمع إليه فى الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين ، وكان تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى تحت حكم المغول ، وله تصانيف كثيرة منطقيات ، وطبيعيات ألهيات وأقليدس ومجسطى ، وله كتاب أخلاق فارسى فى غاية ما يكون من الحسن ، جمع فيه نصوص أفلاطون وأرسطو فى الحكمة العملية ، وكان يقوى آراء المتقدمين ويحل الشكوك عن المتأخرين والمؤاخذات التى قد أوردت فى مصنفاتهم" مختصر الدول ، طبع بيروت ص ٥٠٦ .

محبة أباقاخان للنصارى

كان أباقاخان فى الواحد والثلاثين حين رقى عرش إيران ، والمعروف أنه اغتسل غسل التعميد واعتنق المسيحية بموجب ميل زوجته دسبينا Despina ابنة ميخائيل بليولوجوس (١) ، وإذا كان الشك يخالجنا فى صحة هذه الرواية إلا أننا لا يمكن الشك فى أن هذا الإيلخان كان يؤثر النصارى ، وكان يعد فى الحقيقة وصوله إلى عرض السلطة من آثار نفوذهم ؛ لأنهم كانوا يحققون مقاصدهم عن طريق زوجة أبيه دقوز خاتون . ظلت هذه المرأة على قيد الحياة حتى بعد وفاة زوجها هولاكو بعام ، وكان لأتاكو جهداً فى مساعدة أبناء دينها بكل طريقة كانت بوسعها (٢) ، ومع ذلك فلابد من نسبة علاقات أباقاخان بالبابا والملوك النصارى الأوربين على كل وجه للاحتمال إلى العوامل والأسباب السياسية ، وليس إلى العوامل الدينية .

تراسل هذا الخان مع كلمات الرابع Clement TV ووصلت الرسالة التى حررت فى فيتربو Vil Terbo فى عام ١٢٦٧م ، كما كانت له مكاتبات مع جريجورى العاشر GregoryX فى عام ١٢٧٤م ، ومع نيكولا الثالث Nicocas ؛ الذى أرسل إليه وإلى بلاط الخان الذى سبقه قبلاى خان الكبير سفارة مكونة من خمسة من الرهبان الفرنسيكان ، وزار أحد سفراء أباقا أغلب بلاد أوربا ، وتوجه حتى إلى بريطانيا واستقبله ملك الإنجليز إدوارد الأول فى بلاطه (٣) ، وكان المقصود والهدف السياسى من وراء هذه العلاقات هو عقد

(١) Michael Palaeologus راجع تاريخ هوارث ، ص ٢٢٣ .

(٢) راجع تاريخ هوارث ص ٢١٨ كانت هذه المرأة تنتسب إلى القبيلة المغولية المسيحية المسماة بالكرايت Kerait وهى حفيدة زعيم هذه القبيلة المسمى أونج خان الذى أطلقت عليه أساطير القرون الوسطى برسترجون Prestetohm ، وقد أثنى عليها ابن العبرى فى ذكره وخاصتها ص ٤٩٧ بقوله (وكانت أيضاً عظيمة فى رأيها وخبرتها) .

(٣) راجع تاريخ هوارث ص ٢٧٨ وكذلك :
Memoires sur les relation politiques des princes chretiens avac les Enpreurs Mangols. تأليف ابل رموسات Abel Remusat
فى مجموعة : Memoires de l'Academie royale des Jnscriptions et Belles lettres. Vol VI, VII ص ٣٩٦ ، ٣٣٥ .

حلف ضد الحكومة الإسلامية فى مصر والشام التى لم تتغلب لأحد من هذين الطرفين وإصابة هذه الحكومة ، وكان عدوًا لدودًا للمغول بالهزيمة باتفاق المغول والنصارى ، وكان الصليبيون يجاهدون ويحاولون الاستيلاء عليها لسنوات طوال ، ومن حسن حظ المسلمين فى ذاك الوقت من تاريخ مصر والشام أن السلطان الشجاع والمقاتل المسمى بالسلطان بيبرس والملقب بالظاهر كان يقاوم بكل شجاعة هذين العدوين اللذين شكلا خطرًا كبيرًا على مصيره ومصير بلاده .

هذا السلطان نفسه قبل أن ينتخب للسلطة فى عام ١٢٦٠م قابل جيش هولاكو وطرده من مدينة غزة ، وأوقع بالمغول فى عين جالوت هزيمة فادحة كما حطم قوى الصليبيين فى سورية وهزم الفدائيين الإسلماعيليين ؛ الذى كان لهم شعبة أيضًا فى الشام ، وفى شهر أبريل ١٢٧٧م أنزل فى الأبلستين بالمغول هزيمة نكراد أخرى ؛ إذ سقط ما يقرب من سبعة آلاف مغول صرعى فى ميدان الوغى (١) ، ولما قدم أباقاخان إلى ميدان الحرب وشاهد جثث القتلى المغول انخرط فى البكاء .

ونتيجة لذلك العداء والخصومة الشديدة ما بين إيلخانات المغول والسلاطين المماليك لمصر طوال عهد حكمهما إلى حد أنه لم يكن أخطر وأرهب فى سائر بلاد الحكومة للمغول من أن يتهم أحد الناس بأن له علاقة سرية بسلاطين مصر ، بل إن الرعايا المسلمين فى البلاد المغولية كان عليهم التصرف بكثير من الحزم والاحتياط ولا يصدر عنهم ما يوردهم مورد سوء الظن ، وسوف نذكر فيما بعد كيف أن هذه الحرية كانت مستخدمة فى ذلك العصر لإزالة المنافسين والأعداء وإفنائهم حين كان يلحق بهم أمام الإيلخان تهمة إقامة علاقات خفية بالمصريين .

(١) راجع تاريخ الأدب فى إيران تأليف براون المجلد الثانى ص ٤٤٦ ، وكذلك تاريخ مصر تأليف لين بول S. Kane Poole وهوارث ص ٢٥٧ .

الأسرة الجوينية

بسبب دراستنا الواقعية ؛ فإننا لا نهتم كثيراً فى هذا الكتاب بالسلاطين المغول ، بل إن أغلب اهتمامنا منصب على الوزراء والكتاب الإيرانيين الذين كان المغول بدون وجودهم عاجزين عن القيام بتبعية ترتيب أمور البلاد (بالضبط مثل العرب فى عهودهم الأولى) ونصادف فى هذه الطائفة أشخاصاً تمتعوا بالفهم المحيط والقرائح المتميزة ، وأبرزهم - بلا شك - الأسرة الجوينية خاصة شمس الدين محمد وأخوه علاء الدين وولده بهاء الدين ، كان جدهم شمس الدين صاحب الديوان - الذى لقب أيضًا بشمس الدين ، وكان معروفًا بالعظيم أو صاحب الشعر الطويل - الوزير الأعظم أو رئيس الوزراء الملك قطب الدين خوارزم شاه ، وكان أخوه بهاء الدين مستوفى الممالك (أيوزير المالية) له ، وقد وصل شمس الدين محمد نفسه إلى منصب الصدارة العظمى لهولاكو فى عهد حكمه وظل به نحو عشرة أعوام ، واستمر فى منصبه هذا إلى عهد حكم أباقاخان ، ويحتل أخوه علاء الدين أهمية خاصة لدينا لأنه أحد أفضل المؤرخين الإيرانيين وأتى شرح فضله هذا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، علاوة على هذه السمة أنه يعد أحد الحكام العظماء : إذ ظل يحكم فى بغداد أربعة وعشرين عامًا [1] .

وكان ابنه بهاء الدين والى العراق وفارس وابنه الآخر شرف الدين هارون شاعراً ومشجعًا للشعراء [2] ، وقد قام السيد محمد القزوينى - وهو أحد أكثر الناقدين وفضلاء إيران دقة - بدراسة مشروحة ودقيقة لهذه الأسرة صاحبة القريحة أعدها بعد بحث تتبع ومدروس ومفصل وقدم بها كتاب الجوينى المعروف بجهانكشا (أى فاتح العالم وهو لقب جنكيزخان) (المجلد الأول ص ١٩ - ص ٩٢) ، ويمكن للقارئ أن يراجعه

(١) عين هولاكو علاء الدين عطا ملك فى عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م فى حكم بغداد بعد السيطرة عليها بعام واحد ، راجع مقدمة تاريخ جهابخشا للجوينى نفسه ، المجلد الأول من سلسلة كتب جيب ص XXVIII .

(٢) ديوانه نادر ، وتوجد نسخة منه فى المتحف البريطانى تحت رقم (or. ٣٦٤٧) ، راجع ذيل فهرست ريه Reiu .

لمزيد من المعلومات الأكثر تفصيلاً وإسهاباً [1] ؛ لأنه لا يمكن نقل جميع كلامه فى هذا الكتاب نظراً لضيق المقام .

إن الأسرة الجوينية من حيث محبتهم للعلم والأدب وأيضاً من حيث علو طبعهم وكرم ذاتهم ، وثالثاً من حيث كفاءتهم الإدارية ، ثم أخيراً من حيث نهايتهم المحزنة ، تذكر سريعاً ذهن القارئ بأسرة أخرى من وزراء إيران الكبار أشبهتهم من كافة النواحى ألا وهى أسرة البرامكة الوزراء المعروفين للخليفة العباسى هارون الرشيد ، كان لآل الجوينى كآل برمك نفوذ عظيم وقوة كبيرة ، وبسبب أنهم كانوا هم أنفسهم أدباء فصحاء ويعنون بالشعراء وأهل الفضل ويؤيدونهم كأنهم لهم دخل عظيم بعالم الأدب ، وفى النهاية كان نصيبهم كبالبرامكة أن تحولت حياتهم إلى مرار ومآل أمرهم إلى انهدام وانقراض مساويين تماماً للعظمة والاقتدار اللذين كانا لهما فى البداية بسبب حسد منافسيهم الذى ولوا على أدبارهم أمامهم أولاً ، وبسبب مؤامراتهم ودسائسهم الحاقدة .

موت بهاء الدين الجوينى وأخلاقه

أول رجل من المذكورين آنفاً مات موتة طبيعية هو بهاء الدين ابن صاحب الديوان الذى كان حاكماً للعراق وفارس ، وفاته فى عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م وهو فى سن الثلاثين ، كان أحد الحكام الحازمين الجادين بشكل شديد بحيث كان يهابه ويخشى سطوته الرعايا وبلغ بطشه وقسوته أن أمر بقتل طفل صغير له بتهمة أنه لعب بلحية أبيه وأودعه للجلاد رغم حبه الشديد له ، ويروى صاحب تاريخ وصاف حكايات أخرى عن قسوته وجبروته انتخب بعضها وذكره هوارث فى كتابه تاريخ المغول History af mangols . لكن لابد من إضافة هذا الأمر أيضاً ؛ وهو أن هذه الهيبة كانت موجودة

(١) الصفحات التى أشار براو هى الترجمة الإنجليزية للمقدمة التى قام هو نفسه بترجمتها من الأصل الفارسى مع تغيير بسيط للتلخيص ، أما أصل الترجمة ومعه الحواشى المفيدة فيقع بأول كتاب تاريخ جهانگشا المجلد الأول طبعة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) من ص (ب) حتى ص (نكح) .

بأقصى درجاتها تحت حكمه القوى فى الولايات التى كان يديرها ، وفى الوقت نفسه كان يشجع بحماس تام ومفرط جماعة الشعراء والفضلاء والصناع ، أنشد أبوه شمس الدين صاحب الديوان هذا الرباعى فى رثائه .

ابـنـى مـحـمـد ، يأمن انصاع لك الفلك

ولا يساوى سوق الزمان فيك شعرة

كنت ظهر أبيك فتقوس ظهر أبيك

كحاجب الحسان لما غابت طلعتك

ونظم هندوشاه الشعر التالى فى تاريخ وفاته :

ولما كانت ليلة السبت السابع عشر من شهر شعبان

سنة ستمائة وثمانى وسبعين من الهجرة وفى أصفهان

رحل عن الدنيا الصاحب الأعظم بهاء الدين

الذى لم ير الزمان مثله فى إدارة البلدان

وكانت هذه أول مصيبة حلت بالأسرة الجوينية [١] .

مصائب الأسرة الجوينية

وقد جرت مصائب أخرى عليهم على إثر دسائس أحد المتعلقين المتنكرين المنكرين لحقوقهم والمسمى بمجد الملك اليزدى ، وأوى طلبه للرئاسة والعلو بحياة شمس الدين صاحب الديوان وأخيه علاء الدين عطا ملك [٢] ، أرسل إليه مجد الملك – الآنف الذكر – حين كان لا يزال فى معية صاحب الديوان هذا الرباعى من نظمه :

(١) السابع عشر من شعبان ٦٧٨هـ الثالث والعشرون من ديسمبر ١٢٧٩م .

(٢) ذكر فى الأصل الإنجليزى علاء الملك عطاء ملك ، وهذا خطأ .

قلت إني أبقى خالداً وأنا في خدمتك

ولا آتي كالسرو أو أصير كالصفصاف

إن اليائس يتجرأ ويطول لسانه

فلا تعمل يا صديقي على أن أغد يائسًا

وفى النهاية وفق مجد الملك نتيجة لسعايته لدى أباقاخان فى أن يشركه الخان فى الحكم والعمل مع منافسه ورقيبه شمس الدين صاحب الديوان وخلفت هذه المشاركة فى الحكم بينهما الإزعاج والتهم الكثيرة ، ونظم مجد الملك رباعيًا آخر وأرسل به فى إحدى المرات إلى صاحب الديوان وهذا معناه :

سوف أغوص فى بحر همومك

وإما أن أغرق فيه أو أخرج منه بالجواهر

وسوف أوطد عداوتك الكثيرة القوة

وإما أن أحمر بها وجهى أو أحمر عنقى

فأرسل إليه شمس الدين هذا الرباعى جوابًا له :

بما أنه لا يجدر أن تنطلى عداوتك لى على الخان

فعليك أن تتغصص بآلام الزمان

وهذا الفعل الذى وضعت فيه قدامك

حمر به وجهك وحمر به عنقك

تعذيب عطاملك الجوينى والتشهير به

ونجح عاقبة الأمر مجد فى إساءة ظن أباقاخان بعلاء الدين عطاملك الجوينى أخى شمس الدين صاحب الديوان ، وكان نتيجة فعله أن اعتقل فى بغداد وطافوا به فى المدينة وهو يذوق أشد ألوان العذاب والمهانة وطالبوه بأموال ضخمة اتهموه بأنه سلبها من أموال الخزينة ، ولحسن الطالع أن قلب الموت الفجائى لأباقاخان بأول أبريل ١٢٨٢م ظهر المجن ونجا عطاملك ، وكان على وشك الابتلاء بمصائب أكثر شدة وتخلص من حبسه ، وفى زمان يسير وقع منافسه وخصيمه مجد الملك فى معرض غضب العامة وكرههم فثار عليه الخلق وقطعوه إربًا إربًا وأرسلوا كل عضو من أعضائه إلى بلد من بلاد إيران الكبيرة ليعتبر بها الناظرون ، ونظم عطاملك بمناسبة هذا العقاب الذى استحقه عدوه اللدود والقديم هذا الرباعى :

كنت أساس التزوير ليومين أو ثلاثة

ورمت المال والجاه والحظوة والتوفير

فأخذ كل من أعضائك إقليما

وصرت بجملتها فى أسبوع واحد مالكًا للأقاليم

وفاة عطاملك الجوينى فى عام ١٢٨٣م

لكن مجد عطاملك ودولته لم يدوما بعد هذه الحادثة كذلك ؛ إذ وافته المنية بعد مجد الملك بقليل فى ربيع عام ١٢٨٣م/ ٦٨١هـ .

ويتفق المؤرخون عامة على حادثة غريبة تتعلق بهلاك أباقاخان ، ويذكرون أنه أفرط فى الشراب - كما هى عادة المغول فى إحدى الضيافات - مع خاصة وشعر بالتعب آنذاك فنهض من مجلسه واتجه إلى الحدائق ، وفجأة صرخ وهو فيها قائلاً إن طائرًا أسود كبيرًا يهاجمه وأمر خادميه بإسقاطه بسهامهم فخف إليه الحراس حين سمعوا

صراخه ، لكنهم لم يجدوا أثراً لهذا الطائر ، وحين كانوا يتعقبون الطائر غش على أباقا غشية لم يفق منها وهلك [١] .

ونذكر بعض حوادث من وقائع عهد حكم أباقاخان تجدر بالذكر على سبيل الإيجاز .

تجدد أمر الفدائيين الإسماعيليين

تمكن الفدائيون الإسماعيليون من تجديد حياتهم رغم كل الضربات التى أنزلها بهم المغول وذلك فى عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م ، ونجحوا بعد هذا العام بأربع سنوات فى إعادة سيطرتهم على قلعة (الموت) تحت قيادة ولد لآخر أمير لهم وهو ركن الدين خورشاه ، إلا أن أباقا بعد مدة قصيرة استولى عليها وأزالهم تماماً .

بدأت أيضاً الحروب الأهلية ما بين الأمراء والملوك المغول من عهد سلطنة أباقاخان حتى إنه جرت حرب ضروس عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م بين يوشموت ونوجاى فى (آق سو) وكذلك فى عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م وقعت حرب بين أباقاخان وتكودارخان ولد جغتاى ، وكان أشياع تكوردار بعد ذلك يثيرون الفتن والقلاقل فى الغالب ، كما أن براق ثار على الخان فى خراسان فهزمه جيش أباقا بقيادة القائد الشجاع المسمى سبتاى Subutay وقضى على ثورته ، وأشار شاعر هذا العهد إلى هذه الواقعة فى قوله :

سوف أطأ بقدمى جيش عشقك ... كما وطأ سبتاى براقا فى الحرب

(١) يذكر أبو الفرج بن العبرى فى هذه الحادثة (أما أباقا إيلخان فإنه توجه نحو بغداد ومنها إلى همدان ، ويوم الإثنين ثانى العيد عمل له شخص فارسى اسمه بهنام دعوة عظيمة فى داره ، وليلة الثلاثاء تغير فراجه وصار يرى خيالات فى الهواء) (مختصر الدول طبع بيروت ، ص ٥٠٥) .

أحمد تكودار أو تكودار خان [1]

١٢٨٢ - ١٢٨٤م

تنافس على السلطة بعد موت أباقاخان رجلان أولهما أخوه تكودار الذى أضاف إلى اسمه الاسم الأول (أحمد) بسبب اعتناقه الإسلام ، والآخر هو ابنه أرغون ، فضل أكثر أمراء المغول الأول ورفعوه إلى السلطة ؛ وبالتالى جلس فى مايو ١٢٨٢م على العرش بلقب السلطان أحمد تكودار ، وأول ما ظهر وبدر عنه من عمل هو دخوله الإسلام ، إذ خط مراسلات إلى علماء بغداد ، وكذلك إلى قلاوون سلطان مصر ، وأظهر فيها بصراحة أنه منصرف إلى حراسة الإسلام والدفاع عنه ويود أن يعامل جميع المسلمين بالمحبة والسلام ، أرسل رسالة إلى قلاوون والمؤرخة بجمادى الأولى ٨٦١هـ / أغسطس ١٢٨٢م مع سفيرين خاصيين هما : قطب الدين الشيرازى ، والأتابك بهلوان ، وصدر جوابها السلطان قلاوون فى غرة رمضان من العام نفسه (٣ ديسمبر ١٢٨٢م) .

هزيمة تكودار وأسره وقتله

رغم سعادة المسلمين بإسلام أحمد تكودار ورضاهم من علامات إخلاصه فى عقيدته الذى كان ظاهرًا من سلوكه إلا أن المغول سخطوا عليه خلافًا لهم ؛ وبالتالى ظهرت مؤامرة فى العام التالى أى ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م ، وقد حبك هذه المؤامرة العظيمة أمراء المغول وأعيانهم ، وكان قصدهم إزالته عن العرش وتوليه ابن أخيه أرغون ، ومع أن قانورتاى وهو أحد العناصر المهمة لهذه المؤامرة لقى مصرعه ومعه عدة من المتحالفين

(١) سجل هذا الاسم نكودار أو تكودار عند الدارسون المحدثون بشكل قطع الكلمة لفظة أرمنية أصلها Tan-gudar ، راجع كتاب هوارث ، ص ٣١٠ .

معه فى ١٨ ينـايـر ١٢٨٤م إلا أن أرغـون تمـرد على عمـه ، ثم استأسره فى النهاية وقتله فى العاشر من أغسطس من العام نفسه ، وجلس فى اليوم التالى على عرش السلطنة .

أرغـون خـان ١٢٨٤ - ١٢٩١م

سلطنة أرغون خان ٦٨٣ - ٦٩٠ هـ

أول عمل قام به أرغون خان بعد وصوله أريكة السلطنة هو تنصيبه ابنه غازان خان على حكومة : خراسان ، ومازندران ، والرى ، وقم ، ووصل أمر سلطنته لإيران فى السنة التالية من طرف الخان العظيم للمغول (قوبلاى خان) من الصين عن طريق (أوردو جايا) .

قتل صاحب الديوان

مع أن كوكب خط شمس الدين محمد صاحب الديوان وأسرته ، الذى توجه مدة صوب الأفول على إثر حيل مجد الملك ودسائسه ، قد بلغ ثانية أوجه فى عهد سلطنة أحمد تكودار إلا أن بجلوس أرغون على العرش غرب نجم إقباله مرة واحدة ، فبعد موت تكودارخان فر صاحب الديوان خشية من غضب أرغون إلى قومس [(١)] ؛ حيث قبض عليه رسل أرغون وأعادوه ثم قتلوه فى نهاية الأمر فى مكان اسمه (موئينه) قرب (أهر) فى الرابع أو الخامس من شعبان ٦٨٣هـ ١٦ أكتوبر ١٢٨٤م ، وقبل أن يسلم إلى يد الجلاد استغاث وطلب لحظة أمن وتوضأ فى هذه الفرصة القصيرة وفتح متفائلاً القرآن ، ثم خط هذا الخطاب الآتى إلى علماء تبريز : (لما تفاءلت بالقرآن بانت لى هذه الآية : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا

(١) يطلق اسم قوس على الناحية الغربية من خراسان وشرق طهران وتشمل : دامغان ، وبسطام ، وسمنان ، وشاهرو ، وذكر اسم المكان الذى فر إليه الديوان هو قم أو أصفهان فى كتب تاريخية أخرى .

ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، إن البارئ تعالى لما أعز عبده فى هذه الدار الفانية ، ولم يمنع عنه مراداً لم يرد إلا أن يبشره بالدار الباقية وهو فى هذه الدنيا ولما كان الأمر هكذا صار من الواجب تبشير مولانا محيى الدين ، ومولانا شمس الدين ، ومولانا همام الدين ، ومشايخ الكبار الذين يطول ذكر كل منهم ولا يحتمل ذلك الموقف لكى يعلموا أننا قطعنا العلائق بالدنيا ونحن ماضون للآخرة ، وليمدونا أيضاً بدعاء الخير (١) .

وحرر أيضاً هذا الخطاب الشامل وداعه وشهادته إلى أولاده (٢) .

خطابه إلى أولاده

«السلام والتحية للجماعة الأعزة والأولاد حفظهم الله تعالى وليعلموا أنى أودعتهم لله عز وجل ، إن الله لا تضيع ودائعه ، جال فى خاطرى أن أوصيكم إذن عن اللقاء ، ولما لم يعد فى الدنيا يوم وسوف نغادرها إلى الآخرة ؛ فلابد إذن ألا تقصروا فى رعاية الله تعالى به ، لو اتجه ابنى أتابك ووالدته إلى الولاية فيجوز لهما هذا ، أما نوروز ومسعد ووالدتهما فلهما أن يلازموا بلقاخاتون ، إذا تعطفوا عليهم بشىء من الأملاك فليأخذوه ويقنعوا به ، وتبقى كبيرة الحريم حيثما استطاعت فليقيموا داراً فى خانقاة فخر الدين ويقيموا بها ، و (مؤمنة) بدورها مع أنها لم تر منا نعيماً فلتتزوج إن أرادت ، فرح ووالدته يكونان مع أتابك ، وليتركا زكريا ومع أملاك العشرة آلاف الشاهنشاهية والمواضع الأخرى التى أعطيتها للأمير توما ثم يقدمون التماسهم ، فإذا ترحموا عليهم

(١) تاريخ وصاف ص ١٤١ من طبعة بمباى .

(٢) ترجم معنى الخطاب براون عن (المجمل) لفصيحى خوافى ونسخته تتعلق بأوقات حبيب ، ونقلنا النص من نسخة مجمل الفصيحى الموجودة بالمكتبة الشخصية للسيد محمد نخجوانى ، ويلاحظ اختلاف بسيط فى الترجمة الإنجليزية مع هذا الأصل الفارسى ولا نعرف هل نشأ عن اختلاف بين نسختى الأصل أو بسبب عدم التزام حرفى فى الترجمة ؛ مع أن هذا الخطاب نسخ متصلاً بلا فصل بالخطاب الموجه إلى مشايخ تبريز فى النسخة الموجودة لمجمل الفصيحى .

بشيء من الأملاك فيها وإلا فليقنعوا بما معه ، فليرحمنا الله تعالى وليبارك لهم ، إن عقلي مع الله تعالى فى هذا الوقت ، ولم أستطع أن أكتب أكثر من هذا القدر ، ولتحسنوا جميعًا إلى الناس جميعًا حرهم وعبدهم ولا تنسونا فى غربتنا حين الليالى" .

ولم يقتل فى هذه الواقعة صاحب الديوان وحده بل قتل بعده بمدة قليلة أولاده الأربعة : يحيى ، وفرح الله ، ومسعود ، وأتابك ، وسلك ابن آخر له وهو هرون من بعدهم طريقه إلى دار العدم .

وحسبما يذكر صاحب تاريخ وصاف فقد ضاع أخواه وسبعة من أولاده ضحية ضراوة المغول فقد انتموا من الأدب على عادتهم المألوفة من أطفاله الصغار خشية أن يظلوا أحياء ويفكروا يومًا فى الانتقام لوالدهم ، وبالإضافة إلى قتل هؤلاء تشكل وفاة علاء الدين عطاملك الجوينى وبهاء الدين كما سبق شرحها كافة المصائب التى حلّت بالأسرة الجوينية : بحيث مُحى خلال خمسة أو ستة أعوام ذكر هذه الأسرة والوزراء الكبار تمامًا من صفحة التاريخ .

يروى فصيحى فى كتابه (المجمل) هاتين الرباعيتين عن شمس الدين وقد نظمهما فى الدقائق الأخيرة من حياته :

يا يد الأجل أخذت بقدم قلبى

رضيت من قلبى بحكمك قتلى

أهدى إليك روحى من عينى وقلبى

وكان هذا في سائر عمرى ما يهواه قلبى

أيضًا

تمعن مليا يا مصباح الروح القتيلة لكى ترى مائتى عالم قتيل

إن قتلى الدنيا خالدون خاصة من قتل على يد الكافرين

سببت واقعة قتله ما تم وحداداً وحزنًا عامين فى سائر بلاد إيران حتى فى مدن مثل شيراز التى لم يذهب إليها هذا الوزير الكبير يومًا بل شهرته وحسب أعماله الصالحة وصدقاته الجارية ، ومن بين الأشعار التى نظمت فى رثائه ننقل ما يلى :

تقطر الدم من الشفق بسبب رحيلى «الشمس»

ومزق القمر وجهه وقطعت الزهرة ضفائرها

اتشح الليل بردائه الأسود فى ذاك المأتم وتنفس

الصباح أنفاسه الباردة وشق جيبه

أيضًا

وصل إلى الرفيق الأعلى متشرفًا بالشهادة

وزير علت هامشاه على الأخلال

مجد صاحب الديوان الذى على طول ثلاثين عامًا

حفظ الدنيا من كثير من المصائب

فانظر إلى الفلك كيف آذى مثل هذه النفس

وانظر إلى الدنيا كيف لم تبق على مثل هذا الرجل

ومع هذا فقد كان بين الناس من كان يعتبر صاحب الديوان مستحقًا لما جرى له ويعده قصاصًا لما أجازه على سلفه الشيء الحظ مجد الملك ، ويظهر هذا الشعر هذا الأمر جليًا وقد ورد فى (تاريخ كزيده) أو منتخب التاريخ .

لما لقى مجد الملك بتقدير الله	الشهادة فى صحراء نوشهر
فذاق عن عمد محمد صاحب الديوان	وكان وزيراً للبلاد فى عصره
بعد سنتين وشهرين وأسبوعين	شراب القهر بدوره من الزمان
ألا فلا تَشْتَر الشر فى الدنيا	لأن فى كفيتها تزن الشراب بالسم

ولابد من ذكر هذا الأمر وهو أن نهاية حياة من قبلوا بتهور وجسارة وزارة المغول كان الهلاك والفناء عامة ، فقد قتل بعد صاحب الديوان جلال الدين السمنانى فى أغسطس ١٢٨٩م ، وهلك من بعده سعد الدولة اليهودى فى أواخر فبراير ١٢٩١م وذاق شربة الهلاك صدر الدين الخالدى وهو صدر ديوان كيخا توفى مايو ١٢٩٨م ، والأكثر فضلاً وكمالاً من الجميع وهو الخواجة رشيد الدين فضل الله الذى قتل فى يوليو ١٣١٨م .

سعد الدولة الوزير اليهودى

حكم أرغون خان إيران مدة سبعة أعوام (من أغسطس ١٢٨٤ إلى مايو ١٢٩١م) ويبرز إيفاده لسفراء عديدين إلى بلاط حكام أوربا خاصة سفارة ١٢٨٧ – ١٢٨٨م الذى خلف سيرة مفصلة لها بالسريانية أحد أفرادها واسمه رابان سوما Rabban Sawma أن سياسة أباقاخان التى تغيرت فى عهد أحمد تكودار قد تجددت فى عهد أرغون ، وفى أواخر سلطنة أرغون تولى وزارة بلاد الوزير القوى سعد الدولة اليهودى وكان طبيباً يهودياً ، وقع هذا الرجل موضع كراهية المسلمين وبعضهم بسبب ما نسب إليه من مؤامرة كثيرة الخطورة ضد الإسلام ، كان فى الأصل من أهالى (أبهر) ، ثم عمل بالطب فى بغداد بعد ذلك قدمه أحد اليهود إلى أرغون ، وبناء على ما ذكره صاحب تاريخ وصاف اكتسب ثقة الإيلخان واحترامه بطريقة أنه أرضى منهم الخان المغولى وحرصه بملء خزانته بكافة الوسائل بالأموال فوق معرفته بالمغولية والتركية [1] ، وبهذا وضع لنفسه مكانًا فى عقل الخان ، وبذل من المهارة أرغون منصب تولى الخزانة ووزارة المالية (استيفاء الممالك) ، ومن ذاك الوقت توجه مجد أبناء دينه ، وكان حتى ذاك التاريخ محاق الذلة والمسكنة ، إلى العزة والاستعلاء ، وتولوا فى ظلال قدرته المتزايدة غالب المناصب الحكومية والأمور المهمة للملك حدّ أن أحد شعراء الزمان فى بغداد نظم هذه القطعة يصف فيها ارتقاء حالهم :

(١) راجع تاريخ وصاف ، ص ٢٣٦ .

يهـــود هـذا الـزمـــان قـــد بـلـغـــوا	مـــــرتـبـــــة لا يـنـالـهــــا فـلـك
المـلـك فـــيـــهـم والمـلـك عـنـدهـم	ومـنـهـم المـســتـــشــــار والمـلـك
يا مـعـشـر الناس قـد نـصـحت لكم	تـهـــودوا قـــد تـهـــود الـفـلـك
فـانـتـظروا صـــيـحـــة الـعـذاب لـهـم	فـــعـن قـلـيـل تـراهـم هـلـكـوا

وأخذت جسارة سعد الدولة وعدواته للإسلام تزيد على الدوام مصاحبة لقدرته حتى إنه حث أرغون فطرد جميع العمال المسلمين جميعًا من كافة المناصب والوظائف العالية الحكومية العسكرية والمدنية (١) ، ولم يكتف بهذا بل فكر فى إزالة الإسلام تمامًا .

ولأجـل هـذا المقصـد وسـوس إلى أرغـون بأن مقام النبوة والرسالة قد انتقلت من العرب إلى المغول ، وأن المغول أوكل لهم الله معاقبة العصاة الضالين أتباع محمد (عليه السلام) ، كما اقترح على الإيلخان أن يحول الكعبة إلى معبد للأصنام ويلزم المسلمين بعبادة الأوثان ، وبعد ذلك أعد فى بغداد سفنًا حربية ليهاجم منها مكة وأرسل أحد اليهود واسمه خواجة نجيب الدين كحال إلى خراسان وأعطاه كشفًا بأسماء مائتى من الأعيان والأثرياء بخراسان وأمره بقتلهم ، كما أرسل كشفًا آخر بأسماء سبعة عشر رجلاً من أئمة شيراز وأكابرها للقصد نفسه إلى شمس الدولة اليهودى ، يذكر صاحب تاريخ وصاف : حكوا أن أرغون خام كان يكره القتل فى مبادئ جلوسه على عرش السلطنة حتى إنه نظر يومًا إلى كثرة ذبائح الأغنام فقال من كمال رقة قلبه إن قتل الكثير من هذا الحيوان البرىء وإهلاكه للذة بطن الآدمى يمكن أن يكون من مقتضيات القسوة ورذائل الأخلاق الذميمة ، وعلى هذا عمل وزيره ومشيره على الدوام لابد لها من إزالة أشواك الإنكار كما يفعل البستانى ، ولابد لمشارب المآرب من تصفيتها من قاذورات المخدرات وهذا ما تبضيه الكياسة والفراسة ، ولماذا لا يقدم الأتراك أنفسهم على العصيان وهم شر المعاندين وواسطة انخذال الملك والمال وداعية زوال رونق السلطة .. فغدا من وسوسة وإغوائه قل الإيلخان

(١) راجع تاريخ وصاف ، ص ٢٤٢ .

حريصاً على القتل بدون (الخطأ) [1] الذى كأنه غمزات حسان (الختن) إلى حد أنه كان يهلك مائة روح لأقل وهم أو بسبب أدنى خطأ ، ولا ريب أن مخالطة جليس السوء ومعاشرة الأشرار تقضى إلى هذه النتيجة نفسها [2] .

مرض أرغون وهلاكه

لكن أثناء ما كان نفوذ سعد الدولة وقوته وصلا إلى ذروة الكمال ، وكانت تدابيره على وشك التحقيق أصيب أرغون فى مدينة تبريز بمرض شديد ، ولما كان سعد الدولة على علم أكيد ، أنه لن يبقى ويدوم بعد السلطان فقد ركبه ألم وهم عظيم فلم يكن ينفك برهة عن معالجته أو يقصر لحظة عن أداء الخيرات والمبرات حتى إنه بذل ثلاثين ألف دينار إلى فقراء بغداد وعشرة آلاف دينار إلى مساكين شيراز ، كما أطلق سراح كثير من المجوس ، ولم يهمل دقيقة من دقائق الصدقة والعطاء ، قال بعض علماء المغول الروحانيين إن هذا المرض الطويل والمزمن الذى لحق بالإيلخان إنما تسبب عن قتله للأمراء المغول مثل قرانقاى ، وهولاجو ، وجوشكب وغيرهم ، واعتقد بعض آخر أن إحدى الزوجات قد سحرت وتشجيعه على قتل الأمراء المغول إلى القتل تكفيراً لذنبه هذا كما أوردوا (قوقجاق) ابنة أخى جو شكب المتهمة بسحر الخان ، وفى أوامر فبراير ١٢٩١م اشتدت عليه العلة إلى حد أنه لم يكن يسمح بالدخول عليه إلا لجوشى وسعد الدولة ، وفى النهاية أيس سعد الدولة من شفائه فأرسل فى الخفاء رسلاً إلى غازان لإعلامه بحلول وقت مطالبته بالعرش ولابد من وجوده من أجل السلطة بمجرد أن يتنفس أرغون آخر أنفاسه ، لكن تدابيره هذه لم تنقذه من أيدى أعدائه فأهلكوه قبل وفاة الخان بعدة أيام ووقعت هذه الحادثة فى ٩ مارس ١٢٩١م المطابق لسلخ صفر ٦٩٠هـ [3] .

(١) تورية إلى قبيلتى (الخطأ) و (الختن) التركيتين (المترجم) .

(٢) تاريخ وصاف ، ص ٢٤٢ .

(٣) راجع تاريخ هوارث ، ص ٢٤٥ .

التنكيل باليهود

كان موت سعد الدولة كأنه إشارة إلى إحلال مصيبة تعم اليهود فى سائر البلاد فنهبت أموالهم ، وصاروا طقمة للسيوف ، وقتل فى بغداد وحدها ما يزيد من مائة رجل من زعمائهم ، نظم فى شرح إفنائهم واستئصالهم الإمام زين الدين على ابن صاعد الواعظ الدمشقى القصيدة التالية على البحر نفسه الوزن للقطعة السابقة (تاريخ وصاف ص ٢٤٧) :

نحمد من دار باسمه الفلك … هذى اليهود القرود قد هلكوا

وقارن النحس (سعد دولتهم) [1] … وافتضحنا فى البلاد وانهتكوا

وشتت الله شمل ملكهم … بالحسام الصقيل قد سكبوا

كم حكموا فى البلاد ، لا حكموا … وارتكبوا الموبقات وانتهكوا

أبكاهم الله عاجلاً أسفاً … من بعد ما فى زمانهم ضحكوا

سقاهم الحتف سادة خشن … فامتلأت بالجماجم السكك

واستخلوا المال من ديارهم … والحريم الحرام قد هتكوا

يا أمة الكفر والضلال لقد … دار بكم فى حبالة الشرك

يا أخبث الطير يا بغاث لقد … صادكم فى الخميلة الشبك

فأنتم شر أمة سلفت … وأنتم شر أمة تركوا

عبدتم العجل دون خالقكم … فضل ذاك الإياب والنشك

مهذب هذبوا بقتلته … جماعة فى البلاد قد فتكوا

لما أروا رأسه يطاف به … وقد علاه الغنام والصهك

فعجل الله روح خيرهم … إلى جحيم ظلامها حلك

(١) إشارة إلى سعد الدولة .

فـفـى الـعـذاب المذاب قـد سـجنوا	وفى الحـديـد المديـد قـد سلـكـوا
فـاعـتـبـروا سـادتى بمصـرعـهـم	ثام اتـل يا ذا البـيـان كم تـركـوا [1]
طغـاجـر [2] هـدّ ركـن عـزمـهـم	ذاك الـهـمـام الحـلاحـل الملـك
أبـارهـم عـنـوة بـصـارمـه	ومـا عـلـيـه بـذلـك درك
إشـارة الـشـيـخ فـيـهـم ظـهـرت	لما رآهـم بـهـمـة فـتـكـوا
حـجـال ديـن الإلـه سـيـدنـا	ذاك الـولـى المـؤيـد المـلـك [3]
الـزاهـد الـعـابـد الخـضـوع لمن	دانـت لـه فى بحـارهـا الـسـمـك
هـجـوتـهـم ابـتـغى بـهـجـوم	حـنـان خـلـد يـزنـيـهـا الـبـرك
رغـمـا لمن قـال فى قـصـيـدتـه	« تـهـودوا قـد تـهـود الـفـلـك »

كيخاتو ١٢٩١ - ١٢٩٥ م

جلس بعـد أرغـون أخـوه كيخاتو ، وتأخرت مراسم تتويجه أربعة شهور ونصف من بعد موت أرغون أى إلى ٢٢ يوليو ١٢٩١م .

جلوس كيخاتوخان ١٢٩١ - ١٢٩٥م

فى أثناء هذه المدة مع أن طوغارجار وسائر القواد المغول عينوا الولاة بأقصى سرعة على البلاد المختلفة فالاختلال والهرج والمرج زاد على أطراف البلاد. من بين ذلك ثورة أفرواسياب من أسرة أتابكة لرستان المسماة بهزاراسب التى حكمت من أواسط

(١) إشارة إلى قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون) السورة ٤٤ ، الآية ٢٤ .

(٢) هو طوغار جار نونان .

(٣) الممدوح هو ملك الإسلام جمال الدولة والدين فى زعم براون إنه جمال الدين محمد بن سليمان النقيب المقديسى المتوفى عام ٦٩٨هـ .

القرن الثانى عشر الميلادى فى لرستان ، وفشلت ثورته ، وقد استولى أيضًا لمدة على مدينة أصفهان .

اتصاف كيخاتو بطلب التمتع والتلذذ والإسراف

كان كيخاتو أسخى أولاد هولاكو - بقول ملف حبيب السير - اختار صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى الملقب والمعروف (بصدر جهان) أو صدر الدنيا لوزارته ، وكان هذا الخان وهذا الوزير أيضًا متصفين بالإسراف والتبذير ، وخاصة أن كيخاتو كان يسلك إلى حد الإفراط التلذذ وأقسام الشهوة والمتعة ، ولهذا لم يطل الوقت حتى خوت خزانة الدولة وظهرت الحاجة والضرورة المبرمة للمال ، ففكر صدر جهان فى تدبير لإزالة الفقرة والحاجة فأشاع (التشاو) أو النقود الورقية التى كانت رائجة ومتداولة فى الصين ، وفى إيران أيضًا روجها ، وأسس لهذا المقصد مصانع لإعداد التشاو فى كافة المدن المهمة ووضع القوانين الصارمة التى جعلتهم يمتنعون وينتهون إلى أقصى الإمكان من استخدام المعادن النفسية ، وقد وصلنا الوصف المشروع لهذه الأوراق النقدية التى راجت فى ذاك العهد فى نصوص كتب التواريخ لذلك الزمان خاصة تاريخ وصاف [1] ، كانت هذه الأوراق عبارة عن قطع مربعة ومستطيلة كتب عليها بضع كلمات بالخط الخطائى ونقش بأعلاها فى الطرفين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وبأسفلها اسم كاتبها أو رسامها ، أما قيمتها - (وكانت تتراوح من نصف الدرهم إلى عشرة دنانير) فقد رقمت فى دائرة فى وسطها ، وكتب أيضًا ما معناه (سير ملك العالم فى تاريخ سنة ثلاثة وتسعين وستمائة «١٢٩٤» هذا التشاو المبارك ، وسوف يعاقب من يغيره أو يبدله ومعه زوجته وأولاده وتصادر أمواله لصالح الديوان) ، كما أرسل الأوامر إلى شيراز وسائر الولايات ذكر فيها شرح فوائد هذا المال الرائج الجديد وأورد الأسئلة والاعتراضات المفترضة عليه والإجابة لها ، وأظهر أن :

(١) تاريخ وصاف ، ص ٢٧٢ طبعة بمباى .

أن التشاو لو راح فى الدنيا   فإن رونق الملك سوف يخلد

وسوف يزول الفقر والفاقة والضرر والمسكنة من بين الخلائق وأمر أنه إذا بليت وأمحت ورقة من التشاور أعيدت إلى دار التشاو ، وغيرت الورقة من فئة العشرة دنانير إلى ورقة من فئة التسع دنانير جديدة .

صدر أمر نشر التشاور فى تبريز فى شهر ذى القعدة ٦٩٣هـ / سبتمبر - أكتوبر ١٢٩٤م ، وخلال ثلاثة أيام أقفلت أسواق تبريز وتوقف تمامًا وتعطلت كل الأعمال التجارية ؛ لأنهم كانوا قد سحبوا كل الذهب والفضة من التداول ، كما أن الجميع رفضوا التعامل بالتشاو ، واتجه غضب العامة وإنكارهم فى الأغلب إلى عز الدين مظفر بسبب هذا التغيير ؛ لأنه كان مسبب استحداث العملة الورقية وشيوعها ؛ فكان الشعب يعتبره عدوًا له فنظموا أشعارًا فى هجائه منها ما يلى :

أنت ، يا من للعالم (عز الدين)   وظل الدنيا ، لست تليق بذلك

إذ إن المجوسى والمسلم واليهودى   بعد شهادة الوحدانية والله أكبر

يدعون متضرعين إلى حضرة   المالك العادل تعالى :

يا رب لا تجعله فى الدنيا   ولو للحظة لمراد قلبه (مظفراً)

إلغاء التشاو

وحيث نظير هذا الاختلال والفوضى فى شيراز وسائر البلدان الكبرى ، وفى النهاية ونتيجة للآراء التى أظهرها الأمراء المغول وغيرهم والمعارضة للأوراق النقدية اضطر كيخاتو إلى ترك العمل بالتشاو المقيت وإلغاء تداول هذا التعامل النقدى ، والذى بدل من أن يصلح الأزمة ويقومها زادها سوءًا وشدة .

إهانة كيخاتو لابن عمه

وبعد قليل من هذه الحادثة استخف كيخاتو فى وقت من أوقات طيشه وسكره الذى كان عادته القديمة بابن عمه بايدو حفيد هولاكو أهانه بشدة وأمر أحد عبيده بضربه ، ولما أفاق من سكره فى الصباح ندم على فعلته وسعى إلى استرضاء وكظم كرهه لفرط حزق وحيطة فى ذاك الوقت ، لكنه بعد قليل بتحريض من بعض الأمراء الساخطين المغول أعلن ثورته على كيخاتو ، وفى نهاية الأمر خان كيخاتو قائده طغا جار وأسره وسلمه إلى بايدو ، وفى يوم الخميس السادس من جمادى الثانية ٦٩٤هـ / ٢٣ أبريل ١٢٩٥م قتلوه فى صحراء مغان .

بايدوخان

٦٩٤ هـ / أبريل - أكتوبر ١٢٩٥ م

جلس بايدور على العرش بعد هذه الواقعة بقليل فى همدان فى مجلس شرب وانبساط كما هى عادة المغول [١] ، وبعد ذلك جعل طغاجار فى منصب أمير الأمراء وعزل الوزير صدر جهان من الوزارة وعين مكانه جمال الدين دستجراداني ، ولم ينل بايدو من جمال السلطة مراد قلبه لأنه بعد ذلك بنصف عام هزمه جيش غازان ابن عمه ، وابن أرغون ، وذاق - كما يقول ميرخوند - صاحب حبيب السير كأسًا مترعة من الشربة نفسها التى أذاقها من قبل لكيخاتو [٢] .

(١) حبيب السير - المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

غازان خان

٦٩٤ - ٧٠٣هـ ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م

يرسم جلوس غازان - الحفيد الكبير لهولاكو - الحد الفاصل للنصر الثانى للإسلام على وثنية المغول ، ويعد بداية الحياة والاستقلال السياسى لإيران ، ولد هذا الخان فى الرابع من ديسمبر ١٢٧١م / ٦٧٠هـ ، وكان شاباً فى الرابعة والعشرين حين قبض على زمام أمور الدولة ، وفى السابعة من عمره كان يصاحب جده أباقاخان فى جميع رحلات صيده ، وفى سن العاشرة جعله أبوه أرغون حاكمًا لخراسان تحت رعاية الأمير نوروز وحمايته ، هذا الأمير المذكور هو ابن أرغون أغا الذى حم فى الولايات المختلفة لإيران بأمر جنكيزخان وأعقابه لمدة تسعة وثلاثين عامًا .

اعتنق هذا الأمير نوروز الإسلام ورغب غازان أيضًا فى اعتناقه ، وفى بداية حربه وصراعه مع منافسه بايدو عاهد الأمير بأن يدخل الإسلام لو يسر الله الفتح والظفر له ، ولما حصل مقصوده أوفى بعهده ودخل الإسلام فى الرابع من شعبان ٦٩٤هـ / ١٩ يوليو ١٢٩٥م ، ودخل معه الإسلام ألف مغولى فى حضور الشيخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ الأجل سعد الدين الحموى [1] ، ولم يغفل بعد ذلك غازان كذلك شرطًا من شروط الجهاد والسعى لنشر دينه الجديد ، وبعد أربعة أشهر من هذا التاريخ أجاز للأمير توروز بتخريب سائر الكنائس والأديرة ومعابد الأصنام فى تبريز ، كما أمر بضرب سكة جديدة نقش عليها آيات قرآنية والشهادتين .

وفى مايو ١٢٩٩م أصدر أمرًا يمنع الربا لأنه يخالف الشرع الإسلامى ، وفى نوفمبر ١٢٩٧م لبس أمراء المغول جميعًا العمائم بدل القلانس المغولية .

(١) ذكر حبيب السير ودولت شاه أنه الشيخ سعد الدين إبراهيم ، لكن مجمل الفصيحى ذكره على أنه الشيخ إبراهيم الجوينى .

استياء الأمراء القدام

ظهـر عـدد كبيـر من طبقـة الأمـراء والقـواد المغـول علـى خـلاف لغـازان ؛ إذ إنهم لم يرضوا بعمله هذا ، ولهذا تعاقبت الثورات والدسائس فى بداية حكم غازان وانتهى أمرها بالفشل والخيبة لأن غازان واجهها بشدة وعنف ، وحسبما يذكر صاحب حبيب السير فقد صار أكثر من خمسة من أولاد الخانات وسبعة وثلاثون من الأمراء المغـول طقمـة للسيوف بأمـر من غـازان والأمير نوروز [١] ، وفى النهاية توجس الخان من نوروز بدوره واتهم بتواطئه مع سلطان مصر رغم ما قدمه من جليل الخدمات ورغم فراره إلى هراة ولجوئه إلى الملك فخر الدين الكرتى وقع فى النهاية أسيرًا وانتهى أمره إلى القتل ، وبعد هذا بقليل قتل الوزير صـدر جهـان وجمـال الدين دسـتجردانى وأخـوه قطب جهـان [٢] ، وصـار المؤرخ والطبـيب المعـروف رشـيد الدين فـضـل علـى أثر هـذا الصـدر الأعظـم أو كبير الوزراء للبلاد السلطانية ، كان غازان ملكًا شديدًا حاسمًا وكان حكمه كما يشير هوارث يفيض بحوادث القتل وسفك الدمـاء ، ويذكر دوسـون أيضًا : (لا تمر إلا فى النادر صفحة من كتاب رشيد الدين فى القسم الخاص بحكم غازان ، ولا تشير إلى قتل أحد أركان الدولة) [٣] .

الحرب مع مصر وتقديم تاريخ وصاف إلى غازان

انقضى شطر كبير من أيام حكم غازان فى حروب مع المصريين ، وقعت أول حرب له فى مجمع المروج قرب حمص بين عامى ١٢٩٩ - ١٣٠٠م ، ومع أن عدد الجيش المصرى كان يبلغ ثلاثة أو أربعة أضعاف المغول فقد انتهت الحرب بهزيمة المصريين وانتصار المغول وسقطت دمشق فى يد جنود غازان لبضعة أشهر وخطب للخان على منابرها ،

(١) راجع حبيب السير المجلد ٣ جـ١ ، ص ٨١ .

(٢) تاريخ هوارث جـ٣ ، ص ٤٢٦ .

(٣) المصدر السابق جـ٣ ، ص ٤٢١ .

وقد أضرت بلاد الشام من قتل الجنود المغول وأسرهم لأهلها مع أن الخان أصدر أمرًا بتأمين أرواح الأهلية .

وفى الثلاثين من ديسمبر ١٢٩٩م ، وفى الشتاء للعام التالى (١٣٠٠ - ١٣٠١م) عبأ غازان جيشه للسيطرة على الشام ، لكنه أجبر على التقهقر بسبب برودة الشتاء وكثرة الفيضانات ، وفى السنة التالية فى شهر مايو كتب رسالة إلى سلطان مصر ووصله ردها فى ديسمبر ١٣٠١م بطريق مبعوثيه وسفرائه بعد أن كتب فى شهر أكتوبر [١] ، لكن بعد عام وبعض العام أى فى آخر يناير ١٣٠٣م تحرك غازان ثانية لقتال المصريين وبعد أن عبر الفرات نزل بكربلاء قرار هذه المنطقة المقدسة نظرًا لميوله الشيعية وتوسل إلى تلك البقعة المباركة بهداياه الجمة الملوكية ، وفى المنزل التالى المسمى بعانة عرض على الخان صاحب تاريخ وصاف مؤرخ البلاد الأجزاء الثلاثة الأولى من تاريخه (ويشمل خمسة أجزاء) ، وقد أتم تأليفها فى تلك الأيام ونقلنا نحن منها موضوعات كثيرة فى كتابنا هذا ، وبعد أن طوى غازان وبرفقته جيشه بعض الطرق متقدمًا إلا أنه عاد ثانية ولم يعبر الفرات ، وانتظر ليعلم نتيجة حرب (الكشف) الواقعة على مسيرة يومين غرب آربيل [٢] .

هزيمة المغول فى مرج الصفر

لقى المغول فى هذه الحرب - خلاف الحرب السابقة - الهزيمة ، وحطم المصريون كل قواتهم فى شهر مارس ١٣٠٣م / ٧٠٢هـ فى موضع بقرب دمشق يسمى مرج الصقر ، وقامت الأفراح لهذا الفتح الكبير فى سائر البلاد المصرية والشامية خاصة فى مدينة القاهرة : فازدانت المدينة وعلقت القناديل فى كل بيت بها وتزاحم الخلق ليستقبلوا مجىء السلطان بجيشه المظفر المنتصر ، ودخل القاهرة ألف وستمائة من

(١) تاريخ هوارث ، ص ٤٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٧ .

أسرى المغول ، وقد تعلق بعنق كل واحد منهم رأس قتيل من قتلى المغول فضلاً عن آلاف الجماجم المغولية المرفوعة على أسنة الرماح خلف طبولهم الحربية الكبيرة دخلوا وقد تمزقت جلودهم [١] ، وكان لا يساوى سعادة ملك مصر غير تألم غازان لهذه الهزيمة ، وقد زاد تأثره حين وقع بيده رسالة مملوءة بطعنه وشماتته وصلته من نده المنتصر ؛ فجعله كسيرًا حسيرًا ، ووقع القواد وكبار رجال الجيش المغولى المسئولين عن هذه الهزيمة الفادحة تحت العقوبة القاسية . والمعلوم أنه على أثر انقلاب الخط وأفول الطالع الذى جرى على جيش غازان فضلاً عن الدسائس والمكائد التى بدأت تحاك ضده فى الداخل ، وكان أصحابها يسعون إلى إزالته من الحكم وتولية آلافرانك بن كيخاتو مكانه ، على أثر ذلك كله أن انحرف مزاجه واعتلت صحته ، وفى النهاية وافته المنية فى أول سن الثانية والثلاثين فى ١٧ مايو ١٣٠٤م/ ٧٠٣هـ ، وقد هيمن الحزن والعزاء على سائر بلاد إيران ، وكان هذا الحزن بدافع إخلاص الشعب له فيما يبدو ؛ لأن غازان أعاد الدين الإسلامى إلى المكانة التى كانت له قبل هجوم جنكيزخان ، وحطم الوثنية وحول الفوضى إلى نظام [٢] .

أخلاق غازان

مع أن غازان كان يتسم بكامل الشدة والصلابة بالنسبة لسابقيه وأسلافه إلا أنه كان ذا قلب رءوف وعطوف ، وقد اشتهر عنه أنه كان يتجنب إراقة الدماء فى المواقف الضرورية والقهرية ، كما أنه يعد فوق ذلك حارسًا سخيًا للعلم والأدب ، كما كان شديد الكرم مع الفقراء والصالحين الأبرار ، ومع أنه كان يتصف ظاهره بالقباحة والحقارة ، لكنه كان شجاعًا فى كافة الظروف ، وثابت القدم فى كل موقف ، وله فهم وفراسة عميقة .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧٦ .

عنايته بالعلوم

كان لهذا الخان اهتمام خاص بالفنون والحرف والعلوم الطبيعية خاصة فنون المعمار من ناحية ، ويبذل عناية خاصة من ناحية أخرى بعلوم الهيئة والكيمياء والمعادن وصهر الفلزات وعلم النبات وغيرها من العلوم ، كما كان على بصيرة واطلاع بعلم التاريخ وعلم أنساب المغول ، وكان على علم متفاوت باللغات : الفارسية ، والعربية ، والصينية ، والتبتية ، والكشميرية فوق لغته المغولية التى كانت اللغة القومية والوطنية له ، بل كان يعلم اللغة اللاتينية أيضًا ، وقد تمتع بمعرفة تفوق أسلافه عن الغرب وأوربا اكتسبها عن طريق السفراء العديدين الذين كانوا يقدمون من البلاد الغربية المختلفة إلى بلاطه فى آذربايجان ، وعلى حد ذكر هوارث فى كتابه (ص٤٨٧) : كان غازان يطالع كتاب الجامع الرشيد تأليف مؤرخه الكبير رشيد الدين الذى تولى وزارته فى أوامر حكمه ، وكان يعرف مثلاً أن أسكتلندة تبع إنجلترا وألا وجود للأفاعى فى بلاد أيرلنده [١] ، وكانت السفارات التى قدمت إلى بلاط غازان من الصين والهند ومصر وإسبانيا وسفير هذه الأخيرة اسمه سوليفير وبارسلونا Solivero Barcelona ، وإنجلترا واسم سفيرها جيوفرى ديلانجلى Gaoffrey de Langley ، وغيرها من البلدان الأخرى .

ميل غازان للتشيع

كان للإسلام فى غازان بنيان محكم ، وكان يظهر ميلاً واضحًا للشيعة وأصول عقائدهم [٢] وبنحو ما ذكرنا زين وأثرى الحرم المبارك لكربلاء بهداياه وتحفه ، كما قدم لقبر الإمام الثامن على بن موسى الرضا فى مشهد النذور وأوقف عليه ، لكن هذا الإيمان والاعتقاد أى درجة يتعلق من خلوص العقيدة القلبية والباطنية فيه لأنه معلول

(١) راجع النسخة المخطوطة لجامع التواريخ .

(٢) راجع مجالس المؤمنين لنور الله الشوشترى – المجلس السادس – الملوك الشيعة .

بعلل سياسية ، فهذا سؤال جدير بالدراسة ، على أية حال فإن إسلامه كان يعد نعمة وسعادة لإيران ؛ لأن الحكومة الشديدة القاسية هى شقاء ومحنة للرعايا والتابعين خاصة إذا كان الحكام من عنصر أجنبى وغريب ، ويزيد هذا الشقاء والمحنة ويشتدان حين يكون الحكام على دين ومذهب يخالف دين الرعايا والتابعين ومذهبهم ، ومن هنا كان الحكم الظالم للمغول حتى ذاك الوقت أشد أنواع الحكومات قسوة ، لكنه بسبب تبدل دين غازان تغيرت صورته بالكامل ، ويذكر هوارث فى تاريخه حين دخل غازان الإسلام فصم علاقة مع الخان العظيم للمغول فى أقصى الشرق لأن المغول الإيلخانيين كانوا يعدون حتى ذلك التاريخ تابعين لخاقان مغولستان والصين ، ومن هذا الوقت استقل الإيلخانيون وغيروا بالطبع العبارات على السكة التى كانوا يضربونها [1] توقف من هذا الحين فصاعداً تفوق كلمة الرهبان البوذنيين والشمنيين الوثنيين على علماء الإسلام ، وتبدلت معابدهم ومحال أصنامهم إلى مدارس ومساجد ، ووقعت العلوم الإسلامية – التى كانت من ناحية غنية وثرية ، ومن ناحية أخرى فقيرة وعاجزة – موقع الاحترام والتشجيع مرة أخرى ، كما تهيأت أسباب الرقى المادى الذى كان لازمًا لتحسين أوضاع الرعايا المظلومين والمفهومين للإيلخانات المغول ، ومع أن غازان كان قاسيًا وفى بعض الأحيان كان قسى القلب ، لكنه أدرك أكثر من جميع أسلافه حقيقة واجب السلطة ورعاية حقوق الرعية والتابعين ، واتخذ من أجل تنفيذ هذا الواجب والتكليف المنوط به إجراءات ووسائل عملية .

من بين ذلك أنه خاطب أكابر الإدارة المدنية والعسكرية حين جمعهم أمامه (إن الله تعالى أجلسنى على مسند الخلافة ؛ لكى امتثل أمره تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان والواجب على أن الحق وأنشد طريق الحق وأعاقب أننى أتفحص بجزاء أعمالهم وأكافئ المخلصين بمزيد الإنعام والإحسان ، واعلموا أننى أتفحص بشدة كيفية أحوالكم ، وأنظر دائمًا فى أفعالكم وسلوككم لكى أصنع فيكم الخير أو الشر حسب صلاحكم أو فسادكم..) [2] .

(١) هوارث ، ص ٤٨٦ .

(٢) حبيب السير ج ٣ ، ص ٥٤ .

وشرح الإصلاحات التى أجراها غازان فى أمور البلاد من قبيل أسلوب جمع الضرائب الديوانية ، ومنع إجحاف موظفى الدولة وتعديهم ، والحد من اتقاد سبب فقدانه خراب البلاد وببابها ، وأخيراً الإصلاح الاقتصادى للبلاد وإضفاء صورة سليمة وصحيحة عليها ، كل هذه الإجراءات لهذا الخان لا يسع المقام الكبير [1] . إن تأسيس العهد الجديد المسمى بالعصر الإيلخانى أو الغازانى الذى يبدأ من ١٣ رجب ٧٠٠هـ/ ١٤ مارس ١٣٠٢م قد نشأ فى الأغلب بسبب أن الوضع الاقتصادى والمالى للبلاد قد ارتقى وتحسن عن الفوضى والاختلال اللذين حدثا فيها ، كما لا يجب إغفال النظر عن جهود غازان فى الحد والمنع من الفحشاء والمنكر وهما من الأعمال القبيحة التى شاعت فى الناس فى ذاك الوقت ، وحال هو دون ارتكابها ، وكان مسلكه هذا نموذجًا ومثالاً خلقيًا لمواطنيه فى ذياك الوقت .

قبر غازان وأوقافه

كان الإيلخانيون المغول بحكم عادتهم القديمة الوطنية يحاولون دائمًا إخفاء قبورهم مستورة خفية عن أنظار العامة ، لكن غازان خلافًا لمن سبقه حدد مسبقًا مكان قبره وصرف مبلغًا ضخمًا لبناء مقبرة وقبة له ، وبنى حولها خانقاة للصوفية ومدرسة لطلاب الفقه الشافعى والحنفى ، وكذلك مستشفى ومكتبة ، ووصدًا ودارًا لتلقى العلم ، كما أنشأ منزلاً للسادات ودارًا للسقى وسائر المرافق العامة هناك ، وخصص لحفظ كل هذه المؤسسات واستمرارها النذور والأوقاف السنوية التى تجاوزت المليون من العملة الذهبية عائدات لها وبدل لصيانة هذه الأوقاف اهتمامًا ورعاية ؛ لكى تبقى مصونة من أى من التفريط والتضييع ، وتعمر سائر ما حول هذه المقبرة والمؤسسات العامة إلى حد أن تكونت مدينة جديدة هى الغازانية ، وقد ساوت تلك المدينة مدينة تبريز فى عظمتها وفاقتها فى جمالها وروائها .

(١) راجع هوارث ، ص ٤٨٧ – ٥٣٠ .

ألجايتو خدابنده

٧٠٤ - ٧١٥هـ / ١٣٠٥ - ١٣١٦م

لقب ألجايتو - الشاه خربنده

جلس على عرش السلطنة بعد غازان أخوه ألجايتو والابن الثانى لأرغون فى اليوم الأخير ليوليو ١٣٠٥م ، وتلقب بأجايتو محمد خدابنده ، وكان قد مضى من عمره إذ ذاك أربع وعشرون سنة ، وفى عهد طفولته عمد حسب رغبة والدته أروك خاتون واعتنق المسيحية باسم نيكولاس ، لكن زوجته التى تزوج منها فى بداية عهد شبابه أدخلته الدين الإسلامى .

لقب فى شبابه بلقب عجيب واسم غريب وهو خربنده أو المكارى ، أو سائق الحمير ، لكن هذا اللقب تبدل بعد ذلك إلى خدا بنده أى عبده الله وتلقب به ، وقد نظم رشيد الدين الوزير فى ديباجة المجلد الأول من تاريخه الكبير القطعة التالية بشأن هذا اللقب :

ظللت البارحة أكفر ساعة فى وجه تحية شاه خربنده

فلعل معنى لهذا الاسم غفل عنه القاريد أو المنادى

فهتف بأذنى وأنا فى الحرم يا من تحب الملك السعيد

إن معنى فى حروف هذا اللفظ يجدر كثيراً بالشاه

أحسب عن طريق حساب الجمل لكل حرف من حروف (شاه خربنده)

لكى تعلم أن معناه هو (الظل الخاص للخالق) [١]

(١) اللفظ الفارسى لهذه التسمية (سايه خاص افريتنده) وحروفها مثل ترجمتها العربية خمسة عشر حرفًا ، ولأن القصيد فى رأيى نموذج عال للشعر السهل الممتنع أجد الطائرة إثبات أصلها الفارسى :

دوش درنام شاه خربنده — فكر ميكرد ساعتى بنده

له مكر معينى دراين اسم است — كم ازآن غافل اسف خوانده

اندرون حرم بكوش آمد — كاى هو اخواه شاه فرخنده

=

فحروف الأولى تسعة ، والثانية خمسة عشر حرفًا ، وانعقد كل منهما
بالأخرى كأن الحروف التسعة صدف امتلأ بخمس عشرة جوهرة
أو أنه طلسم هذا الاسم الميمون ألقاع الله على باب كنز
فلما أدركت سر هذا الاسم جمعت خاطرى المتفرق
وقلت كما أدركت معناه ألا فليدم (شاه خربنده)
ولتبق شمس جلال سلطنته دائمة الإشراق من الفلك

وشرح الأبيات السابقة أن الحروف التسعة لـ (شاه خربنده) بحساب الجمل يبلغ ١١٦٧ ، وهذا الرقم يساوى حساب الحروف الخمسة عشر لـ (ساية خاص آخر يننده) .

والظاهر على حسب علم الحروف عند المسلمين - كما هو عند اليهود - أن الكلمات التى يتساوى حساب جملها تتصف بخاصية واحدة ؛ ولهذا فإن خاصية اسم (شاه خربنده) تتساوى وخاصية الحروف الخمس عشر لاسم (ساية خاص آخر يننده) .

ويقول دولت شاه صاحب تذكرة الشعراء (رغم أنه لا يمكن الاعتماد كثيرًا على تحقيقاته) إن علة اشتهار الجايتو بهذا الاسم أن أرغون لما مات ورقى غازان العرش هرب من أمامه أولجايتو ، وظل يهيم على وجهه سنوات عديدة فى صحراء كرمان

=

معينى در حروف اين لفظ است — كه بشاه است سخت زبينده
عقد كن ازره حساب جمل — يك بيك حرف (شاه خربنده)
تابدانى كه هست معنى آن — (سايه خاص آفريننده)
نه حروف است آن وبانزده اين — كه بعقد ندهر دوما ننده
لوئى آن نه حروف جون صدف است — بده وبنج كوهر آكنده
سراين اسم جون بدانستم — جمع شد خاطر براكنده
كردم ادراك معنى ولغتم — (شاه خربنده) باد باينده
أختاب جلال سلطنتش — ازسيهر دوام تابنده

«المترجم»

وهرحز مع الخيول والحمير ؛ ولهذا سمى (خربنده) [١] ، لكن آخرين ذكروا أن سبب هذه التسمية أن ألجايتو لما كان طفلاً وجيه الشكل وحسن الطلقة أطلق عليه أبوه اسمًا قبيحًا منفرًا لكى يصونه من حسد العيون وهو (خربنده) [٢] .

قتل ألافرانك Alafrank

وقبل أن يرقى ألجايتو العرش رأى من الصلاح أن يفرغ عقله من هـم الأمير ألافرانك ابن عمه الذى كان بإمكانه ادعاء السلطنة ، وعليه فقد قتله ومعه القائد هو قدان نويان على يد ثلاثة من المقدمـين المغول ، وبعد ذلك كان أول ما أقدم عليه وبادر إليه هو تحكيم قوانين سلفه غازان وقواعده وتثبيتها وتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية على النحو الآتى وأشرك الخواجه رشيد الدين المؤرخ والطبيب المعروف وسعد الدين الساوجى فى وزارته وأطلق يديهما على الرعايا الإيرانيين فى مقابل المغول إطلاقًا تامًا ، ثم ذهب وقتذاك إلى مرصد مراغة المعروف ومنح لأصيل الدين بن الخراجة الكبير نصير الدين الطوسى – والذى مات كما ذكرنا فى ١٢٧٢م – منصب كبير المنجمين فى بلاطه [٣] .

ولد ابن الجايتود خليفته السلطان أبو سعيد فى العام الثانى لجلوسه ، وفى ذاك العام نفسه عزل شاه جهان آخر ملوك القراخطائيين لكرمان من حكمة ، وبنى فى العام نفسه مدينة السلطانية بالقرب من زنجان ، والتى لم يمر عليها وقت طويل حتى صارت عاصمة ودار ملكة واكتسبت رونقًا وجلالاً عظيمين [٤] ، ومع أن هذه المدينة خرابة غير مكونة

(١) تذكرة دولتشا ، ص ٢١٧ .

(٢) وسبب آخر لتلقيبه بهذا اللقب ذكره ابن بطوطة فى رحلة ص ١٤٣ طبعة مصر : (وقيل إن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته ، فلما ولد هذا السلطان كان أول دخل وهم يسمونه خربنده ؛ فسمى به ..) .

(٣) تاريخ وفاة أصيل الدين بناءً على قول فصيحى خوافى فى مجمله هو ٧١٤هـ ، وذكر أبو الفرج بن العبرى تاريخ وفاة نصير الدين الطوسى فى عام ٦٧٥هـ المطابق للعام ١٢٧٦-٧م .

(٤) راجع تاريخ وصاف ص ٤٧٧ وقد نظم مؤلفه قصيدة طويلة بهذه المناسبة ومطلعها معناه :
كان حال السلطانية حال الفلك الأعلى أو جنة أسست فوق الأرض ونهايتها .
نظمت هذه القصيدة عام سبعمائة وعشرة من الهجرة يوم الثلاثين من شهر فروردين .

الآن ، ولم يبق من آثارها غير مسجد عظيم ظل قائمًا وسط ضرائبها إلا أن اسم الخان مؤسسها لا يزال يتردد على ألسنة العامة فى شعر عامى ، وقد سمعت هذا الشعر من عجوز كان يرافقنى فى رحلتى التى قمت بها لسياحة هذه البقعة فى شهر نوفمبر ١٨٨٧م وهو :

اى شـــاه خـــدابـنـده ظـلـم كـنـنـده ايـكـى طـــــاوق بـيــر كـنــــــده

والمصرع الأول فارسى معناه (يا شاه خدابنده أيها الظالم) ، والمصرع الثانى تركى بمعنى (طائران مقابل عشرة) ولا أدرى ماذا كان قصده منه وعما يكنى .

سفراء الخان إلى الخارج والسفراء الأجانب فى بلاطه

وبعد شهرين من جلوس ألجاتيو قدم إلى بلاطه سفراء من بلاط ثلاثة من السلاطين المغول ، وكان أهمهم جميعًا رسول تيمورقا أن خاقان الصين ، وأتى هؤلاء الرسل يعرضون عقد حلف وميثاق هدنة ما بين الطرفين ، وبعد ذلك بثلاثة شهور قدمت سفارة توقتاى ، وبعدها بقليل أوفد ألجايتو سفارة إلى مصر لدى سلطانها لتقوية العلاقات بينهما ، كما أرسل رسله إلى ملوك الغرب مثل : فيليب لوبل ، وإدوارد الثانى ، والبابا كليمان الخامس وتلقى رسلاً منهم ، وكان من يحمل رسائل الإيلخان إلى هؤلاء السلاطين الكبار الغربيين شخصًا يسمى توماس إيلدوتشى THOMAS ILDOYCHI ، وكما ذكر دوسون فى تاريخه (المجلد الرابع ، ص ٥٩) فقد كان هذا الرجل يخفى على ملوك أوربا أن الخان اعتنق الإسلام لأن المراسلات المتبادلة بين الجانبين والموجودة فعلاً يطلب فيها إدوارد الثانى فى خطابه المؤرخ ٣٠ نوفمبر ١٣٠٧م ، وكذلك البابا كيمان الخامس فى رسالته المؤرخة بأول مارس ١٣٠٨م من ألجايتو بنحو ظاهر وواضح بمساعدتهما ومعاونتهما على محو وإفناء أتباع محمد عليه السلام تمامًا ، إلا أن ألجايتو كان مشغولاً فى هاتيك الأيام باختبار إسلام اليهود الذين أعلنوا إسلامهم ، وفى النهاية حصل على مبتغاه عن طريق علم الخواجة رشيد الدين وفطنته ، فالخواجة رشيد وزيره كما يظهر تاريخ كان له بصيرة وخبرة فى أحاديث اليهود وأصول عقائدهم حتى اتهمه

أعداؤه بأنه إما أنه يهودى أو أنه يجل فى الباطن اليهودية ويمتدحها ، وكان الأسلوب الذى ابتكره لامتحان اليهود الذين قبلوا الإسلام دينًا هو أنهم كانوا يؤمرون بتناول طعام مكون من لحم الجمال المطبوخ باللبن وكل من كان يقدم على تناول هذا الطعام المحرم فى عقيدة اليهود من الناحيتين أى لحم الإبل واللبن المغلى كانوا يسلمون بصدق دعوى إسلامه .

وفى هذه الأثناء أيضًا (١٤ أبريل ١٣٠٦م) أنهى رشيد الدين الشطر الأساسى من كتابه المعروف التاريخى جامع التواريخ الرشيدى وعرضه على ألجايتو .

حروب ألجايتو

من الحروب المهمة التى وقعت فى عهد ألجايتو فتحه الجيلان بأوائل شتاء ٧٠٧هـ - ١٣٠٧م تم الاستيلاء على مدينة هراة الذى تم فى أواخر ذلك العام نفسه ، وقد أبدى فى الحربين الأهلون مقاومة شديدة ، ولم يستطع المغول الحصول على النصر إلا بعد إنزال الخسائر الشديدة بأعدائهم ، وفى الدفاع عن مدينة هراة أظهر القائد الغورى محمد سام الذى أنابه الملك فخر الدين كرت مهمة الحفاظ عليها مقاومة بطولية ، وفى النهاية أسره المغول بطريق الغدر والخيانة وأهلكوه ، ومن بين من قتل فى عهد ألجايتو كان موسى الكردى الذى ادعى المهدية ، ثم الخواجة سعد الدين الوزير المعاون والمصاحب والمنافس ، فى النهاية للخواجة رشيد الدين وخصمه الذى اتهم بتهمة الاختلاس من بيت المال وعوقب ، ثم تاج الدين الآوجى الذى كان شيعيًا الإمامية ، لكن ما كان يسعى إليه تاج الدين العاثر الحظ حصل بطريقة أخرى .

عقيدة ألجايتو الدينية

وشرح ما حدث هو أن ألجايتو كان فى بداية حاله على المذهب الحنفى ، وكان العلماء الحنفية يزيدون تكبرًا واستعلاء لكونهم موضع إعزاز الخان إلى أن أغوى رشيد الدين الوزير الخان بانتهاج نهج المذهب الشافعى .. ولهذا فقد جرى جدال

ومحاجة شديدة ما بين جماعة من علماء المذهبين فى حضور الخان ، وما إن حمى وطيس التعصب فى كل منهم حتى أخذ بعضهم يكيل التهم القبيحة فى حق مذهب بعضهم الآخر إلى أن غضب ألجايتو وكره الطائفتين معًا ؛ فاستغل أمراء المغول الحانقين على الإسلام الفرصة وأخذوا فى لوم الخان قائلين : هل فقدوا مذهب آبائهم وأجدادهم بسبب مثل هذه العقائد السخيفة ؛ ثم أوعزوا إلى الخان بالعودة إلى مذهب المغول وعقيدتهم ، وتصادف وقوع طوفان فى تلك الأيام صحبه رعد وبرق عظيمان فتأول رجال الدين المغول وعلماؤهم المذهبيون أو البخشيون **Bakshis** هذا الطوفان على أنه غضب الحصى [١] ، وبدأت هذه الطائفة فى الظهور ثانية فى عهد ألجايتو ، وكان غازان قد طردهم من التدخل فى أمور البلاد . وفى النهاية عاش الخان مدة من الشك والارتياب إلى أن حمسه الأمير ترمتاز إلى الاقتداء بمسلك غازان واعتناق التشيع الإمامى [٢] ، فسافر الخان ليزور النجف الأشرف ، وهناك رأى فى منامه رؤيا جعلته يعتقد أن المسلمين عليهم الاعتقاد بعد الرسول بعلى بن أبى طالب والأئمة أولاده [٣] .

حربه للشام

هاجم ألجايتو فى عهد حكمه الشام ، وكان أهم وقائعه فيها حصاره للرجبة ، لكن المغول أجبروا عن فك حصارهم عن المدنية حين ضاقت عليهم السبل بسبب حرارة الجو

(١) راجع كتاب دوسون المجلد الرابع ، ص ٥٢٦ .

(٢) راجع دوسون المجلد الرابع ، ص ٥٤١ ، وعملة ألجايتو الموجودة تتضمن الإقرار بخلافة على بن أبى طالب .

(٣) كتب ابن حجر العسقلانى يشرح حاله فى كتابه الدرر الكافية فى أعيان المئة الثامنة (وكان حسن الإسلام لكن لعبت بعقلة الإمامية فترفض وأسقط من الخطبة فى بلاده ذكر الأئمة إلا على) المجلد الثالث ، ص ٣٧٨ ، وأتى أيضًا فى الكتاب نفسه (وكان فيما يقال قد رجع عن الرفض وأظهر شعار أهل السنة فقال بعضهم فى ذلك :

رأيت لخربندا اللعين دراهمًا	يشابهها فى خفة الوزن عقله
عليها اسم خير المرسلين وصحبه	لقد رابنى التسنن كله

وقلة المؤونة والغذاء ، كذلك حدث اختلاف وشقاق بين إخوان بنى قتادة (وكانوا يتناوبون حكم مكة) ؛ وعلى إثر الصراع بينهم خطب للخان أولجاتيو مدة على منابر هذه المدينة المقدسة بدلاً من السلطان الناصر ملك مصر .

وفاة ألجايتو فى ٧١٥هـ / ١٣١٦م

توفى الخان فى مدينة السلطانية بسبب إصابة شديدة بمرض النقرس بتاريخ ١٦ ديسمبر عام ١٣١٦م ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، ويوصف هذا الخان بالأخلاق وكرم النفس ، ولم يكن يؤثر فيه سعاية الوشاه وغوايتهم لكنه تعود - كأكثر الملوك المغول - على شرب المدام والإفراط فى الشهوة والتلذذ ، أقيمت مراسم تكفينه ودفنه على أعلى ما يكون الجلال والعظمة ، وأقام الأهالى عزاءهم له مدة ثمانية أيام ، كان له اثنتا عشرة زوجة وستة أبناء وثلاث بنات ، ومات منهم فى وقت الصبا خمسة أبناء وبنت ؛ فصار ابنه الوحيد أبو سعيد خلفًا له فى حكمه وتزوجت بنتاه بالأمير تشوبان ، ونالت إحداهما وهى ساتب بك مقام الملكة لمدة قصيرة فى عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م .

أبو سعيد

٧١٦ - ٧٣٦هـ / ١٣١٧ - ١٣٣٥م

كان أبو سعيد فى مازندران حين توفى أبوه ، وفى أبريل من عام ١٣١٧م توج فى سن الثالثة عشرة بتاج السلطة الإيلخانيين جعل الأمير تشوبان فى منصب إمارة الأمراء وخواجه على شاه أمر الوزارة بموافقة رشيد الدين فضل الله ، وجرى فى ذاك الوقت تنافس وخصومة بين هذين الوزيرين مما أوجب - بما لا يمكن دفعه - إزالة أحدهما ، ووقعت قرعة هذا الفأل على اسم رشيد الدين ؛

لأن ذكاءه وحزمه واعتزازه كان وبالاً عليه ، فعلى إثر وشاية منافس رشيد الدين وسعايته عزل من الوزارة فى أكتوبر ١٣١٧م ، وفى الوقت نفسه حرم بوفاة الأمير القوى سوينج فى يناير ١٣١٨م من حماية هذا الصديق المقتدر القوى ، وكان الأمير تشوبان يرغب فى إعادته إلى الوزارة ، ورغم الحاجة وإصراره على أن يدعوه فى سن شيخوخته ومشيبه ويسمحوا له بالاعتزال فيما بقى من عمره فى راحة وسلام إلا أن إلحاحه لم يفد شيئًا .

قتل الخوجة رشيد الدين وابنه

وحينما قصد لتولى الوزارة استولى الخوف ثانية على منافسه على شاه ؛ فبدأ فتنة ووشاية حتى نجح فى نهاية الأمر فى أن يلقى فى روع الخان أبى سعيد أن رشيد الدين وابنه الغالى الخواجة إبراهيم دسا السم للسلطان المتوفى أولجايتو ، فانطلق هذه الوشاية على الخان وأصدر أمره بقتل الوزير وولده ، وفى الثامن عشر من يوليو ١٣١٨م قتل رشيد الدن عن عمر جاوز السبعين ، ووطىء جسده ونهب منزله وأملاكه ومتعلقاته وعذب أهله وأقاربه بصنوف العذاب ، وسوف نتحدث - قريبًا - عن هذا الوزير وأخلاقه وآدابه وخيراته وعلمه وفضائله بالتفصيل .

الثورات والفتن

بعد شهر من حدوث هذا الحادث المؤلم (أغسطس ١٣١٨م) وقعت ثورة يساوور الذى أثاره حرصه وطموحه للطمع فى إقليم خراسان ، وبعد أن نجح فى إهلاك الأمير يساوول أمير خراسان والسيطرة على سائر هذا الإقليم هاجم مازندران ونبهافوجه أبو سعيد جيشًا بقيادة الأمير حسين لتدميره فقر أمام هذا الجيش ، وتقهقر إلى (كرمسير) أى المناطق الخارجة

للخليج الفارسى [1] ، وفى تلك الأيام نفسها حبكت مؤامرة كبرى بيد أمراء المغول وقادهم مثل أيرانجين [2] وتوقمان وأيسن بوقا ضد الأمير تشوبان ، وأهل الأمير تشوبان بمظاهرة من السلطان أبى سعيد الهزيمة بهم على كتب من أوجان فى شهر يونيو ١٣١٩م وقتل من نجا من زعماء هذه الثورة ولم يقتل فى الحرب بصورة شديدة التمثيل والقسوة فى السلطان ، وكان من بينهم الأميرة كيجك أوكيخشيك أو كيتشك حفيدة أقاقاخان وزوجة أيرانجين التى برزت بمنتهى البسالة والشجاعة فى ميدان الوغى وجالدت انتقامًا لقتل ولدها شيخ على ببطولة ، وما إن وقعت بالأسر أمر السلطان بأن تدوس الخيول جسدها بسنابكها حسبما يذكر النويرى [3] .

وبعد شهرين من إخماد هذه الفتنة كافأ الخان الأمير تشوبان فخصه بشرف مصاهرته وزوجه من أخته ساتى بك ، كما تلقب الخان نفسه لما أبداه من شجاعة وبسالة فى ساحة الحرب بلقب بهادرخان أو الخان الشجاع .

قحط وطوفان

حدث فى عامى ١٨ ، ١٣١٩م غلاء وقحط شديدان فى أسيا الصغرى وبلاد أخرى ، ثم وقع فى السنة التالية طوفان شديد وسقط من السماء جليد عظيم ، فارتعب أبو سعيد من هذه المصائب السماوية واستمد الزهاد والعلمى والتمس رفع هذ البلاء فنسبوا هذه البلايا

(١) يبدو أن ما عده براون وهو أن كرمسير تقع على حواشى سواحل الخليج الفارسى خطأ ؛ لأن مستنده هو كتاب حبيب السير الذى صرح بهذه العبارة (وتقرر أن يتوطن فى بادغيس ويتوجه هو نفسه صوب كرمسير ، فلما وصل كرمسير وأمضى أيامًا هادئ البال حزم العزم بمخالفة السلطان أبى سعيد وتوجه أولاً إلى سيستان ..) ويبدو أن قصده من كرمسير النواحى الجنوبية الشرقية لخراسان وشمال مكران .

(٢) أيرانجين أو أيرانشين هو ابن أخى دوقوز خاتون .

(٣) النويرى هو أبو العباس شهاب الدين أحمد البكرى التيمى من رجالات مصر فى عهد الملك الناصر محمد ابن قلاوون توفى عام ٧٣٢ ، وكتابه الضخم المعروف «نهاية الأرب فى فنون الأدب» يعد دائرة معارف عصره .

إلى شيوع الفحشاء والمنكر ورواج معاقرة الخمر والزنا ، فقد كانت فى أغلب البلاد تقع الحانات ودور اللهو والمجون بجوار المساجد والمدارس ، فأمر أبو سعيد بإغلاق جميع الحانات وأماكن الفساد وأحرق قدراً كبيراً من الخمور ، وقرر أن تفت ، وكانت صغيرة فى كل حى لبيع الخمر لتلبية حجة الغرباء ، وكان لهذه الإجراءات تأثير طيب فى مصر ؛ إذ فتحت الطريق لعقد صلح ما بين أبى سعيد والملك الناصر ملك مصر ، وقد بلغ بملك مصر وحده وحنقه بالمغول حد أن أرسل خفية ثلاثين من الفدائيين الإسماعيليين بالشام لقتل قراسنقور ، ومع أن هذه المؤامرة لم تتم فقد أفزعت المغول إفزاعاً شديداً ، وصار الجانبان تدريجاً جانحين للصلح والسلام بعد أن كلاً من الخصام والعداء وقررا إنهاء العداوة القديمة ، وعاقبة الأمر انعقدت معاهدة بين الدولتين فى ١٣٢٣م ، وعقد السلطان الناصر على واحدة من الأميرات المغوليات (حفيدة باتو) [١] .

ثورة تيمور تاش

فى عام ١٣٢٢م أعلن تيمور تاش عصيانه وهو ابن الأمير تشوبان فى آسيا الصغرى ، وزعم أنه المهدى الموعود ، لكن أباه هزم ثم عفا عنه أبو سعيد وأعاد توليته لحكمه نفسه ، وفى تلك الأيام نفسها كان المصريون ينهبون ويسلبون فى أرمنية وسعى بابا الروم جون الثانى عشر إلى تحريض بلاد أوربا للدفاع عن أرمنية [٢].

ولأجل هذا القصد كتب رسالة بتاريخ ١٢ يوليو ١٣٢٢م إلى أبى سعيد ودعاه [٣] إلى مده وعونه كما شجعه فى الوقت نفسه على اعتناق المسيحية كما أرسل راهباً

(١) راجع دوسون المجلد الرابع ، ص ٦٢٦ ، لكن هذه المرأة حسب رواية أخرى فى ميدان الحرب ، ويذكر تاريخ وصاف أنها رجمت وألقى بجسدها عارياً فى معبر الطريق العام .

(٢) راجع دوسون ، ص ٦٥٥ ، واستغرقت رحلة هذه الأميرة من شهر سراى إلى الإسكندرية ستة شهور ودخلت المدينة الثانية فى أبريل ١٣٢٠م .

(٣) ترجم دوسون هذه الرسالة فراجعها فى ص ٦٢٢ المجلد الرابع من تاريخه .

من الدومنيكان ، يسمى فرانســوا دوبــروس Francois de Peruse برتبــة أســقــف إلى السلطانية [1] .

تبرم أبى سعيد بالأمير تشوبان

توفى الخواجة على شاه الوزير الأعظم فى أوائل عام ١٣٢٤م ، وقد تميز بأنه أول وزير يموت موتًا طبيعيًا فى عهد السلاطين المغول ، وحل محله ركن الدين صائن يعاضده الأمير تشوبان ، وحرك اقتدار هذا الأمير الكبير المتزايد إحساس الحسد فى الخان الذى بلغ آنذاك سن الحادية والعشرين ، وكان قد شد بقلب الخان ولع شديد ببغداد خاتون ابنة الأمير تشوبان وزوجة الشيخ حسن جلاير ، وفوق هذا تكدر صفو الخان بسبب الدسائس والمؤامرات التى حبكها ركن الدين صائن الخائن لولى نعمته الأمير تشوبان ، وقد حرك الأمير إلى البقاء والتريث فى النواحى الشرقية للبلاد بينما ظل بالبلاط ابنه الآخر دمشق خواجه ، الذى كان الخان حانقًا عليه ، وكانت هذه الأيام توافق ربيع عام ١٣٢٧م بينما كان الخان عائدًا من مشتاه ببغداد إلى السلطانية ، وقد تزايد حنق أبى سعيد وتكدر خاطره من ناحية دمشق خواجه لاستكباره وسوء سيرته ؛ فأخذ يلتمس إذ ذاك تكشفت له عن مقدمات تدبير مكيدة ودسيسة من قبل دمشق خواجه ، وتشترك معه إحدى زوجات أولجاتيو خان .

قتل دمشق خواجة

وما إن تكشفت خيوط هذه المؤامرة حتى ركن دمشق خواجه إلى الفرار ، لكن أتباع الخان خفوا فى عقبه وأسروه ؛ وفصلوا عنقه عن جسده بأمر منه وعلقوا جثته على بوابة السلطانية [2] .

(١) راجع دوسون المجلد الرابع ص ٦٦٤ ، وهو أول أسقف للسلطانية نصب فى أول مايو ١٣١٨م ، واستقال فى ١٣٢٣م ، وعين بدلاً منه من سمى جيوم دادا .

(٢) راجع رحلة ابن بطوطة الذى تفصيل قتل دمشق خواجه .

وقد حدثت هذه الواقعة فى ٢٥ أغسطس ١٣٢٧م ، وبقى عن دمشق خواجه أربع بنات أشهرهن دلشان خاتون ، وقد تزوج بها أولاً الخان أبو سعيد فولدت له بنتًا ماتت فى طفولتها ، ثم تزوجت من شيخ حسن إيلخانى فولدت له ولدين أولهما سلطان أويس الذى حكم فى بغداد من ١٣٥٦ إلى ١٣٧٤م ، وكما سنرى كان أحد مشجعى الشعر والأدب والعلوم المشهورين .

موت الأمير تشوبان

صمم أبو سعيد بعد مبادرته بهذا الإجراء القاطع على القضاء التام على تشوبان وآله ، وبدأ الأمير تشوبان الذى وقف على مقصود السلطان بقتل ركن الدين الوزير ، ثم جمع جيشه الذى بلغ عدد جنوده سبعين ألفًا وتحرك صوب المغرب ، ودخل مشهد أولاً ثم سمنان ومنها أرسل بالشيخ الكبير علاء الدولة والدين – وكان من كبار مشايخ الصوفى – إلى التوسط له عند أبى سعيد ، ولكن كلامه لم يؤثر على الخان ، وأخذ الأمير تشوبان يتقدم بجيشه إلا أنه وصل إلى ما يبعد عن مقر الخان بمسيرة يوم واحد ، وكانت الأمور تجرى على هواه حتى ذلك المكان ، وعلى حين بغتة انفصل عنه بعض الأمراء المهمين ومعهم ثلاثون ألفًا ولحقوا بالخان ، فوقع انتكاس بسبب ما حصل فى موقف الأمير ؛ فانسحب إلى ساوه وترك بها زوجتيه جرودتشين وساتى بك وخف إلى طبس وكان أتباعه يتخلون عنه حتى لم يبق معه فى النهاية أكثر من سبعة عشر رجلاً ، فصمم هناك على اللجوء بهراه لدى الملك غياث الدين كرت ، فغدر به ملك هراة وقام هو وكبار قواده بخنقه ونقل جثته حسب أوامر الخان على أتم الجلال والإعظام إلى (المدينة الطيبة) ، وأودع الثرى هناك فى المقبرة التى أعدها لنفسه ، (ابن بطوطة ج٢) .

مصير تيمور تاتش ولد تشوبان

بعد هذه الأحداث بلغ السلطان أبو سعيد أمله القديم وتزوج من بغداد خاتون ، ومع أن هذه المرأة تملكت على السلطان النفوذ والاستيلاء الكاملين لم يكف

عن تعذيب أقاربها وأتباع أهلها وقتلهم ، ولجأ الابن الآخر لتشوبان وهو تيموس تاش حاكم آسيا الصغرى إلى سلطان مصر فوصلها فى ٢١ يناير ١٣٢٨م ، فاستقبل فى البداية استقبالاً حسناً وعومل بالاحترام والإكرام اللائقين به ، وتقرر له ألف وخمسمائة دينار راتباً يومياً ، لكن رغبة أبى سعيد الملحة فى تسليمه وفى الوقت نفسه ارتبط بها دسائس رجال بلاط سلطان مصر ضده دفعت بالسلطان إلى أن يخلى خاطره من همه ، وظل متردداً بين أن يقتل هذا الضيف القوى أو أن يسلمه لأبى سعيد ؛ وفى نهاية الأمر رأى الأصلح أن يقتله ويفرغ من همه خشية من أن يسلمه لأبى سعيد فيعفو الخان عنه بسبب النفوذ الذى لأخته بغداد خاتون على قلب الخان ، وبسبب أنه فى تلك الأيام وصل منصب الوزارة صديقه القديم غياث الدين ولد رشيد الدين ، وإذ ذاك يحتمل أن يلقى تيمور فى بلاد صهره الخطوة والقربى ، ويفكر فى النهاية فى الانتقام من المصريين ؛ وبناء على هذا أقام بنقل تيمور تاش فى محبسه ليلة الثلاثاء ٢٢ أغسطس ١٣٢٨م ، ودهن رأسه وأودعه فى صندوق وأرسله إلى أبى سعيد .

وزارة غياث الدين بن رشيد الدين

يتحدث ببيان ساحر حمد الله القزوينى المستوفى المؤرخ صاحب تاريخ جزيرة فى كتابه هذا الذى ألفه باسم غياث الدين الوزير ولد رشيد الدين عن غياث الدين الوزير ذلك قائلاً : قام هذا الوزير الطيب الاسم فى ضبط أمور العالم مثل والده العظيم بمساعيه الجميلة ، ولأن العفو وقت القدرة هو غاية كمال الإنسانية وكل من سلك هذه السيرة من الكبار المتقدمين لقى حسن السمعة وعلو المرتبة وعالى الشهرة ، فأمر بالمزيد على ذلكم هذا الوزير الملائكى السجية لغاية يقينه فحظ رقم العفو على جرائد جرائم الجميع ، وكل من انتهك فى حق أسرته المباركة من سيئ الأفعال التى يتوجب تقريرها كراهية المستعمين بدل أن ينشغل بالقصاص منهم

وأبلغهم إلى المراتب العظيمة بأنواع الإكرام وقلدهم الأشغال الخطيرة ، والآن يشاهد بالعين كل منهم ما كان يتمنى [1] .

وهذه الصفة نفسه التى عدها ذلك المؤرخ موجب مدح غياث الدين وتمجيده كانت على وشك أن تصير باعثًا على قلته وإهلاكه ، فحين تمرد الأمير نارين بوقا أثناء ما كان يقصد إهلاك ذاك الوزير أرسل هذا الأمير ذاك الوزير يستشفع لدى أبى سعيد ؛ لكى يبقى على حياته ، وفى هذه الواقعة أيضًا أقدم السلطان أبو سعيد بتحريك زوجته بغداد خاتون التى كانت ناقمة على نارين الوقا وتعده سبب هلاك أبيها تشوبان على إثارة الفتنة حتى استأسر السلطان نارين بوقاد حليفه تاش تيمور وقتلهما فى ٥ أكتوبر ١٣٢٧م .

ملوك آل كرت فى هراة

وقعت فى السنين الأخيرة لأبى سعيد تغييرات عدة فى ملوك الكرتيين ، فقد توفى الملك غياث الدين فى أكتوبر ١٣٢٩م وخلفه ابنه الأرشد شمس الدين ، وقد تعود هذا شرب الخمر حتى قيل إنه لم يفق فى الشهور العشرة لحكمه غير عشرة أيام ، ثم خلفه أخوه الشاب حافظ وكان عالمًا وساطًا وقتل لغبتة فى ١٣٣٢م فحل محله ابن أخيه معز الدين ، ووافق أبو سعيد على اختياره لحكم هراة فحكم مدة أربعين سنة حكمًا طويلاً ، وخلفه ابنه غياث الدين بير على والذى زالت فى عهده بيد تيمور لنك حكومة هذه الأسرة التى ظلت عام ١٣٤٥م .

(١) راجع تاريخ جزيده تأليف حمد الله المستوفى ، ص ٦١١ ، طبعة لندن عام ١٩١٠م .

موت أبى سعيد

وفى أغسطس ١٣٣٥م علم أبو سعيد أن خان الأوزبك من القبيلة الذهبية يقصد مهاجمة بلاده فهيأ جيشه لملاقاته ، لكنه أصيب بالمرض فى تلك الأيام وزادت عليه العلة حتى مات فى الثلاثين من نوفمبر من ذاك العام نفسه فى قراباغ قرب أران .

ويصفه ابن تغرى بردى [١] بأنه كان ملكًا شجاعًا بظاهر مزدان وقلب كريم وفهم فياض ، وكان علاوة على هذا خطاطًا بارعًا وموسيقيًا ماهرًا ، ولا يكتفى هذا المؤرخ بمدح أخلاقه الفاضلة والثناء على ورعه ونهيه التام عن بيع الخمر بل يحمده كذلك لمبادرته إلى تخريب كنائس النصارى ، وعلى نحو ما يشير إليه ميرخوند ويصرح ابن بطوطة فى رحلته به فقد دست بغداد خاتون السم لزوجها أبى سعيد لأنها غلبها الحسد بسبب المحبة والعشق الذى تولد به إلى دلشاد خاتون فأهلكت زوجها [٢] على أية حال فسواء كان هذا الموضوع حقيقة ولمجرد التهمة ؛ فقد قتلت بغداد خاتون من بعده .

أنهت حادثة موت السلطان أبى سعيد عصر حكم الإيلخانات المغول الذى أسسه هولاكو تقريبًا فقد حدثت من بعده مدة من الفوضى والهرج والمرج فى بلاد إيران استمرت خمسًا وثلاثون سنة إلى أن ظهرت موجة أخرى من الفاتحين والمهاجمين الطورانيين بقيادة ملك سفاك اسمه الأمير تيمور من بلاد التركستان ونوادر الحوادث التى انتبه إليها صاحب مطلع السعدين أن ولادة الأمير تيمور وقعت فى السنة نفسها التى مات فيها السلطان أبو سعيد ، وجعلت كلمة (لوذ) أى العوذ واللجوء التى تحسب (٧٣٦) بالجمل لتاريخ تلك السنة لأنه فى هذه السنة كان يتوجب على الخلائق الاستعاذة بالله تعالى من مصيبتين وبليتين عظيمتين : أولهما موت أبى سعيد ، وثانيهما ولادة الأمير تيمور .

(١) الأمير جمال الدين أبو المحاسن يوسف تغرى بردى ، هو ابن أحد الأمراء الكبار فى دولة مماليك مصر ، والذى كان فى عهد الملك الناصر فرج أتابك الشام مات ٨١١ هـ ، ومات ابنه فى حران ٨٧٤ هـ ، وكان من المؤرخين والفضلاء ، وهو مؤلف تاريخ (حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور) ، وكتاب (مورد اللطافة فى من ولى السلطنة) .

(٢) راجع رحلة ابن بطوطة الجزء الثانى ، ص ١٢٣ .

جلوس أرباخان

انتخب مبشاورة الوزير غياث الدين ولد رشيد الدين أرباخان أو أربا قائون حفيد أريق بوقا أخرى هولاكود خلفًا لأبى سعيد بعد موته لأنه لم يعقب ولدًا ، ولكى يحكم موقعه تزوج من ساتى بك أرملة الأمير تشوبان وأخت أبى سعيد ، ثم تحرك بجيشه تجاه أوزبك وهزمه .

منافسة موسى لأربا

لكن أثناء هذه الأيام رفع الأمير على بادشاه وسائر الأمراء الساخطين على تولية أربا من يسمى موسى من نسل هولاكو إلى السلطة وجعلوه منافسًا لأربا ، وفى ٢٩ أبريل ١٢٣٦م جرت حرب بين هذين الخصمين على مقربة من مراغة انهزم فيها أربا ثم قتل بعد ذلك بمدة قصيرة وزيره غياث الدين ، لكن موسى لم يهنأ بفتحه هذا ؛ لأنه لم يمض وقت طويل حتى أوجدوا له منافسًا آخر اسمه محمد شاه ، وكان أيضًا من نسل هولاكو ، وقد رتب شيخ حسن جلاير المعروف (بالكبير) أمامه هذا المدعى فجرت أيضًا حرب بين المدعين هذين فى قرب نوشهر ، وهناك بسبب حيلة شيخ حسن الكبير وعذره انهزم موسى وقتل على بادشاه ، ثم ظهر مدع ثالث اسمه طغا تيمور وحد جيشه بجيش موسى ، وفى ١٣٣٧م قاتل الحليفان شيخ حسن قرب مراغة وأفضى قتالهما إلى أسر موسى وقتله (يوليو ١٣٣٧) وفرار طغا تيمور إلى بسطام [1] ، وفى هذه الأثناء أوجد شيخ حسن الصغير ولد تيمور تاش حفيد الأمير تشوبان الذى شرحنا قصة مقتل أبيه فى مصر سابقًا شخصًا يشبه أباه فزادت الفوضى والقلاقل ، وفى النهاية وقرب نخجوان فى يوليو ١٣٣٨م حدثت معركة بين الشيخين حسن الكبير والصغير فر على إثرها الكبير ، وأسر محمد شاه الذى كان تحت حمايته وأهلك ، ولم يتفق شيخ

(١) حكم طغا تيمور فى أستراباد وجرجان ، وشيد فى مشهد عمارات ، ثم قتل فى آخر أمره بيد أحد السربداريين بسبزوار (دولت شاه ، ص ٢٣٧) .

حسن الصغير أو التشوبانى مع تيمور تاش المزور الذى زوجوه من الأميرة ساتى بك أخت السلطان أبى سعيد وأرملة الأمير تشوبان فقتله ، ثم رفعت ساتى بك إلى ملك إيران (٧٣٩هـ / ١٣٣٨-٩م) ، وإذ ذاك استقر الصلح بين الشيخين حسن ، ومن غير المجدى أن نتتبع الفتن والفساد الذى حدث بعد ذلك والدسائس والخيانات التى كانوا يرتكبونها ، فإذا طلب القارئ معلومات مفصلة أكثر عن مسلك شيخ حسن الصغير الردئ وعن أحداثه عليه مراجعة تاريخ دوسون أو تاريخ هوارث ، ويكفى القول هناك إن الشيخ حسن الصغير الذى كان داهية قد غدر أيضاً بطغا تيمور وأوجد مدعياً آخر اسمه سليمان خان من يسل هولاكو للسلطنة وزوجة من ساتى بك أيضاً ، وفى الوقت نفسه رفع شيخ حسن الكبير منافساً آخر من أحفاد أباقاخان إلى الملك وسماه شاه جهان تيمور ، وفى (١٣٤٠م) حدثت معركة بين هذين المدعيين على حدود مراغة فانهزم شيخ حسن الكبير وهرب إلى بغداد وخلع بها الملك المزور شاه جهان تيمور ، وجلس هو على سرير الملك ؛ فأسس من ذاك الوقت أحكم أسرة جلاير فى غرب إيران وبين النهرين التى تفوق أهميتها الأدبية أهميتها السياسية ، وكانت بغداد عاصمتهم وظلت تحكم إلى عام ١٤١١م .

أما نهاية أمر شيخ حسن الصغير حفيد الأمير تشوبان فقد كانت على يد زوجته (عزت ملك) فى عام ١٣٤٣م حين كان يعد جيشه لقتال منافسة ؛ إذ أنهت حياة زوجها وأهلكته على نحو فظيع لكى تخفى جريمتها .

وتفصيل هذه الحادثة نظمها شعراً سلمان الساوجى شاعر الزمان الذى كان تحت حماية شيخ حسن جلاير أو الكبير ، وكان سعيداً بالطبع بموت شيخ حسن الصغير ومعنى شعره :

– مضى من الهجرة النبوية أربع وأربعون وسبعمائة سنة وحدثت فى آخر رجب حادثة سعيدة .

– امرأة ، وما أبدع خيرها بين الخيرات الحسان ، أخذت بقوة ساعدها خصيتى زوجها شيخ حسن بقوة وأخذت تعصرهما حتى مات ورحل ، فما أيمنها من زوجة تعصر الخصيتين وتصرع الرجال .

وبعد هذه الواقعة انتهى عهد سيطرة المغول فى إيران وتوزعت بلادها على أربعة أسر حاكمة قبل أن يغير عليها الجيش السفاح لأمير تيمور بين سنتى ٨٤-١٣٩٣م وهذه الأسر هى : آل جلاير ، وآل المظفر ، وملوك كرت والسربراريين ، وسوف نتحدث عن تفصيل وقائع أيامهم فى الفصل التالى .

توضح أحداث هذه الفترة ، فضلا عن رحلة السياح المعروف ابن بطوطة التى نقلنا تكراراً عنها ، رحلة لسائح أوربى هو فريار أدريك Priar Odaric af Pordenone الذى سافر فى حدود ١٣١٨م إلى إيران [١] ، كما توضح بجلاء كافة وقائع تلك الأيام التفصيلات التى أثبتها أسقف السلطانية فى حدود (١٣٣٠م) ، ويحكى عن أبى سعيد وحكمه باسم Bousaet أو Boussat ، وكذلك روايات قناصلة جمهورية البندقية الذين قدموا إلى تبرير وسائر بلدان إيران للتمثيل عن بلدهم فيما بين عامى ١٣٠٥ و١٣٣٢م [٢] .

(١) طبع هذه الرحلة مسيو هنرى كرديه عام ١٨٩١م فى باريس طبعة أنيقة .

(٢) راجع تاريخ هوارث المجلد الثالث ، ص ٦٢٨ .

الفصل الثانى

مؤرخو العصر الإيلخانى

ظهور مؤرخين كبار فى هذا العصر

جديرة كثيراً بالملاحظة هـذه المدة لسلطنة الإيلخـانيين المغـول التى طـالت مـدة سبعين عاماً – والتى هى الآن بحثنا ودراستنا – من الناحية الأدبية ؛ لأن فى هذه المدة من الزمان ظـهر مؤرخون مـعروفون وكبـار يحق لثمانيـة منهم على الأقل أن يكونوا موضع الدراســة ، كذلك خــرجــت هذه المــدة شــعــراء عظـاماً لو ألحقنا بهم شعراء من الدرجة الثانية لزاد عددهم كثيراً جداً .

الأدب العربى فى هذا العصر

لكن قبل الحديث عن الأدباء الفرس حرى بنا أن نذكر كلمات يسيرة عن الأدب العربى فى هذا العصر ، لأنه يلزم الدارسين الذين يقتصر درسهم على الأدب الفارسى وحده أن يحيطوا بصورة كلية بتاريخ الأدب العربى .

ظـل للغـة العربيـة فـى سائـر بلـدان العالم المكانة نفسها التى كانت للغة اللاتينية فى بلدان أوربا فى القرون الوسطى ما بقى أسـاس الخـلافة ثابتًا وما دامت مـدينة بغـداد على الأقـل عاصمة للحكـم الإسـلامـى ، بمعنى أن اللغـة العربية لم تبق حتى ذاك الوقت لغة الفلسفة وعلم الكلام وبقية العلوم وحسب بل كانـت تعـد – إلـى حـد واسع – اللغة الرائقة المتفتحة لأهل الذوق واللطف ولسانًا لأهل الأدب والسياسة ، ولما قوض المغول أركان الخلافة قلت مكانة اللهجة العـربية ، وكـان لا مناحى لـها من أن تفقـد شيـئًا من اعتبـارها ، إلا إنه قبل أن تنتـهى حيـاة طبـقة العلمـاء الذين أتموا

دراساتهم وتعلمهم باللغة العربية قبل وقوع هذا الاضمحلال والضعف للغة العربية واضحًا فى الحقيقة ولا مشهودًا ، وفى العصور التالية قلت الضرورة لمعرفة الأدب العربى ، مع أن معرفته تكتب دائمًا الأهمية والضرورة ، فقد ظل لهذه اللغة العربية رونقها وازدهارها السابقين ، بل راجت فى دائرة التاريخ وتراجم الرجال وأدب الرحلات ، فإذا وصلنا علوم الكلام والمعقول وسائر العلوم بقيت ضرورة تعلم اللغة العربية كشأنها السابق لتحصيل هاتيك العلوم .

أهمية أقسام الأدب العربى للدارس الفارسى

علينا أن نقسم هذا الجزء من الأدب الذى ندرسه الآن إلى ثلاثة أقسام :

الأول : المؤلفات العربية للإيرانيين العالمية بالعربية ، الذين بعثت مؤلفاتهم الفارسية أن تتردد أسماؤهم على الذكر فى تاريخ أدب بلادهم إيران ، ومن هذه الطبقة قاضى القضاه ناصر الدين البيضاوى الذى يوضح أفضل نموذج ومثال ، و(البيضاء) التى انتسب واشتهر بها هى الاسم العربى لموضع فى فارس عرف وشهر باسمه هذا لوجود قبة بيضاء أو (تربة بيضاء) فيه[١]، ويشتهر البيضاوى بتأليفه تفسير معروف جدًا للقرآن الكريم يسمى أسرار التنزيل ألفه بالعربية[٢]، لكنه ألف أيضًا تاريخًا باللغة الفارسية يسمى (نظام التواريخ) الذى سيأتى شرحه فى ذيل هذا الفصل ، إن اعتبار هذا الرجل العظيم مؤرخًا من الدرجة الثانية وحسب وعدم الحديث فى سعة اطلاعه فى علم التفسير وتغافل تفسيره المهم أمر غير منصف .

(١) عبارة حمدالله المستوفى فى نزهة القلوب التى استشهد بها الأستاذ براون هى (البيضاء) مدينة صغيرة لها تربة بيضاء ؛ لهذا تسمى بالبيضاء من البيضاء علماء متجرون مثل القاضى ناصر الدين أبى سعيد عبد الله ابن محمد البيضاوى صاحب التفسير وغيره من العلماء .

(٢) راجع تاريخ الأدب العربى تأليف بروكلمان المجلد الأول ، ص ٤١٦ .

الثانى : المؤلفات العربية التى لم يكن مؤلفها من الجنس الإيرانى لكن تأليفاتهم أثرت تأثيرات عميقة فى فكر الإيرانيين مثل فصول الحكم وسائر مؤلفات الشيخ محيى الدين بن عربى[1] وتحريرات الشيخ صدر الدين القونيوى وغيرهما ، وهم الذين اكتسبوا شعراء صوفية إيرانيين مثل فخر الدين العراقى معرفتهم من آثارهم المكتوبة ونهلوا من معين أفكارهم .

الثالث : وهو الأهم مما سبق ألا وهو المؤلفات العربية التى وضعت فى علوم الجغرافيا والتاريخ وسير الرجال وتراجمهم، وأنارت لنا السبيل لفهم المسائل الغامضة من قبيل أحوال الرجال والأماكن والحوادث والأفكار التى تواجهها أثناء بحثنا ودراستنا لها، ومن بين مثل هذه المؤلفات نذكر على وجه الخصوص كتاب طبقات الأطباء الذى ألفه أبى أصيبعة[2]، المتوفى عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م فى شرح أحوال الأطباء وسيرهم، ثم كتاب سير الرجال العظام الذى ألفه ابن خلكان المتوفى ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وسماه وفيات الأعيان[3]، والكتاب الثالث وهو آثار البلاد الذى وضع زكريا محمد القزوينى المتوفى ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م[4] ، كذلك فكتاب مختصر الدول لأبى الفرج بن العبرى المتوفى فى ٣٠ يوليو ١٢٨٩م[5]، يحوز أهمية فى التاريخ العام خاصة بسبب تاريخ المغول فيه، كذلك التاريخ المعروف لأبى الغداء أمير حماة المتوفى فى ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م الذى يسمى المختصر فى تاريخ البشر[6]، كما يجدر بالاهتمام رحلة ابن بطوطة المتوفى فى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م[7] ، التى شرح صاحبها فيها مدة أربع

(١) نكر الاسم براون وحكمت (ابن العربى) ، وهذا خطأ (المترجم) .

(٢) راجع بروكلمان المجلد الأول ص ٣٢٥، وقد طبع كتاب طبقات الأطباء فى القاهرة عام ١٨٨٢م/ ١٢٩٩هـ.

(٣) راجع بروكلمان المصدر السابق المجلد الأول ص ٣٢٦ .

(٤) راجع بروكلمان المجلد الأول ص ٤٨١– وقد طبع هذا الكتاب فوسنفلد الألمانى ضمانًا إليه عجائب المخلوقات للمؤلف نفسه فى عام ١٨١٨ فى جوتنجن .

(٥) راجع بروكلمان المجلد الأول ص ٣٤٩. وطبع هذا الكتاب فى أكسفورد عام ١٨٦٣م، وكذلك فى بيروت عام ١٨٩٠م.

(٦) المصدر السابق المجلد الثانى ، ص ٤٤ .

(٧) المصدر السابق ، المجلد الثانى ص ٢٥٦ – طبع هذا الكتاب ، ومع ترجمته الفرنسية فى أربعة مجلدات فى سنوات ١٨٥٣، ١٨٥٨، ١٨٦٩، ١٨٧٩م .

وعشرين سنة شملت ما بين عامى ١٣٢٥م إلى ١٣٤٩م. ولم يكتفِ بذكر أوضاع إيران بل ذكر أيضًا الشطر المهم لآسيا من القسطنطينية إلى الهند والصين ، ومن جزيرة العرب إلى أفغانستان وما وراء النهر .

كتاب آثار البلاد

حين يغفـل الدارسـون للتاريـخ والأدب الفارسى هذه الكتب فقد حرموا أنفسهم فى الحق من أكثر مصادر دراستهم ثراء وثقة، ومع ذلك فغالبًا ما يرتكبون هذه الغفلة حتى المطلعون ذوو البصيرة منهم الذين لهم مؤلفات مدققة فى الشعر والأدب الفارسى قل أن راجعوا هذه الكتب النفسية، وللمثال نذكر كتاب آثار البلاد تأليف زكريا بن محمد القزوينى الذى أشرنا إليه فيما سلف .

وطبقًا للفهرست الآتى، فقد ذكر القزوينى الشعراء البارزين الإيرانيين ضمن شرح أحوال البلاد التى ولدوا بها أو توطنوا فيها، ولا فوت من ملاحظة هذا الكم العظيم من المعلومات المتعلقة بهم، والتى وردت بهذا الكتاب ، والتى فقدها غالب كتب سير الشعراء:

١ – **الأنورى:** (ص ٢٤٢) من طبعة فوستنفلد wüstenfeld

٢ – **العسجدى:** (ص ٢٧٨) .

٣ – **أوحد الدين الكرمانى** (ص ١٦٤) .

٤ – **الفخر الجرجانى** (ص ٣٥١) .

٥ – **الفرخى** (ص ٢٧٨) .

٦ – **الفردوس** (ص ٢٧٨) وكذلك بضعة أبيات الشاهناقة (ص ١٣٥) .

٧ – **جلالى طبيب** (ص ٢٥٧) .

٨ – **جلالى خاورى** (ص ٢٤٣) .

٩ – **الخاقانى** (ص ٥٧٣) فضلاً عن ثلاثة أبيات من شعره فى صفحة (٤٠٤) .

١٠- **أبو طاهر الخاتونى** (ص ٢٥٩) .

١١- **مجير البيلقانى** (ص ٣٤٥) .

١٢- **النظامى** (ص ٣٥١) .

١٣- **ناصر خسرو** (ص ٣٢٨) .

١٤- **أبو سعيد بن أبى الخير** (ص ٢٤١) .

١٥- **السنائى** (ص ٢٨٧) .

١٦- **شمس الطبسى** (ص ٢٧٢) .

١٧- **عمر الخيام** (ص ٣١٨) .

١٨- **العنصرى** (ص ٣١٨) .

١٩- **رشيد الدين الوطواط** (ص ٢٢٣) .

وبناءً على هذا فإن كتاب آثار البلاد ضم موضوعات مفيدة وجامعة قل بندرة أن يضمها كتاب آخر والتى تتعلق بهؤلاء الشعراء الفرس التسعة عشر الذين خلفوا دواوين شعرية قبل القرن الثالث عشر (السابع الهجرى) وفى أثنائه، كما تعد محتويات كتاب آثار البلاد فى غالب الموضوعات أقدم مصدر للمعرفة فى أيدينا[١] بعد كتاب لباب الألباب لمحمد عوفى وتشهار مقاله أو المقالات الأربع لنظامى عروضى السمرقندى وهما من الكتب القديمة الفارسية الموجودة التى ترجمت للشعراء الفرس بأسلوب منظم متفاوت، هذه المعلومات الشعرية من ضمن آلاف الموضوعات المفيدة لهذا الكتاب القيم الذى يلبى رغبة دارسى اللغة الفارسية .

(١) يذكر صاحب آثار البلاد فى صفحة ٢٣٤ أنه لاقى فى عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م الشيخ محيى الدين عربى ، والنسخة التى خطها المؤلف بنفسه تؤرخ بعام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م ، وعليه فإن تاريخ تأليف هذا الكتاب يقع ما بين هذين العامين أى ٦٣٠ و ٦٧٤ هـ .

تاريخ جهابخشا للجوينى

والآن علينا أن نشرح أحوال المؤرخين الذين كانوا هم كتاب وأدباء هذا العصر كما ذكرنا لأن فى كافة العصور السابقة واللاحقة قد ظهر شعراء مشهورون فاقوا شعراء هذا العصر من حيث العدد ومن حيث الشهرة ، ولكنه لم يظهر فى أى عصر وزمان مؤرخون يكافئون مؤرخى هذا العصر من حيث الكم ومن حيث الكيف .

أشرنا تكرارًا إلى تاريخ جهابخشا أو جهانكشا أى فاتح العالم أو جنجيزخان عند المؤلف عطاملك الجوينى فى الجزء الثانى من الكتاب هذا، لكن يتوجب الحديث عنه هنا حديث أكثر إسهابًا ونضيف نقاطًا عدة إلى ما ذكرناه، ألف هذا الكتاب فى عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ، لكنه ينتهى بذكر حوادث عام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م ، ويهتم بوجه خاص بسقوط الإسماعيلية على يد حامى المؤلف وممدوحه أى هولاكو خان، ويشمل بعض النسخ الخطية لهذا الكتاب ملخصًا واحدًا له وهو الذى تضمن فتح بغداد وسقوط الخلافة فى السنة التالية أى عام ٦٥٦هـ، لكن هذا الملحق من المحتمل أنه أضيف على ذاك الكتاب وهو من تأليف شخص آخر، ويحوى عامة هذا الكتاب ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى سيرة جنكيزخان وتاريخه وشرح لتاريخ أسلافه وأخلاقه حتى عهد جغتاى، والقسم الثانى: لشرح تاريخ الخوارز مشاهيين أو حكام خوارزم خاصة آخر سلطانيين لتلك الأسرة أى قطب الدين محمد وابنه جلال الدين، والقسم الثالث والأخير لتاريخ طائفة الإسماعيلية وبالأخص الحسن الصباح وفدائى قلعة الموت الحشاشين ؛ وبالتالى فإن هذا الكتاب ليس كتابًا فى التاريخ العام بل إنه تاريخ خاص ؛ إذ يختص بجنكيزخان وأجداده وأولاده وأحفاده، وأضاف إليهم المؤلف تاريخ أسرتى السلاطين الذين حاربهم جنكيز فى إيران والعراق، وسائر التفصيلات والدقائق المتعلقة بهذا الكتاب النفيس القديم النظير قد بينها مؤلف هذا الكتاب التى بين أيديكم ضمن مقالة مفصلة أعدها لمجلس الملكية الآسيوية فى عددها المؤرخ بيناير ١٩٠٤م، كما أن العالم العلامة ميراز محمد بن عبد الوهاب القزوينى طبع الجزئين الأول والثانى من أجزائه الثلاثة فى عامى ١٩١٢ و ١٩١٦م من موقوفات جيب E.J.W. Gibb

ودبج للجزء الأول مقدمة كاملة ونقدية لهذا الكتاب ومؤلفه وأسرة الوزراء الجوينيين المنتسب إليها المؤلف[١].

توفى عطاملك جوينى فى مارس ١٢٨٣م ؛ فرثاه أخوه الخواجة شمس الدين صاحب الديوان بمرتبة منها هذا البيت:

كأننى وهو كما شمعتين مرتبطتين   قامت شمعة منهما تحترق الأخرى

ونظم هذين البيتين فى مادة تاريخ وفاته صدر الدين على ولد الخواجة نصر الدين الطوسى[٢]:

علاء الحق والدين آصف العهد وزبدة الكون   ودع الدنيا حينما انتهى زمانه

فى ليلة السبت الرابع لشهر ذى الحجة   عام واحد وثمانين وستمئة فى أرّان

تاريخ وصاف

ولأن تاريخ وصاف ألفه بقصد أن يكون تتمة لتاريخ جهابخشنا للجوينى، كما يذكر مؤلفه نفسه ؛ لهذا فمن المناسب أن ندرس بعد ذلك الكتاب رغم أن تاريخ تأليفه يتلو تاريخ تأليف كتاب جامع التواريخ الرشيدى إلى سنتناوله بعد قليل بالدراسة .

الاسم الحقيقى لهذا الكتاب هو (تجزئة الأمصار وتزجية الأعصار)[٣] ، ومؤلفه هو عبد الله بن فضل الله الشيرازى مع أنه مشهور عامة بوصاف الحضرة أو الوصاف

(١) المجلد أو الجزء الثالث لتاريخ جها بخشا فى تاريخ منكوقا أن وهولاكو والإسماعيلية طبع فى مطبعة برايل فى لندن من بلاد هولندة بسعى واهتمام من الأستاذ العالم محمد بن عبد الوهاب القزوينى منظماً إليه الحواشى والفهارس وذلك فى سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م ، وانتشر فى عداد سلسلة كتب أوقات جيب أو التذكارية برقم XVI ، وبير المترجم الآن ، وهو يترجم كتاب براون هذا هذه النسخة المطبوعة المذكورة .

(٢) نقل هذا البيت من مجمل الفصيحى الخوافى .

(٣) ترجمة هذا العنوان الإنجليزية كما وردت هى: The Allot ment oglamda and pmopu of Ages

الذى اشتغل بجمع الضرائب والأموال الديوانية ، وكان من أتباع الوزير الكبير الخواجة رشيد الدين الذى قدم المؤلف وكتاب تاريخه أيضًا فى اليوم الأول لعام ١٣١٢م الموافق ٧١٢هـ لأولجايتو خان فى السلطانية[١].

تحقيقات الدكتور رييه فى محاسن كتاب وصاف ومعايبه

هذا الكتاب التاريخى – كما حققه الدكتور رييه DR. Rieu بدقة – عبارة عن شرح مستند إلى وثائق قد بين وقائع دورة مهمة لعصر المؤلف، لكن ما قلل من قدر هذا الكتاب وقيمته العظيمة إلى حد نقيصة النظام والترتيب فى إعداده فضلاً عن إنشائه المتكلف وإطنابه الممل ؛ وقد صار أسلوبه هذا للأسف نموذجًا لآخرين وأثر سلبًا فى تأليفات المؤرخين فى العصور اللاحقة له.

ولا يمكن لمن يطالع هذا الكتاب ويدرسه أن ينكر هذا النقد، وفى الحق أن المؤلف يقرر نفسه أن مقصوده الأصلى كان الفصاحة والبلاغة والإنشاء المصنع والمغلق ، وكان يجعل من الوقائع التاريخية التى سلكها فى سلك تحريره موضوعًا لإظهار بلاغته وفصاحته، وكان يقصد من وراء هذا إثبات علو نفسه ومهارته فى فنون المعانى والبيان، ويقال إن مؤلف هذا التاريخ قابل أولجاتيو خان ، وقرأ منه له صفحات عديدة بصوت عال فعجز الخان عن فهم معانيه، ويمكن لقارئه غير الإيرانى إذا لم يكن أستاذًا ومرفقًا فى اللغة الفارسية أن يدرك درجة تصنعه وتكلفه ومشكلات إنشائه بمقايسة بالترجمة الألمانية لجزئه الأول التى طبعها مع أصلها الدكتور هامر Hammer سنة ١٨٥٦م [٢].

وإذا لم يكن موضوع هذا الكتاب هو تاريخ فترة وعهد مهم يقع بين عامى ١٢٥٧ و١٣٢٨م، ولا يشك فى صحته وثقته لأمكننا ألا نلوم أسلوب تأليف المؤلف له،

(١) راجع تاريخ وصاف ، طبعة بمباى ، ص ٥٤٤ .

(٢) راجع فهرست المخطوطات الفارسية بالمتحف البريطانى ، ص ١٦٢ .

لكن فى الحق أن هذا المصدر يتمتع بالأهمية وجدارة الاعتماد والثقة بدرجة تمتعه بالأشكال والإغلاق ، ويشمل هذا الكتاب خمسة مجلدات استخلص محتوياتها الدكتور ريبه ، وفوق ذلك الجزء الذى نشره هامر بترجمته الألمانية كما سبق القول فإن سائر أجزائه طبعت طبعة حجرية فى غاية الأناقة فى بمباى فى شهر رجب عام ١٢٦٩هـ الموافق لأبريل ١٨٥٣م.

تاريخ المعجم فى آثار ملوك العجم

ولعل من المناسب هنا أن نذكر كتاباً آخر من كتب التاريخ يماثل إنشاؤه طراز تاريخ وصاف ، لكنه يقل عنه من حيث القيمة والقدر كثيراً ، وهو كتاب المعجم فى آثار ملوك العجم الذى سلك فى عقد التحرير بأسلوب فصيح تاريخ ملوك إيران القدامى حتى آخر عهد الساسانيين بقلم فضل الله الحسينى[١] ، وتوشح باسم نصره الدين أحمد بن يوسف شاه أتابك الور الكبار الذى حكم ما بين ١٢٩٦ و ١٣٣٠م ، وهذا الكتاب من حيث المرتبة ضعيف كثيراً فى قيمته التاريخية عن سائر كتب التواريخ المسطورة فى هذا الباب، وقد طبع على الحجر فى طهران ، وتوجد نسخة المخطوطة فى غالب المكتبات الكبيرة الشرقية[٢].

كتاب جامع التواريخ الرشيدى

آن الأوان الآن لأن نتحدث بإسهاب وتفصيل عن المؤلف الكبير والمعروف جامع التواريخ الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق بمناسبة ذكر مؤلفه؛ مؤلفه العظيم

(١) فضل الله الحسينى فيما يبدو هو والد عبد الله بن فضل الله صاحب تاريخ وصاف، وقد صرح حاجى خليفة بذلك فى قوله (واستخرج بعض الفضلاء أنه والد وصاف)، فعلى هذا تكون وفاته سنة ثمان وتسعين وستمائة، ومقبرة صاحب تاريخ وصاف فى شيراز ما بين الحافظين وتكية تشهل تنان .

(٢) راجع فهرست ريبه ، ص ٨١١، وفهرست مكتبة بادليان تأليف اتيه رقم ٢٨٥، وفهرست مكتبة إدارة الهند تأليف إيته رقم ٥٢٤ .

هو رشيد الدين فضل الله الذى كان نسيج عصره ومقدم أقرانه فى علم الطب والإدارة والتاريخ وعمل الخيرات، وبينا سيرته السياسية ونهايته المؤلمة ونذكر بضع كلمات عن مندرجات كتابه التاريخى ومحتوياته بل وعن حياته الخاصة وأعماله الأدبية، وللأسف فإن هذا الكتاب التاريخى لا يزال عاريًا من حلية الطبع ومخطوطاته كذلك فى غاية الندارة والقلة، ولكن من بين الأجزاء التى طبعت مجزأة ما طبعه الفرنسى كاترمير Qaatr mere فى باريس فى ١٨٣٦م ، ويخص سيرة هولاكو خان وزاد عليه ترجمته الفرنسية مضمومًا إليها حواشٍ قيمة وضع لها هذا العنوان :

"Hiztoer des mongols de la perse, écrite en persan par raschid-ed- din, publiée, tradrite en français, accompagnée de notes et d'un mémoire ser la vie et les ouvrages de l'auteur."

أى تاريخ مغول فارس المؤلف بالفارسية بيد رشيد الدين منشورًا ومترجمًا إلى الفرنسية مضمومًا إليه حواشٍ ومذكرات من حياة المؤلف وأعماله.

ونحن ننتخب وننقل من بين هذه المذكرات القيمة التى يمكن لمن يريد معلومات جامعة ومسببة الرجوع إليها الموضوعات البارزة الآتية بحياة رشيد الدين ومؤلفاته.

ولادته فى ١٢٤٧م/ ٦٤٥هـ

ولد رشيد الدين فى حدود ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م فى همدان ونسبه أعداؤه إلى أصل يهودى ، وكان جده الأعلى موفق الدولة على برفقة الحكيم والمنجم المعروف الخواجة نصير الدين الطوسى ورئيس الدولة ضيوفًا رغم أنوفهم لدى الفدائيين الإسماعيليين فى قلعة الموت، فلما فتحها هولاكو وولد وقتها رشيد الدين دخل موفق الدولة خدمة هذا الخان، ونصب رشيد الدين طبيبًا خاصًا لأباقا خان وقت حكمه ولقى نفوذًا واحترامًا لديه، لكن حين جلس غازان فى ١٢٩٥م على أريكة السلطة بلغت كفاءته واستعداده منصة العلوم والشهود ، وبعد أن عزل الوزير الأعظم صدر الدين الزنجانى الملقب بصدر جهان وقتل بثلاث سنوات اختاره غازان للوزارة بشركة خواجة سعد الدين.

وزارته فى عهد غازان عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٨م وقوته المتزايدة فى عهد خدابنده

وفى عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م حين جرد غازان جيشه لحرب الشام كان رشيد الدين بصحبته بوظيفة المنشىء أو الكاتب العربى ، وفى هذه الأيام نفسها حين نزل وصاف تعريف السلطان (عانة) على ساحل نهر الفرات قدم رشيد الدين بمؤلف تاريخ وصاف تعريف السلطان غازان به وعرض عليه كتابه فى الثالث من مارس عام ١٣٠٣م .

وفى عهد حكم أولجايتو محمد خرابنده ظل رشيد الدين يحتظى بالمرتبة والمكانة التامة كعهد الخان السابق ، بل اختص لدى الخان الجديد بمزيد الإكرام والثقة ومقارنة تلك الأيام عمر ناحية فى السلطانية حين غدت العاصمة الجديدة للدولة عرفت باسمه وسميت بالرشيدية ، وكانت تحوى مسجداً فخماً ومدرسة ومستشفى وسائر المؤسسات الخيرية رجلين من العلماء الشافعيين فى بغداد : وهما شهاب الدين السهروردتى ، وجمال الدين اللذين اتهما بالتجسس لحساب سلطان مصر وعوقبابها [1] .

تأسيس الربع الرشيدى وتعميره

وبعد هذا بعامين أسس ربعًا أوحيًا خصه بمزية الزينة والجمال قرب مدينة الغازاتية التى نشأت على أطراف قبر غازان خان فى شرق بتريز ، وشق بنفقات ضخمة نهر (سرارود) أو نهر القصر من بين الأنهار التى شقها فى قلب الأحجار الصماء [2] ، وكان يلزم أموال ضخمة لبناء هذه الناحية وغيرها من المؤسسات الخيرية والمرافق العامة ، لكن رشيد الدين – كما يعترف بنفسه – وجد من سلطانه الكريم أولجايتو

(١) راجع تاريخ المغول لكاترمير ص XVI و XVII وشهاب الدين هذا بالطبع هو غير شهاب الدين الهروردى مرشد الشيخ السعدى المتوفى عام ٦٣٢هـ/ ١٢٢٤م ، وجمال الدين هو هو الأكولى ، راجع المصدر السابق ص XVI .

(٢) راجــع كتاب بلدان الخلافة الشرقية تأليف لواسترنج Jands of Eadtem Cali fate Le Strange ص ١٦٢ .

من العطاء ما لم يجده وزير قبل من أى سلطان ، وبناء على ما يذكره تاريخ وصاف ، فقد أنفق فقط على نسخ كتبه القيمة وتجليدها وتصوير صورها وزخرفتها ما لا يقل عن ستين ألف دينار أى نحو ما يساوى اليوم ستة وثلاثين ألف جنيه .

التنافس والدسائس

وفى أوائل عام ١٣١٢م سقط زميل رشيد الدين ، وهو الخواجة سعد الدين الساوجى من مقام عزته ورفعته وقتل ، وكان المحرك الأول لهذه الدسية التى راح ضحيتها هذا الوزير هو الخواجة على شاهن الجيلانى ، وقد كان رجلاً مزوراً وحقيراً ، وبعد وقت قصير من تولى رشيد الدين مكان سعد الدين فور مقتله حال هذا الرجل دسيسة خطيرة استهدفت رشيد الدين حاقت لحسن الحظ بأهلها ، ولم تصب رشيد الدين بسوء ، أما هذه القضية وهى أن رشيد الدين هو المسئول والمسبب لقتل السيد تاج الدين نقيب الأشراف وسفك دمه من ناحية أخرى فهى محل شك ، وقد أثبت كاترمير الباحث الفرنسى زيفها .

سقوط رشيد الدين وقتله فى ١٣١٨م

وفى عام ١٣١٥م برز خلاف ونزاع شديدان بين هذين الوزيرين أى رشيد الدين وعلى شاه ، وكان موضوع النزاع أن خزانة السلطان وقد خوت من الضرائب الديوانية وتوقف صرف رواتب الجيش فصار تحديد الباعث والمسبب لنقص الخزانة علة هذا النزاع ، ولجأ أولجايتو إلى تقسيم ترتيبات كل بلد من بلاد إيران وآسيا الصغرى ونظمه بين هذين الوزيرين حتى لا يقع خلاف بعد ذلك .

ومع هذا قد استمر على شاه فى سلسلة الاتهامات والعداوة ضد زميله إلى حد أن رشيد الدين استطاع بمشقة بالغة إنقاذ نفسه من هذه المصائب ، وبعد موت

أولجايتو وفى عهد حكم أبى سعيد استمرت هذه المنافسة والفساد حتى رضخ فى نهاية الأمر رشيد الدين أمام هجمات خصمه العنيد ؛ فاستقال فى أكتوبر ١٣١٧م من عمله ، وفى النهاية قتل فى ١٨ يناير ١٣١٨م وهو فى سن تزيد على السبعين ، ومعه ابنه إبراهيم البالغ من العمر ستة عشر عامًا بتهمة دس السم أولجايتو السلطان السابق ، وصادر الديوان ما يملك وعوقب ، ونكب أهله وأتباعه ، واغتصبت أوقافه ومؤسساته الخيرية ، ونهب كافة ما فى الربع الرشيدى الذى بناه وسلب .

تخريب تأسيسات رشيد الدين وهدم قبره

ومع أن جسده دفن فى المكان الذى جعله قبرًا له كأنه لم يكن مقدرًا لجسده أن يستريح فى راحة الأبدية لأن بعد ذلك بقرن تقريبًا ميران شاه بن الأمير تيمور قد أمر فى طيش جنونه وجهالته بإخراج جثته من قبرها ودفنها فى مقابر اليهود ، وأرسل على شاه تحفًا عظيمة إلى الكعبة المشرفة فرحًا بانتصاره الذى ناله بإسقاط عدوه القديم وكأن يد القضاء أعافته وحده من الجزاء الذى ارتهن به كافة نظرائه وأقرانه ؛ إذ توفى حتف أنفه بعد ذلك بأعوام ستة أى فى ١٣٢٤م ، وكان أول وزير كما ذكرنا ينتهى عمره بالموت الطبيعى فى عهد حكم الإيلخانات المغول ، وقد تحدثنا بما يكفى عن سيرة ولد رشيد الدين أى غياث الدين الذى شابه أباه فى علمه وأخلاقه ونشره تأسيس المرافق الخيرية ، وكذلك فى نهايته المحزنة فقد قتل بدوره آخر أمره فى ربيع عام ١٢٣٦م .

طرح كتاب جامع التواريخ وتأليفه

يرى كاترمير أن مأثره ظهر كتاب جامع التواريخ إلى غازان خان [١] ؛ لأن هذا الملك كان يتنبأ بأن المغول فى إيران مع تفوقهم واقتدارهم فى ذلك الوقت لامناص لهم بمرور الأيام من الذوبان فى الجنس الإيرانى ؛ فأراد بالتالى أن يخلف تذكارًا لأخلاف

(١) راجع تاريخ المغول لكاترمير ، ص LVII .

المغول عن أعمالهم فى صورة كتاب تاريخى جامع يشمل فتوحاتهم ، وانتخب للإيفاء بهذا الأمر الخطير رشيد الدين ، ولم يكن من الممكن أن يوجد أفضل من هذا الاختيار بالصدفة ، فوضع تحت إشارته جميع الوثائق والمكتوبات وآثارهم القديمة ، ومع أن هذا الوزير الكبير كان مشغولاً بتنظيم الأمور الديوانية لمثل هذه البلاد العريضة والطويلة فقد كان يغتنم مع ذلك الفرصة للدراسات التاريخية لذلك الكتاب ولتأليفه كما ينبغى ؛ مع أن – بقول دولت شاه صاحب تذكرة الشعراء – (لم يتيسر وقت لكتابة هذا التأليف غير وقت الفجر بعد أداء الصلاة وبعض الأوراد حتى طلوع الشمس ، لأنه لم يفرغ فيما بقى من النهار بسبب أمور الملك والمشاغل الديوانية) [١] .

تحليل محتويات كتاب جامع التواريخ

وقبل أن يتم تأليف تاريخ المغول بيد رشيد الدين حلت المنية بغازان خان فى ١٧ مايو ١٣٠٥م ، لكن خليفه أولجايتو أمر الوزير بإتمامه باسم غازان كما خطط فى بداية الأمر ، ولهذا يسمى هذا الجزء من هذا الكتاب المعروف عامة بالمجلد الأول بالتاريخ الغازانى ، كما أمر الخان المؤلف بأن يزيد عليه مجلداً آخر يجعله شاملاً للتاريخ العام للعالم وبالأخص البلاد الإسلامية ومجلداً ثالثًا أيضًا ليحوى المسائل الجغرافية ، وهذا الجزء الثالث أو الأخير إما أنه زال وضاع ، أو أنه لم يؤلف أصلاً بل اقترح موضوعا فقط ، لأنه لا يوجد فعلاً من هذا الكتاب غير مجلدين اثنين ؛ الأول فى تاريخ المغول الذى ألف لغازان ، والثانى فى التاريخ العام ، وانتهت سنوات هذين المجلدين إلى عام (٧١٠هـ/ ١٣١٠ – ١١م) مع أن المؤلف كان يضم وقائع حكم أولجايتو كذلك إلى هذا الكتاب حتى سنتين بعد هذا التاريخ .

(١) دولت شاه ، ص ٢١٧ ، طبعة ليدن .

محتويات هذا الكتاب الكبير بإيجاز كالتالى :

المجلد الأول : التاريخ الخاص بالمغول والأتراك

الفصل الأول : تاريخ الطوائف المختلفة للترك والمغول ، قبائلهم وسلسلة أنسابهم وطبقاتهم وأساطيرهم وغير ذلك ، ويشمل مقدمة وأربعة أقسام .

الفصل الثانى : تاريخ جنكيزخان ، أسلافه وأخلافه حتى عهد غازان خان .

المجلد الثانى : التاريخ العام

المقدمة : فى تاريخ آدم الصفى والأنبياء العظام ورسل بنى إسرائيل عليه السلام .

القسم الأول : تاريخ سلاطين إيران القدماء قبل الإسلام فى أربعة فصول .

القسم الثانى : تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفاء الإسلام حتى زوال الخلفاء بيد المغول فى عام ١٢٥٨م – الأسر التسع بعد الإسلام فى إيران التى تشمل الغزنويين – السلاجقة – الخوارزمشاهيين – الأتابكة السلغريين بفارس – الصينيين – العبرانيين – الفرنجة وأباطرتهم وباباواتهم – الهنود وسيرة طويلة ومهيبة لساكيامونى Sakya manie أى بوذا والمذهب الذى أسسه .

الترتيب الذى كان يراه المؤلف للكتاب

الترتيب السابق هو محتويات الكتاب نفسه بالنظام الذى يوجد به فى النسخ المخطوطة لإدارة الهند (india office) ، وفى المتحف البريطانى ، أن التقسيم الذى ذكره المؤلف نفسه فى مقدمة الكتاب يختلف قليلاً عن ذاك الترتيب لأنه أخذ فى نظره أنه يبدأ المجلد الثانى بتاريخ سلطان زمنه أى أولجايتو ؛ فيشرح الوقائع من تاريخ ولادته إلى سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م ، وأن يضيف خاتمه تشمل تاريخ ذلك الخان سنة بعد أخرى إلى آخر ذلك المجلد نفسه ، ولم يرع هذا الترتيب المشوش فى غالب النسخ المخطوطة

بل إن بعضها فقد تاريخ أولجايتو خان وبعضها وضع أحداث هذا الخان فى مكانها الطبيعى وزمنها المناسب أى بآخر المجلد الأول بعد شرح تاريخ هذا الخان فى مكانها الطبيعى وزمنها فقط من النسخ المخطوطة الموجودة ، رغم أن ما يوجد من أجزاء فى واحدة من تلك المجموعة الكاملة لا يوجد فى أخرى منها [1] ، وقد ذكرت فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يناير ١٩٠٨م شرحًا أتم بشأن موضوعات هذا الكتاب ووضحتها بالتفصيل ، واقترحت ترتيبًا جديدًا لطبع ذلك الكتاب الذى تمس الحاجة إليه فوق العادة .

ترتيب مقترح لطبع كامل لجامع التواريخ فى سبعة مجلدات

بغض النظر عن التقسيمات المضطربة التى رآها المؤلف ، فأنا أرى أن الأجدر لهذا الكتاب أن يطبع كله فى سبعة مجلدات ، بحيث يحوى ثلاثة منها تاريخ الترك والمغول وينطبق على المجلد الأول للنسخة الأصلية ، أما الأربعة الأخرى فتنطبق على المجلد الثانى على النحو التالى :

المجموعة الأولى : تاريخ المغول والترك

المجلد الأول : من بداية تاريخ جنكيزخان إلى وفاته .

المجلد الثانى : من جلوس أوكتاى إلى وفاة تيمور (أولجايتو) حفيد قبلاى خان [2] .

المجلد الثالث : من جلوس هولاكو إلى موت غازان ، ويحب إضافة تاريخ ما بقى من الإيلخانيين المغول حتى أبى سعيد إلى هذا القسم لأنه ليس إلا ملحقًا إلى التاريخ الأصلى الذى ألفه رشيد الدين ، وقد تم تأليفه فى عهد حكم شاهرخ التيمورى وبأمره .

(١) يوجد فى المكتبة السلطانية بطهران نسخة كاملة ونفيسة لهذا الكتاب .

(٢) طبع هذا القسم بلوشيه الفرنسى ضمن سلسلة جيب التذكارية فى المجلد السابع عشر منها .

المجموعة الثانية : التاريخ العام

المجلد الرابع : مقدمة تاريخ ملوك الفرس القدماء حتى سقوط آل ساسان وشرح سيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) .

المجلد الخامس : سائر تاريخ الخلفاء من عهد أبى بكر إلى المستعصم العباسى .

المجلد السادس : تاريخ ملوك إيران المسلمين (الغزنويون - السلاجقة - الخوارزم شاهيون - السلغوريون والإسماعيلية) .

المجلد السابع : بقية الكتاب وتشمل تاريخ الترك - الصينيين - بنى إسرائيل - الفرنجة والهنود الذى نقل عن رواياتهم وأخبارهم .

ولا يتميز وحسب كتاب جامع التواريخ فى أن نطاق موضوعاته واسع وممتد ، وفى أن محتوياته استمدت من مصادر موثقة بما فيها من مصادر مكتوبة وشفافية وكتبت بدقة كبيرة بل إنه يتميز كذلك بريادته وابتكاره ، فلا يمكن الجزم فى عالم التاريخ كله بأن كتابًا يساوى جامع التواريخ فى قيمته وقدره من كتب النثر الفارسى ، وما يؤسف له أن النسخة المذكورة له لم تطبع حتى الآن وغير ممكن طباعتها تقريبًا ، يذكر كاترمير فى حق هذا الكتاب (ليس من ضرورة أن نذكر أكثر من هذا الأدلة والبراهين على أهمية كتاب رشيد الدين الفائقة للعادة ، ويكفى أن نقول إن هذه النسخة النفسية ألفت بأفضل الوسائل والأسباب ، وفى أفضل الأوضاع والظروف التى لم تتوفر لمؤلف قط من قبل ، وبالنتيجة كانت هى الأولى من نوعها فى شمولها عهدًا كاملاً ضم تاريخ لشعوب آسيا وجغرافيتهم العامة [١] ، ثم يصف كاترمير التدقيق والصحة اللذين ميزا كتاب رشيد الدين ، ويذكر أن المؤلف توفر له هذا القدر من المصادر الصينية للجزء التاريخى ببلاد الخطا هذه المصادر التى تجاوزت المصادر المكتوبة والمروية) [٢] ،

(١) كاترمير تاريخ المغول ، ص LXXIV .

(٢) المصدر السابق ، ص LXXVIII .

ثم يبدى أسفه على إن القسم الجغرافى لهذا الكتاب فقد أو على الأقل لم يظهر حتى الآن ، ومن المحتمل - كما يظن كاترمير [١] - أن هذا الجزء ضاع أثناء النهب والتخريب اللذين حدثا للربع الرشيدى بعد قتل رشيد الدين مباشرة .

بقية مؤلفات الخواجة رشيد الدين [٢]

سطر رشيد الدين فوق كتابه جامع التواريخ عدة كتب أخرى شرح كاترمير لها ولموضوعاتها شرحًا مفصلاً [٣] منها كتاب (الأحياء والآثار) الذى يشمل أربعة وعشرين مجلدًا ويحوى قضايا مختلفة من قبيل المسائل المتعلقة بعلم كائنات الهواء والفلاحة والزراعة وتربية نحل العسل والقضاء على الحشرات ، والزواحف السامة الضارة ، وغرس الأشجار وتربية الحيوانات ، والمعمار ، وبناء القلاع والسفن ، واستخراج المعادن ، وتصفية الفلزات وصهرها ، وهذا الكتاب مفقود للأسف ، ومن مؤلفات رشيد الدين الأخرى كتاب التوضيحات ألفه فى رسائل التصوف والكلام ، ويشمل مقدمة وتسع عشرة رسالة ، وقد ألفه بناء على طلب أولجايتو خان وشرحها ووصفها كاترمير بناء على مخطوطة له موجودة فى المكتبة الوطنية الفرنسية .

ويأتى بعد ذلك الكتاب كتاب آخر ألفه فى التفسير وعلم الكلام يسمى بمفتاح التفاسير ويبحث فى المسائل المختلفة من قبيل الفصاحة الربانية للقرآن ، ومفسرى هذا

(١) المصدر السابق ، ص LXXXI .

(٢) من آثار رشيد الدين مجموعة رسائله باسم (مكاتبات رشيدى) جمعها شخص باسم مولانا محمد البرقوانى ، ونشرت باهتمام وتصحيح من العلامة محمد شفيع اللاهورى أستاذ جامعة البنجاب ، وقد ضم إليها الحواشى والفهارس المفيدة عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م ، ضمن منشورات هذه الجامعة ولدى نسخة موشحة بخط باشرها ومصححًا العالم ، وتشمل مقدمة كتبها جامع هذه المكاتب تمتلأ مع الأسف بالمحذوفات والسواقط ، وتحوى ٥٣ رسالة ومكتوبًا أرسلها رشيد الدين إلى أولاده وعماله وأصدقائه فى أوقات مختلفة ، وقد ورد شرحًا لها بآخر هذا الفصل .

(٣) راجع تاريخ المغول لكاترمير ، ص ١١٢ إلى ١٤٦ .

الكتاب المبين ومناهجهم والخير والشر والجزاء وطول العمر والربوبية والقدر والمعاد الجسدى وغير ذلك ، وأضاف إليه شرحًا فى إبطال مذهب التناسخ وتعريفًا للألفاظ والمصطلحات الفنية .

وكتاب (الرسالة السلطانية) كتاب آخر فى هذا المضمار ألفه فى التاسع من رمضان ٧٠٦هـ/ ١٤ مارس ١٣٠٧م ، وجمع به المباحثات والمناظرات التى جرت بين علماء عهده فى الموضوعات الكلامية بحضور أولجايتو .

أما كتاب لطائف الحقائق ، فيشمل أربع عشرة رسالة أيضًا من شرحات قلمه وتبدأ بشرح الرؤيا التى رآها المؤلف فى ليلة ٢٦ رمضان ٧٠٥هـ/ ١١ أبريل ١٣٠٦م ، ورأى فيها الرسول (صلوات الله عليه) ، ومحتويات هذا الكتاب بدورها تدور حول المسائل الكلامية ، وهذا الكتاب والكتب الثلاثة المذكورة فيما سبق كلها باللغة العربية ، وكلها تشكل (المجموعة الرشيدية) التى يوجد نسخة لها فى باريس تاريخ نسخها عام (٧١٠هـ/ ١٣١٠ - ١١م) [١] .

وفى مكتبة باريس نفسها توجد نسخة مخطوطة أخرى لذلك الكتاب تضم أيضًا ترجمة فارسية له ، وكذلك نسختين لشهادة صدق عليها وسجلها سبعون رجلاً من علماء الإسلام ومشايخه على صدق عقيدة رشيد الدين وإسلامه ، وقد رتب رشيد الدين هذه الشهادة بسبب أن شخصًا من أهل البغضاء والعدوان كان يروم الاستفادة من نذور غازان خان وأوقافه التى كانت قاصدًا على أهل العلم والفضل فلم ينل غرضه ؛ فاتهم الخواجة رشيد بفساد عقيدته عنادًا وإعراضًا ؛ فنظم الوزير هذه الشهادة لإبراء ذمته .

ومن مؤلفات رشيد الدين الأخرى كتاب لا نعرف منه غير موضوعاته مع الأسف ويسمى بيان الحقائق يشمل عشرة رسائل حررت غالبًا فى المسائل الكلامية مع أن بعض الموضوعات الأخرى مثل الجدرى وعلاجه وماهية الحمى وأنواعها قد بحثها فيها .

(١) توجد نسخة لمجموعة لطائف الحقائق فى المكتبة الوطنية بطهران خطت - فيما يبدو - فى عهد المؤلف ، وتحتاج إلى التحقيق والدراسة .

مساعى رشيد الدين لحفظ آثاره

قام الوزير رشيد الدين باحتياطات واحتراس دقيق للمحافظة على نتائج جهوده الأدبية وتخليدها ، وقد فصل كاترمير فى هذه المساعى التى - مع الأسف - لم تكن ذات أثر أمام الحوادث والنكبات فى كتابه ، ننقل عنه هنا ملخصًا وإجمالاً لما نكر ، فقد قرر أولاً أن ينسخ عدة نسخ من مؤلفاته لأصدقائه ومعارفه وكذلك للعلماء ، وتعطى لهم على سبيل الإعارة وأجاز لهم أن ينسخوا منها لهم ، ثم أمر ثانيًا أن تترجم مؤلفاته الفارسية إلى العربية ومؤلفاته العربية إلى الفارسية وتودع بمكتبة مسجد ربعة المسمى باسمه الربع الرشيدى نسخ متعددة من كلا النوعين من المؤلفات للاطلاع أو الاستنساخ تحت تصرف كل واحد من أهل العلم يميل إليها ويطلبها ، وقرر ثالثًا إعداد مجموعة كبيرة لكافة رسائله ومؤلفاته وتزود بالصور والرسوم الكثيرة ثم توضع بالمكتبة العامة لمسجد ربعة وتسمى (جامع التصانيف الرشيدية) ، كما قرر أن تترجم وتحرر الأجزاء المكتوبة فى الطب وأسلوب حكم المغول باللغات الثلاث : الفارسية ، والعربية ، والصينية ، وفوق ذلك كله أجاز وسمح بكل حرية تامة لمن يطلب قراءة المؤلفات المذكورة أو يخطها وينقلها لنفسه أن يفعل ذلك ولم يقنع بهذا أيضًا ؛ إذ خصص مبلغًا من المال سنويًا من الوقف الذى أوقفه لمسجده [1] ومدرسته لاستنساخ كتبه مرة بالفارسية وأخرى بالعربية وتحرر كل سنة نسخة كاملة وتهدى إلى بلد من البلاد الإسلامية ، كما قرر أن تخط هذه النسخ على أفضل الورق البغدادى بخط أكثر وضوحًا وجمالاً وتقابل هذه النسخ على النسخة الأصلية بكل دقة ، وقد اختار لهذا العمل خطاطين ومسطرين بدقة من إلزامهم رعاية حسن الخط وسرعة النسخ ، وأسكنهم فى مدرسته ومسجده لينكبوا تحت إشراف مشرفين لهذا الأمر الخيرى ، وبعد أن ينتهى الخطاطون من نسخهم كانت النسخ تجلد وتذهب ثم تحمل إلى المسجد وتودع فى المكتبة الواقعة ما بين المنبر والمحراب ، وكان القراء يقرأون هذا الدعاء [2] الذى كتبه المؤلف نفسه بقلمه :

(١) عبارة الأصل هى (وأجرة الكتابة ووجه المصالح تجعل من نصف حاصل موقوفات المستجد المتعلقة بأبواب برنا هذه) ، ويبدو أن المترجم قرأ كلتى (مستجد) (مسجد) .

(٢) أورد كاترمير أصل هذا الدعاء فى تاريخ المغول ، ص DLXX .

«اللهم يا ملهم الأسرار ، ويا معلم الأخبار والآثار كما وفقت عبدك المفتقر إلى رحمتك الواسعة رشيد الطبيب لتصنيف هذه الكتب المشتملة على التحقيقات المقوية لقواعد الإسلام والتدقيقات الممهدة لبيان الحكم والأحكام المفيدة للمتأملين فى بدائع المصنوعات النافعة للمتفكرين فى غرائب المخلوقات ، ووفقته أيضًا لأن وقف بعض أملاكه شارطًا أن يتخذ من منالها نسخ من هذه الكتب لينتفع بها المسلمون من أهل البلدان فى كل حين وأوان ، فتقبل اللهم كه منه قبولاً حسنًا واجعل سعيه مشكوراً وذنبه مغفوراً ، واغفر للساعين فى إتمام هذا الخير والمستفيدين من هذه الكتب والناظرين فيها والعاملين بما فى مطاويها ، وأنه الحسنة فى الدنيا والآخرة إنك أهل التقوى وأهل المغفرة» .

وقد كتب هذا الدعاء بآخر كل نسخة من كتبه ، وكانت المناجاة القصيرة بقلم رشيد الدين نفسه الملحقة بكل نسخة ، ثم الخاتمة المدينة التى سترسل لها واسم المشرف ونسبه ؛ لكى يذكره المؤمنون أيضًا فى دعائهم ، وكانت الكتب بعد القيام بكل هذه الترتيبات ترسل إلى قضاة تبريز للشهادة على أنه قد تم وكمل كل الأحكام والمقررات والترتيبات التى عهد بها المؤلف إلى القائمين بها ، ثم كانوا يرسلون كل كتاب شهدوا له إلى المدينة التى نسخ لها وتوضع فى المكتبة العامة لهذه المدينة ليكون بإمكان طلاب العلم وأهل الفضل فيها قراءتها أو استعاراتها مقابل دفع مبلغ ضمان محدد .

وكان يتوجب على واحد خاص من المدرسين العاملين بهذه المدرسة أن يدرس نسخة من الترجمة العربية للمجموعة الرشيدية ومعها كتابا بيان الحقائق والأحياء والآثار كل يوم ، ويشرح موضوعاتها لطلابه ويدرسها لهم ، كما أجبر كل المقرئين بمسجد الربع على أن ينسخ نسخة عربية أو فارسية من هذه المؤلفات ما دام يشتغل بالقراءة ، فإن قصر استبدل به مقرئ آخر ليواظب على هذه النسخ بصورة أشد .

وكانت النسخة التى ينسخها يمتلكها لنفسه ويمكنه بيعها أو وهبها لواحد غيره ، كما توفرت التسهيلات لمن كان يطلب استنساخ هذه الكتب من المكتبة ، لكن لم يكن يسمح لأحدهم أن يخرج أى كتاب من دائرة المكتبة ، وفى النهاية التزم المتولون لهذه

الأعمال والمشرفون على الأوقاف بتنفيذ المقاصد الخيرية للمؤلف وفق نيته وطبق وصيته نفسها ، وكل من يخالف ما عهد به إليه حلت عليه اللعنة الإلهية [١] .

(١) يوجد هذا التفصيل فى مقدمة النسخة الخاصة بجامع التصانيف الرشيدية نقله بذاته كاترمير فى تاريخه وطبعه عام ١٨٣٦م فى باريس ، ونحن ننقل أيضًا هذا الجزء من المقدمة التى ينطبق على ما ذكره براون بأعلى وهو :

«ومن جملة الشرائط التى شرطها المصنف عز نصره فى وقفية أبواب بره الموسومة بالربع الرشيدى ، وقد ألحقها بالأخرة هى : أن المتولى لتلك الأوقاف يكتب كل سنة نسخة مكملة من مصنفاتى بموجب هذا التفصيل : كتاب المجموع الرشيدية المشتملة على أربعة كتب - التوضيحات ومفتاح التفاسير والسلطانية واللطائف - نسختان : العربية واحدة والفارسية واحدة ، كتاب بيان الحقائق نسختان : العربية واحدة والفارسية واحدة ، كتاب الآثار والأحياء نسختان : العربية واحدة والفارسية واحدة ، يستكتب بموجب ما شرحناه كل سنة نسخة مكملة على قرطاس فى غاية الجودة واللطافة وقطع كبير بغدادى بخط مليح صحيح ، ثم يقابل بنسخة الأصل الموضوعة فى الربع الرشيدى على وجه لا يبقى فيه غلط ولا تصحيف ، وينبغى أن يكون تلك النسخ بأسرها متكلفة على منوال النسخ الأصول وأن يكون جلودها من أديم أو ما شاكله ، وأجرة الكتاب أن يختار المتولى الناسخين السريعى الكتابة الجيدى الخط من الفضلاء والأدباء بحيث تتم جميع النسخ التى يجب كتابتها فى السنة بتمام تلك السنة مجلدة مذهبة مهذبة لئلا يقع التأخير والإهمال ، ويوضح أولئك الناسخين ومساكنهم إنما يعنيها المتولى من جملة مواضع أبواب البر التى لم تتعين لطائفة معينة أو لأمر معين ، وإذا تمت تلك النسخ أحضر جميعها فى صفة الروضة ويوضع كل منها على مرفع بين المنبر والمحراب ويدعى المصنف بهذا الدعاء (الله يا ملهم الأسرار .. إلخ) ، وأيضًا يكتب فى أخر كل نسخة من تلك النسخ هذا الدعاء المذكور ثم يكتب بعد ذلك هذا التحميد وهذه الكلمات : (أما بعد ، حمدًا لله الملك العلام الدائم نعمة بلا انقطاع وانصرام ، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث إلى كافة الأنام محمد وأله وصحبه الكرام ، فإنه يقول العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله تعالى فضل الله ابن أبى الخير عالى الهمدانى المشتهر بالرشيد الطبيب جزاه الله خيرًا : إنى بتوفيق الله تعالى وحسن تيسره صنفت هذا الكتاب تبصرة لمن تبصر وتذكرة لمن أراد أن يتذكر واستكتب وسائر الكتب التى هى من مؤلفاتى ، وليكون وفقًا على المسلمين من أهل بل كذا ، والمأمول من كمال أفضال العلماء المحققين أن يشرحوا ويبينوا للمبتدئين ما يتعسر منه عليهم بحيث يقفون على جمع ذلك وقوفًا تامًا ، ولا ينبغى لهم فيها شك وارتياب ، وإن وجدوا فيها سهوًا وغلقًا صلحوه تفضلاً وتكرمًا ، ثم يكتب المتولى على ظهر أوراق ما كتب عليه هذه الكلمات : إن هذا الكتاب الفلانى إنما كتب لأهل البلدة الفلانية فى أيام دولة فلان ليكون وقفًا عليهم ثم على عموم المسلمين الذين يسكنون هناك ويجيب على كل متول أن يكتب نسبه أبًا عن جد إلى الواقف لئلا ينس الناس والواقف فى الدعاء ، ثم تعرض تلك النسخ على قضاة تبريز ليثبتوا صورة الحال على مكتوب ويشرفوه بتوقيعهم ، ويسلمونه إلى المتولى ، وينبغى أن يكون عند كل قاض من قضاة تبريز كتب تشمل على هذه المعانى ، ويجب أن يكون خط المتولى والمشرف والناظر الذى هو شبيه نائب المتولى أو خط نواب هؤلاء على ذلك المكتوب ؛ ليكون هذا الأمر مضبوطًا كل سنة ولا يتطرق إليه ،
=

ومع كافة هذه الاحتياطات والتدبيرات المدققة فإنه - كما يذكر كاترمير الآن - قد ضاع الشطر الأعظم من مؤلفات هذا المؤرخ العالم ولم تجد جميع الترتيبات التى استعملها لحفظ تواليفه مثلها مثل احتياطات الإمبراطور تاسيتوس Tacitus (إمبراطور الروم من ٢٠٠ إلى ٢٧٤م ، والذى جمع آثار المؤرخ اللاتينى تاسيت من ٥٥ إلى ١٢٠م) الذى بذلها للحفاظ على مؤلفات قريبه المعروف ، إن يد الزمان وبربرية الإنسان هما الآفتان المهولتان اللتان سلبتا كثيراً من الأعمال السابقة القديمة ، كما أفنينا وقائدتها

= وهن ولا خلل ، الشرط الآخر أن هذه النسخ بعد تمامها إنما يبعثها المتولى لتلك الأوقات إلى بلدة معظمات بلاد الإسلام - العربية إلى بلاد العرب والفارسية إلى بلاد العجم - ويبتدى من البلاد بمعظمها ثم بما دونها على وفق رأيه ليكون وقفاً على أهل تلك البلدة بالموجب المذكور ، وإذا حملت تلك النسخة إلى تلك البلدة يجب أن توضع فى مدرسة لها مدرس مشار إليه بفنون العلوم باختيار قضاة تلك البلدة وأئمتها وعلمائها ليقرأها المعلمون الراغبون فيه على ذلك المدرس ، وإن شاء أحد منهم أن يستنسخها دفعها إليه ذلك المدرس بعد أن يأخذ الرهن .. وكذا إن أراد استعارتها لأجل العمل ويبعث مرة أخرى على الترتيب الأول ، وعند كل بعث توضح النسخ فى الضفة الكبيرة التى هناك فى الروضة بين المنبر والمحراب على مرفع ، ويقرأ الدعاء المذكور على القاعدة المذكورة ثم يبعثها ، ويجب أن يكتب على ظهر كل نسخة يراد بعثها إلى بلدة هذه الشرائط التى ذكرناها ، ومصالح هذه النسخ وما يحتاج إليها وأجرة كتابتها إنما يعنيها المتولى فى كل زمان على ما يرى فيه المصلحة ، وأيضاً قد شرطنا أن يستنسخ المتولى من جملة هذه الكتب دون الأصل الموضوع فى قبة الربع الرشيدى من الكتاب الموسوم بالمجموعة الرشيدية وكتاب بيان الحقائق وكتاب الأحياء والآثار من كل منهما نسخة فارسية ونسخة عربية ، غير ما اشترط استنساخها للبعث إلى البلدان ، وهذه النسخ تكون دائماً عند المدرس الساكنة فى الروضة بالربع الرشيدى ، ويدرس كل يوم منها شيئاً ، وكل فقيه يكون تلك البقعة يجب أن يكتب من هذه الكتب نسخة بقطع كبير بغدادى إن شاء بالعربية ، وإن شاء بالفارسية ، ويجب أن يكتبها ذلك الفقيه فى مدة شرط إقامة الفقهاء فيها ، فإن أتمها قبل الميعاد المذكور ويكتب أكثر من واحد كان سعيه أجمل ، وكل فقيه يقصر كتابتها وجب على المتولى أن يخرجه من تلك البقعة وينصب مكانه فقيهاً آخر غير مقصر .

وإذا تمتلك النسخ كانت ملكاً لذلك الفقيه ولا منازع لأحد فى ذلك ، إن شاء وهبها وإن شاء باعها وإن شاء حفظها لنفسه ، وكما أننا أجزنا ورخصنا فى الاستنساخ من نسخة الأصل الموضوعة فى القبة بشرط أن لا تخرج من الربع الرشيدى ؛ فكذلك أجزنا أن يستنسخ الراغبون من هذه النسخة التى عند المدرس لكن بالشرط المذكور وهو أن لا تخرج من الربع .

والفقهاء الساكنون البقعة مقدمون على غيرما إذا أرادوا الاستنساخ ، فهذه الشرائط كانت قد سقطت فى القلم ، ولقد كتبناها على سبيل الإلحاق فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم) ، راجع كتاب طبعة باريس عام ١٨٣٦م ، Histoire des Mongols, P CIXXIV .

بلاشك فى المرتبة الأولى ، بينما تفرقت مؤلفات ضخمة ، لكنها تعد فى منفعتها وفائدتها بلاشك فى المرتبة الأولى ، بينما تفرقت مؤلفات ضخمة بلا فائدة ولا نفع منها فى كل حدب وصوب وأثقلت المكتبات بثقلها ، ومن هنا يبكى العلماء دائمًا على الكتب البديعة القيمة التى لا يمكن تعويض فقدها (١) .

النسخة الخطية لمجموعة منشآت رشيد الدين

ومن قبيل هذه المؤلفات النفسية التى جهلها فيما يبدو كاترمير توجد عندى - لحسن الحظ - نسخة عبارة عن مجموعة من المكاتيب التى سطرها رشيد فى المسائل السياسية والمالية غالبًا ، وكتبها إلى أولاده أو عماله المختلفين الذين اشتغلوا تحت حكم المغول بالأشغال والوظائف المختلفة وجمعها ونظمها ودونها منشؤة وكتبه محمد أبرقوئى ، ويوجد لدى نسختان من هذه المجموعة إحداهما قديمة ، والثانية جديدة ، والأولى فيما يبدو نسخت للأمير بهمن ميرزا بهاء الدولة ، وأنا مدين فى الحصول عليها إلى كرم صديق وسخائه السيد ل. أسترانج والذى حصل عليهما بدوره من المرحوم السير ألبرت هوتوم شيندلر Sir Allbert Houtam Schindlr (٢) ونسخة مخطوطة ثالثة كذلك بالإنجليزية لدى ل. أسترانج عنوانها (خلاصة محتويات الرسائل الخطية الإيرانية لرشيد الدين) استنسخت من مذكرات شندلر ، والتى صممها فيما بعد فى ديسمبر ١٩١٣) (٣) .

ونظرًا لندارة هذه النسخة والفوائد التى تحويلها موضوعاتها فمن الأحرى هنا أن تثبت فهرسًا لثلاث وخمسين مراسلة جمعت بهذه النسخة وملحق بها أسماء الأشخاص الذين خوطبوا بهذه المراسلات .

(١) كاترمير ، ص CXIV .

(٢) راجع مقالة براون المتعلقة بالمخطوطات ملك شندلر فى المجلة الأسيوية ، أكتوبر ١٩١٧ ، ص ٦٩٣ .

(٣) Sur mmary of the contents of the persian Ms. Despatches of Rashidu'd din: copied from notes supplied by sir A. H. schindler and after wards corrected by him Dec. 1913.

١ – المقدمة الجامعة لمؤلفها محمد أبرقوئى ، وإن كانت معيبة ناقصة فى بدايتها .

٢ – مكتوب رشيد الدين إلى محمد الدين إسماعيل فالى .

٣ – جواب المكتوب السابق .

٤ – رسالة رشيد الدين إلى ولده الأمير على حاكم العراق العربى التى أمره فيها العقاب أهالى البصرة لإزماعهم التمرد .

٥ – رسالة إلى ابن آخر له هو الأمير محمود حاكم كرمان التى آخذه فيها على إجحافه تاهخل (بيم) .

٦ – رسالة إلى غلامه سنقر باورتش حاكم البصرة أمره فيها بكيفية التعامل والسلوك معهم .

٧ – مكتوبه إلى ابن أخته خواجه معروف حاكم عانة ، والحديثة ، والحيت ، والجبة ، وناوسة ، وبمشارة ، والرصية ، وشفاثه ، وبلد العين الذى جعله حاكمًا للأناضول ، وقد كتب هذا المكتوب بين عامى ١٢٩١ و١٢٩٧م/ ٦٩٠ و٦٩٦هـ .

٨ – مكتوبه إلى عماله بكاشان الذى قرر فيه ألفى دينار راتبًا للسيد أفضل الدين مسعود من أموال كاشان .

٩ – مكتوبه لابنه الأمير محمود أمره فيه بتوزيع الأطعمة والمؤن على فقراء بيم وخبيص .

١٠ – مكتوبه لابنه خواجه سعد الدين حاكم أنطاكية وطرسوس وسوس قناصرين وسواحل الفرات نصحه فيه نصائح أبوية ، ولقنه أصول الإدارة ونهاه عن البطالة ، وشرب المسكرات ، والانشغال بالموسيقى والطرب .

١١ – مكتوبه لابنه عبر المؤمن حاكم سمنان والدامغان وخوار أمره فيه بتولى القاضى شمس الدين محمد بن حسن بن محمد بن عبد الكريم المسنانى فى منصب قاضى القضاة لهذه النواهى .

١٢ - مكتوبه إلى الشيخ صدر الدين بن الشيخ بهاء الدين زكريا يعزيه فيه لموت ولده .

١٣ - مكتوبه إلى مولانا صدر الدين محمد تركه فى إبانة الطريقة الأصح والأحسن لتقرير الضرائب الديوانية على أهل أصفهان وغيرها .

١٤ - أمره إلى ولده الأمير على حاكم بغداد وسائر أهالى هذه المدينة من الصغير والكبير بشأن تنصيب الشيخ مجد الدين فى منصب مشيخة الإسلام بها والرواتب المقررة للمدرسين والمديرين والطلاب فى خانقاه السلطان غازان المتوفى .

١٥ - مكتوبه إلى الأمير نصرة الدين ستاى حاكم الموصل وسنجار بشأن شرف الدين الحسن المستوفى .

١٦ - الجواب الذى خطه الخواجة رشيد رداً على المسائل الفلسفية والمذهبية التى سألها مولانا صدر جهان بخارائى .

١٧ - مكتوبه لابنه خواجة جلال الدين طلب فيه إرسال أربعين غلاماً وجارية رومية إلى تبريز ؛ ليسكنوا فى أحد مواضع قصره الذى أسسه فى الربع الرشيدى .

١٨ - مكتوبه إلى الخواجة علاء الدين هند والذى طلب فيه منهم أن يحصل له على دهون طبية ، ويرسل بها إلى مستشفى الربع الرشيدى .

١٩ - مكتوبه إلى ولده الأمير على حاكم بغداد بشأن الرواتب والهدايا المقررة إلى بعض من علماء الدين .

٢٠ - مكتوبه إلى ولده خواجة عبد اللطيف حاكم أصفهان يخاطبه فيها بالنصائح السديدة .

٢١ - مكتوبه إلى ولده خواجة جلال الدين حاكم الروم ينصحه فيه بالنصائح الأبوية أو يرسل إليه قدراً من العقاقير والنباتات الطبية المختلفة لمستشفاه فى تبريز .

٢٢ - مكتوبه إلى ولده الأمير شهاب الدين حاكم بغداد نصح فيه نصائح مفيدة ، وطلب منه جمع خراج خورستان .

٢٣ – مكتوبه إلى مولانا مجد الدين إسماعيل فالى دعاه فيه إلى حضور حفل زفاف تسعة من أولاده .

٢٤ – مكتوبه إلى قرابوقا حاكم كيفى وبالو .

٢٥ – مكتوبه إلى مولانا عفيف الدين البغدادى بشأن بدايته هو ونهايته وذكر مولانا صدر الدين تركه .

٢٦ – مكتوبه الذى يجيب به على رسالة رعايا قيصرية فى بلاد الروم .

٢٧ – رسالة لابنه الأمير غياث الدين محمد ليذهب من طرف أولجايتو للإشراف على خراسان .

٢٨ – مراسلة لأهالى سيواس بشأن النذور والأوقاف للسادات التى أسسها غازان خان باسم (دار السيادة الغازانية) وجوب الحفاظ عليها .

٢٩ – مراسلة من المولتبان بالسند يخاطب فيها مولانا قطب الدين مسعود الشيرازى ، ويشرح رحلته إلى الهند بأمراض الإيلخان لتهنئة ملوك الهند وجلب أنواع مختلفة من العقاقير والأدوية التى لا توجد بإيران .

٣٠ – مكتوبه إلى تختاخ أينجو أمير فارس بشأن شكوى أهل فارس من ظلمه وإجحافه وإرساله ابنه إبراهيم للتحقيق فى هذا الأمر .

٣١ – مكتوب بشأن مولانا محمد الرومى والتدريس بمدرسة أزربجان وتنصيبه مدرساً بهذه المدرسة .

٣٢ – مكتوبه إلى شيروان شاه حاكم تابران وشماخى دعاه للفرجة على حديثة فتح أباد التى أقامها .

٣٣ – مكتوبه للقائمين على الأمور المالية لخوزستان بشأن أمور مختلفة مالية وديوانية وإرسال خواجة سراج الدين دزفولى للتحقيق والتفتيش .

٣٤ – مكتوبه إلى ولده خواجة مجد الدين الذى عهد إليه بمأمورية إعداد لوازم المؤون التى تيسر مهمة الجيش المتجه للسيطرة على الهند .

٣٥ – مكتوب من السلطان السلجوقى جلال الدين كيقباد ابن علاء الدين كبقياد ملك أرزبجان إلى رشيد الدين يطلب من رأيه فى مسائل مختلفة وإجابات رشيد عليه .

٣٦ – رشيد الدين على مولانا صدر الدين محمد تركة ، والذى كتبه أثناء ابتلاء رشيد الدين بمرض مهلك ، ويشمل وصيته وكيفية تقسيم أملاكه الواسعة وأمواله الوافرة بين أولاده ، ويوقف فيه على الربع الرشيدى مكتبة تحوى ستين ألف مجلد فى الموضوعات العملية والتاريخية والشعرية ومنها ألف مجلد للقرآن الكريم بخط خطاط العصر منها عشرة بخط ياقوت فى هذا المكتوب أسماء أربعة عشر من أولاده الذكور .

هم كالتالى : سعد الدين – وجلال الدين – ومجد الدين – وعبد اللطيف – وإبراهيم – وغياث الدين محمد – وأحمد – وعلى – وشيخى – وبيرسلطان – ومحمود – وهمام – وشهاب الدين – وعلى شاه ، ويذكر أسماء أربع بنات له هى : فرمان ختاند – وأى خاتون – وشاهى خاتون – وهديه ملك .

٣٧ – مراسلة أيضًا لصدر الدين تركة السابق بشأن كتاب ألّفه وزينه باسم ، فأرسل رشيد إليه تحفًا عديدة من المال ، والملابس ، والخيول ، والمأكولات .

٣٨ – مكتوبه إلى أهالى دياربكر بشأن شق ترعة جديدة سوق يسمى باسمه وخطة تعمير أربع عشرة قرية وبنائها على ساحليها ، وسوف تسمى غالبًا بأسماء أولاده .

٣٩ – مكتوبه إلى ولده جلال الدين حاكم الروم بشأن شق ترعة جديدة أيضًا من نهر الفرات باسم السلطان غازان المتوفى ، وبناء عشر قرى من ساحليها ، وذكر خطة بنائها وأسمائها .

٤٠ – مكتوبه إلى عامله كمال الدين السيواسى المستوفى لبلاد الروم أمره فيه بإرسال مبلغ من المال هدية وتقدمه لعشرة من فضلاء تونس والمغرب وبه قائمة بأسمائهم ، وهذا المبلغ يرسل مع تاجر اسمه خواجة أحمد ؛ وذلك مكافأة لهم

فى إرسالهم له عشرة كتب فى ستة وثلاثين مجلداً حين سمعوا صيت كرمه وسخائه ويذكر عناوينها .

٤١ – مكتوبه إلى بعض العمال الديوانيين بشراز أمرهم فى تقديم وهدايا نقداً وعيناً إلى مولانا محمود بن إلياس الذى ألف باسم الوزير كتاباً اسمه اللطائف الرشيدية .

٤٢ – مكتوبه إلى بعض عمال ديوان همدان بشأن رعاية الصيدلية والمستشفى المسمين بدار الدواء ودار الشفاء ، واللتين بناهما فى همدان ، وأنه أرسل طبيباً اسمه ابن المهــدى للتفتيش والمعاينة لهما ، وقد خط هذا المكتوب فى سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م فى قيصرية .

٤٣ – مكتوبه إلى ولده الأمير محمود حاكم كرمان يوصيه فيه بالمحبة والملاطفة لمحمود الساوجى القادم برسالة إلى الهند لدى السلطان علاء الدين ، وبشأن أيضًا جمع الأموال الموجودة فى أملاك رشيد فى كرمان وإرسالها إليه .

٤٤ – مكتوبه لولده بير سلطان حاكم جرجان بشأن اتجاه السلطان لحرق الشام ولمصر وأن جيشًا مؤلفًا من مائة وعشرين ألفًا تحت قيادة عشرة من القواد المغول ويذكر أسماءهم لقمع الثوار فى الأبخاز وطرابزون سوف يعبر جرجان ، ويتوجب على بيرسلطان أن يفوض حكومة للسيخ لنائبه معين الدين ، ويرافق نفسه ذلك الجيش .

٤٥ – مكتوبه للشيخ صفى الدين الأردبيل يعدد بعد التحية والتكريم فى قائمة أنواع الهدايا من مثل : لحوم الطيور ، والأرز ، والقمح ، والقشرة ، والعسل ، والحليب ، والعطور ، والنقود المرسلة إليه لتستهلك فى خانقاه هذا الشيخ فى الاحتفال بميلاد الرسول .

٤٦ – مكتوب الملك معين الدين بروانه الرومى إلى رشيد الدين يشكو فيه هجوم التراكمة وإغاراتهم على بلاده .

٤٧ – مكتوب الملك علاء الدين عن الهند أرسله ملحقًا بتحف كثيرة من قبيل النفائس والعطور وأنواع المربى والأدوية والفواكه الجافة والسجاد والدهون الطبية والعصى القيمة والعاج للانشغال بدراسة آراء الصوفية ومبادئهم فى كرمان .

٤٨ – مكتوبه لولده الأمير محمود للانشغال بدراسة آراء الصوفية ومبادئهم في كرمان .

٤٩ – مكتوبه لولده الأمير أحمد حاكم أردبيل ، يوصيه فيه سبع وصايا ، ويأسف لأنه انصرف لدراسة النجوم .

٥٠ – مكتوبه يعزى مولانا شرف الدين الطيبى [1] فى مأساة موت ابنه ، وأمره شمس الدين أبرقوئى بإعداد راتب سنوى محدد له .

٥١ – مكتوبه لولده سعد الدين حاكم قناصرين أو قنسرين يحكى فيه عن الانتهاء من بناء الربع الرشيدى الذى يضم ٢٤ خانًا و١٥٠٠ دكانًا وثلاثين ألف منزل والحدائق والحمامات والأهراء والطواطين ودكاكين الوراقين ، ودار سك العملة بعمالها وصناعها الذين جمعهم من كل حدب وصوب بالربع ، وقراء القرآن والمؤذنين والحكماء والعلماء الذين أسكنهم فى أزمة العلماء ، وستة أو سبعة آلاف طالب علم وخمسين طبيبًا هنديًا وصينيًا ومصريًا وشاميًا ألزم كل منهم بتعليم عشرة طلاب ومستشفى (دار الشفاء) وبها أطباء العيون والجراحون ومجبرو العظام يعلم كل واحد منهم خمسة طلاب من أتباع الوزير ، ويشرح الرواتب المعطاة لهم جميعًا نقدًا وعينًا .

٥٢ – مكتوبه إلى ولده إبراهيم حاكم شيراز شرح فيه الهجوم والحرب على كابل وسيقان وطلب منه مقدارًا معنيًا من الأسلحة المختلفة ولوازم الحرب .

٥٣ – مكتوبه إلى بعض أولاده بشأن المنافع والفوائد المترتبة على تحصيل العلم والحلم والعقل والسخاء ، وتنتهى هذه النسخة المخطوطة فجأة فى وسط هذا المكتوب .

هذه المكاتب الخربة جميعًا بالدراسة مطلوبة بدرجة فائقة لتلقى ضوءًا على أخلاق هذا الرجل العظيم وجهوده وأعماله التى كان فيها وزيرًا وطبيبًا ومؤرخًا وحاميًا .

(١) شرف الدين الطيبى الذى قرأه براون خطأ الطبسى ، يبدو أنه العلامة شرف الدين الحسين بن محمد الطيبى المتوفى ٧٤٣هـ مؤلف شرح المشكاة والبيان ، وراجع الدرر الكافة وبغية الوعاة .

ومدافعاً عن العمل والأدب كما تبرز شخصيته . وكما ذكرنا فإن للحفاظ على مؤلفاته ومؤسساته الخيرية التى بناها من أجل نشر العلم والإحسان كأن لم تكن ، والآن فإن أقل ما يمكن فعله فى ذكرى هذا العالم العظيم هو أن نحافظ على الأقل على ما بقى من آثاره المؤلفة .

حمد الله المستوفى القزوينى

مع أن رشيد الدين لم يستطع الحفاظ على مؤلفاته من الضياع والفناء ، لكن مؤرخى عهده استلهموا وجوده وتأسوا به إلى حد أن هذا العصر حين يتميز على سائر العصور بميزة خاصة ؛ وهى ظهور علم التاريخ ورقيه إلى حد الكمال وظهور المؤرخين العظام إنما يتميز بذلك بتأثير أعمال رشيد الدين ، وكما بينا فإنه الذى قدم وصاف وتاريخه إلى الإيلخان ، والآن نود أيضًا أن ندرس أحد أبرز تلامذته وهو حمد الله المستوفى .

ليس بين أيدينا من ترجمة حياة هذا المؤرخ إلا ما نحصل عليه على سبيل الصدفة من داخل موضوعات كتابه ولا شىء آخر ، وكما يشير هو نفسه فقد كان من أصل عربى ويوصل نسبه بالحر بن يزيد الرياحى ، لكن أسرته سكنت قزوين لسنوات طويلة ، كان جده الأعلى هو أمين الدين نصر مستوفى العراق الذى آثر بعد ذلك حياة الزهد والعزلة ، ثم انتهى أمره بقتل المغول له ، عمل أخوه زين الدين محمد تحت إمرة رشيد الدين الوزير فى خدمة الدولة – ثم صار هو الآخر فى حدود ١٣١١م بناء على أمر الوزير القائم نفسه بأمور المالية لقزوين وزنجان وأبهر وطارمين ، ويذكر أيضًا أنه كان يتابع من بداية شبابه باشتياق دائم مصاحبة العلماء ، وكان يدرك مجلس رشيد الدين على وجه الخصوص ، وكان يشارك فى المباحث العلمية خاصة التاريخ إلى حد أنه رغم أنه لم يسبق له دراسة علم التاريخ صمم على قضاء أوقات فراغه فى التأليف والتصنيف فى التاريخ العام بنحو أن يوجزه ويلخصه ، ومن مؤلفاته كتب ثلاثة هى

تاريخ جزيده ، وظفر ناسه أو كتاب الظفر ، ونزهة القلوب ، والتى وصلتنا والكتب بأن الأولان فى التاريخ والثالث فى الجغرافيا .

تاريخ جُزيدة

ألف كتاب تاريخ جزيده أى منتخب التاريخ أو التاريخ المنتخب فى ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م باسم الوزير غياث الدين محمد ولد رشيد الدين الأنف الذكر ، وقد نال هذا الوزير كما مر فى مايو ١٣٢٨م مرتبة الوزارة وقتل فى مايو ١٣٣٦م ، ومصادر المعلومات التى استخدمها المؤلف فى جمع مادة كتابه تبلغ فى حصر المؤلف نحو ثلاثة وعشرين مصدرًا هى :

١ – سيرة النبى لابن هشام [(١)] .

٢ – قصص الأنبياء (احتمالاً لابن الثعلبى) [(٢)] .

٣ – الرسالة القشيرية [(٣)] .

٤ – تذكرة الأولياء (تأليف فريد الدين العطار) [(٤)] .

٥ – التدوين (تأليف إمام الدين الرافعى) [(٥)] .

(١) طبعت الترجمة الألمانية لهذا الكتاب ، التى قام بها فيل Weil فى شتوتجارت عام ١٨٦٤م ، كما طبع نص الكتاب فى جوتنجن فى ١٨٦٠م .

(٢) طبعة القاهرة فى ١٣١٢هـ .

(٣) طبع بولاق فى ١٢٨٤هـ ، تأليف الإمام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى ٤٦٥هـ .

(٤) طبعة الدكتور نيكولسون فى مجلدين .

(٥) راجع حاجى خليفة طبعة فوجسل المجلد الثانى ص ٥٤ ، وعبارة حاجى خليفة هى (التدوين فى أخبار القزوين للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعى القزوينى المتوفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة) ، لكن كتب خطأ فى الأصل الإنجليزى . (يافعى) .

٦ - تجارب الأمم (تأليف ابن مسكويه) [١] .

٧ - مشارب التجارب .

٨ - ديوان النسب [٢] .

٩ - تاريخ محمد بن جرير الطبرى [٣] .

١٠ - تاريخ حمزة الأصفهانى [٤] .

١١ - تاريخ الكامل لابن الأثر [٥] .

١٢ - زبدة التواريخ لجمال الدين أبى القاسم الكاشى .

١٣ - نظام التواريخ للقاضى ناصر الدين أبى سعيد البيضاوى [٦] .

١٤ - عيون التواريخ لأبى طالب على الخازن البغدادى .

١٥ - كتاب المعرف لابن قتيب الدينورى [٧] .

١٦ - تاريخ جها بخشا لعطاملك الجوينى [٨] .

١٧ - كتاب اليمينى ترجمة العتبى أبى الشرف الجرفادقانى [٩] .

(١) المجلد الأول والخامس والسادس له طبع فى سلسلة جيب التذكارية ، فضلاً عن طبعة مصر .

(٢) يحتمل أنه كتاب الأنساب نفسه .

(٣) طبعة ليدن فى ١٥ جزءاً من ١٨٧٩ إلى ١٩٠١ تحت إشراف جماعة من دارسى اللغة العربية يرأسها الأستاذ دوجوييه De Goeje .

(٤) بترجمة اللاتينية طبعة لا بيزيك (١٨٤٤ - ١٨٤٨م) .

(٥) طبعة لندن فى ١٤ جزءاً من ٨٥١م .

(٦) بحثنا هذا الكتاب فى هذا الفصل نفسه .

(٧) طبعة جوتنجى (١٨٥٠م) .

(٨) فى ثلاثة مجلدات طبعة ميرزا محمد خان قزوينى فى سلسلة جيب .

(٩) طبع الأصل العربى لهذا الكتاب فى دهلى طباعة حجرية عام ١٨٤٧ ، ثم طبع بالقاهرة عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٠م ، وطبعت ترجمة الجرفادقانى الفارسية لهذا الكتاب فى طهرن عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م على الحجر .

١٨ – سير الملوك للخواجة نظام الملك (سيا ستنامه) [١] .

١٩ – شاهنامة الفردوسى [٢] .

٢٠ – سلجو قنامه للظهيرى النيباورى .

٢١ – مجمع أرباب المسالك للقاضى ركين الدين الجوينى .

٢٢ – مجمع أرباب المسالك للقاضى ركن الدين الجوينى .

٢٣ – جامع التواريخ تأيف سيد المؤلف السعيد الشهيد أى الوزير رشيد الدين فضل الله .

العصور المختلفة المتداولة فى ترتيب التاريخ

وبعد أن يذكر المؤلف مصادره وعلى نحو ما عددنا آنفًا فإن أغلبها فى متناول اليد ، يبحث إذ ذاك العصور المختلفة التى أحصتها الطبقات المختلفات لبداية التاريخ ، ويقول إن بعضهم يبدأ التاريخ بهبوط آدم ، وبعضهم الآخر بطوفان نوح ، وآخرون بإبراهيم وموسى وغيرهم بغرق فرعون ، وأولاد إسماعيل من بناء الكعبة ، وتاريخ اليمن باستيلاء الحبشة عليها وتاريخ اليونان والرومان بعهد الإسكندر والأقباط بغلبة بنوخذ نصر أو بخت النصر وتاريخ قريين قبل الإسلام بواقعة أصحاب الفيل ، ثم يبحث المؤلف بعد ذلك الخلافات التى نشأت فى السنوات بسبب الاختلاف على (نقطة البداية) وزاد هذا الخلاف تباين عقيدة الفلاسفة الذين عدوا العالم قديمًا ولم يعترفوا له ببداية مع عقيدة المتكلمين القائلين ببداية العالم ونهايته ، ولكنهم لم يحددوا بداية الخلق ،

(١) طبعة شيفز المستشرف الفرنسى فى باريس عام ١٨٩١م .

(٢) طبع كثيرًا فى إيران ، وطبعة بمباى باهتمام أوليا سميع ، وكلكتا طبعة ترنر ما كان عام ١٨٢٩م ، وترجمة الفرنسية بقلم جول موهل عام ١٨٣٨ إلى ١٨٧٨ ، وثلاثة مجلدات من الشاهنامة طبعة فولرز ولاندير فى أستراسبرج من ١٨٧٧ إلى ١٨٨٤م .

ثم يقول إن علماء الصين والختن والماصين والفرنجة أحصوا بداية خلق آدم عليه السلام من ألف ألف عام ويقولون إنه ظهر أكثر من آدم ، وكان نسل كل آدم منهم ينقطع ويظهر نسل التالى ، وكان كل منهم بلقب خاص وانقرض نسلهم جميعًا غير آدم واحد هو آدم العبرانيين ، ومن ناحية أخرى ضمن رجال الدين بإيران ما بين هبوط آدم حتى ظهور نبى الإسلام بستة آلاف عام ، وذكر بعضهم أكثر من هذا وأقل ولأهل النجوم تاريخ من عهد الطوفان يبلغ حسابه حتى سنة تأليف الكتاب وهى ٦٩٨ يزد جرى (١٣٣٠م) ٤٤٣٢ عامًا .

موضوعات تاريخ جزيدة

يشكل كتاب تاريخ جزيدة مقدمة (فاتحة) وستة أبواب وينقسم كل باب إلى فصول عدة وخاتمة كالتالى :

الفاتحة : فى خلق الكائنات .

الباب الأول : يشمل مقالتين :

١ - فى ذكر الأنبياء المرسلين وأولى العزم .

٢ - فى ذكر الأنبياء والحكماء ومن لم يكونوا أنبياء مرسلين لكنهم سعوا فى أمر الحق ونشر الدين .

الباب الثانى : فى ذكر الملوك قبل الإسلام ويشمل أربعة فصول :

١ - الملوك البيشداديون ، وهم أحد عشر ، ومدة ملكهم ٢٤٥٠ سنة .

٢ - الملوك الكيانيون ، وهم عشرة ، ومدة ملكهم ٧٣٤ سنة .

٣ - ملوك الطوائف (البارتيون) ، وهم اثنان وعشرون ، ومدة ملكهم ٣١٨ سنة [(١)] .

(١) يذكر تاريخ جزيدة طبعة الزنكوغراف عام ١٩١٠ ، ليدن أن مدة ملك البارتيين ٣٥٠ سنة ، ويكتب براون فى الحاشية قل أن أحصى المؤرخون المسلمون المدة ما بين الإسكندر الكبير وسقوط الإشكانيين (وهى فى الواقع ٥٥٠ سنة) إلا واحد هو المسعودى (إلى حدود علمى) إذ يشرح فى تاريخه التنبيه والإشراف الحركات الدينية والسياسية التى بعثت ، إلى ظهور أردشير بابكان ، وقد أحصى الآخرون المدة هذه بنصف هذا الإحصاء .

٤ – الساسانيون المعروفون بالأكاسرة ، وهم واحد وثلاثون ، ومدة ملكهم ٥٢٧ سنة [١] .

الباب الثالث : فى ذكر رسالة خاتم النبيين «صلعم» وخلفائه وأولاده وأصحابه وأحفاده ، ويشمل مقدمة وستة فصول .

١ – المقدمة : فى سيرة نسبه المطهر وذكر قبائل العرب التى تبعته ، وفى ذكر حياته ، وشرح غزواته ، وعدد أزواجه ، وكتابه وأعمامه وعماته ومواليه ومخلفاته .

٢ – فى ذكر الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وهم خمسة (يشملون الإمام الحسن المجتبى أيضًا) ، ومدة خلافتهم ثلاثون سنة من العاشر لربيع الأول [٢] سنة ١١ هجرية إلى ١٣ ربيع الأول سنة ٤١ من يوليو ٦٣٢م إلى ١٧ يونيو ٦٦١م حين صالح الإمام الحسن معاوية .

٣ – فى ذكر بقية الأئمة الاثنى عشر ، وهم عشرة ، ومدة إمامتهم ٢١٥ سنة وسبعة شهور من راع صفر سنة ٤٩هـ إلى رمضان ٢٦٤هـ من مارس ٦٦٩ إلى مايو ٨٧٨ م .

أما سيرة أمير المؤمنين على وولده الحسن المجتبى المسموم فلم ترد بهذا الفصل .

٤ – فى ذكرى بعض الصحابة العظام وجمع من التابعين الكرام .

٥ – فى ذكر ملوك بنى أمية ، وهم أربعة عشر (ولم يسمهم المؤلف خلفاء) ، ومدة ملكهم بإيران ٩١ سنة من ١٣ ربيع الأول سنة ١٤هـ ، إلى ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ من ٧ يوليو ٦٦١ إلى ٣٠ أكتوبر ٧٤٩م .

٦ – فى ذكر خلفاء بنى العباسى ، وهم سبعة وثلاثون ، ومدة ملكهم ٥٢٣ سنة وشهران وثلاثة وعشرون يومًا من ١٣ ربيع الأول ١٣٢ إلى ٦ صفر ٦٥٦هـ من ٣٠ أكتوبر ٧٤٩ إلى ١٢ فبراير ١٢٥٨م .

(١) يذكر براون فى الحاشية أن مدة حكم الساسانيين أحصيت بأكثر من قرن فوق حقيقتها لأنهم حكموا ما بين ٦٢٦م و٦٥٢ أى ٤٢٦ سنة وليس ٥٢٧ .

(٢) تذكر نسخة طبعة زنكوغراف لندن ١٩١٠ ، أنه الثالث عشر من ربيع الأول .

الباب الرابع : في ذكر الملوك الذي حكموا في إيران في عهد الإسلام ويشمل اثنى عشر فصلاً :

١ – في ذكر الأمراء الصفاريين في بعض نواحي إيران وهم ثلاثة ، ومدة ملكهم خمسة وثلاثون عامًا من ٢٥٣هـ حتى ٢٨٧ / تا ٩٠٠م ، والذين حكموا من بعد ذلك حتى فترة أعقابهم في سيستان ٢٢ في ذكر الأمراء السامانيين وهم عشرة ومدة ملكهم بإيران ١٠٢ عام ونصف العام من ١٢ ربيع الثاني ٢٨٧ هـ حتى ٥ ذي القعدة ٣٨٩هـ/ أبريل ٩٠٠ حتى نوفمبر ٩٩٩م .

٢ – في ذكر السلاطين الغزنويين ، وهم أربعة عشر ، مدة ملكهم ١٥٥ عامًا (منها ثلاثون عامًا في أكثر بلاد إيران وباقيتها في غزنة) من ٣٨٠ حتى ٥٤٥هـ/ ٩٩٥ – ١١٥٠م .

٣ – في ذكر الملوك الغوريين ، وهم خمسة ، ومدة ملكهم ٦٤ عامًا من ٥٤٥ حتى ٦٠٩هـ/ ١١٥٠ – ١٢١٢م .

٤ – في ذكر الديالمة أو آل بويه ، وهم سبعة عشر ، ومدة ملكهم ١٢٧ عامًا من ٣٢١ حتى ٤٤٨هـ/ ٩٣٣ – ١٠٥٦م .

٥ – في ذكر السلاجقة ، وهم ثلاث شعب :

(أ) سلاجقة إيران والعراق ، وهم أربعة عشر ، ومدة ملكهم ١٦١ عامًا من ٤٢٩ حتى ٥٩٠ / ١٠٣٧ – ١١٩٤م .

(ب) سلاجقة كرمان ، وهم أحد عشر ، ومدة ملكهم ١٥٠ عامًا من ٤٣٣ حتى ٥٨٣ / ١٠٤١ – ١١٨٧م .

(جـ) سلاجقة الروم وآسيا الصغرى ، وهم أحد عشر ، ومدة ملكهم ٢٢٠ عامًا من ٤٨٠ حتى ٧٠٠هـ/ ١٠٨٧ – ١٣٠١م .

٧ – في ذكر الملوك الخوارزمشاهيين ، وهم عشرة ، ومدة ملكهم ١٣٧ عامًا من ٤٩١ حتى ٦٢٨هـ / ١٠٩٨ – ١٢٣٠م .

٨ – فى ذكر الأتابكة ، وهم شعبتان : (أ) فى ديار بكر والشاك ، وهم عشرة ، ومدة ملكهم ١٢٠ عامًا من ٤٨١ إلى ٦٠١هـ/ ١٠٨٨ – ١٢٠٤م .

٩ – فى ذكر الإسماعيلية وهو فى مقالتين :

(أ) فى ذكر إسماعيلية مصر والمغرب وشمال أفريقيا ، وهم الخلفاء الفاطميون وهم أربعة عشر ، ومدة ملكهم ٢٦٠ عامًا من ٢٩٦ إلى ٥٥٦هـ/ ٩٠٨ – ١١٦٠م .

(ب) فى ذكر إسماعيلية إيران المعروفين بالملاحدة أو فارئيين الموت ، وهم ثمانية ، ومدة ملكهم ١٧١ عامًا من ٤٨٣ إلى ٦٥٤هـ/ ١٠٩٠ – ١٢٥٦م .

١٠ – فى ذكر سلاطين كرمان القرا خطائيين ، وهم عشرة [١] ، ومدة ملكهم ٨٥ عامًا من ٦٢١ إلى ٧٠٦هـ/ ١٢٢٤ – ١٣٠٦م .

١١ – فى ذكر أتابكة لورستان ، وهم شعبتان :

(أ) أتابكة اللور الكبار ، وهم سبعة ، ومدة ملكهم ١٨٠ عامًا من ٥٥٠ إلى ٧٣٠هـ/ ١١٥٥ – ١٣٢٩م .

(ب) أتابكة اللور الصغار ، وهم أحد عشر ، ومدة ملكهم ١٥٠ عامًا من ٥٨٠ إلى ٧٣٠هـ/ ١١٨٤ – ١٣٢٩م .

١٢ – فى ذكر ملوك إيران المغول ، وهم ثلاثة ، ومدة ملكهم حتى هذا الوقت الذى يؤلف به تاريخه هذا (١٣١) عامًا أى من ٥٩٩ إلى ٧٣٠هـ/ ١٢٠٢ – ١٣٢٩م ، وهنا يضيف المؤلف (ومن يتملكه الهوس من بعد هذا فليدرس نتيجة وآخر دولاتهم) .

الباب الملحق – ملوك آل المظفر ، وهم سبعة ، ومدة ملكهم ٧٧ عامًا من ٧١٨ إلى ٧٩٥هـ [٢] .

(١) فى نسخة لندن طبعة ١٩١٠ نسخة فقط .

(٢) لم يذكر براون الباب الملحق فى ذكر آل المظفر الذى ورد بكتاب تاريخ جزيدة ، وإنما هو استخلاص وإصلاح من تاريخ مولانا معين الدين اليزدى ، نظمه شخص اسمه محمود كيتى بتاريخ ٨٢٣هـ ألحق بتاريخ جزيدة .

الباب الخامس : فى ذكر أئمة السنة والقراء والمشايخ وعلماء الإسلام رضوان الله عليهم وهو فى ستة فصول :

١ – فى الأئمة المجتهدين (وذكر منهم ١٢ إمامًا) .

٢ – القراء رحمة المجتهدين (وذكر منهم ٩ قراء) .

٣ – المحدثون (وذكر منهم ٧ محدثين) .

٤ – المشايخ الصوفية (ذكر منهم نحو ٣٠٠ شيخًا) .

٥ – علماء علوم الدين والقضاء والطب (ذكر منهم نحو ٧٠ عالمًا) .

٦ – الشعراء ، وذكر منهم خمسة من الشعراء العرب و٨٧ من شعراء العجم ، وقد قام المؤلف (براون) بترجمة سير شعراء العجم ونشرها بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية فى عددها المؤرخ بشهر أكتوبر (١٩٠٠) ، ويناير (١٩٠١) على حدة .

الباب السادس : فى ذكر قزوين (باب الجنة) ، وهى مقام المؤلف ومسقط رأسه وقرباه ، وهى فى سبعة فصول .

١ – الروايات والأخبار الواردة فى حق تلك البقعة ، وقد نقل نحو أربعين حديثًا منها ستة وثلاثون نقلها من كتاب التدوين للرافعى وهو نسخة بخط مؤلفه ، وكافة هذه الأحاديث تقريبًا تعد مدينة قزوين بابًا من أبواب الجنة [١] .

٢ – فى شأن مدينة قزوين وكيفيتها .

٣ – كيفية بناء قزوين وعمارتها ، أحياؤها التسعة وتاريخ بنائها من عهد سابور الزول الذى كان مؤسسها وبانيها ، ثم فى فتح العرب لها وإسلام أهلها [٢] .

(١) تفتقد نسخة الزنكوغراف طبعة لندن عام ١٩١٠م (وقد خطت عام ٨٥٧هـ) هذا الفصل ، راجع جغرافيًا لواسترانج ونزهة القلوب الحمد لله .

(٢) فى النسخة السابقة بطبعة زنكوغراف لندن ينحصر الباب الثالث فى ذكر فتح قزوين وإسلام أهلها ، ولا يذكر أحياء التسعة ولا عمارتها أو غيرها ، ويلاحظ اختلافات أيضًا فى سائر الفصول والمواد عن النصوص الإنجليزية .

٤ – فى ذكر نواحيها ، وأنهارها ، وقنواتها ، ومساجدها ومقابرها ، وأن بعضاً من سكانها لا يزالون حتى ذاك الوقت يبطنن مذهب مزدك .

٥ – فى ذكر الصحابة والتابعين ، والأئمة ، والخلفاء ، والمشايخ ، والعلماء ، والملوك ، والوزارة ، والخواقين ، والأمراء الذين وصلوا قزوين .

٦ – فى ذكر عمال قزوين وحكامها .

٧ – فى ذكر قبائل قزوين وأكابرها ، وهم السادات وعلماء جماعة الافتخاريين (الذى من بينهم ملك سعيد أفتخار الدين محمد بن أبى نصر ، وكان معاصراً للمؤلف ويعرف الخطر واللغة المغولية والتركية ، وترجم كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة المغولية ، وكتاب سندباد نامه إلى التركية) ، والبازداريين ، أو المظفرين ، والبشاريين ، والبرهانيين ، والعباسيين ، والغفاريين ، والفيلواكوشيين ، والقضويين ،القراويين ، والتميميين ، والكرجيين ، أو الدلفيين ، والمستوفين (وهم جماعة المؤلف ، ويذكر أنهم من أولاد الحرب يزيد الرياحى) والمؤمنين والمخعارين والمعافانيين أو المعافيين ، والمرزيانيين ، والنيالوريين ، والبولا تيموريين ، أو التبابكين ، والملوك والوزراء وغيرهم بالطريقة التى ابتكرها الخواجة رشيد الدين فى كتابه ، لكنها هنا أكثر تكميلاً ، لكن هذه الشجر سقطت ولا ترى فى أى من النسخ المخطوطة لهذا الكتاب حتى اليوم .

ونظراً لاتساع محتويات تاريخ ونظراً إلى حجمه المتوسط (ولا يزيد عن ١٧٠ ألف كلمة) فنعلم أن هذا الكتاب فى صورة خلاصة ومذكرات تاريخية ، ولا يمكن أن نتوقع منه تفصيلاً وإسهاباً لموضوعاته ، ومع هذا فإنه كتاب مفيد للغاية ويشمل كثيراً من الموضوعات الخاصة التى لا ترد فى كتاب آخر ، وفى الوقت نفسه يحتل الدرجة الأولى من الأهمية لاحتوائه على القسم الخاص بتاريخ عصر المؤلف إلى حد أن انقضت مدة كان يشعر فيها بلزوم طبع هذا الكتاب ونشره برمته ، ولم يطبع منه حتى عام (١٩١٠) غير هذه الأجزاء التالية منه :

١ – سائر الباب الرابع فى تاريخ السلاطين المسلمين لإيران الذى طبع أصله الفارسى ملحقاً بترجمة الفرنسية بيد جول جانتين **Jules Gantin** عام ١٩٠٣ .

٢ – جميع الباب السادس باستثناء الفصل الأول منه فى الروايات والأحاديث المتعلقة بقزوين ، قد نشر ترجمته باربييه دومنيارد Barbier de meyanrd فى الجورنال الآسيوى (سلسلة ٥ المجلد العاشر) عام ١٨٥٧م .

٣ – الفصل السادس الخاص بشعراء إيران من الباب الخامس الذى ترجمه المؤلف براون إلى الإنجليزية وطبعه فى أكتوبر (١٩٠٠) ، ويناير (١٩٠١م) فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ، لكن فى عام (١٩١٠) طبعت نسخته الخطية نفسها وهى الصحيحة إلى حد ما والقديمة ، والتى نسخت فى ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م بالصورة نفسها خط (الفاكسيميل) فى سلسلة كتب جيب (١٧٠١×٧٥١٠) ، وبعد ذلك فى ١٩١٢م طبع المؤلف براون والدكتور نيكولون Nicolson ترجمة لموجز له إلى الإنجليزية مزودة بالحواشى والإيضاحات الكاملة بنحو أن جميع هذا الكتاب وترجمته تحت تصرف الدارين الآن ، ويمكنهم أن يبحثوا بأنفسهم قدره وقيمته .

كتاب ظفر نامه

يشير حمد الله المستوفى فى مقدمة كتابه تاريخ جزيده إلى منظومة كبيرة تاريخية انشغل فى ذاك الوقت بنظمها وكان قد أتم حتى ذاك الوقت (٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م) ما يزيد عن خمسين ألف بيت نظماً من مجموع أبياتها – وهى من قالب المثنوى – التى زادت عن خمسة وسبعين ألف بيت ، ويسمى هذا المثنوى بظفرنامه ، وقد أنهاه بعد التاريخ السابق بخمسة أعوام ، وهذه المنظومة فى الحقيقة تتمة لشاهنامة الفردوسى ، ومنها نسخة موجودة يملكها أحد الناس (مجلد ضخم بالمتحف البريطانى رقم Or. 2833 يحوى ٧٧٠ ورقة نسخت فى شيراز فى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥م واشتراها سيدين تشرشيل Sidney churchill فى سنة ١٨٨٥م وهو بإيران للمتحف البريطانى [١] ، وإضافة إلى

(١) لوصف هذه المنظومة الكاملة راجع تتمة فهرست الكتب الفارسية لربيه رقم ٢٦١ ، ص ١٧٢ ، وكذلك إلى أنتوم Atheneaum عام ١٨٨٥ ، ص ٣١٤ .

ظفر نامه هذا فإن هذا المجلد الضخم يحوى جزءًا من شاهنامة الفردوس صححها المؤلف فى مدة ستة أعوام .

يبدأ ظفرنامه بسيرة النبى محمد (عليه السلام) وينتهى بأيام المؤلف : أى حتى ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م .

وحين كان يحكم أبو سعيد سلك المؤلف وقائع حكمه فى نظمه ، وكما ذكرنا فعدد أبيات هذا المثنوى نحو خمسة وسبعين ألفًا خصص المؤلف الناظم عشرة آلاف منها لكل قرن من القرون السبعة ، ونصف القرن التى للهجرة طبقًا لتقسيمات عدد سنواته عشرة آلاف بيت منها خمسة وعشرون ألف بيت للعرب ، وعشرون ألف بيت للعجم ، وثلاثون ألفًا للمغول .

وحين بدأ المؤلف فى نظم هذا المثنوى كان فى الأربعين من عمره وأفنى خمسة عشر عامًا فى نظمه ، وعلى ذلك فيجب أن يكون قد ولده عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) ، وبنحو ما يذكره الدكتور رميه Dr. Rieu فى وصف هذه المنظومة لا يجب – بأية حال – إغفال قيمة هذا الكتاب التاريخية وقدره ، وفوق ذلك فقد بذل المؤلف دقة كبيرة فى بيان الوقائع التاريخية وسنواتها ، والمجلد الثالث لهذا الكتاب الشعرى الخاص بتاريخ العصر المغولى يتسم بالأهمية القصوى ، فعلى سبيل المثال يصف بوضوح شديد مشهدًا لمذبحة مدينة قزوين مسقط رأسه ويستمد معلوماته غالبًا من جده الأعلى أمين نصر المستوفى الذى كان فى ذاك الوقت فى الثالثة والتسعين من عمره ، والمنظومة الآتية التى نقلناها عن هذا المثنوى كافية ووافية لتبيان ما قصدناه .

واقعة مدينة قزوين

– ثم توجه من هناك إلى قزوين سبتاى [(١)] لحربها كالنمر الهادر الزائر .

– حين صارت المدينة بحرًا من الدماء كان ذلك فى السنة السابعة عشر بعد الستمائة .

– وقد مضى من شعبان سبعة أيام حين وقعت تلك المحنة والألم والاختراق [(٢)] .

(١) ذكر فى النسخة المخطوطة اسمه (سنتاى) ، ولكن صحة (سبتاى) راجع تاريخ جهانگشا للجوينى المجلد الأول ص ١١٥ .

(٢) السابق من شعبان ٦١٧هـ ، الموافق للسابع من أكتوبر ١٢٢٠م .

– وفى ذاك الوقت كان حاكم تلك الديار ملقبًا بالمظفر وعظيمًا مشهورًا .

– قد احتظى بحكم هذه المدينة المشهورة بأمر من الخليفة العباسى .

– فلما أتى الجيش المغولى إلى هذه الناحية لمقاتلتها ؛ أقفل سكانها البوابات بإحكام .

– وصعد كثير من المقاتلة سور المدينة وواجهوا المغول لحربهم .

– ولم يستطع المغول اقتحام المدينة لثلاثة أيام ، لكنهم دخلوها فى اليوم الرابع للقتال .

– ودخل المغول مقتحمين مدينة قزوين وقلبوا جميع سكانها رأسًا على عقب .

– لم يعطوا أحدًا منهم الأمان بقزوين وحلت نهايته أعيانها وكبرائها .

– قتل كل من كان بتلك المدينة الطاهرة ، وألقيت جثتهم فى الحفر .

– لم يبق من العظيم والحقير والشاب والشيخ أحد حيًا .

– وقتل كثير جدًا من الرجال والنساء فى كل موضع من هذه المدينة التى تعثر حظها .

– وقد لجأت كثرة من الجميلات خوفًا من المغول إلى قتل أنفسهن .

– منهن كثير من أحفاد الرسول ، وكن منيرات الوجوه كالنجوم بأعلى السماء .

– ألقين أنفسهن فى الآبار خوفًا من هذا الجيش المقاتل .

– وجميع سكان هذه المدينة شافعيون ، وليس منهم الحنفيون الأبنية واحد من الألف .

– وأحصوا من قتل من الحنفين فى تلك المذبحة فكانوا اثنى عشر ألفًا .

– وألقيت بالجثث متراكمة فى كل مكان وطريق مسلوك وغير مسلوك .

– حتى لم يبق بهذه المدينة معبر خال من الجثث لكثرة من قتل بلا عد وحصر .

– وهام من بقى حيًا على وجهه هاربًا خوفًا من نقمة المغول إلى كل اتجاه .

– فدخلت جماعة منهم إلى داخل المسجد الجامع تفيض أرواحهم ألمًا تنفطر قلوبهم دمًا .

- ولما ركبهم الهول من ذلك صعدوا إلى سقف المسجد فاختفى تحت كثرتهم .
- فأشعل المغول النار فى المسجد ؛ وتصاعد ألسنة النيران إلى أعلى السماء .
- فاحترق سقف المسجد بمن عليه ؛ واشتعل بهذا أمر الكفر والظلم زهواً .

نزهة القلوب

ألف هذا المؤلف المجتهد كتاباً ثالثًا أيضًا فى علوم الجغرافيا والهيئة يسمى نزهة القلوب المشهور عند كل شخص ، والنسخ المخطوطة لهذا الكتاب متعددة ووفيرة ، ولكن لم يطبع منها غير نسخة على الحجر فى بمباى عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م وصارت فى متناول العامة حتى عام ١٩١٥ حين قام لواسترانج بتصحيح نسخة ودراستها دراسة نقدية ونشرها فى سلسلة كتب جيت (المجلد XXIII) ، وختم عمله بترجمة إنجليزية لها وهى تحت الطبع فى أيامنا هذه .

مصادر كتاب نزهة القلوب

ألف نزهة القلوب بعد ظفرنامه بخمسة أعوام حين وقع اختلال الأحوال والفوضى بعد موت أبى سعيد ، ويشير المؤلف غالبًا إلى هذه الأحوال ، وبناء على ما يذكره فإن بعض أصدقائه طلب منه تأليف كتاب فى الجغرافيا بالفارسية بما إنه لم يؤلف كتاب فى العلم بأحوال البقاع والأماكن (الجغرافيا) ، وغالبًا فإن مثل هذه المؤلفات هى بالعربية ، ومن بين المصادر التى عددها المؤلف فى كتابه والتى استمد منها معلوماته ما يلى وقد زاد عليها المؤلف معلوماته ومشاهداته الشخصية التى اكتسبها أثناء سياحته وأسفاره فى بلاد إيران .

- صور الأقاليم تأليف أبى زيد أحمد بن سهل البلحنى (١) .

(١) من المحتمل أن هذا الشخص هو ابن البلخى صاحب (فارس نامه) ، الذى طبع فى سلسلة كتب جيب .

– المتبيان تأليف أحمد آبو عبد الله [١] .

– المسالك والممالك تأليف أبى القاسم عبد الله بن خرداذبة [٢] .

وكتاب ثالث آخر اسمه (جهان نما) أو صورة مطبر العالم وتسعة عشر مصدراً أخر [٣] ذكرت كلها فى الفهرست الفارسى للدكتور رييه (ص٤١٨ – ٤١٩) .

(١) يزعم رييه أنه هو كتاب البلدان نفسه لأحمد أبى عبد الله محمد البكرى ، راجع فهرست رييه ، ص ٢٢١ .

(٢) ألف هذا الكتاب فى ٢٣٠ – ٢٣٤هـ/ ٨٤٤ – ٨٤٨م ونشره ديجويه المؤلف والمستشرف المعروف الهولندى ضمن كتب الجغرافيا العربية .

(٣) الرسائل التسع عشرة الأخرى التى ذكرها رييه فى شرح نزهة القلوب الموجود فى المتحف البريطانى تحت رقم Add-16736 كالتالى :

١ – الطبقات الهمدانية ، تأليف أبى عبد الله محمد بن سعد الواقدى .

٢ – عجائب المخلوقات ، تأليف زكريا بن محمد الكمونى القزوينى .

٣ – أثار البلاد ، تأليف المؤلف السابق .

٤ – فارس نامه لابن البلخى المستوفى الفارسى فى عهد السلطان محمد السلجوقى .

٥ – ذكر ولاية كرمان للخواجة ناصر الدين المنشى الكرمانى .

٦ – عجائب البحر ، تأليف الإمام على بن عيسى الحرانى المقدم للخليفة المقتدر بالله .

٧ – الآثار الباقية لأبى الريحان محمد البرونى الخوارازمى .

٨ – كتاب التفهيم فى التنجيم للمؤلف السابق نفسه .

٩ – كتاب الإرشاد فى ذكر قزوين لحافظ خليل القزوينى .

١٠ – رسالة ملكشاهى فى وصف الممالك التى رآها ملكشاه السلجوقى .

١١ – تاريخ أصفهان ، تأليف الحافظ عبد الرحمن بن محمد إسحاق الأصفهانى .

١٢ – (الـ) رسالة السنجرية فى الكائنات العنصرية للإمام عمر بن سهلان الساوجى .

١٣ – عجائب الغرائب .

١٤ – معجم البلدان لأبى عبد الله ياقوت الحموى .

١٥ – تحفة الغرائب .

١٦ – صور الكواكب ، تأليف الشيخ أبى الحسن الصوفى لعضد الدولة البويهى .

١٧ – تاريخ المغرب .

١٨ – أخلاق ناصرى ، تأليف الخواجة نصرى الدين الطوسى .

١٩ – تنسوق نامه إيلخانى للخواجة السابق نفسه .

(راجع فهرست رييه ، ص ٤١٨) .

ويشمل الكتاب مقدمة (فاتحة) وثلاث مقالات وخاتمة ، وأهم أقسامه هو المقالة الثالثة ، ويبحث فى سائر المواضع قبلها علم الأخلاق والأجرام السماوية والربع المكون والمواليد الثلاثة والجنس البشرى ، وفى المقالة الثالثة التى تشكل القسم الجغرافى للكتاب يتحدث عن الحرمين الشريفين وبيت المقدس وإذ ذاك يلج فى شرح جغرافيا بلاد إيران والعراق العربى وآسيا الصغرى ، وألحق بها أيضًا فى الجغرافيا الطبيعية لإيران ، ثم شرح بالبلاد المجاورة لإيران ، والتى لم تدخل تحت حكم إيران فى أى وقت .

وخاتمة الكتاب فى شرح العجائب الموجودة فى العالم وهاجته فى إيران ، ويجوز هذا الكتاب جدير القيمة ولا قدر بسبب جغرافيا بلاد إيران وأوضاعها وأحوالها فى القرون الوسطى ، وقد استفاد منه لواسترانج فى تأليفه لكتابه المعنوى (بيلدان الخلافة الشرقية) كثيرًا قبل أن ينشر نزهة القلوب كما ذكرنا آنفًا .

كتاب نظام التواريخ للبيضاوى

أشرنا فى بداية هذا الفصل إلى كتاب صغير فى التاريخ اسمه نظام التواريخ مؤلفه القاضى المشهور والمفسر المعروف ناصر الدين البيضاوى ، الذى تولى أبوه أيضًا منصبه نفسه فى القضاء فى عهد الأتابك أبى بكر بن سعد الزنكى ، وهو ممدوح الشاعر الكبير الشيخ سعدى وحاميه ، ألف هذا الكتاب الصغير فى عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م وربما بيد مؤلف آخر كذلك فى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م قد استمر تأليفه ، ويشتمل على خلاصة للتاريخ العام من عهد أبى البشر آدم إلى السنة الأخيرة ، ولم يحظ هذا الكتاب حتى اليوم بالطبع ؛ وربما لأنه لا يستحقه لأننا لا نعلم هل درج فيه مؤلفه نقاطًا جديدة أو موضوعات طريفة ، ولا نتصور أنه يضيف شيئًا بتأليفه للشهرة الفائقة التى يجوزها المؤلف نفسه فى عالم القضاء والكلام والتفسير [1] .

(١) لمعلومات أكثر راجع فهرست ريبه ، ص ٨٣٢ .

تاريخ البناكتى

نسخة تاريخية أخرى بقيت عن هذا العصر ولم تطبع حتى الآن كتاب اسمه روضته أولو (كذا) الألباب فى تواريخ الأكابر الأنساب أعطه فى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م أبو سليمان داود البناكتى أو الفناكتى نسبة إلى بناكت من مدن ما وراء النهر [١] ، ويتابع هذا الكتاب الذى اشتهر غالبًا بتاريخ البنكاتى كتاب التاريخ الكبير لرشيد الدين ويقلده على وجه التحقيق ، ويشمل تسعة أقسام كالتالى :

١ – تاريخ الأنبياء والأولياء .

٢ – ملوك إيران القدامى .

٣ – سيرة الرسول والخلفاء .

٤ – سلاطين إيران والمعاصرين للخلفاء العباسيين .

٥ – اليهود .

٦ – النصارى والفرنجة .

٧ – الهنود .

٨ – الصينيون .

٩ – المغول .

وهذا الكتاب يبرز من ناحية مدى التأثير العظيم لاتساع معارف الخواجة رشيد الدين فى علم التاريخ ؛ لأن نصف هذا الكتاب أو يزيد بتاريخ غير المسلمين الذى أشار إليه صاحبه فى الأقسام الخمسة الأخيرة : أى تاريخ اليهود والأوربيين وأباطرة الروم

(١) النسخة الوحيدة لدى المؤلف مخطوطة ضاعت للأسف بدايتها ، وتتعلق بمكتبة المرحوم السيرهوتوم شندار ، وكانت ملكًا فى السابق لمكتبة بهمن يرزا بهاء الدولة ، راجع فهرست ريبه ، ص ٧٩ ، ويوجد فى طهران بمكتبة السيد حاجى ملك نسخة أيضًا لهذا الكتاب تلطف بوضعها تحت اختيارى .

والباوات والهنود والصينيين والمغول ، ومع أن الشرح الذى ينقله فى تاريخ هذه الأمم مختصر وجاف فى الغالب فقد يمدنا بالمعرفة الحقيقية لأصول الوقائع والأحداث ، كما أنه فى الوقت نفسه شرح يتصف بالإنصاف الشديد ويخلو من التعصب والانحياز حين يعرض للمبادئ الدينية للأمم الإسلامية ، ومن ناحية أخرى فإن البيضاوى مؤلف كتاب نظام التواريخ كأغلب المؤلفين الذين لم يقعوا تحت التأثير المعنوى المباشر لتاريخ رشيد الدين لم يوردوا من سائر تاريخ الأمم والشعوب غير تاريخ الإسلام والأمم الإسلامية وسلاطين إيران القدامى ورسل بنى إسرائيل وقضاتهم .

الاختلاف ما بين كتابى البيضاوى والبناكتى

وعلة هذا الاختلاف ما بين الكتابين التاريخيين ربما تكمن فى أن البيضاوى كان يعيش فى فارس وهذه الولاية – كما لاحظنا – وقعت منفصلة وبمنأى عن المعبر العظيم لارتباط الشرق بالغرب بسبب اتساع البلاد التى حكمها المغول ، لكن مؤلف تاريخ البناكتى كان من أهل ما وراء النهر ، وكان بنفسه أيضًا يحتل منصب ملك الشعراء فى بلاط غازان خان (٧٠١هـ/ ١٣٠١م) ، وكان بلا شبهة على اتصال ومعرفة بالبلاط المغولى وبالأجانب العديدين الذى ترددوا من بلادهم القاصية على البلاد المذكور ، ومع أن البناكتى نقل مادته العلمية عن اليهود والنصارى والهنود والصينيين والمغول فى الغالب من كتاب رشيد الدين حتى إنه اقتبس غالبًا كلماته نفسها فقد أضاف معلومات اكتسبها بالمشافهة من مندوبى الأمم المذكورة .

اتساع دائرة العلم والاطلاع التاريخى للبناكتى

لا نصادف فى كتاب تاريخى قط قبل العصر المغولى إلا فى بعض كتب التاريخ هذا القدر من المعلومات والإرشادات إلى الأماكن والأشخاص والأحداث التاريخية التى تخرج عن دائرة علم أغلب المؤرخين المسلمين ، فقد حوى هذا الكتاب وصفًا لبلاد مثل :

البرتغال ، وبولنده ، وبوهيميا ، وإنجلترا ، وأيرلنده ، وكاتالونيا ، ولومبارديا ، وباريس ، وكولونيا ، وأشخاصًا مثل أمبراطور الروم من عهد روملوس فما بعده ، ومن سلسلة البابوات من عهد بطرس المقدس إلى البابا المعاصر للمؤلف وبعدهم بهذا الشكل مائتين واثنتين رجلاً متواليًا ، وكذلك الوقائع مثل المجامع الدينية للمسيحيين ونصرانية سكان بريطانيا فى عهد البابا الوتر يوس Eleutherias وفساد عقيدة الناطرة وأمثال هذه الموضوعات ، وللتمثيل بطريق قطع الخشب ، بعد أن يذكر دقة أهل العين واهتمامهم بنقل كتابة صفحات كتبهم القديمة المتعلقة بتاريخهم يقول البناكتى :

وبما إنهم تعودوا على أن ينسخوا من ذاك الكتاب نسخًا عديدة بحيث لا يمكن أن يقع بينها أدنى تغيير وتبديل وزيادة ونقصان ، وأن أفضل الكتب هو الصحيح والبالغ الغاية فى جمال الخط والذى لا يمكن التغيير فيه فقد تواضعوا لرعاية هذه الشروط الثلاثة على إحضار خطاط جميل الخط إذا وقع أى كتاب عندهم موقع الأهمية والاعتبار فنسخ على لوح كل صفحة منه بخط واضح ، وقام جميع العلماء المتخصصين بمقابلة ما نسخ وتصحيحه باحتياط عظيم ووقعوا بخطهم على ظهر ذلك اللوح ، وإذ ذاك أمروا النقارين الماهرين الأساتذة فى فنهم لكى ينقروا ذاك اللوح ، فإذا نسخ جميع صفحات ذلك الكتاب بهذه الطريقة ووضع رقمًا لكل صفحة على التوالى أو دعوا تلك الألواح كما هى حال سكة دار الضربى فى أكياس لكى يختمها الأمناء والموثوق بهم المعينون لذلك ، وأحكموا وضعها فى دكاكين خاصة بتلك المصلحة وأودعوا عند أولئك العمال ختمًا معينًا وقرروا أن إذا أراد أى إنسان نسخة من هذا الكتاب ذهب إلى أولئك العمال ويدفع لهم الرسوم الديوانية المقررة له فيخرجون هم ألواح هذا الكتاب ويختمون له على أوراق هذه الألواح كمثال العملة الذهبية ويعطونها له ؛ وبهذه الطريقة لا يمكن أن يطرأ فى أى كتاب من كتبهم زيادة أو نقصان ؛ ولهذا السبب ينقلون تاريخهم من الكتب المذكورة الموثوق بها والعهدة على الراوى) ، القسم الثانى من الباب الأول [1] .

(١) نقلت النص الأعلى من نسخة خطية جديدة لتاريخ البناكتى ، وتوجد فى المكتبة القومية الإيرانية ، وقد أعيرت لى بكامل اللطف والكرم .

كتاب مجمع الأنساب

ولدينا كتاب تاريخى أقل حجمًا يعود إلى هذا العصر يسمى مجمع الأنساب تأليف محمد بن على شبانكارة ، والذى كان مثل الفخر البناكتى شاعرًا ومؤرخًا معًا ، وقد نسخ هذا الكتاب – على حسب علمنا – نسختين إحداهما فى عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م ، والثانية بعد ذلك بثلاثة أعوام أى بعد وقت التأليف ، ولكن لسوء الحظ لم يستطع مؤلف هذه السطور أن يحوز النسخة الأصلية لهذا الكتاب أو أن يقرأها ، وكتبت هذه المعلومات الموجزة نقلاً عن الفهرست الفارسى المعتبر للدكتور ريبه (١) .

وحسبما حقق الدكتور إتيه (٢) فقد ضاعت وفقدت النسخة الأولى لهذا الكتاب ، وقت نهب قصر غياث الدين محمد الوزير ولد رشيد الدين فى تبريز فأعاد المؤلف تأليفه من ذاكرته ، وطبقًا لتحقيق الدكتور إتيه فقد تم هذا التأليف الثانى فى عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م ، ويستلفت الاهتمام والذكر منظومتان تحصيان سنوات المغول وتاريخهم فى هذا العصر أيضًا أولاهما شاهنشاه نامه أو جيكرنامه لأحمد التبريزى التى تشمل حوادث تاريخ المغول إلى عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧ ، وتشمل ثمانية عشر ألف بيت باسم السلطان أبى سعيد ، وثانيتهما غازان نامه تأليف نور الدين ابن شمس الدين محمد التى نظمها فى عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م ، وهاتان المنظومتان نادرتان ، ويذكر الدكتور ريبه أن المنظومة الأولى نسخت فى عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧ نسختها الخطية ، وبعد أن بيعت مكتبة الكونت دوجو بينو فى ١٨٨٥م دخلت فى أملاك المتحف البريطانى (٣) .

وللمنظومة الثانية نسخة خطية يمتلكها راقم هذه السطور نسخت فى تبريز فى عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨ – ٩م للمكتبة السلطانية ملك أبى النصر حسن بيك بهادرخان وأهداها إلى فى أغسطس ١٩٠٩م الدكتور رضا توفيق نائب أدرنة فى برلمان تركيا .

(١) فهرست ريبه ، ص ٨٣ .

(٢) فهرست مكتبة إدارة الهند رقم ٢١ ، ٢٢ .

(٣) راجع تتمة ريبه رقم ٢٠١ ، ص ١٣٥ .

ومع أن هاتين المنظومتين مثنويان فى البحر المتقارب ونظمت بأسلوب شاهنامة الفردوس فالمنظومة الثانية تبلغ نصف الأولى ، وتشمل نحو عشرة آلاف بيت أو ما بين ٩ و١٠ آلاف بيت [١] ، ويبدو أنه ليس لواحدة منهما من الناحية التاريخية أو الشعرية ميزة خاصة ، لكن إذا درسنا بتدقيق وحللنا فمن المحقق يمكن استخراج معلومات مفيدة تعود إلى هذا العصر موضع دراستنا .

(١) فى المقدمة النثرية التى كتبت فى سبب تأليف هذا المثنوى باسم السلطان أويس شرح كيف كلف الشاعر بهذا التأليف ثانية وكان إذ ذاك فى الخمسين من عمره ، وأدرك عهد غازان خان ، وعدد أشعار هذه المثنوى – كما يذكر نفسه – عشرة آلاف .

الفصل الثالث

الشعراء والصوفية فى العصر الإيلخانى

الشعر فى العصر المغولى

كما لاحظنا فإن هذا العصر الذى ندرسه الآن جدير بتدقيق البحث والدراسة سواء من ناحية الكيف أو من ناحية كم المؤرخين الذين ظهروا فى جانبه الأدبى ، كما أنه لا يتطرف الشك إلى أن هذا العصر قد أتى كله فى مجال الذوق والقرائح والشعرية أيضاً، إلا أن الشعر لم يدرك درجة فن الكتابة التاريخية بما يجعله بهذا القياس عصراً أقل من ناحية عدد الشعراء وجودة قرائهم . إن كل إيرانى عالم فى الغالب بإمكانه أن ينظم أشعاراً بديعة تختلف قلة وكثرة فى أوقات مختلفة ، لكن إن إردنا ذكر كل من تجاوز النظم البسيط وبمقدوره ادعاء مرتبة الشعر فقد اضطلعنا بعمل لا فائدة وجودى بهذا ، لأنه يلزمنا فى الغالب انتخاب دقيق ، وهذا الانتخاب ليس بالأمر الميسور، بسبب أنه يتقاضانا من ناحية أن نضع فى حسباننا أحكام أبناء وطن الشاعر عليه رغم أنها لا تتفق تماماً ووجهة نظرنا ، ومن ناحية أخرى علينا أن ندقق فى ألا نغفل بأى نحو شاعراً ذا نوق وقوة إبداع ولا جريرة له إلا أن كتاب سير عصره لم يهتموا به ؛ لأن مثل هؤلاء المترجمين وأصحاب السير وقعوا خاصة فى شرح أشعار من عاصرهم من الشعراء تحت تأثير التعصب والأحكام الشخصية والسياسية وحتى المذهبية .

جلال الدين الرومى والسعيد الشيرازى

اللذان ذكرناهما فى المجلد الثانى أدركا هذا العصر أيضاً :

فى هذا العصر الذى ندرسه قد عاش ما لا يقل عن عشرين شاعراً شهيراً لا يمكن بحال إنكار علو مرتبتهم ، منهم شاعران فاقا الجميع بمراتب وهما : جلال الدين الرومى ،

والسعدى الشيرازى ، توفى الأول عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م فى السادسة والستين ، ومات الثانى فى حدود عام ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١م فى عهد طعنه فى السن وأرذل عمره (قدر سنه بمائة وعشرة سنة قمرية) ، وعليه فإن كلا الشاعرين ينتسبان فى الأكثر إلى العصر السابق ، ونحن قد أتينا على ذكرهما وسيرتهما فى المجلد السابق[1] ، ويمكن للقارئ مراجعته ، لكن يمكن ذكرهما كذلك فى هذا المجلد ؛ لأن أعمالهم الأدبية استمرت حتى عصرنا هذا ، وانتسب فى علاقات كلاهما إلى بعض الشخصيات المهمة لهذا العصر . فقد اتصل السعدى الشيرازى بشمس الدين صاحب الديوان وأخيه علاء الدين الوزيرين المشهورين من آل الجوينى بل واتصل بأباقاخان الإيلخان الكبير نفسه[2] ، واتصل جلال الدين الرومى بالبرواناه أو الحاجب العاثر الحظ معين الدين الذى قتل بأمر أباقا بتهمة تآمره الخفى مع المصريين فى ٦٧٥هـ / ١٢٧٦-٧م[3] ، ومن اليسير هنا أن نخصص لكل من هذين الشاعرين الجليلى المرتبة بدون أن ننكر ما قلناه عنهما فى المجلد الثانى بضع صفحات ، ولكن بما إنه يتوجب علينا إيجاز الكلام فى هذا الفصل واجتناب التطويل فلا مناص لنا - شئنا أو أبينا - من غض النظر عن ذكر أحوالهما فى هذا الباب .

إسقاط الشعراء الذين نظموا بالفارسية ، لكنهم لم يكونوا بإيران أو من أصل إيرانى

ولأسباب تناظر ما قلنا لابد أن نقنع أنفسنا أيضًا بالاقتصار على ذكر مجمل لثلاثة من كبار الشعراء فى هذا العصر ، وهؤلاء الثلاثة يتمتعون بمنزلة كبيرة لدى كثير من أبناء إيران ولدى أولئك الذين درسوا بدقة الأدب الإيرانى فى الهند على وجه الخصوص ، ويجعلون درجتهم تالية للمولوى والسعدى وهم : أمير خسرو ، وحسن الدهلوى ،

(١) راجع المجلد الثانى لتاريخ الأدب فى إيران ، ص ٥١٥ - ٣٩ .
(٢) راجع المقدمة الإنجليزية على كتاب بخشا للجوينى طبعة ميرزا محمد خان قزوينى ، LII إلى LIV .
(٣) راجع تاريخ مختصر الدول لابن العبرى طبعة بيروت ، ص ٥٠١ .

وبدر الشاش الذين يشتهر ثلاثتهم فى الهند بشهـرة واسعة ويحظون بالاحترام التام ، ولكن لم يكن واحد منهم بإيران بل لم يذكر مصدر نعلمه أنهم رأوا إيران ، ولأن موضوع هذا الكتاب مختصر ومحدود بقدر الإمكان ، فإننا مجبرون على إسقاط عدد عظيم من الشعراء الذين نظموا بالفارسية وعاشوا بالهند هنا كذلك ، وفوق ذلك فأمران آخران يدعمان هذا أولهما : أن المؤلفين بالفارسية من المؤرخين والشعراء الذين نظموا بالفارسية وعاشوا بالهند قد حازروا بقسط أوفر من البحث والدراسة من قسط أدباء إيران نفسها فى إنجلترا ؛ لأن اهتمام دراسيها كان بالطبع موجهًا للهند بنحو أعظم ، وثانيًا : أن للدارس الأجنبى حقًا - إلى حد ما - فى أن يبدى نظرة فى الموضوعات المتعلقة بالتذوق الأدبى لأدب الأمة الأخرى ، ونحن نعتقد أن الأدب الفارسى الذى ظهر فى الهند يعدم - بوجه عام - الذوق والطعم للأدب الفارسى بإيران ، ويفتقد ذلك اللطف ، وتمثل روح العصر وهما أصلان فى أدب الإيرانيين ، وبدون أن نشبه تشبيهًا غير لائق علينا أن نقول بلا جدال : إن الإدب الوافر والكثير الفارسى الذى ظهر من أواسط القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى فى الهند يجب أن يحسب نوعًا مستقلاً ومنفصلاً بوضع الأدب الإنجليزى نفسه فى نواحى إنجلترا الذى يختلف كلية عن ذاك الأدب الذى ظهر فى أمريكا ، وإذا لم نذكر أمير خسرو والدهلوى فى هذا الفصل فإن صنعينا هذا يشبه تمامًا ألا نذكر (والت وايتمان)[1] فى كتاب من كتب تاريخ الأدب الإنجليزى الحديث ، وخاصة أن شرحًا مهمًا لأمير خسرو ورد فى تاريخ الهند لإليوت Elliot[2] .

هذا الأمر نفسه يمكن أن يكون محل الملاحظة بشأن الآثار والمؤلفات الفارسية التى ظهرت فى أفغانستان وتركيا العثمانية ، مع أن اللغة الطبيعية لأكثر سكان أفغانستان هى الفارسية ، ورغم أن سلاطين آل عثمان - خاصة السلطان سليم الأول[3] -

(١) والت وايتمان Wat white man ، شاعر أمريكى ، ولد فى وست هيلز West Hills ، وتوفى عام ١٨٩٢م .

(٢) المجلد الثالث ، ص ٥٢٤ و ص ٥٦٦ .

(٣) طبع الدكتور بول هورن استراسبورجى بناءً عن أمر الإمبراطور الألمانى ديوان السلطان سليم الفارسى لإهدائه للسلطان عبد الحميد فى ١٩٠٤ طبعة كثيرة الأناقة والنفاسة ، ولدى المؤلف لحسن الحظ نسخة من هذا الكتاب البديع النادر الوجود ، وفيما يتصل بالشعر الفارسى للسلطان سليم خان راجع مجالس النفائس ترجمة حكيم شاه قزوينى طبعة طهران ، ص ٣٥٩ .

استخدموا للموضوعات الأدبية لغة الإيرانيين حتى فى الأوقات التى كانوا فيها فى حرب وطعان معهم .

ومع ذلك فلهذه القاعدة بعض استثناء خاصة فى العصر التالى الذى هو محمل دراستنا فى المجلد التالى ، وهذا الاستثناء بشأن بضعة من الشعراء الإيرانيين الذين ولدوا ونشأوا فى إيران ، لكن كرم السلاطين المغول فى دهلى وسخاءهم فهاجروا من إيران على أمل أن تلقى بضاعتهم الأدبية مشتركين فى الهند أكثر من وطنهم .

إشارة إلى مؤلف جديد بالأردية يشمل دراسة ونقدًا للشعراء الفرس

ومن بإمكانهم القراءة بالأردية لهم أن ينتبهوا إلى كتاب كثير النفاسة والعلو اسمه (شعر العجم) بقلم المرحوم شبلى النعمانى الذى ألفه حديثًا وطبعه فى حدود عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م فى مجلدين فى (على جره) طبعة حجرية ، ويشمل بحوثًا ونقدًا حول عشرين من الشعراء الكلاسيكيين الإيرانيين من الفردوس وأعقابه حتى حافظ الشيرازى ، وقد شرح بين ذلك شرحًا مستفيضًا أمير خسرو فضلاً عن معلومات كثيرة عن الشاعر المعاصر له والفريق حسن الدهلوى وردت بكتابه[1] ، ومن يجهل الأردية يمكنه مراجعة الكتاب الفائق الذى حققه الأدباء الهنود ، واهتم بطبع صديقى السير إدوارد دنيسون Sir Edward Denison Ross ، وهو عبارة عن (فهرست المخطوطات العربية والفارسية للمكتبة الشرقية لبانكى بور) والذى يحوى مجلده الأول سير شعراء إيران من الفردوس إلى حافظ وطبع فى كلكتا فى ١٩٠٨م ، وتختص عشرون صفحة

(١) شعر العجم أو تاريخ أدب إيران المنظومة تأليف شبلى النعانى فى خمسة مجلدات باللغة الأردية ، ترجم الجزء الأول منه إلى الفارسية سيد محمد تقى فخر داعى الجيلانى عام ١٣١٤ هـ.ش وطبع بطهران ، والجزء الثالث لعل معاصره الفاضل سرور خان فى أفغانستان ترجمة إلى الفارسية وطبعه فى ١٣١٥ هـ.ش فى كابل ، والمجلد الخامس له ترجمة أيضًا فخر داعى جيلانى وطبعه فى طهران عام ١٣١٨ هـ.ش، وليس لدى علم ترجمة الجزء الرابع والثانى له .

من هذا المجلد (من ١٧٦ إلى ١٩٥) بأمير خسرو الدهلوى ومؤلفاته ، وأربع صفحات تالية لرفيق أمير حسن ، وهذان الشاعران كانا من تلامذة الشيخ الكبير (نظام الدين أولياء) ، والذى توفى فى ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م قبل أمير خسرو بخمسة أشهر ودفن بجانب ضريحه ، ولم تطل الحياة بأمير خسرو من بعدهما ولعله مات بعدهما بعامين .

موجز لسيرة أمير خسرو

كان أمير خسرو المعروف المشهور بأنه فنان فى الموسيقى كفنه فى الشعر تركيًا أصلاً وفر أبوه أمير سيف الدين محمود أمام الهجوم المغولى ، وهرب من بلخ إلى الهند وأقام بها فى ولاية بتيالى Patyali ، وهناك ولد الشاعر المذكور فى عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م وكان فى الحادية والسبعين حين مات ، لقى فى عهده إكرام خمسة من الملوك فى دهلى . ولهذا الشاعر أشعار كثيرة ، ويعتقد دولت شاه أنه نظم نحو نصف مليون بيت (جمع منها ميرزا باى سنقر بسعى منه واجتهاد عظيمين مائة وعشرين ألف بيت ، ثم وجد بعد ذلك ألفى بيت من غزليات خسرو ، ولم تكن بين ديوانه وعد أن جمع هذه الأشعار أمر متعذر الحصول فتركها) .

ومع أننا لا نقصر للأسباب المذكورة آنفًا الحديث بتفصيل عن أمير خسرو ، ولكن نظرًا للمثل العرب القائل (ما لا يدرك كله لا يترك كله) فإننا ندرج قطعة واحدة من كتابه مثنوى ليلى والمجنون بعد اختيارها تيمنًا وتبركًا بها ، ففى هذه القطعة يرثى الشاعر بحزن وحرارة غريبة موت والدته وأخيه الأصغر ، وقد ماتا فى عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م ، ومحبة الشاعر لأمه التى تناقص درجة محبته لابنته كانت إحدى سجاياه الأكثر استرعاء للاهتمام[١] .

(١) كان للشاعر بنت اسمها عفيفة ، وقد ذكرها فى خمسة أبيات شعرية أوردها شعر العجم فى جزئه الثانى فى ص ١٢٥ ، كما أورد أشعارًا عديدة ذكر فيها أمه فى ، ص ١٢٦ .

ضـــاع هـذا العـــام نـوران مـن يـخـمـى — حـين رحـلـــت أمـــى ورحـــل أخـــى
لحظى العـــاثـر فـى أسـبـــوع واحـد — ضاع قمرانى لى وكل منهما ابن أسبوعين
حظى المعـقـد عـذبـنـى نعـقـدهـمـا — وطالعى الهـبـاء ضـربنى بضـيـاعـهـمـا
وقـع مـــأتمهـــا فـحـل بـى ألمهـــمـــا — فـواحـزنا حين أصـبـنتنى وفـاتهـمـا
يا أسـفى لحـرقـتين اكـتـويـت بـهـمـا — ولا يكفى بيدر واحد غير شعلة واحدة
إن صـدراً واحـداً لا يحـتـمـل ثقـلـين — وأنا رأسـاً واحـدة لا تـطـيـق خـمـارين
لمـــا أودعـت أمـى أطـبــــاق الـثـــرى — ولم يعد بى خوف من أن احثوا الثرى على رأسى
يـــا أمـى أيـن أنـت فـى الـنـهـــايـة — ترحلين ولماذا لا تظهرين فى النهاية ؟
اخــرجـى ضـــاحـكـة مـن قـلـب الأرض — واشـفـقـى على بيت أحزانى وبكائى
كل موضع يصيبنا فيه غبار من قدمك — إنمـا يـذكـــركـــرنـا بـالجنـة
كـانـت ذاتك مـعـيـنـاً وظهـيـراً لى — وكــانـت قـبـل حـافـظة لحـيـــاتى
حين كـــانـت شـفـتــاك تنـطـقــان — كـان نـصـحـهـمـا صـلاح أمـرى
والـيـــوم وأنـا المقـيـــد بـحـبـك — يـقـيـدنـى صـمـتـك دومـاً

بدر الشاشى

ومن الشعراء الآخرين الذين شهروا كثيراً فى الهند وغير معروفة تقريباً فى إيران بدر الشاشى من شعراء ما وراء النهر ، ومدينة الشاش التى كان هو (بدرها) هى المدينة نفسها التى تغير اسمها اليوم إلى المدينة الجديدة طاشقند ، ومن شعره الذى لم أطالعه حتى الآن ترجم ونقل السير هـ . إليوت نماذج ومنتجات فى (تاريخ الهند)[1] .

ويشتهر شعره بالإغلاق والإشكال هذه المصنفة التى تنسحب على سائر الأشعار الفارسية التى ترشحت عن أقلام الشعراء الأتراك الأصل أو من عاشوا تحت نفوذ الأتراك وحمايتهم ، ولا نفضل أن نجعل هذا الموضوع فى كتابنا الآن مجالاً لدراستنا .

(١) الجزء الثالث ، ص ٥٦٧ .

القانعى

ولابد من أن نذكر هنا أيضاً شاعراً غير معروف يقال له القانعى ، فر هذا الشاعر أمام هجوم المغول من موطنه طوس فى خراسان واتجه إلى الهند ثم خف منها إلى الغرب وتنقل بين عدن ومكة والمدينة وبغداد ثم آسيا الصغرى فى نهاية الأمر ، وألقى برجل إقامته فى بلاد سلاجقة الروم فى قونية وألف إليهم مثنويا كبيراً بأسلوب الشاهنامة فى تاريخ أسرتهم ، كما نظم كليلة ودمنه الكتاب المشهور ويوجد منه مخطوط فى المتحف البريطانى برقم Add.776 ، ووصفه ريبه واستمدنا هذه المعلومات مما وصف[1] ، وحصل القانعى على لقب ملك الشعراء مكافأة له عن هذه المنظومات وسائر الأعمال الشعرية الذى ادعى أنها ثلاثمائة ألف بيت فى ثلاثين مجلداً ، وعاش حتى رثى موت جلال الدين الرومى الذى مات فى عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م .

بور بهاء الجامى

بور بهاء أو ابن بهاء الجامى بدوره من الشعراء القدامى لهذا العصر الذين تقل المعرفة بهم، أفرد له دولت شاه السمر قندى شرحاً خاصاً قلت فيه تفصيلات حياته[2] ، ولم يضف إلى ما ذكر سائر كتاب التراجم مثل صاحب (هفت إقليم) أو العالم السبعة و (آتشكده) أى معبد النار ومجمع الشعراء شيئاً كثيراً ، حاميه وممدوحه .

فى البداية يقول دولت شاه كان وجيه الدين زنكى ، أو يقول (هفت إقليم) هو طاهر الفريومدى ، لكنه لحق فى النهاية بخدمة صاحب الديوان ، ويبدو لنا أن أفكاره كانت غريبة وغير مأنوسة ، ويروى عنه دولت شاه قصيدة متميزة تشمل ٢٨ بيتاً استخدم فيها ما أمكنه من الكلمات المغولية والتركية ومصطلحاتهما منها هذا البيت :

(١) راجع فهرست المخطوطات بالمتحف البريطانى ، تأليف ريبه ، ص ٥٨٢ .

(٢) ص ١٨١ طبعة لندن .

قامـان طره هاى نوجون كلك يخشـيـان

كـردنـد مـشق بروخ تـو خط إيغـورى

أى : جعل السحرة جدائلك مشقًا على وجهك كقلم البخشيين فى كتابة الخط الأويغورى ، (قام بمعنى الساحر ، والبخشيون هم رجال الدين المغولى ، وكانوا غالبًا كتاب الخط الأويغورى ، وهذا الخط ظل متداولاً فى التركستان حتى حدود المائة الخامسة عشرة للميلاد) .

والرباعى الآتى يخاطب فيه أحد أصدقائه الشعراء ، وقد سقطت أسنانه وهو شعر لطيف .

لـو نقـص مـن درجـة الـعـذب جـوهـرة

فلم ينقص من حسنك المتمكن شىء

فإن مائة قمر تنير من أطراف وجهك

ولـو نـقـص نجـم مـن ثـريـاك

وهاكم قطعتين من بور بهاء والاستعارات البعيدة ويجدران بالاهتمام على وجه خاص بسبب أنهما يدلان على تاريخهما بشكل دقيق ، الأولى : تتحدث عن خراب مدينة ينسابور بسبب زلزال وقع لها على ٦٦٦هـ/١٢٦٧م ، والثانية : تذكر تجديد بنائها عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠ ، الذى تم بناء على أمر من أباقاخان ، بنقل هاتين القطعتين من النسخة النادرة لمجمل الفصيحى الخوافى(١) .

– انقلبت رأسًا على عقب بضربات الزلزال حتى صار سماكها تحت السمك والسمك بأعلى السماء .

– ضربها بجور وقهر من جذور أساسها ؛ فتساقطت أجزاؤها منفصمة من بعضها فى كلها وجزئها .

(١) لم يظهر لنا من الكتاب حتى الآن غير خمس نسخ ، اثنتان منهما فى بطرو جراد ، وأخريان فى كمبردج ، والأخيرة فى طهران ملك السيد نخجوانى تبريزى .

- سجدت مقصورة جامعها بلا سجود ، وركعت منارته بلا ركوع .

- صار عالى المكتبة سافلها ، واندرس رسم المدرسة فيها ، وضرب مسجدها الجامع وسقط منبره .

- لا تظن أن ما حدث لها من نكبة بسبب نقص منها ، ولا تسلنى عن علة ذلك إذا لم تصدقنى .

- بما إن الله تعالى كثرت عنايته بها فنظر بعين الرضا إلى أحوالها .

- فلما سقطت هيبة نظرة ونور تجليه عليها ؛ انهارت من أساسها من هيبته .

- ألم يجعل جبل الطور كحين تجلى له ، حين طلب موسى الكليم رؤية ربه ؟!

- ولما كان بناء نيسابور قديماً وعتيقاً وتوجه إليها الخراب من كل مكان .

- أراد الله أن يجدوا تعميرها فى عهد دولة أباقا نوشيروان عصره .

- وهو مليك الدنيا وسلطان البسيطة والفاتح الأسر لأعدائه والملك الفاتح للبلاد .

- حدث فى عام تسع وستين وستمائة تأسيس هذه المدينة الشهيرة الجميلة .

- وفى أواخر رمضان والشمس والزهرة فى برج الثورة والقمر فى برج الحوت وعطارد فى برج الجوزاء .

- بارك الله تأسيس مدينتك الجديدة ، ولتكن فى عهدك كل صحراء مدينة عامرة .

- قد صارت فى دولتك نيسابور العتيقة حديثة كما يصير العجوز الطاعن شاباً حدثاً .

- ألا فليخلد ثلاثة أشياء حتى الأبد : بقاء الخواجة(١) ، ثم هذه المدينة ، ثم شعر بوريهاء .

(١) لعله يقصد بالخواجة صاحب الديوان .

إمامى الهروى

ليس بين أيدينا معلومات كثيرة عن إمامى الهدوى الذى أثبت صاحب تاريخ جزيده اسمه الكامل ، وهو أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن عثمان ، كما لا يسمح إيجاز الحديث بالتفصيل فيه ، كان مداحًا وشاعر قصيدة لدى ملوك كرمان ووزرائها ، وطبقًا لقول صاحب مجمع الفصحاء توفى فى ٦٦٧هـ/١٢٦٨م ، ويروى عنه فى تاريخ جزيده لغز غامض للغاية[١] .

وأعلى درجات الاحترام التى لقيها لعله فى الرباعى الذى نظمه الشاعر المعاصر له مجد الدين همجر ، وهو رباعى يجيب به عن سؤال منظوم أرسله إليه معين الدين البرواناة وملك افتخار الدين ونور الدين الرصدى وصاحب الديوان شمس الدين يستفسرون عن رأيه فى مميزات شعره وشعر السعدى وإمامى ، فقال يجيبهم :

مع أننا فى الشعر ببغاء طيبة الأنفاس

فإننا ذبابة على سكر شعر السعدى

لكنى فى المذهب الشعرى بإجماع الناس

لا أصل أنا والسعدى إلى إمامى[٢]

فأجاب إمامى على رباعى مجد همجر بالرباعى التالى يمدحه فيه :

مع أننى ممسك بيدى بصدر البلاغة

ومع أنى مسيحى النفس فى عالم النظم

(١) هذا اللغز هو :

– نصف الثلث والخمس لزوج فردى ، والذى يخرج بلا شك خمسة وسدسه عن حدود العدد .
– ثم اضرب مرة أخرى ناتجه فى ثلث أصله ، فإذا ضربته ضاعفه .
– ثم اجمع سدسه وعشرة وثلثه ثانية على هذين القسمين كليهما على ألا تحذف منه ثلثه ونصفه .
– فقلت لسائل اللغز قل من هو الذى اسمه مستور فى علمه أنه (إبامى) الذى يجب أن تمدحه بعلمه .

راجع تاريخ جزيدة من ٨١٤ – ٥ طبعة سلسلة جيب ، وأيضاً الجورنال الآسيوى عدد أكتوبر ١٩٠٠ ويناير ١٩٠١م .

(٢) أصل السؤال المنظوم ورد فى دولت شاه ، راجعه ص ١٦٦ و ١٦٧ طبعة لندن .

فإني أعلم أني لا أصل تراب مجد همجر

سحبان زمانه في عرف العالم

لكن السعدى يظهر غضبه من هذا الأمر فى رباعيه التالى :

كل من لا يصل إلى الدرجة السامية

لا يصلها لسوء حظه وأسوداد نصيبه

وهمجر الذى لم يصل صلاة فى عمره

لا عجب فى أنه لم يصلى إلى (إمام)[1]

لم يطبع ديوان شعر إمامى على حد ما أعلم ونسخه ليست كثيرة أيضًا ، وفى دراستى التى تقتضيها الضرورة – إلى حد ما – لأشعاره قد أفسدت من مخطوطة الديوان بالمتحف البريطانى تحت رقم OR. 2847 ، وأنقل من هذه المخطوطة هنا واحدة من قطعاته الكثيرة الجمال وهى[2] .

يأتى العيد مرة واحدة فى العام الواحد ليوم واحد

وأنا حين أراك فى عيد دائم ومتصل

ويثمر الورد على غصن شجرته يومًا واحداً

لكن وجهك بالنسبة لى ورد مثمر على الدوام

وبالنفسج من روضته أجد منه باقة ليوم واحد

لكن صفير تيك بنفسج حمل بعيرلى دائمًا متصلاً

(١) تورية عن (إمامى) لأن (إمام) فى شعر السعدى مضاف إليه ياء التنكير وليس يقصد به إمام الصلاة (المترجم) .

(٢) هذه القصيدة الواردة فى مخطوطة ديوان إمامى بالمتحف البريطانى ، هى لقطران التبريزى على وجه التحقيق ، وأثبت المرحوم براون غير منتبه البيت الأول فى صدر كتابه للإمامى .

والنرجس البرى يظهر أسبوعًا واحد

لكن نرجس عينيك ظاهر لدى كل عمرى

لا يكون النرجس غضًا حين لا يكون يقظًا

أما نرجسك الأسود فهو غض فى غفوته ويقظته

تتفتح حقول الياسمين وقت الربيع

لكنها متفتحة على سنبلك ليل نهار

يصل من جعدك الأسود الفيض إلى السنبل

لأن السنبل أساس الروح وجعدك أساس مال العطار

هذا وطنه من الفضة وذاك موطنه من الحجر

وهذا من برد السر والمستقيم وذاك من بر الجبال

إن السرو المخضر فى روضته كل عام

ينحنى ويتقوس أمام قدك

عاش إمامى فترة تحت رعاية فخر الملك الخراسانى[1] ، ولما سأله نظمًا نظم هذه المسألة التالية :

يا شيخ الأفاضل فى عهدنا وإمام الملة والدين

ماذا يقول صاحب الشريعة فيما يلى

لو أن القطة خطت قفص القمرى

والحمام أثناء الليل جوراً وظلمًا ؟

فهل يجوز لصاحب الحمام أن يسفك

دم القطة قصاصًا حسبما يقول الشرع ؟

(١) المحتمل أنه هو فخر الملك شمس الدولة ؛ لأن كثرة من قصائد ذلك الشاعر نظمها له .

فأجابه أمامى على سؤاله ذاك بقوله :

- يا لطيف السؤال الذى يهب نسيم الروح فى مشام العقل من رائحة نكهة خلقك .

- ليس على القطة قصاص لأن صاحب الملكة لا يأمر بمثل هذا القصاص فى الشرع المجتبى .

- إن هذه القطة الصيادة ليست أقل من القطة الوحشية التى تأخذ بمخلبها حين تراه على فرع الشجرة .

- ولو كان بيده حذاء يضربها به فهذا أفضل من أن يلوث يده بدمها .

- لو أراد طول العمر للقمرى والحمام ؛ فليأمر بأن يرفعوا موضع القفص[1] .

ويبدو أن هذه المسائل الشعرية كانت متداولة منتشرة فى هذا العصر ؛ لأن بعض أفاضل كاشان سألوا مثل هذا فى الفضائل الشعرية للأنورى وظيهر الفاريابى ، وأرسلوا بسؤالهم إلى مسجد همجر ، وأجاب إمامى نظمًا على هذا السؤال نفسه ، وأصل السؤال وإجابتى أمامى وهمجر عليه ورد بتاريخ جزيده[2] ، ويمكن القارئ مراجعته لو طلبه .

(١) نقلاً عن دولتشاه ، طبعه لندن ، ص ١٦٩ .

(٢) لم أجد فى تاريخ جريدة طبعة الزنكوغراف من سلسلة جيب هذا السؤال وإجابته ، ويشير إليهما دولتشاه مع ذلك ، لكنى أنقل قطعة شعرية من أفاضل كاشان وجواب محمد الدين همجر عليها نقلاً عن مجمع الفصحاء بدلاً مما لم أجده :

سؤال منظوم من أهل كاشان

يا من أنت قمر مبارك الطلعة وشمس منيرة فى سماء الفضل على أرض الوفار
قال جمع من ناقدى الشعر إن ظهير يفضل على أنورى فى شعره
وتنكر جماعة أخرى هذا التفضيل وهما فى نزاع وتحكيم فى الجملة
فرجح أنت واحداً على الآخر إليهم لأن عالم الشعر مستكين تحت فص قلمك

فأجاب همجر

جمع من أهل كاشان فازوا بقصب السبق من أرباب الفضل والفطنة
كانوا يفضلون الشمس على القمر ويرجحون الحورية على الجنية

والرد المنظوم من همجر يشمل تاريخ إنشائه ، وهو آخر رجب ٦٧٤هـ (١٩ يناير ١٢٧٦م) ، وقد اتفق هو والإمامى فى هذه المسألة على أن الأنورى مفضل على ظهير ويوافقهما أيضاً فى هذا الحكم جميع الناقدين المدققين ، لكن دعوى مجد الدين همجر بأفضلية إمامى ليس على نفسه وحده بل على السعدى لا يمكن عدها حكماً محايداً وجدياً ، ويمكن حملها على أنها إحساس شخصى يرحب به بإمامى أو يهاجم فيه السعدى ، وقد انتقد جميع كتاب إيران الذين تعرضوا لهذه القضية رأى همجر وخالفوا مذهبه ، وفى الحق أن أشعار إمامى هذه التى يمكن الحكم عليها من النماذج المذكورة فى ترجمة دولت شاه واتش كده ومجمع الفصحاء تفتقر إلى الامتياز والإبداع الخاص بينما يتوجب وضع السعدى بدون تردد وبلا نزاع فى عدد نفر معدودين من الشعراء العظام لإيران .

مجد الدين همجر

كان مجد الدين همجر - حسبما يذكر صاحب تاريخ جزيدة - من أهل يزد ويعيش فى كنف بهاء الدين الجيوين[1] الحاكم الجواد السخى لفارس والذى توفى فى ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ، وحين قدم الشاعر من يزد إلى أصفهان كان له زوجة عجوز تركها وراءه ، لكنها جدت فى عقبه ، وذات يوم أخبر الشاعر أحد تلامذته بقدوم زوجته العجوز قائلاً : (أبشر فقد نزلت السيدة فى الدار) ؛ فقال مجد الدين (البشارة هى لو نزلت عليها الدار !) ، وبعد ذاك قدمت زوجته إليه وعاتبته على هذا الكلام الخالى من الحب والمودة وأنشدت له رباعى عمر الخيام القائل : كل قبل وقبلك ليل ونهار ..

= وشعر ظهير ولو تفوق على جنس الشعر ، لكنه لا يضارع أسلوب الأنورى
فإذا كان طعم الرطب لذيذاً فى فراقه ، لكنه لن يبلغ السكر (العسكرى) فى حلاوته
متى تشابه القمر بالشمس فى نورها ؟ متى تساوت الحورية بالجنية فى جمالها ؟

(١) الخواجة بهاء الدين محمدالجوينى ، هو الخواجة شمس الدين محمد الجوينى صاحب الديوان الذى حكم أصفهان والعراق فى عهد أباقاد ، وتوفى فى ٧٨ هـ فى حياة أبيه وفاة طبيعية ، وقد جاءت تفصيلات أحواله فى تاريخ وصاف ، فراجعه ص ٦٠ .

فقال مجد الدين يجيبها : (ربما قبلى ، لكن الله يعلم أن ليلاً ونهاراً لم يكن قبلك) ويقول دولت شاه (ص ١٧٦) : (يعد مجد الدين نفسه من أعقاب كسرى أنو شروان الساساني ؛ ولهذا فقد لقى عند الحكام وأهل الدولة والاعتبار والأشراف القبول التام) ويمتدح فى القصيدة التالية نسبه هذا فى قوله[1] .

أزال الـــزمـــــان كـــل فـــــضـــــائـــلــى

وســفــلــك الـفــلــك الـعــجــوز دم شــبــابـى هــمًــا

واســتــلــبــت مــن يدى الـفـلـك الحــســود القــلــم

وســـحــب عــلــى قـــوســـه وهــو كـــالــقـــوس

ماذا تروم منى أنا المعيب العادى القدم أيها االفلك

وماذا تريد منى أنا الواهن الكسير الجناح أيها الدهر

تــشــتــهــى طــعـــام الـبـــوم مــن عــين الـبـــازى

وتــعــــد طــعـــام ابــن أوى مــن فـــخـــد الأســـد

أنــا لا أنــوح مــطــلــقًـــا مــثــل الــطــبــل مــن طــعـــانـه

ولو اجتــز بـنفـســه مـن ظـهـرى لحـمًا مـثـل الـسـيـور

يـــا قـــــدم فــــيـــل الــفـــتــنــة دق جــــســـــدى

دقًا أنعم من هذا ويد الفلك السافل اهرس جسمى أقسى من هذا

لــقـــــد لــقــى قــلــبــى الـبـــصـــيـــرة والــنــور

مما لا قاه قلبى من حك ولا غرو وأن كل مرآة تنير وتتضح بالصقل

(١) مجمع الفصحاء ، الجزء الأول ، ص ٥٩٦ .

حين تنفس غصن الورد من بين التراب

فانظر طالعى فقد جف غصن حظى

إن عيبى هو أنى لست من نطفة حرام

وجرمى هو أنى قد ولدت من نسبة حلال

أنا من نسل ساسان وأيضًا من عقب تكين

وأنا من صلب كسرى وكذلك من أسرة ينال

شعرى حلو المذاق كأنه طعم الوصال

وقلمى نقاش مصور كأن صورة الخيال

لم ترعين أحد بخلاً ومن وقت جودى

ولن تسمع أذن واحد (لا) منى حين سؤال صاحبها

لم يعد لقلبى لهو بعد الشباب

كما أنه ليس للشمس نور بعد الزوال

رباعيات مجد همجر

أشعار مجد الدين همجر غالبًا فى مدح شمس الدين محمد صاحب الديوان ، وكذلك الأتابك سعد بن أبى بكر ، ونسخ ديوانه المخطوطة نادرة وقليلة للغاية ، وتوجد نسخة قديمة نفيسة لديوانه فى المتحف البريطانى (برقم Or. 3713) ، والتى كتبت بخط حفيده ، وتشمل عددًا من رباعيات عمر الخيام وأبى سعيد بن أبى الخير وشعراء آخرين نظموا فى قالب الرباعى ، وأقلها حوى المعانى الصوفية والفلسفية ، وأكثرها يتعلق بأشخاص وأشياء واقعيين ، وبعضها قطع هجاء نظمت فى قدح أشخاص مثل هذا الرباعى :

أمك المشـؤمـة تـلـك لمـا ولـدتـك أرسـلـتـك مـن كـنـجـة إلـى الأنـخــار
وتلك الداية أكمل الخنزير راعية الكلاب كانت ترضعك لبن الكلبة ودم الخنـزير

ورباعيته التالية تبرز أن الشاعر كان يميل إلى السفر والسياحة وبه صنائع لفظية عديدة بحيث لا تخلو ترجدته من الصعوبة :

أيهـا الفلك لا تلو غـانى من السـفـر مطلقًـا

وأطعمنى خبزًا فى سرنديب واسقنى ماءً فى سراب

وأعطنـى فـى كـل مـسـاء رغـيـفًـا من نـامـيـان

واسـقـنـى كـل صـبـاح شـربـة مـن الـشـام

ويشكو فى الرباعيين التاليين شيخوخته ومشيبه :

مضى عـهـد أن كان قلبى فى طبعه كالنار والمـاء

وكـان يـهـرق أفـكـارًا كـدار الـنـار

كـان وقـتـذاك عـشـق وسـبـاب ورغـائـب القـلـب

ولا أرى هـذه الثـلاثـة ثـانـيـة حـتـى فـى المنـام

* * *

قـدمـى هـذا الـتـى لـم تـكـن تـأبـه بـالـركـاب

لم يعد لديها رغبة فى الركوب ولا فكر للركاب

ضـقـت ذرعًـا بـالـشـيـخـوخـة والـضـعـف

حتى لم يعد بى يد تمسك العنان أو قدم تتعلق بالركاب

وفى الرباعى الآتى استخدم موضوعات تفيض بالقدح والهجاء ، ولكن لا نعرف الذى كان يخاطبه :

يا من تطيب رؤية الخنازير أمام رؤية طلعته

ويغدو القرد محبوب القلوب أمام محياه

إن أخلاقك أشد قبحًا من وجهك

وما أجمل وجهك الجميل أمام قبح أخلاقك !

وبعض من رباعياته ألغاز بأسماء مختلفة تذكر مثالاً لها الرباعى الآتى :

عدد حروف اسم ذاك الحبيب النشيط

هو ثلاثمائة وستون كعطاء الفلك

حرفه الثالث تسع حرفه الرابع

وحرفه الأول سدس الثانى

ويبدو أن هذا اللغز معناه اسم (نشاط) لأن بحساب الجمل :

ن = ٥٠ ، ش = ٣٠٠ ، أ = ١ ، ط = ٩ ومجموع أعدادها (٣٦٠) كما يتضمن سائر النقاط الواردة بالبيت ونظم الرباعى الآتى يخطاب به محبوبته :

ليس معى ورق نقدى لكى أنصب خيمتى أمامك

ولا فضة لكى أشترى منزلاً فى ربعك

لكنى أبتغى عينين وأذنين

لكى أسمع صوتك وأطالع طلعتك

ولا يتسع المجال لبحث أن بعض رباعياته يشهد بسن كهولته وشخيوخته ، وإن كان منها ما يذكر أنه تجاوز الثمانين ، لكنه لم يمكنى من أحق التاريخ القطعى لميلاده ووفاته[1] .

(١) أنا – المترجم – صادفت عند تصفحى الديوان المخطوط النفيس لمجد همجر قطعتين بديعتين من نظمه أنقلهما فيما يلى وكلتاهما يتضمن إشارات عن حياته ويشير إلى إنه كان له خط جميل للغاية ، وكان ينسخ كتب الأدب للكبار ، يشير إلى سنين عمره فى القطعة الأولى التى نظمها فى تاريخ نسخة لقابوس نامه يقول فيها :

بالأمر النافذ للمخدوم صاحب الديوان بهاء الدولة والدين المبارك القدم
والذى سلمه لى أنا الحقير التابع المطيع بيده التى ينصاع إليها الأمر والحكم
ومن هو هذا التابع؟ إنه مجد الفارسى المطيع له والذى رأى كثيراً من الملوك مثل كسرى وكى الملك
خط دفتر قابوس نامه بخط واضح كالشمس مرنى كالجدى
فى اليوم السابع والعشرين من ذى القعدة عام ستمائة وثلاثة وسبعين فى مدينة (جى)
وقت أن مر من مراحل عمره ست وستون سنة من قافلة الشهور
على أمل أن يقرأه ويبقى هذا المخطوط تذكاراً عنى فى خزانته
إنى يحتاة هوالى مواعظ قابوس وحكمة لقمان ليست شيئاً معه
فلتظل مدن العراق الأربع مقامة على الدوام ومر الفصول الأربعة لا يحيق بها الزوال
يقيم فى قسم فى الربيع وفى همدان فى الصيف وفى جى السعيدة فى الخريف وفى الرى فى الشتاء

والقطعة الثانية :

فى تاريخ نسخة لكليلة ودمنة : بأمر شمس الأيام والملة وحكمه الذى يسبق سائق القدر
وهو الأمام مفتى العصر محمد إدريس صاحب الشريعة محمد كيش
خط تابعه ومطيعة مجد فارس الذى تقرب إلى بابه مثل السعادة
كتاب الحكمة والموعظة كليلة بخط يفوق فى قدره اللؤلؤ والفل
عام ستمائة وثلاثة وسبعين فى مدينة (جى) التى خلت من السوء والظلم
فى عهد صاحب الديوان بهاء الدولة الدين الذى يتحول الأسد فى شكواه من حفظة إلى خروف
فلتبتل عين عدوه من سن قلمه إذ تصاب بالجروح ويطعنها هو الوخزة

– راجع لسيرة شمس كيش مقاله سعيد نفيس فى مجلة أرمغان عدد ٥ من السنة ١٥ ، وتحقيقات محمد قزوينى فى شد الإزار طبعة طهران ورأيت شعراً يحدد تاريخ وفاته ووفاة أمامى هروى وبدر جاجرمى هو :

إمامى الهروى شيخ الأصحاب	ومجد همجر صدر الكفاة
وبدر جاجرمى الطيب السيرة	لما خلت بهم المنية فى أصفهان
مات الثلاثة جميعاً فى ثمانين	وست وستمائة خلال شهرين

وبناء على القطعة الأولى ؛ فتاريخ مولده ٦٠٧ هـ ، وحسب القطعة الثالثة ؛ تاريخ وفاته ٦٨٦ هـ .

العراقى

ونتحدث الآن عن شاعر آخر تفوق وعلا جميع من ذكرناهم فيما سبق بمراتب قوة قريحته وحسن إبداعه ، وهو المسمى بفخر الدين إبراهيم الهمدانى والمتخلص بالعراقى وترى إشارات لسيرة غالبًا فى كتب السير الخاصة بالصوفية والشعراء خاصة نفحات الأنس للجامى (راجع ص ٧٠٠ طبعة كلكتا) ومجالس العشاق لحسين بايقرا ، ولكن نظرًا إلا أن معاصريه لم يكتبوا عنه شيئًا ؛ فلابد من تلقى ما ورد بمثل هذه الكتب باحتياط ، ولا نجد من نصوص تحرياته وهى غالبًا فى المعانى العشقية موضوعًا مهمًا عن حياته ، ويمكن عده (قلندريا) من كل وجه خرج بالكلية عن ذاته وشخصه وعد صورة أو موجودة جميل وبديع مرآه لطلعة الحبيب ، وكان يرى فيها صورة متجلية من جماله المطلق ، وكما يذكر أحد كتاب السير (العشق وحده هو الذى استولى على طبيعته) ؛ ولهذا فإن غزلياته تتصف تمامًا بالجانب العشقى ؛ ولأجل هذا فإن بعض الناقدين الغربيين ذوى الطبع الجاد مثل أسبرنجر Sprenger قد انتقدوا هذه الصفة فيه(١) ، متغافلين أن ما يمتدحونه فى أفلاطون لا ينبغى أن يذموه فى عواطف عارف إيرانى بالله !

ولد الشيخ العراقى فى همدان كما يذكر الجامى وحفظ القرآن فى طفولته ، وكان يستطيع قراءته بصوت عذب وبطريقة صحيحة ، ولما بلغ السابعة عشر نزل بهمدان جماعة من القلندرية ، وكان فيهم شاب جميل الطلعة ، فلما عادوا من همدان لم يطق عراقى المكوث بها لافتتانه بهذا الدرويش الشاب ، فأسرع يتعقبهم إلى الهند ، وفى المولتان نال التلمذة على يد الشيخ بهاء الدين زكريا ، وأنشد فى مدحه :

إذا سألت الدنيا من إمام الأيام

ما سمعت من السماء غير جوابها إنه زكريا

(١) راجع فهرس مكتبة الملك أود Oude ، ص ٤٤٠ .

وبعد دخوله هذه المدينة أمره شيخه بالتزام الأربعين ، وهى أن عليه الاعتزال أربعين يومًا وليلة وينشغل بالمراقبة والفكر ، لكن الصوفية أتوا جميعًا فى اليوم العاشر له إلى الشيخ اللشكوى من (أن العراقى مشغول بنظم الغزاليات بدلاً من الصمت والتفكر) ، وفى خلال بضعة أيام علم سائر المطربين بالمدينة غزلية له وأخذ هؤلاء يتغنون بها فى سائر الحانات بالصنج والجلاجل ، وهذه الغزلية التى هى إحدى أشعاره الكثيرة الذيوع هى :

أول خمر وضعوه بالكأس
اقترضوه من عينى الساقى الثملتين

ولما وجدوا أهل الطرب بصحبتهم
صبوا لهم شراب الفناء فى كأس

عجل الحبيب وهو شفة الأحباء الخمرية اللون
بتقديم الكأس فسماه عاشقوه بالخمر

لم يسكن من هو طرف صغيرة الأحبة
لكثرة القلوب التى لم تسكن بسببه

سمح للأبرار والأشرار بالجلوس فى مجلسه
وشغلوا العام والخاص بكؤوسه

ولما ألقى كرة صولجان حسنه فى الميدان
سكان العالمين وانصاعا بجولة واحدة

هُيئ السكر واللوز من شفة الحبيب
وعينه من أجل السكارى

نطقوا مئات الكلمات من أرواحهم بغمزة واحدة منهم

وأرسلوا مئات الرسائل من قلوبهم بتحريكه من حاجبهم

أسـروا سـراً لمحـرم واحـد فـي البـاطـن

فـاعـلـمـوا دنـيـا بـأسـرهـم

كـل ألـم وهـم كـان بـأي مـكـان بـالـعـالـم

ضـمـوهـا وسـمـوهـا بـالـعـشـق

وبمـا إنـهـم هـم الـذيـن أفـشـوا أسـرارهـم

فـلـمـاذا شـتـمـوا الـعـراقـي ؟

فلما سمع الشيخ بهاء الدين البيت الأخير ؛ قال : تم أمر العراقي ؛ فاستدعاه وقال : هل تتناجي يا عراقي في دوره الخمر ؟ أخرج ، فلما خرج ألقى الشيخ حزقة على كتفيه فألقى هو بنفسه على الأرض وسجد على قدم الشيخ ، فرقعه الشيخ من الأرض ، ثم زوجه من ابنته فولدت له ولداً سمي كبير الدين .

وانقضى من عمره خمسة وعشرون عاماً وتوفى الشيخ بهاء الدين بعد أن جعل العراقي خليفته فنفس عليه لهذا الصوفية وشكره إلى حاكم ذلك العهد وأتهموه بأعمال تنافي الشرع ، فهاجر من الهند وأسرع إلى مكة والمدينة وسافر من هناك إلى آسيا الصغرى .

أدرك في قونيته مجلس درس الشيخ صدر الدين القونيون المشهور الذي كان يدرس كتاب الفصوص للشيخ محيي الدين عربي ، وهناك ألف أشهر كتبه النثرية وهو اللمعات وقدمه إلى الشيخ ، فأعجب به وأثنى عليه ، كان الأمير الرومي القوي معين الدين البرواناة تلميذ العراقي ومريده وقيل إنه بنى له خانقاه في توقات وخصه بحبه وإنعامه ، وبعد وفاته انتقل العراقي من قوينه إلى مصر ، ثم رحل منها إلى الشام فاستقبل بها هناك استقبالاً حسناً ، ومكث بها ستة شهور حين لحق به ابنه كبير الدين

أبيات من الهند ، وفي الثامن من ذى القعدة ٦٨٨ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٢٨٩م توفى بالشام ودفن فى مقبرة الصالحية بدمشق بجانب ضريح الصوفى الكبير الشيخ محيى الدين ابن عربى الذى توفى قبله بخمسين عامًا ، كان لتعاليم الشيخ ابن عربى حتى ذاك الوقت تأثير عظيم فى إيران ؛ وهذا بسبب وجود العراقى وأوج الدين لمراغى وغيرهما الصوفية التلامذة فى مدرسته .

والغزلية الآتية ، بالإضافة إلى ما سبق ذكره ، اخترناها من ديوان العراقى لأنها تبرز بوضوح أسلوب شعره[(١)] :

كلك بأسرك لطف وحياة أيها الولد

ما الأجمل من الروح ؟ إنه أنت أيها الولد

مع أن ميل القلوب بأسرها إلى طلعتك

فما أحلاك من فتان أيها الولد

تتراءى لعينى كل وقت

لأنك ماء منساب من صفائك أيها الولد

(١) لأنها توضح فن الشاعر فننقل أصلها الفارسى وهو :

سريسر لطفى وجانى أى پسر — خوشترازجان چيست آنى ، اى پسر !

ميل دلها جمله سوى روى تست — وه كه شيرين دلستانى ، اى پسر !

زان بچشم من درآنى هرزمان — كز صفا آب روانى ، اى پسر !

ازمى حسن ، ارچه مستى ، مكن — باحريفان سر كرانى ، اى پسرا !

وعده اميد اكرچه كج بود — ازبهانه درهمانى ، اى پسرا !

برلب خود بوسه دم آنكه ببين — نوق آب زندگانى ، اى پسر !

زآن شدم خاك درست كز جام مى — جرعه اى برمن فشانى ، اى پسرا !

از لطيفى مى نماندكس بتو — زان يقينم شدكه جانى ، اى پسرا !

دردل وچشم زحسن ولطف تو — آشكارا ونهانى ، اى پسر !

نيست درعالم عراقى رادمى — برلب تو كامرانى ، اى يسر

(المترجم)

مع أنك ثمل بخمر الحسن فلا تكن مخموراً

أو غاضبًا أقرانك أيها الولد

مع أنه وعود أملك لا تتحقق

فأنت لا تزال على أعذارك مقيمًا أيها الولد

قبل أنت شفتيك ثم انظر

إلى مذاق ماء الحياة أيها الولد !

صرت ترابًا لبابك من أجل أن تنثر

على جرعة من كأس خمرك أيها الولد

لا يشبهك في لطفك أحد فلهذا

تيقنت أنك الحياة والروح أيها الولد !

بقلبي وعيني من حسنك ولطفلك

ما يجعلك الظاهر والخافي أيها الولد !

ليس للعراقي في حياته لحظة واحدة

من السعادة على شفتيك أيهاب الولد !

وهذه أبيات البند الأول للترجيع بنك لطيفة من شعر العراقي :

أكؤوس تلألأت بمدام ... أم شموس تهللت بغمام ؟

من صفاء الخمر ولطافة الكأس ... تمازج لون الكأس والمدام[1]

كلها أكؤوس وكأن ليس من مدام ... أو مدام وكأن ليس من جام

(١) يبدو أنه اقتبس هذا المعنى من بيتين لإسماعيل الصاحب بن عباد هما
رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر
راجع وفيات الأعيان في ترجمة أحوال أبي القاسم الطالقاني، الجزء الأول، ص ٧٥.
(المترجم)

أو الهواء إذ أخذت الشمس منه لونها — فتساوى النور والظلام وكلاهما

تصالح الليل مع النهار — فانتظم بذلك أمر العالم

إذا لم تعرف معنى الليل والنهار — أو ما هذا الجام وذاك المدام

فإن سر ماء الحياة في العالم — مثل الخمر والكأس فافهم هذا دائمًا

افترض أن انكشاف حجاب — علم اليقين كالليل والنهار والسلام

وإذ لم يتضح لك هذا البيان — وبداية الأمر كله حتى نهايته

فاطلب كأسًا تعكس صورة العالم — لكم ترى بعين العقل التامة أن

الجميع هو وكل كائن يقينا — فهو الروح والحبيب والمعشوق والقلب والدين

والقطعة الآتية أبيات من غزلية أخرى :

خرج الساقي من وراء ستره وبيده قدح

فهتك سترنا وحطم توبتنا الاثنين معًا

وأسفر بطلعته البهية فتولهنا جميعًا

ولما لم يبق منا شيء أتى وجلس فوقنا

فك عقدة من ضفيرته فانفك عقال عن قلبنا

ونزع روح القلب من الدنيا وعقدها بطرف ضفيرته

فبقينا حيارى في وهن طفر ضفيرته

وسكرنا جميعًا من كأس مدام لعله

ولما خرج قلبي عن يدي تعلق بطرته

ثم غرق في حيرة ماذا يتشبث به

ولما صارت سلسلة ضفيرته قيداً للقلب الحيران

تحـــرر من العـــالم وتخلص من وجـــوده(١)

والغزلية الآتية التى وردت ترجمة موضوعاتها بالإنجليزية بقلم صديقى المؤلف السير دنيسون روس فى النص الإنجليزى ذكرتها مع بيان خلافهما مع الأصل الفارسى :

لا أرى لى غـيـر عـشـقـك حـيـاة لا أرى

ولا أرى لقلبى غـيـرك حـبـيـبـًا لا أرى

لا أجد فى نفسى صبراً وسكونًا لا أجدها

ولا أرى منك لطفًا وإحسانًا لا أرى

أسفر عن وجهك تلطفًا منك لأن الألم الذى عندى

لا أرى عـلاجًـا لا أرى حـين

فأقبل إلى حين أود رؤيتك لأن بعيداً عن طلعتك الحسنى

لا أرى بـقـاءً طـويـلاً لـى لا أرى

خذ بيدى يا حبيبى لأنى سقطت فى دوامة

لا أرى لـهـا قـط نـهـايـة لا أرى

تعال بدافع لطفك وجبرك للخواطر ورتب أمورى

فلا أرى لنفسى ترتيبًا بدونك لا أرى

أظهر للعراقى طريقًا إلى بلاطك

فلا أرى مثله فى العالم حائراً لا أرى

(١) يبدو أن شمس الدين حافظ الشيرازى تأثر بهذا القول وقال :
دخل الساقى دير المجوس وبيده قدح سكران من الخمر فسكر الشاربون من نرجس عينيه الناعس .

مثنوى عشاق نامه

وبالإضافة إلى الغزليات فقد نظم العراقى مثنويا اسمه عشاق نامة أو رسالة العشاق ، لكن راقم هذه السطور لم يره ولم تقع بيده حتى الآن نسخته[1] ؛ ولهذا انتقل بالحديث إلى أشهر آثاره النثرية أى كتاب اللمعات ؛ وهو رسالة فى التصوف كما سبق القول قائمة على تعاليم الأستاذ الجليل والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى الطائى الأصل الأندلسى المولد .

(١) مثنوى عشاق نامة موجز فى بيان مراتب العشق وأحوال العاشقين يبدأ بهذا البيت :

كـل مـن لـه روح ولـه نـفـس　　فـواجـب أن يـكـون لـه آلام الـروح

وينتهى بهذين البيتين :

هل تعرف خلاصة هذا الكلام ما هى　　إنها : أنى لا أدرى كيف أحيا بعيدًا عنك

مع أنك تملك آلافًا مؤلفة مثلى　　وانتهى الكلام بهذه المقولة

وصدر هذا المثنوى باسم سعد الدين صاحب الديوان ويقول فى ذاك الموضع :

لا تر نفسك ظاهراً فى هذا العهد　　لحضرة صاحب المكان والزمان

صدر الإسلام الوزير الأعظم　　افتخار عرب وجال العجم

آصف عهده صدر العالم　　صاحب ديوان الخان

كبير الكبراء على البسيطة　　سيد العصر سعد الدين

ويشمل المثنوى مقدمة تحوى خطبة ومدحًا لوزيره الممدوح وذكرًا له ، وعشرة فصول كالتالى :

الفصل الأول : فى صفة العاشقين .
الفصل الثانى : فى صفة العاشق والمعشوق .
الفصل الثالث : فى صفة العشاق .
الفصل الرابع : فى بيان العشق .
الفصل الخامس : فى كمال الإنسان فى العشق .
الفصل السادس : فى بيان الشوق إلى الحبيب .
الفصل السابع : فى غليان العشق .
الفصل الثامن : فى مخاطبة المعشوق .
الفصل التاسع : فى بيان حقيقة العشق .

ولهذا المثنوى أسلوب بديع يتميز به عن بقية المثنويات ، وهو أن كل فصل منه يبدأ بأبيات عدة فى شرح حقيقة العشق ثم بحكاية منظومة ثم بغزليات عشقية على بحر المثنوى نفسه يزين هذا المثنوى ومجموعة أبياته نحو ألف وستين بيتًا ، طبع طبعة أنيقة بخط التنسيق الكثير الجمال فى سلسلة جمعية الدراسات الإسلامية المنشورة فى بمباى تح رقم ٨ عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩ ، وترجم جمعية آرثر أربرى إلى الإنجليزية ، وقد صدره مؤلفه المجهول بمقدمة مفصلة فى شرح سيرة الشيخ العراقى .

كتاب اللمعات

هو كتاب صغير الحجم إلى حد ما ، يشمل ما بين سبعة إلى ثمانى ألف كلمة ، ومع أنه ألف بالنثر فقد يحوى قطعًا منظومة كثير ، وقد كتب عليه شرحًا الجامى ، وكان رجلاً ذا فنون وصاحب قريحة فياضة وسماه (أشعة اللمعات) ويقول فى مقدمته : (فى ذلك الوقت حين يلحق الشيخ العالم العارف العاشق .. فخر الدين إبراهيم الهمدانى المشتهر بالعراقى بصحبة صدر الحق والملة والدين محمد القونيوى وسمع عنه حقائق فصوص الحكم ألف مختص أسماه بسبب استحالة لمعة من بوارق تلك الحقائق باللمعات بعبارة جميلة وإشارة بديعة نظم فيها جواهر الشعر مخلوطة بالنثر ، ومزج اللطائف العربية بالفارسية ، بدت منه آثار العلم والعرفان وظهرت منه أنوار الذوق والوجدان ، وبسبب أنه صار مضغة أفواه شاعين حسنى السمعة كثيرين خط عليه أهل التقليد رقم الرفض وقصروا ذيل قبولهم عنه وحين كان الفقير يرى أن الرد والإنكار كان فارغًا من الانشغال به إلى استدعى بدافع الولاء أجل أخوان الصفاء وأعز خلان الوفاء الأمير على مشير النوائى مقابلته وتصحيحه ، ولم يكن لدى بد من الانقياد له ، فلما تصديت لهذا العمل ومررت على تفضيلات أجزائه رأيت بكل ورقة له لمعة من أنوار الحقائق وشممت من كل صفحة نفحة من أزهار المعارف .

وينقسم هذا الكتاب إلى ٢٨ لمعة ، ربما اختار عددها على حروف الهجاء العربية ، وللتمثيل تنقل هنا مقدمة الكتاب حتى آخر اللمعة الأولى(١) .

الحمد لله الذى نور وجه حبيبه بتجليات الجمال ، وأبصر فيه غايات الكمال ، ففرح سرورًا ، فصدره على يده وصافاه ، وآدم لم يكن شيئًا مذكورًا ، ولا القلم كاتبًا ، ولا اللوح مسطورًا ، مخزن كنز الوجود ومفتاح خزائن الجود وقبلة الواجد والموجودة صاحب لواء الحمد والمقام المحمود ، الذى لسان مرتبته يقول :

(١) فى النص الإنجليزى أتى القسم المنثور مترجمًا فقط والمنظوم أصلاً وترجمة ، فأوردت القسمين هنا كلهما من الأصل .

وإنـــي وإن كـــنـــت ابـــن آدم صـــــــورة

فـلـي فـــيـــه مـــعـنـى شـــاهـد بـأبـوتـي[1]

قـــالـــت لـــو أنـــي مـــن أولاد آدم صـــــــورة

فإني من وجه المرتبة أفضل منه في كل حال

وحـين أنـظـر فـي مـــرآه عـكـس جـــمـــالـي

يصيـر كل العالم في الحقيقة في صورتي

لا تعجب لو أن شمس السماء ظهوري

وذرات الـكـائـنـات صـــارت مـظـهـــري

مـا أوراح القـدس ؟ إنـهـا مـجلى مـعـنـاي

ومـا أشـبـاح الأنـس ؟ إنـهـا مـرئي مـبـنـاي

البـحـر المحـيط رشحة من فـيـضـي الفـائض

ونـــور البـسـيـطة لمعة من نوري الأزهـــر

كـل ذرة كـــانـت مـن الـعـرش إلـى الـفـرش

هي في نـور الـشـمـس ضـمـيـري المنـــور

يـنـيـــر الـعـــالـم مـن نـور ذاتـي

إن مـزقت حـجـاب صـفـاتي من بعـضـهـا

المـاء الـذي يـعـيـش بـه الخـضـر الخـالـد

مـا هـو ؟ إن هو إلا قطرة من حـوض كـوثـري

(١) هذا البيت من القصيدة التائية لابن الفارض كما ذكر الجامي في شرح اللمعات .

وذاك النفس الذى كان يحيى به عيسى الأموات إن هو إلا نفحة من أنفاسى الموجودة للروح أن ذاتى بالجملة مظهر كافة الأسماء بل حين أتمعن أنا الاسم الأعظم وصلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أما بعد - فإنى أملى كلمات عديدة فى بيان مراتب العشق على سنن السوانح[١] بلغة الحالى لكى تكون المرآة المظهرة للمعشوق لدى كل عاشق .

مع أن رتبة العشق أعلى من أن يمكن بقوة الفهم والبيـــان التطوف حول جلالته أو بعين الكشف والعيان النظر إلى الجمال حقيقية .

تعـالى العـشق عن همم الرجـال — وعن وصـف التـفـرق والـوصـال
مـتى مـا جل شىء عن خـيـال — يـجـل عـن الإحـاطـة والمـثـال

فإنه فى حجب العزة محتجب وبكمال الاستغناء متفرد حجاب ذاته هو صفاته وعاشق جماله هو جلاله وجماله مندمج بحاله ، وهو على الدوام عاشق لذاته ولا ينشغل بغير ذاته ، وفى كل لحظة يلقى حجابًا عن وجه معشوق ، وبكل نفس يلقى حجابًا على طريق عاشق .

الـعـشق يـعـزف بـآلتـه وراء الحـجـاب
فـمـن الـعـاشق الـذى يـسـمـع صـوتـه
يـلحـن فـى كـل نـفـس نـغـمـة مـخـتـلفـة
ويـبـدأ فـى كـل آن لحـنًا مـخـتـلـفًا
كـل الـعـالـم صـوت نـغـمـتـه
فـمـن سـمـع هـذا الـصـوت الـطـويـل

(١) السوانح كما يذكر الجامى (رسالة فارسية صنفها الشيخ أحمد الغزالى قدس الله سره فى بيان العشق والمعشوق والعاشق) .

خـــــرج ســـــره عــن الــعـــــالــم

والـصـوت نـفـسـه هو الـذى يـحـفظ هـذا الـسـر

ســـــره عـــلـــى لـــســـــان كـــل ذرة

فــاسـمـع أنـت نـفـسـك فـأنـت لـسـت غـمـازاً

يقول فى كل أن بكل لسان سره إلى سمعه ويسمع كل لحظة بكل أذن كلامه ، يجلى فى كل وقت بكل عين حسنة على ، ينظره ويعرض فى كل لمحة لك وجه وجوده على شهوده ، اسمع وصفه منى :

يحـــدثـنـى فـى صـــامـت ثـم نـطـاق وغـمـزة عـيـون ثـم كـسـر الحـواجب

أتعلم أى حديث يحدثه فى أذنى ؟ إنه يقول :

أنا العـشـق الذى لا يبـدو مـكانـى فى الكونين

أنـا الـعـنـقـــاء المغـرب الـذى لا يـظـهـــر أثـرى

صـدت كـلا العـالمين بكـسـر الحـاجب والغـمـز

فلا تـنـظر وأعلم أن اسـهـمى وقوسى لا يظـهـران

أنـا ظـاهـر كـــالـشــــمـس فى وجـــه كـل ذرة

وعـيـــانـى بـسـبـب غـايـة ظـهـورى لا يـظـهـــر

أقـــول بـكـل لـســـان واســـمـع بـكـل أذن

وأى عجب من أن أذنى ولسانى لا يظهران مقدمة

أعلم أن أثناء كل لمعـة يوماً إلى حقيقـة منزهة عن التعـين سمـها إن شئت حباً أو عشقاً ؛ إذ لا مشاحة فى الألفاظ ، وتظهر إشارة إلى كيفية سيرها فى الأطوار والأنوار وسفرها فى مراتب الاستيداع والاستقرار ، ظهورها فى صورة المعانى والحقائق وبروزها فى كسوة المعشوق والعاشق ، ثم إن انطواء العاشق فى المعشوق عيناً وانزواء

المعشوق فى العاشق حكمًا ، واندراج كليهما فى سطوة وحدته جمعًا ، وهناك اجتمع الفرق وارتق الفتن واستتر النور فى النور وبطن الظهور فى الظهور ، ويؤدى من وراء سرادقات العزة (ألا كل شىء ما خلا الله باطل ، وغابت العين لا رسم ولا أثر وبرزوا لوجه الله الواحد القهار) .

اللمعة الأولى

فى بيان مبدأ العشق للمعشوق والعاشق وكيفية انتشائهما به ، وهذا فى التعين الأول وفى بيان أن كلا منهما فى أى شىء يحتاج للآخر اشتقاق العاشق والمعشوق من العشق ، والعشق فى مقر منزه عن التعيين ، وفى حريم عينه مقدس عن البطون والظهور ، وإنما يكون على إظهار الكمال بنحو أن يكون هو نفسه عين ذاته وهو نفسه عين صفاته ، عرض ذاته فى مرآة العاشقية والمعشوقية على نفسه ، وأجلى حسن ذاته على نظر نفسه ؛ فظهر من وجه الناظرية والمنظورية اسم العاشقة والمعشوقية ، وظهر كلمة الطالبية والمطلوبية ، أبدى الظاهر للباطن فعلاً صوت العاشقية وزين الباطن بالظاهر فظهر اسم المعشوقية .

لما صارت عين متفقة ، والتى لم يكن ذرة خلاها ظاهرة أتى كل هؤلاء الأغيار يا من ظاهرك هو العاشق وباطنك هو المعشوق من رأى طالبًا أتى للمطلوب .

صار العشق من باب المعشوقية مرآة العاشق لكى يطالع فيها ذاته ، ومن جهة العاشقية مرآة المعشوقية ؛ لكى يرى فيها أسماءه وصفاته ، ومع أن لا يوجد فى عين الشهود أكثر من مشهود بما إن وجهًا واحدًا يظهر فى مرآتين فلابد أن يظهر وجهين .

ومـا الـوجـه إلا واحـد غـيـر أنـه	إذا أنـت عـددت المـرايـا تـعـددا
كـيـف يظـهـر غـيـره ؟ وهـل شـىء ؟	إنما العين الأخرى هى الأولى فى تجليها[1]

(١) نقلاً عن أشعة اللمعات ، طبعة إيران الحجرية عام ١٣٠٢هـ .

الشيخ أوحد الدين الكرمانى

الشيخ أبو حامد الدين الكرمانى كشأن العراقى أحد أتباع الشيخ الكبير محى الدين بن عربى بل هو حسبما ذكر صاحب مجمع الفصحاء[١] أحد صحبه الخواص أو تلامذته المقربين والتقى - بقوله أيضًا - بالصوفى المجذوب شمس القبريزى (وضد جلال الدين الرومى فى نظم الغزل) ، وكما ذكر بعض الدارسين كان له معرفة بأوجدى المراغى وبالشيخ العراقى اللذين تشابها وتماثلا فى الانجذاب الظاهر والعشق المحرق للجمال المطلب لشاهد الوجود ، لم يقبله الشيخ شهاب الدين ، والذى لا يمكن أن يكون بالأدلة التاريخية هو الشيخ السهروردى ، ووصفه بالابتداع والكفر ومنعه من حضور مجلسه ، فلما سمع الشيخ أوحد الدين بهذا أنشد هذا البيت لابن عربى[٢] .

ما ساءنى ذكراك لى بمسبة ... بل سرنى أنى خطرت ببالكا[٣]

واعتذر الحاجى فى نفحات الأنس على لسانه قائلاً : (يمكن أن يكون مراد الشيخ شهاب الدين (قدس سره) بابتداعه ما يروى أنه كان يتوسل فى شهود الحقيقة بالمظاهر الصورية ، وكان يشاهد الجمال المطلق فى صور المقيدات) ، ثم يروى حديثه للشمس التبريزى (وسأله شمس التبريزى (قدس سره) : ماذا تفعل ؟ ، قال أرى القمر فى طست الماء ، فقال الشيخ شمس الدين إذا لم يكن بقفاك دمل فلماذا لا تراه فى السماء ؟) .

ويروى أيضًا : لما قيل أمام مولانا جلال الدين الرومى إنه كان مفتونًا بالجمال الحسى ، لكنه طاهر الذيل ؛ فقال المولوى : ليته فعل هذا ومضى عليه ، واستشهد لهذا المعنى برباعى أوحد الدين أيضًا :

(١) راجع مجمع الفصحاء ، طبعة طهران ، الجزء الأول ، ص ٩٤ ، ونفحات الأنس للجامى .

(٢) راجع نفحات الأنس فى سيرة أو حد الدين الكرمانى ، ص ٥٢٤ .

(٣) ينسب بديع الزمان الهمذانى (رسائله طبعة بيروت ١٨٩٥ ص ٩٦) هذا البيت لشاعر اسمه دومينة يخاطب به امرأة وأصله هو :

لئن ساء نى إن نلتنى بمساءة ... لقد سرنى أنى خطرت ببالك

وفى نسخة نفحات الأنس ملكى - والتى بها إضافات وتصحيحات بخط الجامى نفسه - كتب الجامى فى حاشية كلمة (مسبته) بدل (مساءة) .

أنظر فى الصورة بعينى رأسى

لأن من المعنى أثراً فى الصورة

فهذا العالم هو الصورة ونحن فى الصور

ولا يمكن رؤية المع إلا فى الصورة

وخلاف الرباعيات العديدة التى ينقلها عنه الجامى فى نفحات الأنس ورضا قلى خان فى مجمع الفصحاء وغيرهما من كتاب التذاكر والسير فليس لأوحد الدين شعر كبير بقى عنه ، وليس لدينا عنه غير المثنوى قطعاً طويلة .

وهاكم هذه الأبيات الثمانية الآتية نقلاً عن نفحات الأنس :

ما دامت اليد تتحرك فإن ظلها العاجز يتحرك

وبما إن الظل يستمد ماهيته من اليد إذن فليس هو نفسه الأصل

والشىء الذى وجوده ليس بذاته ليس من العقل أن نسميه موجوداً

هو موجود ولكن الوجود المطلق عند الحكيم ليس لغير الحق سبحانه

والوجود الذى يقوم بالحق تعالى هو عدم ولكن يسمى موجوداً

إن جمال النقاش ظاهر على نقشه وليس فى الوجود غيره فاهنأ بهذا

هو الذى قال الحقيقة وهو الذى سمع والوجه الذى أظهره هو الذى رآه

إذن فيجب التيقن من أنه لا يوجد والله موجود حقيقى سوى الله

أوحدى المراغى

ولابد الآن من ذكر تلميذ أوحد الدين ، وهو أوحدى المراغى ، يقال له أيضاً الأصفهانى ؛ لأنه رغم ولادته بمراغة ، لكنه قضى الشطر الأعظم من حياته بأصفهان

وتوفى كذلك فيها[1] ، ويبدو أن كتاب السير لم يكن لديهم معرفة كافية بسيرته وما هو معروف أنه توفى فى عام ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧م ، والأثر الشعرى المهم الذى بقى عنه هو ذاك المثنوى نفسه الذى يقلد به حديقة السنائى الغزنوى ويشتهر باسم (جام جم) أو كأس الملك جمشيد أو جام جهان نما أو الكأس المظهرة للعالم ، وقد نقلت كتب السير عنه قطعًا ، وأنا شخصيًا لدى نسخة منه[2] .

وذكر دولت شاه ومن بعده صاحب هفت إقليم أن هذا المثنوى قد ذاع فى عهده إلى حد أنه نسخ منه فى شهره الأول أربعمائة نسخة وبيعت بثمن عظيم ، لكنه يضيف أنهم لا يقرأونه فى عهد دولتشاه (٨٩٢ هـ) إلا قليلاً .

ويبدو أنه المثنوى الوحيد الذى ألفه الأوحدى[3] ، وله أيضًا ديوان يعده رضا قلى خان صاحب مجمع الفصحاء قد بلغ ستة آلاف بيت ، ويشمل قصائد بدور رباعيات اختار بعضها كتاب التذاكر ودونوها كتبهم .

(١) راجع دولت شاه السمرقندى ص ٢١٥ ، ٢١٠ ، ومجمع الفصحاء طبقة طهران جـ٢ ص ٩٤ ، وهفت إقليم فى ذيل أصفهان وغيرها ، وقد انعكس ترتيب المدينتين فى نفحات الأنس خلافًا للواقع ؛ فيكتب مولانا الجامى فى حاشية النسخة الخطية التى بجوزتى (قبره فى مراغة قرب تبريز وذكروا أن تاريخ وفاته هناك فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة) ، راجع النفحات رقم ٥٤٢ .

(٢) مؤرخة بتاريخ ٩١٦ هـ ، ويشمل (٤٥٠٠) بيت .

(٣) نشر وحيد دستجردى مثنوى جام جم للأوحدى فى عام ١٣٤٧هـ بطهران بعد مقابلة على ست نسخ قديمة والجديدة كملحق لعدد السنة الثامنة لمجلة أرمغان ، وتبدأ بهذه الأبيات :

قل هو الله لأمره قد قال — من له الحمد دائمًا منوال
أحد غير واجب أصبر — صمد لم يلد ولم يولد
من اسمه الأعظم المطلق — هو الحى والقيوم لدى زمرة الحق

وينتهى بهذه الأبيات :

إن كان بى سهو أو خطأ — فسامحنى وأنت المعطاء
يهب الحياة لقرائه — ويهب النجاة أيضًا لأوحدى
فعود قلبه على الذكر — واختم عمله على السعادة

وقد تصدر المثنوى باسم السلطان أبى سعيد الإيلخانى ووزيره غياث الدين ولد رشيد الدين فضل الله .

وهذه القطعة التالية قصيدة نثبتها هنا نموذجًا لأسلوب شعره وننقلها عن هفت إقليم :

إلى متى هذه اللحية والجبة والعمامة | خذ بيد ذاك الصديق واتركه[1]
حرك آلام قلبك وهزها | واجعل قوت روحك في السكون والقرار
أزل اللون والرائحة من صدرك | حتى يؤديا بك إلى الاعتزال الشديد
وحتى لا تهزم حين ترى | بحق جمال ذاك الوجه
نفذ قدر ما تستطيع ما يقوله | وكل ما تلفظ من قول يثبته لا محالة
هو حسبك وكفى فاترك غيره | إذا تجردت من نفسك وأصلك
فإن تخلصت من نفسك اسأل نفسك | من هو الله يا من ظلمت الله ؟
من الذى يذكرك غيره أحدًا حزفا عيدى | وإذا كان هو أنت فلماذا زحمة الأغيار ؟
فرق ما بين الشهود والوصل | ولست أخدع بهذه المقولة
لو كان الوصل والشهود واصرًا | لدمت العين برؤية الشوك
أعطاك كأسًا فصب واشرب | وأعطيك آخر فخذ وتملك
ليس للسيد غير صورة واحدة | إنما الكثرة من المرآة وصاحبها
صورة الملك ونقش العملة واحد | والتعدد في الدراهم والدنانير
ينقش من ماء واحد نقشًا | على أعلى شجر الورد سواء على الوردة أو الشوك
ويستمد من شمس واحدة لونه | اللارنج أو الرمان يتسويان في ذلك
نقطة واحدة لها ألف دائرة | لو مد الفرجار قدمه مرة بعد مرة
كل العالم أثر صورته | فاعتبروا يا أولى الأبصار
كل الناس تسبح باسمه | الرمل في الفلاة والحجر في الجبل

(١) نقل – فيما يبدو – هذا البيت براون وترجمة على سبيل الخطأ أى قرأ المصراع الثانى منه (دوست أن دوست كير ودست بدار) ، وصحته كما نرى (دست آن دوست) ، وقد ترجمه براون That Friend adopt as Friend. all else forsake (ومعنى الجملة الأخيرة : تبَنّ ذاك الصديق كصديق وتخل عنه تمامًا) . (المترجم)

ونظم هذه القطعة التالية ، ولها لطف خاص يقلد السعدى :

يا من لم تتعب وتنفق من الميراث　　　انظر من تكون ومال من تنفق

جمعه ويقى عنه ؛ لأنه لم يكن ينفق منه شيئًا ، فافهم أنك ستخلفه بعد رحيلك المال غول رجل ، والمرأة غل على عنقه ، وأنت فى غل ومع الغول طالما أنت مع المال والذهب ولدك عبد الله فلا تحمل همه ، ولست أرفق من الله[1] ، لا تدر حول هواك وإلا صار وبالا عليك ولو طرت بجناح جعفر الطيار[2] .

هوسك ورغبتك هما بحر الفتنة فلا تنزل فى موجه مادمت تجهل السباحة التى متى تنظيفك للجبة هذا وللعمامة ، واغسل يدك من الدنيا فهذا أيضاً تنظيف لن تصاب قط بسوء نظر الآخرين لو أنت تمعنت جيداً فيما تفعل لم يكن قول أوحدى كذبًا فاقتله حتى تصل السعادة .

والغزل التالى من لطائف شعره :

ما أكثر توالى الخريف والربيع من بعدك

ويمضى عليك الصباح والمساء والليل والنهار

حافظ على قلبك لا تسلمه لحسناء الدنيا

فهذا ليس حبًا لأن له هموم الحب

حين تلدغ كالعقرب الجميع اليوم

فإن الحية هى أفضل مؤنس لك فى قبرك

(١) ورد هذا البيت أيضًا فى ديوان السعدى ، والبيت تاليه معناه ، فإذا كان سعيد الحظ فله كنز السعادة ، وإذا كان تعيسًا ، فلماذا تزيد من تعب نفسك ؟

(٢) جعفر الطيار هو جعفر بن أبى طالب ابن عم النبى الذى قتل فى غزوة مؤتة عام ٨ هـ / ٦٢٩م ، وقال فى الرسول (مريى جعفر البارحة فى نفر من الملائكة له جناحان مخضب القوادم من الدم) فسمى لهذا الشهيد الطيار أو ذو الأجنحة (ابن الأثير الجزء الثانى ، ص ١٨١) .

أكــرم قلبًــا فــإكــرامك لـه عـــمل عـظـيـم

وإلبـــا فـــمـــا مـــعنـى إيـذاء قـلـوب الخـلـق

لا تـنـظـر إلى الـتـرابيين فـى دنـيـانـا بـحـقـارة

وأنـت تعلـم أنـك سـتـدفن فـى هـذا التـراب[1]

وننهى كلامنا عن أوحدى بهذا الشعر :

لا تـف بـعـــهـــدك مـع حـــانـثـى الـعـــهـــد

ولا تـسـتـقـم مع من لم يـسـتـقـم بـعـهـده مـعـــك

والـفـــخـــار الـذى يـصـلـك بـوسـيـلـة دنـيـئـة

عده عـارًا لا فخارًا إذا كنـت تفـهم الفـخار والعار

إذا أعـطـيـت كـــأس الـعـظـمـــة والمجـــد

فـــالـق أولاً نـظـرة عـلـى مـــا بـهـــا مـن هـمـــار

حـظ نفـسـك المضـطـربة هو أن تـضـمر لـك شـرًا

حـين تـقـــول لـك اتـركـنـى هـكـذا بـلا عـنـان

(١) الأصل الفارسى لهذه الأبيات نسوقه مثالاً لشعر أوحدى :

بسكه بعد زتوخزافى وبهارى باشد — باشد شام وصبح آيدو ليلى ونهارى باشد

دل نكهدا كه برشاهد دنيا ندهى — كاين نه يارى است كرا وراغم يارى باشد

توكه امروز جو كزدم همه انيش زنى — مونس كورد تونيك است كه مارى باشد

يكدل سوخة بنواز كه كاريست عظيم — ورنه آزار دل خلق جه كارى باشد ؟

خاكساران جها مدرا بحقارت منكر — توجه دانى كه دراين كرد سوارى باشد

محمود الشبسترى

قرية شبستر قرب تبريز فى آذربايجان مولد العارف المعروف الذى ولد أواسط القرن السابع الهجرى ويسمى سعد الدين محمود والشبسترى ، لا نعرف كثيراً عن سيرته ، ويبدو أنه عاش سائر عمره فى هدوء وسكون بلا حادث فى تبريز أو بالقرب منها خلافاً لزمانه المضطرب وعصره الكثير القلاقل ، وتوفى فى المكان نفسه فى عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م ، لكن يخلف تأليفات ضخمة أو مستفيضة ، لكن مثنوية جلش راز أو روضة الأسرار الذى يضم نحو ألف بيت من أفضل وأجمع الرسائل التى ألفت فى أصول التصوف ومبادئه ولا يزال لها شهرة عظيمة لدى الخاص والعام حتى اليوم ، وقام (وين فيلد E.whinfield) بترجمة جيدة لها طبعها مع مقدمة وحواشٍ فى لندن عام (١٨٨٠م) وضمن مقدمة ما جمعه من نقاط حول المؤلف وتاليفاته ، وقد جذبت هذه الرسالة الشريفة اهتمام السياح الأوربيين من عهد قديم فى حدود (١٧٠٠م) ، ووصلت نسخا إلى مكتبات أوروبا فى القرن التالى ، وأفاد منها الدكتور تولوك فى تأليف المسمى Safismus عام ١٨٢٠م ، ثم ترجم قسماً منها إلى الألمانية فى كتابه :

(Blüthensammlug aus der Margenlandischen Mystik, 1925).

وبعد ذلك فى عام ١٨٣٥م ترجمها جميعاً شعراً هامر بورجشتال Hammar Purgstall .

نظم هذا المثنوى كما يذكر مؤلفه نفسه فى شوال عام ٧٠ هـ (فبراير ١٣١١م) وهو إجابات لخمسة عشر سؤالاً تتصل بأصول التصرف سألها واحد من خراسان اسمه أمين حسينى[١] .

هذه المسائل الخمسة عشر كالتالى على سبيل المثال الاختصار :

(١) أمير حسنى هو أمير حسينى حسين بن عالم بن أبى الحسين الهروى نفسه ، الذى سأل بقول الجامى الأسئلة المنظومة لجلشن زار (راجع نفحات الأنس)، وقد توفى فى شوال ٧١٨ هـ ، وزار المترجم فى ١٣٢٦ هـ . ش قبره فى مقبرة السادات المصرخيين بهراة .

السؤال الأول :

أولاً أنا في تحير من فكرى فما هذا الشيء الذى يسمى بالتفكر ؟

السؤال الثانى :

أى فكر لنا مشترط للسلوك ولماذا تكون الطاعة به مرة والعصيان أخرى؟

السؤال الثالث :

من أكون خبرني عن نفس وما معنى (سافر في ذاتك) ؟

السؤال الرابع :

كيف المسافر ومن السالك ؟ ومن أقول له إنه رجل كامل ؟

السؤال الخامس :

من وقف أخيراً على سر الوحدة ؟ وماذا أدرك منها العارف ؟

السؤال السادس :

لو أن المعروف والعارف هما الذات الطاهرة فما الفائدة من حفنة هذا التراب الجسدى؟

السؤال السابع :

لأى نقطة كلمة (أنا الحق) لماذا تسمى ذاك القول المطلق هزلاً ؟

السؤال الثامن :

لماذا يسمى المخلوق بالواصل وكيف يحصل سلوكه وسيره ؟

السؤال التاسع :

كيف وصل الممكن بالواجب وما هو حديث القرب والبعد والكثرة والقلة ؟

السؤال العاشر :

ما البحر الذى ساحله النطق وأى جوهر من قاعة نحصل ؟

السؤال الحادى عشر :

ما الجزء الأكبر من الكل ؟ وكيف طريق طلبه ؟

السؤال الثانى عشر :

كيف انفصل المحدث عن القديم فصار الأول (العالم) ، وصار الثانى (الله) ؟

السؤال الثالث عشر :

ماذا يعنى المرء بقوله : إن لديه الإشارة تجاه العين والمثقفين ؟

السؤال الرابع عشر :

ما معنى الشراب والشمع والشاهد ؟ وما مفهوم التحول إلى ارتياء دور الخمر ؟

السؤال الخامس عشر :

الصنم والزنا والرهبنة فى هذا الربع كلها كفر والإفحا معناها أفصح

ولم يقدم الشيخ الشبشترى فى هذا المثنوى إجابات للأسئلة السابقة وحسب بل زينها بأمثال وشواهد وشروح أخرى ، وكما ذكرنا فهذا المثنوى بوجه عام من أفضل الرسائل الموجزة التى لدينا فى فلسفة التصوف خاصة حين يقع ومعه الشرح الدقيق الذى كتبه له بعد الرازق اللاهيجى موقع الدراسة[1] .

(١) ينسب براون شرح جلشن راز إلى عبد الرزاق اللاهيجى ، بينما ينتسب هذا الشرح إلى الشيخ شمس الدين محمد بن يحيى اللاهيجى الأصل الشيرازى المسكن الذى ألف فى ذى الحجة من ٨٧٧ هـ ، ويسمى مفاتيح الإعجاز فى شرح جلشن راز ، والشيخ المذكور من سلسلة النور بخشية ومعاصر للسيد صدر الدين دشتكى وجلال الدين الدوانى وعبد الرحمن الجامى ، وذكر فى مجالس المؤمنين أن شرح جلشن راز هذا أرسله صاحبه إلى الجامى بهراة فنظم فى صدر جوانب كتابه هذا الرباعى وأرسله إلى الشيخ :

يا من فقرك يهب النور (نوربخش) لأرباب الخضوع إن جلشن راز السعد بخاطرك

فألق نظرة على أنا الفقير مرة ربما ترشدنى إلى الحقيقة من المجاز

وقبر الشيخ المذكور موجود خانقاة النورية بشيراز (حى لب آب) فى وقتنا هذا ، أما مولانا عبد الرزاق اللاهيجى صاحب جوهر المراد (جوهر مراد) فهو من متأخى الشيقة وحكمائهم ، وتوفى عام ١٠٥١ هـ .

ولما أن هذا المثنوى قط طبع مرارًا وتكثر كذلك ترجماته ؛ فسوف نكتفى بسؤال وجواب مختصر له وحسب :

السؤال العاشر :

ما البحر الذى ساحله النطق ؟ وأى جوهر من قاعة نحصل ؟

الجواب العاشر

الوجود بحر ساحله النطق وصدفة
الحروف وجواهر علم القلوب
فى كل موجة فيه دور ملكى
ينصب خارجًا من النقرل والنصوص والأخبار
وتنشأ آلاف الأمواج فى كل لحظة منه
ولا ينقص منه قطرة واحداً
ووجود العلم من ذاك البحر العميق
وبخلاف دوره من الصوت والحرف أو الكلام
ولما أن المعانى تتنزل هنا
فلا مناص لها من التمثيل

تمثيل

سمعت أن فى شهر نيسان
يرتفع الصدف من قاع بحر عمان
يرتفع من أدنى قاع البحر
ويطفو على سطح البحر فاتحًا فاه

فيرتفع من أدنى قاع البحر

ويسقط مطراً بأمر الحق تعالى

ويقطر فى فم الصدف قطرات عديدة

فيقفل هذا فمه بإحكام شديد

ويهبط إلى قاع البحر مملوء الجوف

فتصير هذه القطرة من الماء درة

وينزل الغواص إلى قاع البحر

ويستخرج منه لؤلؤاً يتلألأ

جسدك ساحل وحياتك مثل البحر

وبخارها فيض ومطرها علم الأسماء

والعقل هو غواص ذاك البحر العظيم

له مئات الجواهر داخل كليم

والقلب للعلم كطبق

والصدف على علم القلب هو الصوت ومعه الحروف

تصير الأنفاس سارية كالبرق اللامع

ويصل منها الكلام إلى أذن السامع

فاكسر الصدف واستخرج الدر الملكى

وارم القشر وأحمل اللب الطيب

إن اللغة ومعها الاشتقاق والنحو ومعه الصرف

كلهم يدورون في حول الكلام

وكل من أنفق كل عمره في هذه العلوم

فقد ضيع عبثًا عمره العزيز

ولا يمكن عد الشبستري صاحب مقاولات وآثار كثيرة مثل غيره من شعراء إيران لأن مثنوي جلش راز هو الأثر المنظوم الوحيد له على حدود ما نعلم ، وتآليفاته الأخرى هي رسالة حق اليقين ورسالة الشاهد ، وتوجد الرسالة الأولى بكثرة وطبعت في طهران على الحجر مع رسائل أخرى صوفية[1] ، والرسالة الثانية التي يراها المؤلف عنوانها الكامل هو (حق اليقين في معرفة الله والعوالم) ، وتشمل ثمانية أبواب على غرار الأبواب الثمانية للجنة وهي :

(١) الكتب والرسائل المنسوبة للشيخ الشبستري هي ثلاثة مثنويات ورسائل ذكرها براون بأعلى ، وله ثلاثة مؤلفات أخرى أيضًا أولها : سعادت نامه التي ذكرها ريبه في فهرسته برقم (Add, 27261. xxiv) ، ويذكرها المرحوم (تربيت) في (علماء آذربايجان) أيضًا ، والنسخة الموجودة في المتحف البريطاني ، وكذلك النسخة المملوكة لتربيت ناقصتان وتشملان القسم الأول لهذا المثنوي .

وثانيها : ترجمة منهاج العابدين للغزالي التي ينسبها إليه (تربيت) في (علماء آذربايجان) ، ولكني أرى أنه لم يصب بهذه النسبة .

وثالثها : رسالة (مرآة المحققين) في التصرف بالنثر التي طبعت على الحجر مرتين في طهران عام ١٣١٨ هـ في مجموعة تسمى عوارف المعارف وملحق بها حق اليقين للشبستري سندًا موثوقًا به الله إلا أنه كتب في صدر تلك الرسالة المطبوعة (مرآة المحققين للشيخ محمود) ، اكتفى حاجي خليفة بذكر هذه الرسالة وقال إنها رسالة فارسية في التوصف ولا يذكر شيئًا عن مصنفها (حاجي خليفة ، الجزء الثاني ص ٤١٤) ، وهذه الرسالة تبدأ بهذه العبارة : (الحمد بلا حد والثناء بلا عن لحضرة ذي الجلال .. إلخ) ، وتنتهي بهذه العبارة : (وهنا يتضح معنى الوحدة والسلام على من اتبع الهدى) ، وتشمل هذه الرسالة سبعة أبواب هي :

الباب الأول : في بيان النفس : الطبيعية ، والنباتية ، والحيوانية والإنسانية .

الباب الثاني : في صورة الموجودات .

الباب الثالث : في بيان الواجب والممكن والممتنع .

الباب الرابع : في بيان الحكمة في المخلق .

الباب الخامس : في بيان المبدأ والمعاد .

الباب السادس : في مساواة الآفاق والأنفس

الباب السابع : في تطبيق الآفاق والأنفس .

وألفت هذه الرسالة سائرها بالنثر السلس والبسيط .

الباب الأول : فى الظهور للحق وبيان مقام المعرفة .

الباب الثـانى : فى الظهور الصفاتى له ، وبيان مقام علمه .

الباب الثـالث : فى مظاهره ، ومراتبه وبيان المبدأ .

الباب الرابـع : فى وجوب وحدة الواجب تعالى .

الباب الخامس : فى ممكن الوجود ، وكثرته .

الباب السادس : فى تعين الحركة ، وتجدد التعينات .

الباب السـابع : فى حكمة التكليف ، والجبر ، والقدر ، والسلوك .

الباب الثـامن : فى بيان المعادو بيان الجبر ، وحقيقة الفناء والبقاء .

ربيع البوشتنجى

ربيع البوشتنجى مداح فخر الدين كرت سلطان هراة يقل شهرة عن غيره من الشعراء[(١)] ، تذكرة مفصلة وردت حوله فى الكتاب النادر والقيم مجمل الفصيحى الخوافى فى تذييل عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م ، الذى قتل فيه هذا الشاعر ، يروى أن ربيعى كان مدمنًا للخمر بينما كان ممدوحه فخر الدين منهمكًا بتعاطى البنج ، ويشير هذان الرباعيان المنسوبان للشاعر إلى هذا المعنى :

كـلـمـا طـربـت مـن الخـضـرة

وصـرت جـديراً بالفلك الأخضر السعيد

(١) وردت سيرة مفصلة لصدر الدين الخطيب المتخلص بربيعى البوشتنجى فى حبيب السير تعليقًا على سيرة الملك فخر الدين كرت ، وقد فصل سبب حبس هذا الشاعر وقتله (حبيب السير ، المجلد الثالث ، الجزء الثانى) .

شـربت من الحبـة الخـضـراء[1] علـى الخـضـر

مع الشباب الخضر قبل أن أتوارى فى التراب مثل الخضرة

شـارب المر لو كـان غـنيًـا يـغـدو عـورًا

وتـفـيـض الـدنـيـا ثـورة مـن عـربـدتـه

فـأصـب فـى قـدح اللعـل (الخـمـر) من ذاك

الزمرد (البنج والحبة الخضراء) لكى أعمى عين أفعى همومى

ولما ألقى بربيعى فى السجن نظم مثنويًا اسمه (كارنامه) أو (كرت نامها)[2] ونظم أشعارًا أخرى عطن بها شفقة السلطان نحو، لكن لم تثمر على شىء، وورد نحو سبعين بيتًا من المثنوى فى المجمل للفصيحى ونورد بدورنا هنا هذه الأبيات للتمثيل منه :

مـلـك الـعـالـم كـسـرى الـبـسـيطـة

وآرث جـمـشـيـد الملـك فـخـر الـديـن

كـان لـديـه قـيـد ثـقـيـل الـصـنـاعـة

مـصـنـوع مـن الحـديـد والـفـولاذ

فـقـيـد بـهـذا الـقـيـد قـدمـى قـائـلاً

لا تـخـرج عـن أمـر مـلـك الـعـالـم

وأطـلـق سـراح الآخـريـن غـيـرى

فـانـظـر إلـى الـزمـان كـيـف ظـلـمـنـى

(١) الحبة الخضراء التى يشير إليها الشاعر هى نبات الشاهدانج الذى يطلق عليه فى الإنجليزية Cannabis Indica، ويسبب اخضرارها تجرى على لسان الشعراء بلفظ (سبز) أى الخضـراء، أو (حبة الخضراء) أو (الزمرد) أو (البيغاء الخضراء) أيضًا .

(٢) كرت نـاصه مثنوى آخر نظمه الشاعر على غرار شاهنامه (راجع حاجى خليف ج م وروضات الجنات فى تاريخ هراة)، ومن هذا الكتاب النادر نسخة فى كابل فى مكتبة صديقى العالم (سرفر جويا اعتمادى) .

وصـرت مـن بعـد ذاك مـقـيـداً بـقى ثـقـيـل

تمـامًـا مـثـل قـامـوس فـى مـا زنـدران

هـمـوم الحـزن مـعـقـودة علـى قـلبى وقـدمى

فإلى متى أظل مع كل هذا الهم المرافق الأنفاس ؟

إن روحـى تصـرخ من صـحبتـهم (السجانين)

إنـهم لـيسـوا بشـراً بل شـياطين فى أعـجب هذا

لا يـسـعـد قلب بـالحـيـاة بـسـبـبـهم لأن قلوبهم

أشـد قـسـوة مـن الحـديـد والـفـولاذ

إن الـشـيـطـان هـزوا إذا قـبـس بـهـم

والـب تـلـمـيـذ وحـيـوان ضـعـيـف عنـدهم

عـادتـهـم تـقـيـيـد الـنـاس ورمـيـهـم

وخـلـصـتـهـم الـقـتـل والـسـفـك

عـملهم فى حـايتـهم يـفـوق الـقـمـع والـشـدة

ووجـهـتـهـم دائـمًـا إلـى خـيـسـار والـغـول[1]

أرواحـهـم بـقـسـوة الجـبـل مـحـتـرفـو قـتـال

وأرواحـهـم قـاسـيـة كـالجـبـل علـى خلق الله

عـشـرة مـن هـؤلاء هـم حـراس

فـواحـزنـاه عـلـى حـالـى المـضـطـرب

(١) خيسار قلعة فى خراسان قرب هراة (ياقوت الحموى الجزء الثانى ص ٥٠٧) ، والغور ناحية جبلية فى أفغانستان ويمكن أنهما كانتا مثل قلعة كات فى عهد نادرشاه الأفشارى مكانًا لحبس المجرمين ، وأن هؤلاء العشرة من حراس الملك كانوا من أهل الغور الجبلية .

ويدعى الشاعر فى قصيدة أخرى له نظمها فى أيام سجنه أن عمره واحد وثلاثون عامًا قضى منها سبعة عشر فى صدمة السلطان والبقية مجاورًا للبيت الحرام حين يذكر :

"مضى عن عمرى واحد وثلاثون عامًا وكان مرام احترامك سبعة عشر فى خدمتك وأربعة عشر فى البيت الحرام" .

وله أيضًا منظومة أخرى بالسياق نفسه والغرار وحول هذه (الحالة) نفسه ، ويبدو أنه مثنوى على حسب ذكر المجمل ، لكن لا يظهر منه شىء عن حياته ، ولم يعرف أحد كيف مات هذا الشاعر البائس فى سجنه .

همام التبريزى

همام التبريزى شاعر آخر من شعراء هذا العصر يستحق ذكرًا موجزًا ، توفى حسبما يذكر الفصيحى فى مجمل التواريخ فى عام ٧١٤هـ / ١٣١٤م فى سن (١١٦) سنة ولاقى الشيخ السعدى ، وكان له معه ممازجات ومداعبات شعرية انهزم فيها أمام الشيخ ، وليس لدينا من سيرته موضوع آخر غير أنه كان أحد شعراء القصيدة ومادحى صاحب الديوان[١] .

والأشعار الآتية نقلاً عن هفت إقليم نماذج لشعره الذى يشاهد فيه بشكل ظاهر تأثير السعدى :

فى تلك اللحظة التى أموت فيها أكون متمنيًا لك

وأسلم روحى على أمل أن أكون ترابًا فى حبك

وحين أرفع رأسى من التراب صباح القيامة

انبعث برغبتى فيك وأجد فى البحث عنك

(١) راجع مقدمة الجزء الأول لتاريخ جهان حبشا ، التى كتبها محمد خان قزوينى .

لا أتحـــــدث عــن الجنـــة ولا أشــم زهــرهــا

ولا أبـحــث عـن الحــــور بـل أعـــيــش فــي تمـنــيـك[١]

نزار القهصتانى

مع ذلك لابد من ذكر بضع كلمات عن الشاعر الأخير ؛ لأنهم وجدوا مخطوطًا لديوانه فى المتحف البريطانى بعد نشر فهرسته (Or. 7909) ، وسود له كاتب هندى اسمه مولوى إسماعيل نسخة من أجلى فى خريف عام ١٩١٣م ، وكنت تواقًا لهذه النسخة لأنه كان لدى احتمال قوى بسبب انتساب هذا الشاعر النزارى إلى الإسماعيلية (الملاحدة والحشاشين Assassins) لأن بأشعاره أدلة وإشارات إلى منصب هؤلاء ، كما كانت آمل أن أشاهد فى أشعاره قريحة عالية مثلما كان للشاعر الإسماعيلى الكبير ناصر خسرو العلوى .

وفيما أن النزارى ينتسب إلى الإسماعيلية فهذا أمر لا يظهر من تخلصه ومولده وسقط رأسه وحسب بل أيده كثير من كتاب السير ، فبعد موت الخليفة الفاطمى الثامن لمصر وهو المنتصر بالله (١٠٣٥ - ١٠٩٤م) ثار نزاع ما بين ولديه المستعلى بالله ونزار هلك فيه الابن الثانى ، لكن إسماعيلية شرق إيران (مضمونًا إليهم شعبيتهم بالشام) كانوا يعدونه الإمم بحق الآخر من أن اسمه اشتق من كلمة (نزار) بمعنى النحيف ..

(١) نسبت هذه الغزلية فى بعض نسخ ديوان السعدى المخطوطة القديمة التى نسخت أوائل القرن الثامن الهجرى إلى السعدى . ومقطع هذه الغزلية هو البيت الذى يشمل تخلصه وهو :

قـطـع ألـف بـاديـة ســـهـل مع وجـــودك　　　ولو خالفتنى نفسى فيك يا سعدى أنحاز إليك

وللتمثيل الفارسى نورد الأصل :

درآن نـفـس كــه بميــرم دراً رزوى تـوبـاشـم　　　بدان اميـددهم جان كه خاك كوى توباشم

بوقت صـبح قـيـامـت كـه سر زخـاك برآرم　　　بآرزوى توخـيـزم ، بجـسـتـجـوى توبـلـشـم

حـديـث روضـة تـكـويم ، كل بـهـشـت نـبـويم　　　بـســـوى حـــورنـيـــويم درآرزوى تـوابـاشـم

(المترجم)

فضلاً عن أن قستهان كانت أحد لمراكز المهمة للملاحدة[1] خاصة فى مدينة قائن وبيرجند اللتين أشار إليهما الشاعر فى أحد أشعاره حين يقول :

جـلـسـت عـلـى رأس كـنـزى

سـواء فـى بـيـرجـنـد أو فـى قـائـن

وسـوف تـتـحـرر وتـفـرغ بانـزارى بعـد هذا

أنـت وكـنـز الـفـقـر وكـنـز الأمـان

وحوت نسخة ديوانه على غزليات عدة ، ومع أنها – إلى حد ما – بها روح ، لكنها غالبًا ما تدور حول (الخمريات) وتقل فيها الإشارة إلى عقائده المذهبية أو أحداث حياته العامة ، ولابد من البحث عن مثل هذه الإشارات فى شعر المثنوى والقصيدة ، ولكن للأسف لا نصادف فى الديوان المدروس شيئًا من قالب القصيدة والمثنوى ، وحسبما يذكر أسبر نجر[2] فقد مات نزارى فى عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م ، وخلف مثنويين أحدهما اسمه (دستور نامه) الهندى الذى يتصف بقوله بكثير اللطف والجمال ، لكن هذا المثنوى لم يتيسر لى مطالعته ، وربما آثاره الأخرى تقع فى المستقبل موقع دراسات أخرى أكثر تفصيلاً .

وغزل آخر :

حـين يمـر بـخـاطـرى وداع الأحـبـة والـديـار

يـفـيـض مـنـزلـى بـدمـع عـيـنـى

لحـظـة الـفـراق كـأنـهـا ألـف عـام

فـانـظر كـيـف ينقـضى الـيوم والأسـبوع والـشـهـر والعـام ؟

(١) راجع كتاب بلدان الممالك الشرقية للواسترابغ ، ص ٢٥٤ .
(٢) سبرنجر Sprenger – فهرست مكتبة الملك أود ، ص ٥٢٤ .

وغزل ثالث :

عــــاينــت أهــوال الـقـــيـــامـــة يـوم فـــراقـك

مــــــــا ضـــــــــر لـــو لـــم أعـــــــــرفـــك ؟

اغــــتـــنـم حـــــضـــور أحـــبـــــائـك

لأن الـــزمـــــــــان مـــــــــولـــد لــــلـــغـــــــــدر

وغزل رابع :

بـدأت الـبـــارحـــة بـذكـــر الحـــبـــيـــب

فـــصـــرخـت كـل شـــعـــرى منـى مـن أعـــمـــاقـــهـــا

وانـقـــضـى الـلـيـل ولـم يـنـتـــه حـــديـثـنـا

ومـــــا ذنـب الـلـيـــل إذا طـالــت قـــصـــــتـــنـــا !؟

وإذا سمح المقـــام فلابد من ذكر بعض آخر من شعـــراء هذا العصـــر يجدر ذكرهم .

شعراء آخرون لهذا العصر

وهم أفضل الكاشى وأثيرى الأومانى ، وسيف الدين الإسفرنجى ، ورفيع الدين الأبهرى ، وفريد الأحول ، ونزارى القهستانى .

لكن قل كثيراً مصادفتى دواوينهم ولا أعرف من أشعارهم غير بعض منتخبات نقلها عنهم كتاب السير ، فالأولى إذن إغضاء النظر عن ذكرهم .

سلطان ولد وكتابه رباب نامه

وفى خاتمة هذا المقال لامناص من ذكر كلمات يسيرة عن سلطان ولد الابن والخليفة الروحى لمولانا جلال الدين الرومى[1] ، ولد فى آسيا الصغرى فى شهر لارندا أو قرامان الحديثة فى عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م حين كان أبوه فى التاسعة عشر من عمره، واسمه الأصلى هو بهاء الدين أحمد وتأليفه المعروف مثنوى اسمه (رباب نامه) وهو كتاب نوارسى يضم أيضًا ١٥٦ بيتًا تركيًا ، ويرأى جيب هذه الأبيات هى أقدم نماذج الشعر التركى الغربى الموجود بأيدينا ، وقد استرعى اهتمام فون همر ، وفيكرهوسر ، وبونهور وفليشر ، وسيلحان ، وأدولف هذه الأشعار ، وبحثها كذلك جيب فى كتابه تاريخ الشعر العثمانى (الجزء الأول ص ١٤٩ - ١٦٣) ، وذكر فيه : (لا يحق نسبة هذه المـأثرة إلى سلطان ولد ، وهى أنه كان رائدًا لكل أمر طيب لا حسب بل يحق له أيضًا هذه المفخرة وهى ابتكار عملاً مهمًا وهو تأسيس شعر لأمة بحيث يحق لكل إنسان أن يفخر بمثل هذا العمل) ، وبناء على إقرار جيب - وهو عاشق كبير للشعر التركى - فإن تأسيس الشعر التركى مرهون برجل إيرانى ، وهو فى حقيقته فرع من الشعر الفارسى ظل يستمد مدة خمسة قرون ونصف القرن أى من (١٣٠٠م) إلى (١٨٥٠م) من معين الأدب الفارسى حياته وماهيته ، ومهما يكن من أمر فإن ظهور الحكم العثمانى ونشوء الأدب التركى كليهما يتعلق بها العصر والعهد الذى سنبحثه بعد هذا الفصل ؛ ولهذا فالأجدر أن نشير إلى هذين الأمرين فى وقت الضرورة غالبًا .

(١) راجع التأليف القيم للأستاذ العالم بديع الزمان فروزان فر أستاذ الأدب الفارسى وعميد كلية المعقول والمنقول ، الذى صنفه فى تاريخ حياة مولانا جلال الدين الرومى وأسرته ، وأبقى هذا التأليف تذكارًا خالدًا عنه خاصة رسالة فى تحقيق أحوال مولانا جلال الدين محمد وحياته ، طبعة طهران - شهر بهمسن ١٣١٥ .

الكتاب الثانى

ملوك إيران الإيلخانيون

من ولادة الأمير تيمور إلى وفاته

٧٣٦ - ٨٠٧هـ / ١٣٣٥ - ١٤٠٥م

الفصل الرابع

عصر تيمور

بداية هذا العصر

بموت أبى سعيد فى ١٣ ربيع الثانى ٧٣٦هـ / ٣٠ نوفمبر ١٣٣٥م انقضى عصر قوة المغول فى إيران عمليًا ، وولد بعد ذلك بثمانية شهور أى فى ٢٥ شعبان من العام نفسه الموافق ٨ أبريل ١٣٣٦ تيمور الذى يعرف بلنج أى الأعرهم ويشتهر عند الأوربيين بـ (تمر لن Tamerlane) ، قدر له أن يصل إلى ما وصل إليه تقريبًا جنكيزخان من العظمة والقوة ويكون عقابًا مؤلمًا لمسلمى آسيا الغربية والوسطى .

استرعى التطابق التقريبى لتاريخ وفاة آخر سلاطين المغول مع ولادة هذا السلطان العظيم - الذى أحيا من جديد سطوة التتار فى إيران - انتباه مؤلف (مطلع السعديين) ، وعد أيضًا هذه السنة نفسها مناسبة لبداية تاريخ هذا العصر الذى دام سبعين عامًا والذى نحن بصدد دراسته ، وهذا العصر على رغم القلاقل والفساد الذى كان موجودًا ببدايته والمذابح الكبرى التى وقعت بآخر يجدر بالاهتمام من حيث الكم والكيف للشعراء والكتاب الذين ظهروا فيه .

الكتاب المنتخبون لهذا العصر

من شعراء هذا العصر سلمان الساوجى ، وخواجوى الكرمانى ، وعبيد الزاكانى ، وعماد الكرمانى ، وعصار التبريزى ، وجلال الدين أولهما : عضد اليزدى ، وثانيهما : الطبيب ، وكمال الخجندى والمغرب وأبو اسحاق الأطعمة وابن يمين ، وآخرهم بل الأستاذ الذى ينعدم نظيره لذلك العصر حافظ الشيرازى ، وكتاب هذا العصر هم مؤرخو تيمور مثل : نظام الشامى ، ورشرفى الدين على اليزدى ، ومعين الدين اليزدى مؤرخ الأسرة

المظفرية التى أزالها تيمور وبعض العلماء الكبار الذين رغم كونهم إيرانيين كتبوا بالعربية مثل مير سيد شريف الجرجانى ، وسعد الدين التفتازانى ، وعضد الدين الأيجى .

الهجمات الأولى لتيمور على إيران

جرت فى (٧٨٢هـ / ١٣٨٠م) حين فتح تاجر هذه السنة خراسان وتسارسيستان ومازاندران ووقع هجومه الثانى بين عامى ١٣٨٤ و ٨٥م الذى هاجم فيه ثانية مازندران واتسعت أعماله الحربية فوصلت أذربيجان وعراق العجم وجرجان وانتهت بفتح شيراز وذبح سبعين ألفًا فى أصفهان ، وبدأ هجومه الثالث فى عام (٧٩٥هـ / ١٣٨١م) السربدرايتين بسبزوار وملوك كرت بهراة فى عام (٧٩٢هـ / ١٣٨٩م) .

الأسر السلطانية التى أزالتها تيمور

كانت إيران مستقلة فى أمورها طوال خمسة وأربعين عامًا من تاريخ مولد تيمور ووفاة أبى سعيد فما بعدهما ، وكانت تتوزع على أربع أو خمس أسر صغيرة مجلة هى :

(١) آل المظفر ، وهم ملوك فارس وعراق العجم وكرمان ، وهم الأهم مما عداها .

(٢) آل جلاير أو الإيلخانيون فى بغداد آذربيجان .

(٣) السربداريون فى سبزاوا ، وملوك كرت الذين استقلوا فى هراة وشمال إيران الشرقى .

وتاريخ هذه الأسر المتضائلة يختلط ويتداخل فى بعضه وربما لا يستحق عناء الدراسة الدقيقة ، وفى الوقت نفسه كان اتساع أراضى كل منهم غير محدد ، وكانت حدودهم (إذا كانت حدودًا بمعنى الكلمة) فى معرض التغير دائمًا ، وكانت تنشب فى الغالب بل دائمًا الحروب الداخلية بين أفراد الأسرة نفسها ، ويثور الإخوة وبنو القمة فى تنافس وصراع أحدهم على الآخر ، ويقيمون السلطنة بينهم .

الأدب الإيرانى فى عهد الاختلال السياسى

نقطة جديرة بالاهتمام وهى أن الأدب الفارسى يزداد دائمًا فى عصور القلاقل وتوزيع قوى البلاد عن سائر العصور فى رواجه وازدهاره ، فمثلاً ظهرت مجموعة من شعراء الدرجة الأول فى هذه المدة التى تستغرق خمسة وأربعين عامًا والتى نبحثها الآن ، وبينما لم يظهر نصف عدد هؤلاء الشعراء على طول مدة مائتين وأربع وثلاثين سنة (١٥٠٢ - ١٧٣٦م) أيام الحكم الصفوى التى وصلت فيها إيران فى القوة والعظمة والاستحكام إلى ما لم تصل إليه فى العصور الأخيرة ، بل ولو ظهر فى العصر الصفوى شاعر فلم تتجاوز شهرته حدود حمل حياته وإن كانت أقسام الفنون وعلم الكلام قد ازدهر فى هذا العصر ازدهارًا عظيمًا ، وسوف نبين سبب هذه الحالة العجيبة فيما بعد فى موضعه فى هذا العصر الصفوى ، لكن يبدو للنظر أن كل بلاط من البلاطات الصغيرة والمتعددة والتى ينافس أحدها الآخر ويبذل بليلغ المساعى من أجل التفوق والترقى على غيره كان يشجع كل منها منفردًا الشعر والشعراء ، وكان مثل هذا التشجيع يهيئ لهؤلاء الشعراء ظروفًا وأوضاعًا مساعدة ؛ بحيث إذا قبل أحدهم فى مدينة ما الحرمان والاستهانة كان يلقى الترحيب والاهتمام فى مدينة أخرى .

يلزم قبل الدخول فى الحديث عن تيمور أن نشير بإيجاز إلى الأسرة الصغيرة التى حكمت فى هذا النصف القرن فى إيران وأهمها الملوك المظفرية سواء من ناحية اتساع أراضيهم وأحوالهم أو بسبب ظهور شعراء عظام ، خاصة الخواجة حافظ الشرازى ، اتصلوا بهم وعملوا لهم ، ثم يأتى بعدهم الجلايرون أو الملوك الإيلخانيون الذين حكموا فى بغداد وتبريز وكانوا فى الظاهر الورثة المباشرين لدولة المغول الميتة ؛ إذ كان يعيش تحت رعايتهم بصفة من الشعراء المتميزين فى حالة من الهدوء ، ثم السر بدراسة فى سيزوار الذين حكموا فى ناحية محدودة وصفيفة ، ومكانتهم لا تزيد عن كونهم ثوارًا ومتمردين - كما يعنى اسمهم - إلا قليلاً[1] وليهم ملوك كرت فى هراة وكانوا أكثر تحضرًا واستقرارًا واستحكامًا (وحكموا ١٤٤ سنة ، من ١٢٤٥ إلى ١٣٨٩)

(١) سر بدار تعنى م (رأسه على المشنقة) حرفيًا أى العاصى المترد الثائر . (المترجم) .

لكن بما أن بلادهم لا تقع اليوم فى الحدود الحالية لإيران وتعد جزءًا من أفغانستان الحالية ، وكانوا هم أنفسهم من حيث العنصـــر إما أفاغنــة أو مزيجًا منهم وضعناهم فى النهاية .

وهاكم بحثًا موجزًا عن هذه الأسرة الأربع

ملوك آل المظفر

مصادر تاريخ آل المظفر

بالإضافة إلى بعض مصادر التاريخ العام مثل روضة الصفا الذى يعرفه غالب دراسى الأدب الإيرانى ، فهناك بعض المصادر الأخرى - أيضًا - التى يستفاد منها فى هذا الموضوع منها كتاب يتصل بالأسرة المظفرية الذى صنفه أحد فضلاء هذا العصر واسمه (معين الدين اليزدى) ، كان هذا المؤرخ يدرس فى مدارس كرمان فى عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م ، ولم يحظ كتابه التاريخى هذا بالطبع حتى الآن[1] ، وتكمنا من مراجعة النسخة المخطوطة له الوجودة فى متحف فيتزويليام Fitzwilliam فى كمبردج ونسخت فى عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م ، ووجدت نسختان آخريان مخطوطتان بعد عام ١٩١٧م خطت إحداهما فى عصر المؤلف ، وهى ملك المرحوم السير هوتوم شندلر ، أرخ هذا التاريخ حتى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، ويفتقد الثلاثين سنة الأخيرة لهذه الأسرة فضلاً عن أن أسلوبه كثير الغموض والتعقيد والإشكال إلى حد أن كاتبًا اسمه محمود الكتبى حين كان ينسخ تاريخ جزيدة فى ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م رأى من السهل أن يضيف عليه شرحًا بقلمه لتاريخ آل المظفر ، وهذا الشرح الوجيز فى النسخة الموقوفة من جيب ويتضمن تاريخ هذه الأسرة حتى أوان انقراضها أى رجب (٧٩٥هـ / مايو ١٣٩٢م) على سبيل الاختصار .

(١) راجع فهرست ريبه ، ص ١٦٨ وتتمته ص ٣٢ ، طبع هذا الكتاب فى طهران بهمة سعيد نفيسى .

هذان المصدران مضموماً إليهما التفصيلات الواردة بالكتاب الحديث التأليف (فارس نامه ناصرى)[1] تأليف صاج ميرزا حسن فسائى (ص ٤٩-٦٦) عن هذه الأسرة هى المادة العلمية لإعداد تاريخ مختصر لآل المظفر ، لكن لابد من الاعتراف بأننا ندين فى دراستنا هنا إلى الخلاصة العالية والكبيرة الفائدة التى كتبها فى تاريخ هذه الأسرة الآنسة جرترود لوتيان بل فى مقدمتها لترجمة (أشعار حافظ) .

أصل المظفريين ونسبهم

يقال إن أجداد هذه الأسرة قدموا من جزيرة العرب فى أوائل الفتح الإسلامى إلى إيران وسكنوا فى خواف من خراسان ، وهاجر منها فى الهجوم المغولى غياث الدين حاجى خراسانى الجد الأعلى لمبارز الدين محمد أول ملك لهذه الأسرة وقدم إلى يزد ، كان أحد أولاده وهو أبو بكر على رأس ثلاثمائة فارس برفقة هولاكو فى هجومه على بغداد ، ثم قتل بعد ذلك فى مصر على يد عرب بنى خفاجة ، خلفه أخوه محمد على حكم يزد ، لكنه بقى عنه ثلاثة أبناء هم : شرف المظرف ، وزين الدين على ، ومبارز الدين محمد ، ويقال إن المظفر رأى فى نومه أن أولاده سيكون لهم سلطة كبيرة ، وكان لا يزال فى دور الشباب حين أظفر نفسه بسبب الأعمال البطولية التى أبداها فى حرب مع جماعة من لصوص فارس كانت قد قدمت للنهب والسرقة إلى يزد .

فى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م هاجر إلى كرمان ودخل خدمة الأمير سورغمتش القراخطائى ، ثم عمل فى خدمة أربعة من السلاطين المغول بالتعاقب وهم : أرغون ، وكيخاتو ، وغازان ، وأولجايتو (خدا بغده) فى عام ٧١١هـ / ١٣١١م ، استقبله عين أولجايتو ابنه مبارز الدين محمد ، وكان فى الثالثة عشر فى الحكم ، وفى التاسعة

(١) تاريخ فارس نامه ناصرى ، وهو من تأليف جد أم على أصغر حكمت المترجم حاجى ميرزا حسن حسينى المعروف بالفسائى ابن حسن بن مجد الدين بن سيد على خان الكبير فى عام ١٣١٣هـ ، طبع على الحجر فى طهران ، ولد المؤلف فى عام ١٢٣٧هـ ، وتوفى فى رجب ١٣١٦هـ فى شيراز ، ودفن فى المدرسة المنصورية فى شيراز بجوار مقبرة جده الأعلى مير سيد صدر الدين دشتكى الشيرازى رحمه الله .

والعشرين تزوج بزوجته الثانية (بانوجهان) حفيدة سورغتمش ، وكان له خمسة أولاد هم : شرف الدين المظفر المولود فى ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م المتوفى على إثر طعنة أصيب بها فى عام ٧٥٤هـ / ١٣٥٣ م ، والشاه شجاع المولود فى ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م ، وقطب الدين محمود المولود فى ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م ، وولدان آخران هما أحمد ، وبايزيد .

الأمير مبارز الدين محمد

يعد الأمير مبارز محمد عامة أول ملك للأسرة المظفرية ، وتستغرق المدة من وقت جلوسه فى ١٣١٣م إلى سقوط أسرته على يد تيمور فى ١٣٩٣م ثمانين عامًا ، كان أول مقر حكمه كما ذكرنا مبيد لكنه ضم يزد إلى حكمه فى عام ١٣١٩م ، وفى (١٣٤٠م) سقطت ملوك كرب براج ، وفى عام ١٣٥٣م بعد سلسلة من الصراعات والحروب الطويلة ، إذا العشرة أعوام ، وقتل ابنه شاه شجاع هذا الصبى فى رفسنجانى بمنتهى القسوة ، ومن أعمال مبارز الدين نهيه عن شرب الخمر وأنواع الكبائر التى كانت منتشرة بين أهل شيراز أهل الملاهى والمجون فنظم لهذه المناسبة ابنة شاه شجاع هذا الرباعى :

في مجلس العصر أهملت آلات السكر

فلا صنج ولا قانون ولا دفًا

ترك الماجنون جميعًا عشق الخمر

إلا المحتسب الذى هو سكير بدون خمر[1]

(١) المحتسب Proctar هو الموظف الرسمى الذى كانت وظيفته حفظ النظام والأخلاق والنهى عن الملاهى ومراقبة بيع السلع فى وزنها وجودتها وسعرها ، و (المحتسب) فى هذا الرباعى يكنى به عن مبارز الدين محمد الذين كان يلقب به من باب السخرية .

وفى السنة التالية (١٣٥٤م) بسبب هذه الإجراءات الشديدة أو غيرها ثار أهل شيراز وتمردوا على الأمير مبارز نفسه تابعًا رسميًا وواليًا من قبل الخليفة المعتضد بالله العباسى وخطب له[١] .

موت أبى إسحاق أنجو

هاجم مبارز الدين فى عام ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م أصفهان وفتحها فى النهاية ، وأسر حاكمها أبا إسحاق أنجو وأتى به إلى شيراز ، وبأمره وعلى يد الأمير قطب الدين (ولد سيد أمير ضراب الذى قتل أبوه بناء عن أمر أبى إسحاق من قبل) قتل عام (٧٥٨هـ) ، وهذان الرباعينا ينسبان إلى أبى إسحاق أنجو وقد نظمهما قبل موته .

وا أسفاه فلم يبق لطير العمر حب

انقطع الرجاء فى كل قريب وبعيد

ويا للألم والحسرة ففى هذه المدة من العمر

لم يبق من كل ما قلناه بخير أسطورة

(١) هو أبو الفتح أبو بكر المعتضد بالله بن المستكفى أحد الخلفاء الرسميين الذين كانت لهم الخلافة الاسمية ، وكانوا يعيشون بمصر ، ولقبوا بالخلافة من سقوط بغداد حتى فتح مصر على السلاطين العثمانيين ١٢٦٢ - ١٥١٧م . وقد صار المتعضد بالله خليفة بعد أخيه الحاكم بأمر الله فى عام ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ، وتوفى فى ١٧٦٣هـ / ١٣٦٢م (راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى) ، فى موجز لتاريخ معين الدين اليزدى المنسوخ بذيل تاريخ جزيدة ورد شرح مهم فى ذكر مبايعة الأمير مبارز الدين للخليفة العباسى فى أصفهان وتنقله لفائدة : (لما توجه الأمير مبارز الدين محمد إلى حصار أصفهان لم يخرج إليه من بداخلها من المقاتلة برغم كثرتهم فنزل الأمير مبارز الدين بقلعة ماردانان وبالغ نائب الخليفة أمير المؤمنين المعتقد بالله أبى بكر من عهد هجوم المغول إلى ذلك اليوم معطلة من زينة ذكر الخلفاء العباسيين بذكر الخليفة المعتضد بالله ، ومن غرائب المعجزات النبوية أن بحكم الحديث «إن الله يبعث لهذه الأمة فى كل مائة سنة من يجدد لها دينها» لما وقع هذا الاختيار على هذا التاريخ فكان معنى من سنة ست وخمسين وستمائة وقت خروج جيش هولاكو ، وواقعة بغداد وحتى ذلك الوقت مائة عام بلا زيادة ونقصان ، وبالغ أيضًا علماء كرمان وفارس ويزد) ، ص ٦٦٣ .

أيضًا :

لا تناطح الفلك القتال وامضِ لحالك

وكيف أمورك مع دور الدهر وامض لحالك

وكأسًا من السم التى تسى بالموت

تجرعها بمهل وصب جرعة منه على الدنيا وامض لحالك

وبعد السيطرة على أصفهان هاجم مبارز الدين تبريز فاستولى عليها بعد حربين مع جنود آخى جوق وطارد أولاده حتى نخجوان ، لكن فى عاقبة الأمر قلب له الدهر ظهر المحبة ؛ فقد قبض عليه فى أصفهان ولداه شاه محمود وشاه شجاع ، وكانا قد علما بمؤامرة أبيهما ضدهما وسلماه وحبساه أولاً فى قلعة طبرك بأصفهان ثم فى القلعة البيضاء (سفيد) بفارس ، وهناك خدع حافظ القلعة وضمه إلى موالاته وحدث صلح ما بينه وبين ولديه ، لكن لم يدم وكان آخر أمره أن حبس بقلعة (بم) بكرمان فى ربيع الأول ٧٦٥هـ / ديسمبر ١٣٦٣م ، ومات فى سن الخامسة والستين[1] .

شاه شجاع ٧٥٩ - ٧٨٦هـ / ١٣٥٧ - ١٣٨٤م

جلس شاه شجاع مكان أبيه مبارز الدين والسبب الأول لشهرته هو أنه ممدوح الشاعر الخالد حافظ الشيرازى ، ولم يكن هو بذاته يخلو من الذوق وقريحة الشعر ، وكان ينظم الشعر بالعربية والفارسية معًا ، وقد أثبت محمود كتبى بعض نماذج لهما

(١) بلغ من القسوة والغلظة أنه برواية صاحب فارس نامه عن أحد أقارب الأمير وهو لطف الله بن صدر الدين العراقى كان يدع جانبًا القرآن وهو يتلوه ويشب واقفًا بيده مذنبا محكومًا عليه بالقتل ، ثم يعاود التلاوة باطمئنان عظيم (راجع فارس نامه ناصرى ، ص ٥٧) .

فى ذيل تاريخ جزيدة[١] ، ولم تنحصر فضائله العلمية بهذا الحد ، فيقال إنه حفظ القرآن فى التاسعة ، وكان يحفظ ثمانية أبيات عربية فى دفعة واحدة ، ذاع نظمه ونثره العربى والفارسى ومكتوباته ورسائله فى أطراف العراق وكان ماهرًا فى فنون القتال ، ويعد من أكبر حماة الأدباء والعلماء بعصره ، بل كان يحضر مجلس دروس مولانا قوام الدين[٢] ، وقد عين فى مدرسة دار الشفاء التى أسسها هو فى شيزار العالم المعروف سيد شريف الجرجانى مدرسًا بها .

ولم تخل أيام حكمه من المجد والعظمة والفتوحات الحربية فقد أخرج شيراز عن أخيه وأخلا بالحيلة الميدان منه وأعاد سيطرته على كرمان بعد أن أخذها منه دولت شاه وبعد وفاة أويس جلاير فى تبريز فى مارس ١٣٥٧م لم يفتح هذا البلد وحده وإنما سيطر على كافة بلاده مثل نخجوان ، وقراباغ ، وأوجان ، والسلطانية ، وشوشتر بل وبغداد أيضًا ، وصار السلطان المطلق للشطر الأساسى من أراضى إيران طوال مدة حكمه وقد تيسر له فى باب العلاقات الأسرية سعادة ونصيب أيضًا بأكثر مما كان لسائر

(١) راجع ص ٦٨٣ من طبعة الزنكوغراف لتاريخ جزيدة من سلسلة جيب .
أشمل مجموعة لآثار شاه شجاع رأها حكمت المترجم مجموعة نسخت فى عهد شاه فى عددها ٣ السنة الخامسة عشر بتاريخ خرداد ١٣١٣م ، وأثبتها الدكتور قاسم غنى فى الجزء الأول من كتابه تاريخ عصر حافظ طبعة طهران ، ص ٣٣٢ .
كتبت هذه المجموعة فى حدود ٨٢٢هـ ، وتشمل ديوان شاه شجاع ، أو أشعاره وأعماله النثرية التى جمعها سعد الدين أنسى ، وكان من رجال شاه شجاع وندمائه ، نثره متكلف وشعره يشمل القصائد والغزليات والقطاعات والرباعيات ، وقد تأثر ببعض غزله حافظ الشيرازى الشاعر الأستاذ المعاصر له مثل مايلى :

ليس الصباح مسلك العشاق ولو فارق قلوبهم فوران الدم

فقال حافظ : قال هاتف من ركن الحانة البارحة اشرب المر فأنت مغفور له

أو هذا : فى كل طريق يبدو لك فيه ارتفاع وانخفاض فأنت دليلى أيها المعين المكرم
أنى لى شكر يا معينى وأنا الذى فتحت عينى على طلعة الحبيب ؟

أو هذا : يا جميل الحسن ، ويتمناك العشاق كيف يؤثرون عليك عاشقًا حزينًا

فقال حافظ : يا من وجهك كالخلد وشفاتك الياقوتية سلسبيل ، سلسبيلك جعل قلبى وروحى شاربًا
(ويروى المترجم أن المناسبة ضعيفة بين قولى الشاعرين)

(٢) هو مولانا قوام الدين عبد الله من القراء المعروفين ، وأستاذ حافظ الشيرازى .

أفراد أسرته ، فقد مات أخوه محمود – وكان قد قتل زوجته بنت شيخ أبي إسحاق في ١٣٦٨م خنقًا – في سن الثامنة والثلاثين عام ١٣٥٧ ، فلما سمع شاه شجاع هذا النبأ نظم هذا الرباعي .

محمود أخي الملك القوي المكين

كان يعاديني بسبب التاج وخاتم الملك

فعفونا عنه مرتين لكي يستريح الناس

وهو قد أخذ باطن الأرض وأنا ظاهرها !

كان شاه شجاع قلقًا بدوره من غدر ابنه سلطان أويس ، وفي هم من ناحية ثورة ابنه الآخر شبلي عليه ، ولما استولى عليه الغضب وأثناء سكره أمر بسمل شبلي ، ولما أفاق ندم على ما فعل حيث لم ينفع الندم ، توفي في ١٣٨٤م / ٧٨٦هـ في الثالثة والخمسين بعد سبعة وعشرين عامًا قضاها في الحكم ، كتب وهو على فراش الموت رسالة إلى الأمير الكبير تيمور عرض فيها إخلاصه وصدقه وأودع إلى يد أمانته مصري أولاده وأخوته وأوصاه خاصة على خلفه زين العابدين ، وأثر هذه الرسالة التي عد فيها كاتبها الوفاء بالعهد من الإيمان على طبيعة الأمي تيمور كان أنه بعد تسعة أعوام أفنى وأهلك سائر أسرة آل المظفر ، حمل جثمان شان شجاع في رواية إلى المدينة المنورة ودفن في رواية أخرى في سطوح جبل (تشهل مقام) في شمال شيراز الشرقي وحساب تاريخ وفاه يأتي من (صيف إذ شاه شجاع) أو (يا خسارة على شاه شجاع)[1] .

(١) يوجد في سفح جبل تشهل مقام على ميلين شمال شيراز غرب تكية هفت تنان قبر شاه شجاع رآه المترجم ، من آثاره شاهد الحجري القديم بعض كلمات مكتوبة بالخط الكوفي غير مقروءة ، وقد تحطم وسقط هناك ، أما شاهده الجديد فقد نصبه على قبره كريم خان نائب زندونقش بخط النسخ تعليق الظاهر عليه (وهذا مدفن السلطان العادل الباذل المرحوم المغفور شاه شجاع مظفري ، وفاته في سنة ست وثمانين وسبعمائة من الهجرة) كما قال العارف السالك شمس الدين محمد حافظ عليه الرحمة (حيف ازشاه شجاع) وتجديد مزاره في شهر ربيع الثاني ١١٩٢) . =

مجاهد الدين على ، شاه زين العابدين ٧٧٦هـ - ٧٨٩هـ

اتصفت فترة حكم زين العابدين بالقصر والاضطرابات معًا ؛ لأن أيامه لم يلوثها وحسب الصراع الدموى بينه وبين أفراد أسرته المشهورة تقبل الأخ لأخيه بل كانت مخاطر هجوم تيمور وجيش التتر يهدد بلاده أكثر من ذى قبل ، وبعد جلوسه بقليل

= وبالعبارة السابقة المنسوبة لحافظ تورية لطيفة معناها : يا خسارة على شاه شجاع لأن من كل علمه وأدبه كان يرتكب القبائح ، كل من يقرأ غزليات حافظ التى نظمها فى مدحه يظن أن هذا الملك كان كامل العدل والتقوى بينما قل فى تاريخ إيران مثيله فى القسوة والظلم ، ففى ٧٥٩هـ حبس وأعمى والده مبارز الدين فى أصفهان ثم سجنه فى القلعة البيضاء على ممسنى ، ثم سمع أن عينيه لم تسملا جيداً ، وأنه يرى قليلاً وتصالح مع حارس القلعة ويريد الانتقام منه ؛ فارسل أباه إلى قلعة شهريارى أفزر فى مناطق فارس الحارة فمرض أبوه المسكين لحرارة الجو وملوحة الماء وطارت قواه فحمل بأمره إلى قلعة بم بكرمان ، فمات بها بعجز ومسكنة فى ٧٦٥هـ ، ونظم حافظ فى قطعة لطيفة هذا الواقعة مشيراً إلى غدر الدنيا وخيانة أهلها.

لا تثـــق بالدنيـــا وأســـبابهـــا لأنـــه لم ير أحـــد وفـــاء منهـــا

إلى أن يقول : (الشاه الغازى الملك المتولى على الدنيا الذى يتقطر الدم من سيفه - لما سخر فى النهاية شيراز وتبريز والعراق حل وقت بمن يصرته منيرة أن أعمى عنى بصيرته) ، وأشار أيضًا إلى هذا الأمر فى غزل يقول فيه (ألا يا يوسف المصرى الذى غدك الحكم سل والده أين ذهب حب البنوة) ، ولم تنته فجائع هذا الملك الظالم إلى هذا الحد ؛ ففى ٧٨٥هـ حبس ابنه الرشيد الجميل شبلى وعامله بما عامل به أباه نفسه ، ذكر تاريخ جزيدة : حمل شبلى إلى قلعة اقليد وسورمق ، ثم أمر فى حال من الثمالة بأن يتجه رمضان أختاجى وجوهر كوشك إلى القلعة ويسملا عين الأمر فامتثلا للأمر : (لما سملت يد القضاء عينيه تصاعد الصراخ من عالم الشباب) ، ولما وقع مع أخيه شاه محمود فى قتل بأطراف شيراز وهاجمه أخوه بجيش تبريز وبغداد وعون أويس الإيخانى كتب هذا العشر من نظمه إلى أخيه : (أنا الذى طوت شهرة صلابته مثل حيث همته البسيطة ، أنا كالشمس أعمل السيف فى الرقاب وكالصبح أغطى الدنيا وكالعقل مرشدو كالشرع طبع طاهر ، أمِنَ كمال صولتى حيلة الرجال وخلصت عنقاء همتى من منة الأخساء ، لم أعجز وأذل لمخلوق قط لأنى أسست أمرى على التوكل ، لم أتمن أمرًا من أمور الدنيا إلا وحققته السماء لى مجداً لى ، فإذاك أن تفعل ما تندم عليه فى النهاية بكسب فكر جيش تبريز وتوجهك إلى بغداد) ، قيل لما بلغت هذه القطعة بغداد كتب ملكها أويس ما يلى رداً عليه وأرسله إليه وقبح فيهـا أعماله وشنع عليه أفعاله : (يا مليكًا مرصوفًا بالعقل إنه تلد أم الزمان مثلك وأن أحداً من العظام والفضلاء لم يمدح مثلك ولم يساوك فى مجدك أقر أنا كثيرًا فى عمرنا القصير هذا من كتب الشعر والتاريخ عن الأستاذة فلم تقرأ ونسمع أن أحداً من الملوك أغمى أباه ونكح أمه) ، ومن صفاته الذميمة التى أجمع عليها المؤرخون إفراطه فى الخمر ؛ فكان غالب وقته سكيرًا شديد السكر ولا غرو أن آثار الخمور المشؤومة أنه تحرك لهذه الجرائم القبيحة يقوله حمدالله المستوفى فى (ولع بشرب المدام حد أنه كان يصل السكر بالسكر فسبب له هذا مختلف العلل ، وضعف الصحة ، وسقطت قوته مرة واحدة فلازم الفراش ، ووضع ظهره على الفراش المرصد ورأسه على وسادة العجز) ، ومات آخر الأمر فى شعبان ٧٨٦هـ ، ولم يخلف غير سوء السمعة .

عصاه ابن عمه شاه يحيى وورد بعد هذا بقليل رسول تيمور (قطب الدين) ، وطلب أن يخطبوا باسم أميره ومعنى هذا الاعتراف به سلطانًا عليهم ، وفي عام ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م دخل تيمور لأول مرة أرض العراق وفارس وطالب حاكم أصفهان مجد الدين مظفر خال زين العابدين بخراج عظيم ، فلما بلغ عماله في تحصيل الأموال من أهل أصفان أقصى درجات العنف والقسوة ثاروا وقتلوهم ؛ فانتقم تيمور لسبب هذا الفعل انتقامًا فظيعًا وأمر بذبحهم جميعًا ، يقال إنه قتل في هذه الواقعة سبعين ألفًا[١] ، ثم توجه منها إلى شيراز ، وفر زين العابدين إلى شوشتر قبل دخولها ، وبها غدر بابن عمه شاه منصور وحبسه ، وبعد عودة تيمور إلي ما وراء النهر هاجم شاه منصور شيراز ؛ فأخلى أخوه نصرة الدين يحيى شيراز وكان يحكمها من قبل تيمور وهرب إلى يزد .

وطوال ستة أعوام أى من ١٣١٨م كان ينشب دائمًا القتال والحرب بين ثلاثة من أمراء الأسرة المظفرية : شاه منصور في فارس ، وأصفهان وشاه يحيى في يزد ، وشاه أحمد في كرمان ؛ فكان يشتبك وأحدهم مع الآخر في قتال حتى هاجم تيمور للمرة الثانية هذا البلد المضطرب التعيس ، بدأ بفتح (قلعة سفير) وقتل حارسها وأخرج منها جسرفا (يل فسا) ، وهناك سأل جماعة من أهل شيراز التي جاء ت في أعقابه عما يقول فيه أهلها ؛ فأجابوا : سمعنا أنهم كانوا يقولون من كل معهم من جعب السهام ما يزن سعبة عشر منًا والدبابيس ما يزن الواحد هنا هربوا كما يهرب الحمل من الذئب وتركوا عيالنا للعدو[٢] ، فلما سمع شاه منصور هذا الكلام فاضت حماسة خجلاً وغيرة وصمم على العودة إلى شيراز ومواجهة أجله المحتوم المقدر بقتاله لتيمور ، كان جيشه يضم ثلاثة آلاف مقاتل هرب منهم بأول الحرب ، لأنه هاجم بتهوره وشجاعته العدو

(١) ورد هذا العدد في فارس نامه للناصرى ، لكن صاحب تاريخ جزيدة (ص ٧٣٩) يصل بالعدد إلى مائتى ألف قتيل ، وردت أخبار ثورة سكان أصفهان في ٨٨هـ ومذبحة هذه المدينة المهولة في الكتب المؤرخة لتيمور مثل ظفر نامه للشامى وظفر نامه لليزدى ، ونظم هاتفى حاجى في (تيمور نامه) هذه الواقعة في شعر جميل وذكر بأخره عدد القلتى : لقد زاد أوارنار ، والفتنة حتى كأن القيامة قامت بهذه المدينة فأعمل الجيش النهب والقتل ونصبوا منارات من جماجم القتلى ، وورد بالدفاتر أن عدد قتلى هذه المعركة سبعون ألفًا .

(٢) فارس نامه ناصر ، ص ٦٦ .

حتى إنه شق مرارًا قلب جيش تيمور حتى اقترب إليه ، وفى النهاية طعن فى عنقه وكتفه ؛ فاضطر إلى الانسحاب إلى شيراز ، وقبض عليه بعض جند (شاهرخ) ولد تيمور وفصلوا عنقه عن جسده ، وحسبت سنة وفاته وهى ٧٩٥م فى هذه العبارة (ملك هشت) .

قتل أمراء آل المظفر

استسلم بقية أمراء آل المظفر مثل عماد الدين أحمد وسلطان ولد شاه شجاع ونصرة الدين شاه يحيى حاكم يزد وولداه معز الدين جهابخير وسلطان محمود وسلطان أبو اسحاق ولد سلطان أويس ابن شاه شجاع حاكم سيرجان إلى تيمور ، وأحسن أولاً معاملتهم ، لكنه حبسهم فى النهاية وأمر بقتلهم جميعًا فى شهر رجب (٧٩٥هـ / ١٣٩٣م) بجنوب أصفهان ، ونظم شعر فى هذه الواقعة هو :

انظر نظرة العبرة لآل المظفر

وهم الملوك الذين حازوا قصب السبق من السلاطين

فى عام خمسة وتسعين وسبعمائة هجرية

والعاشر من رجب حين ناموا فى دعة

نموا فى عهود طويلة كالنخيل

وحصدوا فى وقت قصير مثل العشب

ومن نجا من هذه الأسرة اثنان فقط هما زين العابدين وشبلى ، لأن الأول حرمه من بصره ابن عمه منصور ، والثانى أفقده بصره أبوه شاه شجاع ، أرسل تيمور بهما إلى سمرقند عاصمة وظلا بها حتى آخر عمرهما ؛ وبهذا انتهت الأسرة المظفرية التى حكمت لمدة ثمانين عامًا فى القسم الأساسى لجنوب إيران ووسطها .

سجايا الأسرة المظفرية

تميز بعض الملوك المظفرين بالذوق والقريحة الشعرية واجتذب إلى بلاطهم حبهم للعلم والأدب شعراء مشاهير مثل الأستاذ العديم النظير الخواجة حافظ وعلماء أعلامًا مثل القاضي عضد الدين الإيجي ، ومعين الدين اليزدى ، من الناحية المادية فقل أن قدموا خدمة لرعاياهم ما عدا بناءهم بضع مدارس كبيرة ، من الصعب أن نجد في تاريخ الشرق أسرة مثل هذه الأسرة شب العداء والشقاق بين أفرادها وأشعلت مثل هذه الحروب الوحشية وسفك دماء أبنائها كما يبين تاريخ هذه الأسرة .

الملوك الجلايريون أو الإيلكانيون[١]

قدم بدورهم في فترة انحطاط الدولة المغولية وزوالها رجلان اسمهما شيخ حسن لقب أحدهما بالكبير والآخر بالصغير ، أما الصغير فهو حفيد الأمير تشوبان الذى تعالت في ٧١٩هـ / ١٣١٩م عظمته وقوته بسبب زواجه من ستى بيك ابنة أولجايتو وأخت أبى سعيد بهادر ، وولدت له ثلاثة أولاد ، وكان له من زوجته الأخرى ستة أولاد وبنت اسمها بغداد خاتون : أى أنجب عشرة من الأولاد أشهرهم الأمير حسن تيمور تماش ودمشق خاتون وبغداد خاتون ، أما الأمير حسن وأولاده الثلاثة تالش وحاجى بيك وقوش حسين فقد قتلوا جميعًا في حدود ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م ، وعصى تيمور تاش ، ثم فر إلى مصر ، وبها استقبله أولاً الملك الناصر استقبالاً حسنًا ، لكن الناصر خاف منه بسبب ما حصله من القوة والنفوذ الكبيرين وتفكيره الجنوبى في الرئاسة ؛ فقتله عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م ، وهو والد شيخ حسن الصغير المذكور ومعروف بالتشوبانى وملقب بالملك الأشرف ، أما الولد الثالث لتشوبان وهو دمشق خواجه فقد قتله السلطان أبو سعيد في ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م ، وكانت هذه السنة مشؤومة على هذه الأسرة ،

(١) راجع تاريخ آل جلاير ، وهم طائفة من طوائف المغول في كتاب إلياس ودنيسون روس (تاريخ المغول في أسيا الوسطى) طبعة لندن ١٨٩٨م ، ص ٨٨ ما بعدها .

وكان سبب قتله أنه اتهم بالتواطؤ مع امرأة من أرامل أولجايتو فى مؤامرة خفية ، كامن بنت دمشق خواجه وهى دلشا خاتون وأخته بغداد خاتون من الخواتين البارزات لهذه الأسرة ، فقد كانتا - فيما يبدو - على جمال وأهمية غير عاديين ، وقد تزوج السلطان أبو سعيد الأولى ، وتزوج شيخ حسن الثانية ، ويقال إن بغداد خاتون التى صارت فى عام ٧٢٣هـ زوجة لشيخ حسن كانت بارعة الحسن والجمال حد أن السلطان أبا سعيد لما رآها افتتن بها ولم يهدأ له قرار وبال حتى أجبر فى (٧٢٧هـ) زوجها شيخ حسن الكبير على طلاقها ليتزوج بها ، وبعد موت أبى سعيد فى عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م حين خلفه أرباخان قتله هذا متصوراً إنها دست السم خفية لزوجها السلطان ، وانتقم شيخ حسن الكبير لهذا العمل بأن تزوج من أرملة السلطان دلشا خاتون[١] .

وأنجب شيخ حسن هذا من دلشاد خاتون ولداً اسمه سلطان أويش شارك أمه عظمة مقامها ، وهو مثلها موضوع مدائح الشاعر خواجه سلمان الساوجى .

الأمير شيخ حسن الكبير

الأمير شيخ حسن الكبير هو ابن حسين بن آمر بوغا بن إيلكان ، وكان يعدى أنه من أولاد هولاكو حرارئى أن بهذه النسبة قد لقبت هذه الأسرة بالإيلخانية أو الإيلكانية بالإضافة إلى نسبتهم إلى آل جلاير ، بعد موت أبى سعيد بثمانية أعوام أى من ٧٣٦هـ إلى ٧٤٤هـ (١٣٣٥ - ١٣٤٣م) لا يشمل تاريخ إيران غالبًا غير الصراع والداسائس لهاتين الأسرتين - أى التشوبانيين والجلايريين - اللتين تنازعتا للاستيلاء وتحصيل القوة ، وكان طموحهم السياسى من وراء ستار ، لكن فى الظاهر جعلوا الأمراء من أولاد هولاكو الذين يشبهون العرائس تحت إمرتهم يحكم كل منهم وقتًا حكمًا اسميًا .

(١) حاول خواندمير مؤلف السير أن يعتذر للزواج غير الشرعى لأبى سعيد من بغداد خاتون وبنت أخيها دلشان خاتون معًا ، فقال : إن السلطان كان طلق بغداد قبل زواجه بدلشاد ؛ ولهـذا نقمـت عليه بغداد وقتلته بالسم .

قتل شيخ حسن الصغير بيد امرأته

فى عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م استولى حسن الكبير على بغداد وتبريز ، وكانتا عاصمتى المغول الإيلخانيين وغدتا بعد ذلك عاصمتين لآل جلاير ، ولهذا فإن هذه الأسرة تعد - فيما يبدو - ممثلة للإيخانيين المغول أكثر من غيرها ، لكن استقلالها التام بدأ فى ٢٧ رجب ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م يوم أن قتلت منافسه شيخ حسن الصغير زوجته الخائنة بطريقة فظيعة ، ونظم سلمان الساوجى مادح آل جلاير شعرًا لهذه الحادثة فى نهاية قطعة شعرية تحدد تاريخها كما سبق القول فى نهاية الفصل الأول .

استمرت الأسرة الجلايرية أو الإيلكانية التى أسسها شيخ حسن الكبير تحكم نحو خمسة وسبعين عامًا ، ورغم أن تيمور أنزل بهم ضربة قاسية فيما بين الخمسة عشر عامًا وعشرين عامًا الأخيرة من تاريخهم مع هذا ؛ فلم ينتهوا تمامًا شأنهم شأن آل المظفر .

حكم شيخ حسن الصغير وولده سلطان أويس الذى ولدته دلشاد خاتون - كل منهم - نحو عشرين عامًا ، الأول من ٧٣٦ أو ٧٣٧٥ إلى ٧٥٧هـ ، والثانى من ٧٥٧ إلى ٧٧٦هـ ، وشهرة هؤلاء الثلاثة أى الأب والأم وابنهما تدين فى الأغلب للشاعر البليغ النشط لعصره سلمان الساوجى ، الذى نظم أغلب مدحه فيهم . إن الصورة التى رسمها غالب المؤرخين وقاص السير لهذه الأسرة تفيض بالإشراق ، ورغم ما أسبغوه عليها من خصال شريفة مبالغ فيها إلى حد ما ، لكننا لا نعلم أن هذه الصور زائفة مختلفة بصورة تامة .

بعد موت السلطان أويس الثانى من جمادى الأولى ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م اتجه نجم إقبال هذه الأسرة إلى الأفول ؛ ففى هذا اليوم نفسه قتل كبار تبريز وأعيانها ابنه الكبير شيخ حسن ونصبوا بدلاً منه ابنه الأصغر حسين للمدنية نفسها ، والذى عجز أمام هجوم شاه شجاع بعد انتصاره على التراكمة فقد تبريز وغادرها لمدة أربعة شهر ، وبعد هذا بقليل انبعث أخوه على المقاومة ، وفى نهاية الأمر فى صفر ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م

قتله أخوه الثانى أحمد وجلس على العرش ، ثم نشب الصراع على الفور بينه وبين أخ له آخر هو بايزيد ، ومع أن قسمًا من الملك يشم آذربايجان خصص أولا لأحمد والقسم الثانى وهو العراق خصص لبايزيد ، لكن الخصام بدأ سريعًا بينهما ، وبخل الصراع شاه منصور المظفرى لتأييد أحمد أولاً ثم لمعاونة ذاك الآخر ؛ وانتهى هذا الصراع بين الإخوة بظهور جيش الأمير تيمور ، قاوم أحمد مقاومة طويلة أمام هجومه ، لكنه اضطر فى النهاية إلى الهروب ومعه قرا يوسف ملك التراكمة القره قوينلو إلى السلطان العثمانى بايزيد الأول الملقب بايلدرم أى (الصاعقى) ومنه فرا إلى مصر ، وفكر ملك مصر فى النهاية فى أن يجعلهما ثم الصلح بينه وبين تيمور ويسلمهما إليه ، ولكن لحسن حظهما حالفهما التوفيق لوصول نبأ هلاك تيمور .

بعد هذا بقليل بعث الحظ العاثر للسلطان أحمد على أن ينتهى الأمر بينه وبين قرار يوسف إلى العداوة ، وفى الحرب التى دار بينهما قرب تبريز فى ٢٥ ربيع الثانى ١١٢هـ / ١٤٠٩م هزم السلطان أحمد ثم قتل ليلة أسره ، وبعد سبعة وعشرين عامًا انتهى حكمه المليء بالمحن والمضطرب وبقلته انتهى عصر حكم أسرة جلاير أو الإيلكانيين مع أن سقوطهم النهائى حدث على يد التراكمة القراق وينلو (أى أصحاب الخراف السوداء) بعد هذه بنحو عامين

ملوك كرت[1]

والآن نتحدث عن أسرة كرت التى كانت تحكم فى المناطق الواسعة لشمال إيران الشرقى والبلاد المجاورة لها وكان قصبة ملكهم مدينة هراة ، وأكثر المصادر التاريخية مادة علمية ويبحث بالتفصيل تاريخهم كتاب لم يطبع حتى اليوم وهو تاريخ هراة المسمى بروضات الجنات فى تاريخ مدينة هراة ، تأليف مولانا معين الدين الاسفزارى ،

(١) اسم هذه الأسرة فى كل المصادر بفتح الكاف ، لكن معين الدين الاسفزارى يذكره بضم الكاف فى كتابه تاريخ هراة .

هذا الكتاب الذى أرخ إلى نحو عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٣م استند على مصادر تاريخية أكثر قدمًا ، أولها تأليف أبى إسحاق أحمد بن ياسين ، وثانيهما تأليف الشيخ عبد الرحمن الفاحى وسيفى الهراتى وكرتنامه لربيعى بوشبخى (الملقب بخطيب بوشنج الذى كان شاعر بلاط الملك فخر الدين كرت ، وقتل فى ٧٠٢هـ كما مر) ، وينقسم تاريخ روضات الجنات إلى ست وعشرين روضة يشمل كل منها جنتين أو أكثر ، وتختص الروضة السابعة حتى العاشرة بروايات ملوك كرت وأخبارهم[1] ، والكتاب الثانى الذى يزودنا بمعلومات مفيدة تتصل بهذه الأسرة هو التاريخ النادر مجمل الفصيحى الخوافى الذى نقل أشعارًا لربيعى فى الفصل السابق ، وتوجد بعض الروايات الأخرى المتصلة بهذه الأسرة أيضًا فى جميع كتب تاريخ إيران العام التى ألفت فيما بعد مثل روضة الصفا وحبيب السير ومطلع السعديين .

بالملك شمس الدين كرت :

كان الجد الأعلى للأكرات شخص اسمه تاج الدين عثمان الميرغنى ، الذى كان أخوه عز الدين عمر الميرغنى[2] وزيرًا قويًا فى بلاط السلطان غياث الدين محمد الغورى (متوفى عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م)، وكان تاج الدين عثمان هذا والى قلعة خيسار، وبعد موته تزوج ابنه ملك ركن الدين أبو بكر ابنة السلطان الغورى السابق ، وحل ابنه شمس الدين محل أبيه عام ٦٤٣هـ ١٢٤٥م ولحق بجيش (سالى نويان) فى هجومه فى السنة التالية على الهند ليشارك فيه ، وهناك زار الشيخ الكبير بهاء الدين زكريا (المرشد الروحى للشاعر المعروف العراقى) فى المولتان عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م ، ثم توجه بعد ذاك إلى السلطان المغولى منكوقًا أن الذى حكم من ٦٤٦هـ إلى ٦٥٥هـ إلى ١٢٤٨/م – ١٢٥٧م

(١) توجد نسخة من هذا لكتاب ، وقد نسخت فى ١٠٧٣هـ ، وتتفوق على نسخة المتحف البريطانى فى مكتبة إدارة الهند (India Office) ، ونسخة ثالثة فى مكتبة المدرسة العالمية لسبسهالار بطهران ، ونسخة رابعة بمكتبة صديقى العام مؤيد ثابتى ، والتى وضعها تحت تصرفى الآن .

(٢) فى الأصل (مرغنى) ، وهو لقب بمعنى الأمير الغنى ، ثم حذفت همزة (أمير) للتخفيف . (المترجم) .

وأنابها لسلطان فى حكم هراة وجام ، وبوشنج ، والغور وخيسار ، وفيروز كوه ، وغرجستان ، ومرغاب ، ومرودفا رياب حتى ساحل نهرجيجون من ناحية ومن ناحية أخرى استفزار ، وفراه ، وسيتان ، وكابل ، وتيراه ، وأفغانستان حتى ساحل نهر السند ، وفى عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م توجه شمس الدين بعد الاستيلاء على سيتان ، إلى هولاكو وشارك لمدة ثلاث سنوات فى ركاب خلفته أباقاخان فى حروبه فى بند وباكو ، ثم رافق فى عام ٦٧٥هـ ١٢٧٦م شمس الدين محمد صابح الديوان متجهًا إلى أباقاخان ، وفى هذه المرة تبدل حسن ظن الخان المغولى فيه وأصبح موضع سوء ظنه بما أدى إلى قتله بمعنى أنهم أطعموه فى شعبان ٦٧٦هـ / يناير ١٢٧٨م وهو يستحم فى حمام فى تبريز بطيخة مسمومة فهلك على أثر ذلك ، ونظم مولانا وجيه الدين النسقى مادة تاريخية لموته بهذا القول :

فى عام ستمائة وست وسبعين فى شعبان

لما نظر القضاء فى مصحف الزمان للفأل

فظهرت باسم قائد الإيرانيين محمد كرت

آية (إذا الشمس كورت) فى الحال[(١)]

وقد اختار هذه الآية لمناسبتها لاسمه شمس الدين وللترويح بمضمونها ، ولقب (ملك) المساى للقب (شاه) فى الفارسية كان يعلو درجة فى ذلك الوقت (الأمير) ، ويبدو أن ركين الدين لقب (بملك) فى البداية ، ومع هذا خاطب الشيخ ثقه الدين الفامى فى عمه عز الدين غمر بلقب (شاه) فى موكه يمدحه :

غدت الأيام مساعدة والأمل غنيًا

فى عهد عز الدين عمر ذلك الشاه الميرغنى

(١) نظم مولانا النسقى - وهو غير النسفى المشهور بالتفسير - رباعية ، كاتبًا قوله تعالى (إذا الشمس كورت) (والشمس كورت) مخطئًا ، وقوله تعالى هذا صدر السورة رقم ٨١ . (المترجم) .

هو الكسرى السعيد الذى من كحل سخاوته

إنيـــرت علـى الدوام عـــيـــون الحـــاجـــات

لكن لقب (ملك) حملة دائمًا أخلاقه وهم أفراد أسرة كرت[1] .

شمس الدين وولده فخر الدين

بعده فى عام ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م خلفه ولده ركن الدين الذى تلقب بلقب أبيه وعرف بشمس الدين الأصغر وتوفى ١٢ صفر ٧٠٥هـ/ سبتمبر فى حنسيار ، لكن ابنه فخر الدين قبل وفاة أبيه ، وقد سجنه أبوه سبعة أعوام ، هرب من سجنه بعون القائد المغولى (نوروز) وخلع والده وصار السلطان ، لكنه غدر بنوروز فى عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م حين أعلن نوروز عصيانه لخان المغول غازان خان ، وبعد هذا بثلاثة أعوام تقاتل فخر الدين كرت مع خدابنده أخى غازان وخليقته الذى جلس مكان غازان عام ٧٠٦هـ حين أرسل الخان قائدًا اسمه (دانشمند بهادر) بجيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل لفتح هراة ، ومع أن فخر الدين كان أحكم قلعـة هــراة ، لم يبد مقـاومة وفر إلى جبل (أمان) ، لكنه لم يطل الأمر بدانشمند بهادر بعد سيطرته على هراة إذ قتل بيد بعض رجاله غدرًا وخيانة ، فعاد فخر الدين واستولى على هراة .

ولم يمر وقت طويل حين توفى هو بدوره فى شعبان ٧٠٦هـ / فبراير ١٣٠٧م ، وفخر الدين هذا مشجع كبير للأدب ، يقول سيفى[2] : (كان أربعون شاعرًا معروفًا يمدحونه ونظم هو نفسه ثمانين قصيدة ومائة وخمسين قطعة فى مدح نفسه) ، لكن حكمه يتصف بالعنف والقسوة فقد منع خروج النساء من بيوتهن ، وسعى بشدة لمنع شرب الخمر وعزف الموسيقى .

(١) اتخذ هذا اللقب من قبلهم ملوك الغور ، ولا تزال قبورهم بجانب مسجد هراة الجامع معروفة باسم (قبور ملوك الغور) .

(٢) هو سيف بن محمد بن يعقوب الهروى ، ولد فى ٦٨١هـ فى هراة ، وهو معاصر للملك فخر الدين وغياث الدين كرت ومداحهما ، وألف تاريخ هراة باسم الملك الأخير فى حدود (٧٢٠هـ) ، طبع كتابه المسمى (تاريخ نامه هراج) أو (تاريخ سيفى) محمد زبير الصديقى معلم اللغات الشرقية بجامعة كلكتا عام ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م فى المدينة نفسها .

غياث الدين

ولى بعد فخر الدين السلطة أخوه غياث الدين وسرعان أيضًا أن خاصم أخاه علاء الدين وخف إلى السلطان المغولى خدا بنده يطلب مدده ؛ فأحسن السلطان استقباله وعاد إلى هراة عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م ، ووضع تحت سيطرته الغور وخيسار واسفزاز وأجبرته دسائس أخيه علاء الدين هندو لكى يعجل مرة أخرى للسلطان المغولى عام ٧١٤هـ / ١٣١٤ هجوم الأمير يسورى نكودارى الذى أغار على خراسان[1] ، وفى السنة التالية ابتلى بحرب فى شعره الذى يقول فى بعضه :

أيها الملك لا تتجه قتال جيش الإيرانيين

بمظاهرة أهل سيستان الواهنين

إن أهل سيستان لا يزيدون عن لحى وشوارب

فحذار أن تعتمد على اللباد والحبال

وفى عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م قتل يسورى وتفرق النكوادريون وقصد هو فى رجب من العام نفسه إلى مكة للحج وأناب ابنه الملك شمس الدين محمد على هراة .

ومات غياث الدين فى عام ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م وخلف أربعة أبناء أولهم شمس الدين الذى جلس مكانه ، ثم حكم من بعده حافظ ، ومعز الدين واسم ابنه الرابع هو باقر . نظم جمال الدين محمد بن جسام مادة تاريخية بالعربية علام جلوس شمس الدين المذكور فى قوله :

أضاءت شمس الدين كرت زماننا

وأجرى فى بحر المرادات فلكه

ومن عجيب التاريخ مبدء ملكه

يوافق قول الناس (خلد ملكه)

(١) راجع تاريخ المغول ، تأليف هوارث الجزء الثالث ، ص ٥٩٠ .

وحساب الجمل للعبارة (خلد ملكـه) هـو (٧٢٩) ، لكن للأسـف لم يحـدث هذا الفأل الحسن ؛ إذ خلفه فى هذه السنة نفسـها بعد شهـرين من جلوسه أخوه حـافظ الذى حكـم عامين مضطـربين وقصـيرين وخلفـه أخـوه الثالث أبو الحسين المـلك معز الدين .

جلوس معز الدين

وافق جلوس مـعـز الدين على كـرسى الحكم فى عـام ٧٣٢هـ / ١٣٣١م ثلاث واقعات كبار تاريخية ، أولها : موت السلطان أبى سعيد الذى أنهى عملاً عهد الحكم المغولى فى إيران ، ثم ولادة تيمور ، وأخيراً قيام الأسرة السربدارية .

الأسرة السربدارية

لابد من دراسة تاريخ هـذه الأسرة نظراً لعلاقتها بأسرة كرت ، أوجز بوجه حسن أستانلى لين بول فى كتابه (الأسر الإسلامية) تـاريخ هذه الأسرة ، ويقول إنهم حكموا سبزوار والنواحى بأطرافها لمدة نصف قرن ، وخلال هذه المدة تعاقب منهم اثنا عشر حاكماً على العرش هلك منهم تسعة بأفظع قتلة ، ولابد من إضافة أن أحداً منهم لم يحكم أكثر من ستة أو سبع أعوام وكان من غلاة الشيعة ، بينما راح المذهب السنى فى نيسابور وهراة ، مع هذا فقد فتح على مؤيد آخر حكم هذه الأسرة نيسابور بعد فتحه بسطان وفرها جرد وضمها إلى ملكه إلا أن ملوك كرت أعادوا هذه المدينة إلى حكمهم فى شعبان ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م ، وأول ثورة سببت ظهور هذه الأسرة حدثت فى شعبان ٧٣٧هـ / مارس ١٣٣٧م : وحكايتها أن الأمير عبد الرزاق البيهقى (تلميذ الشيخ حسين جورى الذى كان مريدوه عاملاً مهمًا فى قوات هذه الأسرة الصغيرة) أعلن عصيانه ورفع ومعه المريدون راية الشـقـاق قائلين : استـولت جماعة من المفسدين

وهم يظلمون الخلق فإن وفقنا دفعنا ظلم الظالمين وإلا سوف نضع رؤسنا على المشنقة ، فإننا لن نتحمل تعدياً وظلماً من بعد ؛ ولهذا لقبوا بالسر بداريين[1] .

صاحب أحد شعراء إيران الكبار وهو (ابن يمين) السربدارية ، لكنه وقع أسيراً في يد الملك معز الدين كرت بعد خرب (زاوة) التى قتل فيها الشيخ حسين الجورى وتفرقت قوت السربدارية ؛ فأحسن استقباله وعامله باحترام .

موت معز الدين كرت

حكم معز الدين أربعين عاماً لم تخل من العظمة مع أن سيرته شابها بعض الفظائع والشنائع التى ظهرت منه ، وكانت مع الأسف سمعة ذاك العهد ، فمثلاً قرر بعد فتح بادغيس أن تقام منابر من جماجم أعدائه ، وقد صير تيمور بعد ذلك بدوره هذه الشنيعة عادة له ، وفى نهاية الأمر أصيب بالمرض ومات فى عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م وأتت قادة تاريخ وفاته بهذا الرباعى :

من تفيض حياته بالمال والقوة

مثل حسين كرت يغيبه القبر

وإذا وضعت على ذال (دعا) نقطة

صارت تاريخ وفاة ملك الغور

دفن فى هراة بجوار الملك الغورى السلطان غياث الدين محمد سام بجانب أبيه غياث الدين محمد كرت[2] .

(١) هذه الجمل منقولة من روضات الجنات فى تاريخ مدينة هراة ، لكن توجد أدلة على أن كلمة سربدار تستعمل فى معناها العالم لجماعة من سكان المدن يثورون ويعصون مستخدمين الأسلحة ، وقد استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى فى غالب تواريخ القرن التاسع والعاشر الهجريين (مثلاً راجع ظفرنامه للشامى ، بيروت ، ص ٣٢) .

(٢) كتب مولانا سعد الدين التفتازانى شرحه المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى وأنهاه فى مدينة هراة فى عهد حكم معز الدين كرت ، وصدر كتابه باسمه ، ومدح به مدينة هراة ومعز الدين .

بدء هجوم تيمور

تولى ولده غياث الدين بير على ، وفى عهد سقط الظل المشؤم لتيمور لنج على سقف ، وإن كان تيمور – وفق عادته فى بداية أمره – قد نفذ إلى هذه الناحية بأسلوب ودى بأن زوج ابنه زوج أخيه سوينتش قتلق أغا من الأمير بير محمد بن غياث الدين فى حدود عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م ، لكن بعد هذا بأعوام خمسة فى ربيع عام ١٣٨١م فتح تيمور هراة فى بداية هجماته إلى إيران وضمها وما حولها لابنه ميران شاه ، وأرسل بير على وابنه بير محمد أسيرين لسمرقند ، وأسر أيضاً من هذه الأسرة رجلين آخرين ذريعة لقتلهم جميعًا حين مضى عام بعد سقوط الأسرة السربدارية فأهلكهم جميعًا لتنتهى بموتهم فتحة ملوك كرت .

الأمير تيمور

مقارنة تيمور بجنكيز

قسمت إيران فى القرن الثامن الهجرى بين هذه الأسر الأربعة (التى أشرنا بإيجاز إلى تاريخها) غالبًا إلى أن هاجمها فى الربع الأخير لهذا القرن نفسه هذا البلد فأحالها خرابًا كما فعل سلفه جنكيز منذ مائة وخمسين عامًا .

وبين هذين الغازيين المستوليين اللذين ظهر كلاهما من آسيا الوسطى وجوه شبه كثيرة : وكلاهما بدأ فى وسط عشيرته وقبيلته عمله وأمره لاكتساب القوة والقدرة وهزيمة الأعداء والمنافسين، وكلاهما تجاوز الأربعين وقت شروعهما الهجوم على إيران ، وكلاهما مسئول عن مذابح كثيرة ومصائب مفجعة ، لكنهما يختلفان من ناحيتين : الأولى أن جنكيز كان وثنيًا ، وكان تيمور ينتسب ولو بالاسم إلى الإسلام ، والثانية أن جنيكز دخل فى قتال وصراع مع مملكة الخوارز مشاهيين العظيمة ، بينما انقسمت إيران فى عهد تيمور كما ذكرنا إلى مقاطعات إمارات صغيرة بحيث لم تكن حدودها واضحة ، وكانت تعيش حالات من الحروب والقتال إحداها مع الآخر أو فى داخل

حدودها بين أفراد الأسرة الحاكمة لها بدافع التنافس والطموح ، أما أن تيمور كان فى الظاهر مسلمًا فقد قلل هذا الإسلام بالطبع - إلى حد ما - من شدة أعماله الوحشية والضارية فى إيران وسائر البلاد الإسلامية التى فتحها ولو بأقل من جنيكز على الأقل؛ لأنه كان يرعى الاحترام للأماكن المقدسة والمزارات وكذلك للصالحين والعلماء على الأقل ، ولا يجب ألا نخطىء ما ذكره من أثنى عليه من مؤرخيه مثل شرف الدين على يزدى صاحب ظفرنامه حين ذكر أنه ألف كتابه هذا تحت رعاية أولاد ذلك الغازى المتولى المتجبر التى نسبها المؤرخ الدمشقى أحمد بن عرب شاه إليه فى كتابه (عجائب المقدور فى نوائب تيمور) أو أن نسميه (بالخائن) و (المجرم) و (الكلب العقور) ، وأمثال ذلك كما فعل ، لكن لا يجدر الإغضاء عن أن نفاق شرف الدين لم يقل عن سبب ابن عرب شاه ، ومع أنه لم يستطع أن يتجاهل كافة المذابح ومنارات الجماجم التى أقامها تيمور إلا أنه افتقر إلى الحياء والملاحظة إلى الحد عدّه مؤيداً من قبل الله ومنصوراً أيضًا حين يقول "كانت ذات مكارم أياته هى مظهر اللطف الإلهى غير المتناهى ، وكان مكنون ضميره المستنير هو محض الخير والبر ، أما ما كان يصدر بحسب الظاهر من آثار قهره وعقابه فى مبادئ أحواله البعض أتباعه وأشياعه فى عالم إقطاعه ؛ فقد كان سوف نشرح لضرورة السيطرة ولوازم الاستيلاء على البلدان"(١) .

وبإمكاننا للتمثيل ذكر بضع أمثلة من أعماله الوحشية منها المذبحة التى أجراها على سكان سيستان فى ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م ومن ضمنها تعليقه لألفى أسير أحياء على حائط وصلبهم حتى الموت ، وضرب أعناق مائة ألف أسير هندى على مقربة من دهلى فى عام ٨٠١هـ / ديسمبر ١٣٩٨م ، ودفن أربعة آلاف أرمنى أحياء فى عام ٨٠٢هـ ١٤٠٠م ثم إقامة عشرين منارة من جماجم القتلى فى ذاك العام نفسه قرب حلب ودمشق ، ثم مذبحة سكان أصفهان التى قتل فيها سبعين ألفًا فى ٧٨٩هـ / نوفمبر ١٣٨٧م ، وهذه الأمثلة قليل من كثيرة الحوادث الدموية التى تبرز عدم اهتمامه بأرواح أبناء الجنس البشرى .

(١) ظفرنامه ، طبعة كلكتاج ، ص١٥ .

إن الحكم الذى قضى به السيرجون ملكم على تيمور يقبله كل طالب علم منور الفكر لا تعمى بصيرته عظمة عبادة البطولة وجلالها ، ويرى بعين الصدق غزاة العالم مثل الإسكندر الأكبر وجنكيز وتيمور ونابليون كيف أنهم لم يعترفوا بأدنى اهتمام بشدائد البشرية ومصائبها لا لشىء إلا لإشباع غرور تسلطهم ، يقول ملكم فى كتاب تاريخه النفيس وعنوانه تاريخ فارس (Persia History af)[١] : ولم يأبه ومعه ستمائة أو سبعمائة ألف جندى كانوا يتعبدونه بهموم سائر طبقات الناس وفكرهم ، كان قصده هو السمعة وفتح البلاد ومن أجل تحصيل أسباب هذين المطلبين لم يهتم بأن يُسوًى بلد بالتراب أو يصير شعب طعمة للسيوف ، كان تيمور يتظاهر بأنه ملتزم بالشريعة ومهتم بإجراء رسوم الدين واحترام العلماء ، وكان هؤلاء أمام صلاته لهم يقولون له إن الله تعالى قد وهبه ملك السلاطين غيره ، كان – من قوله هو نفسه – الجميع يعرفون إنه كان يعتقد ويعلم أن مثل هذه الأقوال من العلماء سوف تؤثر على العقول .

ثم يقول : وبعد التمهيد بهذه المقدمة المذكورة لعل من الإمكان القول إن تيمور لو كان من أكبر الأبطال المقاتلين لكنه من أسوأ السلاطين ، لا جدال فى استعداده وشجاعته وفتوته ، لكنه كان جباراً متكبراً وظالمًا ، كانت حياة جميع الإنسانية وعافيتها لا تزن عنده مقابل ارتقائه وبلوغه غايته جناح بعوضة ، كما يظهر هذا من البلاد التى خربها والأرواح التى أزهقها ، وجهاز حكومته وإن وجد وسعة لا حد لها إلا أن أساسه كان قائمًا على الماء بل على الهواء ، ظل حكمه قائمًا مادام حيًا ، وما إن انفرط عقد حياته انهار أساس ملكه، ومع أن بعضًا من أولاده حكم على بعض من نواحى مملكته فى الهند فقط إنهار حكمهم كبقايا عمارتهم وظل يحكم على عرش دهلى بحماية الحكومة الإنجليزية لا يربط نفسه من الحكم إلا باسمه وهو موضع اعتبار من اعتبر[٢] .

(١) تاريخ السيرجون ملكم ، طبعة بمباى ، ص ٢٣٧ .

(٢) طبع تاريخ ملكم فى عام ١٨١٥ ، ولم تكن ثورة الهند قد وقعت فى هذا التاريخ والتى سقط فى تلك الحادثة آخر الأسرة التيمورية فى الهند المسماة بالمغمول الكبار Great Mangol ، طبعت ترجمة هذا الكتاب التى قام بها (ميرزا حيرت) فى بمباى عام ١٣٢٣هـ ، ونقلت الترجمة بأعلى حرفيًا مع إنها تخرج قليلاً عن الأصل الإنجليزى .

تاريخ تيمور لنظام الشامى

بالإضافة إلى كتابى التاريخ السابق ذكرهما هما : التاريخ الفارسى (ظفرنامه) تأليف شرف الدين على اليزدى ، والتاريخ العربى عجائب المقدور تأليف ابن عرب شاه لدينا تاريخ ثالث أيضًا تأليف أحد المعاصرين لتيمور يسمى كذلك بظفرنامه ، ويدأ مؤلفه نظام الشامى تأليف بالفارسية بأمر تيمور فى عام ٨٠٤هـ / ١٤٠١م وأرخ للحوادث حتى سنة ما قبل موته أى عام ٨٠٦هـ / ١٤٠٣[١] ، كان المؤلف أى نظام الشامى يعيش فى بغداد ، وحين استولى تيمور فى عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م على هذه المدينة كان أول من تقدم بالتهنئة من أهل هذه المدينة إلى تيمور وقال له تيمــور : رحمك الله فقد كنت أول من خرجت إلىّ من هذه المدينة[٢] ، وهذا التاريخ الأكثر إنجازًا وخلوًا من الحشو والإضافات من كتاب شرف الدين هو فيما يبدو أساس الكتاب الثانى وركيزته[٣] .

(١) لم يكن ظفرنامه لنظام الشامى قط طبع وقت تأليف بروان ؛ فاستمد معلوماته من مخطوطة الكتاب بالمتحف البريطانى رقم Add. 2.3. 980 ، ثم طبع فى عام ٩٣٧هـ الجزء الأول من هذا الكتاب الذى يشمل نص ظفرنامه باهتمام المستشرق التشكى فليكس تاور وبإصلاحات وإضافات موجودة فى كتاب زبدة التواريخ البايسنقرية من مصنفات عبد الله بن لف الله بن عبد الرشيد المدعو بحافظ أبرو ، ومن طرف المؤسسة الشرقية التشيكو سلوفاكية فى براغ بالمطبعة الأمريكية ببيروت وبتمويل مؤسسات أسكودا ، ولم أصادف المجلد الثانى له الحاوى للحواشى والتوضيحات .

(٢) ظفرنامه ، طبعة بيروت ، ص ١٢٩ .

(٣) يقص الشامى فى ثلاثة مواضع من كتابه بناء على مشاهداته ، أولها : فى سبب تأليف كتابه حين نال لقاء تيمور فى عام ٨٠٤ وأمره بتأليف كتابه (ص ١١ ط. بيروت) وثانيها فى بغداد فى آخر أحداث شوال ٧٩٥ هـ (ص ١٣٩ ط. بيروت) ، وثالثها ، فى ذيل فتح حلب فى ٨٠٣هـ (ص ٢٢٧) .

فى عام ٨١٤هـ فى عهد حكم شاهرخ ألف بأمره حافظ ابروتتمة لظفرنامه المذكور ، وأرخ فيه وقائع السنة الأخيرة لتيمور وأنهاها بوفاته ، وهذه التتمة موجودة فى مجموعة حافظ أبرو ، وأتى ما ألفه نفسه أيضًا فى زبدة التواريخ البايسنقرية للمؤلف نفسه ، وكما قلنا طبع فليكس تاور هذه التتمة وحدها نقلاً عن مخطوطة إسلام بول فى عام ١٩٣٤م وتبدأ بهذه المقدمة :

(أو أبعد هذا ذيل على كتاب ظفرنامه للشامى لتاريخ صاحب القرقان الفاتح للعالم أنار الله برهانه والذى كتبه مولانا الأعظم افتخار الأئمة فى العالم سحبان الزمان وحيد الأقران ، مولانا نظام الحق والدين الشامى ونور الله قبره ، ولم يزد هذا الكتاب عن أوائل رمضان سنة ستة ثمانمائة فكتب تتمته بموجب إشارة حضرة السلطان شاهرخ خلد الله تعالى فى بسيط الأرض سلطنته أحقر العباد عبد الله بن لطف ابن عبد الرشيد المدعو حافظ ، وفى النسخة الأخرى لذيل ظفر نانه ذكر حافظ أبرو اسمه بعد الألقاب الكثيرة لنظام الحق والدين الشبنى المعروف بالشامى ، وجمع ريبه فى مقدمة فهرسه ما أمكن جمعه من =

تزوكات تيمور وملفوظاته

ويجدر أن نذكر الآن كتاباً اسمه (تزوكات وملفوظات تيمور) أى مذكرات وكلماته ، هذا الكتاب مع أنه ترجم من الفارسية إلى الإنجليزية ونقل عنه المؤلفون الأوروبيون كثيراً إلا أن كل امرئ - وأنا على وجه الخصوص - أعد هذا الكتاب مزوراً[1] ، ظهرت نسخته الفارسية فى القرن السابع عشر الميلادى أول الأمر فى عهد حكم شاهجهان المغولى (١٦٢٨ - ١٦٥٩م) وترجمه من يسمى أبو طالب الحسينى الذى ادعى أنه وجد أصله التركى فى مكتبة من يسمى جعفر باشا حكم اليمن .

ليس من دليل وبرهان على وجود مثل هذه النسخة بأصلها التركى إلا ما ذكره أبو طالب الحسينى ، ويبدو أنه هو زور هذا الكتاب الفارسى مقلداً فيه مذكرات ميرزا باير وسيرته الصحيحة ومستمداً معلوماته من كتاب ظفرنامه ، غيره من كتب التاريخ فى عهد تيمور ، وجلب لأول مرة فى عام ١٧٧٩م مخطوط هذا الكتاب شخص إنجليزى اسمه الميجور ديفى Mafor Davy إلى بريطانيا ، ثم انتقلت ملكيته من بعد وفاته عام ١٧٨٤م إلى ابنه ، فكتب الأول فى عام ١٧٧٩م شرحاً فى مدح هذا الكتاب ومدافعاً عن صحته إلى الدكتور وايت أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد[2] فقام هذان الاثنان فى عام ١٧٨٣م / ١١٩٨هـ بطبع أصل هذا الكتاب وترجمته متعاضدين ومتعاونين ، وفى عام ١٧٨٧م ترجم البروفسور لانجلز Langles كتاب التزوكات إلى الفرنسية ووضع له هذا العنوان الطويل والعريض :

Instituts politiqueset Militaires de tamerlane, proprenent oappelle timour, ecrit par lui-mêne en Mongd, et tradiuts en fran sais purla version persone d'Abou talei Al-Hosseini, auec la vie dece conauerant, d'apres les neilleurs autheursor ient aux, des notes, er des tables historiaues Geographi aues. etc.

= معلومات عن نظام الدين ، وأضاف أنه خطب لعيد الفطر فى حضور تيمور عام ٨٠٦ هـ حين كان جيشه فى أردبيل وسمح تيمور فى عودته لسمرقند أن يعود نظام الدين لوطنه ، وكان تبريز فيما يظهر وألف رسالة يوصى فيها ميراز ولد ميران شاه حاكم آذربايجان ، وقد ألف شرف الدين اليزدى كتابه ظفر نامة يقلد نظام الدين بل نقل عبارته نفسها فى غالب المواضع) .

(١) راجع فهرس ريبه الفارسى ص ١٧٧ - ١٨٠ ، وقد ذكر براهين تزوير هذا الكتاب وعدم أصالته .

(٢) راجع ص ٩ - ١٣ من الترجمة الإنجليزية للملفوظات بقلم الميجور شارلز استيوارت Majar Chares Stewart .

وفى عام ١٨٣٠م طبع الميجور تشارلز أستيوارت ترجمة للملفوظات مع مذكرات فى سيرة تيمور اجتذب اهتمام كثير من المؤرخين الآسيويين والأوروبيين وبالأخص الإنجليز (تاريخ تيمور) وصار موضوعًا لتأليفات كثيرة لا بسبب أنه كان من أكبر غزاة العالم على وجه الأرض وحسب بل لسبب أنه مؤسس الأسرة المعروفة بالسلاطين المغول فى الهند ، وفى هذا الكتاب الذى يتبع جزؤه السياسى بالضرورة التاريخ الأدبى يكفينا أن نذكر خلاصة لسيرته طبق ما ذكره ظفرنامه وابن عربشاه خاصة الجزء المتعلق بإيران .

مولد تيمور

ولد فى شعبان ٧٣٦هـ / أبريل ١٣٣٦م فى مدينة كش فى بلاد ما وراء النهر ، تيمور الذى يعنى اسمه فى التركية (الحديد) ، وكما هو شائع ومتداول بشأن العظماء الذين يعرفون ويشتهرون فيما بعد فقد سعى مادحوه إلى إيصال نسبه إلى قراتشار نويان من ناحية إنهاء أصله إلى الأسرة الجنكيزخانية المغولية الحاكمة ، ومن ناحية أخرى قرن مولده بعلائم وآثار مستقبلية له ، لكن ابن عرب شاه اكتفى بذكر اسم أبيه تراغاى وجده أبغاى ذاكرًا أن أباه راعيًا ، ومن جماعة أوباش حرموا من العلم والدين ويقول : (وكان هو وأبوه من الفدادين ومن طائفة أوباش لا عقل لهم ولا دين ، وقيل كان من الحشم الرجالة والأباش البطالة) .

وعلة تسميته بـ (الفج) أو الأعرج بزعمه أمه أصيب بقدمه أثناء سطوه على الأغنام ، وليس من ضرورة لإيراد تفصيل مبادئ أمره والخطوات التى خطاها فى طريق رقيه وأنه أصاب الرئاسة على بنى قومه فى هذا الموضع ، وإنما يكفينا القول إنه صار مشهورًا فى الرابعة والعشرين من عمره أى فى عام ٧٦١هـ / ١٣٦٠م ، وبعد عشرة أعوام حين هزم منافسه أمير حسين وقتله فى شعبان ٧٧١هـ / مارس ١٣٧٠م لقب بلقب (صاحب القرآن) ، وقضى الأعوام الستة أو السبعة التالية فى إحكام قوته فيما وراء النهر .

أول هجوم له على إيران

كان أول هجوم على إيران فى ربيع عام ١٣٨١م حين كان فى الخامسة والأربعين ، كانت همته مصروفة إلى خراسان فى هذا الهجوم الذى تم خلال عام ، وفى أندخود توجه إلى زيادة شخص زال عنه أو كاد عقله واسمه بابا سنجو فألقى إليه هذا الشخص المجنوب والمجنون بقطعة لحم فتفاءل بهذا وعده رمز فتحه ونجاحه، فسخر فى هذا الهجوم (سرخس) ، ثم فتح وخرب قلعة (فوشنج) بعد زيارة له لرجل كان يقدس اسمه زين الذين أبو بكر التايبادى . ثم نجح بعد هذا فى فتحه لهراة وأسرها غياث الدين بير على ملك الكرت ، وفى أعقاب ذاك جاءت توبة طوس وأسفراين فسوى تلك القصبة بالأرض وقتل أهلها ، ثم استولى من بعد على قلعة كلات ، ولما حل الشتاء آب إلى سمرقند وبخارى .

الهجوم الثانى على إيران فى عام ١٣٨٢م

عاود تيمور هجومه على إيران فى ربيع التالى أى ١٣٨٢م ، وحين كان يعسكر فى (كلات) قدم إليه من هراة ابنه ميران شاه من سرخس والملك غياث الدين الكرتى فى أسره ، ولما قوى نفسه فى هذه الحدود تقدم إلى ترشيز ففتح قلعتها واستسلم له أهلها ، وهناك قدم إليه سفراء من شاه شجاع صاحب شيراز ، فخطب تيمور لحفيد له اسمه بير محمد ابنه من أسرة شجاع ، وبعد أن دخل أمير ولى حاكم مازندران تحت أسرته عاد تيمور لقضاء الشتاء إلى سمرقند عاصمته أمضى مدة فى عزاء ومأتم لوفاة زوجته دلشا أغا وأخته قتلغ تركان أغا .

الهجوم الثالث على إيران فى عام ١٣٨٣م

وفى خريف عام ١٣٨٣ بعد أن أرسل جيشًا لقتال المغول الوثنيين ورئيسهم قمر الدين قصد تيمور بنفسه لمهاجمة مازتوان وسيستان ، حمل فى أواخر أكتوبر على سيرزوار ونقب قلعتها وهدمها وأسر ألفين من أهلها ، وكما يذكر ظفرنامه

(أسرهم ووضع كلاً منهم بأعلى الآخر أحياء ثبتهم بالطين والطوب وجعل منهم منابر حتى يعلم العالمون بسطوته وقهرة فلا يقوا أنفسهم بوساوس شيطان الغرور فى غياهب الويل والثبور)[1] .

وبعد أن استولى على فراه هاجم زره وهناك انبعث خمسة آلاف لمقاومته فقتل أغلبهم ورفع من جماجمهم منارات ، وفى سبتمبر سقطت سيستان أمام هجومه ، ويقول صاحب ظفرنامه : (كل ما كان بهذه الديار من الخزف إلى الجوهر الثمين ، ومن نفائس الأمتعة والأسباب إلى مسمار الباب والحائط صار نهبًا لرياح السلب واشتعلت نيران الإغارة على كبير تلك الولاية وحقيرها فاحترق الأخضر واليابس بها)[2] ، ثم حطم بضع قلاع أخرى أقام منارات من جماجم أعدائه وهاجم قندهار روشنق حارسها ، ثم عاد إلى سمرقند ، ومكث للراحة بها ثلاثة شهور .

ويخرج عن إطار هذا الكتاب تفصيل الشرح فى حروبه خلال العشرين عامًا التى بقيت من عمره ، لكن يمكن الإشارة الموجزة إلى أنه هاجم فى ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م مازندران وآذربابيجان وأمضى الشتاء فى الرى ، وبعد هذا استولى على سائر ولايات سواحل بحر الخزر وشمال إيران حتى تقدم إلى السلطانية ، وعاد لقضاء الشتاء إلى عاصمته سمرقند .

وفى عام ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م صمم تيمور بعد علمه باضطراب الأوضاع فى ولايات إيران على إدخال سائر إيران فى دائرة سيطرته ، وبناء على هذا أعد أسباب هجوم يستمر ثلاثة أعوام على إيران وهاجمها ، هاجم أولاً الملك عز الدين ملك لرستان وخرب بروجرد وخرم آباد وأسقط كثيراً من أعدائه من حالق أو أماكن مرتفعة وهم أحياء ، ثم سار إلى تبريز وجمع سلطانها أحمد جلاير جيشاً مصمماً على المقاومة لكن ما إن اقترب تيمور إليه اغتنم الهروب فى وقته المناسب وفر إلى نخجوان ، فبعد لقاء صعب

(١) ظفرنامه لشرف الدين على اليزدى ، ج١ ص ٣٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ج١ ص ٣٦٨ .

تمكن من سلوك طريق الفرار والنجاة بحياته ، وأمضى تيمور الشتاء فى تبريز ورحل إلى سمرقند منها أمهر صناعها وفنانيها، وفى الخريف عبر نهر أرس وهاجم نخجوان، وبعد فتح قلعة قارص المنيعة بدأ تخريب جرجان ، وبعد تمكنه من تفليس قضى أياماً فى صيد قطعان الحيوانات ، وكما يذكر صاحب ظفرنامه (عجز جيشه عن حمل الصيد من كثرته فترك كثيراً منه)[1] ، واتجه لقضاء الشتاء إلى قراباغ .

وفى ربيع عام ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م بدأ من جديد تيمور فتوحاته فى آسيا الصغرى وبعد فتحه مدن ، بايزيروارزروم ، وأرزبخان ، وموش أخلاط ، وفان ، استسلمت له سلماس وأرومية أيضًا ، ولما حل فصل الخريف وامتنع زين العابدين المظفرى وله فارس ، وأثناء الطريق دخل أصفهان وطالب أهلها بمبلغ ضخم كضمان منه لهم ، فسبب هذا ثورة أهليها وقتلهم بعض المحصلين التابعين له ، وفارت بسبب ما حدث نيران غضبه وثارت ؛ فانتقم انتقامًا مهولاً من أهل أصفهان وحكم بذبحهم جميعًا ، ويقال إن سبعين ألف إنسان قتلوا فى هذه الواقعة إذ أحصيت رءوسهم وأقيم منها منارات[2] ، وحديث هذه الفاجعة فى يوم الإثنين ١٨ نوفمبر ١٣٨٧م .

أول دخول لتيمور شيراز

ثم تقدم منها تيمور إلى شيراز ، وفى الشهر التالى أى ديسمبر ٧٩٠هـ / ١٣٨٧م استسلمت له هذه المدينة ، ويقال إن لقاء وذلك الغازى الكبير بشاعر شيراز حافظ قد حدث فى هذه الأوقات ، ويرجع دولت شاه هذه القصة - وهو المشهور - بعدم الدقة فى ذكر التواريخ إلى عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م بينما كان قد مر أربع سنوات من هذا العام على وفاة حافظة[3] .

(١) ظفرنامه لليزدى ج١ ، ص ٤٠٤ .
(٢) المصدر السباق ج١ ، ص ٤٣٤ .
(٣) راجع تذكرة دولت شاه ، ص ٣٠٥ .

وقد وردت هذه الحكاية ولعلها مزورة تمامًا[١] فى تذكرة دولت شاه حين يقول : (يحكى أنه حين سيطر السلطان صاحب القرآن الأمير تيمور الكركانى على فارس فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة وقتل الشاه منصور ، وكان الخواجة حافظ على قيد الحياة فأرسل إليه من يطلبه إليه ، فلما حضر إليه قال سخرت أكثر الربع المسكون بضرب السيف البتار وخربت آلاف المدن لكى أعمر سمرقند وبخارا وهما وطنى المألوف وعاصمتى ، وأنت بوضعاة حالك تبيع مدينتينا سمرقند وبخارا بخال هندى لتركية شيرازية فى هذا البيت الذى نظمته لو أن تلك التركية الشيرازية .. فقبل حافظ أرض الخضوع إليه وقال :

يا سلطان العالم إن من العفو ما   يحق لى فى يوم عجزى هذا

فسر صاحب القرآن لهذه المقالة وأعجب بها ولم يعاتبه بل اغتنى به وأكرمه .

وروتب هذه الحكاية برواية أخرى سمعتها بنفسى فى إيران ، لكنى لم أقرأها فى كتاب ، وبناءً عليها فقد أجاب الخواجة حافظ على الأمير تيمور : لقد حرفوا شعرى لأن ما قلته هو : (أهب خالها الهندى منين سكراً وثلاثة منات بلحًا)[٢] ، ولم يرد ذكر لحكاية لقاء الشاعر تيمور فى كتب السير والتاريخ المعاصرة لتيمور مثل ظفرنامه لليزدى وغيره ، ولم أصل من أى مصدر آخر إلى دليل وبرهان يثبت وقوعها .

وفى بداية هجوم تيمور على فارس هرب زين العابدين الأمير المظفرى والتجأ بابن عمه الشاه منصور حاكم شوشتر ، فأغضى طرفه عن حقوق القرابة وشروط الضيافة

(١) شك براون فى صحة هذه الحكاية ، ولكن يبدو أن هذه الحكاية لابد أنها حدثت لأن عليًا بن حسين الكاشفى ذكرها فى كتابه لطائف الطوائف (الذى ألفه عام ٩٣٩ هـ أى نحو مائة وخمسين عامًا بعد وفاة حافظ) بتدقيق أكثر ، ويقول (لما سخر الأمير تيمور ولاية فارس وأتى شيراز ، وقتل الشاه منصور طلب الخواجة حافظ الشيرازى ، وكان يعيش لدى الشاه دائمًا ويقضى حياته فى فقر وفاقة ، وأتى بحافظ مريده سيب زين العابدين الجنابرى الذى كان له عند الأمير تيمور كل القرب إلى معينة الأمير تيمور .. إلخ) .
وزين العابدين هذا من وراء تيمور تكرار اسمه فى مجمل الفصيحى من ذلك ضمن وقائع عام ٨٢٨هـ ، وفى ٨٢٩هـ حين ورد تنصيبه وعزله من وزارة شاهرخ .

(٢) هذه الرواية التى نقلها براون فى غاية الركاكة ، ويمكن أن واحداً على سبيل المزاح لفقها لبراون ، ولم أسمع أنا المترجم هذه الحكاية أو ما يماثلها فى شيراز .

وقيده وألقى به فى السجن ، وأخذ سائر الأمراء والقواد المظفرين وكذلك أتابكه لرستان وغيرهم من الأمراء الصغار الإيرانيين يتوجهون إلى تيمور فى شيراز مستسلمين له ، لكن فى هذه الأيام نفسها حين كان الزمان بجرى على رغبته وصلت مسامع هذا الفاتح الكبير أخبار غير سارة ؛ إذ تحرك رسول من سمرقند صوب شيراز وقطع هذه المسافة الطويلة فى سبعة عشر يوماً وأنبأه بعودة توقمتش العنيد إلى الطغيان من جديد ويلزم عودته إلى دار الملك للدفاع عن بلاده المحروسة ، وبناء على هذا سلك فى فبراير ١٣٨٨م طريق سمرقند معجلاً ، وكان من ضمن الغنائم برفقة العالم المعروف ميرسيدة شريف الجرجانى ، وأناب الأمراء المظفريين الشاه يحيى والسلطان محمود وأحمد وأبا إسحاق على شيراز وأصفهان وكرمان وسيرجان بالترتيب ، ومضت أربعة أعوام ونصف العام على هذه الأحداث وتيمور مشغول بمقاتلة توقمتش خان والمغول وإمارة خوارزم وخيوه وغيرهم من الشعوب الشمالية ، وأخذ الإيرانيون يتنفسون أنفاس الراحة لمدة قصيرة أمنوا فيها أطماعه الحادثة الوحيدة التى وقت بإيران هى نشوب ثورة فى صيف عام ١٣٨٩م فى خراسان (والتى كانت فيما يبدو على أثر شائعة هزيمة تيمور من توقمتش) ، أخذ هذه الثورة ميران شاه ابن تيمور بأسلوب أبيه نفسه وطريقته الدموية والوحشية ؛ فقتل بضعة آلاف فى طوس على وجه الخصوص وأقيمت من جماجمهم منارات وأهرام .

وفى اليوم الأخير من يوليو ١٣٩٢م عبر تيمور جيحون بعد توقف قصير بسبب مرض شديد حدث له بقصد مهاجمة الجنوب كرة أخرى ، وقد شمل هذا الهجوم المشهور فى التاريخ باسم هجوم السنوات الخمس[1] فتح الباب الساحلية لبحر الخزر وفارس (وفيها أدال بالكلية السرة المظفرية ، وأهلك أمراءها تماماً) ، وأرمنية ، وجرجان ، والعراق العربى ، وجنوب روسيا ، والتقى فى جاجان وما زندران بالسادات المرعشيين بما زندران ، وقتل هؤلاء السادات الذين كانوا أمراء فى هذه الناحية بجريمة اعتناقهم مذهبًا مخالفًا للسنة العامة لاتباعهم الإباحية والشيوعية ، ولم يشرح أو يفصل شرف

(١) ظفرنامه لليزدى ج١ ، ص ٥٦١ .

الدين قولاً فى عقيدتهم وليس كلامه بشأنهم واضحًا[1] ، لكن ما يبدو أن هؤلاء السادات كانوا ينتسبون إلى الطائفة الحروفية التى ظهر مؤسسها فضل الله الإسترابادى فى عهد تيمور ونشر تعاليمه ، وسوف نتحدث عنه فيما بعد[2] .

وفى أواخر ديسمبر ١٣٩٢م رفع تيمور راياته صوب جنوب إيران بعد أن اطمأن على زوجاته وأطفاله ، وعبر ولايات الدامغان وسمنان والرى وقزوين والسلطانية وكدرستان وبروجود[3] فى فبراير ١٣٩٣م ، وأهلك أثناء سيره جمعًا عظيمًا من الألوار ووصل إلى دزفول فى مارس ١٣٩٣ ، ودخل بعد يومين شوشتر ثم اتجه منها إلى شيراز ، وأثناء طريقه فتح القلعة المنيعة (قلعة سفيد)[4] ، وكان السلطان زين العابدين المكفوف البصر حبيسًا بها ؛ فأطلق سراحه وتلطف به كثيرًا ووعده بالانتقام له من ابن عمه الشاه منصور ، ولم يطل الوقت بهذا الوعد إذ تحقق سريعًا ؛ لأن منصور كما ذكرنا قتل فى المعركة التى جرت بينه وبين تيمور ، وبعد ذلك فى ٢٢ مايو ١٣٩٣م قتل جميع رجال الأسرة المظفرية ، وبعد ذلك على حد قول شرف الدين على فى ظفرنامه (أمر بترحيل جميع الفنانين من أصحاب الحرف والصناع فى بلاد فارس والعراق إلى سمرقند)[5] .

وفى العاشر من أغسطس من تلك السنة حين كان تيمور يسرع نحو بغداد وصل سفير من طرف السلطان أحمد جلاير اسمه الشيخ نور الدين عبد الرحمن الإسفراييني يحمل اعتذارات السلطان للأمير ؛ لأنه لم يستطع أن يحضر بنفسه إليه ؛ فلم يقبل تيمور هذه الأعذار لكنه تلطف بالشيخ كثيرًا ، لأنه كان يعامل عادة أهل العلم والصلاح والتقوى باحترام وأدب كما يذكر صاحب ظفرنامه (ص ٦٢٩) ، وبعد هذا بقليل دخل تيمور بغداد واستولى على قصر السلطان الجلايرى ؛ فسلك السلطان أحمد طريق الفرار

(١) ظفر نامه لشرف الدين على اليزيدى ، ص ٥٧٦ .
(٢) انتساب هؤلاء السادات للحرفية محل شك .
(٣) ظفر نامه لليزدى ج١ ، ص ٥٨٧ .
(٤) القلعة البيضاء أو (دج سفيد) فى فارس على بعد بضعة كليومترات شرق قرية فهليان ، راجع فارس نامه للناصرى ج١ ، ص ٦٦ ، و ج٢ ، ص ٣٢٤ طهران .
(٥) ظفرنامه ، ج١ ، ص ٦١٩ .

من أمامه فأرسل فى عقبه تيمور بضعة من القواد ؛ فلحقوا به بالقرب من كربلاء وأسروا بعض نسائه وأولاده وعادوا بغنائم كثيرة ، لكن أحمد نفسه هرب ونجا من الأسر ، ثم أرسل تيمور بابن السلطان أحمد وهو علاء الدولة ومعه زوجات أحمد وعدد من صناع بغداد وخاصة الموسيقى المعروف الخواجة عبد القادر المراغى إلى سمرقند ، وهناك أرسل سفير إلى بلاط سلطان مصر الظاهر برقوق بنية أن يعقد معه معاهدة مودة وتجارة ، ومن أعمال تيمور الأخرى فتحه للقلعة المعروفة بتكريت التى كان جنودها يدافعون عنها بشجاعة ، وفى النهاية فتحها وقتل دافعيها ، وأقام وعبر كركوك وأربل والموصل والروحة ، وهناك فى شهر مارس ١٣٩٤ أصيب بإعصار شديد ، فاضطر إلى العودة ثانية إلى العراق العربى ؛ لهذا السبب وبعلة عصيان الملك عز الدين (سلطان الجزيرة) ، وبعد حرب قصيرة مع هذا الرئيس الثائر عطف مرة أخرى عنانه صوب الشمال وفتح قلعة ماردين ، وكان من حسن حظ حفيد له من ابنه شاهرخ وهو ألغ بينك فى السلطانية فى جمادى الأخرة ٧٩٧هـ / ٢٢ مارس ١٣٩٤ ، ففرح الأمير بهذا الخبر حتى إنه عفا عنهم ووهبهم الحياة (ظفرنامه ص ٦٨٠) ، وفى أبريل استسلمت أمام جيشه الفاتح أمدو دياربكر ، لكنه صرف نظره عن تخريب قلاعهم بسبب ما أبداه أهلهما من قوة واتحاد فائقين (ظفرنامه ص ٦٨٤) ، وعبر من هناك سيواس وموش وبطليس وأخلاط وأيدين وانتظر مدة قصيرة فى صحراء ألا داغ حتى تلحق به زوجته وابنه القادمان له من السلطانية ، وأرسل أيضًا من هناك جيشًا يتعقب خصمه قرا يوسف التركمانى .

وفى أخر يوليو ١٣٩٤م تيسر لتيمور فتح قلعة أفنيك Avnik الواقعة فى المياه العليا لنهر أرس وأرسل المدافع عن تلك القلعة مصرين قرا يوسف مع السلطان عيسى الحاكم السابق لماردين أسيرين إلى سمرقند ، وإذ ذاك هاجم جرجان واستولى على تلفيس ، وفى هذه الأثناء ، ولحسن حظ إيران ثانية (للمرة الثانية أجبره تهديد جديد من قبل خصمه القديم ، قتمش خان مع إخلاء إيران ثانية ..) ، والتوجه إلى الشمال ، وفى آواخر فبراير ١٣٩٥م الموافق الثامن من جمادى الأول ٧٩٨هـ (ظفرنامه ، ص ٧٣٥) اتجه إلى جنوب روسيا ، وقام بحروب عدة بها وتقدم فاتحًا حتى موسكو ، وظلت هذه

المدينة فى ربقة سيطرته مدة تزيد عن العام[1] ، وأثناء غيبته وعلى أثر بعده عن إيران ظهرت سلسلة من الثورات مثل ثورة قرا يوسف التركمانى فى آذربايجان (ظفرنامه ، ص ٧٥٧) وجودرز ، ويبدو أنه كان زردشتيا فى سيرجان (ظفرنامه ، ص ٧٨٤) والسلطان محمد ولد أبى سعيد الطبسى ، وبعض من الجنود الخراسانيين الذين كانوا فى السابق فى خدمة آل المظفر فى يزيد ، وبهلول فى نهاوند ، وانتهت هذه الثورات جميعًا بسرعة وشدة وأحرق حيا بهلول قائد ثورة نهاوند (ظفرنامه ، ص ٧٨٨) .

وأمضى تيمور شهر رمضان التالى فى همدان وانشغل بالعبادة والصوم والصلاة وأمر من هناك.بعض قواده للاستيلاء على خليج فارس من خوارستان حتى هرفر واتجه هو نفسه فى ١٨ يوليو ١٣٩٦ ، صوب سمرقند ، وآثر تيمور هذه المرة الراحة لمدة أطول نسبيًا فى عاصمته وصرف أكبر اهتمامه لتزيين هذه المدينة وما حولها وتعميرها وقام بتشييد الأبنية الرفيعة بيد المهندسين.والبنائين الفنانين الذين جميعهم لديه من شرق العالم وغربه[2] (ظفرنامه ج ٢ ، ص ٦) ، وقام أيضًا فى تلك الآونة بعقد الضيافات

(١) عبارة ظفرنامه للشامى المتصلة بفتح موسكو هى (واتجه الأمير صاحب القران إلى مدينة أوروس المسماة موسكو ، وهاجم سائر هذه الولاية وغنم الجنود منها غنائم بلا حصر) ص ١٦١ .
وعبارة ظفرنامه لليزدى ، ونص حضرت صاحب القرآن إلى موسكو وهى أيضًا من مدن الروس فبلغها وهاجم الجيش الظاهر جميع هذه الولاية من المدينة وظاهرها ، ونكب جميع أمرائها وخدلهم :

بقوة الساعد والسيف البتار — أقام قيامة على الروس
ومن كثرة من قتل من الروس — ارتفعت الصحراء جبالاً

ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٧٦١ .
وفى تيمور نامه للهاتفى أشار فى نهاية قصة حرب تيمور مع توقتمش إلى حربه للروس فى رباعى هو :

استصوب قد الإباب — ورفع الناى النحاس صوته
وأرسل جيشًا للسيطرة على الروس — لأن الروس فى زينة كالعروس

(٢) الحدائق العديدة التى أنشأها تيمور فى أطراف سمرقند ونواحيها أسماؤها تتطابق تمامًا مع أسماء الحدائق والبساتين التى أنشئت فى أطراف مدن إيران خاصة شيراز من قديم الأيام ، والحدائق بأطراف شيراز مع أنها عمرت وأصلحت جميعها فى عهد السلطان العادل كريم خان الزندى ، ولكن بقيت على أسمائها التى كانت لها قبل غزو تيمور لشيراز أول مرة عام ٧٨٩هـ على وجه التحقيق ، وقد ورد شرح أسماء حدائق شيراز بالتفصيل فى فارس نامه للناصرى (المقالة الثانية ، ص ١٥)، ويمكن لحدائق شيراز =

والاحتفالات الفخمة كان إحداها لإعطاء حكومة خراسان وما زندران لابنه شاهرخ ، وقد حدث هذا فى شهر مايو ٣٩٧م (ظفرنامه ، ص ٨٠٣) ، وانقضى أقل من عام على هذا التاريخ رفع أعلامه فى ربيع عام ١٣٩٨م ، للسيطرة على الهند وكان مقصده من هذه الحرب يقول صاحب ظفرنامه (جـ ٢ ، ص ١٥) هو الجهاد إذ كان يريد إزالة بنيان الوثيقة من تلك الديار ، وتشييد بناء الإسلام لأنه سمع بأن السلاطين المسلمين فى النواحى يعاملون الهنود بتسامح وتساهل ، وبعد عمليات تمهيدية ضد أفغان سليمان كوه وكفار (سياه بوس كافرستان) أو لابسى السواد ببلاد الكفر عبر فى ١٢ من

= وروضاتها وجمال فضائها المفرح قد جلبت نظر تيمور وجذبت طبعه ؛ ولهذا سعى أن يجعل عاصمته سمرقند أكثر جمالاً وأشد عماراً من سائر بلاد العالم فبنى بها البساتين بالأسماء نفسها التى كانت بها بشيراز منها أربعة موجودة بإيران لا تزال معروفة بأسمائها القديمة ، الأولى بستان تخت فراتشه ، والثانى البستان قرينة العالم ، والثالث البستان المبهج ، والأخير بستان الدم ، وورد تضم بظفرنامه أن تيمور فى حملته الأولى على شيراز نزل ببستان تخت قراتشه (ج ١ ، ص ٤٢٧) ، وأيضاً ورد تضم (ج ٢ ، ص ١٣) أن تيمور أسس بستاناً بأعلى الجبال فى الطريق ما بين سمرقند وكش على مسافة سبعة فراسخ من سمرقند وسماه بستان تخت قراتشه ، ويكتب ابن عربشاه نفسه فى تاريخه بشأن هذه البستاتين ، وأنشأ فى سمرقند بساتين عديدة وقصوراً شوامخ مشيدة كل له ترتيب غريب ووضع أنيق عجيب .. سمى أحدهما بستان أرم وآخر زينة العالم وآخر جنة الفردوس وآخر بستان الشمال وآخر الجنة العليا .. ثم إنه هدم قصراً وبنى فى كل بستان منه قصراً وأنشأ فى ضواحى سمرقند وأطرافها قصبات سماهن بأسماء كبار البلدان والأمهات كمصر ودمشق وبغداد وسلطانية وشيراز عرائس البلاد ، وأنشأ بستانا فى ضواحى سمر على طريق كش وبنى به قصراً سماه تخت قراجا .. (عجائب المقدور ، ص ٢٢٠) ، ويذكر شرف الدين أيضاً فى موضع آخر من كتابه أسماء تلك البساتين التى كانت بعدد أماكن إقامة تيمور وتناوب نزوله (ج ٢ ، ص ١٩٢) : فى يوم الجمعة ١٧ شعبان ٧٩٩هـ انتقل إلى تخت قراتشه وهو من مستحدثات معمار همته.. وفى الثلاثاء ١٨ فى بستان (قراتوبه) أصبح قصر زينة العالم فى الحقيقية ، زينة للعالم من عظمته وجلاله .. وفى الإثنين ٢٠ بالضحى .. نزل بقصر الحديق المبهجة . وكان هذا البناء قد تجدد بناؤه وأقيمت به تفاناؤلاً وتيمنا احتفالات ملكية ، كما أورد المؤلف فى الجزء الثانى من كتابه (ص ٦) بالتفصيل مقالاً فى إنشاء الحديقة أو البستان المبهج ، وأن من بين البساتين التى أقامها بسمرقند بستان اسمه بستان الشمال (ج ١ ، ص ٨٠١) ، ويمكن أن الأمير تيمور فى تسميته لهذا البستان قد اقتبسها من بستان الشمال الموجود فى تبريز وفى عام ١٣٢٧م حين كان المترجم فى سمرقند درس هذا الموضوع ، وعلم أن اسم البستان المنهج وتسبان الشمال لا يزال مشهوراً ومعروفاً لدى الخاصة والعامة ، وفى أرض بستان الشمال جماعة من المهاجرين الإيرانيين فى الأصل يتحدثونه الفارسية الإيرانية وهم من أولاد المهاجرين على عصر آل تيمور ، ويوجد بستان تخت قراتشه على بعد أربعين كيلو ومترات من سمرقند ، وهى مرتاض لسكان سمرقند وقت الصيف .

المحرم ٨٠١ هـ / ٢٤ سبتمبر ١٣٩٨م نهر السند ، وهاجم الهند بجيش مسلح بالنار والسيوف .

ولا يلزمنا تفصيلات حوادث هذه الحرب ، وسائرها هو أعمال وأحداث تختلط بسفكه الدماء وقسوته المعهودة وقد كان أسوأها وأكثرها فظاعة ذبح مائة ألف أسير ، وقد حدث قرب دهلى فى ١٢ ديسمبر ١٣٩٨م (ظفرنامه ج ٢ ، ص ٩٢) والذى بجانبه لا يكون بوزن وأهمية لفظاعة سائر جرائمه الأخرى مثل مجزرته لأهل دهلى التى حدثت بعد ذلك بعدة أيام ، وكذلك ذبحه لعشرة آلاف إنسان فى (باتنير Batnir)[١] .

وفى تلك الأوقات كانت ترد إلى تيمور أخبار الثورات والقلاقل بإيران خاصة من آذربايجان لأنه أناب ابنه ميران شاه فى حكم هذا الإقليم ، ولما كان قد أصيب بخلل عقلى بسبب إصابة لحقت بمخه ؛ فقد كان يرتكب أعمالاً قبيحة ؛ فاضطر تيمور إلى تقصير حروب الهند أوائل عام ١٣٩٩م والإسراع إلى بلاده ، وفى أثناء عودته فى الثامن من مارس من العام نفسه عبر نهر السند ، وعاد من الهند بعد خمسة شهور وسبعة عشر يومًا ثم عبر نهر جيجول بعد ثلاثة أسابيع ، وفى السابع من أبريل من العام نفسه وصل إلى مسقط رأسه ؛ أى ... شهر سبز : أى مدينة كش أو المدينة الخضراء (شهر سبز) – ثم دخل سمرقند عاصمته فى ٢٧ أبريل ، وبعد هذا بأسبوعين فى ٩ مايو ١٣٩٩م أسس فى هذه المدينة العظيمة مسجدًا عظيمًا وفخًا (لمسجد الجامع) ، وكان يفكر من مدة طويلة فى بنائه من أجل تزيين دار ملكه .

وفى ٩ سبتمبر ١٣٩٩م ترك تيمور سمرقند ثانية ويمم شطر آذربايجان لأن سلوك ابنه ميران شاه المعوج كان يلزم اهتمامه العاجل ، وكانت أخبار هذا البلد المتعاقبة تشوش خاطره ، وفى إيوانك (إيوانكى) لحق به ابنه شاهرخ بالجيش الآخر ، وكان قد أرسله ليسلك طريق مازندان وأجبر ميران شاه حين قدم إلى معسكر والده إلى

(١) تفصيلات حروب تيمور فى الهند واردة فى رسالة تاريخية اسمها (يوميات غزوات الهند) ، ومؤلف هذه الرسالة التى شاهد بعينيه هذه الأحداث اسمه غياث الدين على بن جمال الإسلام اليزدى ، وطبعت هذه الرسالة فى بترو جراد .

الاعتذار عن قبائح أفعاله ومنها : الإسراف ، والإتلاف لقسم عظيم من أموال الضرائب والخراج ، وقتله كثيراً من الأشخاص البارزين ، وتخريب كثير من الأبنية التاريخية ، ومنها نبش قبر الوزير المعروف والمؤرخ المشهور رشيد الدين فضل الله الذى حكم بنقل جثمانه إلى مقابر اليهود ، ووقع ميران شاه موقع سخط أبيه لهذه الأعمال ؛ فحول منصبه إلى ابنه ميرزا أبى بكر ، لكن نار غضب تيمور اتسعت فابتلى بها بضعة من الوزراء والشعراء الذين كانوا دائمى صحبة ميرانشاه ومنادته واتهموا بأنهم دلوا الأمير على طريق الخطأ ، فحكم على بعض منهم بالموت مثل : مولانا محمد القهستانى الذى كان يقول ظفرنامه (ج ٢ ، ص ٢١٣) وحيد عصره وأعجوبة زمانه فى النظم والنثر والجد والهزل فوق معرفته بمصطلحات فنون العلوم ، وقطب الدين النائى وحبيب العواد وعبد المؤمن المنثر (المغنى) - وهم من الموسيقيين - فعلقوا على المشانق فى قزوين أو قريبًا منها ، وبناء على رواية دولت شاه السمرقند[1] (ص ٣٣٠) ، لم يتخل محمد القهستانى عن المزاح حتى وقت أن كان على شفا الموت ، واتجه إلى قطب الدين النائى قائلاً : (كنت أنت المقدم فى مجلس الملك ؛ فتقدم أيضًا هنا) ، فأجابه قطب : (أيها الملحد التعيس صعدت الأمر فوصلنا هنا ، ولم تتخل عن المزاح) ، ولما وصل الدور على القهستانى ليتخرج شربة الموت أنشد هذا الرباعى وبه صنعة الجناس :

حلت نهاية الأمر وآخر العهد أيها الملحد

فإن رحلت وإن بقيت فهذا خارج عن الاختيار

وإن حملت كمنصور الحلاج إلى المشنقة

فقف كالرجال لأن الدنيا ليست دائمة[2]

(١) فى تاريخ مجمل الفصيحى فى ذيل وقائعا عام ٨٠٢ هـ أضيف بضعة آخرين إلى المحكوم عليهم بالموت وهم أردشير الصبخى ويحيى التراد .

(٢) الأصل الفارسى لهذا الرباعى المسجع :

بايان كار وآخر دوراست ملحدا	كرميروى وكرنه بدست اختيار نسيت
منصور واكر ببرندت بياى دار	مردانه باى دار جهان بايدار نيست

أما الحروب التى انشغل بها تيمور بعد ذلك فتشتمل على بعض من أهم فتوحاته الشهيرة التى سماها شرف الدين اليزدى (هجوم السنوات السبع) (ج ٢ ، ص ٢٠٦) ، لكن بما أنها تبدأ فى محرم ٨٠٢ هـ / سبتمبر ١٣٩٩م وعاد تيمور إلى عاصمته فى محرم ٨٠٧ هـ / يوليو ١٤٠٤م فيمكن القول إن هذه التسمية لا تنطبق فى الواقع مع حروبه وفتوحاته من الكثرة والتفصيل إلى حد أن المجموعة المختصرة لحروبه الدموية التى فى هذه المدة ووضعها فى كتابه **Choroinligical Refrospect** قد أربت على ١٦٦ صفحة طويلة ، ويكفى أن تذكر هنا أهمها :

شتاءً عام ١٣٩٩ - ١٤٠٠م قضاه تيمور قرب نهر أرس فى قراباغ ، وقبل أن يذيب فصل الربيع الثلوج عاد ثانية إلى جرجان فخر بها وأباد الأديرة والكنائس وقتل جماعة عظيمة من سكانها ، وفى أغسطس (١٤٠٠م) هاجم آسيا الصغرى وعبر مدن آفنيك وأرز روم وأرزبخان وسيواس ، وأبدت المدينة الأخيرة مقاومة صلبة أمامه ، ولما انهزم جيشها أمر تيمور بدفن الأرامنة والمسيحين وهم نحو أربعة آلاف أحياء فى القبور ، لكنه عفا عن الجنود المسلمين (ظفرنامه ج٢ ، ص ٢٦٩) ، وفى هذه الأثناء تبادل مكاتبة جادة مع السلطان العثمانى بايزيد الملقب بايلدرم (الصاعقة) فطلب تيمور من السلطان أن يسلم له السلطان أحمد ملك بغداد وقرا يوسف التركمانى ، فلم يقبل بايزيد هذا الطلب ، وأظهر أن الأتراك حتى وقتذاك لم يعهدوا أن يسلموا ضيوفهم والمستجيرين بهم ، وكانت نغمة هذا الرفض والإباء - كما سنرى - من القسوة والحدة إلى حد أن مذاق منافسه الكبير لم يستغلها ، كما حبس سفير تيمور فى القاهرة بلا سبب ؛ لهذا اتجه تيمور إلى مصر وبلاد آل عثمان ، ولم يكن مطمح نظره البلاد التى كان يحكمها فيما سبق عدواه الهاربان السلطان أحمد وقرا يوسف بل كان وجهة اهتمامه الحرب مع مصر والشام والعثمانيين .

فتح حلب ودمشق

حاصر تيمور حلب بعد فتح (عين تاب) حدث فى أكتوبر ١٤٠٠م ، وكان فى حلب أن أسر المؤرخ المستقبلى لتيمور نظام الدين المعروف بالشافعى[١] وأرسله إلى سمرقند مع سائر غنائم الحرب ، ثم فتح بعد ذلك حماة وحمص وبعلبك واحدة بعد الأخرى واتجه صوب دمشق ، وهناك تآمر أحد الفدائيين بتحريض الملك الناصر سلطان لقتلة ، لكنه فشل وأسر وقتل .

ثم استسلمت دمشق ، لكن ثورة شبت بها ، وفى النهاية فى ٨٠٣هـ / ١٤٠١م سقطت نهائيًا وخطب لتيمور دمشق ، لكن ثورة شبت بها ، وفى النهاية فى ٨٠٣هـ / ١٤٠١م سقطت نهائيًا وخطب لتيمور على منابرها ، ثم صارت بعد ذلك نهبًا وإغارة ومحرمة للجنود التتر ، وفتح قسم آخر جيش تيمور جميع ساحل سورية حتى عكا .

مذبحة بغداد

وعطف تيمور عنانه من الشام صوب بغداد راجعًا ، وكانت عاصمة السلطان أحمد جلابر الفار ، وبعد فتحها فى ٨٠٣هـ / ١٤٠١م أقام مذبحة عظمى فى تلك المدينة فقتل آلاف الأشخاص لقاء قتل بضعة من قواد جيشه هلكوا فى حصار تلك المدينة ، أى أمر كل واحد من جنوده بأن يسلمه رأس رجل بغدادى[٢] .

وذكر شرف الدين فى هذه الواقعة : راح سوق القتل إلى حد أن دَلال الأجل كان يبيع بثمن واحد الشيخ ذا الثمانين عامًا والطفل ذا الثمانية أعوام ، واشتعل موقد الغضب

(١) (الشامى لقب ليس بسبب أنه كان من الشام بل لأنه كان سكان شنب غازان ؛ ولهذا كان ينطلق (شامى)، أما ذكر براون ترحيل الشامى إلى سمرقند فلم يرد هذا فى تاريخ الشامى، (وشنب غازان تعنى قبة غازان خان) (المترجم) .

(٢) وكما ذكر ابن عرب شاه فقد بلغ عدد جيش تيمور فى هذه الواقعة عشرين ألفًا ، وكان على كل واحد منهم أن يسلم رأسى رجلين من بغداد .

إلى درجة أن كسوة وجود المنَّعم صاحب المال كانت تحترق على منوال واحد مع الفقير الرقيق الحال (ظفرنامه ج ٢ ، ص ٣٦٧) ، وبعد أن أحل ببغداد الخراب واليباب عطف ثانية عنانه نحو الجرجيين (الجرجانيين) التعساء ، لكن حلول الشتاء حال دون هجومه فعاد فى نوفمبر ١٤٠١م إلى قراباغ لتمضية الشتاء بها .

حرب أنقرة

وفى ٨٠٤هـ / فبراير ١٤٠٢م أعد العدة لقتال العثمانى بايزيد ؛ لأنه كانت تصله دائمًا رسالات مهينة وتشعل نار غضبه ، وفى العشرين من يوليو ١٤٠٢م جرت الحرب التاريخية (حرب أنقرة) التى هُزم فيها الأتراك العثمانيين هزيمة فادحة ووقع السلطان يلدروم بايزيد نفسه أسيرًا .

حكاية القص الحديدى

إن القصة المشهورة للقفص الحديد الذى يقال إن تيمور حبس به بايزيد ، وكان يحمله معه فى حركته هى محل الشك والارتياب فى أيامنا هذه[(١)] ، ويبدو أن شرف الدين وغيره من المؤرخين الإيرانيين لم يشيروا إلى هذه الواقعة ، ويمكن أن هذه الحكاية ظهرت بسبب أن عرب شاه كما سبق القول كان خصمًا لتيمور واستخدم كلمة (القفص) على سبيل الاستعارة ، وأراد بذلك أن يشنع فعله بأشنع صورة ، وكلامه هو : (وقع ابن عثمان فى قفص وصار مقيدًا كالطير فى القفص ، عجائب المقدور ، ص ١٣٠) ولا يستفاد - فيما يبدو - من هذه الجملة المعنى الحرفى للكلمة ، ويمكن أن استخدم مجازًا كلمة قفص وكتب جملته هذه لمراعاة السجع الذى تقيد به والتزم ابن عمر بشاه

(١) مع ذلك عد البروفسور Gibbons هذه الواقعة حقيقة مسلمًا بها ، كتابه التاريخى المسمى (تأسيس الإمبراطورية العثمانية) فقد درس هذا الموضوع بالتفصيل فى حاشية ص ٢٥٥ .

فى كتابه[1] ، ويذكر شرف الدين بصراحة (ظفرنامه ج ٢ ، ص ٤٣٨) أنه لما أحضر بايزيد مقيد بالحديد إلى حضرة تيمور خاطبه وعاتبه ولامه على سابق فعله ثم قرعه بسبب أنه أقام الرب على أخ مؤمن له قام بكل تلك الخدمات من أجل الإسلام ، وذكره أن الحوادث لو جرت على عكس ما وقع الذى رزقنى هذا النصر والفتح فلن أقدم لك ولشعبك غير الخير فاهدأ بالاً . (ظفرنامه ج ٢ ، ص ٤٣٩) .

ورغم ما قاله تيمور إلا أنه استمر فى الواقع فى مقاتلة الأتراك العثمانيين وهاجم (بروصة) و (أزمير) اللتين كانتا تحسبان مقرًا للسلاطين أو محلاً (للكفار) وخربهما فى ٨٠٤هـ / ديسمبر ١٤٠٢م ومات بايزيد التعيس فى النهاية فى ٨٠٥هـ / فبراير ١٤٠٣م فى أسره .

استلام ملك مصر الملك الناصر فرج

ولما رأى سلطان مصر إلى ما صارت إليه أحوال الأتراك اضطر إلى ترك المخاصمة والعناد ؛ فأخرج رسول تيمور من حبسه وعامل باحترام عظيم وأحنى رأس الاستسلام أمام فاتح أنقرة وأرسل سفارة إليه استقبلها تيمور باحترام كبير خلافًا لما حدث من الناصر ، وبعد هذا أعاد تيمور هجومه على جرجستان (جورجيا أوجرجان) فى شهرى أغسطس سبتمبر ١٤٠٣م ، وأمضى الشتاء فى قراباغ وفى ٨٠٦هـ / مايو ١٤٠٤م وصل إلى الرى ، ودخل سمرقند فى يوليو فى العام نفسه .

(١) العجيب أن محققًا مثل البروفسور براون لم يدقق ويتعمق فى كتاب ابن عربشاه فاجتهد هذا الاجتهاد ، بينما أن هذا المؤرخ من المعاصرين القريبين من تيمور وكان نفسه أهل الشام ، وفى خدمة السلاطين العثمانيين ، فلم يكن ليبادر إلى تزوير هذا الخبر الخالى من الحقيقة ، لأنه يذكر ثانية هذا الخبر نفسه بعبارة صريحة وواضحة وخالية من أى مجاز واستعارة بقوله : (اندرة إلى رحمة الله المجيد السلطان السعيد الغازى الشهيد أيلدريم بايزيد ، وكان معه مكبلاً فى قفص من حديد ، وإنما فعل ذلك تيمور قصاصًا كما فعله قيصر مع شابور ، وكان قد استصحبه ، إلى وراء النهر فتوفى معه فى بلاد الروم فى أحد شهر) عجائب المصدور ، طبعة مصر ، ص ١٣٩ .

وصف كلافيجو لبلاط تيمور ومجالس ضيافاته وعقابه

ومضى على هذا التاريخ شهر واحد حين قدم إلى بلاطه سفارة ملك إسبانيا برئاسة روى جونز الزد كلا فيجو Ruy Gonzalez de clavijo . وقد خلف هذا السفير رحلة جديرة بالاهتمام شرح فيها وقائع إيابه وذهابه أو رحلته من إسبانيا إلى سمرقند وكتب آراءه حول تيمور وترجم رحلته هذه إلى الإنجليزية كليما نتزر ، ماركهام ، وطبعت فى عام ١٨٥٩ من قبل جمعية هاكلويت Hakluyt .

كان برفقة هذا السفير رسول اسمه محمد القاضى ، كان تيمور أرسله إلى إسبانيا ، وكذلك رجل اسمه جوفير ديسالازار ، وقسيس اسمه فرأى ألونزو ، وتحرك جمعهم من إشبيلية نحو الشرق ووصلوا إلى سمرقند عن طريق القسطنطينية وطرا بزون وارزروم وخوى وتبريز وطهران ومشهد ، وفى ٣١ أغسطس عام ١٤٠٤م دخلوا جميعاً ومعهم سفراء (ملك بابل) – عاصمة تيمور ، وفى الإثنين الثامن من سبتمبر استقبلهم هذا الأمير . كتب كلافيجو أن تيمور كان جالساً وقتذاك أمام باب عظيم لقصر فخم على الكرسى وجلس سفيره أمامه وفى مواجهته على الأرض ، وكانت فيما يقع عليه بصره نافورة ماء تندفع لأعلى كثيراً تحرك فيها بضع تفاحات حمراء جلس الأمير متربعاً على سجادة صوفية مرصعة ومستنداً على مساند ووسائد مدورة وهو يلبس رداءً حريرياً وعلى رأسه قلنسوة بيضاء طويلة علق بتاجها ياقوتة مكللة بأنواع الجواهر واللآلىء ، قرب السفراء إليه كثيراً لكى يتمكن من رؤيتهم جيداً لأن بصره قد أصابه الضعف بقدر العجوز الذى يسقط حاجباه بأعلى عينيه ، استقبلهم بلطف وسأل : كيف حال ابن سلطان إسبانيا ؟ هل هو بصحة وسلامة ؟ إلى الأمراء والكبار الحالين حوله : (انظروا إلى هؤلاء السفراء الذين أرسلهم ابنى ملك إسبانيا وهو أعظم سلاطين الفرنجة ويستقر فى آخر الدنيا . إن الفرنجة حقًا شعب عظيم ، وأنا أطلب الخير لابنى ملك إسبانيا ، وكان يكفى أنكم أتيتم بالرسائل وحدها وليس من حاجة إلى التحف والهدايا ، يكفينا بشرى سلامة دولة إسبانيا وعمارها لرضا خواطرنا) .

واستقبل سفراء إسبانيا بعد ذلك فى أكثر من ضيافة وصفها بالتفصيل كلافيجو ، وحكى عن لقائه بتيمور ، ويبدو أنه تعجب كثيراً بسبب المقادير الضخمة والطعام والشراب التى كانوا يستهلكونها وكثرة السكر وشرب الخمر الذى كان يجرى ، ويقول : (كان شرب الخمر من الوفرة إلى حد أن بعض الحاضرين فى مجلس الملكة الخانم زوجة تيمور ، كانوا يسقطون من فرط السكر الشديد ، وكانوا يعدون هذا العمل تنعماً وحبوراً ويظنون أن اللهو والنعيم لا يتيسران بغير شرب الخمر) ، وفى وقت آخر فى ٩ أكتوبر ١٤٠٤م أحضرهم لرؤية عقاب المذنبين ، ويقول إن تيمور أمر بنصب بضعة مشانق فى الموضع الذى كان التجار يدقون فيه خيامهم ، وأعلن تيمور أن بهذه الضيافة والاحتفال كما يلقى البعض الحب واللطف سيلقى فيهم القسوة والشدة ، وعلق بضعة من المهمين على تلك المشانق ، وبالإضافة إليهم شنق بضع التجار المغالين فى بيعهم الطعام والغذاء وبضعة من الحذائين أيضًا ، ويضيف كلافيجو أن العادة هناك هى أنهم إذا أرادوا عقاب الكبار تملوقوهم بالمشانق ، ولكن الصغار كانت تفصل رءوسهم عن أجسادهم على عكس ما كان شائعًا فى إنجلترا فى القرون الوسطى .

ويبدو أن هؤلاء السفراء بعد أول نوفمبر ١٤٠٤م لم ينجحوا فى مقابلة تيمور ثانية ولم يخرج من قصره صباح ذاك اليوم لأنه كان معتلاً بشدة ، أمر الكتاب والمنشئون هؤلاء السفراء بالعودة ؛ لكنهم امتنعوا عن تنفيذ أمرهم أولاً ما لم يسمح بعودتهم تيمور ويرسل بالرسائل والهدايا إلى ملوكهم وعند ذاك يرحلون ، لكنهم أجبروا فى آخر الأمر إلى الرحيل ، ولم ينالوا لقاء تيمور مرة أخرى وفهموا أن تيمور معتل جداً ومصاب بداء شديد ، وفى ١٨ نوفمبر تركوا مدينة سمرقند واتجهوا للعودة ، ورحل معهم أيضًا سفراء (السلطان العثمانى) و (ملك بابل) ، وبعد هذا بثلاثة أيام انتقلوا إلى بستان خارج المدينة وعقدوا العزم على العودة إلى وطنهم ، وفى ٢١ نوفمبر ١٤٠٤م توجهوا إلى عرض الطريق ، وفى ٢٨ فبراير ١٤٠٥م وصلوا تبريز فى ٢٢ أغسطس ، وبعد عبور أرض أرمينية التى يذكر كلافيجو فى حق سكانها أنهم (أرامنة مسيحيون أشرار لا يسمحون للسفراء والمبعوثين بعبور بلادهم ما لم يأخذوا قسماً من أموالهم) .

وفى النهاية فى السابع عشر من سبتمبر وصلوا طرابزون، وفى ٢٢ أكتوبر ١٤٠٥م وصلوا القسطنطينية ، ثم إلى جنوة فى الثالث من يناير ١٤٠٦م ، وفى مارس من العام نفسه بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام من البعد والغربة نزلوا بميناء سان لوكار بأرض إسبانيا ، وقلَّ أن ذكر المؤرخون الإيرانييون هذه السفارة رغم أن شرف الدين اليزدى فى ظفرنامه جـ ٢ ، ص ٥٩٨ أشار إليها بقوله : (وفى تلك الأثناء وصل رسول من مقدم ملوك الإفرنجة وعرض كثيرًا من التحف والهدايا الفاخرة وأنواع التقدمات والعطايا النفسية النادرة من بينها أستار نقش عليها نقوش مطرزة لو جرى قلم مانى على صفحات كتابه الأرجنك يقلدها لا تهم بالقصور والتقصير ولأصيب بالخجل بقسم عظيم لو قلد هذه الصور) ، ثم ذكر بعد ذاك حضور سفراء إسبانيا لإحدى ضيافات تيمور قائلاً : (وكان رسل الإفرنج حاضرين فى ذلك المجلس واحتفظوا به كالقشة تجد معبرًا أيضًا فى الحبر) ظفرنامه ج ٢ ، ص ٦٣٣ ، ثم يثبت بعد ذلك تاريخ عودتهم .

الاستعداد للهجوم على الصين

يبدو أن تيمور فى تلك الأيام شفى من مرضه ومل الحياة الهادئة فتحرك هوسه إلى فتوحات جديدة وصمم على غزو الصين بحجة تحطيم معابدهم الوثنية ونشر الإسلام ، وأيضًا حشو كيسه وأكياس جنوده بغنائم تلك الأرض العريقة الثرية ، وبعد أن أعد سائر لوازم الحرب ورتب النظام والإدارة فى حكم بلاده المتسعة وقت غيابه تحرك فى ٨٠٧هـ / ٢٧ نوفمبر ١٤٠٤م من سمرقند تجاه المشرق ، وكان ذلك الشتاء - بوجه خاص - كثير البرودة والقسوة ، وبعد أن عانى جيشه من جيش البرودة آلامًا كثيرة عبر فى ١٤ يناير ١٤٠٥م نهر سيحون من فوق جليده وحط مدينة أترار .

مرض تيمور وموته فى ١٢ رجب ٨٠٧هـ / فبراير ١٤٠٥م

أصيب تيمور فى الشهر التالى بمرض صعب ، ورغم أن مولانا فضل الله التبريزى – وهو من كبار أطباء ذاك الزمان – كان يقوم بعلاجه إلا أن العلة اشتدت به وحدثت بعض القلاقل فى مرضه إلى أن أسلم روحه بعد أسبوع بعد هجوم المرض عليه فى ١٨ فبراير ١٤٠٥م[1] وهو فى الحادية والسبعين من عمره حسب التقويم الهجرى ، وقد حكم ثلاثًا وثلاثين سنة ، ولم تختل قواه العقلية حتى النفس الأخير له ، وبعد أن عين حفيده بير محمد ابن جها بخير فى خلافته وضع وصاياه ، ونطق بالشهادة كما يفرض الشرع الإسلامى ، بحسب قول شرف الدين اليزدى فى ظفرنامه (ص ٦٥٦ ، ج ٢) ، ثم زفر نفسه الأخير .

الآراء المختلفة فى صفات تيمور

أولئك الذين بهتوا أمام فتوحات تيمور العسكرية أفرطوا فى مدح أخلاقه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أولئك الذين غضبوا عليه بسبب قسوته ، وعدم مبالاته بأرواح البشر بالغوا فى ذمه ، والعامل المهم الذى يتدخل فى هذا التحكيم هو موضوع

(١) كان سبب هلاك تيمور هو الإفراط فى شرب العرق ، وذكر اسم هذا المشروب الكحولى لأول مرة فى تاريخ إيران بسبب موت تيمور ، وفى التتمة التى كتبها حاف برو على تاريخ ظفرنامه للشامى يشير إلى هذه الحادثة وهذا المشروب ، ونص عبارته هو : وفى الثانى عشر من رجب المرجب سنة سبع وثمانمائة نزل ببلدة أترار ، وفى هذه الأثناء أظهر رغبته في العرق فأحضر له وكان جوهرًا هو عين النار فى صورة الماء وكالهوا لا يدركه البصر من غاية اللطف كأسًا ذهبية ليلتين أخريين بهذا العرق ولم يهتم قطعًا بأى طعام ، وفى اليوم التالى تغير مزاجه المبارك قليلاً فقيل لعله الخمار فرب لعلاجه بحكم (وأخرى تداويت منها بها) جرعين آخرين وتصوروا أنها ستسكن حرارته بسبب برودتها الظاهرة ، فلما سخف فى معدته زادت حرارته ، وصارت نهايتها مقدمة للمكرمة ، وأظهر الفلك إلى ماتم بعد الشراب اللاذع حقده وبدل الدهر الخائن الفرح إلى ترح والحبور إلى مأتم (ذيل نامه ، ص ٢٣ طبعة براغ) .
وقص ابن عربشاه الواقعة نفسها بقوله : وجعل تيمور يواصل التيار حتى وصل كورة تدعى أترار ، ولما كان بظاهره من البرد آمنًا أراد أن يجعل له ما يرد الأبردة عنه باطنًا ، فأمر أن يستقر له من عرق الخمر المعمول فيها الأدوية الحارة والأفادية والبهارات النافعة .. فجعل يتناول من ذلك العرق ويتفوق أفاديقه من غير فرق فأثر ذلك العرق من أمعائه وكبده فترنح بنيان جسمه .. فطلب الأطباء وعرض عليهم هذا الداء ، فعالجوه فى ذلك البرد بأن وضعوا على بطنه وجنبيه الجمد ؛ فأنقطع ثلاث ليال ويحكم أحمال الانتقال إلى دار الخزى والنكال (عجائب المقدور ، ص ١٦٥) .

رفض كتابه المعروف بالتزوكات نفسه أو قبوله الذى نشأ كثير من المناقشة والجدال ، لأن هذا الكتاب يشتمل على فلسفة تيمور الخاصة فى أمور الحكم ، وكان أن كتب جيبونز فى كتابه فى الحواش بالفصل LXV أنه لا يتوقع أن يكتب عن شعور الاعتدال والرأفة فى حق تيمور ، لكن إحساس الاهتمام الكريم الذى يشيع فى كتابه التزوكات يبرىء ساحته ، مع ذلك انتقد فى موضوع آخر من كتابه تيمور بشدة ، وأعتقد أنه ربما هدته دراساته إلى أن هذا الأمبراطور المغولى بدل أن يكون آية للرحمة والسعادة البشرية كان سوطا للعقاب الإلهى ، وقد نقلنا فيما سبق رأى جون ملكم[١] ، ويقول أيضًا السير كليمنتز ماركهام Sir Clements[٢] : مع أن فتوحات تيمور سببت الشدائد والمصائب الكثيرة للبشرية لا يجب وصفه بالظلم والتخريف كما فعل ابن عربشاه Markham من الأعداء ، ولدينا أدلة تقضى إلى أنه كان ينظر إلى مقاصد ومطالب عالية ، وأن شهوة تملُّك الدنيا ليست وحدها سبب كل هذه القسوة ، ويقول أيضًا[٣] : مع أن اسم تيمور يذكر مقترنًا دائمًا لاسم جنكيز ، مع هذا لابد من القول إن جنكيز كان رجلاً عنيفًا ووحشيًا وبربريًا بينما توجد شواهد على أن تيمور كان ذا بصيرة واطلاع على أغلب العلوم الرائجة فى عصره وبلاده . أما فيما يتعلق بحياة تيمور الشخصية فيقل الخلاف بين الآراء ، فقد سجل مذابحه ومجازره ومنارات الجماجم التى كان يقيمها المؤرخون والمادحون له فى عهده مثل : شرف الدين اليزدى ونظام الشامى وكذلك أعداؤه مثل ابن عربشاه ، الفارق هو أن الجماعة الأولى كانت تعد هذه الأعمال والتصرفات مظهرًا للجلال الإلهى ، وكانت الجماعة الثانية تعدها تجليا لشقاوة إبليس ، وأزعم أن رأى الجماعة الثانية أكثر منطقًا وبداهة ، أما فيما يتصل بكتاب التزوكات الذى يبرر بنوع من الفلسفة أعماله الوحشية وفظائعه فأنا أميل إلى رأى (رنييه) المنطقى وأعده مزورًا وملفقًا عليه[٤] .

(١) تاريخ السيرجون ملكم ، ص ١٨٢ – ٣ .
(٢) تاريخ فارس ، ص ٢١٩ .
(٣) تاريخ ص ٢٢٠ ، وكذلك فى الفصل الذى كتبه فى حياة تيمور فى مقدمة عن رحلة سفير إسبانيا كلافيجو .
(٤) فهرس الكتب الفارسية ، ص ١٧٨ .

مجموعة مراسلات فريدون بكر المنشيء

وقبل أن ننهى هذا المختصر من سيرة تيمور لابد من الإشارة إلى الرسائل التى تبادلها مع السلطان بايزيد العثمانى وغيره ، وسواد هذه المراسلات يوجد فى مجموعة مهمة من الكتابات الحكومية المعروفة[1] باسم منشآت فريدون بك ، وطبعت هذه المجموعة فى القسطنطينية فى جمادى الثانية ١٢٧٤هـ / فبراير ١٨٥٨م فى مجلدين ، ومؤلف هذه المجموعة – وهو أحمد فريدون الملقب بالتوقيعى – كان يعيش أواسط القرن العاشر الهجرى المطابق للسادس عشر الميلادى ومجمع هذه المنشآت أو الرسائل الإنشائية عام ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م ، وبالإضافة إليها فله كتاب فى التاريخ اسمه نزهة

(١) فى شرح سيرة تيمور وأعماله لوحظ أن هذا الرجل التترى مع كل سوءاته ووحشيته كان معجبًا كثيرًا بالصدق فى المقال والفعال كان يكره الكذب ، ذكر أنه جعل شعار عبارة (الصدق منح) ، بالفارسية (راستى رستى) شعاره ونقشها على نص خاتمه العبارة نفسها وثلاث دوائر متوالية وهى العلامة الخاصة بالسلطة التيمورية ، ويكتب صاحب عجائب المقدور وهو خصم له فى هذا الموضوع : وكان تيمور لا يحب المزاج والكذب ولا يشتمل اللهو واللعب ، يعجبه الصدق ولو كان فيه يسيئه ولا يأس على ما فات ولا يفرح بما يجيئه ، وكان نقش خاتمه (راستى رستى) (يعنى صدقت نجوت) عجائب المقدور ، ص ٢٠٩ ، وقد أيد هذا الموضوع غيره من المؤرخين أيضًا فقط ذكر شرف الدين فى عقب كلامه على توجهه لغزو الهند (وكان راجات الهند تنورت ضمائرهم بسواد الرأى ، ولم يخلصوا فى قبولهم دفع أموال الأمان وأداء المال وانحرفوا عن الصدق الذى هو بشهادة خاتم الملك المبارك سبب النجاة ..) ، ويكتب أيضًا غياث الدين اليزدى فى يوميات غزوات الهند فى مقدمة : (مر النكتة واللطيفة هى أنه أسس ديباجته على الآية الكريمة والعلامة الهمايونية لسان الصدق) (من يوميات الغزوات طبعة بطروجراد) ، ويظهر من مسيرة تيمور أنه كان يتوقع دومًا من رعيته والعلماء والأمراء ورجاله أن يتحدثوا معه بصدق ويتجنبوا كتمان الحق بسبب الخوف والفزع والمرافهة والنفاق ، وهذا هو أحد أسباب ظفره فى الحروب وحصه الفتوحات العجيبة ، وقد نظم كاتب هذه الحواشى قصة نقش خاتم تيمور فى أحد الأوقات وهى :

سمعت أن تيمور الأمير الكبير ... استولى العالم بسيف الجلادة
طوى طريق العزة بقدم السعادة ... ودق باب الدين بيد الحب
أخذ جميع بلاد إيران وطوران والروم ... بل وزاد عليها أيضًا
ولو أخذ سائر الأرض ... لا تعجب فهذا بسبب رشده
لقد حصل هذا الظفر بسبب صدقه ... إذ إنه تعود الصدق
كان يقول لو صدقت نجوت ... وبهذه المقولة حاز مجد السيادة
كما أنه نقش هذه العبارة على فص خاتمه ... وأخذ خظ السعادة من ذاك النفس

الأخبار ، ويشمل المجلد الأول من كتاب المنشآت على المكتوبات الحكومية الرسمية التى يبدأ تاريخها من عهد النبى ﷺ (القرن السابع الميلادى) إلى أواسط السادس عشر ، ويحوى ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير ، ومن بينها الرسائل التى كتبها أو تلقائها من ص ١١٨ إلى ١٤٢ كالتالى :

فهرس المراسلات الرسمية الخاصة بتيمور

(١) مكتوب قره يوسف إلى السلطان بايزيد بالفارسية وبدون تاريخ ، يشكو فيه اعتداء تيمور وتعديه وعبر عنه العبارة (مهيج نار الشر والشرور ، محرك سلسلة الفتنة والغرور تيمور المقهور دمره الله وقهره) وبعد ذلك استمد السلطان بايزيد لدفعه ، ص ١٨٨ .

(٢) جواب السلطان بايزيد على المكتوب السابق بالفارسية وبدون تاريخ ، ص ١١٩ .

(٣) مراسلة تيمور لبايزيد بالعربية وبدون تاريخ طلب فيها آمراً ألا يجبر قره يوسف التركمانى والسلطان أحمد جلاير لو سلك السلطان العثمانى خلاف ما يأمر فليستعد إلى قهره وغضبه ، ص ١٢١ .

(٤) جواب السلطان بايزيد على المكتوب السابق بالعربية أيضاً ، وبدون تاريخ ، وبدايتها بعد الخطبة والحمد والثناء تبدأ بـ (أعلم أيها الكلب العقور الموسوم بالتيمور فهو أكفر من الملك التكفور) وهدده بعبارات قبيحة أن يبادر بالهجوم لو كانت لديه الجرأة على ذلك ، ص ١٢١ .

(٥) رسالة السلطان أحمد جلاير البغدادى إلى السلطان بايزيد بالفارسية وبدون تاريخ ، وفيها يبين كاتبهما كيف أنه فر بعد فتح بغداد والعراقين على يد تيمور إلى ملطية وسيواس ، وأنه انتظر بناء على تعليمات السلطان بايزيد مجىء قرايوسف وكيف أنهما بتحالفهما هاجما جنود الأوزيك وهم طليعة جند تيمور وأبادوهما ، لكن من المؤكد أنهما سوف يتوقعان هجوم الجيش العظيم لتيمور بمجرد أن تصله أخبار الهزيمة السابقة ، ص ١٢٤ .

(٦) إجابة بايزيد على الرسالة السابقة ، والتى يعلن فيها أنه ما إن وصلت الأخبار من السلطان أحمد عقد صلحاً مع التكفور (الإمبراطور البيزنطى) وتوجه بقواته نحو ترقات لكى يساعده للحيلولة دون حملات تيمور ، وتاريخ هذه الرسالة هو شهر شعبان عام ٧٩٨هـ / مايو ١٣٩٦م ، ص ١٢٥ .

(٧) رسالة الأمير تيمور إلى بايزيد بالفارسية وبدون تاريخ ، وتبدأ بالسلام والتحية المشوبة بالعتاب ويصف فيها كيف أن صاحب الرسالة قضى أربعين عاماً فى فتح البلاد وقمع الأعادى وأنه أتى إلى سيواس ، وإذ ذاك يلوم الخصوم بسبب عجزهم عن فتح ملاطية وسينسوب ، ومع هذا فهو مستعد لأن يصالح السلطان لأنه لا يود أن ينتهى الخلاف بين سلاطين الإسلام إلى مصلحة الكفار الفرنجة فيعتدون على بلاد المسلمين ثم يفخر بآخر رسالة بانتسابه إلى طائفة الإيلخانيين ، ويطلب من السلطان أن يكتب له جواباً سريعاً ومسالماً ، ص ١٢٦ .

(٨) إجابة السلطان بايزيد على الرسالة بالفارسية وبدون تاريخ ، يتباهى بها كاتبها بشجاعة الأتراك وبطولتهم الحربية ، ويذكر تيمور كيف أن جده الأعلى أرطغرل أباد بثلاثمائة فارس عشرة آلاف من الجنود المغول والتتار الوثنيين ، ثم يفاخر بهذه الأعمال الجريئة لأجداده ، ويعد نفسه حارساً للمسلمين ، ويظهر أن أحداً من الأسرة العثمانية حتى ذاك العهد لم يعامل عدوه بالتملق والمراهنة ولم يتسلح بسلاح الخدعة والتزوير ، ص ١٢٨ .

(٩) وصول رسالة السلطان المرسلة مع القاضى فرير الدين وشخص آخر يسمى النجاشى ويطلب فيها الصداقة والاتحاد ، وفى هذه الرسالة أشار تيمور إلى حرب الشام وإلى ادعاء سلاطين مصر الذين يلقبون أنفسهم بلقب (سلطان الحرمين الشريفين) ويشكو أيضاً من عدم عودة السلطان أحمد جلاير إلى بغداد ، ص ١٢٨ .

(١٠) إجابة السلطان بايزيد على الرسالة السابقة بالفارسية ، والتى حررت بلهجة أكثر أدباً من الرسائل السابقة ، لكنه يرفض بنحو حاسم وأكيد تسليم أحمد جلاير قره يوسف ويبين أن هذا الفعل يخالف سيرة آل عثمان وسنتهم فى إكرام الضيف ، ويشير فيها إلى أن الخليفة الشرعى لرسول الإسلام وهو من سلالة العباسيين لا يزال مقيماً بمصر ، ثم يطلب من تيمور أن يخلى سيواس إذا كان لا يقصد الحرب والخصومة ، ص ١٣١ .

(١١) الرسالة الرابعة من تيمور إلى بايزيد ، وبها يباهى بأسلافه وبمذهبه وهو طريق السنة والجماعة ويذم أفعال أحمد جلاير وقره يوسف ، ويطلب من السلطان العثمانى أن يعتذر عما سلف منه ويطرد عنه هذين الشخصين ، ص ١٣٢ .

(١٢) إجابة السلطان بايزيد على الرسالة السابقة ، ص ١٣٤ .

(١٣) رسالة الشاه منصور ابن أخى الشاه شجاع المظفرى حاكم شيراز إلى السلطان بايزيد بالفارسية ، والمؤرخة بذى القعدة ٨٠٢هـ / يوليو ١٤٠٠م [١] ؛ وفيها يشكو شرور تيمور حيله وغدره ويصف فظائعه بقول على كل لسان هذه الواقعة المذيبة للأنفس همًا لهؤلاء الملاعين الجفتائيين ، ص ١٣٥ .

(١٤) إجابة بايزيد على الرسالة السابقة ، والتى سب فيها تيمور ، وأشار إلى الفظائع والجرائم التى ارتكبها فى فارس وشيراز ، ويظهر أنه مستعد لأن يتخلى من أجل دفع تيمور عن فتح قلعة القسطنطينية التى عزم همته إذ ذاك له . ص ١٣٩ .

(١٥) الرسالة الخامس من تيمور لبايزيد بالفارسية ، وكتبها من مراغة وبدون تاريخ وأشار فيها إلى فتح بغداد ، ثم يستشهد بهذا الشعر :

عند الكبار وعند الصغار

لا تساوى الدنيا إيذاء غلة

وتحت عبارته المنمقة يهدده بأن مثل هذا سوف يقع منه إذا هو أصر على قوله ، ولم يجب مطلبه . ص ١٤٠ .

وهنا تنتهى مجموعة المراسلات التى تُبودلت بين تيمور وبايزيد وجمعها فريدون بك ، وفى آخر هذه المقالة يلزم إضافة أن جثمان تيمور بعد أن عبروا به من فوق نهر خجند المتجمد ليلة ١٩ فبراير ١٤٠٥م وصل سمرقند بعد ذاك بأربعة أيام ، وانتهى موضوع الهجوم على الصين لحسن حظ سكانها .

(١) تاريخ هذه الرسالة والمقيد على أنه ٨٠٢هـ يبدو أنه خاطئ ، ولم ينتبه إليه المرحوم براون لأن واقعة هجوم تيمور على شيراز ، وقتل الشاه منصور حدث فى عام ٧٩٥هـ ، ويمكن أن يكون قد حدث سهو فثبت فريدون بك تاريخ هذه الرسالة ، ويبدو أن هذه الرسالة كتبت فى المدة الفاصلة بين الهجوم الأول لتيمور على شيراز عام ٧٨٩هـ وهجوم الثانى عليها فى ٧٩٥هـ ، ويمكن أن يكون تاريخها هو ٧٩٢هـ .

الفصل الخامس

الشعراء والكتاب فى عصر تيمور

الحكومة المستقرة والثابتة لا تخلق دائماً الشعر الجيد

سبق أن ذكرنا هذه النقطة ، وهى من المصادفات النادرة ، ولكن لا يمكن نكرانها ، وهى أن عهود القلاقل والثورات فى إيران أوجدت دائمًا أفضل الشعر الفارسى وأجمله ، بينما فى أيام الدعة والسكون حين تقع البلاد تحت إدارة حكومة مستقرة كان الميدان الأدبى يسبب خلواً من الجمال تماماً .

وفى عصر التاريخ الحديث لم تصب إيران فى أى عهد ما بلغته من اقتدار واتحاد ورخاء فى عهد الحكم الصفوى (١٥٠٢ - ١٧٣٦م) خاصة خلال القرن السادس عشر الميلادى بأكمله ؛ إذ بلغت إيران إلى ذروة عظمتها ، لكن مع أن إيران كانت تحيا فى ذلك العهد زمانًا لامعًا ليس فى القدرة العسكرية والوحدة الوطنية والتجارة وحسب بل فى الفنون خاصة المعمار والنقش ، وفى العلوم خاصة علم الكلام ، لكن لم يظهر فى ميدان الشعر والأدب فى العصر الصفوى شاعر يتمتع بالقريحة المشتعلة أو آخر حاز شهرة عالمية ، ولهذه الظاهرة أسباب وعلل سوف نبحثها حين نتحدث عن تاريخ العصر الصفوى .

من ناحية أخرى ، فهذا العصر والزمان الذى نبحث الآن جانبه الأدبى - كما عرفنا بحد الكفاية فى الفصل السابق - هو أحد عصور الفوضى التى تفيض بالثورات وسفك الدماء والشقاء لإيران ، مع ذلك فقد قل عصر ازدان بوجود الشعراء المشاهير مثل هذا العصر الذى لم يطل أكثر من سبعين عامًا (١٣٣٥ - ١٤٠٥م) ، فهذه المدة تجمع شعراء ذوى فهم وقريحة من بينهم حافظ الشيرازى الأشد إشعاعًا ونوراً من نجوم تلك السماء جميعها ، محتمل أن وجود بلاطات صغيرة لسلاطين متعددة محليين كان

ينافس القرائح الشعرية وتكاملها ؛ لأن كل شاعر حين لا يقارب الحظ والإقبال لدى ممدوح أو فى بلاط ملك كان بإمكانه - بيسر - الانتقال من هذا البلاط إلى آخر فيجد به من يشترى بقبول عظيم بضاعته الأدبية .

الأوضاع المضطربة بإيران من زوال المغول حتى ظهور تيمور

لهذا الجانب كانت إيران بعد سقوط قوة المغول مباشرة وقبل هجوم تيمور ميدانًا متسعًا يجول فيه الشعراء من كل ناحية وطرف ويصولون ويظهرون فضلهم ، لأن ملوك الكرت كانوا يحكمون فى الشمال الشرقى مركزهم هو هراة ، وكانت الأسرة السربدارية صاحبة القدرة ، فى سبزوار والنواحى المجاورة لها ، وكان للسلاطين الإيلكانيين، الشيخ حسن الكبير وابنه السلطان أويس وأعقابهما ملك بيضاوى الشكل فى منطقة كان مركزها الشمالى تبريز ومركزها الجنوبى بغداد[1] ، وفى تلك الأيام نفسها قسم جنوب إيران ما بين أمراء الأسرة المظفرية ، وكان غالبهم يعيش مستقلاً ودائم الصراع

(١) من آثار العصر الإيكانى - الجلايرى - بالنثر البديع الفارسى نسختان أبيضتان رأيتهما فى المكتبة الوطنية بطهران لا يمكن إغضاء الطرف عنها ، وبما أن كليهما مصدر باسم سلاطين هذه الأسرة فالحرىّ أن نشر فى هذا الموضوع لكل منهما :

أولاً : رياض الملوك فى رياضيات السلوك - مؤلفه نظام تبريزى الشعر والكاتب وهو من الندماء الخواص للسلطان الأويسى ، ووشح هذا الكتاب باسمه ، ونظم شعرًا بليغًا فى ديباجة وقصيدة غراء فى خاتمته فى مدح ذاك الملك ، وكما يستفاد من عبارة الكتاب فقد كان لدى المؤلف فى بداية عمره تحمس لقراءة نوادر الكتب والأمثال بحد وافر ، ففكر فى تأليف كتاب على الطراز نفسه ، ويبدو أن هذا التفكير قد بدأ فى الثامنة والعشرين من عمره إلى أن نال فى بغداد مطالعة كتاب (سلوان المطاع فى عنوان الاتباع لابن الفقر الصقلى المكى المولد فى ٤٩٧هـ والمتوفى فى ٥٦٥هـ ، راجع وفيات الأعيان وبغية الوعاة) فكاسه مع تغييرات عدة برداء الفارسية وعرض على السلطات فى بغداد فاستقبله بحسن القبول وجعله فى سلك ندمائه الخواص حتى إنها بعد سنوات عدة ، ثم ألحق به خاتمة ، فشمل مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة وذكر المترجم اسم المؤلف شيخ الإسلام عز الدين ركن الإسلام شرف الأئمة أبو هاشم محمد بن ظفر المغربى ، ويقول فى الخاتمة هذا العهد حين وضع زمام حل البلاد الإسلامية وعقدها وقبضها وبسطها فى قبضة تسخين الملك المظفر والمجد السلطان الأعظم شيخ أويس بها درخان ، يقول العبد المتقر نظام أنه اختص من عهد الصبا بحرارة العناية والاهتمام من تلك الحضرة فتقدم بنظرة ملوكية عن قرنائه بقدم التقدم وتقرب إلى تلك الحضرة وترجم كتاب السلوان وعرض دباجة فى بغداد فى سنة ٧٦٨هـ على عز عرض المهايون ، وما حدث من =

مع أخيه وابن عمه وحكموا فى شيراز وأصفهان ويزد وكرمان ، هذه الإمارات الصغيرة والضئيلة لم يكن يفصلها إحداها عن الأخرى أى حد واضح ، ولم يكن ممكنًا وضع خريطة ثابتة تحدد حدود هذه الأجزاء من السلطان المنسابة والمتغيرة ، بل لو أردنا أن نكتب عن الجغرافيا السياسية لإيران فى هذا العهد فلابد من الأخذ فى النظر سبعة أو ثمانية مراكز كان يشع من كل منها أشعة متغيرة متفاوتة القوة والضعف على كل طرف ، وعلى قدر قوة هؤلاء الأمراء المقاتلين ونفوذهم وكانوا أصحاب تلك المراكز كان يمزج شعراء عصرهم فتوحاتهم وأعمالهم العنيفة بلغة الشعر والأدب الرقيقة وينشرونها إلى كل حدب وصوب .

= تأخير من ذلك الوقت حتى الآن كان بسبب موانع الأيام وشوغل الحدثان بأقصى ما يكون ، والآن وصلت هذه الغادة الفتاة إلى محل الظهور من كتم العدم قتلاً يمين وزبان نام وفوائد السلوك ، وهذا الكتاب فى إنشائه كثير التكلف ومؤلف على أسلوب جهابخشا الجوينى ومرزبان نامه، ونسخة الموجودة مكتوبة بخط النسخ القريب من الثلث فى ١٠٢١هـ .

ثانيًا : كتاب (بلوهر وبيو قرشف) ومؤلفه فيما يبدو هو المؤلف السابق نفسه أى النظام التبريزى : إذ يقول بعد الخطة (وتفتح أشجار هذا البستان ومنقح أزهار هذه الرياض ومقصر أذيال هذا الخطاب ومختصر إطناب هذا الكتاب هو نظام تغمده الله بغفرانه .. إلخ) ، وهو تنقيح وتلخيص الكتاب الكبير بلوهر وبيوديف وترجم من العربية إلى الفارسية لكن اسم المترجم لم يرد بالنسخة الموجودة وبقى موضعه مبيضًا فاصدف نظام هذا الكتاب فى مكتبة السلطان ، ولما كانت عبارته بإطناب ممل قصر همته على تخلص وإيجازه ووشحه باسم السلطان أحمد بهادر خان وألف تأمر السلطان عليه ديباجة لكى يحيط الجميع بمقصودنا من هذا الاختصار .. وتنقل هنا نموذجًا لا يخلو من الفكاهة ما ذكره فى باب تكلف الأمل وهو حكاية هى : ولا تخفى أمثال هذه التكلفات غير السابق على البغاء الكاملين والمتقدمين الماهرين أن لنا تسامحًا كبيرًا إزاءها ، وأن التقيد بها يمنع كثيرًا إطلاق مركب الكلام (حكايات) وهذه القصة بالأمر أشبه ، وهى أن عظيمًا كان يدعى الشعر قال فى حق ممدوحة : يا من كفك يحسده بحر النيل وطبعك تغارض عين السلسبيل أحباؤك فى ملجأ نعم الوكيل وأعداؤك قال فيهم الحق (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، وكان أحد الظرفاء حاضرًا فقال : المصراع الأخير أطول من نهر النيل وأثقل من وجود الفيل فقال اقتصرت على هذا السبب الاختصار ولو أسرعت بحصان النظم فى ميدان الإطناب لختمت المصراع بقوله تعالى (كعصف مأكيل) فقال ليس ماكيل بل مأكول ومفك أمثال هذه الهفوات غير مأمول ، فأجاب متفكها ذكرك بخير ألم تسمع أيجوز للشاعر ما لا يجوز للغير !!

والمحتمل أن النظام مؤلف هذين الكتابين هو النظام صاحب ظفرنامه نفسه وهذه النسخة كتبت بقلم محمد ابن محمد المشتهر بمهام الطيب بخط النسخ عام (٨١٠هـ) ، ولم نذكرها هنا بسبب لنقص تاريخ النشر الفارسى وإنما نظرًا لأنها تستحق المطالعة والبحث للوقوف على تاريخ الفكر والعقيدة فى إيران خاصة من ناحية نفوذ العقائد البوذية .

شعر هذا العصر من ناحية الكم والكيف

يجدر بالذكــر على الأقــل نحو عشــرة شعــراء من بين شعراء هذا العصر ؛ إذ يستلفتون الاهتمام سواء من ناحية ابتكارهم فى أسلوب الكلام وجمال القول أم من ناحية الشهرة التى حازوها فى سائر وطنهم ، ولا يجب القول إن هاتين السمتين تنضمان بالضرورة فى شاعر واحد بل إن واحدة منهما – بزعمى – كافية لكى تجعل الرجل شاعراً مبرزاً .

ويلزم للدارس الأجنبى أن يكون دائماً فى حكمه نوع من التردد ولا مندوحة له من أن يتذكر – على الدوام – أن من المحال عليه مهما بذل من سعى أن يصل إلى قوة ذوق الدارســين الوطنيــين وتمييزهم ، ولابد من الأخذ فى النظر هذه النقطة أيضاً ، ولا تعنى غير أن شاعراً له بين أهل وطنه لمدة قرون عديدة كامل الشهرة وحسن الصيت قطعاً له هذا الكمال الذى يتوجب النظر إليه بنظر الاهتمام والاحترام .

هذه النقاط تشمل حالة شعراء الغزل مثل خواجو وعماد الكرمانى وكمال الخجندى وجميعهم أمام المقام العالى لحافظ يفقدون قوة الإبداع الفائق ، ومع أن أسلوب الشعر عند كل من هؤلاء الثلاثة خلو من الشبه بحافظ لكن لا يجب أن ننسى أن الأول مات قبل حافظ بسبع وثلاثين سنة ، والثانى بثمانى عشرة سنة ، ومن هنا فقد مهد الطريق إلى ظهور أشعاره السابقة ، وكانت عظمة الثالث أى كماله وعلوه من الحد أن حافظ نفسه الذى عاصره قد يشهد بهما فى قوله :

أن اسمع حافظ فقد تمتع غزلياته النضرة والفاتنة ، ومهما كان مالها فلا يقول الخجندى إنها شعر ، من ناحية أخرى فقد تمتع بعض الشعراء مثل عبيد الزاكانى وأبو أسحاق شاعر الأطعمة بالذوق فى الابتكار والقوة فى الإبداع وسواء دان مواطنوهم لهم بالاحترام اللائق أم لم يدينوا لهم به ، فلا يجب أن يلقوا عن دارسى الأدب الفارسى الإهمال والنسيان .

عدم الاعتبار والثقة بكلام أصحاب السير والتذاكر

بناء على ما تقدم فقد أزمعت الحديث فى هذا عن الشعراء السابق ذكرهم وأرتب الحديث عنهم بحسب التاريخ وليس بسبب أهمية منزلة كل مهم وعظمة قدره ، ومع هذا سوف يكون الترتيب التاريخى تقريبًا أيضًا لأن فى كثير من المواطن لم يذكر غير وفاة الشاعر بل إن هذا التاريخ كان غالبًا غير محقق ، ولا ندرى هل مات الشاعر فى شبابه أو فى شيخوخته ، حقًا مع أن سيرة شعراء عديدين وردت عند دولت شاه وغيره مثل آنشكده وهفت إقليم الكتب المعروفة الأخرى فلا تزال معلوماتنا المؤكدة المحكمة قليلة حول تفاصيل حياتهم وخصوصياتها مثل تاريخ مولدهم ووفاتهم وأخلاقهم وصفاتهم وكثير من الرويات المنقولة عنهم فى هذه المصادر أمًا أنها عامية ومبُتذلة ، أو أساطير ومزورة إلا ما يمكن استخلاصه من أشعار الشاعر نفسه وكلامه (حين يكون بأيدينا نسخة مطبوعة ومنتقدة صحيحة) ، إذن فلابد من الاعتراف بأن معلوماتنا عن سيرة كثير من الشعراء قليلة وناقصة[١] ؛ لأن مثل هؤلاء الشعراء كانوا غالبًا فقراء مجهولين غير معروفين فى الهيئة الاجتماعية لعصرهم ، وخلا ذهن المؤرخين المعاصرين عن أحوالهم تمامًا ، لكن شهرتهم وصيتهم ظهرت فى القرون التالية حين وقع الاختلاف على فضائلهم وفنونهم ، فنسجوا من وحى خيالهم كثيراً من الوقائع والحكايات المتبذلة عن سيرهم ، ويبدو أن أغلب هذه الحكايات قد اخترعوها حين أرادوا شرح بعض كلماتهم وتفسير بعض أشعارهم ، ويمكن وحسب أن نستثنى كتابًا واحدًا من بين هذه الكتب التذاكر وطبقات الرجال وسيرهم وهو نسخة مخطوطة تسمى (المجمل) تأليف الفصيحى الخوافى ،

(١) فى مكتبة بلدية أصفهان مجموعة نفسية مخطوطة فى نسخة للأشعار المخطوطة فى أصفهان رتبها أحد وزراء القرن الثامن الهجرى وأن يسكن شيراز تاج الدين على وتنقسم عدة أقسام يختص كل قسم منها وُجدُ من شعراء العصر نفسه وخطط خطاط على الورقة الأولى لك قسم بخط أحمر جلى بقلم الثالث اسم الشاعر وألقابه ألف عن أربعين من العظام فى هذا العصر من الوزراء والحكماء والفقهاء والشعراء والعرفاء وغيرهم لكل منهم عدة أوراق عن محفوظاته أو أشعاره وآثاره ، وقد أثبتو بالتدريج من أول شهر صفر ٧٨٢هـ حتى شوال من العام نفسه فى هذه السفينة من التذاكر ، ودونوا فيها ، ويحدد أن تطبع بالزنكوغراف هذه النسخة النفسية وهى من المصادر الأدبية لهذا العصر وتشمل غزليات لمحافظ وقطعات لابن يمين وغيرها .

وهذا التاريخ الحولى يشمل نحو ألف صفحة ألفت فى ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م وتشمل كثيراً من النقاط النادرة والموضوعات القيمة التى لا توجد فى أى مكان آخر ، خاصة فى تاريخ رجال خراسان عامة وهراة خاصة إذ يضم معلومات نفسية عنهم ، وعلى حدود علمى يوجد من هذا الكتاب ثلاثة نسخ فى أوروبا :

الأولى : فى سان بطرسبرج وصفها البارون فيكتور روزن فى ص ١١ فى فهرسه ، ودورن Dorn فى الجزء الثانى من الرسالة التى ألفها عن الكتب الموجودة فى سان بطرسبرج .

الثانية : نسخة – للأسف – ناقصة فى وسطها من أحداث عام ٧١٨هـ حتى ٨٤٠هـ وكانت فى السابق ملك الكولونيل رافرتى ، والآن هى ملك هيئة أمناء أوقاف جيب والنسخة الثالثة أكثر جدة لكنها أكثر كمالاً ويملكها السير هوتوم شندلر هى الآن تحت تصرفى[1] .

الشعراء موضع الدراسة فى هذا الفصل :

الشعراء الذين أرى أنهم يستحقون الدراسة هم :

(١) ابن يمين (متوفى عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٥ بقول دولت شاه) أو فى ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م بقول صاحب المجمل وهو الأكثر ثقة ، وقد عاصر هذا الشاعر الملوك السردارية بسبزوار .

(٢) خواجوى الكرمانى المتوفى ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م أو بقول دولت شاه فى ٧٤٢هـ / ١٣٤١م .

(٣) عبيد الزاكانى شاعر الهجاء الكبير وشاعر الفكاهة والمتوفى ٧٧٢هـ .

(١) توجد نسخة ناقصة لهذا الكتاب بخط الثلث تتعلق بمكتبة الفاضل المحب للكتب حاجى محمد نجوانى توجد حاليًا بطهران ، وقد اهتم بتصحيحها ونقدها وطبعها الأستاذ العالم محمد قزوينى .

(٤) عماد الكرمانى متوفى عام ٧٧٣هـ / ١٣٧٢م .

(٥) سلمان الساوجى متوفى عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٨ ؛ وهو مداح السلطان أويس وشاعر القصيدة .

(٦) حافظ الشيراز المتوفى عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م .

(٧) كمال الخجندى المتوفى عام ٧٩٣هـ / ١٣٩١م أو ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م .

(٨) المغربى الصوفى المتوفى عام ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م .

(٩) أبو إسحاق الشيرازى شاعر الأطعمة أو (بسحق) المتوفى عام ٨١٤هـ / ١٤١٦م .

(١٠) نظام الدين محمود القارئ اليزدى شاعر الألبة ، وسوف نفصل القول فى كل شاعر من هؤلاء الشعراء حسب ترتيبهم هذا .

الأمير محمود بن الأمير يمين الدين الطفرانى[1]

مع أن إشارات وردت فى تذكرة دولت شاه وهفت إقليم وآتشكده ومجمع الفصحاء وغيرها عن هذا الشاعر وأبيه يمين الدين الذى عرف ابنه ابن يمين باسمه فإن بعض معلومات أخرى صارت معلومة وغالبها منقول عن الكتاب النادر (المجمل) للفصيحى

(١) عد المرحوم براون ابن يمين شاعر للسربدارية وملوك كرت بينما يوجد فى ديوانة قطع تشير إلى الشاعر كان على صلة قوية أيضاً بالخواجة غياب الدين محمد بن رشيد الدين الوزير ، وحين قدم إلى تبريز إليه مدحه حين طلب الوزير أن تكتب ديباجة لكتابة (السفينة) ، وفى وضع آخر طلب الشاعر من الوزير حصاناً وهذه واحدة من تلك القطع للتمثيل :

وزير الإقليم الرابع غياث الدولة والدين	من عقله يزين مائة بلد
هل يجوز فى أيام دولة واحد مثلك	أن يبلى الزمان واحداً مثلى بالهجوم ؟
لا فوت للمرء من خمسة أشياء وهى الضان	والشعير والقش والدقيق والحطب
قلت إن هذا راتبك لكن ما الفائدة	ولا يتحقق شيء منها بسبب النائب والحاجب ؟
ضميرك نظيف مثل حالتى أنا العبد	فيجدر إلا أصدع رأسى بذكرها
والآن بما أن أمراً لى لم يستقم هنا	فاليق بى لو أذنت أن تسمح لى بالرموع

=

الخوافى ، فيذكر هذا الكتاب ابن يمين فى مواضع ثلاثة : فى ذيل سنوات ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م ، وفى عام ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م عام وفاته ، وهذا هو ما كتبه فى الموضع الأول ويتصل بابن يمين : سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة – حرب الملك معز الدين أبو الحسين محمد كرت مع وجيه الدين مسعود السربدارى والشيخ حسن الجورى فيما بين زاوه وخواف ، وقتل الشيخ حسن الجورى على يد أتباع وجيه الدين مسعود المذكور فى ثالث عشر صفر وفرار وجيه الدين مسعود المذكور .

غياب ديوان المرحوم الأمير فخر الحق والدين محمود بن يمين المستوفى الفريومدى الذى نهب فى الحرب المذكورة .

سقط فى قبضة المغيرين ولم يعثر أحد بعد ذلك على أثر له

ونظم الأمير فخر الدين محمود – المذكور – قطعة فى سبزوار ، وأرسل بها إلى الملك معز الدين أبى الحسين محمد كرت والقطعة هذه :

إن أخذ الفلك بيديه ديوانى من يدى

فإن الذى كان ينظم ديوانى هو شكرى لله وهو صفتى

ولو اختطف الزمان منى سلك الدر الملكى

لكنى لا أبالى من الحزن عليه لأن الدواء معى

ولو أن الرياح خطفت وردة من غصن شجرة ورد فضلى

فإنه روضة مليئة بالشقائق والنسرين الريحان معى

ولو خلا صدفة واحدة ملكى من اللؤلاء المتلالىء

فإن لدى خاطراً يمتلىء بالجواهر مثل بحر عمان

= ويحوى ديوان ابن يمين على قدر عظيم من القطع والرباعيات صححها ، وقد تم لها شكوراً السيد سعيد نفيس وطبع الديوان عام ١٣١٨هـ . ش ، ويضم موضوعات كثيرة الفائدة والندارة ، كما نشر رشيد باسمى رسالة بديعة عن ابن يمين وحياته وآثاره فى طهران عام ١٣٠٣ هـ . ش .

أى هم لو ضاعت قطرات عديدة من رشاش قلمى

ولى خاطر فياض مثل أمطار نيسان

ولو حملت الرياح ماء شعرى العذب كما تحمل الرماد

فهذا أمر يسير لأن عين ماء الحياة معى

ولو حزن قلبى بسبب ضياع ديوانى

فلم الحزن ولدى طبع ينشر الجواهر ؟[1]

ولو انتشر الثناء على ملك العالم مثل صيت عدله

فى العالم فإن الطبع الذى ينشىء الثناء معى

ومع أنى أستطيع ديوانًا آخر فإن

حاصل عمرى صار هباءً ، والحزن عليه بداخلى

ولماذا أخشى الفلك الدون حين لا يهتم بى

طالما أن اهتمامات ملك الزمان لى ؟

الملك العادل معز الدين ، الذى يقول إن قدره

من جلاله يسع ما فى الإمكان معى

هدايا ملك العهد وعطاياه المعظمة لى

من جملة الأقران فى كل حال

(١) ويضيف الديان طبعة طهران عام ١٣١٨ هـ ش هذا البيت :

ولو انفصلت الأعراض النفسية عن ذاتى فإن الجوهر الذى هو النوع الإنسانى معى

هـو الـذى يـقـــول لـى مـــتـلـطـفـًـــا اهـنـــأ بـالاً

أيـهـــا الـنـجـــيـب ابـن يمـين فـــأجـــزاء ديـوانـك مـــعـى

انقـضـى الـعـــمـــر فـى ســعـــادة فـليـظـــــل إلـى الأبـد

وردى أنا الـعــبـــد هو الـدعـــاء عـلـى الملك مـن قـلـبى

ورغم بحثه عن ديوانه لم يجده وجمع كل ما له من شعر كان أثبته الكبار أو وعاه غيرهم وما نظمه بعد هذا :

لكى ينتظم عقد أشعارى المتفرقة كالدب الأكبر فى نظام متسق كالثريا

كان هذا أول موضوع تحدث فيه مجمل الفصيحى عن ابن يمين .

والموضوع الثانى مختصر جداً ، ذكر وحسب واقعة وفاة ابن يمين فى الثامن من جمادى الثانى عام ٧٦٩هـ / ٣٠ يناير ١٣٦٨م كما أثبت مـــادة تاريخ وفـاته قـــائلاً وفاة الأمير فخر الدين محمود بن الأمير يمين المستوفى الشاعر فى الثامن من جمادى الأخرة السنة المذكورة .

فـى تـاريـخ تـسـع وسـتـين وسـبـعــمـــائـة مـن الـهـجـــرة

فـى يـوم الـســبـت الـثـــامـن مـن شـــهــر جـمـــادى الأخـــرى

قال رضوان للحور : قمن واستقبلن ابن يمين وانصبن له خيمة فى متع الجنة : ويروى عنه أيضًا رباعيًا نظمه فى حالة النزع :

لا تـــنـظـــر إلـــى أن ابـن يمـين فـــاضـل قـلـبـــــه بـالـــدم

انـظــر إلـى أنـه كـــيـف خــرج مـن هـذه الـدار الـفـــانـيـــة

المصـحف بيده وعـينه على الطريق ووجه على الحبيب

وخــــــرج وهــــو يــضــــحـك مــع رســــول الأجـــل

ويذكر دولت شاه فى الطبقة الخامسة فى كتابه (الرقم السادس والسابع) الشاعر وأباه ، وينقل عن الأمير يمين الدين أبى الشاعر قطعة لطيفة تحوى أربعة عشر بيتًا ويحدد تاريخ وفاته بعام ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م أصل ، فحسبما يذكر : ينحدر أبو الشاعر من أصل تركى ، وفى عهد حكم محمد خدابنده السلطان الإيلخانى اشترى فى مدينة فريومد الأملاك والعقارات وتوطن بها وولد ابنه الأمير محمد فى عهد السلطان أبى سعيد ، الذى كان يراعى جانب أبى الشاعر ويحترمه ، وقد قتل هذا الوزير فى عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م بالقرب من أستراباد ، بيد السربدارية ، لكنه لم يفصل فى ذكر الشاعر إلا أنه كان مادحًا السربدارية ، وهذا الأمر نفسه موضع شك ، وإنه توفى عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م[1] (ويمكن القول إن هذا التاريخ خاطئ أيضًا) ، ثم يكتب بمناسبة وفاته شرحًا مسهبًا بشكل ذكر اعتراضى فى نحو عشرة صفحات عن تاريخ أسرة السربدارية الصغيرة التى دامت نحو خمسين عامًا ثم سقطت فى عام ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م على يد تيمور .

ولا تزودنا المصادر الأخرى - وهى هفت إقليم وآتشكده ومجمع الفصحاء - أكثر مما سبق من معلومات اللهم إلا ما يذكره الكتاب الأخير من أنه شاعر مادح لطف تيمور خان ، ونظرًا لفقد ديوانه - كما سبق القول فلا - يمكن القطع فى مسألة من كل يمدحه ، ومن الذى كان يعيش فى كنف حمايته .

أشعار ابن يمين ومضمونها

كافة آثار ابن يمين هى مجموعة من القطع يغلب عليها المعانى الفلسفية والأخلاقية والعرفانية ، وقد طبعت هذه المجموعة مرة واحدة عام ١٨٦٥ فى كلكتا ، وأنا شخصيًا لدى نسخة كثيرة الجمال وحسن الخط من نسخها وتاريخ كتابتها ٥ رجب ٨٨١هـ / ٢٤ أكتوبر ١٤٧٦م ، كما طبعت الترجمة الألمانية لغالب شعره ، والتى قبام بها شلشتا

(١) نقلاً عن نسخة المجمل ملك السيد نجوانى .

فسهرد Schlechla - Wssehsd (فى فينا عام ١٨٥٢م ، وتشمل ١٦٤ من قطعة) ، والقطعة الآتية فى معنى تكامل الروح فى عداد أفضل شعره وأشهر :

نصبت من كتم العدم خيمتى بصحراء الوجود

وسافرت من الجمادية إلى النباتية وانتهى هذا السفر

وبعد هذا انجذبت إلى الطبع الحيوانى

فلما أدركته جاوزته ومضى

وبعد ذلك جعلت قطرة وجودى جوهرة

فى الصدفة الصافية لصدر الإنسانية وانتهر هذا الأمرْ

ثم طفت مع الملائكة بعد ذلك حول الصومعة

وتمعنت النظر ، وانتهى هذا الأمر

وبعد ذلك سلكت الطريق إلى الله وصرته كله

بدون ابن يمين وتركت الأغيار وانتهى الأمر

هذا المعنى نفسه عبر عنه الشاعر الصوفى الكبير جلال الدين الرومى الذى كان يعيش قبل هذا بقرن فى قطعة من مثنوية[1] وهى الآتية :

مِتُّ من الجمادية وصرت نبات

ومِتُّ من النباتية ودخلت الحيوانية

ومِتُّ من الحيوانية وأصبحت بشراً

إذن لماذا أخشى من أن أنقص بالموت ؟

(١) المجلد الثالث ، ص ٢٩٥ علاء الدولة - طهران .

وحملة أخرى وأموت من البشرية

لكى أطير بجناحى وريشى مع الملائكة

وينبغى أيضًا التخلص من الملكية والبحث عن

كل شىء هالك إلا وجهه

وأطير ثانية من الملائكة

وأصير ما لا يصل إليه وهم

وأغذو من بعد عدمًا عدمًا مثل المزمار

حين يقول لى المزمار إنا لله وإنا إليه راجعون

وهذه القطعة لابن يمين .

يبحث العقل عن شيئين وكفى ... من هذا الدنيا المليئة بالمكر والفن

إما أن يرتفع به رأس حبيبه ... أو أن يطأ عدوه بقدميه

ومن يبحث ولا يعلم ... ما الغرض من طلب المال

إنه سنبلة قطفت بمسكنة ... ثم تذورها الرياح من بعد فى البيدر

ليس غير إنهاك الروح والضنى ... محصلة للجاهل الغبى

والقطعة الآتية لأنها تشمل معنى التشاؤم الخاص من نوع آراء المالتوسية والمانوية[1] تجدر بالذكر :

(١) المالتوسية malthusiami sme هى أصول عقدية تنسب إلى قسيس إنجليزى اسمه توماس والتوس وأتباعه ، ولد هذا العالم الاقتصادى عام ١٧٦٦م وتوفى ١٨٣٤م ، وضع قاعدة فى عالم الاقتصاد خلاصتها بما أن سكان الأرض يزيدون بالتوالى أسرع من زيادة موارد الحياة فإن قوى أخرى بوسائل خاصة مثل القحط والأوبئة والحروب وغيرها تحول دون التوالد والتزايد البشرى وتمنع دون تعاظم العدد البشرى ؛ وعلى هذا يقترح وضع حدود بالوسائل الاجتماعية والأخلاقية أمام سرعة تزايد النمو السكانى للبشر كتابه يسمى lessaie say le prin aipe de la وآراؤه عامة تخالف المبادئ الإنسانية والأخلاق ، وتضيق على الطبعة الصغيرة وحقوقها أمام المانوية mamichaeisme أو مذهب الثنوية المنسوب إلى مانى المفكر الإيرانى الكبير ففقه أن مظهر الخير يزدان فى نزاع دائم مع مظهر البشر أهريمن ، وانتشر هذا المذهب من القرن الثالث إلى السابع الميلادى فى أوروبا أيضًا .

هل تعلم سبب أن الابن لا يحمل منة من أبية ولو منحه عطاءً عظيمًا
لأنه ألقاه فى محنة وجوده فى هذه الدنيا التى هى محل الحوادث[1]

وتبرز القطعة الآتية المذكورة فيما يلى المعانى والآراء التى كانت متداولة عند ابن يمين وغيره من الأساتذة للمدرسة نفسها :

إن الله الذى أسس وجودك
وألقى بأصل وجودك فى يوم ألست[2]
وخلق بيده بطريق الحكمة لطين جسدك
طبيعته فى أربعين صباحًا[3]
أمر القلم فجرى بكتابة كل ما كان
وسيكون مقدرًا على جبينك[4]
فلا يجدر أن يقول لك يوم الحشر
إن هذا الفعل منك مقبول وذاك قبيح
لا يطمع فى نمو غصن العود
من زرع شوك الجمال ،
ولما أن الجميع لا يخرجون عن خط أمره
سواء هل المسجد أو الكنيسة

(١) يكرر ابن يمين قوله الشاعر العربى أبى العلاء المعرى المشهور (جنى على أبى وماجنيت على أحد) (المترجم) .
(٢) يوم (ألست) إشارة إلى الخلق الأول حين خاطب الخالق الناس فى قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى أدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ..) الأعراف ١٧١ .
(٣) الأربعون صباحًا هى التى وردت فى حديث أن الله تعالى خمر طينة آدم الصفى أربعين يومًا (الطبرى ج ١ ، ص ٩١) .
(٤) جرى القلم إشارة إلى حديث أخر هو أول ما خلق الله القلم وأمره بكتابة كل ماقد (الطبرى ج١ ، ص٢٩) .

فــإن الـعــقـل لـيــعــجب من عــدلـه

أن يعطى أولئك الجنة وهؤلاء جهنم[١]

وأيضًا له هذه القطعة :

على المرء حيثما كان	أن يحافظ على كرامته
العجب بالنفس والبله لا يصدر	أن عمن تخلى عن كبره وأنانيه
من يسلك طريقًا بحيث	لا تتأذى شعرة من الناس بسببه
يعد كل إنسان أفضل من نفسه	ولا يحتقر واحداً قط
ثم ينفق وقته وماله	حتى يحصل على صديق

وله أيضًا له هذه القطعة :

الكنز الذى لا يستوعب الأغيار

ولا يضايق منك أحداً ولا تضيق منه بأحد

عود عود وغناء ورفاق عدة

ولا يجب أن يزيد عددهم عن أربعة

ونرد وشراب وكبابا ورباب

ويشترط ألا يكون الساقى من خارج دائرة الأصدقاء

(١) نورد أصل الأبيات للتمثيل لشعر ابن يمين :

فدائى كه بنياد هتيت داد	بروز الست اندر افكند خشيت
كل بيكرت راجهل باما دا	بدست خود از راه حكمت سرشت
قلم را بفم مودتا برسرت	همه بودنيها يكايك نوشت
نزيبد كه كويدترا روز حشر	كه ابن كار خوبست وأن كار زشت
ندارد طمع رستن شاخ عود	هر آن كس كه بيج شترخار كشت
جواز خطفرمانش بيرون نيند	چه أصحاب مسجد جه أهل كشت
خردرا شكفت آيد ازعدل أو	كه ابن رادهد دزوخ آن رابهشت

والعقل الذى يميز الخير من الشر
ليس له أن ينكر هذا العمل
ومن ينكر هذا العمل الذى أقول
لا يدرى شيئًا عن عالم الأرواح
إن هذه الأمنية لو تحققت لابن يمين
فلن يكون له شأن بمخلوق قط فى الدارين

وهذه القطعة الآتية هى فى حقيقتها ترجمة واقتباس عن شعر عربى منسوب إلى قابوس بن وشمجير أمير طبرستان الذى حكم فى جرجان من ٣٦٦هـ / ٩٧٦م إلى ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م (ووردت هذه القطعة فى حكاية التاجر والجنيه فى ألف ليلة وليلة)[1] .

أيها الأحباء لا يجرى الزمان على وفق قلبى
أجل إن الزفاف يعادى أهل الفضل

(١) شعر قابوس هو :

الدهر يومان ذا أمن وذا حذر	والعيش شطران ذا صفو وذا كدر
قل للذى بصروف الدهر عيرنا	هل عاند الدهر الأمن له خطر ؟
أما ترى الريح إن هبت عواصفها	فليس يعصف إلا ما هو الشجر
وما ترى البحر تعلو فوقه جيف	وتستقر بأقصى قعره الدرر
ففى السماء نجوم لا عدد لها	وليس يكشف إلا الشمس والقمر
فإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا	ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
وكم على الأرض من خضراء مورقة	وليس يرجم إلا ماله ثمر
أحسنت ظنك بالأيام إن حسنت	ولا تخف سوء ما يأتى به القدر

وقد نظم أحمد وقار الشيرازى وهو من الشعراء المتأخرين الأبيات الثلاثة الأخيرة بوزن شعر ابن يمين فى قوله :

فإن تكن لعبت بنا يد الزمان	أو كل ما مر كان على ضررنا
فلا تعجب فإن كثيراً من الشجر الأخضر	موجود ولا يضرب بالحجر إلا ما كان يثمر
احذر أن تظن بالزمان سوءاً	ولا تخف ما حكم به القضاء والقدر

سهل أن أقاسى من الزمان الخائن
فالمشقة هى نصيب ذوى الجوهر السامى

ففى السماء نجوم لا عداد لها
وليس يكشف إلا الشمس والقمر

ورسم فى الزمان أن قليل البضاعة
أفضل بكثير من أهل الفضل

وصفة البحر منصب القش والغناء فيه
أعلى من عقود الجوهر وسلك الدرر

خواجو الكرمانى كمال الدين أبو العطا محمود بن على بن محمود

مع أن جميع كتاب التذاكر المعروفين مثل : دولت شاه ، وصاحب هفت إقليم ، وآذر صاحب آتشكده ، وصاحب مجمع الفصحاء وغيرهم أوردوا إشارات عن خواجو الكرمانى ، فهم جميعًا يفتقرون إلى المعلومات القاطعة الدقيقة ، ولو ذكروا معلومات فإنها غالبًا غير صحيحة وخاطئة ، وفى الحقيقة إن عدم الدقة التى فى موضوعات هذه الكتب توجب شديد الأسف ، ونذكر مثالاً لذلك ، مع أن رضا قليخان له مرتبة رفيعة فى الشعر واللغة والتاريخ - بلا شك - فقد ذكر فى مجمع الفصحاء أن خواجو كان مداحًا وشاعر قصيد لدى السلطان أبى سعيد ، وكان ذلك الملك يحكم ما بين ٧١٦هـ و ٧٣٦هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥م ، ثم يذكر مباشرة بعد ذلك سنة وفاة الشاعر وهى ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، وهذا خطأ على التحقيق فقد سجل هذا التاريخ بدل عام ٧٥٣هـ .

ويذكر دولت شاه عام وفاة خواجو هو ٧٤٢هـ / ١٣٤١م ويعده منتسبًا إلى أسرة طيبة من كرمان ، لكنه عاش قليلاً فى هذه المدينة رغم أنه يظهر من الأشعار التى نقلها

عنه فى الكتاب نفسه والصفحة نفسها أنه نظمها فى بغداد ، وأنه يذكر موطنه كرمان بشوق ومحبة عظيمة ويقول :

ما أطيب ريح العنبر ونسيم السحر

الذى يمر على أرض كرمان

ما أعذب الطير الغريد ذاك

الذى يأوى ويسكن فى تلك الديار

ماذا جرى لى حين ألقى الفلك العالى

بى من تلك المدينة الطاهرة فى الغربة ؟

وفى بغداد وحيثما أتوطن

لا يروق فى نظرى شىء غير دجلة

وحسبما يذكر هفت إقليم تعرف خواجو أثناء رحلاته العديدة مع كثرة من مشاهير عصره من الشعراء والأدباء ، وتتلمذ إلى الصوفى والزاهد المعروف الشيخ ركن الدين علاء الدولة السمنانى ، وأراد دولت شاه أن يعوض اختصاره الحديث عن خواجو وهو الموضوع الأصلى لكلامه بإسهابه الشرح فى أحوال الشيخ المذكور(١) .

اتهام خواجو الكرمانى بالسرقة الأدبية

ينقل ريبيه(٢) بضعة أشعار هاجم فيه شاعر مغمور اسمه حيدر الشيرازى معاصر لخواجو بشدة خواجو وسماه (السارق الكابلى الكرمانى) ، واتهمه بالسرقة الأدبية ، قال فى قطعة ما يلى :

(١) تذكرة دولت شاه طبعة لندن ، صفحات ٢٤٩ - ٢٥٣ .
(٢) فهرس المتحف البريطانى ، ص ٦٢٣ .

لا تطر ذكراً لخواجو أمام شاعر
لأنه سارق من ديوان السعدى
وإن يعجز عن أن يطارحنى الشعر
فلماذ يلوك سيرة السعدى ؟

وفى شعر هجائى آخر أنشده فى حضرة الأمير الشيخ أبى إسحاق جعل مطلعه مايلى :

خواجو السارق الكابلى يصلنا من مدينة كرمان
وهو نملة فى الشعر أمام سليمان

ولا نرى ذكراً لخواجو فى مجمل الفصيحى لك حمد الله المستوفى القزوينى يذكره باختصار(١) .

ما ذكره كتاب التذاكر عن خواجو

ينقل حمد الله فى كتابه تاريخ جزيدة أحد أشعاره نظمه فى عام ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م ، ومن هنا ندرك أنه حاز شهرة وصيتًا فى أيام حياته فى سائر إيران ، كما أن مجالس المؤمنين للقاضى الشوشترى الذى ألف لتزيين آداب الشيعة ورجالها ، لكنه لا يذكر شيئًا مهمًا لأنه نقل فى الحقيقة ما كتبه دولت شاه السمرقندى .

دراسة فون إردمان النقدية فى خواجو

يمكن عد هذه القاعدة الكلية معتبرة ، وهى الطريقة الوحيدة المرضية فى تحرير أحوال شعراء إيران (باستثناء بعض الشعراء القدامى على وجه الاحتمال الذين عاشوا قبل الغزو المغولى) ، وهى جمع ما أمكن من حالاته من تاريخ هذا الشاعر بدراسة النسخ

(١) نسخة الزنكوغراف لتاريخ جزيدة ص ٨١٨ ، وكذلك مقالة فى (سير الشعراء الفرس فى تاريخ جزيدة) بقلم مؤلف الكتاب – براوند المندرجة فى الجورنال الآسيوى عدد أكتوبر ١٩٠٠م يناير ١٩١٠م .

المخطوطة القديمة ودواوينه وآثاره ومقارنتها ؛ لأنه لا يوثق كثيراً بالنسخ المطبوعة على الحجر والتى ضمت أخيراً تلك الدواوين ونشرت ، استخدمت هذه الطريقة فى دراسة الشعراء والأدباء القدامى مثل الفردوسى النظامى والأنورى والخاقانى وغيرهم ، وبسبب هذه الطريقة فإن خواجو أحسن حظًا من كثير من معاصريه لأن الدارس الألمانى المسمى بالدكتور فرانز فون إردمان قبل نحو القرن فى عام ١٨٤٨م ألف ونشر شرحًا موجزًا عن خواجو ؛ والذى وصف فيه باختصار أحواله من النسخة المخطوطة لمثنوياته الخمسة أو (الخمسة) بعد نقله وترجمته لمقالة دولت شاه فيه ، ثم زاد عليه نوادر مفيدة استخرجها واقتبسها من تلك الخمسة ومن ديوانه أيضًا ، وسوف يندرج هنا ملخصًا لهذا الوصف ومعه بعض الموضوعات التى ذكرها ريبه فى فهرسه(١) .

حسبما يذكر الشاعر نفسه فى مثنوى (نور وزوجل) أو النيروز والورد ، فقد ولد فى شوال ٦٧٩هـ / فبراير ١٢٨١م ، وبدأ حياته الشعرية بانتسابه إلى بلاط أحد الأمراء المظفرين - وهو احتمالاً الأمير مبارز الدين محمد مؤسس هذه الأسرة - فى يزد ، ثم أخذ يتردد على بلاط أبى إسحاق أنجو الذى حكم فى شيراز من ٧٤٢ - ٧٥٤هـ(٢) ، وبناء على أسماء ممدوحيه الذين نظم قصائده فى مدحهم ، فقد كان له علاقة أيضًا ببلاط شيروان شاه وقزل أرسلان أمير العراق ، كما أنه - كما ذكر - مكث مدة فى بغداد . الخلاصة أنه ترحل فى الشطر الأساسى لبلاد إيران ، ولا يمكن اعتباره شاعراً مخصوصًا بأسرة واحدة كما هو حال بعض آخر من معاصريه .

(١) فهرس ريبه ، ص ٦٢٠ - ٣ .

(٢) قبر خواجو فى أيامنا هذه بـ (تنج الله أكبر) - أو مضيق الله أكبر - بشيراز قريبًا من بقعة (الشيخ المشرقى) ، ويمر بجواره نهر ركن آباد ، ويتمتع بروحانية وصفاء خاصين وهو مطاف لأصحاب الذوق ، وقيل هذا البيت لهذه المناسبة نفسها :

سقط جسد خواجو الكرمانى فى شيراز فى تنج الله أكبر

واللوحة الحجرية الموجودة الآن فوق قبره من الآثار الحجرية للقرن الثامن الهجرى ، وقد وفق المترجم حين كان مسئولاً فى خدمة وزارة المعارف فى تنفيذ تعمير فى قبر هذا الشاعر .

وسعة نطاق أشعار خواجو

تشتمل أشعار خواجو على مثنويات خمسة (رومانسية) تسمى (خمسة خواجو) لها نسخة نفيسة فى مكتبة المتحف البريطانى مؤرخه بعام ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م ، كما تشتمل على ديوانه الذى يحوى القصائد (وبعضها يتعلق بالدين والآخر مدائح) ، والغزليات والمقطعات والرباعيات ولدىّ نسخة مخطوطة لهذا الديوان حديثة جداً وأخرى بخط درويش حافظ الشيراز ، وهو قطعاً غير الخواجة حافظ الشاعر المشهور ومؤرخة بعام ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م ، وأحصى أحد صاحبى هاتين النسختين عدد أبياتها بنحو أربعة آلاف بيت .

المثنويات الخمسة

أما المثنويات الخمسة التى تشكل (خمسة خواجو) فهى عبارة عن :

(١) مثنوى نود وزجل الذى درس بإجمال موضوعاته فون إردمان الألمانى ، ويذكر أن عدد أبياته ٢٦١٥ .

(٢) مثنوى هماى وهمالون ، أو العنقاء والملك ، وهو فيما يبدو باسم السلطان أبى سعيد ٧١٦ - ٧٣٦هـ أو باسم وزيره غياث الدين محمد ، ويشتمل على (٣٢٠٣ بيت) وقد نظمه كما يذكر ريبه فى بغداد عام ٧٣٢هـ / ١٣٣١م .

(٣) كمال نامه الذى نظمه فى ٧٤٤هـ / ١٣٤٣ باسم شيخ أبى إسحاق ملك فارس الذى ولى الحكم قبل ذاك التاريخ بعامين .

(٤) مثنوى روضة الأنوار ، وهو فى التصوف والعرفان ، قد نظمه فى ضريح الشيخ أبى إسحاق إبراهيم وهو من الأولياء ، وكان فى كازرون من فارس ، وتاريخه عام ٧٤٣هـ / ١٢٤٢م أى قبل المثنوى السابق بعام واحد .

(٥) مثنوى صوفى - مثنوى آخر فى التصوف لم أعرف عنوانه ، وقد نظم خواجو مثنوياته الخمسة يقلد فيما يبدو الحكيم النظامى الجنجوى ، وأنهاها فى ٧٤٤هـ .

غزليات خواجو

لكنى خلافًا للشهرة النسبية التى حازها خواجو لم أستطع أن أكتشف فى غزلياته لطفًا جذابًا أو سمة ملفتة[1] ، وقد درست نحو خمسة وسبعين غزلاً له ، ويمكن عد هذا الغزل التالى أفضل غزله للتمثيل لها :

لا تنسنا لأن خاطرى فى وفائك
وقلبى على أمل وعدك وروحى فى وفائك[2]

سهل إن كان رضاؤك ترك رضانا
ومقصودنا من الدنيا والآخرة هو رضاك

ولما جعلنا من الآن فصاعداً وجهى فداء لقفاك
فلا تطردنا من أمامك فقلبى فى قفاك

أغلل لك عنقى وأذل لك رأسى
والرأى رأيك إن تكرمنى أو تقتلنى

إن من هو عبدك إنما هو أكثر حرية من الجميع
ومن تعرفت عليه صار غريبًا عن نفسه

(١) إن حكم الأجنبى المنتقد لشاعر آخر - كما ذكر الأستاذ براون نفسه مرارًا - لا يمكن أن ينهض حجة ، ولطف الأشعار خاصة غزليات خواجة عند الإيرانيين معروفة بها ، ويكفى فى فضله أن الخواجة حافظ أثر أسلوب شعره ، كما يشير إلى هذا فى شعره :

أستاذ الشعر هو السعدى عند كل الناس ولكن   غزل حافظ له أسلوب شعر خواجو

(٢) فى اتفاقية خطأ ؛ إذ تكررت كلمة (وفا) ، ويبدو أن الكلمة الثانية هى (هوا) .

يا من أنت فى قلبى أعز من روحى التى بين جنبىً

إن روحى التى بين جنبى هى من أجلك

إن قلبى المضنى الذى يدعى عشقك

قسمه الصادق بقدك الفتان

وخواجو الذى ضاع بسبب جورك وجفاك

لا تزال روحه متمسكة بحبك ووفائك

وبالإضافة إلى الغزليات والمثنويات المذكورة فيما سبق فلخواجو بضعة من (التركيب بند) وبضع قطع وعدة رباعيات ، أحدها يدور عن صوت القمرى أو الـ (كوكو) ، والذى ينسب عامة إلى عمر الخيام ، والمستزاد الآتى للشاعر لا يخلو من اللطافة :

ليس من أحد يفشي عنى لهذه التركية الخطائية

لو حدث خطأ

فعودى فإننا نتوقع منك

وعداً تفين به

لا تلق بالفلفل من أجلى أنا المحروق القلب

على نار وجهك

لأنى سقطت بسبب هذه الحبة المسكينة منك يا حبيبى

فى شرك البلاء

إنما اليوم فى مثل تقوس حاجبك فى المدينة

مثل هلال

حتى رأيت وجهك المشار إليه بالبنان

تشير إليه بالبنان

فعده فأنا أضحى برأسى على قدمك وبروحى

على رجلك (السمندية)[1]

لأننى أنا المنعدم الرأس والقدم لا يتيسر لى

غير نعل غالية السعر

القاعدة فى مدينتك هى ألا تسألوا عن

أحوال الغرباء

فما يضير مملكة حسنك أخيراً

من غريب متشرد

فإلى متى تعرف مخالفاً أيها المطرب الجميل الصوت

فى مقام العشاق ؟

اعزف وقتًا من أجلى أنا العاجز المعدم

من مقام القدرة(نوائى)[2]

وإلى متى يمكن أطول من هذا إخفاء

آلام الهجران فى القلب ؟

وأنا على علم بأن هذا الألم يا حبيبى سوف يسرى فيك

يومًا فى موضعه المناسب

أمشى على يدى مكبًا[3] من ظلمك وتحسراً على نعلك

مثل خواجو

(١) السمند حيوان خرافى يقال من نظر إليه مات . (المترجم)

(٢) مقام (فوائى) مقام موسيقى وهو المعنى القربى من تورية الشاعر ، والمعنى البعيد هو القدرة . (المترجم)

(٣) المشى مكبًا على اليدين تعنى فى الفارسية (إسكندر) ، وليس الإسكندر هو المراد من التورية . (المترجم)

لـكـن مـــاذا أعــــمـل ومـلـكـك الـغـنـى[1] لا

يـلـيـق بـه الـفــقــر ؟

وتكفى هذه الأمثلة لأشعار خواجو ، وتبين أن شعره ولو كان جميلاً ومقبولاً ، لكنه يفتقر إلى التميز الخاص .

نظام الدين عبيد الله الذاكانى

عبيد الزاكانى ربما هو أفضل شاعر هجاء ومقلد ظهر بإيران ، ورغم أنه مثل سائر الهجائين الإيرانيين والعرب والترك يبتعد أسلوب بيانه غالبًا عن الأدب بما يجعل القسم الأكبر من أدبه لا يناسب الترجمة إلا أن كتابه المعروف (أخلاق الأشراف) هو قطعة لطيفة من النقد والفكاهة ما دام التزم بالأدب والعفة ، وفى الوقت نفسه فإن بعض أشعاره الجادة التى يجهلها أغلب كتاب التذاكر تتمتع بجمال خاص ولطف متميز[2] .

وليس لدينا كعادة – فيما يتصل بسيرته – معلومات مبسوطة غير أنه كان من بين أهل قزوين أصلاً ، ولم يكن يحمل حبات وعلاقة وثيقة بهذه المدينة ؛ لأنه ذم فى رسائله دائمًا سكانها بالغباء والحمق ، ثم عاش مدة فى شيراز ، وكان له بها أكثر من موطنه حب وتعلق ، كما تشهد بذلك بضعة من أشعاره ، وفى عهد أبى إسحاق أنجو خاصة والذى قتل عام ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ترك الشعر الجاد وتتبع السخرية والهزل لأنهما ناسبا مذاق كبار عهده ، ومع هذا – كما يشير فى غالب شعره ويحكى حكاية عن موته – فقد كان يعيش دومًا فى فقر واقتراض ، ثم مات فى النهاية فى ٧٧٢هـ / ١٣٧١م تقريبًا ومعروف عنه حكاية أخرى تشير إلى نزاعه وصلحه مع الشاعر المعروف المعاصر له الخواجة سلمان الساوجى ! ومن بعد ذلك عاش الشاعران تحت حماية السلطان أويس

(١) الغنى فى الفارسية هى (دارا) ، وليس هو المراد به فى التورية كاسم لأشهر ملوك الفرس الأكميين قبل الإسلام ، وقد ورى الشاعر بالإسكندرية ودارا عن صفتين . (المترجم)

(٢) راجع مذكرات أوزلى ouseley على شعراء إيران ، ص ١٢٥ .

جلاير وكيف رعايته في بغداد أو تبريز أو هما معًا ، وقد خصه دولت شاه السمرقندي[1] بمقالة مفصلة لكنها قليلة الفائدة ؛ إذ جعل أغلبها شعرًا له طويلاً نقله من تذكرة هفت إقليم ، وما ورد له في آتشكده كثيرًا لإيجاز ولم يرد عنه شيء في مجمل الفصيحي ومجمع الفصحاء ، ومثنويه الفكاهي المسمى (موش وجربه) أو الفأر والقط طبع في بمباي بدون تاريخ طباعة حجرية بصفحات خشبية[2] ، كما طبعت منتخبات من كلياته (اللطائف والظرائف) المشتملة على ديباجة بالفارسية (بقلم المرحوم حبيب الأصفاني – فيما يبدو – وبعدها مقدمة بالفرسية بقلم مسيو) فدتيه M. Ferte ، وقد طبعت في القسطنطينية في مطبعة (أبو الضياء توفيق بك) عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م (وتشمل ١٢٨ صفحة) ، ولأن هاتين المقدمتين في الغالب تروي موضوعات تتصل بعبيد ننقل خلاصه لها هنا بعد حذف بعض الموضوعات العديمة الفائدة :

هو أملح الشعراء عبيد الزاكاني من قرية زاكان[3] من قزوين ، ومن رجال أواسط القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي ، وكان من أهل الفضل والحلم وأرباب السليقة وأصحاب الذوق ، ومع أن البعض يسلكه في عداد شعراء الهزل ، ولكن الحق والإنصاف أن منزلته أعلى من أن يعد هزالاً مع وجود السخرية والهزل والهجوم في شعره ، بل هو الأول على الشعراء في نظم اللطائف والنوادر ، ولم يبلغه في هذا الفن شاعر آخر ، كان له اليد الطولى في تضمين أشعار من سبقه وتحويل المعاني الجادة إلى هزلية ، وأشعاره الجادة لا نير لها في سلاسة اللفظ والحلاوة والمتانة ولا عديل لها في اللطافة ودقة المعنى ، كما أن عبيد حصَّل العلوم والفنون في عهد الشاه أبي إسحاق في شيراز فصار من فضلاء عصره وأدباء دهره ، حصَّل مهارة كاملة في كل

(١) راجع دولت شاه طبعة لندن ، ص ٢٨٨ – ٢٩٤ .
(٢) بطريقة الطبع نفسها أيضًا نشرت ترجمة إنجليزية قيمة له .
(٣) تحدث حمد الله المستوفي القزويني في تاريخه المطبوع بالزنكوغراف من سلسلة جيب ص ٨٥٤ عن جماعة الزكانيين ووصفهم بأنهم من البيوت المهمة بقزوين ، ويقول إنهم من نسل قبيلة خفاجة العربية ، وينقل سواد المنشور الذي أرسله الرسول يخاطبهم به بالعربية ، ثم يذكر في آخر مقاله عبيد الزاكاني بقوله : ومنهم الصاحب المعظم الخواجة نظام العبيد الله له أشعار جملة ورسائل بلا نظير ، وبما أن هذا التاريخ ألف عام (٧٣٠هـ – ١٣٣٠م) فنعلم أن عبيد في هذا الوقت كان رجلاً معتبرًا له كانية في مدينته ؛ ومن هنا لا يمكن اعتبار تاريخ ولادته بعد عام (٧٧٠هـ) .

فن وعمل فى التصنيف والتأليف ثم عاد إلى قزوين من بعد ؛ فشرف بمنصب القضاء ، وانتخب وتميز بتعليم أولاد العلية وتربيتهم ، ولما كان الأتراك فى ذاك العصر لم يبقوا على شىء من ارتكاب المناهى والقبائح فى إيران وبلغت طبائع الإيرانيين بسبب معاشرته ومجاورتهم فى الفساد والسوء الدرجة النهائية ، فكان عبيد فى هم مقيم حين شاهد حالاتهم هذه وود شرح الحال وتطوير الأحوال بكل وسيلة لشعبه فألف رسالة أخلاق الأشراف لإظهار فساد أخلاق زمان معاصريه ولا يغرض منها إلى مجرد الهزل بل يتخلل هذه الهزليات أمور جادة تمتلئ بالحكمة وتثير العَبرة ، كذلك كتب أساطير كثيرة فى (الرسالة المبهجة) لتصوير درجات العقل ومراتب الشعور لدى أكابر قزوين وكل منهم كان دكاماً من السفاهة والجهل وكل واحدة من هذه الأساطير حكمة لآيات البصيرة ويكفى دليلاً على معيار فضله وتجربته وعلمه ونظرته للحياة رسالة المائة نصيحة والتعريفات ، ثم إن من ينسبه إلى الهزل يعترفون أيضًا بأنه ألف رسالة فى علم المعانى والبيان وأراد عرضها على الملك فقال ندماؤه ومقربوه له إن الملك لا يجب هذه المزخرفات والتلفيقات فنظم قصيدة غراء وأراد القاءها فقالوا إن الملك لا يجب الهزل والكذب والمبالغة والإطراء والإغراق الذى للشعراء ؛ فقال عبيد على هذ أسلك أنا الآخر طريق المجون حتى أنفذبه إلى مخمل الملوك الخاص وأصبح من الندماء والمقربين وفعل هذا ، وأخذ ينظم إذ ذاك فاحش الشعر وصريح النكات ونادرهما بلا مبالاة فكان يلقى الصلات والجوائز ، ولم يكن لأحد جرأة على مقابلته ومجادلته ، يقال إن عبيد بعد يأسه من دخول مجلس الملك أنشد هذا الرباعى على البديهة :

لا تصرفى العلم والفضل مثلى أنا صاحب الفن

حتى لا تصير ذليلاً عند الكبراء مثلى

أتريد أن تغدو مقبولاً عن أرباب العهد

اصطحب معك أمرد قوى الجثة وتسول إلحافًا واعزف على الكنجرة[1]

(١) الشطر الأخير بالفارسية هو (كنكل أور ولنكرى كن وكنكر زن) و (كنك) بناء على شرح فرصتك ناصرى أو المعجم الناصرى مستشهداً بشعر السعدى هو الأمر والقوى الجسد وكنكر بكر الكاف العربية والفارسية هو الشحاذ القبيح الصوت يأخذ فى غنائه الكريه حتى يجبر صاحب المنزل إلى إرضائه لطرده عنه وكنكر بكسر الكافية آله موسيقية هندية .

وسمع أحد معارفه يتساءل فى حيرة على إهمال إنسان له هذا الفهم والفضل تحصيل العلم والأدب والانقياد للهزل والرذل فأرسل إليه عبيد هذا الرباعى :

لا تطلب ما استطعت أيها السيد العلم

حتى لا تذل فى طلب رابت كل يوم

واسلك سبيل السخرية وتعلم الغناء

حتى تأخذ حقك من الكبير والصغير[1] .. و[2]

ويقال إن سلمان الساوجى من معاصرى عبيد لم يره فنظم هذا الهجاء فيه :

عبيد الزاكانى الجهنمى والهجّاء

تقرر له الشقاء والإلحاد

إذا لم يكن نفسه من قزوين وضراحيها

لكنه فى شعره قزوينى

والحكمة فى هذه القطعة أن ظرفاء إيران يسمون القزوينى (أحمق) كما يسمون الخراسانى (مشهديًا) أى رافضًا ، وهذه النسب من قبيل الطعن ، فلما سمع عبيد هذا الشعر سلك فى الحال والمتعة على شاطئ نهر دجلة ومصاحبة أهل العلم والفضل ، فدخل تقريبًا إلى مجلسه وكان أن نظم سلمان فى وصف (دجلة) هذا المصراع وهو :

(لدجلة هذا العام مسلك عجيب من السكر)

وطلب من الحاضرين إتمامه فقال عبيد على البديهة :

(قدمه فى أصفاد والزبد على شاطئه أليس مجنونًا ؟)

(١) يرى هذا الشعر أيضًا فى ديوان الأنورى .

(٢) بعد هذا يذكر القصة الساخرة والهجائية لجهان خاتون زوجة الوزير أمين الدين وزير شيخ أبى إسحاق . ويقول مروان إن جهان خاتو نفسها كانت شاعرة ولديه مخطوطة من أشعارها .

فسر سلمان وسأله عن موطنه فقال قزوين ، وفى أثناء كلامهما سأله سلمان هل اسمه معروف فى قزوين ؟ وهل شىء من شعره مشهور بها ؟ فأنشد عبيد قطعة من شعره مشهورة كثيراً وهى :

أنا مرتاد للحانات واله بالخمر
عاشق فى حانات المجوس وثمل

يحملوننى كدن الخمر الكبير من كتف لكتف
ويتناولوننى كالقدح من يد ليد

ثم قال : مع أن سلمان شاعر فاضل ويمكن نسبة هذا الشعر له ، لكن ظنه الغالب أن هذا الشعر لزوجته ، فأدراك سلمان من لطف مقاله أنه هو عبيد فاغتنم مقدمه وطلب منه أن يعفو عن هجائه له ولم يقصر عن خدمة له ما بقى هو فى بغداد ، وكان عبيد يكرر قوله : يا سلمان ساعدك الحظ فى أنك عجلت بالاعتذار بخوت من شر لسانى . وبعد هذا التقديم يلى شرح مختصر كتعقيب بقلم (فرتيه) يصف فيها اهتمامه بالآداب الشرقية وبالأدب الفارسى على وجه خاص مشيراً إلى ما يقبل النشر ، ثم يمتدح شعر الزاكانى وأن نسخة مخطوطة لديوانه قد اجتذب اهتمامه ؛ فانتخب منه قطعاً ولخصها ، وهى تمثل ثلاثة أرباع الديوان تقريباً وطبعها وهى عبارة عن :

(١) أخلاق الأشراف بالنثر ، ألفت فى عام ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م .

(٢) ريش نامه أو رسالة اللحية من النظم المخلوط بالنثر بدون تاريخ .

(٣) رسالة النصائح المائة بالنثر وألف فى ٧٥٠هـ ١٣٤٩م .

(٤) التعريفات أو الفصلو العشرة بالنثر ، وبدون تاريخ .

(٥) أشعار مختلفة تشمل الهزليات الوقحة وأبياتاً نظمها فى تقليد شعراء آخرين .

(٦) رسالة دلجشا أو الرسالة المبهجة وتنقسم إلى قسم عربى وآخر فارسى وتشمل النوادر والحكايات واللطائف .

من ناحية أخرى فقد أسقط فى هذه المجموعة من منتخباته الشعر الجاد لعبيد تماماً ، ولم يذكر شيئًا عن قصائده ومثنوييه عشاق نامه وقال نامه[1] ، ومن المخطوطات الثلاث لديوان الشاعر الموجودة بالمتحف البريطانى وأنا رأيتها (بالأرقام التالية Or. 6303 - Or. 2947. Or. 5738) مخطوطة تحتوى على الشطر الأعظم من أشعاره الجادة الشامل للقصائد المدحية لشيخ أبى إسحاق والسلطان أويس وركن الدين عميد الملك وغيرهم والذى يعد هذا الغزل التالى من بينها من لطيف شعره :

تعثرت بسبب هوى   وحبس قلبى ميل له إلى جدير
هو ملك وأنا ذليل   هو مليك وأنا مسكين
طويل القد عقيصته وهو   سلطان الحسن نافذ الأمر
حاجبه قوس خصره دقيق   قاسٍ مدلّ غادر
من لطفه ومن تبختر سروه   ومن ختله وغشه
لا تهب الشمس بدونه نوراً   ولا يصفو العالم بغيره
حيثما افتّرفوه الشقائقى عن ضحك   صار السكر هناك بلا ثمن
وحيثما انشغل قلبى بخياله   أبدع فى كلامه وأحسن فى حديث
كأننى أعثر على طبيب   ليعد علاجًا لقلبى
كل إنسان يشكو من عدوه   وأنا أشكو من حبيبى
إذا وقعت يمين عبيد عليه سائراً   فلن تصاب بأذى بعد ذاك

ونسخة جيدة أخرى لديوان عبيد وكلياته ملك المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم وعلامة Suppl. Persan 82 وتاريخ كتابتها المحرم من ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م ، وتحوى مائة وعشرة ورقة وتشمل – فضلاً عن أشعاره الجادة والهزلية – كتابه عشاق نامه أيضًا ،

(١) كليات عبيد الزاكانى تشمل القصائد ، والغزليات ، والقطعات ، والرباعيات وبمثاق نامة بمقدمة مشروحة فى ترجمة أحواله ومحمد وجيه ، وبحث فى آثاره بتصحيح واهتمام لعباس إقبال الأشتيانى أستاذ الجامعة المحرم طبعت ، وضمن منشورات مجلة ارمغان فى عام ١٣٢١ هـ ش فى طهران ، وتشمل ١٤٧ صفحة .

وهو كتاب شعرى نظم أكثره بلهجة قزوين ، وكذلك يحوى كتاب أخلاق الأشراف وريش نامه وده فصل أو الفصول العشرة ، ومن الأمور الملفتة للاهتمام أنه يرى فى أشعاره الجادة إشارته الغالبة إلى فارس وعاصمتها شيراز ، ويبدو أنه كان يحب هذه المنطقة أكثر من مسقط رأسه قزوين ، ونذكر أمثلة لهذه الأشعار :

يقول فى موضع :

بيمن معدلة الملك الكريم صارت شيراز جنة الله على أرضه

وفى موضع آخر : صار إقليم فارس بتأييد الله أطيب من صحن الجنة وأسعد من الربيع .

وقال أيضًا :

بلغت الراية المنصورة للملك الكريم

بسعادة ويمن خطة شيراز هو الفاتح السعد

هو الفاتح السعيد الشيخ أبو إسحاق

المليك المهلك للأعداء والمكرم لأحبائه

وهذا الغزل نظمه بطريقة السعدى ومتأثرًا به :

إن نسيم ريح المصلى ونهر ركن آباد يُنسى الغريب وطنه

ونظم هذه الغزلية بمناسبة وداعه شيراز ، وهى أفضل الشواهد على فرط تعلقه بها:

رحلت عن شيراز مخاطراً بروحى

كما يرمى قلبى أسفًا هذا الرحيل الذى لا حيلة له(1)

(1) هذا البيت مطلع غزل جميل لعبيد نظمه وقت سفره من شيراز وضمن فيه بيتين للسعدى وبسبب فرط لطفه وجماله يستحق أن يدرج هنا جميعه (ديوانه طبعة طهران ، ص ١١٠) .

اذهب عاقداً من الحزن يدى على رأس وقدمى فى الطين

فالأم سيصير إليه حالى من وراء هذا السفر ماذا سيحل بى ؟

حينًا أصبح كالبلبل المتهاج

وحينًا أفرق صدرى كالبرعمة الحزبية =

ونرى فى ديوان عبيد إشارة ذم كما هو عند حافظ إلى ميناء هرمز على الخليج الفارسى يبرز إلى أن الشاعر سافر إلى هناك بعض أوقاته ، يقول :

حدث لى هكذا فى هرمز الهم والألم

من مصاحبة القرناء والأسياد

وبين أشعاره الجادة قصيدة فى مدح الوزير عميد الملك وضمن أشعاره الهزلية قطعتان فى هجاء كمال الدين وشهاب حيدر (وقد جهلت هويتهما) .

أما شعره فى بداية كتابه ويتصف بالجانب الدينى فيشمل حمد الله ومدح رسوله والخلفاء الأربعة الراشدين وهذا يبينّ أن عبيد كان سُنيًا ، لكن يوجد خارج شعره

= حين أنصرف عن هذه المدينة باخسار
وحين أترك هذا الحى أموت
أخرج عن شيراز بدون نفسى وقلبى وصديقى
(أرحل ومن الحسرة ناظراً إلى خلفى)
تعجزيدى حين أمسك بعنانى راحتلى
(ولا أدرى عن قدمى شيئاً حين أطوى الطريق)
بلغ بى الحزن اليوم من هموم العشق
حد أن قول الناصح ووعظ الأب لا يفيد أن معى
فيا عبيد هذا ليس السفر أوده
إنه الدهر يجرنى بسلسلة القضاء والقدر

والأصل الفارسى لها :

رفتم زحظة شيراز وبجان درخم	وه كزين زفتن ناچار چه خونين جكرم
ميرم دست زنان برسروباى اندر كل	زين سفر تاجة شو دحال وجه آيدبسرم
كَاه جون بلبل شوريده درآيم بخروش	كان جون غنچة دلتنك كريبان بدرو
من ازين شهر اكَر برشكنم درشكنم	من ازين شهر اكربر كذرم دركذم
بيخود دوبيل وبى يار زشيرار بيرون	(ميروم ورسر حسرت بقفا فى نكَرم)
قدت دست ندارم جون عنان ميكَيرم	(خير ازياى ندارم له زمين فى سپرم)
اين جنين زاركه امروزمنم درغم عشق	قول ناصح نكند جاره وينر پدرم
اى عبيد اين سفرى ينست كه من فى خواهم	ميكشد دهر بزبخير تضا وقدوم !

(المترجم)

المازح وفكاهاته قطعة شعرية تحكى أنه لم يكن قط طالبًا أن يشتهر بالزهد والتقوى وأنه لم يدعهما فى قوله :

رب إنى على أمل من لطفك أن تعمر بلاد متعتى وحبورى

وأن تحول عنى قضاء الزهد وتبعد عنى بلاء التوبة

أما عن هزليات عبيد التى ضمتها جميعًا طبعة القسطنطينية فلا تستحق كما قلنا سابقًا أن يترجم واحدة منها وهى عند الإيرانيين المحتشمين وحتى فى هذا العصر غير مطلوبة ولا مقبولة والأمر الملفت هو أن الشاعر بكامل مهارته وأستاذيته ضمَّ الأشعار الجادة لسابقيه أو معاصريه فى منظوماته وهزلياته ، وجعل منها موضعًا للسخرية ، منها هذه القطعة التى تمثل بها ، وهى التى تبعد عن القبح نسبيًا وتتصف باللطافة :

أكثر من هذا فى كل عام من الأملاك كان

يأتى شىء قليل من كل ناحية

كان بمنزلى الخبز الجاف والخضرة

كان هذا موجودًا حين كان يأتينى صديق

أحيانًا كانت الخمر موجودة أيضًا

حين كان يأتينى نديم أو معشوق

والآن فقد عدمت الأخضر واليابس

مما كان يحسب لى وقتًا من قبل

لم يبق غيرى فى المنزل شىء آخر

بل إننى لا أظل فيه إذا عنَّ لى أمر

ويظهر من هذه القطعة الآتية أن الشاعر ابتلى بمحن الفقر وصار ألعوبة آلام الاقتراض والديون :

الناس سعداء فى لهوهم وأنا مبتلى بالديون

وكل امرىء يعمل ويكسب وأنا ضحية للديون

في عنقي فرض الله وقرض عباده

فهل أؤدي فرضه أو أؤدي قرضهم ؟

نفقاتي أكثر من المعتاد وقروضي فوق الحد

فهل أفكر في النفقات أو في أداء القرض ؟

لا أنوح قط من أية كتابة إلا من سجل الديون

ولا أخشى أحداً إلا شاهد القرض

عليَّ ديون في المدينة وفي الحي عليَّ قروض

وفي الزقاق عليَّ سلف وحتى في المنزل عليَّ ديون

عجزت عن التفكير من الصباح حتى المساء

لكي أجد مكاناً فجأة أرجو الاقتراض منه

يهرب الناس بسبب القرض وأنا

أطب من الله بعد صلاتي ودعائي القرض

ضاع شرفي مثل شرف الشحاذين

من كثرة طرقي على البيوت متسولاً القرض

إذا لم يوحي الوزير بي الملك

فماذا يفعل عبيد المسكين في النهاية ليدفع ديونه ؟

إن الوزير علاء الدنيا والدين لم يمنح

أحداً في الدنيا جزاء للقرض غير الحذاء

ونرى بعضاً من أشعاره الأخرى دليلاً على فقره وديونه في صفحتي ٥٨ و ٦١ في طبعة القسطنطينية ، كما أن الحكاية المعروفة له وهي مزجة فرح بها على أولاده

وهو على فراش الموت إن صحت ، فهى شاهد آخر على طبعه المتفكه وطبيعته المازجة وأوضاعه السيئة[1] .

ويستحق أيضًا إثبات هذا الشعر الآتى الذى نظمه فى موت طبيب :

هـذا الطـبـيـب الـهـازل القـول لـم يـر
طول عمره مريضًا إلا وقتله فى الحال
أتـاه البـارحـة ملـك الموت وقـال لـه
اشتر يومًا ما كنت تبيعه كل سنيتك

مثنوى موش وجرية :

وهو منظومة صغيرة تشمل ١٧٤ بيتًا ، وفى طبعة بمباى الزنكوغرافية بها صور وتحتوى على ١٨ صفحة ، ويبدأ هذا المثنوى بأبيات عدة فى وصف قطة ثاقبة الفكر ماهرة الصيد ويصفها بأوصاف مختلفة فى قوله :

كـانـت بما قـضـى بـه الـزمـان قـط
مـثـل الأفـعـى فـى كـرمـان
قطة ثاقبة النظر ماهرة فى الصيد
كالأسد عيناها جاذبيان وروموشها سهام
أقدامها عقارب وجبهتها عقاب
تـفـيـض مـكـرًا وتـزيـد شـطـارة
بـطـنـهـا طـبـل وصـدرها قـاقـم
وحـاجـبـهـا قـوس وأسـنـانـهـا حـادة

(١) خلاصة هذه الحكاية التى أوردها براون فى كتابه (سنة بين الإيرانين) ص ١٢٦ ، أن عبيدًا أثناء موته أوصى أولاده أن يفتحوا كنزه المخبىء ، ويتملكوا كل ما فيه ، فلما دفنوا والدهم فتحوا الكنز بمشقة ووجدوا به هذا البيت :

الله يعلم وأنا أعلم وأنتم أيضًا تعلمون أن عبيد الزاكانى ليس لديه فلس واحد

وتخف هذه القطعة لطلب الطعام فتدخل حانة ، وتختفى وراء دين الخمر ، ويظهر فجأة فأر ويقفز بأعلى أحب الدنان ، ويبدأ فى شرب الخمر حتى تحمى رأسه بفعل الخمر ويبدأ فى العربدة ، ويتكلم أحاديث الحماس غافلاً عن أن عدوه المهول أى القط مختفٍ بجواره ، يتباهى بشجاعته بطلته ويقول :

قال : أين القطة فأحطم رأسها — وأقطع رأسها وألقيه فى الميدان
بل وأعفو عن قتل مائة قطة — حين يأتى العفو فى يوم الإحسان
إن القطة أمامى مثل الكلب — إذ تواجهها فى الميدان

وإذ ذاك تقفز القطة فى غفلة وتقبض عليه وتخاطبه قائلة :

فقفزت فجأة وقبضت على الفأر
وقالت أين ستهرب منى يا قط بحياتك ؟

فيفيق الفأر من سكره ويخاطبها باسترحام وخضوع :

فقال الفأر أنا عبدك — اغفرى هذه الذنوب لى
كنت مخموراً ولو شربت مرة — فكم يكثر المخمورون من الشرب
أنا عبدك ورهن أمرك — وطوق طاعتك يلف عنقى

فلم تهتم القطة بعجز الفأر وإلحاحه وقتلته وأكلته ثم ذهبت إلى المسجد وأدت فيه صلاتها واستغفرت الله عن أكل الفأر :

فقتلت القطة ذاك الفأر والتهمته — واتجهت متبخترة إلى المسجد
فغسلت يديها ووجهها ومسحت — وقرأت أوراد الحق الديان
إلهى قد تبت — ولن أمزق جسد فأر بعد ذلك
كانت القطة تستغفر الله فى المسجد — بدعائها يا كريم يا قديم سبحانك
إن عملى هو التوبة والاستغفار — يا الله يا رحمن

سوف أكفر عن هذا الدم البرىء ... يا خلاق بمنين من الخبز
فاغفر لى ذنبى يا غفار ... قد ندمت على ما فعلت
فتحت باب المكر والخداع ... حتى فاضت دموعها باكية

وكان فأر آخر مختبئًا خلف منبر المسجد فسمع الكلمات الضارعة التائبة للقط فأسرع إلى بقية الفئران وأبلغ هذا الخبر ؛ وهو أن القطة قد تابت عن فعلها ؛ ومن هنا ذاع وانتشر هذا البيت لعبيد كمثل سائر فى اللغة الفارسية :

أبشركم بأن القطة صارت عابدة ... زاهدة ومؤمنة ومسلمة

وقد أشار ولَّح حافظ الشيرازى بهذا المثل[1] .

فسعد الفئران بهذا الخبر وفكروا للتعبير عن سعادتهم وشكرهم فى تعيين سبعة فئران وأرسلوهم بالتحف والهدايات الكثرة من : الخمر ، والشواء ، والحلوى ، والجوز ، والفاكهة ، وسائغ الأشربة إليها ، فدعتهم القطعة إليها وأخذت تقترب شيئًا فشيئًا منهم وفجأة قفزت وأسرت منهم خمسة واحداً بين أسنانها وأربعة بين مخالب قدميها ويديها وهرب الفأران الباقيان وابلغوا هذا الخبر المفزع لبقية الفئران ؛ وهى أن القطة لم تغير طبيعتها ، وبعد أسبوع عزاء قضاه الفئران لرفاقهم عقدوا همتهم لحرب القطة ، وقصد الفئران البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين ألفًا تحت إمرة قائدهم محاربة القطط ، وبعد حرب شديدة انهزمت وأسرت القط المجرمة وأتى بها أمام ملك الفئران فحكم فى الحال بقتلها وأمر بشنقها ، لكن القطة تخلصت منهم وقتلت ملك الفئران ومزقت شمل جنده وانتهت هذه المنظومة بهذا البيت :

هذه القصة غريبة وعجيبة وهى تذكار لعبيد الزاكانى[2] .

(١) بقصد فيه بيت حافظ :
أيها القط المتبخر تتدلل فى سيرك بجمال
لا تغتر بأن القطة العابدة قد أدت صلاتها
لكن هذا البيت يتصل بحكاية حدثت لحافظ مع عماد الفقيه الكرمانى ، راجع حبيب السير وفارس نامه للناصرى ص ٦٣ .

(٢) تغدو قصة الفأر والقطة تذكاراً له إذا أخذنا فى الحسبان تأثيرها فى الفكر الغربى الحديث الذى جعل حكايات القطة والفأر موضوعًا لتربية الأطفال وعجلاً من الرسوم المت[illegible]كة فى وسائلهم المرئية وتأثر بهم العالم ، والفضل فى هذا فيما نرى يعود إلى قصة عبيد هذه . (المترجم)

رسالة أخلاق الأشراف :

والآن نتحدث قليــلاً عن آثار عبيد النــثرية ، وأول رســائله (أخلاق الأشراف) هى محل درسنا ، وهى رسالة تهجو بقسوة أخلاق أهــل زمانه ألفها فى ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م وتحوى مقدمة وسبعة أبواب جعل كل منها يبحث صفة خلقية بالترتيب الآتى :

الباب الأول : فى الحكمة .

الباب الثانى : فى الشجاعة .

الباب الثالث : فى العفة .

الباب الرابع : فى العدالة .

الباب الخامس : فى السخاء .

الباب السادس : فى الحلم والوفاء .

الباب السابع : فى الحياء والصفاء والصدق والرحمة والشفقة .

تحدث المؤلف فى كل باب من هذه الأبواب فى البداية عن رأى السلف فى هذه الفضيلة والخلق وسماه (المذهب المنسوخ) ، ثم تحدث عن رأى أهل زمانه فى الفضيلة نفسها وسماه (المذهب المختار) ، وأثنى عليهم حين اتخذوا رأيهم الجديد ، فمثلاً الشجاعة التى اعتبرها السلف إحدى الصفات الحميدة لا يعدها المتأخرون صفحة محمودة بل ويعتبرونها صفة خطيرة ومفيدة .

يقول فى قصدة من تأليفه هذه الرسالة فى مقدمتها :

" كما أن الأطباء صرفوا همهم على إزالة أمراض البدن وحفظ صحته شمَّر الأنبياء عن سواعدهم لدفع آفات الروح وأمراضها لكى يصلوا بها من دركات الهلاك ودوامات الجهل والنقصان إلى ساحل النجاة والكمال ، وحين يتأمل العاقل بنظر دقيق يظهر له أن المقصود من إرسال متقلدى أمانة الرسالة هى تهذيب الأخلاق وتطهير سير العباد وطرأ هذا المعنى على لفظ شاعر بهذا السياق :

إذا جاءك نبى أو لن يأتك فطيب سيرتك

لأنه لا يذهب إلى الجحيم الطيب السيرة

والرسول نفسه أزال الحجاب عن عروس هذا المعنى وأجلى جمال هذا التلويح على سرير هذا التصريح بقوله (بُعثِت لأتمم مكارم الأخلاق) ، وقد أثبت علماء السلف فى مطولاتهم هذا القسم الذى يسمى (علم الأخلاق والحكمة العلمية) بحيث يفخر المهم القصير لهذا الفقير عن إدراك شمة منه لاستكمال الخلق بالوجه الأحسن والطريق الأيمن ، وقد بذل من العهد المبارك لآدم الصفى حتى وقتنا هذا أشراف بنى آدام سعيهم البليغ بمشقة بالغة ورياضة تامة لكسب هذه الفضائل الأربعة وهى : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة ، وعدوا سبب سعادة الدنيا ونجاة الآخرة وقالوا :

كـن بـارًا وكــريمًـا بـأى مــذهـب تـكـون عـلـيـه

لأن الكفر ومعه حسن الخلق أفضل من الإسلام وسوء الخلق

والآن فى هذا الزمان وهو زبدة الدهور وخلاصة القرون لما أن مزاج الأكابر لطف وظهر الكبار أصحاب الفكر العالى والرأى السابق ، صرفوا فكرهم الصافى وتفكيرهم الشافى على كليات أمور المعاش والمعاد فهظرت سنن السلف وأوضاعهم فى عين تمييزهم ذليلة وبغير أساس ، وأيضًا بسبب كرور الزمان ومرور الأوان ندرس أكثر تلك القواعد وصعب على الخاطر الخطير والضمير المنير لهذه الجماعة إحياء تلك الأخلاق والأوضاع فلا جرم أنهم داسوا كالرجال بأقدام الهمة على رأس تلك الأخلاق والأوضاع ، وسلكوا لأجل المعاش والمعاد لهم هذه الطريق الذى هو رائج اليوم بين الكبار والأعيان ، وهذا المختصر مقتصر على شرح شمة منه وجعلوا أساس أعمالهم الدينية والدنيوية قائمًا ومستحكمًا عليه .

إن باب المعانى مفتوح وسلسلة الحديث طويلة ولنشرع فى العرض :

مضت مدة وكان يختلج فى خاطر هذا الضعيف عبيد الزاكانى أن يحرر محضرًا مبنيًا على بعض أخلاق القدماء التى تسمى الآن عند الناس (المنسوخة) وشمة من الأخلاق والأحوال عند أكابر هذا الزمان التى تدعى (المختارة) ، لكى تكون سببًا لفائدة طلاب هذا العلم ومبتدئى هذا الوطن ، وفى هذا التاريخ وقد وصلت سنوات الهجرة إلى سبعمائة وأربعين خططت فى عجلة الوقت هذا المختصر المسمى بأخلاق الأشراف

وجعلته فى سبعة أبواب ، كل باب يشمل مذهبين : الأول المنسوخ الذى نهج عليه القدماء فى حياتهم ، والثانى المذهب المختار الذى اخترعه عظماؤنا اليوم وجعلوا عليه بناء أمور معاشهم ومعادهم ، ومع أن جد هذا المختصر ينتهى بالهزل ولكن :

من لديه علم بالمدينة　　　يعلم أين تكون بضاعتنا

وأمل هذا الضعيف فى سعيه لهذا المختصر أن :

رب عارف يومًا ما بموضع ما　　　يدعو لهذا المسكين

وبعد هذه المقدمة يبدأ المؤلف فى بحث كل صفة من الصفات السبع المذكورة بأعلى وفيها ، ويشرح أولاً المذهب المنسوخ والعقيدة المتروكة كما جاء شرحها فى كتب تهذيب الأخلاق عند المتقدمين مثل أخلاق ناصرى تأليف الخواجة الطوسى ، وكذلك فى كتب المتأخرين مثل أخلاق جلالى وأخلاق محسنى[1] ، وبعد ذلك يصف المذهب المختار والعقيدة الجديدة لمعاصريه وأهل زمانه .

وللتمثل ننقل الباب الأول وهو أقل الأبواب هزلاً :

الباب الأول فى الحكمة

قال الحكماء فى حد الحكمة : الحكمة استكمال النفس الإنسانية فى قوتها العلمية والعملية أما العلمية فإنها تعلم حقائق الأشياء كما هى ، وأما العلمية فإنها تحصيل ملكة نفسانية بها تقدر على إصدار الأفعال الجميلة والاحتراز عن الأفعال القبيحة وتسمى خلقًا – أى فى النفس الناطقة قوتان مركوزتان ، وكما لها منوط بتكميلها إحداها القوة النظية والأخرى القوة العملية ، والنظرية هى التى تسوقها نحو إدراك المعارف ونيل العلوم حتى تكتسب بناء على مقتضى هذا الشوق استطاعة معرفة الأشياء كما

(١) أخلاق جلالى لوامع مع الإشراف فى مكارم الأخلاق تأليف مولانا جلال الدين محمد الدوانى المتوفى عام (٩٠٨هـ) ، وأخلاق محسنى تأليف حين الواعظ الكاشفى المتوفى عام (٩١٠هـ) .

هى على حقيقتها ، وبعد ذاك تتشـــرف بمعــرفة المطلـــوب الحقيقى والغرض الكلى وهو نهاية جملة الموجودات (تعالى وتقدس) حتى يصل بدلالة تلك المعرفة إلى عالم التوحيد بل إلى مقام الاتحاد ويسكن قلبه ويطمئن (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[1] ، وتزول غبار الشبهة وصدأ الشك عن وجه ضميره ومرآة خاطره ، كما قال الشاعر :

حيثما حل اليقـين زال الظـن

والقوة العملية هى أن يرتب قواه وأفعاله بحيث تطابق وتوافق إحداها الأخرى حتى تصير بواسطة هذه المساواة أخلاقه مرضيًا عنها ، وحيثما اجتمع هذا العلم والعمل بهذه الدرجة فى امرىء يمكن تسميته الإنسان الكامل وخليفة الله ؛ وتعلو مرتبته عن مراتب بنى جنسه كما قال تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا) ، وتسعد روحه بعد مفارقة بدنه بالنعيم المقيم والسعادة الأبدية وقبول فيض الله ، مصراع (ومن يصله الآن هذا المبلغ من العظمة ؟ وإلى هنا مذهب القدماء والحكماء) .

ثم يأخذ المؤلف فى بيان المذهب المختار مباشرة ويقول :

فلما تأمل العظاء والأذكياء المدققون من تشرفت الآن البسيطة بذواتهم الشريفة فى أمر تكميل الروح الإنسانية ومرجعها ومعادها ووضعوا أمام أعينهم سنن الأكابر السابقين وآراءهم حصل إنكار تام من حضراتهم لهذه المعتقدات ؛ يقولون انكشف لنا أن الروح الناطقة لا اعتبار لها وبقاؤها متعلق ببقاء البدن وفناؤها موقوف على فناء الجسم ويقولون ما قاله الأنبياء إن لها كمالاً ونقصًا ، وسوف تقوم وتبقى بذاتها بعد فراق البدن فهو محال وإن الحشر والنشر أمر باطل والحياة عبارة عن اعتدال تركيبات البدن ،

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد ، و (ألا) فى هذه الآية حرف تنبيه يتفتح به الكلام ويدل على تحقيق ما بعده نحو ألا إنهم السفهاء ، وليس كما ظن براون بأنها مكونة من همزة الاستفهام ولا النافية ، وترجم الآية بهذا الفهم .

فإذا تلاشى البدن صار صاحبها معدومًا وباطلاً أبدًا ، ويمكن أن تكون لذات الجنة وشقاء الجحيم فى عالمنا هذا أيضًا كما قال الشاعر :

من أعطى شيئًا فقد أعطى فى هذا العالم

ومن لم يعط شيئًا وعد به فى الآخرة

فلا جرم أنهم انتهوا تمامًا من أمر الحشر والنشر والعذاب والعقاب والقرب والبعد والرضا والسخط والكمال والنقصان ونتيجة معتقدهم هذا أن صرفوا كل يوم من عمرهم فى كساب الشهوات ونيل الملذات ، ويقولون :

يا من أنت نتيجة للسبعة والأربعة[1]

وأنت فى هم بسبب السبعة والأربعة

اشرب الخمر فقد قلت لك ألف مرة

إن رجعتك للآخرة باطلة فإن مُت مِتَّ

وأكثرهم يكتب هذا الرباعى على السقف الداخلى لقبور آبائهم :

ليس خارج هذا السقف رواق أو دهليز

إلا إذا عدمنا أنا وأنت العقل والتمييز

المعدوم الذى ظننته موجودًا

خل فكرك منه لأنه ليس موجودًا

وبسبب هذا المعتقد أنهم قصدوا دماء الخلق ومالهم وعرضهم صارت عندهم ذليلة ومهانة .

أشرب عليها جرعة خمر بلون النار وأشد حرارة من دم مائة آخ . .

الحق ما أبدع هؤلاء العظام الموفقين الذين انكشف بلا مشقة عليهم ما ظل محجوبًا منذ آلاف السنين على القدماء مع وجود صفاء عقولهم وأورواحهم !

(١) يقصد السيارات السبع المواليد الأربعة التى هى أصل خلق الإنسان عند الحكماء . (المترجم)

رأى عبيد فى الشجاعة والعدالة

ويبحث بالطريقة نفسها عبيد زاكانى سائر الأخلاق الأخرى ، كما نرى فى مبحث (الشجاعة) موضوع كلامه فى الفصل التالى ، ويذكر فيها المذهب المختار كما يلى : (يقول أصحابنا إن من يقدم على أمر مهول ويدخل مع آخر فى حرب وصراع فلا يخلو الأمر دمًا بريئًا ولحقت به مسئولية ما فعل إن عاجلاً أو آجلاً ، وإن قتله خصمه فجهنم ماله ، فكيف يقدم عاقل على حركة أحد طرفها هذان النوعان ، وأى دليل أوضح من أن المخنثين والمتشبهين بالنساء وعازفى الصنج والمهرجين يطلبون إلى حفلات العرس أو السماع أو المحافل المشتملة على الأطعمة اللذيذة والحلوى والهدايا والأموال ، وحين تكون المهام والرماح يدعون أبله قائلين له أنت رجل وبطل وقاهر وشجاع وجرىء فيقدمونه إلى السيوف ، فإن قتل هذا الشقى فى الحرب حرك المخنثون المشابهون للنساء أردافهم فى المدينة شامتين قائلين : لا يناسبنى السهم والبلطة والرمح ، بل يسعدنى الطعام اللذيذ والخمر والمطرب ، والباب الثالث فى (العفة) لا يقبل النقل هنا لكن المذهب المختار فى باب (العدالة) وهو الرابع يجدر بالنقل هنا :

أما مذهب أصحابنا فيرون أن هذا الخلق هو أسوأ الأخلاق ، والعدالة تستلزم خللاً عظيمًا ، ويوضحون ذلك بالأدلة البينة قائلين :

إن بناء أمر السلطة والقيادة والحكم هو العقاب فما لم يخش الرجل لا يطاع ويتساوى الجميع وتختل أسس الأمور وينفقم نظام الأمور ، ومن لا يتصرف إلا بالعدل ولا يضرب أحدًا ولا يقتله ولا يصادر ماله ولا يسكر ولا يعربد ويغضب على الضعفاء لا يخشاه الناس ولا تطيع الرعية أمره إن كان ملكًا ، ولا يسمع الأولاد والعبيد كلام الآباء والأسياد ؛ فتتلاشى مصالح البلاد والعباد ، ولهذا قيل : (يسفك الملوك دماء مائة من أجل مصلحة واحدة) ، ويقولون (العدالة تورث الفلاكة) أو الشقاء ، وأى دليل أوضح من أن ملوك العجم كالضحاك العربى ويزدجرد الأثيم الذى شرف بهم صدر جهنم غيرهم من المتأخرين الذين ظهروا فى أعقابهم كانت دولتهم فى رقى ماداموا يظلمون وملكهم معمورًا فلما آن عهد كسرى أنو شروان وآثر العدل بسبب ركاكة رأى وزرائه الناقصين

عقلاً وسوء تدبرهم اندكت شرفات إيوانه فى أقصر زمن وخدمت معابد نيرانهم التى كانت معابدهم وأمحى أثرهم من الأرض وأمير المؤمنين شيد قواعد الدين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الموصوف بالعدل كان يصنع الطوب اللبن ويأكل خبز الشعير ويقال إن ملابسه المهترئة كانت سبعة عشر منًا ، واختطف معاوية ببركة الظلم الملك من يد الإمام على كرم الله وجهه ، ولم يحكم (بُخْت النصَّر) إلا بعد أن قتل اثنى عشر ألف رسول فى بيت المقدس بلا جريرة ، وأسر آلافًا عديدة من الأنبياء ، فرقت دولته ، وعلا فى الدارين ، وجنكيز خان الذى هو اليوم على رغم أنف الأعداء فى الدرك الأسفل هو المقتدى والإمام للمغول السابقين واللاحقين لم يحكم البسيطة إلا بعد قتله آلافًا مؤلفة من الأبرياء بالسيف الذى لا يرحم .

حكاية : ورد فى تواريخ المغول أن هولاكو لما استولى على بغداد أمر بإحضار من بقى بدون قتل وسأل عن حال كل قوم منهم فلما وقف على حال كل الحاضرين قال : (لابد من وجود أرباب الحرف فسمح لهم لكى يمارسوا أعمالهم وأعطى للتجار مالاً ليتاجروا له ، وقال اليهود شعب مظلوم فقنع بالجزية منهم وأرسل المخنثين إلى حرمه وفصل القضاة ، والمشايخ، والصوفية ، والوعاظ ، والمعلمين ، والشحاذين ، والقلندرية ، والمصارعين ، والشعراء ، والرواة وقال إنهم زيادة على الخلق ويحيلون نعمة الله سخارة فأمر بإغراقهم جميعًا وطهر الأرض من خبثهم فلا جرم إن استقر الملك فى أسرته نحو مائة عام ، وكانت دولته فى تزيد كل يوم فلما وقع بعقل أبى سعيد المسكين آلام العدالة ووسم نفسه بشعار العدالة انقضت حكومته فى مدة أقصر ، وضاعت أسرة هولاكو ومساعيه بسبب نية أبى سعيد :

أجل : إذا اسود زمان الرجل فعل ما لا يجب فعله

رحم الله هؤلاء العظماء أصحاب التوفيق الذين أرشدوا الخلق من ظلمة ضلالة العدالة إلى نور الهداية .

ريش نامة

أما رسالة (ريش نامة) فحوار ظريف بين عبيد الزاكانى ولحيته الذى عدها باعث زوال جمال شبابه .

رسالة النصائح المائة (صدپند)

حرر عبيد رسالة النصائح المائة فى عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ، وكما يدل اسمها فهى تشمل مائة نصيحة منها ما هو جاد ومنها ما هو هازل ، ومن بين نصائحه الجادة :

« أيها الأعزاء - اغتنموا العمر » ثم « لا تؤجلوا متعة اليوم إلى الغد » ، وهذه النصيحة «عش حاضرك فلن يعود العمر ثانية» ومن بين كلماته الهازلة : «لا تقل الحق ما استطعت حتى لا تكون ثقيلاً على القلوب ويغضب منك الناس بلا سبب» ثم «لا تصدق كلام المشايخ حتى لا تضل وتذهب إلى الجحيم» - «لا تسكن بمنزل فى حارة فيها مسجد حتى تأمن صداع الذى يسببه لك المؤذنون أصحاب الأصوات القبيحة» - «لا تحتقر الهزل ولا تنظر إلى الهازلين بعين الحقارة» .

رسالة التعريفات

وهى رسالة كرسالة النصائح المائة صغيرة معروفة بالتعريفات أو الفصول العشرة وتشمل بضع صفحات ، وهاكم أمثلة عدة تبين أسلوبها ونوعها :

الفصل الأول : فى الدنيا وما فيها

الدنيـــا : ما لا يسترح فيها مخلوق قط

العـاقل : من لا ينشغل بالدنيا وأهلها

الكامل : من لا يهتم بالحزن أو الفرح

الفكـر : ما يمرض الناس بلا فائدة

العـالم : من ليس يفكر فى المعاش

الجاهل : هو صاحب الدولة

الفصل الثانى : فى الأتراك وأصحابهم

يأجوج ومأجوج : أتراك يتجهون لحكم الولايات

الزبانية : قوادهم

القحط : نتيجتهم

العسس : من يقطعون الطريق ليلاً ويتقاضون أجوراً من السوقة نهاراً

الفصل الثالث : فى القاضى ومن يتصل به

القاضى : من يلعنه الجميع

المحامى : من يحيل الحق باطلاً

الرشوة : حيلة العاجزين

السعيد : من لا يرى مطلقًا وجه القاضى

الخطيب : الحمار

المقرىء : كَفَلُ الحمار

الشاعر : الطامع المعجب بنفسه

الفصل الرابع : فى المشايخ ومن يتلعق بهم

الشـــيخ : إبليس

الشياطين : أتباعه

الصـوفى : الآكل بالمجان

الحــــاج : من يقسم بالكعبة كذبًا

الفصل الخامس : فى الوزراء وصفاتهم

الادعاء والوقاحة : أساس الوزراء

العـــــدم : وجـودهم

الخـــاوى : تواضعهم

الجزغاف والسفه : كـلامهم

اللوم والحرص والبخل والحسد : أخلاقهم

الأبـــــلـه : من يطمع فيهم خيرًا

الفصل السادس : فى أرباب الحرف وأصحاب المناصب

الســـوقى : من لا يخشى الله

العـطــار : من يتمنى أن يمرض الجميع

الطـبيـب : الجـلاد

الـكـذاب : المنجـم

المصـارع : الكسـول

الـــدلال : حرامى السوق

الواحد بالمائة : ما لا يصل من المزروعات إلى مالكها

الشـكوى : ما يحمل إلى المالك

الفصل السابع : فى الخمر ومتعلقاتها

الخمـــر : أساس الفتنة

النرد والحسناء والشمع والنقل : أدواتها

الصنج والعود والمزامار : آلاتها

الحساء والشواء : أغذيتها

الروضة والبستان : موضعها

هـــازم اللـــذات : رمضان

ليـــلة القـــدر : ليلة العيد

الفصل الثامن : فى البنج أو القنب ولواحقه

القـــنب : من يحرك وجد الصوفية

المرضع والكريم الطرفين : من يجمع القنب والخمر فى شربه

المحـــروم : من لا يشرب واحداً من هذين

الفصل التاسع : فى رب الأسرة وما يتصل به

الأعـــزب : من يهزأ بالدنيا

الشـــقى : رب الأسرة وعائلها

ذو القرنين : المتزوج من اثنتين

أشقى الأشقياء : من تزوج بأكثر منها

البـــاطل : عمر عائل الأسرة

الضـــائع : زمانه

التــالـف : مــاله

المتشـعـث : عقـله

المـــــــر : عيشـه

مكان المـأتم : بيتـه

عـدو أهله : ابنـه

التعيس الحظ : من يبتلى بابنه

الخـصـم : أخـوه

القـــريب : عدو حياته

الفرج بعد الشدة : لفظ الطلاق ثلاثًا

الفـصـل العـاشـر : فـى حـقـيقـة الـرجـال والـنسـاء

الخــاتون : من تعشق الكثير

سيدة البيت : من لديها الأقل

المفلسفة : من تقنع بعاشق واحد

البـكـارة : اسم بلا مسمى

الرسالة المبهجة (رسالة دلجشا) :

أما الرسالة المبهجـة فـهى مجمـــوعة من الحكايات القصيرة العـربية والفارسية فى الفكاهـة والظرافة لها غالبًا جانب الهزل ، وبأولها مقدمة مختصرة ، ونورد بعضـها هنا للتمثيل :

حكايات عربية ..

حكاية : خرج جحا مرة إلى الكناسة ليشترى حمــارًا فاستقبله رجل قاله له : إلى أين ، قال : إلى الكناسة لأشــترى حمارًا قال : قل إن شاء الله ، قال : ليس هذا موضع إن شاء الله ، الحمار فى السوق والدراهم فى كمى ، فلما دخل السوق ضرب عليه طرار وسرق منه الدراهم ، فلما رجع استقبله الرجل فقال : من أين ؟ قال : من السوق إن شاء الله ، سرقت دراهمى إن شاء الله ، ولم أشتر الحمار إن شاء الله وأنا رجعت خائبًا خاسرًا إن شاء الله إلى البيت إن شاء الله .

حكاية : لقى رجل رجلاً وهو على حمار سوء فقال إلى أين يا فلان ؟ قال : إلى صلاة الجمعة ، فقال له ويلك اليوم يوم الثلاثاء ، قال طوبى لى إن أوصلنى حمارى الجامع يوم السبت .

حكاية : جاء رجل إلى إياس بن معــاوية ، فقال : لو أكلت التمر أيضرنى ؟ قال : لا ، قال : لو أكلت الشونيز (الحبــة السوداء) مع الخبز ما يلزم ؟ قال : لا يلزم شىء قال : لو شربت قدرًا من الماء ؟ قال ما تمنع ، قال : شراب التمر أخلاط منها فكيف يكون حرامًا ؟ قال إياس : لو رميتك بالتراب أيوجع ؟ قال لا ، قال لو صببت عليك قدرًا من الماء أينكسر عضو منك ؟ قال لا ، قال لو فعلت من الماء التراب لبنًا فجففت فى الشمس وضربت به رأسك كيف يكون ؟ قال يهلك ، قال ذلك مثل هذا .

حكايات فارسية ..

حكاية : دخل شيعى فى المسجد فرأى أسماء الصحابة مكتوبة على جداره فأراد أن يبصق على اسم أبى بكر وعمر فسقطت بصقته على اسم على فغضب بشدة وقال : تستحق هذا لأنك تقف أمامهم .

حكاية : كان شخص يدّعي الألوهية فحملوه إلى الخليفة فقال : كان أحدهم يدعى النبوة العام الماضى فقتلوه ، قال : حسنًا فعلوا لأنى لم أرسله !

حكاية : كان حجا فى صباه صبيًا لخياط عدة أيام ، وفى يوم أتى أستاذه بكأس مملوء بالعسل إلى دكانه وأراد أن يخرج لأمر فقال لحجا : فى هذا الكأس سم فحذارِ أن تتناوله وإلا هلكت ، فقال : لا شأن لى به ، فلما انصرف الأستاذ أعطى جحا وصلة من ثوب إلى الصراف واشترى رغيفًا كبيرًا وأكل به ذلك العسل كله ، وعاد الأستاذ وطلب الوصلة ، فقال جحا لا تضربنى وأنا أحكى لك بصدق حين كنت غير منتبه سرق نشال الوصلة فخفت أن تأتى وتضربنى فقلت آكل السم فإذا رجعت أكون مت ، فأتيت على ذلك السم الذى كان بالكأس ولازلت حيًا والباقى أنت تعرفه .

حكاية : ذهب قزوينى لقتال الملاحدة وهو يتدرع بدرع كبيرة ، فرموه بحجر على رأسه من القلعة وشجوه فغضب وقال : أيهاب الرجل الحقير ألا ترى درعًا بهذه الفخامة حتى ترمى رأسى بحجر ؟!

حكاية : سقط ابن لقزوينى فى البئر فقال : لا تذهب يا حبيب حتى أذهب وآتى بحبل وأخرك .

حكاية : كان مؤذن يصيح بالأذان ثم يجرى فسألوه لماذا تجرى قال : يقولون إن صوتى جميل من بعيد وأنا أجرى لكى أسمع صوتى من بعيد !

حكاية : رأى السلطان محمود شيخًا ضعيفًا يحمل حملاً من النجيل فأشفق عليه وقال أيهاب العجوز ؟ هل تحب أن أعطيك بضعة دنانير أو حمارًا أو بضعة من الغنم أو بستانًا حتى تتخلص من هذا العناء ؟ فقال العجوز : أعطنى الذهب لكى أعقد به خصرى وأركب الحمار وأسوق الغنم أمامى وأذهب إلى البستان وأستريح بقية عمرى به فى دولتك ؛ فسر السلطان وأمر بإعطائه ما طلب .

حكاية : قال واحد لصديق : عيناى تؤلمانى فما العمل ؟ قال كانت بعض أسنانى تؤلمنى فخلعتها .

حكاية : أقرع خرج من الحمام وكانت قلنسوته قد سرقت فأخذ يجادل صاحب الحمام فقال له الأخير : لما أتيت هنا لم يكن على رأسك شيء فقال : يا مسلم أهل رأسى هذه من الرءوس التى يمكن السير بها بلا قلنسوة ؟

حكاية : سألوا قزوينيًا أهل تعرف أمير المؤمنين عليًا ؟ قال : أعرفه . فقالوا هو الخليفة رقم كم ؟ فقال : لا أعرف خليفة وإنما هو الذى استشهد فى كربلاء على يد الحسين .

حكاية : كان أحد الغجر يتجادل مع ابنه : إنك لا تقوم بعمل وتقضى عمرك عاطلاً كم مرة قلت لن تعلم (الشلقبة) فى الهواء وتقفيز الكلب من الحلقة ، وتعلم اللعب الحبال لكى تستفيد من حياتك ، فإذا لم تسمع كلامى بالله أرميك فى مدرسة حتى يعلموك علم الميراث وتتخرج عالمًا ، وتعيش طول حياتك فى مذلة ومشقة وإفلاس ولا تستطع الحصول على رغيف من شعير من أى ناحية .

حكاية : كان قزوينى آتيًا من بغداد فى الصيف فسألوه ماذا كنت تعمل هناك قال : العرق .

وبالرسالة المبهجة التى نقلنا منها فيما سبق بعض حكاياتها تنتهى المجموعة المطبوعة لمنتخبات لطائف عبيد الزاكانى ولم يبق منها غير رسالتين بآخرها ، وهما نموذج للمؤلفات العامية والتى لا يمكن فهمها وتمتلىء بالأخطاء الصرفية والنحوية والتى نسبت أيضًا إلى الشيخ شهاب الدين قلندر ومولانا جلاء الدين بن حسام الهروى ، لكن لا شك فى أن عبيد هو الذى ألفها لكى يهزء بهذين الشخصين .

أطلنا الكلام فى عبيد الزاكانى وبحثنا قبل أن يعترف له دارسو الأدب الفارسى بالاستحقاق ، لأنه مع كل فحشه هذا يحتل عندى شأنًا ومقامًا عظيمًا بسبب قوة ابتكاره وجساره كلامه وآراه يستحق الدراسة والبحث قبل أن يبدى الباحثون رأيهم

فيه ، ورسالة أخلاق الأشراف له لها من القدر والقيمة لأنها تعرى الأخلاق الفاسدة لأبناء عصره أو على الأقل تجلى هذا المعنى الذى ذكره المؤلف فى مقدمتها وهو قصده من تأليفه لها توعية أبناء وطنه لكى يكونوا على إدراك بفساد الأخلاق والتدهور الخلقى الذى تسرب إلى الحياة العامة الخاصة للشعب الإيرانى فى عصر استيلاء المغول ، ويعد عبيد فى أسلوب تعبيره وانتخاب موضوعاته نسيج وحده بين الشعراء المتقدمين مع أن أدبه لا يخلو من شبه بكلام سلفه (السوزنى) أو خلفائه مثل أبى إسحاق الشيرازى شاعر الأطعمة ومحمود القارىء اليزدى شاعر الألبسة ، ويمكن أن ينافس من بين الأدباء المتأخرين عبيد ويضارعه بل ويتفوق عليه فى هزلياته ميرزاً حبيب الأصفهانى الذى طبعت كتبه ، وتوفى فى أواخر القرن التاسع عشر فى إسلامبول .

عماد الدين الفقيه الكرمانى

قامت شهرة هذا الشاعر وصيته فى الأغلب لأنه كان يعد منافساً للخواجه حافظ الشيرازى ويقال إن حافظاً قد تأثر به فى إحدى غزلياته خاصة فى قوله :

أيتها القطا الحلوة التبختر أين تذهبين عليك

ألا تنخدعى بأن القطة العابدة تؤدى صلاتها[1]

وتفصيل هذه الحكاية بحسب رواية حبيب السير وهفت إقليم : أن عماد الفقيه كان فى كنف عناية الشاه شجاع المظفرى ، ولم يصل حافظ عنده هذا الملك درجته من العشرة والقبول ، وكان عماد كما يدل لقبه (الفقيه) من علماء الكلام والفقهاء فى عهده ، وكان له قطة رباها على يديه وعلمها القيام والجلوس لأداء الصلاة معه ، وكانت هذه الفعلة المقلدة تشكل عند الملك معجزة للفقيه ، لكنها كانت عند حافظ معدودة رياً ومكراً .

(١) راجع ديوان حافظ طبعة Rosen3 Weig- Schwannau المجلد الأول ، ص ٣١٦ .

أشار إليه دولت شاه[1] فى تذكرته والجامى فى بهارستان أو الروضة (فى الفصل السابع) وآذر فى أتشكدة (ص ١١٠) ، وكذلك تذكرة هفت إقليم وتاريخ حبيب السير وأغلب كتاب التذاكر والمترجمين ، وتحوى هذه الإشارات القليلة على مجريات حياته وعمره وموجز ما قالوه إن عماد كان له شأن واحترام فى كرمان وأسس بها مدرسة لكى يعتزل ويعكف فيها وقال الحاجى : (كان شيخًا صاحب خانقاة ، وكان يلقى شعره على كافة الداخلية للخانقاة ويطالبهم بالصلاح ، ومن هنا يقولون إن شعره هو شعر سائر أهالى كرمان) .

وينقل دولت شاه فى تذكرته عن الشيخ آدزى من جواهر الأسرار عنه ما يلى :

(ويرى الفضلاء أنه ربما يقع لشعر المتقدمين والمتأخرين حشو إلا شعر عميد الفقيه إذا أجمع الأكابر على أن شعره لم يطرأ عليه نقص أصلاً لا فى لفظة ولا فى معناه) ، أما أعمال عماد الشعرية فهى ديوان غزليات ونسخة نادرة جدًا[2] وخمسة مثنويات

(١) تذكرة دولت شاه طبعة لندن ، ص ٢٥٤ .

(٢) راجع فهرس مكتبة جنكيبور الذى ألفه مولوى عبد المقتدر تحت إشراف السيردتسون روس وطبع فى كلكته عام ١٩٠٨ ، ويوجد بمكتبة مدرسة سبهالار بطهران نسختان لديوان عماد الأولى برقم ١٢٣٤ ، ألفت فى ٧٦٣هـ مقارنًا لحياة المؤلف والثانية برقم ١٢٣٥ ألفت عام ٩٨١هـ ، راجع المجلد الثانى من هذا الفهرس ص ٧٦٣ – ٦٤٤ ، وتنقل هاتين القطعتين من تلك النسخة الأقدم وهما من لطيف شعره :

أنت الحاكم ولو لم ترغب فى حكم الرعية	وعادتى وأنا العبد هى العبودية والتبعية
لا ينظر إلى القمر والشمس كل من تنظر إليه	ولا يمر على باب الغير من تمر أنت على قلبه
وكل من يتصور له نقش خيال وجهك	يمحو من وجه قلبه نقش المعشوقات التركية
أعمى عينى من الدنيا إلى تنظر إلى	وأتنازل عن حياتى إن عشت معى
الملك الداخلى لأهل القلوب تملكته كله	لو خرج من رأسك دواعى الظلم
أمام نوره وجهك تضاءلت أشعة شمس الشرق	أى الشمس مثل مصباح المفلسين
ماذا يفعل عارف بالله بملك الدنيا وقد لقى	بسبب نظر قبولك دولة ملك ذاك الحدّ
فالحمد لله على أن فارق قلبى هم الدنيا	ولن يهتم بك أحد يا عماد لو اهتممت بالدنيا

وله أيضًا :

سألت صاحب إقبال مخافتة	كيف ظهر سعدك إقبالك هذا ؟
فقال ألا تدرى إن اقبالى	كيف تهيأت أسبابه فى كافة الأحوال
حين حزت على تأييد وجه	وكانت وجوه القلوب بجانبنا

على الأقل أقدمها اسمها (محبت نامة صاحبدلان) أو رسالة محبة العارفين بالله وألفها في ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م وآخرها اسمها (مثنوى مؤنس الأبرار) ألفه في ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م ، ويرى دولت شاه أنه توفى في ٧٧٣هـ / ١٣٧١م وكان سنه في هذا التاريخ كبيراً وهذه القطعة غزلية من اثنتين أثبتهما له دولت شاه :

مسكين منهك كان يحمل من دار الشفاء

للدين قارورة إلى الأطباء الجالسين بالطريق

لا يحزن من سير وألم ومحنة ومرض

من كان الخضر رفيقه والمسيح قرينة

نقشت على لوح روحى من نصح أبى

رحمه الله وعفا عنه من عهد الأزل

قال يا بنى إن صاحبت عاجزاً

فلا تهزأ به ولا تنظر إليه بعين الحقارة

ركب كبار الدين على الأسود

لأنهم لم يمشوا في الأرض مرحًا ولا أسرع من النمل

إذا لم يسعد بك قلب في الدنيا

فلا تفعل ما يسبب حزن قلب آخر

لا يمكن طلب العون إلا من الله يا عماد

يا مستعان عونك إياك نستعين

جمال الدين محمد سليمان بن علاء الدين محمد

سلمان الساوجى الذى سبقت الإشارة إليه بذيل سيرة عبيد الزاكانى شاعر آخر صدّق حافظ الشيرازى على رفعة مكانته فى قوله :

هل تعرف قدوة فضلاء الزمان من يكون

إنه بصدق ويقين لا بكذب وظن

ملك ملوك الفضلاء سلطان بلاد الشعر

جمال الملة والدين سيد الدنيا سلمان

كان حتى آخر عمره المدير شاعر بلاط السلاطين الجلايريين ومادحهم ، وأخص ممدوحين هم شيخ حسن الكبير مؤسس تلك الأسرة وزوجته دلشاد خاتون وابنهما شيخ أويس ، وبالإضافة إلى ما كتبه كتاب التذاكر عنه[١] وترجمة أحواله الكثيرة الدقة والاعتبار التى قام بها فضلاء الهند فعليه ترجمة بالإنجليزية وأخرى بالأردية وكلتاهما تستلفتان الاهتمام الأولى فى فهرس المكتبة الشرقية لبنكيبور (من الفردوس إلى حافظ) ص ٢١٩ بقلم مولى عبد المقتدر الذى جمع خلاصة نقدية كثيرة الحسن عن سلمان ، والثانية تشمل مجموعة من الدراسات المتصلة باثنى عشر

شاعراً مشهوراً بقلم شيلى النعمانى فى كتبة المسمى بشعر العجم الذى ألفه فى ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م وطبع فى على جره[٢] .

(١) راجع دولت شاه السمرقند ، ص ٢٥٧ ، وآتشكده الطبعة الحجرية ، ص ٢٠٨ ، وحبيب السير طبعة بمباى المجلد الثالث الجزء الثالث ، ص ١٣٠ ، وبها رستان الجامى الفصل السابع .

(٢) لدى المترجم أيضاً نسخة نفيسة لديوان سلمان وسقط منها أوراق عديدة للأسف ، وكتبت فيما يبدو فى عصر الشاعر .

المصادر المتصلة بسيرة سلمان

أشار مولوى عبد المقتدر إلى أن سلمان ولد فى نحو عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م واستدل على ذلك من شعر له فى مثنــويه فراق نامة الذى ألفه فى ٧٦١هـ / ١٣٦٠م حين يذكر فيه أن واحداً وستين عامًا انقضى من عمره ، وأورد هذا الدارس الفاضل أدلة دقيقة على أن سلمان توفى فى يوم الإثنين ١٢ صفر ٧٧٨هـ ، وله مثنويان أحدهم فراق نامة السابق الذكر والآخر المسمى (جمشيد وخورشيد) ، وديوان مؤلف من الغزليات والمقطعات والرباعيات ، لكن أستاذيته تتضح فى قصائده ، وقد تقدم فيها كما يذكر جامى على بعض الأساتذة المتقدمين مثل : كمال الأصفهانى ، وظهير الفاريابى ، وأثير الأومانى والسنائى وغيرهم من الذين قرضوا شعر القصير وتقدم هو عليهم[1] ، ويقول الجامى فى غزلياته : (فى غزلياته كثيرة الصنعة والقبول ، لكن بما أنها خلت من مذاق العشق والمحبة وهو المقصود من الغزل فلا يقبل عليها أرباب الذوق)[2] .

وتحوى النسخة المطبوعة فى المجرفى بمباى لكليات سلمان على القصائد وترجيع بندين ، وتشغل ١٣٥ صفحة هذا فى قسم ، والقسم الثانى يضم الغزليات من ص ٣٦ إلى ٢٣٠ ، والرباعيات فى الصفحات الست الأخيرة منها .

الأشعار المبكرة لسلمان كما لاحظ عبد المقتدر هى - فيما يبدو - المراثى التى نظمها فى وفاة السلطان أبى سعيد الإيلخانى (نوفمبر / ديسمبر ١٣٣٥م) وكذلك فى وزيره المعروف غياث الدين محمد المقتول فى رمضان ٧٣٦هـ ، وفى هذه السنة نفسها أسس حسن الكبير أسرته الإيلخانية المعروفة وكانت بعاصمتها بغداد ، واجتذبت شهرة سخا هذا الملك وكرمه سلمان ، واستقر فيما يبدو بعد مقتل غياث الدين المفجع فى ظل رعايته .

(١) نص كلام الجامى (بهارستان ، ص ١١٥) هو (له فى إجابة الأساتذة قصائد بعضها أفضل من الأصل وبعضه أدنى والبعض الثالث متعادل معه ، وله معان خاصة ، وأورد كثيراً من معانى الأساتذة خاصة كمال الدين إسماعيل فى أشعاره ، ولما أنه هو الأجمل والأكثر قبولاً فى صياغة هذه المعانى فلا يحل عليه الطعن واللوم) .

(٢) راجع بهارستان طبعة طهران ، ص ١١٥ .

وروى دولت شاه وغيره من المترجمين كيفية حضور سلمان فى بلاط حسن الكبير واجتذاب اهتمامه ، فحين كان هذا الملك مشغولاً يرمى السهام أنشد بالبداهة قطعة فى وصف من رمى السهام عند الملك ؛ فأعجب بها فتقيد شيخ حسن بالعناية بسلمان ، وهذه القطعة هى :

" لما حمل الشاه على كتفه القوس الجيدة الشاشية – كأنه القمر فى برج القوس رأيت زاغى القوس ومعهما العقاب ذو الثلاث ريشات مدت رءوسها فى ركن ووضعت رءوسها بأعلى كتف الشاه ، ولم أدر ماذا قالت فى أذنه ، ولما رمى الشاه سهمه الستين ؛ تصاعدت أصوات الاستحسان من كل ناحية أيها الشاه ، إن سهمك مرتهن بتدبير ، والسعادة تجرى وراء سهمك لن تصدر فى عهدك أنَّه من إنسان ، ولا يجوز أن يئن غير القوس ؛ ففى عهد السلطان صاحب القرآن لن يقدر أحد على شىء إلا القوس " .

ومع هذا كله فإن شهرة سلمان – كما يذكر أصحاب التذاكر – ترتهن فى بلاط الإيلخانيين هؤلاء بوجه خاص بالملكة الجميلة لتلك الأسرة ، وهى دلشاد خاتون وأميرهم المحبوب شيخ أويس ، وقال بهذا الشأن :

استوليت على الدنيا بسيف قلمي	بيمن إقبال هذه الأسرة
وأنا من الشرق حتى الغرب	أكثر شهرة من الشمس اليوم

وجلس شيخ أويس على الحكم فى ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م ، وحكم نحو عشرين عامًا وغالب قصائد سلمان فى مدحه ، ويذكر دولت شاه حكايات عديدة تبين العلاقة الصميمة لهذين الرجلين وقرب منزلة الشاعر عند الملك[1] ، ونقل عنه هذه الحكايات نفسها ouseley فى كتابه (Biographical Notices of The Persian Poets) .

(١) دولت شاه ، طبعة لندن س ، ص ٢٥٧ – ٢٦٣ .

ويقص دولت شاه عن شيخ أويس قوله : كان من الحسن والجمال بالمرتبة التى كان إذا ركب يومًا كان أكثر أهل بغداد يجرون إلى طريقة ، وينظرون حائرين إلى جماله وينشدون بلسان الحال هذا البيت :

كان ريح قميص يوسف ضاع من الدنيا حـــتـى أطــل مــن يــاقــتــك

وأنشأ هذه القطعة قبل موته حين توفى فى أول شبابه :

يوم أن توجـهـت من دار ملك الروح إلى إقليم الجـسـد

كنت غريبًا فيه وأمضيت بضعة أيام فى هذا الوطن

كنـت غـلامًـا لسـيـد فـهـربـت من هـذا السـيـد

وفى النهاية عدت إليه خجلاً ومعى سيفى وكفنى

ألا يـا جـلـسـائـى إنمـا المحـروم مـن هـذه الـدنـيـا

فلتـهـنأوا عـيـشًـا فى هـذه الدار التى رحلت منـهـا

وكما هو شائع عند شعراء القصيدة فإن كثيرًا من قصائد سلمان تتحدث عن الوقائع والأحداث التاريخية ؛ ولهذا يظهر تاريخ نظمها ، وأعد عبد المقتدر فهرسًا يشمل عشرة قصائد ذكر لها تواريخ نظمها والأحداث التى أوجبت قرضها واستخلصها من حبيب السير وأقدمها القصيدة التى نظمها فى عام ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م وقت فرار شيخ حسن الكبير إلى بغداد ومطلعها :

الوقت صباحًا وعلى ساحل دجلة وفى أنفاس الربيع

فـأقـدم يـا بنى بسـفـينتك حـتى سـاحل بـغـداد

ونظم آخر قصيدتين فى عام ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م تهنئة شاه شجاع على نصره فى آذربايجان (راجع حبيب السير المجلد الثانى الجزء الثالث ، ص ٣٥) ، والقصيدة الثانية التى حازت قبول الشاه مطعها هو :

لما أطل من خاطرى شعرى فى وصف وجهه
أطلت الشمس من مطلع شعرى

وبعد أن سمع الشاه شجاع قصيدته هذه قال : كنا سمعنا بسمعة ثلاثة مشاهير ، فلما رأيناهم علمنا أنهم ليسوا بالمرتبة نفسها ، وسلمان أعلا من أن يقال فيه قوله ، ويوسف شاه المعنى يساويه فى الشهرة والفن ، والشيخ كجحانى أقل مما اشتهر عنه .

وإحدى أفضل قصائد سلمان يرثى فيها شيخ أويس الذى مات فى جمادى الثانية ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ومنها هذه الأبيات :

ألا يا أيها الفلك أبطىء فى سيرك فليس سهلاً ما ارتكبته
إنك خربت إيران بموت الشاه
هبطت بالسماء من أوجها
وألقيت بها على الأرض وسويتها بالتراب
ليس عملك هينا إن تمعنت الحقيقة
إنك أهدرت دم كل مسلم وماله وعرضه

وكما ذكرنا سابقًا فالاحتمال أن سلمان مات فى ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م بعد نظمه هاتين القصيدتين المذكورتين بعام واحد ، ومن هنا يبدو أنه اشتغل حتى آخر عمره المديد بإنشاد الشعر ، ولم يركن إلى العزلة والاعتكاف خلاف ما ذكر دولت شاه مع أن الشاعر كان يبرز رغبته فى التوارى والاعتزال كما يظهر فى قطعة جديرة بالاهتمام نقلها عنه شبلى النعمانى فى شعر العجم (المجلد الثانى ، ص ١٩٨) .

يذكر فى هذا القطعة أنه أمضى نحو أربعين عامًا من عمره مقتصرًا على مدح من مدح فى الشرق والغرب ، والآن حين شاب وصار مقعد وكف بصره يرغب فى الاعتزال عن بلاط الحكم وتمضية ما بقى من عمره فى الدعاء لدولة الملك ، إنه يود الآن وهو لا يزال ملك الشعراء الفضلاء أن يكن خادمًا للفقراء والمساكين ، ومع أنه لا شك فى أن

الملك سوف يعطيه راتبه ، لكنه يرجو أن يقرر له هذا الدخل بشكل ثابت ، وقد أشار فى النهاية إلى ديونه التى عجز عن سدادها ، ويسأل الملك أن يؤدى عنه هذه الديون .

ونظم الشاه مجيبًا على هذه القطعة التى أنشأها الشاعر بيتين يوافق فى أولهما على استمرار راتبه المقرر فى الحال والاستقبال ، وفى الثانى يمنحه إقطاع قرية (إيوين) قرب الرى[1] ، ويختم شبلى النعمانى مقاله عن سلمان بوصف ممتع يمدح فيه مهارته فى فنون الشعر ، ففضله يظهر فى الأكثر فى نظمه القصائد ؛ إذ يتميز باللطف والسلاسة والسهولة ، ويتمتع شعره بسلاسة خاصة لم يصل إليها من سبق من الشعراء من طبقة المتقدمين أو خواص الشعراء من طبقة المتوسطين الذين كانوا فى عهد سلمان أفضل نقطة تحول وانتقال فيما بين هاتين الطبقتين هو سلمان ، ويورد شلبى قطعًا عديدة ليبرهن عن ادعائه منها :

اقترفوك عن ضحك لك فظهر السكر الدقيق الحجم
وانبست شفتاك عن كلام لك فظهر اللؤلؤ النضر
لم ير لك خصر ولكن حزامك
عقد خصرك بشدة وظهر مذهبًا
فأسفر عن وجهك لأن زلفك الأسود
أثر فى بياض خدك

وله أيضًا :

جلبت ريح النيروز نسيم الزهور الجميلة
وأتى بغبار مسك الختن من سفح الصحراء
نقش البستان الأغصان بنقوش الطاووس
وجلبت الرياح البراعم على شكل رءوس طيور الببغاء

(١) نقل رشيدنا سمى هذه القطعة لسليمان وجواب الشاه أويس عليها وهو بيتين ، ومصراع واحد فى رسالة العذبة التى ألفها يتتبع فيها ، وينتقد شعر سلمان وسيرته ، ونشرها فى طهران (راجع الرسالة المذكورة ، ص ٥٧) .

أبدى الشقائق نار موسى من سفح الجبل

وأخرجت الأغصان اليد البيضاء من حبيبها

وبعقب ملك الزهور أتى البلبل الغريد

بأنغام بربط وغناء[1]

منحت ريح الصبا والسر والمنضب العالى

وخلع لطف الهواء على الشقائق رفيع الخلع[2]

ويورد شبلى بعد هذا أمثلة عديدة لكلمات سلمان أبدع فيها أفكارًا دقيقة ومعانى لطيفة ، ويعد إنشاء مثل هذه اللطائف الدقيقة من مفاخر الشعراء المتوسطين والمتأخرين وهاكم هذه القطع شاهد على القول :

وضع در الأدراج فى عقيق شفتيك نقد روحه

وكان بضاعة نفيسة فخبأتها بمكان

ووضعتك شفتاك قفلاً من اللعل على دُرْ ذلك الدرج

وأتى خالك بالعنبر وختمه بخاتمه

وعلى حين بغتة دخل قلبى دقيق خصرك

الأدق من الشعرة وخط فيه باسمه

(١) بربط أوياربد ونكيسا من مشاهير الطرب فى إيران قبل الإسلام . (المترجم)

(٢) الأصل الفارسى للتمثيل بشعر الشاعر بهذه القطعة :

باغ نوروز نسيم كل رعنا آورد — كرد شك ختن ازدا من صحرا آورد

شاخ راباغ بنقش دم لماوس نكاشت — غنجة راباد بشكل سربغا آورد

لا له از دمن كوه آتش موسى بنمود — شاخ بيرون زكريبان يدبيضا آورد ازبى

خسرو كل بلبل شيرين كفتار — نغمه باربد وصوت نكيسا آورد

سرورا بادصبا منصب بالابخشيد — لاله را لطف هو اخلعت والا آورد

(المترجم)

أيضـًا ..

سـبّح بـعـد هذا بـعـقـد ضـفـائـر المجـوسـيـات

واجعل محرابك بعد هذا من انحناء حواجب الحسان

واطُفْ جـيـداً مـثل الحـبـاب من الخـمـر الوردية

ولا تعتمد على هذه القبة الدائرة التى تماثل الحباب

أيضـًا ..

رأت الـصـبـا الـبـرعـمـة تـضـحـك أمـام فـمـك

فضربتها على فمها ضربة امتلأ على أثرها فمها بالدم

أيضـًا ..

لـم أخـطـو خـارج هـذه الـدائـرة قـيـد شـعـرة

ولو شقونى من منبت شعرى إلى أخمص قدمى نصفين كالفرجار

والأمر الآخر الذى استلفت اهتمام شبلى فى أشعار سلمان مهارته فى استعمال القوافى الصعبة والروى النادر : فله قصائد طويلة مردفة أى ينتهى كل بيت منها بكلمة بحيث يكون رديفها فى مرة كلمة (دست) أى اليد ، والثانية رديفها (با) أى القدم ، وفى الثالثة رديفها (رو) أى الوجه ، وفى الرابعة رديفها (سر) أى الرأس ، وقبل ذلك الرديف أتى الروى مع الكلمة المقفاة بتعاقب ، ومع كل هذا الالتزام والإشكال فلم يفقد شعره فى تلك الأبيات والكلمات سهولته وسلاسته الطبيعية .

وبعد ذلك أعد شبلى بحثًا عن مقطعات سلمان ، وبما أن هذه الأبيات تحوى أحداثًا ونظمها فى العادة صاحبها بمناسبة وقوع أحداث حياتية لهذا فإن جانبها الشخصى يزيد عن القصائد والغزليات ، ولكن للأسف يفتقد ديوان سلمان المطبوع فى بمباى على الحجر هذا الجزء من المقطعات .

منح السلطان سلمان ذات مرة حصانًا أسودا لم يعجب الشاعر ، ورغب فى أن يستبدل به حصانًا بلون مختلف ، لكن أمير الأصطبل الملكى لم يسمح بهذا الأمر ؛ فنظم سلمان هذه القطعة وأرسل بها إلى السلطان :

كنت وعدتنى أيها الملك بحصان

ولیس فی وعود الملوك قول مختلف

فأعطونى حصانًا أسود وعجوز وأنا

أعتقد أن ليس فى الدنيا أكثر سوادًا من هذا الحصان العجوز

فأرجعت هذا الحصان لكى آخذ غيره

فى حين أن أحدًا لا يدرى بهذا السر

أعطيتهم الحصان الأسود فلم يعطونى غيره بلون آخر

أجل ليس هناك لون بعد الأسود

وفى قطعة أخرى يهجو الشاعر هذا الحصان الأسود المسكين نفسه فى قوله :

أيها الملك كان أملى أن أركب فى دولتك

حصانًا عاليًا وشابًا ومتحركًا فأعطونى

حصانًا عجوز وضعيفًا وقصيرًا

حصانًا لا أستطيع ركوبه بهذه الحال

إنه أسود كحبر الأقلام ، وواهن وأعجف

والجهل المركب هو ركوب حصان كهذا

إنه أكبر منى بثلاثين عامًا بصدق

ومن الوقاحة ركوب ظهر الكبار سنًا

وفى قطعة ثالثة يعتذر سلمان من غيبته عن بلاط السلطان بسبب رمد أصاب عينية ويقول مع أن غبار بلاط السلطان هو كحل عينيه المرمودتين فمع هذا لابد من طرد العين المصابة أو الشريرة عنه :

أيــهـــــاب المــلـــك إن غـــــبـــــار بـــلاطـــك

فـــــضـــل لـــى مـــن الـــغـــــبـــــار الـــذهـــبـــى

لــكــن فـــى مـــــثـــل حـــــالــتـــى الأفـــضـــل لـــى

أن أتـــغـــــيـــــب عـــن مـــــجـــلـــســـك

والآن وعـــــيـــنـــاى بـــعـــــيـــــدتـــان عـــن بـــلاطـــك

فـــهـــذا أفـــضـــل أن تـــبـــتـــعـــد عـــنـــك العـــين الـــســـيـــئـــة

وفى ظروف أخر متشابهة مع الحالة السابقة ، جعل سبب غيابه عن البلاط الملكى هو إصابة قدمه بمرض ، ويبدو أنه كان مصاباً بالنقرس ! وقد أشار إلى ذلك فى مواضع أخرى من شعره ، وقال إن آلام قدمه حالت دون إصابة السلطان بالصداع واستخدم هـذين المصطلحين (إيهام أو تـورية التنـاسب) و (التضاد) فى شعره بالنحو التالى :

جـعـلـت من أجـل رؤيـة الـشــاه مـن فــرقـى ورأسى قــدمـًا

وأردت أن أتـوجـــه إلـى المجـلـس المـيـــمـــون المـلـكـى

فـعـرض ألـم لقـدمى منعنى أن أسـبـب ألمًـا لـرأسـكم

وأنـى لى أنـا من بـقــدمــه ألـم أن أســبـب ألمًـا للـرأس

ما سبق كان كلام شبلى النعمانى ، ومداره أن سلمان كان شاعراً مبتكراً ويزين شعره بالصناعات البديعية خاصة التورية ، ويحق له أن يتبوأ مكانة فى عداد شعراء القصيدة العظماء ويتمتع أيضًا بالابتكار والمهارة والأستاذية الكبيرة ، لكنه يفتقد فى رأيه إلى القريحة المتوفرة والذوق والإيمان الذى يلزم للشاعر العظيم ، وإذا لم تجتمع تلك الصفات فى الشاعر ؛ فلن يمكنه أن يحوز الشهرة والعظمة الواجبتين له خارج زمانه ومكانه .

الخواجة شمس الدين محمد حافظ

يمكن أن يصدق أيضًا في حق أفضل وأشهر شعراء هذا العصر بل أفضل شعراء إيران على الحقيقة أي الأستاذ الخالد العديم النظير حافظ الشيرازي ما ذكرناه في صدر هذا الفصل عن قلة المصادر وندرة المعلومات الموثقة المتعلقة بشعراء هذا العصر ، وبشأن هذا الشاعر الملقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار كتبت طبعًا في كثير من الكتب مثل تذكرة الشعراء المؤلفة بعد موته حتى مجمع الفصحاء ورياض العارفين تأليف هدايت المؤلفين في القرن السابق ، وكلها تشمل موجزًا عن سيرته لكنها تفتقد للموضوعات المفصلة التي تبين تفصيلات حياته وأغلب ما فيها حكايات تتصل ببعض أبياته التي أغلبها ملفق وموضوع بهدف شرح هذه الأبيات وتفسيرها ، الأثر الوحيد الذي ألّفه أحد المعاصرين لحافظ الذي يشمل شهرته وأحاطنا بها علمًا هو هذه المقدمة التي كتبها أحد أصدقائه ، وكان جامع أشعاره واسمه محمد (جلندام) ، وبعد إطناب الكلام فيها عن ذكر صفاته الشريفة والمحمودة عند العام والخاص لقي الشهرة العالمية حتى في عهد حياته وسارت أشعاره مع الركبان من فارس إلى خراسان وأذربايجان بل وحتى العراقين والهند أيضًا يقول[1] :

ولكن بسبب المحافظة على دروس القرآن وملازمة شغل السلطان وبحث الكشف[2] والمصباح[3] ومطالعة المطالع[4] والمفتاح[5] وتحصيل قوانين الأدب وتحقيق دواوين العرب ،

(١) راجع محمد جلندام ومقدمة التي جرى عليها تحريفات بما يجعل لازمًا على القارئ أنه يراجع الحواش الدقيقة والكاملة التي أعدها العلامة الأستاذ محمد القزويني في مقدمة ديوان حافظ طبقة طهران عام (١٣٢٠ ش) ، وبما أننا ملتزمون في ترجمتنا للنص الإنجليزي بالأمانة فلا فوت من ترجمة ما نقله نفسه وترجمة المرحوم براون مؤلف هذا الكتاب من النسخ المطبوعة العادية لحافظ .

(٢) الكشاف هو تفسير معروف للزمخشري ، واسمه الكشاف عن حقائق التزيل وطبع مرارًا وتكرارًا في أوروبا ومصر .

(٣) المصابح يبدو أنه بين الكتب التي سميت بالمصباح هو المصباح تأليف المطرزي (توفى ٦١٠هـ) في علم الصرف والنحو .

(٤) المطالع يبدو المقصود به مطالع الأنظار في طوالع الأنوار تأليف القاضي البيضاوي (المتوفى ٦٨٥هـ) .

(٥) المفتاح هو مفتاح العلوم تأليف السكاكي (توفى ٦٢٦هـ) .

ويصديق كلام براون على المطالع بأنه مطالع الأنظار على طوالع الأنوار ، ولكن ليس البيضاوي مؤلفه بل شمس الدين أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني الشافعي المولود عام (٦٧٤هـ) ، والمتوفى (٧٤٩هـ) ، وهو شرح على كتاب طوالع الأنورا والأنظار تأليف القاضي البيضاوي في التوحيد .

فلم ينشغل بجمع أشتات الغـزليات ، ولم ينصرف إلى تسجيل الأبيـات وإثبـاتها ، وحين كان مسود هذه الأوراق أقل الأنام محمد جلندام – عفى الله عنه ما سبق – يختلف للاستذكار إلى دروس حصن الدين مولانا وسيدنا أستاذ البشر قوام الملة والدين عبد الله أعلى الله درجاته بالبركات والمرات قال فى أثناء المحاورة : يجب سلك هذه الفرائد للفوائد فى عقد واحد ، وينبغى ربط هذه الغرر من الدرر فى سلك واحد ، حتى تصير قـلادة لجيد وجـود أهل الزمان ، وتميمـة لوشـاح عرائس الأوان ، وكان هذا الجناب يحول رفع هذا البنـاء وترفيعه على خـداع الزمان ، ويعتذر لعذر أهل العصر حتى أودع فى تاريخ سنة إحـدى وتسعـين وسبعمـائة[1] وديعـة حياته إلى الموكلين للقضاء والقدر .

سيرة حافظ

وفيما يتصل بسيرة حافظ ألف السير جور أوزلى فى كتابه المسمى (ملاحظات فى سير شعراء فارس Biographical Notices of Persian Poets) مشرحاً ، وجمع غالب الحكايات المتصلة بالأبيات فى ديوانه ، فضلاً عن شرح مهيب وجدير بالثناء لعصر أستاذ شيراز ، وكليات أشعاره فى مقدمة ترجمة ديوانه الإنجليزية من إعداد الآنسة جرتر ودلوتيان بل Miss Getrade Lowthian Bell ، وتحت عنوان (قصائد من ديوان حافظ Poems from the Divan of Hafiz) ، ويجب عدة من أفضل الأعمال الإنجليزية حول هذا الشاعر الفارسى .

(١) فى نسخة ديوان حافظ طبعة القزوينى أتى تاريخ فى اثنين وتسعين وسبعمائة (راجع الحاشية المفصلة للقزوينى ، ص قح) .

تحقيقات شبلى عن حافظ

كتاب شبلى النعمانى المؤلف بالأردية وهو (شعر العجم) – والذى نقلنا عنه هذا الفصل مرارًا – هو بعامة خلاصة أفضل وأكمل الدراسات التحقيقية التى تمت حول صورة – عن سيرة هذا الشاعر ، وتشمل بعض الحقائق عن أوضاعه وأحواله وعلاقاته بمعاصريه أيضًا وما يمكن استنباطه أيضًا من أشعاره ، وتشير كذلك إلى المصادر التى كانت رجع إليها هذا المؤلف العالم فى سيرته والمتكوبة بالفارسية .

ويخص منها بالذكر حبيب السير (راجع جـ٣ ، ص٣٧ من شعر العجم) و (تذكرة مى خانه) لعبد النبى فخر الزمان ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م المؤلفة فى عهد السلطان المغولى جهانجير ، ولم تصل إلىَّ مع الأسف[١] .

المصادر الفارسية لسيرة حافظ[٢]

لا تمدنا بمعلومات كثيرة عن حافظ المصادر الفارسية التى رجعنا إليها فى سير الرجال (لأنها جميعًا كما لاحظ شبلى ينقل بعضها عن الآخر ، والموضوعات المذكورة بها لا تنهض دليلاً قويًا على صحتها بل تسبب الخطأ والغلط كذلك) ، وهى تذكرة الشعراء لدولت شاه وبهارستان ، ونفحات الأنس للجامى ، وأتشكدة للطف على بيك الذى ينقل بالنص عن دولت شاه ، وهفت إقليم ، وأخيرًا الكتاب الحديث جدًا مجمع الفصحاء وبعض معلومات حديثة المشكوك فى صحتها مثل : إن أصل حافظ كان من (تويسرجان) ، وإن له تأليفًا فى تفسير القرآن .

(١) كتاب تذكره ميخانه أى تذكرة الحانة لم تصل إلى يد براون فى ذاك الوقت ، لكنها نشرت فى ١٩٢٦م ، بعد ذلك بهمة محمد شفيع أستاذ العربية فى جامعة لاهور فى هذه السنة نفسها ولها مقدمة وحواش بالأردية ، وأتى تفصيل لسيرة حافظ ويشمل كثيرًا من الحكايات العذبة فى صفحات (٨٠ – ٩٣) من هذا الكتاب .

(٢) فى الفترة الأخيرة قام الدكتور قاسم غنى أستاذ الطب بدراسات طويلة فى أثار حافظ وأفكاره وأحواله ونشر المجلد الأول فى مجموعته الشاملة لتاريخ عصر حافظ أو تاريخ فارس ونواحيها وما جاورها من ولايات فى القرن الثامن فى عام ١٣٢١هـ . ش بطهران .

نسب حافظ ومدة صباه

شرح شبلي النعماني في كتابه موضوعات بأسلوب منظم ، فبدأ بالكلام عن نسب حافظ وحالته الدراسية ، واقتبس هذه المعلومات من كتاب (تذكرة ميخانة) المشار إليه فيما سبق ، لكنه فيما يبدو نفسه لا يثق كثيراً بهذه التذكرة المذكورة ، على أية حال فبناءً على ما ذكر كان اسم أبي حافظ هو بهاء الدين ، وهاجر في عصر أتابكة فارس من أصفهان إلى شيراز وجمع بها بالاكتساب والتجارة ثروة ، لكنه مات في النهاية واضطربت أعماله ولم يكن له وريث غير زوجته وولده الصغير ، وكانا يعيشان في فقر وفاقة ؛ فاضطر هذا الابن بعد ذلك إلى أن يكسب لقمة عيشه بعرق جبينه وكد يمينه ، ومع كل هذا فقد كان يجد في كل وقت فرصة ومجالاً يكتسب فيهما العلم من خلال كتاب كان بجواره ؛ فنال منه أساسه العلمي وحفظ القرآن الكريم ، ولأجل هذا جعل تخلصه الشعري بعد هذا (حافظ) أو الحافظ ، وكان لقب (حافظ) يطلق عامة على من كان بإمكانهم تلاوة كلام الله المجيد كله حفظًا بلا خطأ ، ولم يمض وقت طويل حتى عمل بنظم الأشعار ، لكن لم يحقق في هذا النظم براعة إلى أن حدثت له ذات ليلة من ليالي القدر في ضريح باباكوهي الواقع في تل في شمال شيراز مكاشفة ووفق في رؤية الإمام على بن أبي طالب (رضي الله عنه) الذي منحه غذائيًا ربانيًا ، وبشره بأن موهبة الشعر ومفتاح العلم اللادني سوف يكونان من بعد من نصيبه[1] .

ممدوحو حافظ

ثم ينعطف من بعد شبلي النعماني إلى ذكر بعض السلاطين والأمراء الذين تولوا حافظ بالإكرام والاهتمام ، ويذكر منهم أولاً أبا إسحاق أنجو[2] .

(١) ما هو مشهور في شيراز أن مكافشة حافظ وقعت له في الجبل الشرقي (تنج الله أكبر) بالقرب من موضع يقال له بئر مرتاض على شاه ، ولا يزال يجرى على لسان أهل هذه المدينة حكايات عنبة بهذا الشئن على الألسنة والأفواه .

(٢) بناء على قول فارس نامه سيطر على شيراز في عام ٧٤٣هـ / ١٢٤٢م ثم حاصر مبارز الدين محمد بن المظفر هذه المدينة بعد ذلك في ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ، وبعد أن قتل الابن الصغير الشيخ أبي إسحاق وهو على سهل طرد مبارز الدين إلى أصفهان ، لكنه في النهاية تغلب على أبي إسحاق وقبض عليه مبارز الدين ، وقتله في عام ٧٥٨هـ / ١٣٥٨م .

وهذا الأمير هو ولد محمود أنجو[1] الذى كان يحكم فى عهد غازان خان فارس وكان أبو إسحق نفسه شاعرًا ومحبًا للشعراء ورجلاً سكيرًا وماجنًا حتى إنه غفل عن أمور الحكم إلى أن أطلعه أحد المقربين إليه ، واسمه الشيخ أمين الذين على فساد الأمور وذكره بقوة أعدائه المتزايدة وهم آل المظفر الذين كانوا يحاصرون عاصمته فرد عليه قائلاً إن عدوه لابد أن يكون أحمق جاهلاً لأنه يحارب بهذا الشكل ، فهذا فصل الربيع الساحر هذا ثم أنشد هذا البيت :

هلم حتى نتريض ليلتنا الوحيدة هذه
وحين يصبح الصباح نقوم بهموم الغد

ويقول حافظ فى المدة القصيرة ، ولكنها السعيدة لأبى إسحاق :

حقًا إن الخاتم الأبى إسحاقى[2] الفيروزى
لمع بوضاءة كبيرة لكن حكمه كان عاجلاً

الرجال الخمسة لبلاط أبى إسحاق

أنشد حافظ القطعة الآتية فى ذكرى خمسة رجال فى بلاط الشاه أبى إسحاق ، وكان قد نعم بوجودهم ، وهم من الرجال المهمين لذلك العصر فى عهد حكم الشاه شيخ أبى إسحاق – عمر إقليم فارس بخمسة رجال معجبين : أولهم الشاه مثله واهب الرعاية والعناية – وفاز بقصب السبق والفضل فى عدله وعطائه وجوده ، وثانيهم

(١) وفق تاريخ فارس نامه قتل محمود أنجو فى عام ٧٣٦هـ / ١٢٣٥م على يد أربا ، وقتل هذا بدوره على يدان محمود مسعود أنجو .
(٢) (بواسحاقى) تورية ، فأحد مناجم الفيروز فى نيسابور يعرف باسم (بوسحاقى) يتميز عن القية المناجم و (بواسحاقيون) هم أحد البيوت المشهورة فى نيسابور أيضًا .

الشيخ أمين الدين بقية الأبدال[١] ؛ الذى كان داخل الأقطاب ومجمع الأوتاد ، وثالثهم القاضى العادل أصيل الملة والدين[٢] ؛ الذى لا تذكر السماء قاضيًا يفضله ورابعهم القاضى الفاضل عضد[٣] ؛ الذى بنى فى التأليف (شرح المواقف) باسم الشاه ، وخامسهم الكريم مثل حاجى قوام[٤] ذى القلب كالبحر ؛ الـذى كان يعجل بالعطاء مثل حاتم فى جوده ، لم يخلفوا عنهم من يناظرهم وقضوا نحبهم - رحم الله عز وجل جماعتهم[٥] .

(١) الشيخ أمين الدين محمد بن مسعود الكازرونى ، من أجلة صوفية عصره توفى فى كازرون عام ٧٤٥هـ - راجع بشيراز نامه لأبى الخير زركوب .

(٢) هو القاضى مجد الدين إسماعيل بن ركن يحيى القاضى المعروف فى زمانه توفى بشيراز فى ٧٥٦ ، ونظم حافظ فى تاريخ وفاته قوله (سنة تاريخ وفاته : طلب من رحمة الحق) ، ويذكره بالتفصيل أيضًا ابن بطوطة فى رحلته . والبيت الفارسى الثرى ذكره براون فى حقه خاطئ وصحته معناه (وثانيهم مربى الإسلام الشيخ مجد الدين) راجع حافظ طبعة القزوينى ، ص ٣٦٣ .

(٣) القاضى عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى ألف عدة كتب فى الحكم والكلام والأخلاق منها المواقف فى علم الكلام وشرحه بالتفصيل الشريف العلامة الجرجانى ، وتوفى القاضى العضد فى ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م .

(٤) حاجى قوام ممدوح حافظ ، وقد مدحه فى أشعاره الأخرى منها بيته المعروف :

البحر الأزرق للفلك وسفينة الهلال	غرقا فى نعمة ولينا حاجى قوام

وكان قوام الدين حسن وزير الشيخ أبى إسحاق ، ويذكر تاريخ وفاته محمود الكتبى فى تاريخ أسرة آل المظفر بأنه عام ٧٥٤هـ ، ونظم حافظ قطعة فى تاريخ وفاته هى :

رئيس أهل العمائم شمع جمع المحفل	صاحب صاحب القرآن حاجى قوام الدين حسن
ثالث شهر ربيع الآخر فى الظهيرة	من يوم الجمعة بحكم الخالق ذى المنس
وفى أربع وخمسين وسبعمائة من موت خير البشر	وكانت الشمس بالجوزاء والقمر بالسنبلة
طار روحه وهو عنقاء العش القدسى	نحو جنة الآخرة من شرك درار المحن هذه

(٥) تنقل هذه القطعة الآتية مع أنها تختلف بشدة عن القطعة التى فى الأصل المنقولة عن طبعة القزوينى المحتوية على حواشى مفيدة وذلك لمزيد الفائدة :

عمر إقليم فارس بخمسة رجال معجبين	فى عهد حكم الشاه شيخ أبى إسحاق
الذى يرعى أرواح مقربية وهو عطاء التمتع	أولهم ملك مثله واهب الرعاية والولاية
الذى لا تذكر السماء قاضيًا أفضل منه	وثانيهم ربى الإسلام الشيخ مجد الدين
الذى انفتحت بيمن همته الأمور المستغلقة	وثالثهم بقية الأبدال الشيخ أمين الدين
الذى أسس فى التأليف بنيان المواقف باسم الشاه	ورابعهم ملك العالم العضد
الذى حاز الصيت فى الدنيا بالعطاء والجود	وخامسهم الكريم قبل حاجى قوام من قلبه بحر
رحم الله عز وجل جماعتهم	يخلفوا عنهم من يناظرهم وقضوا نحبهم

الديوان طبعة طهران ، ص ٣٦٦ .

الأمير مبارز الدين بن المظفر

حكم الأمير مبارز الدين محمد بن المظفر إقليم فارس من ٧٥٤هـ/١٣٥٣م إلى ٧٥٩هـ/١٣٥٧م ، وكان يختلف عن سلفه أبى إسحاق اللاهى المتنع ، وكان من طراز مختلف رجلاً شديداً وقاسياً وغليظ القلب ، وما إن فتح شيراز حتى أقفل جميع الحانات ومنع بشدة شرب الخمر ، فضاق حافظ بهذا الرياء ، ويشير فى إحدى غزلياته إلى أيامه ذات الضيق والعسر حين يقول :

مع أن الخمر تهب السعادة والرياح تنخل الزهور

لكن لا تشرب الخمر على أنغام الصنج لأن المحتسب [١] قاسٍ

اخف زجاجة الخمر فى كُمك المرقع

لأن الزمان يصب الدم مثل عين القُلَّة

اغسل بدموعك عن خرقك وملابسك لون الخمر

لأن عهدنا هذا هو عهد الورع والتقوى

وقال كذلك :

ليتهم يفتحون أبواب الحانات

فيفتحون بذلك العقد عن أحوالنا المعقدة

فقطع ذؤابة الصنج على موت الخمر الصافية

حتى تفتح الحسناوات المجوسيات ضفائرها

(١) حين يشير حافظ فى أشعاره التى نظمها فى هذه الفترة بكلمة (المحتسب) ، فقصده غالبًا هو مبارز الدين محمد لأنه كان يطلق عليه من وجه الطعن والسخرية (المحتسب الكبير) .

اقفلوا أبواب الحانات والله لا يرضى

بأن يفتحوا أبواب بيوت الخداع والرياء

إنهم إن أقفلوها بسبب قلب الزاهد الأنانى

فقو قلبك أملاً فى أنهم سيفتحونها من أجل الله

الشاه شجاع وحانات الخمر

غير الشاه شجاع الذى خلف والده مبارز الدين فى الحكم إجراءاته القاسية المتجبرة إلى الليونة واللطف ، ونظم هذا الرباعى بهذه المناسبة :

فى مجلس الدهر ذل حال آلة السكر

فلم يعد الصنج والقانون والدف تستعمل

ونبذ الرنود الماجنون جميعًا شرب الخمر

إلا محتسب المدينة الذى هو ثمل بلا خمر

ولما فتحت الحانات أبدى حافظ فى غزليته التالية سعادته لهذا الافتتاح :

سمعت بالسحر من هاتف الغيب بشرى

إن الوقت هو وقت الشاه شجاع فاشرب غير متهيب الخمر

انقضى ذاك الوقت الذى كان يعيش فيه أهل المنظر

على هامش الحياة ، ومات آلاف الحديث على الألسنة والشفاه

فلنقص تلك الحكايات على أنغام الصنج

لأن الصدور تغلى بسبب إخفاء آلة الخمر هذه

إن الملوك هم أنفسهم الذين يدركون رموز حكمهم

فلا تصرخ يا حافظ من كنت تستجدى عزلتك

ثم نظم فى غزلية أخرى له قوله :

أقسم بحرمة الشاه شجاع وجاهه وجلاله

على أن ليس بيني وبين أحد نزاع بسبب المال والجاه

انظر كيف يسير راقصًا على نغمات الصنج

ذاك الذى لم يكن يؤذن له باستماع الموسيقى ،

وأيضًا فى غزلٍ آخر :

صاح الصنج فى قرقرة أين ذهب المنكر

وصاح الجام فى قهقهة أين صار الممنوع

فاطلبن وجود الملك أن أردت فائدة الدنيا

فوجوده جود وكرم وفائدة

وهو مظهر لطف الأزل ونور عين الأمل

جامع العلم والعمل روح الدنيا الشاه شجاع

حسد الشاه شجاع لحافظ

ومع كل هذه الأشعار وغيرها التى مدح فيها حافظ الشاه شجاع يقال إن العلاقة بين هذا الشاعر وذاك الملك لم تكن طيبة كثيرًا ، فقد كان الشاه يعتقد فى فقيه عهده العماد الفقيه الكرمانى هذا الذى كما يروى : كان لديه قطة علمها أن تقتدى به وتقلده

فى أدائه الصلاة والركوع والسجود ، وكان الملك يعتقد أن عمل هذه القطة كشفًا وكرامة للفقيه ، لكن حافظ كان يعده تحايلاً ومكرًا وقال فى هذا :

ظهــر الصــوفى وبـدأ دلاله ، وأقــام بنيــان

المكــر مــع الـفـلـك الخــــادع الخــــاتــل

فـيـا أيهـا القـطا الجـمـيل التـجـتـر الذى تمشى

بتدلل جميل لا تتخدع بأن القطة العابدة تصلى (١)

ويبدو أن سوء رأى حافظ نفسه هذا فى العماد صار السبب الأساسى لعدم ميل الشاه شجاع إليه ، ولكن بما أن الشاه نفسه ينافس أيضًا حافظ فى النظم ولم يكن شعره جفائه له ، ولما سمع حافظ بنقد الملك لشعره بقوله إن غزلياته متناقضة فى معانيها ومقاصدها وليست على موضوع واحد ، فمرة تتحدث عن المعانى الصوفية ومرة أخرى عن المعانى العشقية ، وفى بيت تجد الخمر والمادية ، وفى آخر الجد والروحانية ، وأحد أبياته لطيف وعرفانى والآخر متهور ، قال حافظ : أجل مع كل عيون شعرى إلا أنه اشتهر فى الآفاق وينشده كل إنسان ويثنى عليه ، لكن أشعار غيرى من الأنداد لم يجاوز بوابة المدينة ، فغضب الشاه لهذا الكلام ولم يمر وقت طويل حتى سمع بالصدفة هذا البيت لحافظ :

إذا كـــان الإســـلام هـو مـــا يـعـــتـــقـــده حـــافـظ

فــواعــجــبـــا مـن أن آخـرة تـعـقـب دنيـــانا هـذه

فأعلم حافظ بأن هذا البيت أخذ عليه واعتر تهمة للكفر والردة لأن الشك فى وقوع يوم القيامة كفر ، فذهب مضطرب الفكر إلى مولانا زين الدين أبى بكر التايبادى الذى

(١) هذان البيتان مختلفان شيئًا عن البيتين بالأعلى وهما من طبعة القزوينى :

نـصـب الـصـوفى شـركـة وفـتـح غطاء الحـقـة ... وأسـس بـنـاء المكـر مـع الـفـلـك الخـــادع

فيا أيها القطاء الجميل التبختر إلى أين تذهب ... والواجب ألا تنخدع بأن القطة العابدة تصلى

كان قد وصل شيراز فى طريقه للحج وطلب حلاً منه للمشكلة ، فقال له الشيخ بوجوب إدراج بيت آخر فى تلك الغزلية ، ورواية ذلك البيت بطريقة نقل القول عن الآخرين حتى يمكن أن يتهيأ مجال للاعتذار بناء على القاعدة (نقل الكفر ليس كفرًا) ، فعمل حافظ بقوله ونظم هذا البيت وجعله مقدمًا على ذاك البيت :

مـــا أعـــذب حـــديثـى هـذا حـين كـــان ينـشـــده

وقت السحر نصرانى على باب الحانة بالدف والناى

فلما اتهموه بجريمة الارتداد والارتياب فى الآخرة استند على البيت الثانى ، وقال إنه لم يرو ذاك البيت الأول ، وإذا كان نصرانى قال هذا الكلام فلا ينهض على الشاعر دليلاً (١) .

الشاه منصور

توفى الشاه شجاع فى ٧٨٥هـ/١٣٨٣م وخلفه ابنه السلطان زين العابدين فأسره أيضًا ابن عمه الشاه منصور فى عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧م وعزله وحبسه فهنأه حافظ على نصره فى الغزل التالى :

هـلـم فـــقـــد وصـلـت راية المنـصـــور الملـك

وبلغت بشرى الفتح والظفر حتى الشمس والقمر

وكان الشاه زين العابدين الذى سمل بصره بعد أسره بأمر الشاه منصور قد اعترف من قبل بحكم تيمور ، ورحب برسوله قطب الدين وسك السكة وخطب الخطبة باسمه ودخل تيمور نفسه بوقت قصير قبل عزل زين العابدين شيراز أى فى ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ، وهذه المرة التى يظهر أن حادثة لقاء تيمور بحافظ قد تمت فيها ،

(١) نقلت هذه القصة فى حبيب السير ، المجلد الثالث الجزء الثالث ، ص ٣٧ .

ورواها بالتفصيل دولت شاه السمر قندى (طبعة ليدن ، ص ٣٠٥) وقال إن هذا اللقاء تم فى عام ٧٩٥ هـ أى فى الثانى لتيمور إلى شيراز بينما يتقدم هذا التاريخ على موت الشاعر بنحو أربعة أعوام .

تاريخ وفاة حافظ

والعجيب أن دولت شاه يذكر بعدم دقته نفسه وبدون انتباهه أن تاريخ هذا اللقاء هو (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) أولاً ثم يذكر ساهيًا مخطئًا تاريخ وفاة الشاعر فى العام السابق لذلك العام فى عام ٧٩٤هـ/١٣٩٢م بينما حدثت وفاة الشاعر فى عام ٧٩١هـ ، أو فى العام التالى له على وجه الاحتمال أى ٧٩٢هـ ، والتاريخ الأول بناءً على شعر يحوى تاريخ الوفاة ولا يزال حتى اليوم منقوشًا على شاهد قبره وهو :

مصباح أهل المعانى خواجة حافظ

الذى كان شمعًا من نور التجلى

لما نزل فى أرض المصلى

فاطلب تاريخ وفاته فى (خاك مصلى) أو أرض المصلى

ومجموع حروف (خاك مصلى) – بحساب الجمل – هو (٧٩١) أى تاريخ وفاته .

ويذكر هرمان بيكنل Herman Bicknall فى كتاب له ألفه فى حافظ الشيرازى ، وترجم له منتخبات من شعره مادة تاريخ وفاته بطريقة ينتج منها هذا العدد نفسه (٧٩١) باستخدام طريقة العد اللاتينى [1] ، ويذكر هذا التاريخ نفسه محمد جلندام

(١) عبارات بيكنل الإنجليزية نفسها فى كتابة (حافظ شيراز) هى :
"Trice take Than from Mosallah's Edrth its tichest grains"
فى الكلمتين الأوليين Mossallah's Earth الحروف (M+L+L) لها معنى عددى يبلغ بالحساب الروحى (١١٠٠) ، وفى الكلمات التالية لهما تبلغ حروف لها كذلك المعنى العددى وهى (C+I+I+I) حساب (١٠٣) ، وإذا طرحنا من العدد (١١٠٠) حاصل ضرب العدد الثانى فى ثلاثة ينتج (٧٩١) ؛ وهو تاريخ وفاة حافظ نفسه .

جامع ديوان حافظ لكن الجامى فى نفحات الأنس وخو اندمير فى حبيب السير وفصيحى الحوافى فى كتابه المجمل عدوا السنة التالية أى (٧٩٢) تاريخ وفاة الشاعر [١] .

شهرة حافظ فى حياته

أشرنا فيما مضى إلى الشهرة الواسعة لحافظ حتى فى أيام حياته بنحو مايذكره هو نفسه :

على شعر حافظ شيراز تطبل وترقص

ذوات العيون السوداء الكشميريات التركيات السمرقنديات

ويذكر الأمر نفسه فى غزلياته يقول :

كل ببغاوات الهند يقضمون السكر

من هذا السكر الفارسى الذى يبلغ البنغال[٢]

فانظر إلى طى المكان والزمان فى سلوك الشعر

أذان هذا الطفل وعمره ليلة واحدة يطوى طريق يستغرق مائة سيراً

وكانت علاقة حافظ مع كثير مع الأمراء والملوك المعاصرين له فوق علاقته بآل المظفر بشيراز ، إذ حاول السلطان أحمد ابن أويس الجلايرى (الملك الفاضل والكامل من الأسرة الإيلخانية ، وكان يحكم بغداد ، وكان أيضاً شاعراً وموسيقياً ونقاشاً وفناناً) مراراً وتكراراً استقدم حافظ إلى بلاطه ، لكنه لم ينجح بسبب ما ذكره حافظ نفسه .

لا يسمح لى بالسفر والرحلة نسيم أرض المصلى ونهر ركن آباد

(١) كتب الجامى بخطة هو نفسه فى المحظوطة التى أملكها تاريخ وفاته ، وهو سنة اثنين وتسعين وسبعمائة ورأى هذا المؤلف موثوق به فى مثل هذه المسائل .

(٢) راجع Rosenzweihg-Schwannau ج١ ، ص ٤١٦ .

ومع ذلك فقد مدحه حافظ فى أشعارٍ له منها :

أحمد الله على معدلة السلطان

أحمد شيخ أويس حسن الإلخانى

خان بن خان وشاهنشاه من صلب

شاهنشاه من يجدر أن تسميه روح العالم

لم تتفتح برعمة المتعة واللهو من وردتى

الفارسية مجندا دجلة بغداد والخمر الروحانية

فجرٌ عقيقته الأتراك المتدلية على وجوههم

لأن من حظك الدولة الخسروية والمنصب الجنكيزى(١)

ومع أن حافظ لم يوفق فى أى وقت فى الرحلة إلى بغداد ، وكانت أمنيته ؛ لكن يبدو أن هذه الأمنية ظلت على الدوام فى قلبه إذ إنه يقول :

لم نبلغ مقصدنا إلى شيراز ما أسعد يوم أن يسافر حافظ إلى بغداد

دعوة حافظ إلى الهند

وسعى اثنان من ملوك الهند إلى تحريض حافظ على السفر إلى الهند وزيادة بلاطهما : وهما محمود شاه بهمنى الدكنى ، وكان شاعراً مكرمًا للشعراء ومحبًا للشعر ودعا عن طريق مقربى بلاطه ، وهو الأمير فضل الله حافظًا إلى عرشه وأرسل إليه من المال ما يكفى لنفقات رحلته ، وأنفق حافظ الشطر الأكبر من هذا المال فى شيراز قبل تحركه منها ، ولما وصل أثناء طريقه إلى خليج فارس إلى قصبة (لار) صادف بها أحد أصدقائه الفقراء المعدمين وأعطاه ما بقى له من المال ، وهناك كلمهم

(١) فى النسخة الصحيحة معنى الشطرة الأخيرة (العطاء والسعى الخانى والجنكيزى) .

اثنان من كبار التجار الإيرانيين : وهما محمد الكازرونى ، وزين الدين الهمدانى ، وكانا مسافرين إلى الهند بمرافقته لهما فى السفر على أن يتعهدا بنفقات سفره نظير سعادتهما بمصاحبته ، فقبل حافظ طلبهما ورافقهما حتى ميناء هرمز ، واستقل بها سفينة تنتظر نقله إلى الهند ، إلا أن عاصفة هوجاء هبت فى هذا الوقت على البحر ؛ فأصيب الشاعر بخوف شديد جعله يفسخ عزم السفر والعودة إلى شيراز ، ونظم غزلية لمحمود شاه وأرسل بها إلى الهند منها هذه الأبيات [١] .

إن الدنيا بأسرها لاتساوى لحظة عيش بروضتى

فبع دلقتنا بالخمر فليس ما يفضل هذا

وجلال التاج السلطانى الذى يندرج فيه الخوف على الأرواح

لا يساوى مفرق الشعر وإن كان قلنسوة بديعة

ما أفضل سجادة التقوى التى لا تساوى كأسًا

ولا تبلغ قيمة جام فى رَبْع باعة الخمر

وكانت هجوم البحر تبدد فى البداية سهلة بسبب رائحة الريح [٢]

لكنى أخطأت إذ إن موجة منه لا تساوى مائة مَنٍّ ذهبًا

ويحكى شبلى النعمانى والعهدة عليه [٣] أن سلطانًا آخر من الهند اسمه غياث الدين البنغالى ، الذى حكم فى ٧٦٨هـ/١٣٦٦م، كانت له مكاتبة مع حافظ منظم له الشاعر غزلية منها هذه الأبيات :

(١) هذه الحكاية بناء عن رواية مؤرخ الهند محمود قاسم فرشته الاسترابادى الذى ألف كتابه فى ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م .
(٢) فى النسخة الأخرى معنى الشطرة الأخيرة (أخطأت لأن هذا الطوفان لا يساوى مائة جوهرة) .
(٣) احتسب عبد المقتدر مولوى فى فهرسه القيم الذى أعده لمكتبة بامكيبور وعنوانه (الشعر الفارسى من الفردوس إلى حافظ) هذا الملك الممدوح فى هذا الغزل هو السلطان المذكور نفسه فى الحكاية السابقة أى محمود شاه البهمنى الذى حكم من (٧٨٠هـ ٨٩٩) ؛ وبهذه الصورة نكتب الحكاية تلك شكلاً أكثر كمالاً .

أيها الساقي يجرى حديث السرور والورد والشقائق

والجدال هذا الذى يدور مع الثلاثة الغسالة[1]

كل ببغاوات الهند يقضمون السكر

من هذا السكر الفارسي الذى يسافر إلى النغال

لا تغفل يا حافظ من شوقك إلى مجلس السلطان

غياث الدين عن أن أمورك تسير بالنواح

وقائع الحياة الشخصية لحافظ

كان حتى هنا الحديث عن علاقات حافظ بالملوك المعاصرين له ، وحان وقت الحديث عما لدينا من حوادث حياته الشخصية . ليس لدينا من دليل قوى عن حكاية عشقه لفتاة اسمها (شاخ نبات) وزواجه منها فى النهاية ، ولا ينبغى التوقع أن مثل هذه التفصيلات لحياته الشخصية قد أوردها كتاب السير الإيرانييون ؛ لأنهم سلكوا الصمت المطبق عن الموضوعات الشخصية للشعراء ، ومع هذا فمن المحتمل أن حافظ كانت له زوجة وذرية عديدة ، ويذهب بنا الظن إلى أنه أشار إلى وفاة زوجته فى هذاالبيت .

تلك الرفيقة التى كانت دارنا بسببها دار الملائكة

كانت مثل الملائكة برئية من العيب من رأسها إلى قدمها

لكنه لا يصرح بأى تصريح فى هذه الغزلية نفسها يوضح ما ذكره مجملاً عن زوجته بهذا البيت ، لكنه صرح فى إشارته إلى موت ابنه الصغير فى هذه القطعة :

(١) الثلاثة الغسالة والأصح لغوياً الثلاث الغسالة – فى شرح هذا البيت ما يقال فى العادة إنها الجرعات الثلاث التى تشرب فى الصبح لإزالة آلام الخمر أو الخمار . ويذكر عبد المقتدر مؤلف الفهرس أن هذا البيت يشير إلى ثلاث من جوارى السلطان وأسماؤهن الرو والوردة وزهرة الشقائق ، وكانت الثلاث تسمى للأسباب التى ذكرها بالثلاثة الغسالة .

هل رأيت يا قلبى ماذا عاين هذا الابن الشريف فى عطفه هذا الطاق الملون ؟

ابن الفلك أنزل على رأسه اللوح الحجرى بدل أن يضع بجواره اللوح الفضى

ويحتمل أيضًا أن ما يلى من شعره إشارة إلى وفاة ولد آخر له ، وقد ذكر فيه تاريخ وفاته فى صباح الجمعة ، والسادس من ربيع الأول حين زال وجه هذا القمرى من قلبى فى عام أربعة وستين وسبعمائة من الهجرة ، حين صار حل حكايتى الصعبة مثل الماء ، متى أفاد الألم والأسف والحزن ؟! والآن حين انقضى العمر بلا حاصل عبثًا ولعبًا [1] وبناءً على تذكرة الخزانة العامرة التى ألفها فى الهند عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م ميترا غلام على ، فقد كان لحافظ - بذكر هذا المؤلف - ولد اسمه شاه نعمان قدم إلى الهند وتوفى بمدينة برهان بور ، ودفن فى (أسير جره) .

المرتبة العلمية لحافظ

أما فيما يتصل بالرتبة العلمية لحافظ فيمكن القول إنه بشهادة أشعاره الملمعة كان ينظم الشعر بالعربية والفارسية ، وكانت له يد طولى فى اللغة العربية ، فضلاً عن أنه بناءً عن تصريح جامع ديوانه محمد جلندام كان له دراسات وتحقيقات فى علوم الأدب ودواوين العرب ، وقد ذكر هو نفسه :

لم يجمع من حفاظ العالم رجل مثلى
لطائف الحكماء والقرآن الكريم [2]

(١) ويشير أيضًا فى هذا الغزل بصراحة إلى موت ابنه :

بلبل دمى قلبه ولم يفز بوردة	وشعت ريح الغيرة حال قلبه كثيرًا
ببغاء كان سعيدًا وهو يفكر فى قطعة سكر	حين أبطل فجاءة سيل الفناء أمله
ثمرة قلبى هذا وقرة عينى طيب الله ذكره	الذى رحل بهدوء وصعب زمورى

(٢) الشطر الثانى فى نسخة أخرى معناه (لطائف الحكمة مع النقاط القرآنية) ، وفى الرسالة التى أعدها راقم هذه السطور وعنوانها (درس من ديوان حافظ) فى مرداد ١٣١٩ ش أشار إلى حفظ الشاعر للقرآن ومطالعاته فى علوم المعقول وفنون الحكمة ، وقد صرح فى سبعة أبيات مختلفة بحفظه القرآن ، ويمكن لمزيد من المعلومات مراجعة هذه الرسالة .

وهذا البيت أيضا يثبت أنه حفظ القرآن :

لـم أجــد أعـــذب مـن شـــعـــرك يـا حـــافـظ

بــالـقـــــرآن الـذى تحــفـظـه بـصـــدرك

حافظ وهدايا ملوك زمانه

يعتقد شبلى النعمانى أنه لا يفهم من شعر حافظ أنه نظم الشعر مستغنيًا عن التكسب به ، وأنه لم يحتج إلى هدايا ملوك عهده ومنحهم ، بل يرى خلافًا لذلك مدح لأكثر سلاطين عصره مثل : الشاه شجاع ، وأبى إسحاق ، والسلطان محمود[1] ، والشاه منصور ، وملوك يزد وهرمز كما يذكر هو بنفسه :

" لم يرنى ملك هرمز وأهدانى بلا مدح هدايا جمة ، ورآنى ملك يزد ومدحته ولم يعطنى شيئًا ، هكذا حال الملوك ، فلا تحزن يا حافظ ، وليجعل الله الرزاق التوفيق والنصر من حظهم ، كما أشار فى إحدى غزلياته اللطيفة والمشهورة إلى تقصير ملك (يزد) فى الاهتمام به فى قوله :

أطال الله عمرك ، وأنا لكم مرادكم يا سقاه حفل جمشيد ، مع أن كأسنا لم يمتلىء فى عهدكم احك ياريح الضباعنا لسكان مدينة يزد قائلة يا من أنكرتم حق سبقنا مع أننا بعيدون ، فليس يبد عن بساط الهمة أن نكون عبيد ملككم ونمدحه .

اختلاف حافظ عن غيره فى المادحين

بمثل إشارة شلبى النعمانى فإن الفرق بين حافظ وغيره من غالب المداحين الكبار مثل الأنورى وظهير الفاريابى وسلمان الساوجى وغيرهم ، هو أنه لم يتبع فى أية حال

(١) لو كان يقصد السلطان محمود المظفرى أخا شاه شجاع فلم يقابل المترجم مدحًا له من حافظ ، وقد ورد وحسب هذا البيت فى مدح عماد الدين محمود وزير الشاه أبى إسحاق أنجو :

اطلب كـأس الصـبـوح فى ذكـر آصـف عـهـده وزير الملك سـليـمـان عـمـاد الدين مـحـمـود

الوسائل الدنيئة والوضيعة لكسب المال ونفقات الحياة ، ولم يفعل مثلهم مثلما فعلوا ، حين كانوا يذمون من لم يمنحهم ، ومن سماته الخاصة به علاقته الروحية بموطنه شيراز فلم يمل قط مدح نهر ركن أباد وروضة المصلَّى ، وكان ينظم وصفهما مثل قوله :

فأعطني يا ساقى الخمر الباقية فلن تجد بالجنة شط نهر ركن آباد وروضة المصلى

وقوله :

فرِّق بين ماء الخضر وهو فى الظلمات   عن مائنا الذى ينبع من (الله أكبر)[1]

ومع أن أشعار حافظ تصف الورد والبلبل والخمر المعشوق وتتحدث غالبًا عن الجمال الأزلى الذى يعكس كافة الأشياء الجميلة والمحبوبة عن وجهه ، لكنه بين الحين والآخر يذكر أيضًا الكبار والرجال والعلماء الذى كان يعيش فى ظل حمايتهم ؛ ومنهم قوام الدين حسن وجلال الدين والشاه يحيى نصرة الله الذين ذكرهم ، بالإضافة إلى السلاطين الذين سبق ذكرهم فى شعره ، ومع أنه خلف فى كافة فنون الشعر شعراً مثل المثنوى والمقطع والقصيدة والرباعى ، لكنه وصل درجة الكمال فى نظمه الغزل وحده والآخرون الذين نظموا من بعده فى هذا الفن مثل صائب وسليم وعرفى كلهم برهان قاطع على مبلغ كماله وتفوقه ، ومن بين مَنْ أشار إلى هذا الأمر السير جور أوزلى أن (أسلوب شعره واضح ومتناسب وبلا عيب ، ويبرز كمال علمه وبلوغ فضله كيف كان متبصراً بباطن الأشياء وحقائقها مثل ظواهر الأمور ، لكن ما هو أفضل من كل شىء أن كلامه من الجذب والفتنة بما لم يصل إليه أى شاعر آخر) .

رأى بل فى مقارنة حافظ ودانتى

أما ما يمكن أن يفيد منه القراء الإنجليز حول مقام حافظ فهو ما نراه فى دراسات الآنسة جرترود لوتيان بل ؛ فكلامها نقدى ودقيق ومعانيه عميقة وكثير اللطف

(١) لم أصل إلى الشاعر المتخلص بسليم المعروف فى الغزل ، ويبدو أنه قصد براون هو الشاعر كليم الكاشى .

خاصة حين قارنت حافظ بطريقة واضحة وجذابة بالشاعر المعاصر لها شاعر إيطاليا دانتى ، ويعد دراسة دقيقة لشعره ذكرت : وفيما يتعلق بحافظ فإن التاريخ المعاصر له أقصر من أن يحوى أفكاره العالية ؛ لأن هذه المدينة التى أمضى سائر عمره بها قد أحبها حبًا بالدرجة نفسها التى كان يحب بها دانتى فلورنسا ، وقد ابتليت أكثر من خمس مرات بالحصار والحرب وانتقلت من حاكم إلى آخر مرارًا ، فمرة يرويها أحد الغزاه الفاتحين بالدم ، ومرة أخرى يجعلها آخر طعمة النار والسلب والنهب ، ومرة ثالثة يبلى ملك متعصب ومراء ظرفاءها اللاهين بالأوامر القاسية والزهد الجاف والرياء ، وكان حافظ يشاهد دائمًا كيف أن السلاطين والملوك كان يشرق أحدهم بعد الآخر ، ويصل إلى أوج العزة ثم ينحدر إلى حضيض الذلة ، ويذوب كقطرات الثلج أمام شمس تموز ، وكانت الأحداث السارة تقع بعد الوقائع الحزينة ، وكانت تتوالى أمام ناظرى الشاعر حوادث سقوط الحكومات واشتعال الحروب ، ولكن لا يرى تقريبًا أى انعكاس لكافة هذه الوقائع فى أشعاره ، تحدث أحيانًا وحسب إشارة بالصدفة إلى بعض الأحداث السياسية لعصره وتقع فى موضع انتباه شارحى ديوانه ، أو عدة أبيات فى مدح ملك أو أمير تقع بالمصادفة تحت عين القارئ ، وليس ذكر لنصر ملك أو مدح لشجاعة أمير ، وأجاز لقلمه القدر نفسه الذى يسمح به شاعر عزيز النفس لنفسه فى مدحه ولم يزد عليه ، لكن البعض يدرك جيدًا أن عدم الاهتمام الظاهرى هذا لحافظ قد أعلى فلسفته إلى مرتبة يفتقدها دانتى ؛ لإن هذا الشاعر الإيطالى ظل متحجرًا وجامدًا فى حدود فلسفته ونظريته فى العالم هى النظرية العامة نفسها لعصره وزمانه ، وما تجلى فى نظره حقيقة واقعة لا يزيد فى نظر كثير من أهل عصرنا عن شبح قبيح ومكروه ، لكن الصورة العامة التى طرحها حافظ هى نظر أكثر سعة وإبهاجًا بحيث لا تبدو الأرضية الممهدة لها كثيرة الوضوح والظهور ؛ كأن دقة نظره كانت من حدة البصر ولطف المشاهدة بحيث إنها نفذت فى مقام سكان العصور التالية فى دنيا الخيال الواسعة ؛ ولهذا علينا ألا ننتقده بسبب أنه لم يصف أو يشرح لنا عصره وزمانه ، ولا نعيب عليه أننا لا نجد كثيرًا من حياته الشخصية فى شعره لأنه يشاهد متجليًا فى كلامه أفكاره عميقة عمت حتى عصرنا أيضًا ، وهو بمنزلة ملحن أنغام أطرب بصوته العذب الجميل الثمالى والمفيقين معًا ، وأهل عصره والعصور التالية له جميعًا .

نظم الغزل مدين لحافظ

يعد شلبى النعمانى كمال فن الغزل واتساع نطاقه مدينًا لحافظ ، والمعاصرين له بدرجة أدنى من مثل سلمان وخواجو ؛ لأن موضع الغزل لدى الأساتذة الأقدم مثل : السعدى وأمير خسرو وحسن الدهلوى كان هو (العشق) وحده ، لكن خواجو نظم فى غزله موضوعات أخرى مثل : عدم دوام الدنيا ومثل ذلك ، وبلغ سلمان فى الصناعة اللفظية والتشبيهات اللطيفة والاستعارات البديعة فى غزلياته إلى حد الكمال .

لكن حافظًا جمع محاسن هؤلاء جميعًا فى شعره ، وزاد عليه أشياء من لطفه وذوقه الخاص ، بل إنه اقتبس منه بيتًا أو شطرًا وأصلحه بسليقته ؛ ولهذا أسبغ عليه جمالاً وكمالاً خاصًا .

الأبيات المتشابهة بين حافظ وخواجو

ذكرنا فيما يخص السعدى بعضًا من مواطن التشابه فى شعره فى الجزء الثانى من تاريخ الأدب[1] ، لكن شبلى النعمانى قارن بين بعض الأشعار والأبيات المتشابهة فى شعر حافظ وخواجو وسلمان[2] ، ونورد فيما يلى بعضًا منها ، وهى الأبيات المتشابهة فى شعر حافظ وخواجو :

(١) تاريخ الأدب البراون ، ص ٥٣٦ ، وراجع كذلك فهرس مكتبة بانكيبور ، ص ٢٥٥ .

(٢) فى مكتبة مجلس الشورى الوطنى نسخة خطية لديوان أشعار برقم ١١٨٢ تشمل ديوان جلال الدين عضد تاريخ كتابته عام ٨٥٥هـ ، ويعده ديوان بغير تاريخ لكن بخط من كتب الديوان السابق نفسه واسم هذا الديوان " روح عطار " ويبدأ بهذا البيت :

اللهم اجل نوراً من نور أسرارك بحق روح العطار

وروح عطار ، وهذا كان شاعراً شيرازيا مدح الأتابك أفراسياب من أتابكة لرستان ، وعاصر الشاه شجاع المظفرى أيضًا ، لأن له قصيدة يمدح فيها وزيره المقتول ٧٤٤ ، وهو قوام الدين صاحب العيار ، وله غزليات تشمل موضوعات عرفانية ونصائح وحكمًا ومواعظ وتخلص فيها مرة بـ (روحى) ، وورد أيضًا قطعة طلبوا فيها منه الحكم على سلمان الساوجى وحافظ الشيرازى ؛ فأجاب أن كليهما يساوى الآخر ويفهم من هذا أن من أواخر القرن الثامن وهو قرن نبوغ هذين الأستاذين الفاضلين وشهرتهما كان فضلاء الزمان وأدباء العصر مختلفين بشأن تفصيل أحد هذين على الآخر ، وكانوا يزنون كلامهما بخيران الأدب ، ونورد هنا سؤالهم لروح عطار وجوابه إليهم : =

حافظ

(١)

تقدم البارحة شيخنا من المسجد نحو الحانة

فماذا سيكون تدبيرنا بعد يا رفاق الطريقة ؟

نحن فى حانات المجوس رفاق أيضًا

فقد جرى بهذا قدرنا منذ الأزل

لو يعلم العقل كيف أن قلبى سعيد وهو بقيد زلفه

لصار العقلاء مجانين بسبب قيدنا هذا

إن سهم آهاتنا قد جاوز الفلك فاصمت يا حافظ

وترحم على روحك واتق سهامنا

خواجو

(١)

خرقة شيخنا مرهونة فى بيت الخمار

وشيخنا يعب الكؤوس يا جميع رفاقنا المريدين

= ملوك محكمة النظم ونقاد الشعر ألا فيأمن خاطرهم من أحداث الزمان

وهم من أهل الذورق وجماعة مختلفة بشأن أفضلية أشعار حافظ وسلمان

فجماعة من الفضلاء متفقة على أفضلية حافظ وأخرى تنكر ذلك

فبين من هو المفضل فيهما بقلمك الناشر للجواهر المبدى للسحر =

ولوساءت سمعتنا بسبب الخمر فى كل العالم فكيف العمل

وقد جرى بهذا قدرنا منذ الأزل ؟

عقدنا قلوبنا المجنونة بسلسلة زلفك

وما أكثر العقلاء الذين أصيبوا بجنون قيدنا

لا تغفل عن سهم آهاتنا المحرقة للعالم

لأن سهمنا يشتد جرحه بسبب قوسه الرقيق

(٢)

يا نسيم صبح السعادة مر بربع فلان على ذاك

العنوان الذى تعرفه ، وفى ذاك الزمان الذى تعرفه

أنت رسول حضرة الملك ،وعيناى على آهاتك

فتقدم بالرجولة لا بالأمر إلى من تعرفه

= الإجابة

أظهر ملوك دنيا الشعر الذين سيطروا على العالم بسيف البيان
لهذا الفقير سؤالهم لى أن أستفسر من شيخ فكرى من الأفصح حافظ أم سلمان .
فلما استفسرت شيخ عقلى عن هذا الزمر بقولى : يا خلاصة الأزمان وزبدة الأركان
قل لى شعر من فيهما يفضل الآخر ، وهما قد حازا قصب السبق فى الشهرة
فأجاب أن سلمان يتميز فى عصره بلفظه الساحر ومعناه البكر وشعره السلس
ثم انظر إلى طراوة الألفاظ الجزلة لحافظ الذى حسدت عين ماء الخلود بلاغته
فالأول فى بيانه ببغاء يمطر السكر ، والثانى فى نظمه السلس بلبل عذب الألحان
ينير النظم من برج خاطر هذا القمر وينصب الشعر من درج فكر ذلك اللؤلؤ
محاسن أخلاق هذا كعناقيد العنب المختلفة ثمراً وفنون فضائل ذلك كحبوب الرمان
واحد سوسن فى بستان النظم والآخر كشقائق النعمان فى روضة اللطائف
أحدهما موافق الطبع اللطيف كالعقل والآخر مناسب للجسد الشريف مثل الروح
وألف روح فداء لنفس الأول الذى كنفس عيسى وألف روح عزيزه فداء لشعر الثانى

وأبلغه أن روحى الضعيفة خرجت عن يدى فبالله

هبنى من لعلك المحيى للروح من ذاك الذى تعرفه

كتبت هاتين الكلمتين بحيث لا يعرفهما الغير

فاقرأهما أنت بدافع الإكرام بالطريقة التى تعرفها

(٢)

ألا يا أيها الصبا خبرينى عمن تعرفينه

ومرى على تلك الأرض فى الوقت الذى تعرفينه

طيرى كالطير وإذا بلغت الأوج

انزلى فى ذاك العش الذى تعرفينه

لا تسيرى بالنحو الذى يصيبك فيه غبار من معبرك

فإذا وصلت إلى ذاك الطرف ، فهبى بالنحو الذى تعرفينه(١)

(٣)

لا تلتمس صدق العهد من الدنيا التى لا أساس لها

فلهذه العروس العجوز ألف عريس (٢)

(٣)

لا تعقد قلبك قط بهذه العجوز ذات الدلال

فهى عروس فى عقدها كثير من العرسان

(١) هذه الأبيات تثبت أصلها للاستشهاد بشعر حافظ .
(٢) مجو درستى عهد ازجهان بى بنيادكه اين اين عجوزه عروس هزار داماد است

(٤)

كل إنسان يطلب الحبيب سواء المفيق والسكران
وكل مكان هو دار العشق سواء المسجد والكنيسة [١]
لو كان الحبيب بمنزل ، فيستوى أن يكون المنزل جنةً أو جحيمًا
ولو كان السجود بضاعة حقيقية ، فتستوى أن تكون بالمسجد أو الكنيسة

(٥)

عشقك فى وجودى وحبك فى قلبى
باللبن الذى دخل جسدى ويخرج مع روحى [٢]
أنى لى أن أقتلع قلبى من وجه الحبيب وحبه
خالط اللبن فى بطنى ولا يخرج إلا معى روحى

الأبيات المتشابهة لحافظ وسلمان

ويدعى شلبى النعمانى أن قبيل هذه الأشعار التى تظهر التشابه بين حافظ وخواجو يمكن إيراد أمثلة كثيرة له ، لكنه عدَّما ذكره أمثلة كافية ، وعلى أية حال درس مزايا كل بيت من أبيات الشاعرين ، ورجح فى الغالب حافظ ، ثم طبق الأمر نفسه على أشعار لحافظ وسلمان وذكر لكليهما الأبيات المتشابه الآتية :

حافظ

(١)

حل العيد وموسم الزهور فهات الخمر أيها الساقى
ومتى رأى أحد فى فصل الزهور قدحًا موضوعًا بلا خمر ؟

(١) همه كس طالب يارندچه هشيار وچه مست همه جاخانه عشق است چه مسجد چه كنشت
(٢) عشق تودر وجودم ومهر تودر دلم باشير دربدن شدو باجان بدر شود (المترجم)

ذهب فصل الزهور فلماذا تجلسون يا رفاق غافلين
بلا ألحان العود والصنج بلا الحبيب والكأس والخمر ؟
لقد انقبض خاطرى من هذا الزهد والورع
فهات يا ساقى الكأس حتى ينفتح قلبى
هل تدرى ما الذى يبدو جميلاً فى مجلس الصبوح من
أنه صورة عذار الساقى الواقع على كأس الخمر ؟

سلمان

(١)

حين ذاع صيت جمالك فى الدنيا
هام خلق على وجوههم فى الدنيا بحثًا عنك
أزال جنون الزهد
الجاف ما حصلته فاعزف يا مطرب وهات الخمر يا ساقى
تعلق قلبى بلعلك المبهج المفرح
فافتح شفتيك الضاحكتين لينفتح قلبى
تحلق المجانين بزلفك حولك
ووقع الوالون بشعرك أحدهم فى الآخر

(٢)

أنا عاشق وماجن ومتغزل بالنظر وأقول هذا بصراحة

لكى تعلم كم من الفنون أتحلى بها

المجون والتعشق والعربدة

لا شك أن الثلاثة موجودة فينا

(٣)

اسأل الماجنين السكارى عن السر الكامن بالأستار

لأن هذا ليس حال الزاهد العالى المقام

لا تبحث عن الداخل الصافى فى أهل الصلاح والزهد

لأنه دليل الماجنين السكارى حتى الثمالة

(٤)

مع أن هذا سوء سمعة لدى العقلاء

فنحن لا نريد لا العار ولا حسن السمعة

لا تلم الماجنين مرة بالسمعة السيئة

لأن كل ما يبدو لك سوء سمعة هو حسن السمعة عندنا

(٥)

لا تبع لي التجلي يا ملك الحجاج لأنك

ترى البيت وأنا أرى رب البيت[١]

أنت هدف سلمان من الكعبة ومعبد الأصنام

وما العمل وأنا على الذهاب إلى البيت بدون رب البيت

(٦)

أقولها بصراحة وأنا سعيد بقولي :

إنني عبد عاشق وتحررت من كلا الدارين

أنا من اليوم الذي أنا فيه حر في أسرك

ملك حين وقعت أسيراً في يدك[٢]

(٧)

يا رب إلى من يمكنني أن أقول له إن حلو الشفة ذاك

قتلنا وأنفاس عيسى ابن مريم معه

(١) أصل الأبيات السابقة للتمثيل بشعر حافظ :

عيد است وموسم ككل ساقى باده ... هنكام ككل له يدهاست بى مى قح نهاده

ككل رفت اى حريفان غافل جرانشينيد ... لجابانكرود وجينكى بى ياروجام وباده

زين زهدويا رسائى بكرفت خاطر من ... ساقى بباله ده تادل شود كشاده

در مجلس صيوحى دانى جه خوش ثمايد ... عكس عزار ساقى برجام من فتاده

عاش ورند ونظو بازم ويتكويم فاش = ... تابدانى كه بجندين هنرا راسته ام =

= راز درون برده زرندان مست برس ... = كاين حال نيست زاهد عالى مقام را

سكرجه بدنامى است نزدعا قلان ... ما نمى جواهيم ننك ونام را

جلو برمن مفروش اى ملك الحاج له تو ... خانه من بينى ومن خانه خذا من ينم

(٢) هذا المطلع لغزلية للسعدى فى كتاب البدائع ، وليس لسلمان .

يا من أنت كنز الدواء المشروب انظر إلى الرضى

المرهم بيدك وتتركنا مجروحين

ويذكر شبلى النعمانى مواضع كثيرة من الأبيات المتشابهة بين حافظ واخواجو ، لكن ما ذكرنا من الأمثلة السابقة فيما سلف كافٍ لبيان هذا التشابه ؛ لأن أحداً من المستشرقين - فيما أعلم - لم يهتم بهذا الكمال من التشابه بين هؤلاء الشعراء الثلاثة وما يستلفت النظر أيضاً (كما أشرنا إليه سابقًا فى الجزء الثانى من تاريخ الأدب فى إيران من ص ٨٣ إلى ٨٩) هو أن غالب نقاد الأدب الشرقى كانوا يميلون دومًا إلى الاهتمام فى الأغلب إلى الخلافات الصورية الظاهرة ما بين كلمات شاعرين حين عبراً عن معنى واحد بعبارة مختلفة ، وقلما درسوا الخلافات والمفارقات الموجودة فى أفكار هذين الشاعرين ومعانيهما ، وربما بسبب هذا الميل نفسه الذى كان عند الشعراء ظهرت هذه العادة ، وهى أن أغلب الشعراء العظام مثل حافظ نفسه كانوا يقتبسون بيتًا أو غزلية بأكملها من المعاصرين أو المتقدمين ويحاولون إنشاد غزل بالأسلوب نفسه والصورة نفسها وصياغة عباراته وجمله نفسها بطريقة طريفة وجذابة ، لكنهم لم يكونوا يغيرون بحر الغزل المقتبس عنه وقافيته ومعناه العام بأى شكل .

وكان هذا الحد من التصرف فى الآثار الشعرية للآخرين مشروعًا ومقبولاً تمامًا ، ولم يكن يعد قط سرقة وانتحالاً ؛ لأن نية الشاعر كانت مصروفة إلى أن يصلح فى الأسلوب الشعرى للسلف أو المعاصرين له ، لكن هذه القضية لا ترتبط بوجه التحقيق بالشعر الهزلى أو الفكاهى مثل شعر عبيد زاكان أو إسحاق شاعر الأطعمة لأن نية شاعر هذا النوع من الشعر من تقليد غيره أو التأثر بهم ليس مبعثه التفوق الجدى عليهم بل قصده التفكه والتطرف .

شراح أشعار حافظ

يزيد كثيراً عدد شراح أشعار حافظ لا باللغة الفارسية وحدها بل بالتركية واحتمالاً بالأردية ، لكن يندر فى عدة الشروح التى طالعتها بالصدفة الدراسة النقدية أو شرح المعانى ، وأفضل الشروح التركية وأشهرها ثلاثة : أولها من تأليف (سرورى) ، وثانيها تأليف (شمعى) ، والثالث ألفه (سودى) ، وهذا الشرح الأخير يوجد بوفرة وهو أكثر إفادة من سابقيه - فيما أرى - لأن المؤلف حدد عمله بكثير من التعقل فى توضيح المعانى اللغوية ولم يسع إلى تقديم شروح مجازية وتمثيلية ، ولم يحاول عبثًا إيجاد معانٍ وهمية للكلمات والأبيات الصعبة[1] .

ويقل إنكار أن فى كثير من هذه الغزليات معانى عرفانية وإشارات واصطلاحات رمزية ، ولكن فى كثير آخر منها قصد الشاعر المعانى الظاهرية نفسها التى تستفاد من قوله ولم يرد مطلقًا أن يصف جمال معشوقه الروحانى ، أو أن يتنغم بسكر الخمر الربانية بالجنة ، وسر هذا الأمر أن الموضوعات المادية الجسدية مازجت الموضوعات المعنوية الروحية فى أشعار حافظ إلى الحد الذى اعترض عليه من البداية الشاه شجاع ، ولا يخفى على من يقف على طبيعة الإيرانيين وحالتهم المعنوية أنه يوجد فى ذاك البلد كثير من الأشخاص يجرى عليهم فى اليوم الواحد والليلة الواحدة حالات مختلفة فيظهر الواحد منهم مرة مسلمًا متدينًا ، ومرة أخرى ماجنًا لاهيًا لا يبالى ووقتًا زاهدًا خشنًا وزمنًا عارفًا ورعًا ومظهرًا كاملاً للألوهية .

(١) شرح سودى لثمانين غزلية من أول ديوان حافظ موجود فى الديوان نفسه طبعة ليبزيج باهتمام بروك هاوس عام ١٨٥٤ ، كما طبع الشرح الكامل لسودى ومعه النص الفارسى وشرح بالتركية ثان فى إسلام بول عام ١٨٧٠م ، وإذا أحب القارئ الإنجليزى الاطلاع على طريقة سودى وأسلوبه فله أن يراجع كتاب - و.هـ. لو W.H Lawe وعنوانه :

Twelve odes of Hafiz done literally into English together With corresponding portion of the turkish commentary of Sudi .

طبعة كمبردج عام ١٨٧٧م .

ويمكن أيضًا مراجعة كتاب ترجمة ديوان حافظ تأليف : اللفتانت كولونل ويلبر فورس كلارك Cal H. Wilber Farce Clarke طبعة لندن ١٨٩١م .

ودارس معانى ديوان حافظ الذى لا مكّنه نفسه أن يميز ما بين أشعاره ، لا يفرق بيتًا له معنى ظاهرى لفظى عن بيت له معنى رمزى عرفانى ، فبالطبع لن يستطيع الاستفادة من شروح ديوانه ؛ لأن الشارح فيها مضطراً إلى تفسير اصطلاحات الشاعر وتكرارها ، بنحو قوله إن المقصود من الخمر هو « الأثر الروحى » والمراد من الحانه (خانقاه الصوفية) ، ومعنى مرشد المجوس هو (المرشد المعنوى) ، وللقارئ الإنجليزى الذى يود متابعة هذا النحو من الدراسة مراجعة الترجمة الإنجليزية النثرية الكاملة التى قام بها ويلبر قودس كلارل لديوان حافظ ومضموم إليها حواشٍ عديدة وشرح مفصل جامع له .

وفيما يتعلق بالمعانى الرمزية للاصطلاحات والإشارات عند الشعراء الصوفية أو ذوى المشرب الصوفى الإيرانيين ، فهناك كتابان مفيدان يمكن الرجوع إليهما ، وهما الكتاب النفيس المحشى بالهوامش (ترجمة جلشن راز) للشيخ الشبستري طبعة وينفيلد E.H. Whinfield ، والكتاب الصغير للمرحوم الأستاذ بالمر E.H. Palmer وعنوانه (العرفان فى الشرق Oriental Mysticism) ، وللوقوف على أصول التصوف ومبادئه وسماته العامة يحيل القارئ على الفصل الثالث عشر (ص٤١٦) من الجزء الأول من كتاب المؤلف تاريخ الأدب فى إيران « Literary History Of Persia, vol.1 » .

اللطيف الغيبية تأليف المولا محمد الداربى(١)

استلفت انتباهى رسالة صغيرة عن حافظ وجهنى إليها سيدنى تشرشل Sidney churchill السكرتير الشرقى فى السفارة الإنجليزية بطهران ، وهذه الرسالة تستحق

(١) اللطيفة الغيبية تأليف شاه محمد الدرابى ، طبعتها مكتبة أحمد شيرازى فى مطبعة موسوى بشيراز عام ١٣١٩ش أيضًا ، وقدم لها أنناميزرا أحمد عبد الحى المرتضوى التبريزى وهو زبدة أهل العرفان وقدة متجردى الزمان ، ونقل سيرة الدارابى عن سيط قطب الدين ممد التبريزى المعاصر للشاه سلطان حسين الصفوى المتوفى عام ١١٧٣هـ فى كتابه (فصل الخطاب) ذكر فيه (شاه محمد الدرابى كان أستاذ كل أفاضل دار العلم بشيراز فى عصره وعندى رسالته المسماة بمعراج الكمال فى تحقيق معنى الشيخ والإرشاد وامريد والاسترشاد) ، ولكن ما يستفاد من نص هذه الرسالة نصها هو أن المؤلف كان معاصراً للشاه عباس الثانى الصفوى ، وكان فى البداية فى مدينة دارا بجرد بفارس ثم قدم إلى شيراز ، وعمل فى كسب الكمالات ، وكان يعيش نحو عام ١٠٦٢هـ فى أحمد أباء بالكجرات بالهند .

الدراسة ؛ بسبب أنه لخص فيها بعض اعتراضات نقاد عصره على أشعار حافظ ، ثم رد عليها وطعن فيها ، وتسمى هذه الرسالة الصغيرة (لطيفة غيبية) ألفها محمد بن محمد الدارابى ، ولا ندرى شيئًا عن المؤلف وتاريخ تأليف الرسالة رغم محاولاتى ، تشمل هذه الرسالة مائة وسبعًا وعشرين وصفحة ذات حجم صغير طبعت على الحجر فى طهران عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م ، وتشمل فى الغالب توضيحات لبعض الأشعار الصعبة ، وسعى المؤلف إلى الرد على ثلاثة وجوه من الاعتراض الشديد ، وهى بناءً على ما سطره فى الصفحة الخامسة من الكتاب نفسه :

الأول : هو أن بعض الأبيات مجهولة المعانى ، ولو كان لها معنى ففهمه كثير الصعوبة وهو من قبيل المعنى اللغز مثل هذا البيت .[1]

قصُر جدالك وعد لأن إنسان عينى   خلع خرقته وأحرقها شكراً

والثانى : أن بعض أبياته تخالف ظاهر الشرع وتتسم بالرغبة المجنونة وهواء النفس مثل قوله :

قلبى فى هوى الوجه السعيد   كان مضطربًا كالشعرة السعيدة

أو قوله :

المدح كل المدح والثناء على الخمر الحمراء

التى أزالت الصفرة عن وجوهنا

والثالث : أن أشعاره توافق أحوال المذهب الأشعرى الذى يبطله علماء الإمامية مثل قوله :

(١) راجع ديوان حافظ ، طبعة روزن ويج شوانوا ج١ رقم ٢٦ ، حرف التاء ، ص ٧٦٩ ، بشأن شرح دوى لهذا البيت ، وإن كان شرحه ليس مقبولاً كثيراً .

لم يسمحو لنا بالعبور فى ربع سوء السمعة

وإذا لم يعجبك هذا فغير القضاء[١]

أو قوله :

إن هذه الروح المستعارة التى أودعها الحبيب

لحافظ حين أرى وجهه أسلمها له[٢]

لماذا أحسن الأتراك طبع الشعر الفارسى بأفضل من الهنود ..

ومع أن النسخ المخطوطة لديوان حافظ كسائر النسخ الفارسية بينها اختلافات وتوجد نسخ بديلة كثيرة ، لكن توجد نسخة واحدة لديوان هذا الشاعر الكبير لقى القبول من ناحية صحته لدى أهل التحقيق ، وهى النسخة نفسها التى كتبها سودى الشاعر التركى ، وقامت على أساسها طبعة ديوان حافظ فى أوروبا التى تمت بعد ذلك بيد روزنزويج شوانو ، وبروك هاوس ، بنحو أن عدد غزليات حافظ فى سائر الطبعات التالية احتسب بناءً على هذه الطبعة نفسها[٣] .

وكافة دواوين الشعر الفارسى وكتبه التى طبعت بتركيا مثل ديوان حافظ ومثنوى مولانا جلال الدين الرومى أكثر دقة وأجدر بالثقة والاعتماد عن تلك التى طبعت بالهند . وتشمل الدواوين المطبوعة بالهند غالبًا كثرة من الأشعار المنحولة والدخيلة التى أدرجها الطابعون أنفسهم فيها ، بينما لا يبادر الإيرانيون إلى مثل هذا العمل الكريه قط ، ولا يستطيع الأتراك إنشاء الشعر الفارسى ، والطابع الفارسى للّغة يتمتع غالبًا بهذا

(١) هذا المعنى يستحق الاهتمام ، وهو أن عقيدة الجبر Fata lisme ، التى تعد فى زعم الأوربيين من الأصول الخاصة للدين الإسلامى ، مرفوضة عند الشيعة ، راجع شرح تجريد الكلام للعلاقة الحلى .

(٢) عقيدة (الرؤية الالهية) ، والتى نظير أنها من عقائد الخباسية يرفضها المذهب الشيعى ، راجع شرح التجريد وغيره من كتب الكلام .

(٣) بشأن النسخة الصحيحة لحافظ التى طبعت بإيران وانتشرت بعد نشر كتاب براون هذا ؛ فأول ما طبع لديوانه هو طبقة عبد الرحيم خلخال فى طهران عام ١٣٠٦ ش عن نسخة مخطوطة قديمة محررة عام ٨٢٧ هـ ، والطبقة الثانية للديوان هى طبعة الأستاذ العالم محمد قزوينى عام ١٣٢٠ ش فى طهران بنفقة وزارة المعارف وبخط النستعليق بإخراج جميل وصحيح طبعة زنكوغراف .

القدر من الذوق ، ويحدد أنه لا يستطيع نظم شعر يشبه تماماً شعر حافظ الأستاذ ، وتقبله العامة ، بينما يدرك الطابع التركى أنه لا يستطيع بأى وجه قرض الشعر الفارسى مع كل هذه الدقة التى يوليها دائماً للطباعة وكل المشقة التى يتحملها ، وعلى النقيض منهما الطابع الهندى الذى يتمتع إلى حدٍ ما بطبيعة صناعة الشعر .. ينشىء من لدنه بدون تدقيق وتذوق أشعاراً ، ويدخلها فى الديوان الذى يطبعه .

ترجمات ديوان حافظ(١)

وتشمل هذه الطبعة الكاملة لديوان حافظ التى شرح عليها سودى (ويمكن أن تزيد كمالاً أيضًا بمقابلتها مرة أخرى وبنحو أدق على النسخ القديمة) من حيث

(١) نشر العام الماضى ١٣٢٦هـ / ١٩٤٧م العالم المعاصر الأستاذ أرثر أربرى أستاذ العربية بجامعة لندن كتابًا طريفًا لطيفا فى مطبوعات كمبرد اسمه (خمسون غزلية وقطعة لحافظ) تشمل الأصل الفارسى وترجماته الإنجليزية من بينها ترجمة هذا الأستاذ وقدم لها مقدمة نقدية فى سيرته ومعانى شعره وألحق بها حواش مفيدة ، وتاجر مقدمة ذكر بصفاء نيته ولطف نرشتما هو نصه ، وفيما يلى فهرس للكتب المختلفة التى نقلنا عنها هذه الترجمات ونشكر من قام بالترجمة والنشر والطبع لهذه الأبيات الجميلة ، ويتمتع حافظ أكثر من غيرة فى إنجلترا بالقبول فترجمت أشعاره إلى الإنجليزية ، ولعل الشاعر نظر من مرقده الأبدى بالطف إلى هذه الجزر فى البحار الغربية التى تبعد كل هذا البعد عن موطنه العزيز ؛ فسعد لأن شعبية أهديا أفضل شعره الغزلى للعالم وأوجد فى نور وجورة علاقة مشتركة من الحب والمودة :

1. William Jones (A Grammer of the persian language, 1771 .
2. John richardson (A specimem of persian poetry, 1774 .
3. Thomas law, in asiatick miscellant , vol. 1. calctta, 1785 .
4. H.H. in asiatick miscellany vol 2, 1786 .
5. John nott,(Select oder from the persion poet hafiz, 1787) .
6. John Haddon Hinddey, (Persian fyricsor, scattered poems from the divan-i-Hafiz,1800 .
7. Herman Bicknell, (Hafiz of Shiraz), 1877 .
8. Edward H. palmer, (the song of the reed and other pieces), 1877 .
9. Gertrvde L,Bell, (poems from the divan of Hafiz) 1897 .
10. Walter leaf, (versions from Hafiz) an essay in persiem metre, 1898 .
11. John payne, (the poems of shemseddin mahammad Hafiz of Shiraz, 1961 .
12. richarde le Gallienne, (Odes from the divan of Hafiz) 1905 .
13. Eizabelh bridges, (E.D aryush) "Sonnets from Hafiz and other verses, 1921).
14. Reuben fery, (Persianfiterature, an Introduction),1923 .

المجموعة ٦٩٣ قطعة ، ومنظومة بهذا النحو ٥٧٣ غزلية ، ٤٢ قطعة ، و ٦٩ رباعيًا ، ٦ مثنويات ، قصيدتان ومخمس واحد ، وقد قام بترجمة كاملة لهذه الأبيات جميعًا بالشعر الألماني المنظوم روزنزوج سوانو ، وبترجمة كاملة إنجليزية بالنثر لهذا الديوان كاملاً ويلبر فورس كلارك .

وبالإضافة إلى هاتين ظهرت ترجمات كثيرة باللغات المختلفة الإنجليزية والألمانية واللاتينية والفرنسية وغيرها لكثيرٍ من الغزليات المنفردة أو المجموعة مع غيرها بعضها منثور والآخر منظوم - راجع للفهرس الجامع لهذه الترجمات الفهرس الخاص بالنسخ المخطوطة بمكتبة إدارة الهند رقم ١٢٤٦(col.720) تأليف الدكتور إيته Dr,H.Ethe ، وكذلك فهرس مكتبة بانكيبور (من الفردوس إلى حافظ ص ٢٥٦).(١)

ومن بين الترجمات المنظومة لديوان حافظ بالإنجليزية الأكبر والأكثر قيمة عنها جميعًا ما قام به هرمان بيكنل ، ولد هذا المترجم عام (١٨٣٠م) ، وعمل في البداية في دراسة الطب بمستشفى سان بارثلميو ، وحاز عام ١٨٥٤م على درجة M.R.C.S ، ودخل الخدمة الطبية في الجيش ، وكان في الهند وقت ثورتها ، وقام برحلات كثيرة إلى أوروبا وآسيا وأفريقيا وسافر باسم عبد الواحد عام ١٨٦٢م لزيارة مكة ، وأدى الحج وعاش مدة أيضًا في شيراز ، وعمل فيها في دراسة النقاط المشكوك فيها في ديوان حافظ ، وزار بنفسه الأماكن والبلاد التي ذكرها الشاعر في شعره ورآها رأي العين ، ومات في عام ١٨٧٥م ، وبعد موته قام أخوه (أ.س.بيكنل) بنشر مؤلفه في العام نفسه بدقة مبعثها حبه لأخيه ، وتحوى ترجمته على ديباجة ومقدمة وملحق وفهارس وتسع لوحات مصورة فضلاً عن الترجمة الكاملة أو الناقصة لـ١٨٩ غزلية ، و٤٢ قطعة كاملة ، و٦٩ رباعيًا ، ومثنويين ، ومخمس واحد .

(١) رقم هذه السطور براون اشترى في ١٣٢٤هـ / ١٩٤٥م ترجمة لمنتخبات أشعار حافظ بالإنجليزية من مكتبة جو واتكينز في لندن لم يكتب فيها المترجم اسمه ، واكتفى بذكر أنه أحد أعضاء جمعية إيران في لندن ، بل أخفى الناشر أيضًا اسمه ، وهذه الترجمة منتخبات من رباعيات حافظ وغزالياته لها مقدمة عن الشاعر ودراسة في آراء الصرفية وشرح مصطلحاتهم وطبعت في (١٩٢٠م) في لندن عن طريق المكتبة نفسه بإخراج جميل ، اهتم المؤلف من هذه بالنظم والنثر الإنجليزي السهل واللطيف وغير المتكلف .

وغالب ترجمات حافظ المتعددة هى الترجمة اللاتينية بقلم مينينسكى Meninski فى ١٦٨٠م ، وتوماس هايد Thomas Hyde فى ١٧٦٧م ، ورفسكى Revisky فى ١٧٧١م والترجمة الفرنسية ١٧٩٩م ، والإنجليزية ١٧٩٢م ، وترجمات وليام جونز ، وترجمة إهل Wohl الألمانية فى ١٧٩١م ، وترجمة بودندستدت Bodenstedt فى ١٨٧٧م ، أيضًا المساعى التى قام بها مؤخرًا للترجمة الإنجليزية أشخاص عديدون مثل بين Peyne وجوستان مكارثى Jastin Macarthy وويلبر فورس كلارك ، ولن نتحدث عن غالبها فى هذا المقام ، وإنما سنكتفى بموجز قول عن ثلاث ترجمات إنجليزية لأنها تفوق ماعداها جدارة بالاهتمام .

أقدم هذه الترجمات الثلاث ترجمة بيكنل التى نشرها عام ١٨٧٥م ، وثانيها من حيث القدم ترجمة الآنسة بل – لندن ١٨٩٧م ، وفضلاً عن المقدمة الجديرة بالثناء التى كتبتها عن سيرة الشاعر وصفاته ترجمت ٤٣ غزلية ، ومع أن أسلوب ترجمتها حر منطلق إلا أنه عندى أجمل كثيرًا ويتصل بروح حافظ بالدرجة التى يجعله أصدق ترجمة له ولشعره ، وآخر هذه الترجمات ما قام به فى عام ١٨٩٨م والتر ليف W.Lwaf فترجم ٢٨ غزلية ، يسعى على المحافظة على صورة الكلام ومعناه الأصليين فى الإنجليزية ، وارتهن نجاحه فى قصده بالجد الذى كان يسمح به التزامه بهذا الشرط ، ويعفينا وجود هذه الترجمات الثلاث من مشقة ترجمة أشعار حافظ كما فعلناه بشأن غيره من الشعراء ؛ لأن كل واحدة من هذه الترجمات جميل ومتحسن بطريقته الخاصة ، أى أن بيكنل من حيث الحفاظ على المعنى الأصلى هو أكثر الثلاث صحة ، فقد قام غالبا بترجمة مواد التاريخ بطريقة ماهرة واستخدام أقصى حسن القريحة لديه ، ويبرز والترليف من حيث الصورة أعلى نهج لأسلوب كلام حافظ ، بينما قرضت الآنسة بل بنفسها شعرًا يعد من حيث جماله ولطفه فى عداد الأشعار الإنجليزية من الطراز الأول ، ويمكن القول إن ترجمة هذه الشاعرة هى ألطف ترجمة شعرية وأحبها للقصائد الفارسية فى اللغة الإنجليزية بعد ترجمة فيتزجيرالد لربعيات الخيام ؛ لأن بعض

الترجمات المنظومة التى قام بها سابقًا ويليام جونز لحافظ مع كثرة جمالها وروعتها ، لكن لا يمكن تسميتها فى الحقيقة شعرًا بمعنى الكلمة ، فوق أنها ترجمة حرة متصرفة ، بحيث يمكن عدها بمشقة ترجمة حقيقية[١] .

قبر حافظ

يقع قبر حافظ بروضة جميلة ويعرف بالحافظية وقد زينه أبو القاسم باير[٢] حين قدم إلى شيراز عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م ، ويعود بناؤه إلى مولانا محمد المعمائى (راجع دولت شاه ، ص ٣٠٨) ، وفى الأزمنة الأخيرة قام كريم خان الزندى ، وكان من أفضل ملوك إيران بترميم قبره وزاده جمالاً ، وحجر الشاهد القائم اليوم على قبر حافظ قد نحت بأمر هذا الملك من المرمر الكثير النفاسة ، ونقش عليه هذا الغزل .

بشرنى ببشارة وصلك حتى أطير من روحى طائر قدسى وأثب من شَركْ الدنيا .. إلخ ، ويجعل أهل شيراز الحافظية ويعدونها مزاداً لهم سواء المقيمون بهذه المدينة ، أو من يأتى من أطراف العالم إلى شيراز من المجاذيب والعارفين ، وقد أحاط بقبره عدد كبير من قبور غيره ممن تمنوا شرف مصاحبتهم الجسدية فى عالم التراب لجسد هذا الرجل الروحانى ، وتحقق مصداق بيت الشاعر نفسه حين قال :

(١) شرح هناك براون شرحًا مفصلاً فى مقارنة الترجمات لهؤلاء المترجمين الثلاثة الإنجليز لغزليات حافظ وبين خصائص كل منهما وسماته بنحو مستقل وطبقها على النسخة طبقة رنزويج ، وذكر من كل ترجمة غزلية تمثيلاً ، وبما أن القراء الإيرانيين لهذا الكتاب لن يحصلوا على فائدة منه فقد صرفنا النظر عن ترجمته إلى الفارسية .

(٢) هو أبو القاسم بابرين ميرزباى سنقر ، حفيد شاهرخ بن تيمور ، الذى حكم من ٨٥٤ إلى ٨٦١ فى خراسان والعراق وفارس ، وذكر فى البناء الذى تم فى قبر حافظ على عهده فى مجالس النفائس طبعة المترجم (تهران ١٣٢٣ ش) : صار مولانا محمد المعمائى الصدر الأعظم لعهد بابر .. بنى أيام تمكنه فى شيراز على قبر حافظ قبة وزارها بابرميرزا ، وكان أحد الملاح الطبع ، كتب بجانب من القبر يقع عليه نظر باير هذا البيت (مع أنه نهب جملة أوقاف المدينة ، لكن ليجزه الله خيرًا لبنائه هده العمارة) ، ولا يجب الخلط بين باير هذا وظيهر الدين بابرين عم شيخ مؤسس الأسرة الكوركانية بالهند الذى مات فى ٩٣٧ هـ .

كن ذا همة إن مررت على قبرنا

لأنه سوف يكون مزاراً لمجاذيب العالم(١)

التفاؤل بديوان حافظ

وقبل الحديث فيما يلي من الشعراء نذكر كلمات يسيرة عن التفاؤل بديوان حافظ ، لأن هذا أمراً مسهوراً كثيراً بإيران ، ورائج بحد التفاؤل بالقرآن الكريم عند المسلمين ،

(١) قبر حافظ وقعت كتابة هذا المقال بناء جليل وجميل وفخم وفق فى تنفيذة راقم هذه الحواشى (حكمت) حين كن يخدم بوزارة المعارف وتفصيل بنائه حكاية عذبة تحكى صفاء باطن حافظ لسان الغيب تبدو مناسبة لذكرها هنا :

فى عام (١٣١٠ش) فكر بعض الحكام الأخيار لشيراز فى تعمير البناء القديم للمحافظية الذى أنش كريم خان اللقب بالوكيل ، وكان قد أصابه الخراب والقدم لذلك كان بصدد بناء بنيان جديد بدل البناء المذكور ، وكان عبارة عن ديوان دائرى ويشمل أربعة أعمدة حجرية كبيرة وسلسلة من الغرف ، لكن أحداث الزمان لم تدع البناء يكتمل ، وفى ١٣١٣ بمناسبة بناء قبر الفردوس ثارت فى أهل إيران حماسة خاصة تجاه آثار كبار الأدب ، واهتم الجميع بإحياء آثار الشعراء وتعظيم أسمائهم ، وكان العرفان بشيراز مخزونين بسبب خراب قبر حافظ وكنت أشاركهم التأثر والأسف لهذا الأستاذ الكبير ، وفى تلك الأيام نفسها أسباب فضولى فى أحد المطبوعات فى طهران بلا سبب لائق إلى مكانة لسان الغيب المقدسة وانتقد مطلع غزلية له وذكر بسبب جهله كاملاً يبعد عن الأدب ، ومطلعه هو (حين بقى بائع الخمر بحاجة المجاذيب الرنود عفا الله عنه ودفع البلاء) ، وحين تجمع جماعة من أهل العلم لإعداد المال لبناء قبر حافظ ذكرت هذه القصة وتأسف الجميع على قلة عقل هذا الجاهل الذى أجاز لوظ جهله بالعظماء الذين هم أساس فخر الوطن ومفخار الأمة والإهانة ، ثم تحدث الجميع فى بناء قبر خاص بحافظ كيرا وجادلوا ولم حديثهم عن شىء وعادوا يائسين إلى دورهم ، وبحكم عملى فى وزارة المعارف وبسبب علاقتى بحافظ لأنى من نفس موطنه كنت أكثرهم حزناً وملالاً وتأثراً ، وفى نصف الليل فترت فى أخذ الفأل من ديوان حافظ واستمد روح ذات الفتوح وفى نيتى هل يمكننى إنشاء تذكار فخم جليل على قبره فلما فتحت ديوانه طلع هذا البيت نفسه الذى دار حوله الحديث (حين يفى بائع الخمر ..) فقرأت الفاتحة على روحه وألقيت بإخلاص أن المراد سوف يتم قريباً بهمة هذا الشاعر المنير القلب ، ولم يمض وقت طويل حتى تجمع مال من حيث لا يحتسب من وجوه البر ومنابع الخير ، وفى ٣١٤ حين كنت لا أزال بخدمة وزارة المعارف بدأنا نبنى بناءً رفيعاً وقبة منيعة بأعلى القبر وانتهى هذا البناء تماماً فى ٣١٦ ش بدون الاستعانة بأى مال من خزانة الدولة من فيض الباطن المنور والروح القدسية لحافظ لسان الغيب ، وأقيم الغراد ، ولما كان الشاعر نفسه أستاذ الخطاطين فى خطة نقشها أحد أساتذة خط الثلث المعاصرين على ألواح من القاشا فى الجميل ، وزين به الباب والجدران ، وانتهى جميع أعمال هذا البناء وكعبة العارفين ، وقد خطط ورسم المهندس الفرنسى (جوادار) رسم هذا البناء ونفذه على رياضى رئيس معارف فارس والمهندسون والنحاتون وعمال القاشانى بشيراز ، وبحمد الله أو فى بائع الخمر حاجة المجاذيب الرنود .

أو التفاؤل بكلمات فيرجيل عند الروم القدماء ، وكما ذكرنا فقد تلقب حافظ بلسان الغيب وترجمان الأسرار عندهم ، لأنهم يعتقدون بأن الإنسان إذا أصيب بشك وتردد بشأن القيام بأمر يستعين بأشعار حافظ ، فيقرأ الفاتحة على روحه ، وينتوى نيته فى قلبه ثم يفتح الديوان بأى نحو يقع ، وسوف يجد جوابه ومطلبه أى أول ما تقع عليه عينه من شعر أو فى آخر غزلية تقع فى الصفحة المفتوحة ، وسوف يكون البيت الأول من الغزل الثانى أيضًا شاهدا لتفاؤل .

كما أنهم أعدوا جداول خاصة باسم (فال نامه) أى كتاب التفاؤل تشمل مربعات عديدة وغالبًا ما تكون حاصل ضرب الأعداد الأولية مثل ٧ أو ٩ ، وكل مربع يحوى كلمةً أو حرفًا يمكن أن يستخدم لهذا المقصود ، وتوجد غالبًا فى مقدمات الطبعات الشرقية للديوان أحد هذه الرسائل الخاصة بالتفاؤل وقواعد استخدامها ومع ذلك فهذه الجداول مع ظاهرها الخفى الرمزى والمحير فإنها تقدم إجابات محدودة ومبهمة جدًا بحيث إن تلك المربعات لو كانت حاصل ضرب العدد سبعة يظهر سبع إجابات ، وإذا كان حاصل ضرب العدد تسعة تقدم تسع إجابات ، وقس على هذا ، وكما أشار المسيو لين (Lane) فقد كان هذا الأسلوب نفسه من المربعات مستخدمًا للتفاؤل عند المصريين القدماء ، ونتيجة لهذه العقيدة راجت فى الشرق - ويجب عامة على الإنسان فى وقت الشك والتردد أن يختار الجانب السلبى كقاعدة ويحترز من القيام بعمل إيجابى تكون لهذا السبب أكثر الإجابات المستخرجة من هذه المربعات ، إما أنها تنهى عن القيام بالأمر بشكل واضح أو بالاصطلاح الرائج يكون (الفأل شيئًا) ، وإما أن يكون للجواب جانب شك ، ويندر أن يستخرج جواب إيجابى يشجع على القيام بالأمر .

تحليل بعض كتب التفاؤل

يشمل أحد الجداول التى أشرنا إليها على ١٥×١٥=٢٢٥ مربعًا يحوى كل منها حرفًا واحدًا ، واختبر ٩ مصاريع أو أنصاف أبيات ، وكل منها يشمل ٢٥ حرفًا ، وحاصل ضربهما (٢٥×٩=٢٢٥) ، وبهذا الشكل وضع فى المربع الأول الحرف الأول من المصراع الأول ، وفى المربع الثانى الحرف الأول من المصراع الثانى ، وعلى المنوال

نفسه حتى وضع فى المربع التاسع الحرف الأول من المصراع التاسع ، ثم يستخدم الحرف الثانى من كل مصراع بالنظام والترتيب نفسه ، ثم بعد ذلك الحرف الثانى من كل مصراع حتى ينتهى الجدول بالمربع الخامس والعشرين وبالحرف الخامس والعشرين من المصراع التاسع وطريقة استعمال هذا الجدول بأن يوضع إصبع السبابة بأى نحو يقع فوق أحد هذه المربعات المائتين والخامسة والعشرين ، ويكتبون الحرف المكتوب فيه ، ثم يتعقبون بقية المربعات بنحو دائرى ، ويستخرجون الأربعة والعشرين حرفًا الأخرى التى تبدأ من المربعات بنحو دائرى ، ويستخرجون الأربعة والعشرين حرفًا الأخرى التى تبدأ من المربعات التسعة الأخرى من تلك النقطة نفسها وتنتهى بالمربع نفسه ، وبهذا النحو يستخرج مصراع كامل من مجموع تلك الحروف الخمسة والعشرين ، وهو يشكل المصراع الأول لإحدى غزليات حافظ ، ثم يستخرجون هذه الغزلية نفسها من ديوانه ويقرأونه ويسمعون الجواب على نياتهم .

وهذا الجدول الذى ندرسه الآن يشمل تسعة مصاريع من تسعة مطالع نثبتها هنا كما يلى مضمومة إلى مصاريعها التالية :

(١) نحن جربنا حظنا فى هذه المدينة ؛ فيجب أن تخرجوا رحالكم من هذه الورطة ، وهذا الغزل جواب على من يتردد ويتحير بشأن القيام برحلة ، ولا يعرف ماذا يختار هل الإقامة بالوطن أو الرحيل عنه .

(٢) مرحبًا أيها الطائر السعيد الميمون الرسالة ، مرحبًا بك ، ما أخبار الحبيب ؟ وأين هو ؟ وما طريقه ؟

(٣) إن اتجه من منزل الغربة هذا نحو الديار ، فحين أعود إليها عاقلاً وحكيمًا . وهذا جواب على مسافر أو مهاجر ناءٍ عن وطنه ، ومحتار ، ومتردد فى العودة إلى موطنه .

(٤) لو ساعدنى الحظ أمسك بذيله – فما أجمله من طرب لو جذبته ، وما أعلاه من شرف لو جذبنى .

(٥) أسفر عن وجهك وأزل وجودى عن فكرك – وقل للرياح قمرى ، فقال : لو طلع القمر .

(٦) قلت : أنا مهموم بسببك ؛ فقال انتهى همك - فقلت : كن قمرى ، فقال : لو طلع القمر .

(٧) يا رب هذه الوردة الناضرة الضاحكة التى أودعتها لى ؛ أدعها لك بسبب عين البستان الحسودة .

(٨) لم أصب توفيقًا حتى الآن من تمنياتى لشفتيك ، ولا أزال أشرب الثمالة على أمل كأس لعلك .

(٩) انهض حتى نطلب من باب الحانة فتوحًا ، ونجلس فى طريق الحبيب ونطلب مرادنا .

بعض التفاؤلات المناسبة من ديوان حافظ

من المعلوم أن الإجابات التى تنتج عن طريق هذا التنبؤ المبهم تكون غالبًا غير معروفة ، وفوق ذلك تكون محددة بالغزليات التسع هذه نفسها ، ومن هنا فإن الطريقة الأخرى للتفاؤل بالديوان ، والتى تتأتى عن طريق فتح الديوان تؤدى بالطبع إلى نتائج أكثر وأوضح ، وتوجد صورة من مثل هذه التفاؤلات التى أعطت إجابات صريحة وواضحة إلى الرسائل ، ومنها ستة من التفاؤلات ، وقد وردت بآخر رسالة اللطيف الغيبية التى ذكرناها فيما سبق - تجدر بالاهتمام .

الفأل الأول : يتصل بالشاه إسماعيل الأول مؤسس الأسرة الصفوية الذى جعل التشيع الدين الرسمى لإيران ، ووصلت جهوده فى هذا الباب حد أنه أمر بشق قبور المشاهير الذين عرف عنهم ميلهم للمذهب السنى وتسويتها بالتراب ، وذهب هذا الملك الكبير ، وبرفقته رجل من رجال الدين الجاهلين والمتعصبين ويعرف باسم (المولى مجسْ) أو الذبابة لزيارة قبر حافظ ، وأخذ هذا المولى يلحق على الشاه فى إصراره على هدم قبر حافظ ، ويتهمه بالانتساب إلى مذهب السنة والجماعة

(كما كان المعاصرون لحافظ يتهمونه أيضًا) ، وكان يصفه بالفساد والفسق ، فأوكل الشاه تنفيذ هذا العزم على التفاؤل بديوان حافظ قلما فتحه ظهر له هذا المطلع :

وضعت الجوزاء بالسحر الحمائل أمامي

أى أنا غلام الشاه أقسم على ذلك

فعدَّ الشاه هذا الشعر بمنزلة القسم على الوفاء له ومبايعته ، وسعد كثيرًا ، ولما عاد المولى مجس فى إصراره وإبرامه فتح الشاه ثانية الديوان ، فطلع هذا البيت ، وكان يخاطب فيما يبدو هذا المولى مصاحب الشاه .

أيها الذبابة إن محضر العنقاء ليس ميدان جولانك

تحمل عرضك وتشق علينا بمضايقك

فوضع المولى مجس أو الذبابة لسانه فى حلق الصمت ، ولم ينبس ببَنت شفة ، ويروى أيضًا حكاية حدثت فى عهد الشاعر ، ولم يذكره صاحب اللطائف الغيبية ، وهى أن الشاعر لما مات ؛ منع بعض مخطئيه دفنه فى مقابر المسلمين ، فلما اتفقوا على التفاؤل بديوانه لحسم هذا الموضوع ، وبأن يكون الحاكم على هذه القضية مايأتى الفأل ؛ ظهرهم فى الحال هذا البيت المناسب :

لا نضن بسيرك وراء جنازة حافظ

فإنه ذاهب إلى الجنه ولو غرق فى ذنوبه

الفأل الثانى : وقد ذكره اللطائف الغيبية فى شأن أحد سلاطين الصوفية ، وهو الأول وحكايته أن هذا الملك كان يلعب يومًا بخاتم كثير النفاسة فسقط من يده فجأة ، ولم يجدوه رغم طول بحثهم عنه ، وفى النهاية فتح الملك الديوان للعثور على هذا الخاتم فظهر له هذا البيت :

إن القلب المظهر للغيب ولديه كأس جمشد

أنىً له أن يحزن من خاتم ضاع لحظة ؟

فسر الملك سروراً بالغًا من حسن مناسبة هذا البيت ، وضرب من فرط الثناء والعجب بيديه على فخديه وأحس فجأة بأن الخاتم سقط من طيات عباءته إذ كان مختفيًا بها .

الفأل الثالث : وذكر أيضًا بهذه الرسالة وتتصل بواحد ثالث من السلاطين الصفوفية وهو الشاه عباس الثانى (١٦٤٢-١٦٦٧م) حين كان يقصد حرب أذربايجان وجعل عاصمتها تبريز هدف هجومه ، وتفاءل بديوان حافظ لتمضية هذه العزيمة فطلع له !

أخذت العراق وفارس يا حافظ

بشعرك نفسه تهلم فقد أن آوان بغداد وتبريز (١)

فقوى هذا البيت عزم الملك ؛ وانتهى الأمر بصحته ونصره .

الفأل الرابع : ويتصل أيضًا بهذا الملك نفسه ، فقد كان له غلام اسمه سياوش ، لأن غيره من الغلمان يفكرون فى قتله ؛ بسبب حقدهم وحسدهم له ، وكانوا يسعون ضده عند الملك ، ويظهرون أنه يستحق الموت ، فلما تفاءل الملك بديوان حافظ لهذا الأمر ظهر قوله .

يسمع ملك الترك حديث المدَّعين

فليحل به الخجل من ظلم قتل سياوش

(١) تنسب حكاية هذا الفأل أيضًا إلى نادر شاه الأفشارى (راجع فهرس بنكيبور ، ص ٢٣٥ ، وأيضًا فارس نامة ج١ ، ص١٦٩ طبعة طهران) ويشار فى هذا الكتاب نفسه إلى فأل آخر استخرجه نادر شاه من ديوان حافظ ، وهو على رأس قبره ويطابق هذا الغزل المطلوب

يحق لك أن تأخذ الخراج من كل المعشوقين لأنك مثل التاج على رأس حسان العالم

وصار هذا البيت سبب تجديد قبر حافظ بأمر هذا الملك المتجبر (فارس نامه ، ص١٦٨) .

الفأل الخامس : وهو تجربة حدثت لمؤلف تلك الرسالة نفسه ، ومفادها أنه قدم فى ١٠٥٢هـ ١٩٤٢م إلى مدينة أحمد آباد عاصمة الكجرات بالهند ، وتعرف إلى رجل هناك اسمه كذعان بك ، وكان من وجوه أعيان المدينة ، وكان له أخ يوسف بيك ، كان قد توجه إلى الحرب فى الكجرات وانقضت مدة ولم يأت عنه خبر ، وكانوا يظنون أنه قتل فى المعركة التى كانت حدثت بالقرب من أحمد آباد ، ولم يطق أخوه كنعان حتى تفاءل فى النهاية لمعرفة مصيره بالفأل التالى وبعده بعدة آبيات طلع له هذا الفأل :

يعود يوسف التائه إلى كنعان فلا تحزن

وستصير صومعة الأحزان بستانا فى يوم من الأيام فلا تحزن

الفأل السادس : وهو آخرها تتصل بشاب اسمه فتح على سلطان ابن إمام قلى خان الذى كان يعيش فى عهد المؤلف ، وكان شابًا جميلاً ومليحًا ، وذهب هذا الشاب يومًا إلى قبر حافظ ، وقد اختمر رأسه ، وثمل وارتدى عباءة خضراء مذهبة ، ومشى بعربدة وسخرية كبيرة ، وكان هذا فى يوم من الأيام الأواخر من شهر رجب ، التى يتجه الناس فيها إلى قبر حافظ للتفاؤل بالديوان واكتساب الخير والبركة ، فلما فتح الشاب الديوان متفائلاً طلع هذا البيت :

إن مررت أيها السكران ذو العباءة المذهبة

فانذر قبلة لحافظ لابس الصوف

فضحك الشاب بسعادة وقال (قبلة واحدة فقط ؟ سوف نعطيك أكثر من قبلة) ، ولما انقضى أسبوع آخر عاد الشاب ومر بقبر حافظ وتفاءل بديوانه فقرأ هذا البيت :

كنت قلت حين أثمل وأقبلك قبلتين

وانقضى وعدك ، ولم نر قبلتين ولا قبلة

فقل الشاب ضاحكًا ما معنى قبلتين ؟ سوف نقبلك ثلاث قبلات ؛ ومضى لحال سبيله دون أن يوفى بنذره ، ومضى أسبوع آخر بعد هذه الواقعة ولما عاد للمرة الثالثة إلى قبر حافظ وتفاءل قرأ هذا البيت :

القبلات الثلاث التى حولتها لى من شفتيك

إذا لم تف بها فأنت المدين إلىَّ

فقفز الشاب فى الحال من مكانه وألقى بنفسه على تراب قبر حافظ ، وأخذ يلثم تباعًا حجره[1] ، وفى فهرس بنكيبور (ص٢٣١) إشارة إلى نسخة من الديوان ملكية خاصة للإمبراطور المغولى للهند جهانجير ، وقد قيد فى حاشيتها هذا الملك بخطه المواضع التى تفاءل بها من الديوان .

كمال الدين بن مسعود الخجندى

ليس بين أيدينا من سيرة هذا الشاعر الذى أثنى على شعره فى مواضع عديدة حافظ الشيرازى ، لكنه لم يتفوق على حافظ معلومات واطلاع كبير ، بدأ الجامى كلامه عنه فى نفحات الأنس بقوله : (كان كبيرًا جدًا ، وكان اشتغاله بالشعر والتكلف فيه

(١) على الرغم من تكرار المؤلف براون انتحال القصص والحكايات لشرح الأبيات غامضة من ديوان حافظ عند الشراح الشرقيين ، وعدم الثقة فى المصادر التى تحدثت فى سير الشعراء ، ورغم أن قصص الفأل التى أوردها المؤلف عن اللطائف الغيبية المؤلفة لإثبات أن حافظ هو لسان الغيب وترجمان الأسرار يشك فى وقوعها ويظهر انتحالها واضحًا ، ورغم أنه ذكر بأول حديثه عن الفأل بديوان حافظ أنه مبهم وغير معلوم إلا أنه دون تمحيص يذكر نسج خيال صاحب اللطائف كأنه حقائق ثابته ، وما التفاؤل بشعر حافظ إلا كالتفاؤل بما يكتبه الصحفيون اليوم عن حظ القراء يوميًا ؛ فيسوق شعر حافظ وأقوال هؤلاء المنجمين أحكامًا شاملة يمكن أن تسرى على أى إنسان فى أى وقت ، ومادام المتفائل يريد إجابه عن شىء فى نيته فله أن يبحث عما يريد فى أول غزلية تطلع له فإذا لم يجد يستمر فى البحث فى الغزاليات السبع المتتالية له حتى يجد ما يفهم منه إجابة على سؤاله ، ولو استخدم الإيرانيون غزليات السعدى أو غيره بدلاً من حافظ لوجدوا نفس نتفاهم فيها ، ولأن المترجم حكمت إيرانى ويقدس كلام حافظ ؛ فقد ساق مما سمعه أو ظنه حدث له ما يثبت صدق التفاؤل بديوان حافظ فى حاشية طويلة نغض الطرف عن نقلها اكتفاء مما أورده براون وتقليلاً لحجم الوهم والانتحال . (المترجم) .

الستر والتلبيس بل لعله كان من أجل ألا ينغلب ظاهره لباطنه ، وألا يعجز عن رعاية صورة العبودية كما يقول هو نفسه :

تكلفاتى هذى فى شعرى هى   كلمينى يا حُمَيرائى

وكان اسم المرشد الروحي لكمال هو الخواجة عبيد الله ، كان يعيش لمدة فى مدينة الشاش [1] ، والشاش أيضًا مثل خجند موطن كمال مدينة من بلاد ما وراء النهر ، وفى وقت غير معلوم وربما كان فى بداية حياته هاجر كمال من موطنه إلى تبريز ، وسكنها ونشأ له حب وعلاقة خاصة بتلك المدينة ، وقد خصه السلطان حسين جلاير ولد أويس الإيلخانى (٧٧٦-٧٨٤هـ/ ١٣٧٤-١٣٨٢م) بعناية كبيرة وبنى له خانقاه ، وذكر كذلك الجامى فى نفحات الأنس (كان له خلوة فى الزاوية ، التى كانت له فى تبريز يقضى فيها ليله ، وكان يقدم إليها قليل من الناس ، وبعد وفاته لم يروا بها غير حصيرة كان يجلس عليها أو ينام ، وحجر كان يضع عليه رأسه ولا شىء آخر) .

وفى تبريز أيضًا لقى شهرته بالزهد والصلاح ، ووقع تحت نفوذ الشيخ زين الدين الحوافى [2] ، وفى عام (٧٨٧هـ / ١٣٨٥م) هاجم من صحراء القبجاق توقتمش خان

(١) الشاش مدينة فى التركستان شمال نهر سيحون ، وتعرف اليوم طاشقند ، وهى عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفيتية ، ويستقر العلم والصناعة والفلاحة بهذا المركز المهم فى الشرق ... زارها حكمت فى ١٣٢٧ هـ ولا يزال يروج بها اللغة الفارسية (اللهجة التاجيكية) ، ويعرف غالب أدبائها أشعار الأساتذه الفرس .
وقد أخطأ براون فى ترجمة كلام جامى : إذ يقول الجامي (كان حضرة الخواجة عبيد الله أدام الله بقاءه يقول إنه كان لفترة فى الشاش) ، ومقصد الجامى أن عبيد الله النقشبندى (متوفى ٨٩٥ هـ) كان يحكى أن كمال ظل فترة فى الشاش ففهما براون على أن كمال ظل مدة فى الشاش مشغولاً بالأخذ عن شيخ اسمه عبيد الله .

(٢) أخطأ براون أيضًا فى ترجمته عن الجامى الذى يقول : (كان حضرة الشيخ زين الدين رحمه الله) إنه كان يأخذ عنه وقت تحصيله العلم فى تبريز ؛ فالشيخ زين الدين هو أخذ عن كمال وليس العكس الذى ظنه براون ، وقد توفى زين الدين الخوافى ٨٣٨ هـ بعد موت كمال بنحو خمسة وثلاثين عامًا وأرجع براون لسيرة زين الدين أبو بكر الخوافى إلى نفحات الأنس وعجائب امعدور (ص ١٧ ، طبعة مصر) بينما أخطأ ابن عرب شاه مؤلف عجائب المقدور حين خلط بين أبى بكر الخوافى وأبى بكر التايباى ونسيب قصة لقاء تيمور بالأول وكتب لذلك فصلا خاصًا عنوانه (ذكر اجتما ع ذلك الجافى بالشيخ زين الدين أبو بكر الخرافى) ، وقد وررت بالتفصيل حكاية لقاء تيمور بمولانا أبو بكر التايبادى سنة توجيه الهجوم على هراة فى ظفر نامة لليزدى وحبيب السير ، وفوق ذلك بتصريح الجامى فى نفحات الأنس لقب أبو بكر الخوافى بركن الدين وتوفى ٨٣٨ هـ ، وكان وقت أن ثلاثى تيمور بمولانا عام ٧٨٢ هـ وبتصريح مطلع السعديين طفلاً صغيرًا لا يستحق احترام تيمور له وطلبه النصح منه ، ويبدو إن ابن عربشاه وقع فى الخطأ لاشتراك لاثنين فى الكنية " أبو بكر " ، وجعل الخوافى بدل التايبادى وسار براون على الخطأ نفسه ، والله اعلم .

ورحل كما هى عادة غزاة ذلك العهد كثيراً من علماء هذه المدينة وفضلائها إلى عاصمته (سراى) ، وكان من ضمنهم الشيخ كمال فأقام بهذه المدينة أربع سنوات ، ثم عاد ثانية إلى تبريز ، وظل بها حتى موته (راجع فهرس ريبه ، ص ٦٣٢) ، ويتفق على هذا أغلب المصادر التاريخية وكتاب التذاكر ، وقد حدثت وفاته عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .

عدّ دولت شاه تاريخ وفاته هو ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م ، لكن ريبه Rien بأدلة ذكرها فى فهرس النسخ الفارسية بالمتحف البريطانى لا يثق بهذا التاريخ ، وذكر سنة جديرة لوفاته فى كتاب مجالس العشاق وهى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م ، ويقال إن هذا البيت نقش على قبره :

ذهبت يا كمال من الكعبة إلى دار الحبيب

فلك عظيم الثناء إذ ذهبت برجولة

وأثناء الإقامة الثانية لكمال فى تبريز صار موضع عناية ورعاية الميرزا ميران شاه ولد تيمور حين كان حاكم آذربايجان فى ذاك الأوان ، ويقال إن هذا الأمير أعطى الشاعر ألف دينار لقاء الفاكهة التى قطفها جنوده من بستان هذا الشاعر ؛ لكى يبرىء ذمته .

ولم يطبع ديوان كمال الخجندى – فيما أعلم – ومخطوطاته قليلة رغم أن ديوان أشعاره غالبًا ما يرى فى كثير من مخطوطات الشعراء الفرس ، وأمتلك نسخة لهذا الديوان بلا تاريخ ، وهى قديمة وجميلة الخط ، وانتخبت من ذاك الديوان القطع الآتية وأذكرها الآن كما يلى :

-١-

يا كمال دموعك من كل رمش إلا ما كان بنفس لون سلمان

إذ إنه اقتبس من أشعار الناس المعانى الملونة

-٢-

رجلت بمشطها الرياح زلف حبيبى

أصـلـح الـلـه شـــأنـهـــا[١] أبـداً

قدك المنتصب مثل الألف

ونـحـن مـــثـل الـلام بـوسـط الـبـــلاء

الأولى بأن تكون عين الندية على شفتيك

لأن الأفضل أن تكون الحلوى على المرطب

فاض قلبك المجروح بآلامك

حـد أنه لا يتـسـع للتـفـكيـر فى الدواء

فلا تتعب قلبك فى آلام الحبيب يا كمال

وفـــوه مـــاء الحـــيـــاة فـــيـــه شـــفـــاء

-٣-

ينقش النقاش بصعوبة حاجبيك

ويـصـــعـب شـــد الـقـــوسـين مـــعـًـــا

-٤-

أى مجلس هذا ، وأى جنة ، وأى مقام هذا هنا

والعمر الباقى لشفة الساقى هو حافة الكأس هنا

العظمة التى فرت من الجميع لم تتجاوز هذا الباب

والسعادة التى هربت من الجميع هى أسيرة هنا

حين تأتى مهمومًا إلى مكان طربنا

يقولون جميعًا لك لا تحزن فالحزن حرام هنا

(١) فى البيت جناس كامل وأصله (شانه زد بادزلف يارمرا - أصلح الله شانه أبدا) فكلمة (شانه) فارسية تعنى المشط فى الشطر الأول ، وكلمة (شانه) هى العربية مخففة . (المترجم) .

حين تسير فوق صدورنا فنحن بسقف الفلك

فـأبـطئ ؛ لأن الكـأس وشـفـا السـقم هنـا

لـيس فـى مـجلسـنـا الصـدر وصـف النـعـال

ولا يميــزون هـنـا بـين الـشــاه والـدرويـش

نحن جميعًا دافئو الوجوه كالعود ومحترقون

وليس غير الزاهد المتجمد الذى هو الخامل هنا

تـكـثـر من السـؤال أى مـقـام لك يـا كـمـال

إنه المقام الذى ليس هو المنزل ولا المقام الذى هنا

-٥-

ملتزمًا بكلمة عيد[١]

صـــار شـــهـــرى عـــيـــداً فـــمـــبـــارك

ومـاذ سـوف تعطى العـشـاق عـيـدية

(١) أصل شعر كمال تحت رقمى (٤ ، ٥) للتمثيل بشعرة هو :

این چه مجلس جه بهشت ابن چه مقام است اینجا — عمـر باقی لب ساقی لیب جام استاینجا

دولتی کزهمه بکریخت ازین در نکذشت — شادئی کزهمه بکریخت غلام است اینجا

جـون درآتـی بـطـربـخـانـه مـا بـاغـم دل — همه کویند مخورغم که حراماست اینجا

مـابـام فـلـیـکـم ازبـرمـا کـر بـروی — بروآهسـتـه کـه جـام ولب است اینـجـا

نیـست در مـجلـس ما یشکه وصف نعال — شاه ودرویش ندانند کرام است ایخـجـا

صـفـت عـور همـه کـرم رو وسـوختـه ایم — بجـزاز زاهدا فـرده مـه خـام است ایجـا

جند پرسی چه مقام است کمال ابن که تراست — این مـقـام کـه منزل نه فـقـام است ینجـا

(بالتزام كلمة عيد)

مـه من عـیـد شـد مـبـارك بـاد — عیـدی عاشقان چه خواهی داد

عـیـدی مـاوعـیـدي رخ تـست — عـیـد مابی رخ توعـیـد مـبـاد

کـفـتـه یرسـم از تـوعـیـد دکـر — آه کـاین وعـده هم بعي افـتـاد

جـانم ازغم رهان چو عـیـد رسـید — عـیـد زنـزانـیـان کـنـنـد آزاد

عـد شـد کـبـندراز وعـیـد کـمـال — عـیـد مـازنـد خاطر همه شـاد

عيديتنا هو الود بوجهك

وعيدنا لا يكون عيداً بدون وجهك

قلت أبحث عن عيدٍ آخر لك

فآه إن وعدك هذا بدا بعيداً كذلك

تخلصت روحى من الهم لما وصل العيد

لأنهم يطلقون المساجين فى العيد

انتهى العيد فتخلّ عن وعده يا كمال

بأنهم يسعدون الجميع فى العيد

-٦-

الثناء والمدح لتعبيرك يا كمال

فليس أمامك خيار عن المدح والثناء

الفاكهة التى يجلونها من خجند

ليست بمثل نضارة شعرك وعذوبته

-٧-

مرض التوبة هو من الدواء يا حبيبى

وآلامك هى التى تزيد حياتى يا حبيبى

أنت مستجد فلن ينتج من بابك

يا حبيبى غير الآلام والبلاء

ومع أنى من إفلاسى لا أملك شيئًا يجدر بك يا حبيبى

فلهذا أقدم لك عينى المبصرتين قائلاً : إنه نظر الصفاء يا حبيبى

قلت سوف أقتلك ولا يجوز هذا

لكن لو قتلنى الحبيب فيجوز له هذا أيها الحبيب

كل ما قاله قلبى فى وصف قدك

أوحى به حقًا إليه ربى أيها الحبيب

نظمت هذا الغزل الصادق على قدك

فاكتب ما يقوله كمال أيها الحبيب

وكمال هو الشاعر الوحيد - فيما أعلم - الذى سعى أن تتساوى غزلياته بقدر ما أمكنه أى لا تتجاوز سبعة أبيات ، وقد صرح هو نفسه بهذا الأمر فى قوله[1] :

-٨-

أكثر غزلياتى سبعة أبيات

لم تزد عنها مثل شعر سلمان

ويقرأ شعرى فى العراق مثل حافظ

عاليًا سلسًا مثل السبع الشداد

وهى مثل السماء قائمة على سبعة أبيات

ويعدم العماد الفقيه غزلاً مثل غزلى

(١) عد براون كمال الشاعر الوحيد الذى نظم غزلياته فيما لايزيد عن سبعة أبيات بينما التزم الجامى أيضاً بهذا الشروط وراعى العدد نفسه فى غزلياته ، وأشار كذلك إلى هذا الأمر فى شعره حين قال :

فى بستان شعرى يترغم طائر طبعى فى الأكثر بسبعة أبيات ويزيد العوافى فيها

وكل غزل (فى هياكله السبعة الكنوز على أرفف الكتب) نموذج للمعنى المستتر فى مائة كنز

فلو أطلق على كل بيت هذه السبعة السبع المثانى فلا تغضب

وإذا نبقى من الأعضاء السبعة واحداً واثنان فإن أبياتى السبعة قد تكون ستة أو خمسة .

-٩-

غـزلـيــات كــمــال على ســبــعــة أبيــات
والكنوز الخمسة تبلغ معشارها فى لطفها

ولـلـصـحــاب أيضًـا غـزلـيـات سـبـاعــيــة
وكل مـنـهــا صــاف وسـلـس ومــقــبــول

لكن من كل السباعيات لهم يجدر حكى
الأربعة الأبيات من أولها والثلاثة من آخرها

-١٠-

إذا وقــع بــيـــــدك ديــوان كـــــمـــــال
فـاكـتـب من شـعـره بـالـقـدر الذى تحب

وإذا أردت أن تـفــهـم خــيـالاتـه الـغـريـبـة
وألـفـــاظـه وحـــروفـــه كـــمـــا هــى

فـلا تمـر سـريعًـا عـلـى كل لفظه كـالقلم
بـل انـزل كـــالمـداد عـلـى كـل حـــرف

-١١-

اشـــتـــهــــر فـى الـدنـيـــا كــمـــالان
أحدهما من أصفهان ، والآخر من خجند

هــذا فـــى غـــــزلــه عـــديم المـثـــيـــل
وذاك فـى الـقـــصــيـــدة بـلا نـظـيـــر

ولـيس بـين هـذيـن الـكـمــالـين فـى المثـلـيــة
من فـــرق غـــيـــر بـضـع شــعـــرات

-١٢-

طلب أحدهم شعراً لسليمان منى

ليس فى ديوانى عنه حديث قط

فأعطيته هذه الأقوال السلسلة[١]

التى لا يماثلها در فى جنة عدن

أكتبها لك ولكن أشعاره ليست شيئًا عندى

-١٣-

ذلك الصوفى المقطوع الأنف لنا

ليس له غير العجز والمسكنة

لا يجب أن يجرم بالأنانية

لأن هذا المسكين نفسه ليس له أنف [٢]

ونجد فى ديوان كمال خطابًا إلى من يسمى (حافظ) فى بضعة مواضع ، وكان المخاطب فيها بهذا الاسم قارئًا أو منشداً لشعره ، والمحقق أنه لا يقصد حافظ الشيرازى ، ويخاطب فى هذا البيت الشاعر المعاصرله عصار التبريزى [٣] :

(١) أخطأ براون فى فهم الكلمة وترجمتها (جواب) .

(٢) هذان البيتان نظمها الشاعر للتورية أو الإبهام والجناس وأصلهما :

بما آن صوفى بريده بينى بغيراز عجز ومسكينى ندارد

نشايد جرم خود بينى برويست كه آن بيچاره خودبينى ندارد

فى البيت الثانى (خود بينى) بمعنى الأنانية أو رؤية الذات فى الشطر الأول ، وفى الشطر الثانى (خوبينى) كلمتان منفصلتان الأولى بمعنى النفس أى نفس الشاعر ، والثانية بمعنى (الأنف) . (المترجم) .

(٣) راجع لسيرة العصار التبريزى مذكرات أوزلى عن الشعراء الفرس ص ٢٠١-٦ ، وتكر أنه توفى بين ٧٧٩-٧٨٤ هـ ، وله مثنوى لطيف اسمه مهر وتشترى أو الشمس المشترى ، توجد له نسخة جيدة فى المكتبة الوطنية بطهران .

فى النهاية مات عصار المسكين ورحل

حمل دماء الدواوين فى عنقه ، ورحل [1]

وفى النقطة التالية التى استشهد بها ريبه إشارة إلى الواقعة التاريخية لهجوم توقمتش خان على تبريز :

-١٤-

قــــال فــــرهــادنــا إلــى الأمــــيــــرالــولــى

لــنــعـــــمــــــر الــرشـــــيـــــديــة

نـأخـذ الـذهـب من أهـل تبـريـز لننـفـقـهـا

على الحجر والطين ؛ لنقيم هذا الأساس

مـــا نـشــغــل المسـكـين بـشـق الجـبـــال

وقد أربت الجبال والسهول عن عدد النمل

وجـــاء جـــيـــش المـلـك تـوقـــمـــتـش

وصــــاح الـهـــاتـف بـهــــذا الـنـداء

إن شـفـتـى شـيـرين اليـاقـوتيـه صـارت من

نصيب كسرى وفرهاد شق الأحجار عبثًا[2]

(١) أخطأ براون فى فهم البيت : إذ ذهب إلى أن عصار قتل بحكم الديوان وقصد كمى أن عصار قتل دواوين الشعراء وأخذ فى عنقه دماءهم أى سرق أشعارهم ، وهذا المصطلح تداوله الشعراء كما ذكر الأنورى :

أعرف واحداً من أكابر غزاة النظم　　　　تعلق دم ديوانيين بعنقه صراحة

(٢) فهم براون معنى البيت الثانى خطأ وترجم الشطر الأول منه (دعنا الذهب لأهل تبريز من أجل الطوب والحجر) على غير ما يقتضى الأصل الفارسى ، والقطعة تتضمن حكاية العشق المشهورة لفرهاد المهندس الذى عشق (شيرين) جارية (كسرى برويز) : فاستغل الملك برويزجيه لها ووعده بتزيوجها له إن شق الجبلى وبنى له القصور ؛ ولم يف بوعده وظلت قصتهم تجرى شاهداً ومثالاً فى الأدب الفارسى ومنه هذه القطعة أن توقتمش وعد أهل تبريز بتعمير بلادهم نظير ذهبهم ، فلما أخذ الذهب ترك (فرهادهم) يشق الجبال عبثًا ومضى بالذهب . (المترجم) .

وفى القطعة التالية ضمن كمال مصراعًا من همام التبريزى :

-١٥-

قلت سأعيد لك من مصرى المعانى
نقاطًا عدة تدخل فمك مثل السكر

فخشيت من مقالك هذا الذى تقوله مثل همام
لا تحملوا ثانية السكر من مصر إلى تبريز

ويرى فى ديوان كمال قطعات بها إشارة إلى النظامى والسعدى[1] ، وفى موضع يخاطب شاعرًا مستخلصًا (بالمعجرى) من سمرقند ، وفى القطعة الآتية يشير إلى شاعر تخلص (بالمعاذى) .

(١) فى تصرف المترجم حكمت نسخة كاملة لديوان كمال فجندى تاريخ كتابتها المحرم ٩٠١ ، وهى بخط النستعليق الهروى وتشمل الغزليات ، وهى الشطر الأساسى فيها والقطعات والمفردات وعدة رباعيات .
وقد تأثر كمال فى أغلب غزلياته بالسعدى ، كما فعل فى جوابه على غزل السعدى الآتى مطلعه :

لا تَسَلْنى كيف حال قلبك بل سَلْه — لماذا أصابعه ملوثة بالدماء ؟
فقال كمال : امتلأ كأس عينى من همومك بالدماء — فكيف يقارن به كأس الساقى وشرابه الأحمر ؟
لا يمكن تقرير شرح حكايتك — لأن جور الحسان وتعذيبهم يخرج عن الوصف
بلغ قلبى بسبب أحزانك حلقومى — وأنت لا تسأل قط من وجه اللطف : كيف حالك ؟
أى ثقة فى عهد وعدك لحسن ليلى — تحت طية من شعرك ألف مجنون ؟
إذا فاضت روحى فأنى للعاذل أن يعرف — أنى غريق وهو سائر على شط جيحون ؟
كيف لا يهيم قلبى هذه الشمائل الموزونة — خاصة قلب من له طبع موزون ؟
جميل أن تسمع شعر كمال — فلطافة شعره مثل الدر المكنون

وقد تأثر حافظ أيضًا بغزلية السعدى نفسها وقال :

من بكاء إنسان عينى قعد هو فى الدم — فانظر كيف صار إليه الناس بسبب طلبك

وتأثر كمال لغزلية لحافظ مطلعها :

لمعت نجمة وصارت قمر مجلسنا — وغدت لقلوبنا الجافلة أنيسًا ومؤنسًا =

دعـــــائـــى فـــى كـــل صـــــلاة

حين أكــون بخلوةٍ أو ملجــأ أو مــعــاذٍ

اللـهـم احــفـظ أصــحــاب الذوق والـطـرب

من صـنـج مــلاطـى ، وشــعــر مــعــاذى

والبيت التالى يحمل معنى بكرًا ولطيفة بديعة

هل تعلـم سبب قـهقـهـة زجاجات الخمر ؟

إنها تضحك على لحية محتسب المدينة

ويحكى القطعة الآتية عن أن كمال لم يجمع شعره ، وقد جمع ديوانه بعد وفاته :

ســـــألـــنـــى صـــــاحـــب ذوق لمــاذا

لــك شـــعـــر ولـيـس لـك ديـوان ؟

فقلت ؛ لأن شعرى ليس ضخمًا ولا كثيراً مثل الآخرين

فقال : مع أن شعرك قليل فليس يقل عن شعرهم

= فقال كمال :

ليلة أن غدت طلعتك مصباح مجلسنا   جُنّ عليه قلوبنا كافراشة من أجل أن تحترق

أزالت عيناك من قلبي وديني كل ما لدى   وأفلس الشرى حين قدم إلى السكارى

إنك تحيل التراب ذهبًا بكيمياء نظرتك   ولا يختلف الأمر لو كان وجودنا نحاسًا

فكيف يمل قلبى الوحدة وهو يتخيلك   أن خيالك صار رفيقًا للهم وحبيبًا للبلاء ومؤنسًا للألم

إن من كنت أراه عاقلاً ووقورًا بشكل محسوس   لما رأى جمالك ذهل عن وجوده وغاب عن حسه

لم ينقش حاجياك باب دار العشق   لأن اليد الصانعة فى حجراتها كانت لمهندس

جميل أن يوجد المطرب والساقى   وأنا ومعشوقان لكن بعد هذا العدد صار العاذل السادس

أكثر كمال من مطالعة كتب الجذية والمجون حتى صار مدرسًا فى دقائق علم النظر .

لم يكن حافظ يبارينا فى طراز الغزل - ولو صار أبا الفوارس فى صفوف المجاذيب ، وما يجدر الاهتمام به أن كمال ذكر حافظًا فى هذه الغزل وهذا هو مضى ذكر كمال اسم حافظ وسلمان السارجي والعماد الفقيه كذلك .

ثم إن قطعات كمال الخجندى كغيره من شعراء إيران تحوى موضوعات خاصة ونقاطًا شخصية ، وأشار أغلبها إلى حوادث عهده وكبار شخصياته ، ومع أن معانى هذه الإشارات بقيت مستغلقة غلبًا ؛ بسبب فقداننا للمعلومات الأكمل تعريفًا ودلالة ، فلهذا السبب استشهدنا بتلك القطعات أكثر من الغزليات فى هذا المقام .

الشيخ المغربى

ليس لدينا كثير المعلومات عن سيرة المغربى ، وهو أحد المشاهير المعتقدين بوحدة الوجود ، ومن الشعراء المعروفين التابعين لهذا المذهب ، وقد وردت إشارات مختصرة عنه فى كتب الرجال والتذاكر[١] ، وغالبًا هم متفقون على أنه توفى فى عام ٨٠٩هـ ١٤٠٦م فى تبريز فى الشين من عمره ؛ وبهذا تكون ولادته فى حدود ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م .

وسجل بعض آخر تاريخ وفاته بأبكر من هذا بعامين ، ويذكر المؤرخ عالم العصر الأخير رضا قلى خان هدايت أنه ولد فى نائين بالقرب من أصفهان ، ودفن فى (اصطهبانات) بفارس [٢] ، لكن الجميع اعتبروه تبريزيًا ، يقال إنه تخلص بالمغربى بسبب كثرة رحلاته فى بلاد المغرب (شمال غربى أفريقيا) ولبس خرقته هناك على أحد مشايخ هذه البلاد .

وتنتهى سلسلة طريقة هذا الشيخ المذكور إلى الصوفى الكبير لتلك الديار محى الدين بن عربى ؛ الذى لا يزال تأثير أفكاره ونفوذها باقيًا فى إيران حتى العصر الحالى ، وظهر بين الإيرانين كثير من الشعراء الصوفية متابعين له مثل العراقى ، وأوحد الدين المراغى ، والمغربى ، وآخرهم الجامى ، وجميعهم من المعتقدين البارزين لمبادئ

(١) راجع نفحات الأنس للجامى وآتشكده لآذر وهفت إقليم بزيل (لغت تبريز) ، وحبيب السير المجلد ٣، ص ٩٠ ، ومجمع الفصحاء المجلد ٢ ، ص ٣٠ ورياض العارفين ، ص ١٢٤ (ولا تورد تذكرة دولت شاه خبرًا عن المغربى) .

(٢) ضريح باسم مزار الشيخ المغربى موجود حاليًا فى اصطهبانات الفارس ، ويقع فى البوستان المصفا ونال راقم السطور ، وزيارته ١٣٠٦هـ.ش ، وقد زال من قبره النقش ولوح الشاهد القديم .

وحدة الوجود ، ويذكر رضا قلى خان فى مجمع الفصحاء بشأن المغربى : (مذهبه وحدة الوجود ، ومشربه لذة الشهود ، ولا يمكن أن تجد فى كل أشعاره إلا معنى واحداً ، وترجيعاته وغزلياته كلها مشحونة بحقائق التوحيد) .

وذكر الجامى وغيره من كتاب التذاكر أن للمغربى نفسه معرفة وصحبة مع الشاعر السابق الذكر ، أى كمال الخجندى ، ويمكن أن يكون هذا القول صحيحاً ؛ لأن كليهما كانا متعاصرين ، وأمضيا بأى شكلٍ الشطر الأساسى من عمرهما فى تبريز .

ثم يقول ، وكان الشيخ قد أنشد فى ذاك الوقت هذا المطلع :

لو أن العين بهذا الشكل والحاجب هكذا والدلال والغنج هكذا

فوداعًا أيها الزهد والتقوى ، وفراقًا أيها العقل والدين

فلما بلغ مولانا (كمال) هذا المطلع قال : ابن الشيخ عظيم جداً ، فلماذا يضطر إلى نظم شعر ليس له محمل آخر غير المعنى المجازى ؟ فسمع الشيخ ذلك ، وطلب منه مصاحبته وقام هو بالطبخ ، ووافق مولانا على حضور هذه الصحبة ، وأثناء ذلك أنشد الشيخ ذلك المطلع وقال : (چشم هى العين ؛ فيجب التعبير بها بلسان والإشارة عن العين القديمة وهى الذات ، وأبرو هو الحاجب إذن ؛ فيمكن أن يكون إشارة إلى الصفات التى هى حجاب الذات ؛ فوافق حضرة مولانا وأنصفه [1] .

لو صدقت هذه الحكاية لأمكن القول بنحو ما درسه ريبه أن الشيخ كمال كان له القربى عن ميران شاه بن تيمور أكثر مما كان للمغربى ، ويمكن أن يكون لهذا الأمر أن تكون العلاقة بين هذين الشاعرين على غير إخلاص وصفاء كبيرين .

وبما أن النوادر والخصوصيات التى لدينا عن حياة المغربى لا تزودنا بالمعلومات الكافية عنه ، فالأفضل أن ننشغل عن سيرته بوصف شعره وكلامه الذى نراه فى ديوانه الصغير الحجم إلى حدٍ ما ، فهذا الديوان يشمل الغزليات ، والترجيعات والرباعيات ، وطبع مراراً بإيران ، ولدى شخصياً مخطوطة له كثيرة الجمال وحسن الخط ، ولكن بدون تاريخ .

(١) نقلاً عن نفحات الأنس للجامى .

والديوان المطبوع[1] يحوى ١٥٣ صفحة بالقطع الصغيرة بها ١٧ بيتًا ؛ وعلى هذا مجموع أبياته نحو (٢٣٠٠) ، وكلها تتحدث عن التصوف ، والعرفان ، ولا تشير إلى حياة الشاعر وعصره بالحد الذى درستها ، وهاكم بضعة نماذج منها ، نسوقها هنا :

-١-

لما بدت شمس وجهك	ظهرت ذرات الكونين
ولما ألقت شمس وجهك بظلالها	ظهرت الأشياء من تلك الظلال
وكل ذرة من نور شمس وجهك	تجلت بصفة الشمس
وكل ذرة صارت موجودة بالشمس	وظهرت الشمس أيضًا بالذرة
وماج بحر الوجود	وألقى بموجه إلى الصحراء
وغاص هذا الموج وتعالى	فى كسوة وصورة بهية
ونمت بنفسج المعانى	كالخط الجميل النقش للحسناء
وتفتحت شقائق الحقائق	وارتفع ألف سرو
ما هو البحر ؟ إنه وجود نفس ذاك الموج	وذاك الموج ماهو إلا عين هذا البحر
كل جزء موجود هو عين الكلّ	وإذن فالكل هو سائر الأجزاء
وما الأجزاء ؟ إنها مظاهر الكل	وما الأشياء ؟ إنها ظلال الأسماء
وما الأسماء ؟ إنها ظهور الشمس	والشمس هى جمال الذات العلية
وما الصحراء ؟ هى أرض الإمكان	وكتاب الله تعالى هو المنجم
فاترك يا مغربى هذا الحدث	ولا تفش سر الكونين

(١) لدى طبعتان لديوان المغربى تاريخ طبع الأولى (١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م ، والثانية ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) .

-٢-

يا من سائر الدنيا ظاهر فى وجهك الواهب للحياة

ويامن وجهك باد فى مرآة الكون

لما نظر شاهد حسنك فى المرآة

رأى عكس وجهه فَولَّهَ وأفْتَتَن

فى كل لحظة منح وجهك جمال وجهه

تجلى على عينيه بمائة كسوة جميلة

أخرج من أعين العشاق نظرة

فعرض حسنه من وجود المعشوقين

وخلق وجهك لأجل التجلى مرآة

وسمى هذه المرآة آدم وحواء

ورأى الحسن وجهه فى كل وجه فيه

ولهذا صار مرآة جملة الأسماء

يا من حسنك تجلى على ناظريك

وعاينت فى عينيك وجهك

بما أنك أنت الناظر والمنظور فليس غيرك أحد

فلماذا ظهرت كل هذه الغوغاء

فيا مغربى ، إن الآفاق تمتلىء بالوله

حين يرقد سلطان جمالى خيمته بالصحراء

-٣-

يا مركز الوجود ومداره ومحيط الجود

ويا من تشبه القطب الثابت ، والفلك المتحرك

إن أرسل إليك السلام فأنت السلام

وإن أصلى عليك فأنت الصلاة

حين يمنح أحداً شيئًا ، فلك وبك

وهذا الشيء أنت ، فيامن أنت المزكى لك والزكاة لك

يا شامل المظاهر ويا أكمل الظهور

يا برزخ البرازخ ، يا جامع الشتات

يا أجمل الجمال ، ويا أملح الملاح

يا ألطف اللطائف ، يانكتة النكات

أنت الداء وأنت الدواء وأنت الحزن وأنت الفرح

أنت القفل وأنت المفتاح وأنت الحبس وأنت النجاة

أنت الكنز وأنت الطلسم وأنت الجسم وأنت الروح

أنت الاسم وأنت المسمى وأنت الذات وأنت الصفات

أنت المغربى والمغرب وأنت المشرقى والمشرق

وأنت العرش والفرش والعنصر والأفلاك والجهات

-٤-

يا من أنت المستتر عن الدارين ، من يكون العيان ؟

ويا من أنت عين العيان ، من يكون للمستتر ؟

من هو الذى بمائة ألف صورة يصير عيانًا

فـــى كـــل لحـــظـــة ؟

ومن هو الذى بمائة ألف تجل يظهر جماله

فـــى كـــل زمـــــان ؟

تقول أنا مستتر عن العالمين ، فمن الذى تبدى

فى كـل واحـد فـيـهـمـا ؟

قـلـت أنـا صـــامـت دائـمًـــا

فـمن الـناطـق إذن بـكـل لـســان ؟

قلت أنا خارج عن الجسم والروح

فمن الذى ارتدى لباس الجسم والروح ؟

قـلـت أنـا لـسـت هــذا ولا ذاك

فـمن يـكـون هـذا ومن يـكـون ذاك ؟

يا من اعـتـزلت نـاحـيـة بالله قل

مـن هـو المـوجـود بـين الـنـواحـى

من هو الذى يتجلى فى حسن

المعشوقين وجمالهم ؟

ومن هو الذى أبدى حسنه

وألقى الفتنة فى العالم ؟

يا من بقيت فى ظن ووهم

فمن الذى لم يتيقن منك بظنه ؟

استتر عن ناظرى المغربى

وانظر فى عينيه من يكون العيان ! (١)

-٥-

ذاك الذى كان خفيًا أتى منا وصار هو نحن

وذاك الذى لم يكن هو نحن ، ولا أنتم صار نحن وأنتم

(١) أصل الأبيات للتمثيل لشعره :

أى ازدوجهان نهانى عيان كيست — وى عين عيان بس اين نهان كيست ؟
آن كس كه بصد هزار صورت — هر لحظة همى شود عيان كيست ؟
وان كس كه نهانم ازدو عالم — بيدا شده دريكان يكان كيست ؟
كفتى كه هميشه من خموشم — كويا شده بس بهرزبان كيست ؟
كفتى كه زجمس وجان برونم — يوشيده لباس جسم وجان كيست ؟
كفتى كه نه اينم ونه آنم — بس آنكه بودهم اين هم آن كيست ؟
اى انكه كرفته ى كرانه — ازحسن وجمال دلبران كيست ؟
وآنكس كه نمود حسن خودرا — وآتشوب فكند درجهان كيست ؟
اى آنكه تومانده دركمانى — ناكرده يقين كه دركمان كيست ؟
ازيده مغربى نهان شو — وزيده او ببين عيان كيست ؟

(المترجم)

تنزل السلطان بأعلى عرض الملوكية

مع أن ليس خلاه ملك ، صار شحاذاً

ذاك المنزه عن الفقر والغنى

اكتسى كسوة الفقر من أجل إظهار الغنى

لم يسمع أحد قط بهذه الطرفة وهى

أن شخصًا واحداً وهو نفس منزله

ذاك الجوهر النقى وتلك الدرة اليتيمة

لما جاش ظهرت السماء والأرض

لا يمكن القول فى كسوة الكيف والعلة

إن هذا المحبوب صار بلا كيف وعلة كيفًا وعلة

أظهر وجه جلاله من جلال الحسان

حتى ظهر على صفة القمر الجديد مشاراً إليه بالبنان

هو فى بستان العالم السرو المستقيم ومثل الشقائق

وهو لابس القلنسوة الحراء والعباءة الخضراء معًا

فتلك شمس الفلك الأزلى تجلت

حتى صار المغربى والمشرقى والشمس والضياء [1]

(١) يعتقد براون أن الأبيات الأولى لهذا الغزل تتضمن شيئًا من العقيدة المسيحية .

-٦-

لا تَسَلْ عن طريق المدرسة ورسم الخانقاة

واترك الطريق والرسوم ولا تسل عن الطريق والسلوك

بل اسلك طريق الفقر والغناء وكن دائمًا سعيدًا

ولا تنظر خلفك ولا تسل إلا عما هو أمامك

وحين تخطو خارج مضيق الجسد فلا تسل

إلا عن الحظيرة القدسية وعن الملك

سل أهل الفقر والفناء عن مذاق الفقر والفناء

ولا تسل من ارتهن بالمال والجاه

لما بدت مظلة الملك انبعثت الهتافات

(أنت الشاه) فلا تسل ثانية عن الجيش والعسكر

إذا صدقت في السلوك وتخليت عن رأسك

فلا تسل عن قلنسوتك لو خطفوها منك

وبما أن حالي لا يخفى عليك أيها الرفيق

فلا تسل ثانية بمن كيفية أحوالي - الشهد

امْحُ ذنب وجوده بما أنك محروفانِ

فلا تسل عن ذنب وجوده فهذا ذنب بدوره

إذا اعتذر لك المغربى أيها الرفيق

فاغفر له بلطف ولا تسل عن جرم المعتذر

-٧-

تخلصنا من الخانقاة والصومعة والمدرسة

وجلسنا فى ربع المجوس بالخمر والمعشوق

وم [illegible] ـا فى المصاطب خرق الشرف

وأخلفنا فى الحانات توبة خداعنا

نحينا بناحية السجادة والمسبحة

وعقدنا ظهورنا فى خدمة النصرانى الطفل بالزنار (١)

نجونا من التسبيح بالمسبحة

وتخلصنا من شرك الصلاح والورع والزهد

فنينا فى ربع المجوس عن كل وجود

فلما فنينا من كل وجود صرنا موجودين

فلا تطلب منا من الآن فصاعداً علمًا قط

ولا فضلاً أيها العاقل المضيق لأننا عشاق وسكارى

(١) الزناد Zonarium عند الشعراء المسلمين هو علاقة الكفر ، وعبروا أحيانًا عن خرام أتباع زردشت المسمى (كشتى) ، وعن الحبل المقدس عند البراهمج ، وعن الخرام ذى الخيوط عند الرهبان .

المنة لله إن نجونا من عبادة النفس

هذا تماماً والآن نعبد الخمر

نحن سكارى ومفسدون وطالبون للخمر

وسعداء مع من هو مثلنا ثمل ومفسد

ولما عقد المغربى أحماله عن مجلسنا

وكان حجاب طريقنا فلما ذهب نجونا

-٨-

لا تتحدث عن قطرة فى قاع

ولا تذكر شيئاً عن ذرة من الشمس العالية

أنت رجل اليوم فتكلم عن اليوم فقط

ولا تتحدث عن أمس الأول وأمس وغداً

طالما لا تميز بين السماء والأرض فلا تكثر

من الحديث من بعد الخفيض والعالى

وبما أنك تعدم أصول الطبع الموسيقى

فلا تتحدث عن (تناوزنا وتانا) (١)

(١) التناو الزنا والتانا ، هى حسب النوتة الموسيقية الحديثة (صول ، فا ، ر) .

اتـرك الـنـفـى والإثـبـات يـا بـنـى

ولا تـتـحـدث قـط عـن (إلا) و(لا) [1]

إذا قـيـل لـك هـب روحـك فـداء

فـهـبـهـا فـداء ولا تـتـحـدث عـن روحـك

وطـالمـا أنـت مـن أكـون ومـن تـكـون

فـاصـمـت ولا تـتـحـدث عـنـى وعـنـا

وطالما لا تأخـذ علم الأسـمـاء عـن الحق

مـثـل آدم فـلا تـتـكـلـم قط عـن الأسـمـاء [2]

إن مـن صـار عـين جـمـلـة الأشـيـاء

قـال لـلمـغـربـى لا تـتـحـدث عـن الأشـيـاء

هذه القطاعات والغزليات تكفى للتمثيل والإشارة إلى أسلوب شعر المغربى وأفكاره ، وهو فى الأصل فى عداد طبقة الشعراء الصوفية من مثل : سنائى ، وشمس التبريزى ، وجلال الدين الرومى ، وفريد الدين العطار ، والشيخ العراقى الذين تحدثوا بهذا الأسلوب نفسه وقال المغربى نفسه :

تخلَّق من موجه العراق والمغربى ونشأ من جيشانه سنائى والعطار

لكن يجب العلم بأن المغربى وإن كان من طراز هذه الطبقة لعظماء الصوفية لكنه لا يباريهم .

(١) المقصود من (لا و إلا) النفى والإثبات فى (لا إله إلا الله) .
(٢) المقصود بعلم الإشارة ، ما تعلمه آدم من الأسماء الكلية كما ورد بسورة البقرة (وعلم آدم الاسماء كلها ..) .

أبو أسحاق شاعر الأطعمة

مع أن بضعة أخرى من الشعراء ظهروا فى هذا العصر ، ويستحقون الاهتمام ويجدرون بالدراسة مثل عصار التبريزى ، وجلال عضد[١] ، وجلال الطيب[٢] وغيرهم ، لكن بما أن هذا الفصل قد طال بنا ، فرأينا من الأفضل الاكتفاء بذكر شاعر واحد وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازى شاعر الأطعمة والأغذية الذى يسمى (بسحاق الأطعمة) ، ويختلف أسلوب شعره كمال الاختلاف والتباين عن المغربى الشاعر الصوفى القائل بوحدة الوجود فى هذا العصر .

قليل ما هو معلوم لنا مثل الآخرين عن سيرة هذا الشاعر[٣] ، وما نعرفه أنه قضى الشطر الأكبر من عمره فى شيراز ، ورعاه حفيد تيمور أو الإسكندر بن عمر شيخ ميرزا - الذى حكم فى فارس وأصفهان من ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م - ٨١٧هـ / ١٤١٥م ، وقد أورد دولت شاه فى تذكرته فصلاً مطولاً عنه ، ويشمل أغلبه بعض أشعاره وقصة مطولة من سيرة ميرزا اشاهرخ من الثانى من جمادى الأول عام ٨١٧هـ / ٢٠ يوليو ١٤١٤م ، ثم مات فى السنة التالية .

وحرفة أبى إسحاق كما هو ظاهر من لقبه وشهرته كانت الحلاجة ، ويحكى دولت شاه (ص٣٦٧) أن أبا إسحاق فى عهد الأمير إسكندر بن عمر شيخ ميرزا كان نديماً ، ولم يحضر مجلسه لعدة أيام ، فلما حضر سأله الأمير عن سر غيبته ، فقبل الأرض أمامه وقال : يا سلطان العالم أعمل بالحلج فى يوم وأنظف لحيتى مما علق بها من قطن فى ثلاثة أيام ، ثم أنشد هذا البيت :

منع الذباب عن حلوى غزل البنات

هو رفع القطن عن لحية الحلاج

(١) عن سيرة جلال الدين عضد الأيزدى ، راجع دولت شاه طبعة لندن ، ص ٩٤ .

(٢) جلال الطيب راجع سيرته فى دولت شاه ، ص ٢٩٨ .

(٣) فى أيامى هذه التى أعد بها هذه الحواشى لا تزال مقبرة شيخ الأطعمة فى تكية تشهل تتان جنوب غرب شيراز والشاهد الحجرى الساقط على القبر يعود إلى القرن التاسع الهجرى ، وتعتقد عامة شيراز أن من يزر ليلة الجمعة قبره بإخلاص نية ثم يقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص ، ويطلب من روح الشيخ طعاماً ؛ يتحقق مطلوبه ، ويحصل على هذا الطعام .

وقد ورد ذكر أبى إسحاق فى آتشكده ، وهفت إقليم ، ومجمع الفصحاء ، وهى أن أبا إسحاق كان مريداً ومعتقداً فى الشاه نعمة الله ولى(١) ، وكان يضمن بعض كلماته شعره بصورة فكاهية ، ويأتى بسبيل التورية باصطلاحات الأطعمة وكلمات الأغذية من ذلك لما انشدت الشاه نعمة الله هذا الغزل بأسلوب المغربى وهو :

نحن جوهر البحر الذى بلا ساحل　　وحيناً نكون موجة وحيناً نكون البحر

وأتينا إلى هذه الدنيا لكى　　نرشد الخلق إلى الله

فأجاب أبو إسحاق :

نحن شعرية طبق المعرفة　وحيناً نكون خميراً وحيناً نكون شعرية الرشيدية

وأتينا إلى هذا المطبخ　　لكى نعد تقلية الكوارع

ولما رأى الشاه نعمة الله أبا إسحاق قال له : (هل أنت شعرية طبق المعرفة ؟) ؛ فرد الشيخ : (لأننا لا نستطيع أن نتحدث عن الله ، فإننا نتحدث عن نعمة الله) .

النسخ المخطوطة لديوان الأطعمة

ليست النسخ الخطية لديوان أبى إسحاق وفيرة ، وتوجد نسخة منها فى المتحف البريطانى ، وملحق بها مثنوى كنز الاشتهاء ، وقد طالعت نسخة جيدة جداً وكاملة فى مجموعة كتب المرحوم الدكتور (ولف) ، وكان واحد اسمه حاجى عثمان نور الدين ، أهدى الدكتور هذه النسخة فى بخارى ، ثم تركها الدكتور بعد ذلك إلى (جمعية التبشير المسيحى) ، وتاريخ نسخ هذه المخطوطة عام (٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م) ، وتضم ١٦٢

(١) الشاه نعمة الله ولى الكرمانى ، مؤسس سلسلة النعمة الإلهية الصوفية ، توفى يقول مجمل الفصيحى يوم ٢٢ رجب ٨٣٤هـ ، ودفن فى قرية ماهان على بعد فراسخ سبعة من كرسمان فى تكية جميلة ورائقة المنظر وهى على الدوام مطاف الدراويش والمعتقدون لهذه الطائفة .
راجع طرائف الحقائق ، طبعة طهران ، ونامه دانشوران ، طبعة طهران .

صفحة ، وبكل صفحة ١٧ سطراً ، وخطت بالتعليق الدقيق ، وذهبت بجداول الذهب واللازورد ، وأهمية هذه النسخة فى أنها تضم نحو ست قطع شعرية باللهجة المحلية ، ومع هذا فلا يزال هذا الكتاب مجهولاً رغم أن المرحوم حبيب الأصفهانى طبعه فى عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م فى إسلام بول[١] .

الديوان المطبوع بإسلام بول

تشمل هذه الطبعة ١٨٤ صفحة : تبدأ بموجز لسيرة مولانا منقول عن تذكرة دولت شاه ، وتنتهى بقاموس صغير فى معانى بعض المصطلحات والكلمات الصعبة للأطعمة التى وردت فى الديوان ، وقد هجر كثير منها الآن وصار مجهولاً ، وأغلبه أطعمة لم يعد المطبخ الإيرانى الحالى يعدها ، ولا يعرف طريقة طبخها .

يبدأ هذا الديوان بمنظومة اسمها (كنز الاشتهاء) أولها مقدمة نثرية ، ثم أشعار الشيخ ، وتشمل : القصائد ، والغزليات ، والترجيعات ، والرباعيات ، والمثنويات غالباً ونظمها كلها متأثراً ومقلداً الأشعار المشهورة لغيره من الشعراء ، ثم تلى بضع رسائل مخلوطة من النظم والنثر تشمل موضوعات عدة بهذا الترتيب : (حكاية المزعفر ، وحساء شعرية الرشيدية)[٢] وقصة (الأرز وشعرية الرشيدية)[٣] وخواب نامه بسحق ، أو رسالة منام أبى إسحاق ، ثم خاتمة ديوان الأطعمة و(فرهنكَنامه) أو قاموس بقلم المؤلف نفسه ، ولا ينبغى الخلط بينه وبين مجموعة المصطلحات المذكورة فيما سبق ؛ لأن حبيب الأصفهانى كتب فى مقدمته عدة سطور ، وأورد فى النهاية مجموعة اصطلاحاته أيضاً .

(١) ذكر حبيب الأصفهانى فى مقدمة طبعته للديوان (مع أن ديوان مولانا إسحاق طبع مراراً فى إيران ، لكن بسبب نقصان الطبعة وكثرة الأخطاء فيها فلا يمكن الإفادة منها) مع هذا القول لا ندرى كيف اعتبر بروان طبعة إسلام بول أول طبعة لديوان أبى إسحاق .

(٢) بالفارسية (داستان مزعفر بغرا) (المترجم) .

(٣) بالفارسية (ما جراى برنج وبغرا) (المترجم) .

وتمتلىء أشعار أبى إسحاق بالمصطلحات القديمة ، والمهجورة للطبخ فى القرون الوسطى بإيران ، وجمالها فى أنها نظمت جميعًا تأثرًا وردًا على الأشعار الحادة للآخرين ، والتى تناقلتها فى عهد الشاعر الألسنة والأفواه ؛ ولهذا السبب لا تقبل الترجمة ، وعلى رسالة كنز الاشتهاء مقدمة مكتوبة ، ذكر فيها سبب تأليفها ، وننقل هنا نصها بعد الحمد والصلاة :

أما بعد ، فيقول أضعف عباد الله الرزاق أبو اسحاق المعروف بالحلاج دام نعمته فى الوقت الذى كانت فيه شجرة الشباب مبسوطة الظلال ، وكان غصن السعادة مثمرًا بثمر الأمان ، كان يبدر منى كلمات عديدة على سبيل الارتجال تناسب كل مقال ، ففكرت فى نفسى أن من الحكمة أن أعدو بجواد الكلام بطريقة فى ميدان الفصاحة ، وأن أسلك سماط الأدب فى خوان العبارة ، بحيث يصل المتغذون على سفرة اللذة نوال أقصى ما يمكنهم ، وبحيث يقف أرباب البلاغة حيارى أمامه ، حتى يصير موجب زيادة القبول والشهرة وكنت قد سمعت هذا البيت :

أى كلام أقوله قد قاله الجميع وشغلوا بره وأرضه كله

وبقيت أفكر لبضعة أيام فى هذا الفكر ، وهو أن مع وجود أوصاف الفردوس الذى ملح كلامه مذاق آنية كل طعام ، ومثنويات نظامى الذى سكر أبياته طعام للببغاوات الحلوة الكلام وطيبات سعدى التى هى فى مذاق أهل الوفاق بالاتفاق كالعسل الحلو ، وغزليات جمال الدين سلمان الذى فى خلق أهل الكلام بمثابة اللبن وعسل النحل ، ومع آلة طبع خواجو الكرمانى الذى حساء كمون[1] بيانه علاج مجانين سلسلة الأدب ، ومع دقائق مقالات عماد الفقيه الذى نطقه العذب دواء طيب الرائحة ، وشراب مطلب القلوب ، ومع طلاقه ألفاظ حافظ ومتانة معاينة وهى خمر بلا خمار ، وشراب حلو المذاق ، وغيرهم من الشعراء الذين كان كل منهم شهرة مدينة وأعجوبة دهر ، مع هؤلاء جميعًا فكرت أى فكرة أنضجها ؛ ليحتظى بها الناس ، وظللت أفكر فى هذا إلى إن دخل على من الباب فى صباح موافق حين يرتفع دخان الاشتهاء الصادق من مطبخ

(١) حساء الكمون طعام يطبخ بهذا الكمون المشهور إنتاجه بكرمان ، وقد ورّى المولف به بمناسبة أن كرمان هى مسقط رأس خواجو الكرمانى ، وترجمة براون على أنه (حساء الكراوية) Carraway Syrup .

المعدة ، كما هو معهود على حين فجأة المحبوب البضّ الصدر والمطلوب القمرى القد ، عيناه لوز ، وشفتاه سكر وغبغبه أترجة ، وثديه رمانة ، وفمه فسدقة ، وخاله مسكى كما يقول الشاعر :

بسبب ضحكته الحلوة المنبعثة من فمه الذى هو حقة الملح

يخرج الدم من قلبى مثل الملح المسحوق المحترق

وقال لى : ما العمل وأنا فاقد الشهية تماماً وممتلىء البطن ؟ فقلت : مثل من ذهب إلى الحكيم وقال : صرت عنينا ، فأعد له (الألفية والشلفية)[1] ، فلما قرأها جذب فى الحال إلى صدره فتاة صغيرة بكراً وأنا سأعد لك رسالة السفرة تقرأها مرة تتحرك شهيتك . فعقدت من أجله الحزام على خاصرة روحى ، وطبخت بنار السعى فى أنية الفكر طعاماً ببهارات الترصيع ، والتصنيع ، وسويت فى فرن التفكر من خمير التدبير خبزاً يناطح قرص الشمس فى علوه ، وسيطرته ، وقلت متفاخراً :

أعددت مائدةً من حديث العالم كله

فأين من يشاركنى المطعم يأتى أمامى

وسميت هذه السفرة بكنز الاشتهاء بسبب أن ذاك اليوم كان عيد الفطر ، وبه يكثر الطعام والشراب ، وأذكر سبب نزول هذه النسخة فى هذه القطعة :

قطعة فيها سبب نزول سفرة كنز الاشتهاء :

اجعل للحظة واحدة سمعك وفهمك وقلبك وروحك معى

حتى تعلم ما هو غرضى من هذه الأشعار

لى حبيب سكرى الشفة وفسدقى الفم

ووردى الوجه وسرورى القد وفضى الجسد وشقائقى الوجه

(١) الألفية عربية ، و(شليفه) هو فرج المرأة ، ومن الكلمين يتكون اسم كتاب مشهور لتحريك الشهوة . (المترجم) .

طلع على البارحة وقال مثل المريض

صرت ممتلئًا وأبحث عن علاج ناجح

ليس بي شهية لأى شيء يؤتى به إليَّ

وأخشى أن أقع مريضًا بسبب هذه الغصة

فقلت له إن مثلك من صار عنينا

فذهب وشكى مرضه إلى حكيم

فألف ذاك الحكيم لإثارة شهوته كتاب الألفية والشلفية ، لذلك الرقيق ، وأنا بدورى أعد لك سفرة الآن تثير شهيتك حين تقرأها مرة واحدة . وتنقسم هذه المنظومة إلى عشرة فصول ، وتشمل ١٠٨ بيتًا جميعها على قافية واحدة ، وهى متأثرة بالقصيدة المعروفة للسعدى التى مطلعها هو :

فى الصباح حين نعانى الخمار من سكر الليل لا تأتنى إلا بخبز عفن ومعه ثوم

وتلى منظومة كنز الاشتهاء قصيدة اسمها الآفاق والأنفس فى مدح الشاه سيف الدين ويعقبها أشعار عدة تجيب على قصائد ظهير الدين الفاريابى ، وخواجو الكرمانى ، ونجمى ، وعماد الفقيه الكرمانى ، وحافظ وسلمان الساوجى ، وحسن الدهلوى ، وعلى دردزد ، وسعدى ، وجلال الدين الرومى ، وجلال عضد ، وصدر الدين القيروانى ، وكمال الخجندى ، وسعد الدين النصير ، والأنورى ، وفريد الدين العطار ، وكمال الدين الكاشانى ، ونعمة الله ولى ، ومولانا أمين الدين محمد الجوهرى ، والشيخ العراقى وأبى نصر الفراهى ، والشيخ الآدرى ، وعبيد الزاكانى ، وجلال الطيب ، والفردوس ، والنظامى الكتجوى ، وغيرهم كثيرون .

وبعد هذه الأشعار التى نظمت ردًا وتأثرًا على الشعراء المذكورين تلى رسالتان منثورتان ، فقد ذكرنا فيما سبق ، ثم الخاتمة والقاموس ، وبعدها قصيدة فى مدح (كجرى) ثم ينتهى الديوان ، وبعد ذلك مجموعة الألفاظ التى أعدها ، والمصحح للديوان ويشمل اثنتى عشر صفحة .

ولابد من ذكر أن ترجمة أشعار أبى إسحاق إلى الإنجليزية تبدو محالاً ، ويكفى الإشارة إلى أن إسحاق شاعر الأطعمة ، وعبيداً الزاكان الذى سبق ذكره ، ونظام الدين محمود القارئى اليزدى جميعًا هم مؤسسون ، ورواد مدرسة خاصة فى الهجاء والهزل والفكاهة فى الأدب الفارسى .

نظام الدين محمود القارئى اليزدى

كما أن أبا إسحاق جعل أنواع الطعام موضوع أشعاره ، فقد جعل نظام الدين محمود القارئى شعره خاصًا بأنواع اللباس ، وقد طبع ميرزا حبيب الأصفهانى فى إسلام بول أشعار أولئك الشعراء الثلاثة المذكورين أنفًا ، ونشر لكل من الثلاثة ديوانه بشكل وحجم واحد وبأسلوب واحد ، وذكر فى مقدمته على ديوان الألبسة أنه يظن أن ليس بين أيدينا نسخة أخرى غير التى عنده ، لأنه لم يظهر أى نسخة ثانية فى أى من المكتبات المتعددة بإيران وتركيا ، بعد بحث وفحص كبيرين ، بل لم يرسم هذا الشاعر ولا بيتًا من أشعاره فى أى كتاب من كتب التذاكر والتاريخ إلا فى كتاب تذكرة هندى (ولم يذكر اسم هذا الكتاب أو عبارته) إلا بيتًا واحداً من شعر هذا الشاعر ، وذكره المعجم المعروف ببرهان جامع[1] ، ورد فيه على سبيل الاستشهاد .

وأشعار هذا الشاعر كلها تتعلق بفن الحياكة ونقد ديوان الأطعمة ، ونظمت بالأسلوب الشعرى نفسه ، ثم قصيدة اسمها (آفاق وأنفس) ، وهى تحكى حربًا بين الأردية الوبرية والكتانية بطريق التفكه والسخرية ، ثم منظومة اسمها (أسرار أبرشيم) ، ثم أشعار متأثرة بالشعراء المتقدمين والمتأخرين مثل : الأوحدى ، وخواجو ، والسعدى ، وسيد حسن الترمذى ، وسنائى ، وكمال الدين إسماعيل الأصفهانى ، وظهير الفاريابى ، وعماد الفقيه الكرمانى ، وحافظ ، وعلى يدردزد ، وكمال خجندى ، ومحمد الفيروز آبادى ، والنير الكرمانى ، نعمة الله ولى ، وأمير خسرو والرومى ، والساوجى ، وجلال عضد ، وسعد الدين النصير ، والجوهرى ، والأمينى ، وأمير حسن الدهلوى ،

(١) البرهان الجامع ، اسم معجم مختصر وجامع ، هو فى الأصل إيجاز وخلافه لمعجم آخر هو البرهان القاطع ، وطبع الأول فى تبريز فى شوال ١٢٦٠هـ / نوفمبر ١٨٤٤م على الحجر .

وجمال الدين ، والعطار ، والكاتبى ، وناصر النجارانى ، والسلطان أبى سعيد ، وهمام التبريزى ، ودرويش أشرف غد بوش ، وعبيد الزاكانى ، وجلال الطيب .

نظم تقريبًا كل أنواع الشعر وفوقها أشعار عدة باللهجة المحلية (البهلويات والشيرازيات) ، وفى النهاية يضع رسائل ومقالات نثرية كالتالى :

المناظرة بين الأطعمة والألبة ، ورؤيا الحمام ، ومدح كبار شعراء إيران باصطلاحات الألبة والأقمشة وحكاية سارق الألبة ، ورسالة الصوف إلى الحرير ، وعدة رسائل من هذا القبيل ، ورسالة (آرايش نامه) أى الزينة ورسالة التعريفات (ده وصل) أو الوصلات العشر التى على أقسام عشرة كما يظهر من اسمها ، ورسالة أخرى اسمها (صه وعظ) أو المائة نصيحة ، ومثنوى فكاهى هو كتاب الحرب (جنك نامه)[1] ، وفى نهاية كل هذا معجم فى شرح كلمات الخياطة واصطلاحاتها[2] .

والوسيلة الوحيدة التى يمكن بها تخمين الزمن المحتمل لهذا الشاعر هو فهرس أسماء الشعراء المعاصرين له نفسه ، والمذكور فى أوصاف الشعراء (ص١٣٨) ، وهم قاسم الأنوار المتوفى ٨٣٧ هـ ، وعصمت البخارائى المتوفى ٨٢٩ هـ ، والكاتبى المتوفى ٨٣٨ هـ وخيالى البخارائى المتوفى نحو ٨٥٠ هـ ، وأمير شاهى متوفى ٨٥٧ هـ ، وشيخ آذرى المتوفى ٨٦٦ هـ ، ومن هنا يمكن استنباط أن محمود القارئى نظم أشعاره ، فيما بعد عام ٨٦٦ هـ ، ويتعلق بفترة الشعراء التالين لعصر تيمور ، ولكن بسبب أن أسلوب كلامه يتشابه ويقترب تمامًا مع أبى إسحاق ، وأنه يقلده ، ويجتذبه ، فكان من المناسب أن تذكر اسمه فى هذا الفصل ، وشاه نعمة الله الكرمانى ، وهو أحد الشعراء الذين تأثر بهم وقلدهم أبو إسحاق شاعر الأطعمة ، يتعلق بهذا العصر لكن بما أنه ظل حيًا حتى عام ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م ، وقد طال بنا هذا الفصل ، فسوف نشرح سيرته مع سيرة خواجة عصمت والكاتبى وغيرهما فى الفصل التالى .

(١) فى نص ديوان الألبسه طبعة إسلامبول (مخيَّل نامه) .

(٢)لم يذكر براون نموذجًا لشعر محمود القارئى وأرى أن من المفيد إيراد مثال لشعره وتقليده لأبى إسحاق وأبدأ بذكر بيت لحافظ تأثر به كلاهما وتتبعاه :

قال حافظ :

مع أن عرض الفضل أمام الحبيب قلة أدب   فقد صمت لسانى لكن فمى يمتلىء بالعربية =

كتاب النثر العربى فى العصر التيمورى

مع أنه يبدو ضرورياً ألا نفصل فى كتاب النثر لهذا العهد كما أوجزنا فى الحديث عن شعرائه ، لكن لا مفر من ذكر بضعة منهم ، ومن بينهم من لهم كتابات بالعربية ، ويجدر ذكرهم خاصة أن واحداً أو اثنين منهم ألفوا غالب آثارهم بالعربية ، يبدو أن تيمور يشبه كثيراً أحد الغزاة العظام بالشرق الذى كان يعيش قبلة بأربعمائة عام ، وكان تركى الأصل مثله ألا وهو السلطان محمود الغزنونى ، ووجه الشبه بين الاثنين هو أنهما كان بهماميل ، وشوق كبيران لجلب الفضلاء والعلماء من البلاد والأمصار المفتوحة إلى دار ملكهم ؛ وبهذا المسلك يزيدان جلال حكمهما وعظمة بلاطهما ،

= فقال أبو اسحاق (ص٣٥ طبعة إسلام بول)

مع أن جدال الرطب أمام السكر قلة أدب ... فقد همت لسانى لكنى فمى يمتلىء بالعربية

السكر رفيقه الخشب والرطب صديقه الشوك ... واحترق بينما قلبى عجبا واستغرابا

أى دلال يفعله السكر مع قلبنا ... وهو على طبق من خشب البقس

وقصعة جليته لا تعد قول إن الفالوذج أو العصير ... هو شراب الزبيب لأنه أمام السكر ذليل ولو كان عنبا

وصفاء إليه الغنم المطبوخة بالكشك ونضجها ... ومذاقها سببه نار السحر وغليان نصف الليل

وأساس الخبز الرقيق هو صفة جميلة المنظ ... يبدو أمامة بناء السجق واهيا كالحبل

لاتسأل عن سبب أن أبا إسحاق التهم ... سمك اللوت لأن تشهى مثله لاسبب له

وقال محمود القارئى (ص٤٩، طبعة إسلامبول)

لى من أطلس الفلك حجاب فى طناب أو حبل على طاق قو كأس حلبية
الحرير الكمخا حجاب الحبيب الجميل والحبة فى تجليه لو انعقد أحدهما بالآخر فى عمامة فما أعجبها ؟
والصوف لقب بالعنبى لأن بقعا تصيبه أحيانا من خمر العنب
لا تسأل عن سبب أن كرسى الخادم حامل الصور استقر على أرجله فليس لهذا سبب
ظهور نسيج الكتاب المصرى وحرير الطراحات والملاءات بكل لون هو عين إظهار الفجر والفحش
أقيس كل ليلة القماش ذا الشرايب شبرا شبرا وكم لى من الفوائد وأنا فى ملابس العزوبية
فى مذهب مسحوق حمرة النساء ودين فوطة الحمام أن صر السجادة هو عين قلة الأدب
اذهب متبخرا إلى أثاث منزل القارئ وشاهد زينته فهو يتكىء على وسادة دائرية من الخيوط
اللسان ثاقت عن نظم القارئى فى اللباس للمتحدثين بالفارسية ، ولكن فمه ملىء بالعربية

ويظهر من ملاحظة الكلمات المستخدمة للأطعمة والألبسة بهذين الديوانين إلام تغيرت سماء والاصطلاحات حتى عصرنا هذا وتبدلت إلى ألفاظ أخرى ؟ بحيث يصعب فهم أشعارها فى وقتنا هذا .

ويكتسبان عن طريق مساندة العلم وحماية الأدب الشهرة ، والسمعة الأكثر ، ومن بين العلماء الذين اختطفهم تيمور من البلاد ، وجلبهم إلى عاصمته ، اثنان أشهر من غيرهما هما سعد الدين التفتازانى ، والآخر مير السيد الشريف الجرجانى[١] .

مولانا سعد الدين التفتازانى

العالم المشهور الذى كان يعده علماء عصره فى ما وراء النهر حتى العهد الحالى أستاذ الجمع وقدوة فضلاء أبناء البشر هو مولانا سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى يعدد من مؤلفاته بروكلمان ستة عشر[٢] ، ولد فى قرية تفتازان بالقرب من نسا فى خراسان عام ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م ، ويقال إن أول مؤلفاته شرح على تصريف الزنجانى ألفه فى السادسة عشر من عمره ، ومن مؤلفاته المطول باسم الملك معز الدين حسين كرت ، وهذا الملك من ملوك الكرت لهراة ، وحكم فيما بين ١٣٣١ و ١٣٧٠م فى خراسان ، ثم سكن خوارزم ، وكانت إذ ذاك مركز العلم والأدب ، وألّف بها كتابه المختصر ، وأهداه إلى جانى بيك خان المغولى من القبيلة الذهبية من أسرة باطوخان (وكان يحكم القبجاق الغربية من ١٣٤٠ إلى ١٣٥٧م) .

وحين فتح تيمور خوارزم طلب من الملك محمد السرجنى الابن الأصغر للملك معز الدين كرت السابق الذكر ، فى اصطحاب التفتازانى معه إلى سرخس ، وتفويض منصب التدريس بها إليه ، لكن بعد أن سمع تيمور ووقف على شهرة التفتازانى وسمعته العلمية أحضره من سرخس ، إلى عاصمته سمرقند ، فعاش سنوات بها ومضى عهده بها فى إعزاز واحترام ، وتوفى عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م فى السنة نفسها التى مات فيها حافظ فى شيراز مع أن بعض المؤرخين بعد عام وفاته وهو ٧٩٧هـ[٣] ،

(١) راجع لسيرة التفتازانى ، الدرر الكامنة وبغية الوعاة وروضات الجنات ومفتاح السعادة ، ولسيرة الجرجانى حبيب السير ، وبغية الوعاة ، وروضات الخبات ، ومفتاح السعادة .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج٢ ، ص٢١٥ .

(٣) فى مجمل الفصيحى سنة وفاته ٧٨٧هـ ١٣٨٥/م .

على أية حال فقد دفن بمدينة سرخس وأنجب ولداً اسمه مولانا محمد التفتازانى ، الذى توفى بهراة حين اجتاحها الطاعون عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م ، ويروى عنه صاحب حبيب السير حكاية تبين صدقه وصفاءه (حسب السير مجلد ٣ ج ، ص ١٧٦) .

لا يفيد الإطناب والإبهام فى تأليفات التفتازانى ، لأنه أولاً ألف جميع كتبه بالعربية فوق أنها تخرج عن دائرة الأدب ، وهى غالبًا فى موضوعات علمية مثل المنطق ، والصرف والنحو العربى ، والفلسفة ، والكلام ، والتفسير ، والفقه[١] ، وليس لدينا علم بأن التفتازانى ترك أثرًا بالفارسية ، لكن بما أنه ترجم نظمًا (بوستان) الشيخ السعدى بالتركية ، فقد جعله حبيب فى كتابه من ضمن الشعراء الترك[٢] .

مير السيد الشريف الجرجانى

السيد الشريف أو مير السيد شريف على بن محمد الجرجانى الذى يحوز شهرة جديدة عند علماء أوربا بسبب كتابه المسمى بـ(التعريفات) فى ذكر اصطلاحات الصوفية وكلامهم ، ولد فى جرجان ، وكانت واقعة بالقرب من مدينة استراباد الحالية . سجل عام مولده أنه ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م ، وفى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م عرف به سعد الدين

(١) بلغ حيث مولانا سعد الدين بلاد المغرب أثناء حياته وسمع به ابن خلدون أيضاً لأنه يذكره فى مقدمته ، وله كتب ثلاثة فى فنون معانى البيان ، وهو من العلوم الأدبية ، وقد عد براون آثاره خارج الأطار الأدبى ، وهذه الثلاثة هى :

أ- شرح تلخيص الخطيب القرزينى المسمى بالمطول عام ٨٤٧ هـ فى هراة .

ب - مختصر المعانى أو شرح تلخيص المفتاح فى مدينة غوجدوان عام ٧٥٦ هـ .

ج - شرح القسم الثالث من المفتاح وهو شرح على القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكى فى سمرقند عام ٧٨٧هـ ، وينسب إليه جاحص خليفة تفسيراً بالفارسية اسمه كشف الأسرار وعدة الأبرار ، وهو تفصيل للتفسير المختصر للخواجة عبد الله الأنصارى الذى ألفه أحد تلامذته واسمه شيد الدين أبو الفضل الميبدى فى عام (٥٢٠هـ) ، ونسب خطأ إلى مولانا التفتازانى .

ونظم فى تاريخ وفاته :

شمس الشرع والملة سعد تفتازانى لما رحل انترت الدموع كالسيل وبلغ الله رجاه فسألت عقلى عن تاريخ رحلته فقال تاريخه من (طيب الله ثراه) بعد طرح سنة منه وينسب إليه فى كشكول الشيخ بهائى بيتان فارسيان يشملان عشرة ألفاظ لها معان متضادة .

(٢) كتاب تاريخ الشعر العثمانى ج١ ، ص٢٠٧ .

التفتازانى الشاه شجاع المظفرى ، وكان الشاه يقيم إذ ذاك فى القصر الأصفر . فاصطحبه إلى شيراز وأمره بالتدريس بها فى مدرسة دار الشفاء[1] ، وفى عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م حين فتح تيمور شيراز رحلَ هذا العالم إلى سمرقند ، فحدث اللقاء بينه وبين التفتازانى وجرى بينهما مناقشات طويلة فى المباحث العلمية ، وبعد موت تيمور فى ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م عاد إلى شيراز وعاش بها إلى أن توفى فى سن السادسة والسبعين عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م[2] ، ويذكر بروكلمان من آثاره واحداً وثلاثين مؤلفاً حررت جميعاً باللغة العربية[3] .

وينسب إلى الجرجانى ثلاثة كتب بالفارسية ، أولها رسالة معروفة فى الصرف العربى اسمها (صرف مير) ، والثانية رسالة فى المنطق اسمها (الكبرى فى المنطق) ، والثالثة فى مراتب الوجود[4] ، ويذكر هذه الرسائل الثلاث فى فهرسه ، ويبدو أن الجرجانى خلف آثاراً أقل بلهجته المحلية .

(١) فيما يتعلق بتقديم سعد الدين التفتازانى ميرشد الشريف للشاه شجاع أخطأ براون هنا ومعه الألمانى بروكلمان فى ذكره أحوال الجرجانى (فى دائرة المعارف الإسلامية) ؛ لأن هذا التقديم بتصريح صاحب روضة الصفا (ج٤ ، ص١٦ ، طبعة بمباى) تم بوساطة سعد الدين سعيد الأنسى ، وهو من وزراء الشاه شجاع فى القصر الأصفر الواقع فى فارس ، وليس عن طريق التفتازانى فى جرجان لأن الشاه شجاع لم يذهب قط إلى جرجان واستراباد ، وقد نشأ خطأ هذين العالمين عن اسم الأنسى والتفتازانى واحد وهو سعد الدين .

(٢) يوجد قبر الجرجانى الآن فى شيراز فى حى سردزك ، وهو مزار ، وقد زاره المترجم فى ١٣٢٤هـ.ش ؛ ولم يجده للأسف فى حال طيبة .

(٣) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى مجلد٢ ، ص ٢١٦ وراجع حبيب السير مجلد ٣ جـ ٣٦ أيضاً ، وبغيه الوعاة والضوء اللامع فى أهل القرن التاسع جزء ٥ من طبعة مصر .

(٤) طبع سيد نصر الله تقوى رسالة مراتب الوجود باسم رسالة الوجود فى طهران عام ١٣٢١ هـ.ش طبعة أنيقة وبديعة وهى رسالة فى ٢٤ صفحة وتبدأ بقوله (اعلم وفقك الله وإيانا أن أصحاب البحث والنظر مثلوا تمثيلاً لبيان مراتب الموجودات فى الجود) وتنتهى الرسالة بحكاية لطيفة ننقلها هنا لنتعرف إلى أسلوب الجرجانى :

كان عالم طريق أهل الكلام يسير مع آخر على طريقة صوفية التوحيد فلما ضمهما مجلس وجرى بينهما مناظرة فى التوحيد قال الأول : أنا محنق من ذاك الإله الذى يظهر فى الكلب والقطة ، فقال الثانى : وأنا محنق من ذاك الإله الذى لا يظهر فى الكلب والقطة ؛ فقطع حضار المجلس بأن أحد هذين العالمين كافر وبرر أحد العلماء حديثهما بأن العالم الأول يعتقد أن القط والكلب فى غاية الخسة والملابسة والمخالطة بهما نقص تام ، فقصده من كلامه أنه متبرم من الإله الناقص ، ومراد العالم الثانى أن الملابسة ليس بها نقصان قط على نحو ما قيل فى الشمس وإذا لم يظهر الله فى الكلب والقط فلن يكون فى وجود الحق جلا جلاله عاماً بل ناقصاً وهوذا هو قصده أنه متبرم بالإلة الناقص ، ولاشك فى أن النقص لايليق بالله تعالى ؛ إذن فهما ليس يتبرمان من الله ولايلزم كفر أحدهما والسلام .

ابن عرب شاه

العالم الثالث الذى يقل عن هذين الاثنين عمراً ، ورحلّه أيضًا تيمور من دمشق موطنه عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م حين كان فى الثانية عشر من عمره مع أمه وإخوته إلى سمرقند يسمى أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن عرب شاه ، وتعود شهرة هذا المؤلف إلى كتابه الذى ألفه بلهجة معادية فى سيرة تيمور ، واسمه عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، وقد أشرنا إليه فى الفصل السابق ، واقتبسنا منه كثيراً ، اشتغل فى اكتساب العلم على يد الشريف الجاجانى الآنف الذكر ، وتعلم الفارسية والتركية وترجم كتاب مرزبان نامة لسعد الدين الوراوينى من الفارسية إلى العربية[1] ، ثم قام برحلات كثيرة وزار بلاد الخطا ، وخوارزم ، ودشت ، واسترخان ، وأدرنة ، وعمل مدة كاتبًا خاصًا للسلطان محمد الأول العثمانى ، ثم عاد فى ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م إلى دمشق مسقط رأسه ، وبعد ذلك بأعوام سبعة اتجه إلى مكة للحج ، وفى النهاية فى عام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م سكن القاهرة وفى ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وافته المنية ، ويتضح ويظهر بغضه وعداوته الصريحة لتيمور فى سائر صفحات كتابه ، ويختلف اختلافًا بينًا عن كتب التاريخ المتملقة بأكملها التى ألفها شرف الدين اليزدى ، وغيره من المؤرخين الإيرانيين لتيمور ، ومن مؤلفات ابن عرب شاه الأشهر من غيره هو كتابة فاكهة الخلفاء[2] .

(١) هذا الكتاب مطبوع ضمن سلسلة كتب حبيب التذكارية فى ١٩٠٩م .

(٢) « فاكهة الخلفاء » ومفاكهة الظرفاء كتاب فى الحكم والآداب والنصائح وضع بأسلوب كليلة ودمنة ، ويشمل عشرة أبواب يروى فيها الظرائف والحكايات عن رجل اسمه أبو المحاسن حسان ، ويقول فى مقدمته : (وسرت الفارس الأفكار فى ميدان هذا المضمار وقصدت من الفائدة ماقصدوه ومن العائدة فى الدراين ، وما رصدوه وجمعت مابلغنى عن نقله الأخبار وحمله الآثار ورواة الأشعار على لسان شيخ اللطائف ومنبع المعارف ، وإمام الطوائف ومجمع العوارف ذى الفضل والإحسان أبى المحاسن حسان ..) ، وألف هذا الكتاب فى ٨٥٨هـ ، وطبع فى المطبعة الميمنية بمصر فى ١٣٢٥هـ .

مولانا عضد الدين الإيجى

ومن الكتاب العرب الذين عاشوا فى هذا العصر ولم يكن لهم صلة بإيران اليافعى والصفدى[١] ، وهما اللذان خلفا كثيراً من النوادر الأدبية والموضوعات التاريخية ، وسير الرجال ، ولن نذكر فى هذا الكتاب شيئًا عنهما ، ولكن لا يمكن أن نتجاوز عالمين إيرانيى الأصل عربيٍّ التأليف ، ولابد من ذكرهما باختصار ، وهما : عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى الذى توفى فى عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م ، ألف كتبًا كثيرة باللغة العربية فى الفلسفة ، والكلام ، والمذهب ، والأخلاق أشهرها كتابه المسمى بالمواقف[٢] ، وبسبب أن هذا المؤلف كان له اتصال قوى بآل المظفر نذكره هنا ؛ لأنه رغم ولادته فى قصبة أيج فى فارس ، وهى بين (دارا بجرد) و (نيريز) ، لكنه - فيما يبدو - لم يؤلف بلهجته المحلية قليلاً أو كثيراً ، بينما مدحه حافظ الشيرازى كما سبق كأحد الزينات الخمس لإقليم فارس .

وهو فقيه شافعى عمل بالقضاء وله مشرب الصوفية[٣] ، وكان يوفد أيضًا فى سفارة سياسية كما يفهم من (فارس نامة) للناصرى حين أرسل شيخ أبو إسحق حاكم فارس فى ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م القاضى عضد برسالة إلى الأمير مبارز الدين المظفرى الذى كان يقيم إذ ذاك بكرمان ، على أمل أن يصرفه عن فكر الهجوم على شيراز ، ومع أنه لم يوفق فى رسالته هذه ، لكن الأمير مبارز الدين استقبله باحترام عظيم ، ثم استضافه بعد ذلك ثلاثة أيام فى مسقط رأسه قصبة أيج ، ثم أمره الأمير بأن يعلم ابنه الشاه شجاع الذى صار فيما بعد سلطانًا لفارس كتاب المفصل تأليف الزمخشرى ، المعروف فى النحو .

(١) أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى الشافعى اليمنى المكى ولد فى ٦٩٨هـ ، وله مصنفات كثيرة فى التصوف والأصول والتاريخ منها تاريخه مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، وتوفى ودفن بمكة ، وصلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك الصفدى الشافعى الدمشقى ولد فى ٦٩٦هـ ، وتوفى عام ٧٦٤هـ وهو إمام الأدب والشعر ومؤلف معروف وفاته ومدفنه فى دمشق .

(٢) يذكر وكلمان (ج،ص٢٠٨) أن مؤلفاته أحد عشر أشهرها كتاب المواقف فى علم الكلام وتحقيق المقاصد وتبين المرام من الكتب المعتبرة فى علم الكلام ألفه باسم غياث الدين محمد بن رشيد الدين الوزير وكتب الجرجانى عليه شرحًا ، وطبع الأصل والشرح فى مصر وليبزيج (١٨٤٨م) .

(٣) لا دليل لدى براون على أنه بمشرب صوفى فتأليفاته جميعًا كالمواقف والرسالة العضوية والعقائد العضوية ، فى المعقول والكلام وليشفى فى التصرف .

الفيروز آبادى

وعالم آخر من علماء إيران كان يعيش فى هذا العصر وحدث له لقاء بتيمور ، ولقى منه الإعزاز والإكرام ، هو أبو الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى الفيروزى آبادى[1] من كبار علماء الأدب وعلم اللغة فى اللغة العربية ، وتدين شهرته إلى كتابه الكبير فى علم اللغة المعروف بالقاموس ، ولد فى ٧٢٩هـ/ ١٣٢٦م فى فيروز آباد بفارس وحصل العلم أولاً فى شيراز ، ثم فى واسط (فى العراق العربى) وبعدهما فى بغداد فى عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م ، وأخذ يختلف بعد ذلك إلى مجلس تدريس السبكى[2] فى دمشق فى (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ، وسافر معه إلى أورشليم القدس ، وبها عمل فى التدريس لعشرة أعوام ، ثم قام برحلة ثانية بعد ذلك زار فيها آسيا الصغرى ومصر ، ثم مكة المكرمة فى ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م ؛ حيث أقام بها خمسة عشر عاماً ، ثم اتجه إلى الهند ، وأقام بدهلى خمسة أعوام ، ثم عاد ثانية إلى مكة وجاور فيها هذه المرة عشرة أعوام أخرى ، وفى عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م توجه إلى بلاط السلطان أحمد بن أويس الجلايرى فى بغداد ، ثم عجل إلى شيراز وتصادف لقاؤه بها مع الأمير تيمور (لعل ذلك فى ٧٩٥هـ) ، فأجله الأمير . ثم قصد من شيراز اليمن عن طريق هرمز وخليج فارس ، فوصل اليمن فى ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م ، ومكث أربعة عشر شهراً فى (تعز) ، وصار بها قاضى القضاة ، وتزوج من ابنة الملك الأشرف ، ثم توجه فى عام ٨٠٢هـ للمرة الثالثة إلى مكة ، وبنى بها مدرسة لتدريس الفقة المالكى ، وبعد سفره إلى المدينة عاد إلى اليمن وتوفى فى عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م فى (زبيد) من بلاد اليمن ، وباستثناء ابن عرب شاه الذى ذكرناه بسبب علاقته بتيمور فإن الأربعة الذين ألفوا (تاريخ إيران

(١) راجع فى سيرة الفيروز آبادى بروكلمان (ج٢ ، ص١٨١) ، وورد ذكره فى ستة أو سبعة مواضع فى كتاب تاريخ اليمن تأليف الخزرجى راجع النصف الثانى لهذا المصدر العربى (طبعة سلسلة جيب) حيث يذكره فى ذيل عامى ٧٩٦هـ و ٨٠٢هـ وتربو مؤلفاته على الأربعين أشهرها كتابه (القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط) ، وقد طبع مراراً فى كلتكا ومصر وبولاق وبمباى والأستانة .

(٢) السبكى هو الشيخ تاج الدين عبد الوهاب ولد عام ٧٢٧هـ وتوفى ٧٧١هـ ، وله كتاب الطبقات الشافعية وجميع الجوامع فى الفقه الشافعى وغيرها من كتب الفقه والأدب .

الأدبى لبراون ، ص ٤٤٥) فإننا نرى أن تاريخ إيران الأدبى لا ينحصر فقط فى آثار الإيرانيين المكتوبة بالفارسية أولاً بدا ناقصًا ، وفقد آثارًا عظيمة القيمة خلفها الإيرانيين باللغة العربية ، ومثل هذا التاريخ الناقص فضلاً عن نقصه التاريخى يظلم نبوغ الإيرانيين وذكاءهم ، ولا يؤدى مالهم من حقه أيضًا .

كتاب النثر الفارسى

يتراءى لنا عدد من كتب بالنثر الفارسى بأقل كثيرًا من نظم بالفارسية ، ولابد من الاكتفاء بذكر خمسة منهم هنا :

شمس الدين محمد بن سعيد أو فخر أصفهان

أول مؤلف يستحق الذكر هو شمس الفخرى ألف فى ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م كتابًا فى اللغة الفارسية اسمه (معيار جمالى) ، أو معيار الجمال صدره باسم الملك الجميل القريحة والمحبوب ، لكنه التعيس حظًا أى شيخ أبو إسحاق أينجو حاكم فارس ، وينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أقسام كالتالى :

القسم الأول فى تسعة فصول : فى النظم ، والعروض .

القسم الثانى فى خمسة فصول : فى القافية ، وأنواع الشعر المختلفة .

القسم الثالث : فى صنائع المعانى ، والمجازات ، والاستعارات .

القسم الرابع : فى اللغة الفارسية ، واللغات القديمة ، والنوادر .

وطبع القسم الرابع من هذا الكتاب الذى يحتل لدى علماء فقه اللغة شأنًا ومنزلة كبيرين فى غازان عام ١٨٨٥م بيد كارل ساليمان Carl Salemann ، ولدى المؤلف نسخة مخطوطة جيدة من هذا الكتاب به جميع الأقسام (إلا من ورقة سقطت بأوله) ، وأهداه إلى صديقى الدكتور رضا توفيق فى أغسطس ١٩٠٩م .

وتاريخ تأليف الكتاب مذكور فى قطعة شعرية مؤلفة من أحد عشر بيتًا تتضمن مدح ولد محمود شاه أنجو أى شيخ أبى إسحاق ومنها هذه الأبيات :

بأمــر مــالك الشــمس والقــمــر

وباســم الملــك مــلاذ العــالــم

وقد مضى من الهجرة سبعمائة وخمسة

وأربعون عامًا فى ربيع الثانى أو شهر مهر

تم هــذا الـدرج عـلـى درج الجــوهــر

والذى يستمد الفضلاء منه معينهم ومنهلهم

ورتبت الكلمات والألفاظ النادرة المشروحة فى القسم الرابع لهذا الكتاب حسب الحرف الأخير منها ، ووردت كل مجموعة من هذه الكلمات فى قصيدة واحدة على أنها هى القافية لها ، وهذه القصيدة فى مدح المؤلف .

أما الأقسام الثلاثة الأوائل لهذا الكتاب التى لم تطبع مع أنها كثيرة القبول ، لكنها تقل - إلى حد ما - فى قيمتها عن القسم الرابع ؛ لأن موضوعاتها ذكرتها ووضحتها المؤلفات الأقدم بنحو أكمل ، كما نرى مثلاً فى كتاب المعجم فى معايير أشعار العجم تأليف شمس قيس ، وفى كتاب حدائق السحر لرشيد الدين الوطواط .

معين الدين اليزدى مؤلف تاريخ الأسرة المظفرية

ما نعرفه عن هذا المؤلف هو تقريبًا ما ذكره ريبه فى إحدى مذكراته فى فهرس المخطوطات بالمتحف البريطانى ، بشأن كتابه المسمى (مواهب إلهى) أو المواهب الإلهية (راجع الفهرس ، ص ١٦٨) ، وهو رسالة تاريخية تتعلق بالأسرة المظفرية من البداية حتى تاريخ الحرب التى جرت عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م ما بين الشاه شجاع وأخيه ومنافسة الشاه محمود .

وقد عد معين الدين أحد مواطني ، وهو المسمى مفيد الدين - في كتابه بعنوان (جامع مفيدي) الذي ألفه بين عامي ١٠٨٢هـ و١٠٩٠هـ/ ١٦٧١م و ١٦٧٩م (راجع فهرس ريبه ، ص ٢٠٧) - أكبر علماء عصره ، وكان يزدحم في مجلس درسه جمع كبير من الطلاب ، وكان مجلسه بين الفينة والأخرى يتشرف بحضور ممدوحه وحاميه أي الشاه شجاع ، وبدأ معين الدين بناءً على تشجيع هذا الملك وترغيبه هو وأبيه الأمير مبارز الدين تاريخه في مدينة أصفهان عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م ، وأنهاه كما مر القول بعد هذا التاريخ بعشرة أعوام ، وقبل هذا بعامين أي في ٧٥٥هـ ١٣٥٤م - بناءً على ما نقل في تاريخ جزيدة على سبيل الإيجاز من كتابه[1] - عين في كرمان مدرسًا بإحدى مدارسها ، ثم مات في النهاية ٧٨٩هـ ١٣٨٧م .

كتاب المواهب الإلهية

أما كتابه المواهب الإلهية الذي يوجد منه نسختان إحداهما في حوزتنا ، والأخرى في متحف فيتز ويليام بمدينة كمبردج ، هو كتاب صعب ؛ لأنه كما صدق في الحكم

(١) هذا الإيجاز الذي طبع ضمن سلسلة جيب (تاريخ جريدة) المجلد ١٤ بقلم شخص اسمه محمود الكتبي أو الكيتي ، وننقل لمزيد الفائدة نص عبارته بإيجاز هنا :
(باب في ذكر ملوك آل المظفر .. ومولانا الأفضل السعيد المغفور مولانا معين الملة والدين اليزدي رحمة الله عليه واسعة ألف مؤلفًا في تاريخهم وبسبب الاستعارات الغريبة والعبارات العجيبة والاطراد في مدائحهم والإغراض في أوصافهم استتر وجه عروس المقصود بحجاب الاحتجاب والامتناع ، وفي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ٨٢٣هـ تشرف العبد الفقير الحقير الضعيف محمود الكتبي ألحقه الله بعباده الصالحين حسب الإشارة عليه بسعادة كتابه تاريخ جزيدة الذي ألفه وصنفه الصاحب السعيد حمد الله المستوفي ، وهو جامع - بلا تكلف - لم يؤلف ضمن التواريخ أكثر منه فائدة وضبطًا .. فبلغ هذا الإرشاد أذن روحي وهو لابد من إدخال تاريخ آل المظفر داخل هذه النسخة ، ولما أن هذا الفقير كان من خدامهم أبًا عن جد .. قال لبيك سمعًا وطاعة لنداء هذه السعادة وأطاع هذا الأمر ومع قلة الطاعة في الفضل وكثرة الموانع في الوقت (بيت) :

عجلت بأمر العقل وانتخبت قصصًا وفيرة
وكان ربطها صعبًا كالسلسلة التي يربط بها خيط ذهبي

فقد ألفه وزاد به تاريخًا على تواريخ الرفاق ..) ، وفي هذه الأيام ١٣٢٦ هـ.ش ، انشغل سعيد نفيسي بطبع النص الكامل للمواهب الالهية ، ونشر القسم الأول في طهران على نفقة مكتبة إقبال ، راجع ص١٧٧ من هذا الكتاب .

عليه ربيه يشبه تاريخ وصاف ... ، ألف بقصد إظهار بلاغة مؤلفه وإبراز فصاحته وازدان بإنشاء مطنطن ومزين ، ولحسن الحظ فإن الإيجاز السهل الذى نقل فى تاريخ جريدة من محتويات هذا الكتاب كما سلف القول - وهو موجود فى أغلب النسخ له - قد أغنانا إلى حدٍ ما عن عناء مطالعة الإنشاء المغلق لهذا الكتاب .

الشيخ فخر الدين أبو العباس أحمد الشيرازى

هو مؤلف (شيراز نامه) وحفيد الشيخ زركوب الشيرازى[1] ، ويستحق الذكر ؛ لأنه ألف كتابًا عن موطنه اسمه شيراز نامه[2] فى عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م ، ووصفه (ربيه) فى فهرس مخطوطات المتحف البريطانى (راجعه ، ص ٢٠٤) ، ونسخة المخطوطة كثيرة الندرة والقلة ، وللأسف فقد اهتم المؤلف فى كتابه هذا بسير المشايخ أكثر من الشعراء .

مولانا نظام الشامى أول من ألف بالفارسية لتاريخ تيمور

يسمى هذا المؤلف بالشامى الغازانى ، نسبة إلى ربع شنب غازان أى ضريح غازان الخان المغولى الواقع على ميلين جنوب غرب مدينة تبريز ، ويستحق الاهتمام ؛

(١) راجع فى سيرة الشيخ زركوب كتاب شد الإزار أو فرارات شيراز ، وهو على وشك النشر بهمة الأستاذ المعظم محمد القزوينى فى أيامنا هذه .

(٢) سيراز نامه لم يطبع أثناء تأليف براون لكتابه هذا ، لكن بهمة كريمى مدرس الأدب الثانوى بشيراز طبع الكتاب فى (١٣١٠هـش) من النسخة الموجودة بمكتبة شعاع الملك وإن كانت للأسف كثيرة الأخطاء ، وتبدأ بقوله (إيراد المحمدة الموفودة ووفود المدح غير المحصور ، وقد نظم شعاع الملك ، وكان شاعرًا مخلاً قطعة فى تاريخ طبع الكتاب منه قوله :

تاريخ ابن أبى الخير ينبوع العلم   فيأيها المتعطش للفضائل ارتو منه
قال شعاع تاريخ الطبعة الأولى له   (بخ بخ طبع أيها الكريم شيراز نامه)

للكتاب نفسه نسخة محفوظة بملك المترجم تاريخ كتابتها يوم الأربعاء ثانى عشر رجب سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة أى بعد تاريخ تأليفه بنحو تسعين عامًا ، وتختلف نسختى عن النسخة التى طبعها كريمى فى تبويب الأبواب والموضوعات اختلافًا بينًا كمًا وكيفًا ، ويبدو أن الكتاب الثانى طبع عن نسخة مطبوعة بشيراز .

لأنه ألف التاريخ الوحيد الذى وضع أثناء حياة تيمور ، ويشبه هذا الكتاب كتاباً آخر فى الموضوع نفسه ، وجاز شهرة قبله (وهو تأليف شرف الدين اليزدى) فى عنوانه نفسه أى (ظفر نامه) ، ونسخ هذا الكتاب نادرة جداً ، والنسخة الوحيدة التى اطلعت عليها تتبع المتحف البريطانى رقم Add.23.980 ، وقد نسخت منها مسودة بخط الدكتور أحمد خان ، ومعلوماتنا عن النظام الشامى غالبًا مقتبسة عن الإشارات الواردة بالصدفة التى أوردها المؤلف نفسه فى كتابه ، ونقلها المؤرخون التالون مثل شرف الدين يزدى فى ظهرنامه ، وعبد الرازق السمرقندى فى مطلع السعدين ، وميرخوند وخوند مير فى روضة الصفا ، وحبيب السير ، وجمع ريبه بمهارة كاملة هذه الجزئيات ورث منها معلومات جامعة عن حياة هذا المؤلف (راجعه ، ص ١٧٠) كان يعيش فى بغداد وقت أن فتحها تيمور عام ، ٧٩هـ ١٣٩٢م ، وكان من بين الجماعة التى سبقت لأداء فروض الطاعة قبل الجميع إلى هذا الفاتح الكبير ، فاستقبلهم باحترام ، ويصف هو فى كتابه ما شعر به من أحاسيس تجاه هجوم تيمور وعسكره .

وفى عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م حبسوه فى حلب ، ويصف وقائع فتح قلعة حلب كما رآها هو بعينه ، وفى عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م استدعاه تيمور ، وأمره بتأليف تاريخ أيام حكمه ووقائع فتوحاته ، ووضع تحت تصرفه سائر المكتوبات ، والأوراق ، والوثائق الرسمية ، وأمره تجنب الأسلوب المتكلف ، والمغلق ، وأن يكتب بسلاسة ، وسهولة ، بحيث يمكن لأى شخص عادى أن يفهمه ، وفى عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ألقى نظام الدين فى معسكر تيمور وبحضوره قرب أردبيل خطبة عيد الفطر (١٢ أبريل ١٤٠٤م) ، وسمح تيمور بعد هذا بوقت قصير ، حين اتجه إلى عاصمة سمرقند إلى نظام الدين بالعودة إلى موطنه ، ويبدو أنه تبريز – وأودعه وصية مكتوبة يخاطب فيها حفيده عمر بهادر ابن ميران شاه ، الذى كان عين فى ذاك الوقت فى حكم إيران ، وظل هذا الأمر فى منصبه حتى ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م حين عزله أخوه ميرزا أبو بكر .

ويبدو أن تاريخ نظام الشامى لم يستمر بعد عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م ، ولم يذكر وقائع عام واحد ، والذى اتجه فيه تيمور إلى عاصمته سمرقند بعد آخر هجوم له على كرجستان ، وفى العام نفسه (٢٨ديسمبر ١٤٠٤م) تحرك بقصد فتح الصين ، ولكن هذه الحرب بسبب موته فى (١٩ مارس ١٤٠٥م) لم تتحقق ، ولا يرى أحداث السنة الأخيرة

لحياة تيمور فى تاريخ نظام الشامى[1] ، ومن يطلب وقائع هذه السنة عليه مراجعة كتاب آخر له الاسم نفسه - أى ظفرنامه - لشرف الدين على اليزدى الذى ألفه صاحبه فى عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م .

ظفرنامه الثانى لشرف الدين على اليزدى

مع أن شرف الدين يرتبط فى الحقيقة بالعصر التالى ، والذى سندرسه فيما بقى من الكتاب لكنا رأينا مناسبًا أن نذكره هنا ؛ لأن كتابه (ظفرنامه) فى الحق هو ظفرنامه نفسه الأصلى الذى ألفه نظام الشامى ، وما فعله أن زاد رد عليه النصف بالتطويل والإطناب الأطول وتكلف العبارة الأزيو بإضافة الأبيات الكثيرة .

وما يعرف عن سيرة هذا المؤرخ ، سواء المستفاد منها من قوله هو عن نفسه ، أم ما ذكرته كتب السير والرجال[2] مثل (جامع مفيدى) ، ومطلع السعدين ، وهفت

(١) ألف حافظ ابرو ذيلاً اوتتمة لظفر نامه للشامى فى ٨١٤هـ فى عهد حكم شاهرخ وبأمره مذكر وقائع السنة الأخيرة لتيمور (٨٠٧هـ) وأنها بحادثة موته ، وتوجد هذه التتمة فى مجموعة تأليف حافظ أبرو وأتت أيضًا بشكل مستقل فى زبدة التواريخ البايسنقرية للمؤلف نفسه ، وطبعت هذه التتمة منفصلة بناء على النسخة المخطوطة لمكتبة إسلام بول يسعى فلكسى تاور المستشرق التشيكو سلوفاكى فى براغ عام ١٩٣٢م .

(٢) بالإضافة إلى كتب السيرة المذكورة بأعلى يوجد مصدر آخر فى سيرة شرف الدين من المفيد ذكره هنا واسمه التاريخ الجديد لمدينة يزد ألفه احمد بن حسين بن على الكاتب وأشار فيه تكراراً إلى اليزدى ، وقد ألف هذا الكتاب فى نحو ٨٦٢هـ وأدرج فيه حوادث ذلك العهد حتى هذه السنة وصدره باسم الأمير بيربداق ابن جنانشاه التركمانى الذى كان يحكم إذ ذاك من قبل والده فارس وعليه ، فقد تحرر هذا الكتاب بعد وفاة اليزدى بأربعة أعوام ، وهو كتاب نفيس يشمل معلومات مفيدة ونافعة وكثيراً من الأبنية والمزارات والمساجد وسير الرجال والعلماء اليزديين ، وما وقع من وقائع سياسية وحربية محلية فى أوائل القرن التاسع وأواسط فى العراق .

ويشمل اثنتى عشرة مقاله وبكل واحدة منها وفير النوادر التاريخية والجغرافية ، ولم يكن قد طمع هذا الكتاب حتى عام ١٣١٦هـ ش حين كنت أخدم الوزارة المعارف فانشأت مدرسة ثانوية اسمها (إيران شهر) فى يزد وفى ذكرى إنشائها وحفل افتتاحها حضر رئيس الإدارة التعليمية بيزد محمد مهدى وبناء على التقليد المرعى بنشر أثر علمى مفيد فى ذكرى تأسيس مدرسة جديدة طبع هذا المخطوط بمكتبة حاصى حين أغا فى مطبعة جلبها بيزد فى ١٣١٧ هـش بأمر وزارة المعارف وينتهى الكتاب بهذا البيت :

رحم الله مولفه ويدعو له   كل من يقرأ كتابة بالرحمة

تاريخ رشيدى ، وحبيب السير لطائف نامه ، وتذكرة دولت شاه السمرقندى ، لخصه جمعيه ربيه كما هى عادته فى فهرسه بمهارة فائقة (راجع فهرسه ، ص ١٧٣) ، وهو شاعر كان يتخلص بشرف ، وله يد طولى فى فن الأحاجى والألغاز ، ومدح شعره دولت شاه ، وتاريخ ظفر نامه أيضًا ، وشهرته غالبًا بسبب هذا الكتاب التاريخى مع إنه مستغلق ، وموضوعاته المدروجة خلاف ما ادعاه المؤلف أنه نقلها عن الوثائق الأصلية ، وبالرواية عن كبار السن الذين شهدوا هذه الوقائع ، هى أغلبها نقول عن كتاب سلفه نظام الشامى بدون أن يشير إليه أية إشارة ، بل إنه نقل حتى الأشعار والآيات القرآنية بالنص من ذلك الكتاب ، ومع ذلك فقد طغى ظفر نامه لليزدى تمامًا على ظفر نامة للشامى ، ونسخ شهرته وأزالها وطبع هذا الكتاب فى كلاتا عام ١٨٨٧م فى مجموعة الكتب الهندية فى جزئين وترجمه إلى الفرنسية بتى دلاكورا Petit de la Graix عام ١٧٢٢ ، وترجمة من الفرنسية إلى الإنجليزية لى . داربتى L. Darby عام ١٧٢٣م .

ويذكر مؤلف تذكرة هفت إقليم فى حق شرف الدين على اليزدى (كان فى عصره أشرف فضلاء إيران وألطف علماء الأوان ، وكان دائم التحرير على صحيفة الزمان ، بقلم اللطائف لرقم المؤلفات فى بدائع الآثار) ، ويقول فى ظفر نامه (لم يكتب نسخة بالقارية فى فن التاريخ بلطائفه) ويضيف أن مادة تاريخه هى (صنف فى شيراز) أى عام ٨٢٨هـ ١٤٢٤م ، ويذكرأيضًا صاحب هفت إقليم (وشرف الدين وكتاب اسمه الحلل المطرزة فى فن الأحاجى والألغاز ، وأيضًا شرح القصيدة البردة[1] ، وكتاب كنه المراد فى وفق الأعداد[2] ، وله أشعار رقيقة فى قالب المثنوى والغزل والرباعى وكثيرة ويستشهد بهذا الرباعى :

(١) قصيدة البردة قصيدة معروفة فى مدح الرسول الأكرم من نظم الشاعر المصرى الإمام شرف الدين أبى عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى الصنهاجي المتوفى عام ٦٩٦هـ ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

راجع فوات الوفيات ج٢ ، ص٢٠٥ ، وقد اشتهرت هذه القصدة من القرن السابع حتى اليوم فى سائر بلدان العالم الإسلامى لدى الخاص والعام ، ولها ترجمات فارسية منظومة ومنثورة كثيرة .

(٢) ترجم براون والعهدة عليه علم الأعداد بقوله :

The Seince of Magelcal Squares And Lucky Numbers

أى علم المربعات السحرية والأعداد المحفوظة .

لا تنكر أيها الصوفى الرنود عُبَّاد الخمر

ففى كأسها نور من وجه الحبيب

وما الذى يزيد طرافة عن أن القصار النظر

يسمون هذا بالفاسق ، وذاك بعبد الله ؟!

ويقول (ريبه) إن شرف الدين صاحب شاهرخ ، وابنه ميرزاء إبراهيم ، لا بسبب علمه وصلاحه ، بل بسبب حسن إنشائه العديم النظير مدة طويلة وورد فى التاريخ الرشيدى[١] أن شاهرخ عهد بتربية يونس خان زاده المغولى الذى أسره ألغ بيك عام ٨٣٢هـ ١٤٢٨م إلى هذا العالم ، فأقام عنده حتى آخر عمره .

وفى عام ٨٤٦هـ ١٤٤٢م استدعى إليه مرزا سلطان محمد حاكم العراق ، وقد جعل قم دار ملكه مولانا شرف الدين ، الذى كان يُدَرِّس فى يزد لجماعة كبيرة من الطلاب وأحله محل إعزازه وإكرامه ، واختاره لمنادمته ومشاورته ، ولما رفع هذا الأمير فى (٨٥٠هـ ١٤٤٦م) علم المشورة على جدة شاهرخ ، هاجم أصفهان بجيش عظيم وهزمه شاهرخ وقتل جماعة من مشاوريه وثقافة واتهم شرف الدين أيضًا بإغوائه الأمر فوقع فى معرض التحقيق ، لكن عبد اللطيف ابن ألغ بيك والحفيد الآخر الشاهرخ تشفع له بحجة أن أباه يحتاج إلى هذا المؤرخ لمساعدته فى أمور مرصد سمرقند فعفا عنه شاهرخ وأرسله إلى سمرقند[٢] ، وبعد وفاة شاهرخ أجاز سلطان محمد الذى حكم خراسان مدة قصيرة لشرف الدين بالعودة إلى يزد فآب إليها فى ١٥٣هـ/ ١٤٤٩م وتوطن قرية (تفت) ، وتوفى بها عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م ، ودفن بصحن المدرسة الشرقية التى أسسها هو نفسه[٣] .

(١) راجع تاريخ الهند تأليف إرسكين ج١ ، ص ٤٥ ، وتاريخ مغول أسيا الوسطى تأليف إلياس ودنيس روس ص ٧٤ ، ٨٤ ، ١٥٥ .

(٢) يخالف براون أرباب السير والتواريخ فى ذهاب اليزدى إلى سمرقند ، فقد ورد فى مطلع السعدين للسمرقندى ، وتاريخ يزد الجديد أن اليزدى أرسل إلى هراة من العراق وظل بها حتى عاد إلى يزد سنة وفاة شاهرخ .

(٣) فى ذيل وقائع عام ٨٥٨هـ أورد تاريخ يزد الجديد لأحمد الكاتب تاريخ وفاة اليزدى بقوله : فى هذه السنة مات أمثر أكابر مدينة يزد ولحقوا بالأخرة .. ومات أيضًا فى هذه السنة حباب أفضل العرفاء وافتخار العلماء فى العرب والعجم صاحب اللطف والكرم والجود والنعم شرف الدين على اليزدى نور الله مرقده ودفن بالمزار الشريف الذى أسسه مدرسة بانيه المخدوم السعيد مولانا الأعظم المرحوم شمس الدين أبو بكر اليزدى وسماها الشرفية بجوار المسجد الجديد من منشآت حرم.المرحوم الأمير تشقمان وكتب التاريخ المذكور فى صفته .. (وعليه فمدفن اليزدى يزدوليس كفت) ، كما ذكر براون نقلاً عن ريبه .
(راجع مقالتى فى مجل آينده ، رقم ٢٨ ، السنة الثالثة) .

وبعض النسخ المخطوطة لظفر نامه تشمل مقدمة فى شجرة نسب الأسر التركية ، وتاريخ جنيكر وأعقابه حتى عهد تيمور (راجع فهرس رييه ، ص ١٧٤) ، وقد ألفت هذه المقدمة عام ٨٢٢هـ-١٤١٩م ، أى قبل تاريخ تأليف ظفرنامه بست سنوات .

إن المقارنة والتطبيق لظفر نامه اليزدى على ظفرنامه للشامى موضوع دقيق ، ودراسة جديرة بالبحث والمطالعة ، حتى نعلم كيف فصل شرف الدين اليزدى ما أجمله سلفة وزينه بالعبارات المسجعة ، وجعله باسمه .

الفرقة الحروفية ومؤسسها فضل الله الإستراباذى

فرقة الحروفية

قبل ختم هذا الفصل يليق أن نتحدث بالتفصيل عن الفرقة المبتدعة الحروفية ، اخترع هذا المذهب شخص اسمه فضل الله الإستراباذى ، فى عهد حكومة تيمور ، ونشره ، وجرى بنا دراسة هذه الفرقة والاهتمام بأمرها ، لا بسبب ما ابتدعته من مبادئ وتعاليم عجيبة وأدب واسع خاصة الأشعار الكثيرة بالفارسية والتركية التى خلفتها بل بسبب ما ارتبط بها من حوادث عظيمة لها أهمية تاريخية ، فقد رفعت عقوبات وشدائد عسيرة من ناحية ووقع قتل ، ومذابح زائدة من ناحية أخرى ، كل هذا بسبب ظهور هذه العقيدة ، ومع أن أتباعها لم يستمروا - فيما يبدو - بإيران لكنهم تجاوزوها ووجدوا فى تركيا بيئة مساعدة لارتقاء شأنهم وتكاملة ونشأوا ونموا فى لباس طائفة دراويش البكتاشية ، وفى الوقت الحالى تعد هذه الطريقة أهم من يمثل هذه العقيدة .

صمت المؤرخون الإيرانيون لهذا العصر عن هذه الجماعة ومؤسسها تمامًا[1] ، ولم يرد غير إشارة عنهم فى سائر كتب التاريخ الفارسية ، لاحظتها فى المجمل للفصيحى الخوافى ، ففى ذيل حوادث عام ٨٢٩هـ ١٤٢٦م ، وورد تفصيلها فى حبيب السير[2] ، وذكر فى ذيل وقائع السنة التالية فى ٢٣ رجب ٨٢٩هـ ٤ مارس ١٤٢٦م ، أو فى ذاك اليوم نفسه من السنة التالية ظهر شخص اسمه (أحمدلر) من مريدى فضل الله الإستراباذى ، وتقدم بحجة تقديم التماس إلى شاهرخ وطعنه بخنجر فى بطنه ، وهو يخرج من المسجد الجامع لهراة ، لكن الجرح لم يصب منه مقتلاً وقتل أحد حراس شاهرخ واسمه على سلطان قوتشين القاتل المذكور فى المكان نفسه ، وكان هذا من حسن حظه فقد نجا من فظيع التعذيب وأليم العقاب فضلاً عن أن مقتله أخفى شركاءه ورفاقة عن ميراز بايسنغر وغيره الذين كلفوا بالبحث عن سبب هذه المؤامرة ، ومع هذا فقد وجدوا فى جيب هذا الرجل مفتاح دار فلما فتشوها اشتبهوا فى شخص اسمه مولانا معروف وكان خطاطًا مشهوراً وموصوفًا بالفضل والكمال ، وكان يعيش فيما

(١) حكى إسكندر المنشىء فى كتابه عالم آراى بشأن القضاء على هذه الطائفة فى أول القرن الحادى عشر الهجرى تاريخًا مفصلاً ومهمًا لم يره براون فيما يبدو ، ففى حوادث عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م وهو العام السابع لحكم عباس الأول الصفوى يشير فى قصته التى أفضت إلى إفناء هؤلاء الملاحدة وزوالهم الحاسم فى إيران إلى أن رئيسهم درويش خسرو قزوينى كان من جماعة النقطوية وسكن قزوين فى أواخر القرن العاشر وبنى تكية وبعد ذاك وصل هذا الملك الشاب وقت أن كان يعيش فى الحارات والأحياء ويتعرف إلى طبقات الشعب إلى مستقر درويش فصاحبه وفهم عقيدته وعلم بأحواله حتى أصدر أمره بالقبض خسرو وأمر بقتله لنشر الشرع الأغر ؛ فطافوا به فى سائر مدينة قزوين معلقًا من عنقه فى عدة جمل وقتل جماعة كبيرة من زعماء هذه الفرقة فى بلاد إيران الأخرى منهم سليمان الساوجى وأحمد الكاشى الذى قتله الملك بيده وظهر مما كتبوه فى علم النقطة أنهم عدوا العالم قديمًا ، ولا يؤمنون بحشر الأجساد والقيامة وإنما الثواب على الخير والعقاب للشر هما فى هذه الدنيا نفسها بالعافية أو المذلة ويعدونهما الجنة والنار ، والمهم فى كلام إسكندر هذا أنه يربط بين هذه الجماعة وعلماء الهند خاصة الشيخ أبو الفضل العلامة الدكنى الوزير المعروف للسلطان جلال الدين أكبر ملك الهند المغولى ، وكشف رسالة ومنشوراً منه إلى أحمد الكاشى السابق الذكر ضمن مؤلفاته وهروب الشريف الآملى وهو من أكابر هذه الطائفة إلى الهند وتقربه إلى ملك الهند إلى أن يقول توارى فى ناحية خاملاً كان يخفى نفسه تمامًا وزال فى إيران القول بالتناسخ .

(٢) حبيب السير ، مجلد ٣ جـ ٣ ، ص ١٢٧ .

سبق فى بلاط أحمد جلاير فى بغداد ، ثم دخل خدمة ميزرا إسكندر فى شيراز ، ثم استقدمه شاهرخ إلى هراه منها ، وكان له معرفة وعلاقة بجماعة أخرى من الفضلاء والدراويش بهراة ، وكان منهم (أحمدلر) المذكور .

وكان بايسنغر يريد قتله ، لكن بعد أن وصلوا به أكثر من مرة إلى ساحة القتل حبسوه فى النهاية فى قلعة اختيار الدين ، لكنهم قبضوا على جماعة أخرى وأحرقوا أجسادهم كان منهم عضد الدين حفيد فضل الله الإسترابادى الحروفى ، ووقع أيضًا الشاعر الصوفى المعروف سيد قاسم الأنوار موضع الظنة والشبهة ، فنفى عن هراة بأمر باى سنقر .

ما ذكره ابن حجر فى الإنباء عنهم

ومن المصادر المعدودة التى قرأت فيها عنهم كتاب أنباء ابن حجر العسقلانى[١] المتوفى عام ٨٥٢هـ/ ١٤٢٨م يقول : إن فضل الله بن أبى محمد التبريزى أحد المبتدعين الذين سلكوا طريق الرياضة النفسية ، ووجدت على أثر تعاليمه الضالة فرقة اشتهرت بالحروفية ، وهو يعتقد أن الحروف الأبجدية ممسوخات إنسانية ، ولفق أيضًا مثل هذه الخرافات والأوهام ، ودعا الأمير تيمور لنك إلى عقيدته ، فرفضها وأمر بقتله ، وعلم ابنه ميران شاه بهذا الأمر ، وكان فضل الله قد التجأ به ، فقطع بيده عنقه ، فلما علم تيمور بهذا الخبر طلب رأسه وجسده وأمر بإحراقها ، وقد وقعت هذه الواقعة فى عام ٨٠٤هـ[٢] .

(١) قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على الكنانى العسقلانى البصرى الشافعى المولود عام ٧٧٣هـ والمتوفى عام ٨٥٢هـ من أجلة علماء القرن التاسع وأئمته ، وصاحب مقام رفيع فى الأدب ، واللغة والدين ، وتمكن على مسند قضاء مصر نحو واحد وعشرين عامًا وتربو مؤلفاته على مائة وخمسين مؤلفًا منها أبناء الغمر فى أبناء العمر الذى لم يطبع حتى اليوم .

(٢) نقلاً عن مقدمة الجزء الثانى لكشف الظنون التى كتبها فلوجل الألمانى وترجم الكتاب ونشرته (ليدن ، عام ١٨٣٥م) .

كتاب الجاويدان الكبير

كتبت تعاليم فضل الله فى البداية فى كتاب كثير الغرابة جزء منه بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بإحدى لهجات إيران المحلية ، ويسمى (جاويدان كبير) أو الخالد الكبير ، وتوجد نسخ خطية له فى مكتبات أياصوفية ، وإسلام بول ، والمتحف البريطانى رقم Or 5957 ، وليدن وكمبردج ، ولدى نسخة منه ، وأول شرح وتفسير لهذا الكتاب باللغات الأوربية هو مذكرات مختصرة حول النسخة الموجودة بليدن (ج٤ ، ص٢٩٨ فهرس مكتبة ليدن) ، ثم شرح أكثر تفصيلاً للكتاب نشره كليمان هوارث فى الجورنال الآسيوى عام ١٨٨٩ تحت عنوان (Notice d'un manuscrit) على أساس النسخة الموجودة فى إسلام بول ، ويبدو أنه لم يذكر اسمه الحقيقى ، وسماه (مسائل حول القرآن) ، وقد اهتم أكثر هوارت بلغة هذا الكتاب وألفاظه ، ولم يبحث فى موضوعاته ومعاينه ؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد فى ذاك الوقت ، هل كتاب الجاويدان الكبير ، كتاب طائفة الحروفية الكبير ، هو من تأليف فضل الله الإستراباذى ؟ وأنا نفسى كتبت مذكرة مفصلة عن النسخة الموجودة فى كمبردج عام ١٨٩٦م ، وإحدى سمات هذه النسخة الجديرة بالاهتمام ، إنها تحوى ملحقًا ذكر فيه حوادث إحدى اللهجات الفارسية ، وترجمت إلى حد ما بمداد أحمر ويشمل سلسلة من الأحلام ، والرؤى التى رآها فضل الله ، وقد ذكرت كثرة من هذه الأحلام بتواريخها وأقدمها عام ٧٦٥هـ-١٣٦٣م حين كان تفسير المنامات وشرح المكاشفات محل اعتقاد وآخرها حدث عام ٧٩٦/ ١٣٩٣م ، ومن هنا يتضمن مدة ثلاثين عامًا ، وأشار خلاله إلى كثير من الأماكن والأشخاص .

فالأماكن التى يذكرها هى : إستراباد وبغداد وباكو وبروجرد ودامغان ومصر وفيروزكوه والعراق أصفهان – خاصة عمارة بأصفهان اسمها عمارة الطوقتشى – وخوارزم وجزيرة قزوين وسمرقند وتبريز ، والنقطتان المهمتان ، وهما مركز الإسماعيلية أى رودار وقلعة جردكوه ، ومن يذكرهم الأمير تيمور وشاه أويس (ويبدو أنه الإيلخانى الجلايرى وتوقمتش خان ، وبيرباشا ، وسيد عماد الدين ، وهو نسيمى الشاعر الحروفى التركى) ، وسيد شمس الدين ، وسيدتاج الدين ، والخواجه فخر الدين ، وحسن خواجه بايزيد ، ومولانا كمال الدين ، ومولانا محمود ، ومولانا مجد الدين ، ومولانا قوام الدين ، ومولانا صدر الدين ، وشيخ حسن ، وشيخ منصور ، وملك عز الدين ،

وأمير شمس ودرويش توكل ، ودرويش مسافر ، ودرويش كمال الدين ، وعبد الرحيم ، وعبد القادر ، وحسن وحسين كيا ، وعمر سلطانية ، ويوسف الدامغانى .

ويظل فهم هذه المنامات مع وجود مساعدة معجم وقاموس يفسر كثيراً من الكلمات الواردة فى لهجة نص الكتاب عسيراً ومتغلقًا ، ويبدو أن أغلبها عبارة عن ملاحظات ومذكرات ، كتبت من أجل أن تتذكر كاتبها بذاء الحلم ، ولعلها لم ترد داخل كتاب الجاويدان الكبير ، وربما لم يضمها غالب نسخ هذا الكتاب أيضًا .

وفى ٢٣ أكتوبر ١٨٩٦م بعد نشر فهرسى بقليل فى كمبردج نبهنى صديقى المرحوم حبيب فى رسالة منه إلى أنه ذكر فى بضعة من كتب السير منها تذكرة لطيفى وعاشق شلبى عن بضعة شعراء تخلصوا بنسيمى منهم من نسب إلى الحروفية ، ويمكن استنباط صلته بفضل الله الإسترابادى من شعره مثل قوله :

علم حكمتن بلورسكَ كَل بروكَل اى حكيم

سن نسيمى منطقندن وكَله فضل اللهى كَور

أى أن تطلب علم الحكمة فهم أيها الحكيم ، واطلب منطق نسيمى ، وشاهد الفضل الإلهى ، وتتبع حبيب هذا المفتاح ، فأوقف فصلاً (ف٧ ،ص٣٣٦) فى الجزء الأول من كتابه (الشعر العثمانى) على دراسة فرقة الحروفية وهو خاصة يدرس شاعرين حروفيين تركيين ، أولهما نسيمى[1] ، والآخر رفيعى ، والثانى كان تلميذ الأول ، ولم يستطيع أن يعثر على أثر لهذه الجماعة من أواسط القرن السابع عشر فصاعداً ، وإنما يذكر موضعين من المصادر التاريخية التركية ، يبينان كيفية المصائب والعقاب الفظيع الذى حلَّ بهم مراراً ، والواقعة الأولى ينقلها عثر عن كتاب الشقائق العثمانية[2] الذى يروى كيف أن فخر الدين العجمى المفتى الإيرانى الإسلام بول تلميذ السيد الجرجانى قبض على بضعة من الحروفيين ، وأمر بإحراقهم أحياء كما يفعل بالزنادقة

(١) ولد نسيمى فى بغداد دوله شعر باللغتين ويشمل ديوانه أشعاراً فارسية وتركية نشرت فى إسلامبول فى مجلد واحد عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م ، ويعتبر جيب نسيمى أول شاعر نظم بالتركية الغربية ، وهو الشاعر الوحيد الحقيقى لتلك المدة القديمة .

(٢) راجع الشقائق النعمانية ضمن الطبقة الخامسة ، وهم علماء دولة السلطات محمد خان بن بايزيد خان طبقة مصر وحاسية ويات الأعيان ، ص ٦٣ .

والكفار ، ومع أن السلطان محمد خان الثانى(الفاتح) كان يثق بهم ويكرمهم إلا أنه مع كل قوته وشوكته عجز عن إنقاذهم من تعب العلماء وهجوم الغوغاء ، وروى أن المفتى المذكور غلت به حرارة الإيمان حد أنه كان بنفسه ينفث فى نار إحراقهم واحترق أثناء فعله جزء من لحيته الطويلة ، والواقعة الثانية ينقلها عن تذكرة الشعراء التركية تأليف لطيفى الذى يذكر كيف أن أباطيل كافرة لشاعر حروفى فى مستخلص بالتمنائى ، أدت إلى إدانته مع بضعة آخرين من ملك الجمتعة وقتلهم وحرقهم فى عهد السلطان بايزيد الأول (الصاعقة) ند تيمور وخصمه ، والذى لقى الهزيمة منه فى (٨٠٤هـ) ، ولما أن فضل الله الحروفى قتل فى هذه السنة أيضًا ، فنعلم أن مبادئه انتشرت بحد عظيم حتى وصلت فى مدة قصيرة من إستراباد إلى أدرنة بل إن حيانه ومن البداية على أشد وأقسى ما تكون محاربتهم ، ويقول حبيب إن مشايخ الإسلام انبعثوا لمحاربته فى عهد إنه لم يستطع كشف أى دليل ووثيقة تتصل بتحرك هذه الطائفة فى القرون الأخيرة ، ويريد أن يقول إن نهضة الحروفية لم تتجاوز كثيرًا أواخر القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) وإن كل تشكلاتهم قد بادت وزالت – فيما يبدو – بسبب العقاب والعذاب الشديد الذى حل بهم فى عهد بايزيد خان .

دراويش البكتاشية هم ورثة مبادئ الحروفية حالياً

لكن لابد من القول إن نشاط هذه الطائفة استمر حتى العصر الحالى ، ويمثل أفكار الحروفية الآن دراويش البكتاشية ، حتى إنه انتشر أخيرًا فى عام ١٢٩١هـ ١٨٧٤م بالتركية كتاب فى رفض هذه الطائفة اسمه كشف الأسرار ، ودفع الأشرار ، وهو رد على عقائد الحروفية والبكتاشية ، وأفكارهم بقلم إسحاق أفندى الموصوف بسعة العلم والاطلاع فى ذاك الموضوع ، وأعد شرحًا دقيقًا وصحيحًا لهذه التعاليم والمبادئ التى انبعث للرد عليها ، ويقسم كتابه ثلاثة أقسام : الأول فى تحقيق أصل فضل الله الحروفى وشرح أصول بعض البكتاشية وقوانينهم ، والثانى : فى شرح كفريات كتاب جاويدان ، الذى ألفه فرشته زاده ، والثالث : فى ذكر ، الكفريات الواردة بكتب أخرى عنوانها الجاويدان ، ويذكر ما حدث من قمع لهذه الطائفة فى عام

١٢٤١هـ عهد حكم السلطان محمود خان ، وكيف أن عارف حكمت بيك الشاعر التركى كان يفتش إذ ذاك على عقائدهم ، ويقول أيضًا إن الذى بعثه على تأليف كتابه هو توقح البكتاشية وجسارتهم ، فنشروا كتاب فرشته زاده - عز الدين عبد المجيد بن فرشته ، أى اسمه عشق نامه فى عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م ، ويعتقد أن عدد الكتب التى ألفها هؤلاء الناس أى البكتاشية ، والحروفية وأطلق عليها (الجاويدان) ستة كتب ، أولها من تأليف الضال والمضل الأول ، أى فضل الله الحروفى ، والخمسة الأخرى كتبها خلفاؤه ، ويضيف أن كفرهم وزندقتهم واضح فى هذه الكتب الخمسة ، وطبعهم وديدنهم وتدريس كتبهم فى الخفاء ولأبناء طائفتهم وتعليمها لهم مع أن فرشته زاده فى جاويدانه المسمى (عشق نامه) كتم إلى حدٍ ما كفرياته ، ثم يقول المؤلف بعد ذلك ظهرت بعد قليل العقائد الضالة للضالين هؤلاء بين الناس ، وقتل ابن تيمور أى إيران شاه فضل الله الحروفى ، وعقد قدمه بعد ذاك بحبل ، وعلّق جثته علنًا فى الأزق والسوق وطهر الدنيا من خبيث وجوده ، فصمم خلفاؤه على التفرق فى سائر بلاد المسلمين وقصر أنفسهم على إضلال أهل الإسلام ، وإغوائهم ، ومنهم من تلقب بعلى الأعلى قدم إلى خانقاه حاجى بكتاش فى الأناضول ، وعاش بها معتزلاً منزويًا وأخذ يعلم الجاويدان إلى أفراد هذه التكية ، وخدعهم وأظهر لهم أن ما يقوله هو مبادئ حاجى نفسها ، بكبتاش ، الذى كان من الأولياء فقبل أتابع الخانقاه ، وكانوا جهلاء وحمقى هذ الكتاب ، ومع أن مفاد كلامه هو الإنكار العلنى للفرائض الإلهية والاستسلام للشهوات والملذات الجسدية ، وكانوا يسمونه (السر) ، وكانوا يتكتمونه ويخفونه بشكل كبير حتى إن أحد هذه الجماعة لو أفشى أسراره كان يحكم عليه بالموت إلا أن هذا السر المكتوم كان عبارة بعض صفحات نفسها كافرة من كتاب الجاويدان الذى يشار إليه بالحروف المقطعة (ألف) و (واو) و (جيم) و (با) و(زاى) ، وألقوا فى معانى هذه العلامات ومفاهيمها رسالة سموها مفتاح الحياة ، وهو اسم لذاك السر الذى إذا لم يعرفه واحد لم يستطع فهم معانى الجاويدان ، وكانوا يبالغون بهذا الترتيب باهتمام عظيم فى كتم أسرارهم وإخفائها ، حتى لا يقف العلماء الأعلام على حقائق أمرهم ويفنوهم تمامًا ، ومن هنا نجحوا من عام ٨٠٠هـ حتى الآن فى أن يخدعوا كثيرًا فى الخفاء .

ثم يجر المؤلف بعد هذا كلامه إلى شرح حيل هذه الطائفة ودسائسها ، ويبين كيف أنهم يسعون إلى اصطياد الناس من المسلمين وغير المسلمين بشرك الكفر والزندقة ويضيف : ومن هذه المعانى جميعًا يتضح ، ويظهر أن جماعة البكتاشية ليسوا فى حقيقتهم شيعة بل هى فى الأصل جماعة مشركة ، ورغم أنهم عجزوا فى اكتساب اليهود والنصارى إليهم ، ولكن مبادئهم ذات صفة تجعل المسلمين المائلين إلى التشيع يميلون إليهم فى الأغلب حتى إننى حين كنت فى كل وقت أسأل بعض مبتدئى البكاشية مستفسرًا عنهم ، فكانوا يظهرون أنهم جعفريون أى شيعة إمامية ، ولا يعرفون شيئًا عن أسرار الجاويدان ، ويتصورون أنهم شيعة ، ولما سألت عالمًا وسائحًا إيرانيا اسمه ميرزا صفا[1] عن رأيه فى البكاشية قال : قد صاحبتهم وقتًا طويلاً ودرست جيدًا مبادئهم الدينية ، فوجدتهم ينكرون وجوب الفرائض الواردة فى أصول الشيعة ، ولذلك أعتقد فى كفرهم بشكلٍ قاطع ، حفظنا الله من شرور جعلهم .

استوا نامه ومحبت نامه

انتهزت فرصة عيد ميلاد عام ١٨٩٧م ؛ لأدرس بدقة مخطوطين لطائفة الحروفية وكلاهما يتبع المكتبة الوطنية بباريس [2] ، ووصفتهما فى مقال عنوانه (ملاحظات عن أدب الحروفية وتلعيماتهم) ، نشرته مجلة الجمعية الآسيوية عام ١٨٩٨م ، وأحدهما مؤرخ بعام ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م ، ويشمل (استوانامه) تأليف أمير غياث الدين ، وهو مثنوى بالفارسية يحكى قصة بحث الإسكندر عن ماء الحياة ، ويشمل كذلك معجمًا للألفاظ المحلية المستخدمة فى الجاويدان الكبير .

والمخطوط الثانى تاريخه ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م ، واسمه محبت نامه ولدى أدلة على أن مؤلفة هو فضل الله الإستراباذى نفسه ، وبعد تسعة أعوام من ذاك الوقت نشرت مقالة

(١) يقصد به قنبر على شاه المازندرانى المولود ١٢١٢هـ ، والمتوفى ١٢٩١هـ ، والمدفون فى التكية الصفائية بجانب جبل طبرك بالرى ، راجع طرائق الحقائق ج٢ ، ص ١٠٧ .

(٢) قيد هذان المخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس بهذا النحو :

Ancien Fouds persan 24 et Suppl. Persan 107 .

أخرى فى مجلة الجمعية الآسيوية نفسها بتاريخ ١٩٠٧ فى هذا الخصوص ، وعنوانه (مذكرات إضافية عن الحروفية ، وعلاقتهم بدراويش البكتاشية) ، ووصفت فيه ٤٣ مخطوطة حصلت عليها مكتبة المتحف البريطانى وجامعة كمبردج ، وجاء فى ذكرى كيفية الحصول على هذه النسخ ما يلى :

اتضح لى علاقة الحروفية بالبكتاشية لأول مرة بهذه الطريقة ، بعد نشر المقالة التى أشرت إليها سابقًا طلب منى شخص كان يعمل فى تجارة الكتب الشرقية فى لندن وأصله عراقى – وكنت قد اشتريت منه قدرًا من المخطوطات – أن أعطيه قائمة بالكتب التى أحتاجها لكى يرسلها إلى واحد طرفه فى الشرق ، ففعلت ما طلب ، ودونت فى هذه المسودة اسم الجاويدان أو كتب أخرى من آثار الحروفية ، وبعد ذلك بقليل فى فبراير ومارس ١٩٠١ أرسل إلى بائع الكتب المذكور لفة من المخطوطات ، بينها نسخة من كتاب الجاويدان المقيد الآن فى المتحف البريطانى تحت رقم OR.5957، ومعه عدة كتب أخرى لهذه الطائفة ، وكان سعر هذه النسخ يبدو غاليًا ، لكن مكتبة جامعة كمبردج اشترت منها نحو ستة كتب وهى تحت رقمى Or. 5957,Or. 5961 ، ودفع السعر الغالى لهذه النسخ إلى ظهور نسخ أخرى ، لكن اتضح بالتدريج نتيجة للحصول على نسخ عديدة أن آثار الحروفية كثيرة بشكل ملحوظ ، وأنها تدرس وتنسخ فى الشرق خاصة فى تركيل ، ونتيجة لذلك هبط سعر هذه النسخ سريعًا حتى بيع فى النهاية عدة نسخ ن هذه الآثار بنحو ثلاثة جنيهات فى السوق الصغيرة المختص به ، ولم يمر وقت وطويل حتى اكتشفنا أن هذه النسخ تأتينا بطريق مباشر أو غير مباشر من طائفة دراويش البكتاشية ، وأنها تروج بين أفراد هذه الجماعة التى تعتقد بعقائد الحروفية حتى العصر الحالى .

ومن بين المخطوطات التى وصفت فى المقال السابق نحو ثلاث رسائل تتحدث عن سيرة حاجى بكتاش ، وتعاليمه ، وهو الشيخ الذى أخذت هذه الجماعة اسمها ولقبها

منه ، وقد توفى فى عام ٧٣٨هـ–١٣٣٧م[١] قبل مولد فضل الله الحروفى بعامين ، وهذا الكتاب التاريخى ، ويضم إليه خمسة كتب أخرى ولكنها تتعلق بتاريخ هذه الجماعة ووقائعهم ، كتبت أسماؤها على ورقة كما يلى ، وهذه الورقة قيدت بإحدى النسخ المخطوطة للمتحف البريطانى تحت رقم Or.6381 .

١ – مولد فضل الله الإسترابادى ٧٤٠هـ/١٣٣٩م

٢ – ظهوره ودعوته فى عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م

٣ – استشهاده ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م

٤ – وفاة خليفته حضرة على الأعلى ٨٨٢هـ/ ١٤١٩م

٥ – وفاة ابن تيمور ميران شاه (أو ملك الأمراء) الذى يسميه الحروفية بالدجال ، أو ماران شاه (أو ملك الأفاعى) فى ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م .

ويظهر من الشعر الذى يرى فى هذه الورقة نفسها أن فضل الله سافر للحج عام ٧٧٥هـ ، وقد حرر فى صفحة أخرى لإحدى هذه النسخ (المتحف البريطانى Or.6380) كتابة عجيبة ، ويظهر أنها وصية فضل الله ، ويتضح من هذه الكتابة التى اندرج أصلها وترجمتها بالكامل فى تلك المقالة أنه قتل فى شيروان ، وتنتهى مقالتى بفهرس كامل لعناوين الكتب وأسماء الشخصيات الذين ذكرتهم بها ، وينتهى عناوين كثيرة من هذه الكتب التى تشمل الفارسية والتركية بكلمة (نامة) ، أى رسالة مثله (آدم نامه) (اخرت نامه) عرش نامه (بشارت نامه) ، وغيرها[٢] .

وفى عام ١٩٠٩ فى سلسلة كتب جيب طبع كتاب ، هو المجلد التاسع منها ، ويشمل ترجمة فرنسية لبضع رسالات حروفية مع مذكرات ملحقة بها ، بيد كليمان هوارت ودراسة عن تعاليم الحروفية بالفرنسية ، بقلم الدكتور رضا توفيق المعروف

(١) يدعى هذا التاريخ (معلم ناجى) ، ومن العجائب أن حروف (بكتاشية) يستخرج هذا التاريخ نفسه (٧٣٨) بحساب الجمل .

(٢) نشرت المقالة الثانية لبراون فى جريدة الجمعية الملكية الآسيوية فى لندن ، بتاريخ يوليو ١٩٠٧ .

بالفيلسوف رضا ، وهو عالم يعلم جيداً الشرق والغرب ، ويطلع اطلاعًا كاملاً عما يتعلق بالدراويش خاصة البكتاشية منهم ، وهذا الكتاب - وهو أهم كتاب مستقل فى هذا الخصوص - مخزن كامل للمعلومات المفيدة ، ويعرف هذه الفرقة التى لها تعاليم خيالية عجيبة وغريبة ، وكانت مجهولة فى أوربا حتى عشرين سنة خلت ، وكانت عاملاً مهماً فى الأحداث التاريخية لآسيا الغربية ، وتظهر صفات هذه الجماعة وخصائصها وعقائدها التى يتصف الواحدة منها بصفتى الابتكار والعنف كلتيهما من الكتب والمقالات المذكورة فيما سبق ، ويمكن لمن يريد المزيد عنهم مراجعتها .

الكتاب الثالث

ملوك إيران الإيلخانيون

من موت تيمور إلى ظهور الدولة الصفوية

٨٠٧ - ٩٠٧ هـ / ١٤٠٥ - ١٥٠٢ م

الفصل السادس

تاريخ عصر التيموريين

أوضاع القرن موضوع هذا الفصل

القرن الذى نحن بصدد شرحه ودراسة أحواله وأوضاعة فى قسمه الأخير ؛ أحد العصور المضطربة ، والتى تفيض بالفوضى والقلاقل التى تحدث فى تاريخ إيران غالبًا بعد موت الفاتحين الكبار ومؤسسى الدولة العظيمة ، وأحداث هذا القرن عبارة عن ظهور قوة الأوزبك فى ما وراء النهر ، والتجزؤ والانحلال التدريجى للإمبراطورية الواسعة ، التى أسسها تيمور . ثمنًا لدماء غزيرة ، ومصائب لا حد لها ، والتغلب والاستلاء المتوالى لأسرتين من التراكمة هما القرة قوينلو (أصحاب الخراف السوداء) والآق قوينلو (الخراف البيضاء) ، وأخيرًا ظهور الصفويين ، وتغلبهم القاطع ، وهم أكبر أسرة لسلاطين إيران الأواخر ، ويمكن عدهم - إلى حدٍ ما - مؤسسين وبناة أو على الأقل مجددين للإحساس القومى فى إيران فى العصور الأخيرة .

يبدأ هذا القرن بموت تيمور فى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م ، وينتهى بحرب فى آذربيجان عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م . التى هزم فيها الشاه إسماعيل الصفوى بشكل حاسم ونهائى تراكمة الآق قوينلو ، ثم جعل تبريز دار ملكه ، وتوج سلطانًا على إيران ، مع أنه استغرق بعد هذه الحرب بضع سنوات ، إلى أن اتسع نطاق سيطرته على سائر بلاد إيران ، ووصل إلى حد أنه بسط قوته - حسبما يذكر إستاتلى لين بول - من نهر سيحون إلى خليج فارس ، ومن أفغانستان إلى الفرات .

انقسام هذا القرن نصفين بموت شاهرخ

إذا درس هذا القرن من قريب بنحو أدق ؛ لوحظ أنه انقسم إلى قسمين غير متساويين ، وأن موت الابن الرابع لتيمور ، وهو شاهرخ فى (٨٥٠هـ / ١٤٤٦ م) هو

الفاصل بين هذين القسمين ، نجح شاهرخ طوال مدة حكمه - حياته ، مع نشوب ثورات عديدة ظهرت من ناحية أقاربه ، فى أن يحافظ - تقريبًا - على سائر الإمبراطورية العظيمة التى أسسها والده على نهجه نفسه ، لكن بعد موته اتجهت بسرعة إلى التجزؤ والانحلال وتضعضعت أحوالها ، بيد التراكمة القرة قوينلو - أولاً - ثم الآق قوينلو ، ومن بعدهم الأوزبك فيما وراء النهر، وفى النهاية، انهارت كل قواها ، ومعها بقية الأسرة التيمورية فى إيران على يد غاز مظفر ، ومنتصر مثل الشاه إسماعيل .

ظهور الحكم المتألق للتيمورين فى الهند بعد طردهم من إيران

مع أن الأسرة التيمورية انقرضت فى إيران ، لكن كان مقدرًا لها أن يقوم لهم حكم عظيم فى الهند ، وقد تحقق هذا بمساعى ظهير الدين محمد بابره الذى يصل نسبه إلى تيمور بخمسة آباء ، بنحو أنه لما طرده الأوزبك من ولايته فرغانة ، فسقط على الهند وأسس بها أسرة ، تعرف لدى مؤرخى أوربا بالمغول الكبار (Great Maguls) ، حكمت ما يزيد عن الثلاثة قرون بالهند ، وفى النهاية انتهت هذه الأسرة فى ثورة الهند الكبرى عام ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٧ م .

وليس لنا فى هذا الكتاب حديث مباشر فى أحوال هذه الأسرة المغولية فى الهند ، إلا ما تعلق بصلاتهم مع الأسرة الصفوية بإيران ، لكن مع أن الأهمية السياسية للأمراء التيموريين فى إيران كانت تتجه دائمًا إلى الضعف والزوال إلا أن مراكز حكمهم الصغيرة كانت مراكز للحركات الأدبية ، وحازت شهرة فائقة ؛ بسبب وجود شعراء مشاهير ، وأدباء عظام فيها ، وأسدى بالأخص بعض هؤلاء التيموريين مثل السلطان أبى الغازى حسين بن منصور بن بايقرا ، وميرزا ألغ بيك ، وميرزا باى سنغر ، وظهيو الدين محمد باير نفسه خدمات جليلة للعلم والأدب ، وكان مير على شير النوائى وزير السلطان أبى الغازى حسين ، فضلاً عن كونه واحدًا من الشعراء الجديرين بالاهتمام (خاصة باللغة التركية) مدافعًا ومشجعًا كريمًا لأدباء عهده وفضلائهم ، بحيث تساوت العظمة والجلال الأدبى لمدينة هراة فى الفترة الأخيرة للتيمورين ، وتكافأت مع مدينة غزنة فى عهد السلطان الغزنونى .

سفراء البندقية إلى بلاط أوزون حسن التركمانى

أهم من يمثل بعظمة – من الناحية السياسية – الأسرات السابق ذكرها شاهرخ من الأسرة التيمورية ، وقرا يوسف من أسرة القرة قوينلو التركمانية ، وأوزون حسن من أسرة الآقة قوينلو ، ومحمد الشيبانى المعروف بشيبك من قبيلة أوزبك ، وأهمهم جميعًا الشاه إسماعيل الأول مؤسس الأسرة العظيمة الصفوية .

ويما يتعلق بأوزون حسن[١] ، لدينا من تأليفات الأوربيين المعاصرين له تاريخ به أن سفراء جمهورية البندقية وصوا إلى بلاطه وسموه مرة "أوزون كاسانو" (Ussun Cassano ، ومرة أخرى (أسَم بيه Assam bei) ، وكان هؤلاء السفراء هم :

كاترينو زينو Caterino Zeno ، وجوسافا بربرو Josafa Barbaro ، وأمبروزيو كنتارينى Ambrosio Contarini ، وأتوا إليه من البندقية بهدف أن يكتسبوا عون هذا الأمير التركمانى ومساعدته ضد القوة المتعاظمة لدولة الأتراك العثمانيين ، وقد ألف هؤلاء السفراء الذين قدموا إلى إيران وقاموا برحلاتهم إليها فيما بين عامى ١٤٧١ و ١٤٧٨م كتب رحلات ، تضم معلومات وإفادات ، قل أن أشار إليها المؤرخون الإيرانيون لذلك العصر ، وقد نشرت جمعية هكلويت Haklayt Society ترجمة إنجليزية فى مجلد واحد اسمه (رحلات السياح الإيطاليين فى القرنيين السادس عشر والسابع عشر إلى إيران)[٢] "Six Narratives of travel in Persialy Italians in the sixteenth and seventeenth Centuries" .

(١) حسن بيك آق قوينلو ، بسبب طول قامته عرف بأوزون حسن ، وذكر المؤرخون العرب اسمه ايضًا (حسن الطويل) .

(٢) الرحلات الثلاث الأخرى هى : أولاً (شرح جيوفان باتيستا راموزيو) (Giovan Battista Ramusio) لكتابات جيوفان ماريا أنجيولتو ... التى ذكرت وقائع حياة اوزون كاسانو (أوزون حسن) ومنجزاته .
وثانيا : رحلات تاجر فى عهد الشاه إسماعيل .
وثالثًا : حكايات فينشنتيو .

أولاد تيمور

وقبل الحديث فى شرح أحوال أسرتى الآق قوينلو ، والقرة قوينلو نتحدث بإجمال عن تاريخ أسرة تيمور ما ارتبط بإيران ، فقد كان لتيمور أربعة أولاد وبنت ، ولده الأكبر هو ميرزا جها نجير ، الذى توفى قبل موت والده بثلاثين عامًا ، وولده الثانى هو ميرزا عم شيخ ، الذى مات قبل والده بعشرة أعوام ، وولده الثالث هو ميران شاه ، الذى ظل حيًا بعد موت تيمور بثلاثة أعوام ، لكنه كان موضع سخط أبيه عليه ، وغضبه منه ، ويبدو أنه أصيب باختلال فى دماغه ، وولده الرابع شاهرخ الذى حل محله ، وحكم ثلاثة وأربعين عامًا من ٨٠٧ إلى ٨٥٠ هـ / ١٤٠٤ م - ١٤٤٧ م حكمًا عظيمًا وهادئًا .

الأيام القصيرة لحكم خليل سلطان

كان مقصد تيمور أن يخلفه حفيده (بير محمد) ولد ميرزا جها نجير ، لكنه انهزم من ابن عمه خليل سلطان ولد ميران شاه ، واستولى خليل على سمرقند ، واكتسب مساعدة بعض الأمراء الأقوياء وعونهم ، لكنه فى النهاية بعد موت تيمور بعامين ، قتله وزيره الذى كان يعتمد عليه (على تاز) أو (بير على) ، ومع أن خليل سلطان كان رجلاً فاضلاً فنانًا لكنه كان مبغوضًا من الأمراء والأعيان ؛ بسبب عشقه وولهه بمطربة اسمها (شاد ملك) ، وبسبب انشغاله الدائم بالملذات ، فثاروا بقيادة الأمير خداداد ، وبردى بيك ، وعزلوه وطردوه إلى كاشغر ، وفى هذا الوقت هاجمهم عمه شاهرخ واستولى على الحكم ، لكنه وهبه محبوبته شاد ملك ، بسبب حبه وعشقه لها ، ولما مات سلطان خليل أظهرت هذه المرأة عشقها ووفاء هاله أيضًا فأغمدت خنجرًا فى قلبها ، ودفن الاثنان فى الرى فى قبر واحد[1] ، ولم يكن خليل سلطان مشجعًا كريما للشعراء وحسب بل كان نفسه ينظم الشعر ، وقد ذكر نماذج من شعره دولت شاه[2] .

(١) أورد بالتفصيل حكايتهما السيرجون ملكم فى تاريخ إيران طبعة بمباى ١٨١٥ ج ١ ، ص ٤٨٦ ، لكن دولت شاه يقول فى ، ص ٣٥٤ إن الأمراء الثائرين قطعوا أذنى شاد ملك وأنفها ، ولا يشير إلى اتصالها بخليل سلطان .

(٢) دولت شاه (طبعة ليدن) ، ص ٣٥٥

سلطنة ميزرا شاهرخ

ولد شاهرخ الذى ولى فى عام ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م ، وكان على هذا فى الثامنة والعشرين حين تولى الحكم ، كان قد ولى حكم خراسان عام (٧٩٩ هـ) وهو فى العشرين من عمره ، وكان يحكمها تقريبًا باستقلال . من المعروف أن النقود تُصكُّ بالصاد وهى فى الأصل بالسين العملة باسمه ، واتسع نطاق مملكته ، وانبسط على التوالى ؛ بسبب فتحه مازندران عام ٨٠٩ هـ ، وما وراء النهر ٨١١هـ ، وفارس ٨١٧هـ ، وكرمان ٨١٩ هـ ، وأذربايجان فى ٨٢٣هـ ، وقد جرت حادثه المؤامرة عليه بيد أحمد لرفى عام ٨٣٠ هـ ، وفى النهاية مات فى (٨٥٠ هـ / ١٤٤٧ م) فى الرى ، وهو فى الثانية والسبعين ، بعد حكم دام ثلاثة وأربعين عامًا ، أجرى حروبًا منتصرة ضد سلاطين أسرة القرة قوينلو خاصة قرا يوسف وابنه الإسكندر ، لكنه - بوجه عام - كما ذكر جون ملكم فى تاريخ : (ولم يقصد السيطرة بل كان يريد ترميم ما خربه أبوه ، فقد رمم قلاع مدينة هراة ، ومرو ، وبنى من جديد كل مدينة وبلد ، كانا بدائرة حكمة ، وكان هذا الملك يشجع أهل العلم والأدب ، وكان يحف ببلاطه العظمة والجلال ، وكان يكتسب دائمًا مودة السلاطين المعاصرين له ، ونقرأ حكاية عجيبة فى الصفحات المؤرخة لزمانه عن تسفير سفراء ، ورسل جرى بينه وبين خاقان الصين)[1] .

أخلاق شاهرخ

قدَّم أحد المؤرخين المحدثين الإيرانيين ، وهو ميرزا محمد حسين خان ذكاء الملك المتخلص بفروغى ، دراسة قيمة فى وصف سجايا شاهرخ وملكاته وقال[2] ؛ وجلس بعد تيمور ابنه شاهرخ ، وكان إلى خلق يناقض تمامًا خلق أبيه ، فقد كان رجلاً

(١) تاريخ جون ملكم ، ص ٤٨٧ ، واستقبل شاهرخ سفارة من بلاط خضر خان ملك الهند فى عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م ، كما أرسل سفارة إلى بلاط السلطان العثمانى مراد خان الثانى فى ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م (راجع صفحات الأخبار لمنجم باش) ، وراجع فى تبادله السفارة مع الصين والهند (مطلع السعديين) المجلد الأول .

(٢) تاريخ إيران طبعة طهران ١٣٢٣ هـ . ش ، ص ٢٦٦ .

مسالمًا ، وقليل الأذى ، ولم يكن بقصده قط السيطرة والقتال إلا قمع المتردين الذين كانوا يسببون الفوضى والاختلال فى بلاده ، وكان يعد قمعهم أمرًا واجبًا . والخلاصة أن المملكة التى أسسها تيمور عمرت وتحسنت أحوالها بمساعى شاهرخ ، وظل مدة طويلة يصلح ما أفسده أبوه ، وكان يلبى حاجات رعاياه ، ويشفق على أحوالهم ، ويعد أسباب راحتهم ، وهذه من الأمور غير العادية أن ولد رجل بهذه القسوة ينشأ طيبًا وحسن الخلق ، وسليم النفس ، ومحبًا للعلم فقد شمل بعطاياه وهباته الجميع خاصة الفضلاء والفنانين ، وكان اوقطاى قا آن ابن جنكيز له هذه الصفات نفسها إلى حد ما ، وكان يتصرف وفق الخير ، واشتهر على صفحات التاريخ بالكرم والسخاء على الخصوص ، ويعد حاتم عصره ، ووردت حكايات كثيرة عن بذله ، وعطائه ولطفه فى كتب المؤرخين .

وتحدث دولت شاه بدوره فى مدحه وبأسلوبه المبالغ المهول حد أنه قال فيه : (لقى رعاياه من الراحة والرفاهية فى عهده ما لم يلقه أحد فى سائر العقود والأزمان والعصور من عهد آدم إلى يومنا هذا)[1] ، وفوق هذا يذكر أن أخلاقه الحسنة كانت بالحد الذى وصل بها إلى مقام الولاية ، فاطلع على الغيب ، ورويت عنه الكرامات ، ويروى من الحكايتين المرويتين عن شاهرخ بهذا الصدد رواية عن والده ، هو الذى كان – كما يقول – من الملازمين الخواص لشاهرخ ، ولكن هذا الملك بسبب اعتقاد هذا المؤلف سلك فى النهاية بما ينافى الوصايا الإلهية ؛ إذ إنه أصدر أمره بقتل ثلاثة من العلماء والزهاد كانوا بأصفهان ، وساء ظن الملك بهم ، وكان يعتقد أنهم أغووا حفيده سلطان محمد بايسنغر ضده ، ولما كان باب هذا الصنيع مباركًا له ، وكان الثلاثة حتى اللحظة الأخيرة يدعون عليه ، ولما كان باب السماء مفتوحًا أجيب دعاء هؤلاء الأعزاء المظلومين الأبرياء ، فانقطع نسل هذا الملك العالى المنزلة ؛ وتحول الحكم إلى مركزه الأصلى .

(١) تذكرة دولت شاه ، ص ٣٣٦.

ويذكر دولت شاه من بين الصناع والشعراء والعلماء المعاصرين لشاهرخ أربعة على وجه التخصيص[1] ، كانوا أساس جلالة بلاطه وعظمته ، أولهم عبد القادر المراغى أستاذ الموسيقى ، والذى كان - حسبما يذكر منجم باشى فى تاريخه - أحد خسائر الطاعون الذى عم هراة على ٨٣٨هـ[2] ، ثم يوسف الآندكانى فى الغناء والطرب والأستاذ قوام الدين الشيرازى فى الهندسة والتصميم والعمارة ، ومولانا خليل المصدر الذى كان فى النقش (ثانى مانى) .

ولم يقل المؤرخ التركى منجم باشى فى وصفه السجايا الطيبة لشاهرخ عما قاله من سبق فيقول : كان شاهرخ ملكًا عاقلاً وعادلاً ، وحكيمًا وبارًا ، ومستعدًا دائما للعفو والسماح ، ومزدانًا بالتقوى ، والزهد ، وحُسن العقيدة ، إلى حد أنه لم يهمل فى سفره وحضره ، بل وأثناء الطعان والقتال ، أداء الفروض الخمسة ، وكان يصوم الأيام الستة من شوال وغرّة كل شهر عربى ، ويجالس حفاظ القرآن الكريم مساء الجمعة والإثنين ويوم الخميس ، وكانوا يختمون تلاوة كلام الله فى حضوره ، ولم يرتكب كبيرة طوال عمره ، وكان دائم الطلب لمجالسة العلماء والزهاد ، ويمنحهم أكبر هداياه وعطاياه ، ولم يصب بهزيمة فى أى حرب خاضها ، وكان الحظ مواكبًا له دائمًا ، ويلقى الظفر والنصر ، وكان يخف أولا إلى زيارة الأضرحة المتبرك بها فى أى بلد كان يذهب إليه ، وقد اتسعت بلاد هذا الملك يقول هذا المؤرخ من حدود الصين ، حتى حدود الروم (البلاد العثمانية فى آسيا) ، ومن أقصى حدود التركستان حتى حدود الهند .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٤٠.
(٢) صحائف الأخبار ج ٣ ، ص ٥٧ ، طبعة إسلام بول ١٢٨٥ ، وقد ألف بالعربية أولاً هذا التاريخ النفيس أحمد زاده افندى بن لطف الله ، وأرخ حتى أحداث عام ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢م ، ثم ترجمة فى ١١٣٢ هـ / ١٧٢٠ م إلى التركية لصهر إبراهيم باشا الصدر الأعظم العثمانى أحمد بن محمد النديم .

ميرزا بايسنغر

لم يبق حيًا بعد وفاة شاهرخ من أولاده الخمسة غير من يسمى ألغ بين[1] ، وأول هؤلاء الأربعة الآخرين ميرزا باى سنغر الذى مات فى ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م ، بسبب إفراطه فى شرب الخمر ، وكانت آفة الأسرة التيمورية ، وربما كان أفضلهم أهلية [2] ، ويعد أكبر حماة الصناعة والعلم ؛ إذ كان الشعراء والفنانون والفضلاء والخطاطون والنقاشون والمذهبون والمجلدون يسرعون من العراق ، وفارس ، وأذربايجان ، وجميع بلاد إيران إلى بلاطه ، وكتب باسمه فى عالم الأدب الفارسى مقدمة على شاهنامة الفردوسى عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م شهرته فى العالم ، وذكر حبيب السير مادة تاريخ وفاته فى هذه القطعة :

قال لى فى السحر السلطان السعيد باى سنغر قل لأهل العالم خبرى

رحلت وتاريخ وفاتى فى (ليطل عمر والدى فى الدينا)

(وعدد الحروف لهذه الجملة بالفارسية ٨٣٧ هو تاريخ وفاة باى سنغر بحساب الجمل) .

ألغ بيك

مات شاهرخ كما سلف فى ١٢ مارس ١٤٤٧ م / ٨٥٠ هـ قرب الرى ، ولم يخلفه ابنه ألغ بك بسهولة بل بمشقة بالغة ، وحكم فى حياة أبيه توران أو تركستان ، وبدأ فى نفس هذه المدة (فى عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م) بناء مرصده المعروف فى سمرقند باسمه ،

(١) الأبناء الثلاثة الآخرون لشاهرخ هم أبو الفتح إبراهيم سلطان المتوفى ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م حاكم فارس ، وحامى المؤرخ المعروف شرف الدين اليزدى ، وممويحه ، ولا تزال إلى الآن فى شيراز آثاره ونقوشه الخطية ، ثم سيورغتمش المتوفى ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م ، ثم محمد جوكى المتوفى بهراة فى ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م

(٢) راجع حبيب السير مجلد ٣ جزء ٣ ، ص ١٣١ ، وصحائف الأخبار ج ٣ ، ص ٦٦ ، وكان باى سنغرضافة كلفًا بالخط الجميل ، فمن القطع الكثيرة الجمال ما خطه من صفحات قرآنية كبيرة بخط الثلث ووجدت متفرقة كذلك كتابته بالثلث التى ظلت بالقاشانى المعروف فى مسجد والدته جوهر شاد أغا فى مدينة مشهد ، وهى من نفائس أعماله .

وأتمه – فيما يبدو – فى عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م بمعاضدة أربعة من العلماء فى عهده ، هم : صلاح الدين موسى قاضى زاده الرومى ، ومولانا علاء الدين على القوشجى شارح التجريد ، وعنيات الذين جمشيد الكاشانى ، ومعين الدين الكاشانى[1] الذى ألف جداول فلكية تستحق الاهتمام [2] ، والمعروف بزيج ألغ بيك ، أو الزيج السلاطنى الجديد ، وقد أوفى رييه شرحًا وتفصيلاً فيه[3] .

ولم يستطع كما ذكرنا ألغ بيك أن يمتلك على الفور أمور الحكم ، وانبعث علاء الدولة ولد باى سنغر متمردًا عليه ، واستولى على هراة وألقى بعبد اللطيف ولد ألغ بيك فى السجن ، وبعد ذلك لم تدم قوته وحكمه ، فقد قتل فى العاشر من رمضان ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م ، بأمر من ابنه المذكور عبد اللطيف نفسه ، ولما كان اسم قاتله (عباس) ؛ فقد تضمن تاريخ هذه الحادثة المؤسفة عبارة (عباس كشف) أو (قتله عباس) .

عبد اللطيف

ولم يهنأ عبد اللطيف بعد قتله لأبيه ، لأنه بعد أن قتل أخاه عبد العزيز أيضًا وصل دوره هو أيضًا فى العام التالى ؛ إذ قتله فى ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م من يسمى (بابا حسين) ، ومن العجيب أن مادة تاريخ هذا القتل تحسب أيضًا بهذه العبارة (بابا حسين كشت) أى قتله بابا حسين ، ويروى ميرخواند بعد ذكره هذه الحادثة بيتًا للنظامى يشير إلى قصر عهد حكم السلاطين الذين يقتلون آباءهم وهو .

(١) لمزيد من هؤلاء الأشخاص ؛ راجع فهرس رييه وتذكرة هفت إقليم فى ذيل كاشان ، وحاجى خليفة الجزء الثانى ، والشقائق النعمانية ، وحبيب السير مجلد ٢ جـ٣ .

(٢) يذكر ألغ بيك نفسه فى مقدمة الزيج السلطانى الوركانى طبعة باريس ١٨٢٢ م ، ص ٢٠٩ عن العلماء الذين ساعدون فى عمله هذا (وفى هذه الأثناء ولم يكن قد تم بناء هذا البناء المهم لحق حضرة الأستاذ شكر الله ساعيه بجوار ربه فخلفه بالاتفاق ابنه الغالى على بن محمد القوشجى ، الذى اختطف فى حداثة سنه وعنفوان شبابه قصب السبق فى مضمار الفنون والعلوم بنحو أن ينتشر ، ويستفيض بالأمل الواثق العناية الإلهية وفيض غير المتناهى ، ثم هذا المهم الخطير .. إلخ) .

(٣) فهرس رييه ص ٤٥٥ ، وتاريخ إيران تأليف كليمان ماركهام ، ص ٢٢٣ ، وراجع ايضًا المقالة البليغة التى نشرها لوسيان بوفات L.Bsuvat فى المجلة الأسيوية، عدد أبريل ١٩٢٦م ، ص ٢٤٧ بشأن (الحضارة التيمورية) .

لايـلـيـق بـالمـلـك مـن يـقـــــــــتـل أبـاه

ولوحدث فلا يستمر أكثر من ستة شهور

ويذكر المؤرخ التركى منجم باشى (ج٣ ، ص٦٥) أن عبد اللطيف كان يتمتع بالذكاء والحذق والحلية ، ولكنه كان شديد القسوة وسفك الدم ؛ فلم يمض به وقت طويل حتى نفرت ويرمت به قلوب الشعب ؛ وانتهى بقتله حكم ألغ بيك فى بلاد ما وراء النهر .

ومن هذا الوقت فصاعداً أى حتى زوال الأسرة التيمورية فى إيران ، استمرت قوة هذه الأسرة فى اتجاهها إلى الوهن والانحطاط ، واستيلاء أحدهم على ملك الآخر ، وتوالى ثورات السلاطين الثائرين والمدعين ، بحيث لا يمكن أن نحدد من كان التابع منهم ومن المتبع ، ويعد إستانلى لين بول فى كتابه (أثر السلاطين المسلمين ، ص ٢٦٨) عبد الله إبراهيم سلطان بن شاهرخ[١] هو خليفة عبد اللطيف ، لكن ميرخواند اعتبر خليفة أنه أبو القاسم باير ولدى باى سنغرين شاهرخ .

أبو القاسم باير هذا ، وهو غير ظهير الدين باير الكبير ، ووافته المنية فى ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م ، وفقد قبل موته بعامين العراق ، وفارس ، وكرمان إذ دخلت هذه البلاد فى قبضة تملك جهان شاه ، ولد قرا يوسف التركمانى الآق قوينلو ، وقتل فى الحرب التى خاضها ضد أخيه سلطان محمد .

وقتل ، فاغتنم أبو سعيد هذه الفرصة لنفسه ، وأسرع يحدوه الطمع فى الولايات الغربية لإيران وتشجيع أمراء العراق ، وفارس ، وكرمان ، وآذربايجان ، بجيش متأهب إلى الغرب ودخل فى حرب مع أوزون حسن ، لكنه لقى فى النهاية الهزيمة منه ، وفى موضع قريب من (ميانه) وقع أسيراً ، وبعد أسر ثلاثة أيام صمم أوزون حسن على قتله ،

(١) ميرزا عبد الله إبراهيم ، يعرف فى تواريخ آل تيمور بالشيرازى ؛ لأنه ولد بشيراز فى عهد حكم أبيه ثم رباه عمه ألغ بيك بعد وفاة أبيه ، ومن بعده ادعى الحكم عدة أيام ومات فى (٨٥٤هـ) ، راجع مطلع السعدين وحبيب السير .

فسلمه إلى ميرزايا دجار محمد (ابن سلطان محمد بن باى سنغر) ، لكى ينتقم منه ثأراً لدم جدته جوهر شاد خاتون فقتله ، ونظم الحكيم المعروف جلال الدين الدوانى مؤلف الرسالة المشهور فى الاخلاق واسمها (أخلاق جلالى) مادة تاريخ قتله فى قوله :

السلطان سعيد الذى لم تر فى عظمة ملكه عين الفلك العتيق شاباً مثله

وصار القتل فى الحقيقة قدره حتى أصبح تاريخ قتله (مقتل سلطان أبو سعيد)(١)

السواح البنادقة وأبو سعيد

نطق السواح البنادقة الذين قدموا إيران فى هذه الأونة ووصلنا عنهم معلومات مفيدة تحوى تفصيلات تاريخية اسم أبى سعيد فى مؤلفاتهم (بوستش Busech) وقرأوا (اوزن حسن) أو (حسن بيك) أوزون كاسانو Ussun Cassano و (أسَم بيه Assam bia) ونطقوا اسم (جهان شاه) (جيانسا Giansa) وسموا مدن (أورفا) و (أصفهان) و (قم) و (كاشان) و (يزد) على الترتيب (ارفى) و (سباهام) أو (سباآن) و (كومو) و (كسان) و (يكس) .

القيمة التاريخية لمطالع السعدين

لابد من ذكر أن تاريخ مطلع السعيدية تأليف كمال الدين عبد الرزاق الذى لم يطبع حتى الآن ، وأرخ فيه الأحداث ما بين نجمى السعد (وهما أبو سعيد الإيلخانى ٧١٦ - ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥ م - ، وأبو سعيد التيمورى محل دراستنا الآن ، ينتهى كتابه

(١) نقل براون هذا الشعر روضة الصفا ولم أجده ، عبارة (مقتل سلطان أبو سعيد) تساوى بحساب الجمل (٨٧٣) هى سنة قتله .

التـاريخى هذا بـأحداث عـام ٧٨٥ هـ / ١٤٧٠ م ، أى بـعد وفـاة المؤلف بعـامين ، هذا التاريخ خلاف التواريخ المشهورة العمومية مثل روضة الصفا ، وحبيب السير ، أغنى كنز مشحون بذكر حوادث هذه الفترة المعنية .

أحمد ومحمود ولدا السلطان أبى سعيد

خلف أبا سـعيد ولداه أحمد ومـحمـود اعتبرهما إستانلى لينبول الثامن ، والتاسع ، وآخر ملوك الأسرة التيمـورية فى إيران وآسـيا الوسطى ، وحكم الأول فيمـا وراء النهر ، وكان دار ملكه سـمرقند ، وحكم الثـانى فى بدخشـان ، وختـلان وترفـد ، ومـات الاثنان ، الأول قتله شيبانى خالد الأوزبك ، فى السنوات الأخيرة للقرن الخامس عشر أى فى ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م ، ومات الثانى فى ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م .

السلطان حسين بن منصور بايقرا

مع أن أيام حكم السلطان حسين بن منصور بن بايقـرا لا تعد مـهـمة من الناحـية السياسـية ، لكنها تفوق من الناحية الأدبية أيام الأميرين المذكورين أهمية بمراتب ، لأن بلاطه فى هراة يعد أحد ألمع مراكز الأدب والعلم والفن فى تاريخ إيران عاش هذا الأمير فى بداية حياته فى كنف رعاية ميرزا ألغ بيك ، لما قتله ولده عبد اللطيف ، وقتل هو أيام قبض عليه أبو سعيد ، وألقى به فى السجن ، فهرب منه ولحق بأبى القاسم باير وفر مـعه إلى خوارزم وخيوه ، وفى ٨٦٢ هـ / ١٤٥٧ م سيطر على مدينة إسترا باد عاصمة ولاية جرجان (هيركانيا القديمة Hyrcania) ، وجلس على عرشـها لكن بتمكين من السلطان أبى سـعيد وتحت أوامره ، وفى السنة التـاليـة أجبـره أبو سـعيد على الـهروب ففـر إلى خوارزم ، واستولى هو على عرشها فى العاشر من رمضان ٨٧٢ هـ / ٣ أبريل ١٤٦٨ م ، وكما يذكر منجم باشى فى تاريخه ، فذاك اليوم هو يوم من حكمه الذى استمر ثمانية وثلاثين عامًا ، وانتـهى بموته فى السبـعين من عمره فى يوم الإثنين الحادى عشـر من ذى

الحجة ٩١١ هـ / ٥ مايو ١٥٠٦ م ، وأصيب فى العشرين سنة الأخيرة من عمره بالشلل النصفى ، ووزيره نو القريحة والكمال مير على شير النوائى ، الذى كان لا يماثل سلطانه فى حمايته وتشجيعه الكبير لرجال الأدب والفضل وحسب ، بل فى نظمه الشعر خاصة باللغة التركية وإنشائه فى النثر ، وتوفى فى ١٢ جمادى الثانية ٩٠٦ هـ / ٣ يناير ١٥٠١ م فى الثانية والستين ، وقد نسر بلين Belin الفرنسى فى المجلة الآسيوية عام ١٨٦١ م مقالة بليغة عن حياة هذا الوزير العالم وآثاره الأدبية(١) ، وأعاد طبعها بشكل رسالة مستقلة ، وكان السلطان حسين فوق ذوقه الأدبى ميالاً جداً للعب بالحمام وسائر الطيور ، وحريصاً على شرب الخمر ، مثله فى ذلك مثل سائر أفراد هذه الأسرة .

ظهير الدين بابر

والآن لابد من الحديث عن أحد مشاهير الأسرة التيمورية ، وهو ظهير الدين محمد باير مع أنه لم يحكم فى أى مدة فى بلاد إيران ، لكنه أسس حكماً جديداً تيمورياً ، يعد واحداً من الإمبراطوريات الكبرى فى الهند وتعرف هذه الأسرة فى أوروبا باسم المغول الكبار ، وظهر فيها سلاطين عظام القدر مثل همايون ، وأكبر وجها نير وشاهجان وأورنج زيت الملقب بعالمجير ، ورغم الثورة العظمى للهنود فى عام ١٨٥٧م ، واستمر حتى أوائل القرن الثامن عشر بلاطهم الجليل فى دهلى يحافظ على الدوام على حمايته لجماعة كبيرة من الشعراء المتحدثين بالفارسية ، والأدباء ، والعلماء الإيرانيين إذ كانت دهلى فى كل وقت تقدرهم أكثر من أصفهان وتسبغ عليهم فريداً من حمايتها حتى كانوا يرتحلون إليها .

(١) عنوان هذه المقالة هو :
Notice biographique et littéraire sur Mir Ali chir Névâii, suivie d'extraits tiré des avures du même auteur .

وتشمل ١٥٨ صفحة .

مذكرات بابر

وصلنا من سيرة بابر المجموعة الكاملة والصادقة ، بقلم بابر نفسه ، والمعروفة بعنوان (مذكرات بابرا) أو (بابر نامه) ، وكتب فيها بالتركية الجغتائية سيرته ، ونشر إيلمنسكى Ilminsky فى غازان Kazan فى عام ١٨٥٧م نسخة من الأصل التركى لهذا الكتاب [١] ، ونشر أيضاً أمناء أوقاف جيب النسخة الأخرى ، التى اكتشفت حديثاً فى حيدر أباد بيد السيدة بفريدج Miss Beveridge على الزنكوغراف Fac-simile فى عام ١٩٠٥م[٢] ، وترجم النسخة التركية إلى الفرنسية ونشرها فى باريس فى ١٨٧١م باوه دكورتى Pavet de Caurteille ، ويوجد ترجمة فارسية لها أيضاً معروفة بوقائع أو (توزك بابرى) ترجمها إلى الفارسية بحسب أمر السلطان المغولى أكبر حفيد بابر قائدة عبد الرحيم خان خانان فى عام ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م[٣] ، وترجمها إلى الإنجليزية اثنان من العلماء هما : الدكتور جون ليدن ، ووليام أرسكين ، وهى ترجمة مشهورة ، ونشرت فى لندن فى عام ١٨٢٦م .

مذكرات ميرزا حيدر دغلات

وفوق هذا الكتاب المهم والمفيد لدينا كتاب آخر ، هو مذكرات ابن عم بابر المسمى ميرزا حيدر دغلات وترجمه دنيسون روس إلى الإنجليزية وقدم له وحشاه حواشى كثيرة وضم إليه خريطة رسمها المرحوم إلياس القنصل الإنجليزى فى خراسان وسيستان ونشره فى لندن عام ١٨٩٨م تحت عنوان A history of the Moghuls of central Asia being the tarikh-i-Rashidi etc. ، وهذا الكتاب هو (تاريخ رشيدى)[٤] نفسه وقد بسط فيه مؤلفه كلامه وفصل أكثر من بابر نامه مع أنه اعتمد هذا الأصل نفسه ، لكنه أضاف

(١) يحوى نص هذه الطبعة على ٥٠٦ صفحة .
(٢) يشمل نص هذه الطبعة على ٣٨٢ صفحة هى الأصل ، و ١٠٧ صفحة حواشى ، وعشر صفحات توضيحات إنجليزية .
(٣) راجع فهرس ريبه ص ٢٤٤ ، ونشر هذه النسخة الفارية فى ١٣٠٨ هـ ميرزا محمد ملك الكتاب فى بمباى على الحجر وسماها تجارب الملوك وتضم ٢٣٦ صفحة ، ولكن للأسف بها أخطاء ومحذوفات كثيرة .
(٤) راجع ص ٢٣ من مقدمة الكتاب المستر إلياس .

عليه تفصيلات ، ولواحق كثيرة [1] ، وفضلاً عن هذين الكتابين اللذين كان مؤلفهما من صانعي تاريخ عهدهما ، توجد مصادر تاريخية كثيرة أخرى تتعلق بهذا العصر والزمان .

موجز سيرة بابر[2]

يكفى أن نذكر هنا من سيرة بابر التى تجمعت من الكتابين السابقين ، وسائر المصادر الأخرى أن بابر أمضى القسم الأول من عمره فى بلدة صغيرة ، هى فرغانة ، وولد بها عام ١٤٨٢م ثم طرد منها أمام هجوم شيبانى خان الأوزبك فى عام ١٥٠٤م ، وحكم فى القسم الثانى من عمره من ١٥٠٤م إلى ١٥٢٥م فى أفغانستان وبدخشان ، وقصد آخر الأمر الاستيلاء على الهند ، وبعد فتحه (بانى بت) ، الذى هزم فيه السلطان إبراهيم اللودى ملك دهلى هزيمة فادحة ، سيطر فى (٢٠ أبريل ١٥٢٦م) على آكره ودهلى وشمال الهند من نهر السند حتى البنغال ، وأقر هناك أساس أسرة الإمبراطورية المغولية ، وينتهى القسم الثالث – وهو أقصر قسم فى حياته – بوفاته فى ٢٦ ديسمبر ١٥٣٠م ، وخلفه ابنه همايون على عرش الهند ، وتضم سلسلة الأحداث فى بابر نامه ، ما بين العاشر من رمضان ٨٩٩ هـ ، الذى جلس فيه على عرش فرغانة فى الثانية عشرة من عمره وعام ٩٣٦ هـ أى السنة السابقة لموته ، وينقص من هذا الكتاب بعض الوقائع مثل وقائع عام ٩١٥ هـ إلى ٩٢٤هـ وكذلك عام ٩٢٧ هـ إلى ٩٣١هـ[3] .

من الناحية التاريخية السياسية لإيران ، فقد ذابت ، وامحت الأسرة التيمورية ، قبل عام (١٥٠٠م) فى إيران والملك العظيم الذى أسسه ذلك السفاك تيمور ، حافظ عليه

(١) يتضمن بابر نامه حتى أحداث عام ٩٣٦هـ ، بينما ينتهى تاريخ رشيدى بأحداث عام ٩٤٨ هـ .

(٢) أفضل وأتم سيرة لبابر رأيناها هى ما ورد بكتاب (التاريخ الهندى فى عهد حكم بابر وهمايون) بقلم أرسكين W.ERSKINE طبعة لندن ١٨٥٤م فى مجلدين .

(٣) وراجع أيضًا فى سيرة بابر المقالة فى تاريخ كمبردج للهند بعنوان :

The Cambridge History af India, Vol. TV, P. 1-20

وهذه المقالة الشائعة من الدراسة المدققة المدققة للمستشرق ، وأستاذ علم اللغة المعروف السير دنيسونروس رئيس مدرسة اللغات الشرقية فى لندن .

ابنه شاهرخ ، وهو الملك السليم الطبع والمنور الفكر فى تلك الأسرة حتى عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٧م ، وبعد موته كانت الأحداث السياسية عبارة عن صراعات وحروب ، ما بين الأخوة من ناحية ، وهجمات من قبل الأوزبك وسائر قبائل التتر من ناحية أخرى ، ولكن فى ظل العناية ، وتذوق رعاية الأدب لبعض من أولئك الأمراء فى المدن المختلفة خاصة (هراة) كانت تنشر نجوم فى أفق العلم والشعر والصناعة والفنون أنوارها .

وقد شرح تفصيلات هذه الحروب أمير خواند فى روضة الصفا ، وخواند مير فى حبيب السير ، وعبد الرزاق فى مطلع السعدين بالفارسية ، وأرسكين فى تاريخه بالإنجليزية ، وبما أن هذه الوقائع عبارة عن الصراعات بين أفراد طامحين لأسرة واحدة وقلما شابهت الحروب بين الأمم ، أو الصراعات المذهبية ، أو الحرب الفكرية ؛ لذا تجدها كثيرة الإملال ، وعديمة الفائدة ، ولحسن حظنا أننا لا نحتاج إلى إضافة شىء فى هذا الكتاب إلى ما أوجزه جون ملكم من أوضاع هذا العصر بوجه شامل ، فيقول : نرى بعد موت ألغ بيك ، أن جماعة من نسل تيمور وقع أحدهم فى خناق الآخر ؛ من أجل الملك ، وكان للناس ثقة كبيرة فى هذه الأسرة إلى حد أن كل واحد منهم كان يدعى أنه من نسل تيمور ؛ كانوا يتجمعون حوله إلى أن يصيب عرشًا بقوة أو قبرًا بعزة [1] .

رأى الدكتور مارتين فى الفنون الجملية لهذا العصر

ذكر أحد أكبر أهل الخبر والخبراء فى التفتيش والتذهيب فى المشرق الدكتور مارتن Martin فى كتابه القيم [2] ، الذى ألفه فى نقش إيران ، والهند ، وتركية ونقاشيها ، بشأن النقش والمنممات (المينياتور) فى العصر التيمورى بعبارة شائقة – قوله :

وبدأ السلاطين التيموريون معجلون خلق حياة جديدة جديدة بالثروات ، والضخمة ، والتى كان أسلافهم جمعوها لهم طوال حروبهم الطويلة ، وسعوا بسرعة كبيرة فى بذل

(١) ترجمة تاريخ جون ملكم طبعة بمباى ، ص ٢٢٠ .
(٢) عنوان هذا الكتاب :
The Miniature paintimg and painters of persia, India and Turkey:

تلك الأموال وتبذيرها ، والتاريخ دائمًا يكرر نفسه ، فحياة هؤلاء السلاطين عبارة عن عصر كتاب حروب حماسية ، لأن حياتهم تذكرنا بالأمراء البالادين القدماء فى أشعار شالسون دجست [١] ، الذين انحدروا فى زمن قصير من أوج الجلال والإقبال إلى حضيض الفناء والزوال . وهؤلاء الأمراء التيموريون هم أفضل أمراء راعوا الفنون فى تاريخ إيران .

فلو أن جيش تيمور حطم كثيراً من الآثار الفنية لهذا البلد ، إلا أن أخلافه قد أوجدوا آثاراً من فنانين جدد ، ربما لم تكن تظهر لولا وجودهم ، ألم ترفع مدينة سمرقند رأسها على التعمير بدل المدن الكثيرة التى أبادها تيمور؟ ، فما أباده كان مقدراً عليه ، ومحتومًا أن يفنى ويبيد ، وما فعله تيمور هو أن وجه إليها آخر ضربة للفناء ، فلا يجب عده عامل فناء وإبادة كما نتصوره فى العادة ، بل كان رئيسًا ، كان ينظم محور الأمور ، ويرتبها بيد من حديد فهو حلقة فى سلسلة التكامل الطبيعى ، وظهر فى النظام الذى أقامه إيران جديدة فى العصور التالية ، وبلغ أخلافه بالصناعة والفن الإيرانيين أعلى مراتب الكمال .

لم يكن هؤلاء السلاطين التيموريين قومًا متوحشين برابرة بل إن كافة الأدلة والشواهد تشير إلى أنهم كانوا جماعة فى غاية التحضر ولطافة الطبع وفضلاء باحثين عن العلم ومحبين للفنون ، كانوا يحبون الفنون الجميلة ، لا من وجه المراءة والتظاهر بل من أجل هذه الفنون نفسها ، كانوا يفكرون فى أوقات الفرا غ الفاصلة بين حروبهم فى إكمال مكاتباتهم ، وترتيب دواوين شعرهم ، وكانوا هم بأنفسهم ينظمون شعراً لا يقل روعة عن شعر شعراء بلاطهم ، لم يكن السلطان حسين ميرزا شاعراً قليل الشأن وغزلياته بالتركية تفضل شعر الغزل لدى كثير من الشعرء الترك ، وكان ينظم الشعر بالعربية أيضًا وينافس الجامى ، وتذكرنا الحياة المتحضرة والرقيقة لهذه الجماعة من نواح كثيرة ببلاط أمراء أووربا ، الذين كانوا يعيشون فى ذاك العصر نفسه ، أو الذين كانوا يعيشون فى فرنسا فى القرن الثامن عشر بل فاقت منزلتهم الأدبية بدرجات هؤلاء جميعاً .

(١) البالادين Paladins اسم الأمراء (السنيورات) الذى كانوا بأوروبا بعد شارلمان واشتهروا بالشهامة والفروسية والرجولة ، و (رولاند) المعروف أحدهم أما الشانسون دجست Chansons de Gestes فهى أشعار حماية فرنسية قديمة تمدح الشجاعة والبطولة ، ومنها أغنية اسمها (أغنية رلاند) هى أحد الأشعار الحماسية الوطنية الفرنسية .

لم يقل باى سنغر ، وشاهرخ ، وألغ بيك ، والسلطان حسين ميرزا فى حبهم الكتب عن أدواق (جمع دوق) بورجونى ، والسلطان الفرنسى رنيه دانجور [1] ، وكانوا يشاركونهم الظهور فى العصر نفسه ، بل كانوا يسبقون بفكرهم وذوقهم وقريحتهم محبى الكتاب المعروفين فى فرنسا وإيطاليا ، الذين ظهروا فى القرن ١٦ ، ١٧ الميلاديين ، لأنهم لم يكتفوا بجمع الكتب ، بل كانوا يصنفونها أيضاً . كان بايسنغر وحسين ميرزا لإيران كويليام موريس[2] ، الذى ظهر فى إنجلترا بعد مرور أربعمائة عام ، فقد اختار أسلوبًا فى صنعة الكتاب ، لكن كتب الأمراء التيموريين التى أشرف على إعدادها هؤلاء الأمراء كانت أكثر إحكاماً ونفاسة ، أنفس وأجمل الكتب الأوربية والمخطوطات الموجودة لا تناظر إلا فى حالات نادرة الكتب الشرقية فى عصر التيموريين من ناحية الجمال . بايسنغر ابن شاهرخ وحفيد تيمور الذى مات فى عام ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م فى السابعة والثلاثين فى أستراباد محل حكمه ، هو المؤسس والمنشىء لزروع كتابة الكتب فى إيران ، ويستحق أن يعد واحداً من أكبر محبى الكتب فى العالم فتحت حمايته عمل أربعون خطاطًا وكاتبًا ، بإشراف مولانا جعفر التبريزى ، وهو نفسه تلميذ عبد الله بن مير على فى استنساخ الكتب ، وكان يحتفظ لديه بأفضل أساتذة الخط والتذهيب ، بسبب دفعه أجوراً خيالية ومنحه عطايا ضخمة ، وكان هؤلاء يوجدون له أجمل الآثار الفنية فى الخط والتذهيب والتجليد والتصحيف ، هذه الكتب التى كانت أوراقها فى منتهى النفاسة ورسومها ونقوشها فى أكمل الظرافة ، وتجليدهم فى غاية الجمال ، ولم يوجد مثلها حتى اليوم ، وقد تفرقت كتب مكتبات هذا الأمير الضخمة الآن فى سائر أماكن العالم ، وتحفظ بكامل الاحترام والتدقيق أينما وجدت .

(١) الأسرة البورجونية Maison de Bourgogne ، هى الأسرة الأولى من أولاد ملك فرنسا روبرت لوبركس Robert lePieux التى زالت عام ١٣٦١م ، والأسرة الثانية هى من نسل الملك جان لوبون Jean Le Ban التى انقرضت فى عام ١٤٧٧م .

أمارينيه وانجو Renéd'Anjau الملقب بلوبون Le Bon فهو دوق أنجو وبار ولورن ولد ١٤٠٩م ومات ١٤٨٠ ، واشتهر بحمايته وتشجيعه للعلوم الأدبية والفنون الجملية .

(٢) ويليام موريس William Morris هو الشاعر والرسام والمؤلف الإنجليزى المعروف من مشاهير الفنون الجميلة لهذا البلد ولد ١٨٣٨م ، ومات ١٨٩٦م .

وفى عهد حكم آل تيمور نسج أفضل سجاد إيران وأجمله ، وليس فى عهد الشاه عباس وفى بلاط هؤلاء الأمراء صنع أظرف وأجمل الأسلحة وأعمال العاج بدقة ونظافة لا يماثلها فى البلاد جميعًا مثل أو نظير ، وأفضل نماذج الفنون الإيرانية التى تظهر ألطف ذوق وفنون يدوية هو وليد هذا العصر ، أو أوائل العصر الصفوى الذى تلا عصرهم ، ولابد من العلم بأن ظهور الفنون الجميلة فى بلدان الشرق هو نتيجة مباشرة للنهضة التى كان يقيمها لهذه الفنون حكام تلك البلاد ، فقد أوجد بايسنغر وحسين ميرزا كل أعمال التذهيب البديعة التى كانوا يشجعون صناعها وفنانيها ، فإذا كانوا يريدون تذهيب خطوطهم ومرقعات خزائنهم ، كانوا يجمعون من كافة أطراف البلاد فى بلاطهم المذهبين الفنانين ؛ فإذا لم يظهر الشاه عباس ما ظهرت كل هذه المنسوجات الحريرية ، والمخملات النفيسة وإذا لم يكن السلطات سليمان خان (الكبير) يشجع هذه الفنون ما ظهرت أعمال القاشانى النفيسة التركية فى (أزنيق) ، وإذا لم يهتم السلطان أحمد ما كان ليظهر تلك النسخ القرآنية المخطوطة التى يبدو من صفحاته المقدسة النفيسة الخالدة هذا الذوق الجميل والفن البديع ؛ إذن ظهرت فى الحياة الفنون الجميلة فى بلاد الشرق ، أما فى القرن التاسع المسيحى فى بلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد أيضًا ، وكذلك فى مصر وإسبانيا (الأندلس) ، والخلاصة أن هذه القاعدة نفسها وجدت المصداق الكامل لها فى سائر بلدان المشرق ، ولابد من الأخذ فى النظر هذا المعنى فى دراسة تاريخ الفنون حتى يمكن فهمه جيداً ، لأن بدون الاهتمام بهذه المسألة ، فلن يفهم كثير من المسائل الفنية .

ولا يجب توقع أن الفنون تموت برحيل واحد من الملوك المشجعين لها ؛ لأن السلاطين إذا ماتوا فإن الفنانين يبقون ، ويلحقون بسلطان آخر ، وهكذا فإن الحركة التى ظهرت فى عالم الفنون بسبب الأمراء التيموريين ، ظلت من القوة ؛ بحيث إنها استمرت حتى أواخر القرن السادس عشر ، ولم يتابع الملوك الجدد لإيران وهم الصفويون الملك الحسن نفسها والسنة المستحسنة للتيموريين وحسب ، بل وآلاف الملوك والأمراء المجهولين ، الذى سكت عن ذكرهم التاريخ وأمروا بخط المخطوطات النفيسة التى تفوق وتفضل بمراتب الكتب المصنوعة فى القرن نفسه فى أوروبا .

علاقة إيران بالصين والهند

لابد من إفهام قارئى هذا الكتاب - الذى يحتمل أن يتصور أن العلاقات الدولية نشأت إلى حد ما فى القرون الحديثة ونتيجة مباشرة للتسهيلات الجديدة فى وسائل الاتصال الحالية - أن العلاقات والتنقلات فى هذا القرن بين البلاد الآسيوية ، كانت وثيقة وكثيرة وإلى أى حد ، كانت البلاد التى تفصل بينها مسافات طويلة وبعيدة على اتصال وثيق أحدها بالآخر ، فقد ذكر الكتاب النفيس لتاريخ مطلع السعدين ، الذى ترجم منتخبات منه فى ١٨٤٣م وطبعها كاترمير Quatremére الفرنسى [١] تفصيلات سفارتين من بلاط هراة إحداها إلى الصين والأخرى إلى الهند قص فيه رؤساء أعضاء هاتين السفارتين ما حدث لهم ، روى السفارة إلى الصين غياث الدين النقاش فقد تحرك من هراة فى ٤ ديسمبر ١٤١٩ م ، ووصل بعد عام وعشرة أيام مدينة بكين خانبالغ Cambaluc ، ثم عاد إلى هراة فى ٢ سبتمبر ١٤٢٢ م ، وتحركت سفارة الهند التى رافقها مؤلف مطلع السعدين عبد الرزاق السمرقندى نفسه من ميناء هرمز فى ١٣ يناير ١٤٢٢ م ، ثم عادت إلى الميناء نفسه فى ٢٠ أبريل ١٤٤٤ ، وقد شرح السفير نفسه فى مقالته الآتية مظاهر النشاط وكثيرة الخلق والجنسيات فى ذاك الميناء الدولى بقوله :

(هرمز هذه التى تسمى جرون ميناء وسط البحر " لا نظير لها على وجه الأرض" ويتجه إلى هذا الميناء تجار الأقاليم السبعة من مصر ، والشام ، والروم ، وآذربايجان ، وعراق العرب ، والعجم ، وبلاد فارس ، وخراسان ، وما وراء النهر ، وتركستان ، وبلاد دشت قيجاق البحر من الصين ، وجاوة والبنغال ، وسيلان ، ومدن زيرباد ، وتناصرى ، وسو قطرة ، وشهرنو ، وجزر ديفا محل ، حتى ديار الملابار والحبشة ، وزنجبار ، وموانى بيجنجر ، وجلبرجة ، والكجرات وكانبائيت Kanbait ، وساحل بر العرب ، وعدن ، وجدة ، وينبع بالنقائش ، والطرائف ، التى أبدعت صنعها الشمس والقمر ، وفيض السحاب راكبين البحر ، إلى هذه البلدة والميناء والمسافرون من حيث يأتون من أطراف العالم

(١) نقلاً من الكتاب المسمى :
Natices et extraits des Man us crits de la Biblio the Que du Roi
مجلد XLV ص ١-٤٧٣ .

وبكل مـا يأتون به يجـدون كل مـا يريدون فى تلك المدينة بدون بحث طويل ، ويتـعـاملون بالنقد وبالمقايضة معًا ، ولا يأخذ موظفو الضرائب الديوانية غير العشر من كل شيء ليس ذهبًا أو فضة ، وأصحاب الأديان المختلفة بل الكفار موجودون بكثرة في هذه المدينة ، ولا يتعاملون مع أى مخلوق إلا بالعدل ، ولهذا تسمى هذه البلدة دار الأمان ، وسكان هذه البلدة يتصفون بنفاق العراقيين ، وبعد نظر السنديين) [١] .

علاقة التيموريين بالسلاطين العثمانيين

سبقت الإشارة إلى المكاتبة ، والعلاقة لشاهرخ ، وأولاده بالسلاطين العثمانيين محمد الأول (١٤٠٢ - ١٤٢١م) ، ومراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١م) ، ومحمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١م) وبايزيد الثالث (١٤٨١ - ١٥١٢م) ، لكن هذه العلاقات لم تكن محدودة ببلاط السلاطين والأمور السياسية وحدها ، بل زاد عليها - حسبما تشير إليه الرسائل التى جمعها فريدون بيك المنشىء [٢] - مراسلات وحدت بين بايزيد الثالث ، ومولانا الجامى ، وجلال الدين الدوانى ، ومولانا أحمد التفتازانى ، فقد منح الجامى ألف فلورين [٣] من قبل السلطان العثمانى ومنح الدوائر خمسمائة فلورن ، ومع العطاء مراسم الأدب والتحية التى تليق ببلاط السلاطين العظيم [٤]، وفضلاً عن ذلك فقد التجأ بإسلام بول ابن حسين باقرا بديع الزمان حين هرب من أمام الأوزبك وعاش بقية حياته بها [٥] .

(١) نقلنا هذا النص من مخطوطة مطلع السعدين بمكتبة طهران الوطنية ، ورقة (٦١٠) .
(٢) المجلد الأول لمنشآت فريدون بيك ، ص ٣٦١ ، طبعة استانبول .
(٣) الفلورن Florin هو العملة الذهبية الرائجة في ذلك العصر .
(٤) فيما يتعلق بنفوذ الجامى وعلى شير النوائى فى الأدب العثمانى خاصة الشعر التركى راجع (تاريخ الشعر العثمانى) تزليف جيب ج ٢ ، ص ٧ ، وسيرة جاى تاليف حكمت المترجم طبعة طهران ، ص ٤٣ .
(٥) لم يفر بديع الزمان ولد حسين بايقرا إلى البلاط العثمانى بسبب الأوزبك بل إن هذا الأمير بعد هزيمة الشاه إسماعيل فى تشالدران وفتح السلطان سليم خان الأول لتبريز فى (٩٢٠هـ) ساخر فى تبريز إلى إسلامبول برفقة هذا السلطان ، وأقام بها ، وتوفى بها بمرض الطاعون (حبيب السير مجلد ٣ جـ ٣ ، ص ٣١٦) .

التراكمة القرة قوينلو وآلاق قوينلو

والآن ، وقد بينا الانحطاط المتزايد لآل تيمور ، يجب قبل شرح ظهور الصفويين وعلو أمرهم ، أن نتحدث بإيجاز عن أسرتى التراكمة أيضًا ، هاتان الطائفتان المطلق عليهما اسم ذوى الخراف البيضاء ، والخراف السوداء ، تشبه إحداهما الأخرى فى الأصل والعادات والتقاليد تمامًا ، أولاهما طائفة ذوى الخراف السوداء التى يسميها جوزيف باربرو البندقى (كره كويلو Cara Cailu) .

بيرم خواجة

استقرت هذه الجماعة فى آذربايجان من عهد تيمور ، ودخل أحد رؤسائهم المسمى (بيرم خواجة) ، وهو من قبيلة (بهارلو) خدمة السلطان أويس الجلايرى ، وبعد موته استولى بنفسه على الموصل ، وسنجار ، وأرجيس ، ولما مات فى ٧٨٢ هـ / ١٣٨١م ، خلفه ابنه (قرا محمد) ، وكان مثل أبيه فى خدمة السلطان أحمد بن أويس ، وقتل فى نهاية أمره أثناء حرب جرت بالشام فى ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠م مخلفًا ابنه (قرا يوسف) ، وهو أول من حصّل اسم الملوكية ولقبها من هذه الطائفة وجعل من تبريز دار حكمه .

قرة يوسف بن قرة محمد التركمانى القرة قوينلو

بعد صراعه المتكرر مع تيمور التجأ بالسلطان العثمانى (بايزيد) ، ثم استولى من بعد على بغداد ، وطرده عنه بعد هذا، بقليل حفيد تيمور ميرزا أبو بكر ، ففر إلى مصر ، وبرفقته ألف من صحبه ، فحبسه سلطان مصر خوفًا من نقمة تيمور ، لكنه بعد موت تيمور خلص من حبسه ، وجمع ثانية أتباعه ، وفتح ديار بكر ، وألحق بعد ذلك ، بقليل - أى فى عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م - الهزيمة بأبى بكر فى نجوان ، واستولى على تبريز وأعاد سيطرته على ولاية آذربايجان ، وبعد أربع سنوات ، قتل على مقربة من تبريز سيده القديم أحمد جلاير الذى شاركه سجن مصر بعد أن هزمه وفى عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م بعد استيلائه على المدن الثلاث المهمة الإيرانية ، ساوة ، وقزوين ، وسلطانية ، مات فى السنة التالية فى الخامسة والستين بعد

حكم أربع عشرة سنة [1] ، وقد بقى عنه خمسة أولاد ، تولى الحكم منهم إسكندر وجهان شاه بعده بالتوالى .

المراسلات الحكومية فى هذا العصر

كما أشرنا فى الفصل السابق فإن مجموعة الوثائق الرسمية للدولة العثمانية الموجودة فى منشآت فريدون بيك [2] لها أهمية تاريخية ، والمتعلق منها بهذا العصر عدد كبير ، منها مكتوب من السلطان أحمد جلاير يخاطب به السلطان بايزيد ايلدرم فى ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م يشرح تفصيل فراره من أمام جيش تيمور والجواب على هذا المكتوب المذكور ، فضلاً عن بضعة مكاتيب أخرى ، تبودلت بين السلطان محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) ، من ناحية ، وشاهرخ ، وقرة يوسف وإسكندر ، وخليل الشيروانى ، ومراسلات كذلك بين السلطان محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ) ، وجهان شاه وألغ بيك ، وبايسنغر ، وبهمن شاه الهندى ، واوزن حسن وحسين بن بايقرا ، وفى النهاية مراسلات كثيرة متبادلة مع السلاطين الأوائل للصفويين أى إسماعيل الأول وطهماسب .

وتحوز هذه المراسلات أهمية ، لا من ناحية أنها تلقى الضوء على الأحداث التاريخية لهذا العصر وحسب ، بل من قبل أنها تبرز العلاقات بين هؤلاء الملوك ، فمثلاً يجدر الاهتمام بأسلوب الإنشاء الخشن فى رسالة شاهرخ إلى محمد الأول ٨١٨هـ /

(١) يذكر عبد الرزاق هذه القطعة فى تاريخ وفاة قرة يوسف التى حدثت فى أوجان عام ٨٢٣ هـ ويضمن فيها قول حافظ :

لاتثق بالدنيا وأسبابها   لأن أحداً لم ير منها وفاءً
واتعظ بما حدث لأمير التركما   الذى ينظر من سيفه الدماء
كان الطفل يلفظ ثدى أمه خوفاً منه إذا ما سمع اسمه فى البيداء
ولما استولى فى النهاية على تبريز وبغداد والعراق حلت نهايته
صار تاريخ موته (حلت نهايته) والمؤكد أن من تحل نهايته لابد أن يموت
كل حى لابد أيرى يقينا ما رآه هو فى أوجاف

(٢) منشآت فريدون بيك المنشىء ، طبعة أستانبول عام ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م ، ص ٦٢٦ .

١٤١٦م ، سواء من ناحية إقلال ذكر الألقاب وألفاظ التشريف ، أو من ناحية اللوم والتوبيخ ، الذى ألقاه على السلطان العثمانى ، وقرعه على قتل إخوته سليمان وموسى وعيسى (مع أن هذا العمل ليس مذمومًا فى عرف العثمانيين ، لكنه مكروه فى نظر عادات الإيلخانيين) ، وطلب من السلطان العثمانى ألا يسمح لقرة يوسف باللجوء للعثمانيين ، وإجابة السلطان محمد لا يظهر منها اللهجة المعتدلة ، والمسالة وحسب ، بل وكتبت ، بغاية الأدب والتواضع ، خاطب شاهرخ بسلسة من الألقاب الفخمة ، واستشهد بشعر السعدى فى اعتذاره عن قتل أخوه القائل (ينام عشرة دراويش فى كليم واحد ولا يتسع إقليم واحد للملكين) ، وأبدى أيضًا أنه إذا أقنط قرة يوسف ، ولم يدعه يدخل الأراضى العثمانية ، ربما ولد الفوضى والاضطراب فى بلاد الحكام المجاورين مثل : القرامان ، وحميد ، واسفنديار ، وتورغوذ ، وذى القدر ، بل ربما يلتجىء بسلطان مصر (١) .

(١) نص خطاب شاهرخ إلى محمد الغازى وجوابه الواردين بمجموعة فريدون بيك (ج أ ، ص ١٥٠) هو :
(فليبلغ السلطان الأعظم مولى الملوك بين الأمم قاتل الكفرة وقامع الفجرة المجاهد فى سبيل الله الملك الأحد الملك والدين السلطان محمد أيده الله وأدامه وأناله الإحسان العظيم إنه قد وصل مسامعنا العلية أن سليمان بك تقدير العزيز العليم ، لكن هذا المسلك مع الأخوة المذنبين لا يبدو مناسبًا بموجب عادات الإيلخانين لأن الدولة لا تدوم أيامًا عدة إذا ارتكبت مثل هذه الأفعال بيت :

لاتؤذ نملة تجر حبة لأن بها روحا والروح عزيزة غالية

وهم أعقل منها ، ولا تجيز أحوالنا الهمايونية غير مدافعة غوغائية قرة يوسف وأولاده وهم ظالمون بلا دين وقطاع طرق أهل اليقين (وخز هذا الشول أيضًا من تلك الوردة حبيب الروح) فلعله يلتمس من سطوتنا القاهرة تلك فإذا ما وصل حدودكم قبضتم عليه وسلمتوه إلى يدنا المطالبة به ولا تقصروا فى أسباب المحبة بل تسعون فى إطفاء نيران الفتنة حتى لا يسبب زعزعة الأحوال للرعايا والبرايا ، وتحققون من باقى المشافهات من حاملها بورندق بهادر وتعيدونه على عجل وإسلام والإكرام ، كتب الأمر العالى أعلى الله شأنه فى أواسط ذى الحجة الحرام سنة ثمان عشر وثمانمائة ببلدة خوارزم" .

وإجابة السلطان محمد الغازى على شاهرخ

"يرفع المخلص المطيع الذى زرع بقليه دومًا حب الحب وعلق حلقة الملاة فى أذن روحه يد التفرع والدعاء ليلاً ونهرًا سرًا وجهارًا إلى الله جل وعلا لتمهيد قواعد السلطنة والسؤدد وتخليد السعادة والسرور للحضرة العالية منقبة الخلافة ملك بلاط الملك المعيذ الجليل الكسروى الريوان المنوجهرى العنوان الأفراسيابى الزمان شاهنشاه الأقاليم السبعة خلاصة الآباء التسعة .

ملك الأقاليم السبعة المستولى على المماليك عالم الكرم شاهرخ الموفق

=

لكن السلطان العثمانى غير أسلوبه مع سلطانى التركمان : أى قرة يوسف ، وابنه الإسكندر ، فقد خاطبهم ، كما يخاطب الأتباع ، والصغار ، وخاطبه الملوك التركمان بألقاب أفخم وأعظم .

وتخرج دراسة خطابات مجموعة منشآت فريدون بك عن دائرة هذا الفصل والكتاب ، لكننا سوف نشير إليها كلما عنت ضرورة إلى ذلك .

=

ضاعف الله قدره وشرح صدره وأعز جنده وزاد عمره ونصره وعجل له ذلك وبادر واقترن بالإجابة وضمن الاستجابة ... بالعباد) ، بعد تقديم الاحترامات الإيلخانية فقد وصل فى أفضل الأيام إلى هذا المحب المستهام الرأى المفروض من المجلس السخروانى الكوركانى الذى ختامه أمر فى هذا الخطاب المطاع وهو المصحوب مع ذى المجد والمعالى بورندق بهادر الخلكانى زيد قدره ورزقت سلامة ، ولما أشعرنا بصحة الذات الملكية شركنا الله ، نحن مطيعون للنصائح المقدمة بشأن إخوان الزمان لكن من بداية تباشير صباح الدولة العثمانية ، رحم الله أسلافهم ، وأيّد أخلافهم حلوا مشكلات الأيام بيد التجربة فى الأكثر ، وجعلوها نصب أعينهم ومنها أن السلطنة لا تقتضى المشاركة وليس فى هذا شبهة ، ويؤيد هذه الأحوال الأمنة المال الكلام اللؤلؤى الانتظام لصاحب الجلستان غفر له الله الملك الرحمن (ينام عشرة دروايش فى كليم ولا يتسع إقليم واحد لملكين) على الخصوص إن أعداء الدين والدولة ينتظرون أقل فرصة فى الأمر الجوانب وثبات الملك وزواله ليس بالتدبير بل يتعلق بالتقدير الإلهى وإن كان لا يحدث وهن بقوة الجيران المسلمين ذوى الأصل العالى فإن الفرصة والعياذ بالله تسنح للكفار الذليلة ويعلم معاليكم أن أكثر البلاد المفتوحة مثل سلانيك وغيرها خرجت عن قبضة المسلمين فى مرافقة جدى المستفيد بالغفران :

كيف نحكى عن قصة الفتنة يا صديقى أسأل غمزة الحبيب المتدلل

هذا ما يخص ما اخترتموه من زمور السلطنة والخير ما اختاره الله ، وعن أحوال قره يوسف فنحن فى حيرة فإن طلبنا العذر من أجله من بلاطكم فلربما لا يقع موقع القبول ، وإذا لم تسمح له بدخول بلادنا وقيل (كل من يأس من حياته افصح عن كل ما بقلبه) فلا بد أن يرتكب أنواع الفضيحة ويلحق بسلاطين مصر أيضًا ، ويتعطل أمر جهادنا بسبب شؤم كل من هؤلاء مع أن أسد الرجال الرومى لا يضار باجتماع أبناء أوى ، واليقين هو أن الأنشغال بالجهاد أنسب وأولى من مدافع أمثال هؤلاء الغوغائيين ، ولا مزيد عما كتبنا وأمركم هو الأعلى ".

ويلاحظ بعد ترجمة إجابة السلطان العثمانى ، خطأ براون فى فهم الجزء الأخير منه ، وعدم انتباه حكمت لخطئه ؛ إذ فهم أن قرة يوسف سوف يسبب إذا لم يلتجىء بالسلطان العثمانى المشاكل والفتن فى بلاد الحكام المجاورين له الذين ذكرهم ومنهم سلطان مصر ، والصحيح أنه سوف يتفق معهم جميعًا على الدولة العثمانية وسيسببون لسلطانها المشاكل فينشغل بهم عن الجهاد وهو الأولى خاصة بعد ضياع بلاد رومية وانتظار ضياع أخرى) (المترجم) .

الإسكندر القرة قوينلو

بدأ الإمير الاسكندر حكمه بحرب أجراها مع شاهرخ ، ومع أنه لقى فيها الهزيمة فقد رجع ، وتملك آذربايجان ، وفى عام ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م ، انتصر على شمس الدين ، صاحب أخلاط وعلى السلطان أحمد ملك الأكراد فى (٨٣٠هـ) ، وعلى عز الدين شير ، فضم إليه ما بين شيروان حتى السلطانية ، ولقى هو وأخوه جهان شاه مع ماليهما من كثير الوعى والشجاعة – هزيمة أخرى من شاهرخ [1] ، وبعدها بستة أعوام أى فى عام ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م ، توجه شاهرخ ثانية قاصداً آذربايجان ، وتقدم حتى الرى ، وفيها انضم إليه جهان شاه أخو الإسكندر ، وابن أخيه شاه على ، ففر الإسكندر ، ففوض شاهرخ ملكه إلى أخيه جهان شاه نظير طاعته له وتحصّن إسكندر بقلعة وأثناء استعداده لمقاومة الحصار أهلكه ولده قباذ بتحريض من جاريته (ليلى) .

جهانشاه [2]

لما خلا عرش بلاد غرب إيران من الإسكندر اعتلاه جهانشاه ، بمعاضدة شاهرخ وبأمره فى ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥م ، ثم وسع من ملكه الموروث ، ففى عام ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م

(١) الهجوم الثانى لشاهرخ على آذربايجان رغم أنه انتهى بقرار الإسكندر، لكن لم ينل منه شاهرخ شيئًا وخرجت ولاية آذربايجان فى الواقع عن سيطرته ، وذكر دولت شاه فى ذلك (ص ٣٩١) : مع أن السلطان شاهرخ آذربايجان فى الواقع عن سيطرته وذكر دولت شاه فى ذلك (ص٣٩١) : مع أن السلطان شاهرخ آذربايجان على أولاده وكبار أمرائه لكنهم لم يقبلوها خوفًا من الإسكندر فتركت هذه البلدة بلا انتظام وعاد إلى عاصمته ؛ فكتب شاعر هذا البيتِ وفق هذه الحالة :

هاجم الإسكندر جيش الشاه وفَرَّ   فاستولى شاهنا على البلدة وهرب

(٢) وصلنا أثران عن ميرزاجهان شاه هما:

(أ) الغزل التالى الذى يشير إلى أن جهان شاه كان ينظم الشعر متخلصاً بـ (حقيقى) (راجع دولت شاه ص٤٥٩) وقد ورد هذا الغزل فى تاريخ (تكملة الأخبار) تاليف على بن عبد المؤمن الذى ألفه باسم الملكة بريرخ خانم ابنة الشاه طهماسب الصفوى فى ذيل تاريخ خوزستان (مكتبة حاجى حسين أنما ملك) وننقله هنا بنصّه :

أيها الساقى لا يمكن الاعتماد على دار الغناء هذى   فهات الخمر فلا يمكن تغيير القضاء
لايمكن تشييد منزل فى معبر سيل الفناء   ولا يمكن التفكير فى الخلو بهذه الدار القديمة
فيا ملك الحسان إنك لا تقبَلنى بسبب أن هذا القدر لايمكن   من أجل الله (؟)
ولما لم يصبح طاق حاجبك محراب قلبى   فلا يمكن الدعاء بإخلاص يا ملكى الوجه
ولما وصل عمرك ياحقيقى إلى نهاية   فلا يمكن علاج أمره بكل حكمة لقمان =

هاجم العراق العجمى ، وأعمل السيف فى كافة أهالى أصفهان ، وسيطر كذلك على فارس وكرمان ، وفى عام ٨٦٢ هـ ، استولى على خراسان ، وجلس على عرش هراة فى شعبان من العام نفسه وظل بها نصف العام ، حتى قصده حفيد تيمور أبو سعيد مهاجما ، وبلغه إذ ذاك أن ابنه حسن المحبوس فى أذربايجان فر ، ورفع علم التمرد على والده ؛ فاضطر إلى مصالحة أبى سعيد وعجل عائداً إلى غرب إيران ، ويقال إنه كان يطوى اثنى عشر فرسخًا ، ومات فى عودته هذه عشرون ألف جمل ، وعشرة آلاف حصان ، وبعد قمع ابنه حسن ، أعلن ابنه الآخر بيربداق تمرده عليه فى بغداد بعد أن عزل من حكومة فارس وتولى حكم بغداد ؛ فاضطر جهان شاه إلى مقاتلته هو الآخر ، وحاصر مدينة بغداد سنة كاملة إلى أن تمكن منه ، وقتله [١] ؛ وفى ذاك التاريخ امتدت حدود مملكته من حدود الأراضى العثمانية ، غرباً إلى العراق وخليج فارس وكرمان شرقا ، واشتمل ملكه على سائر بلاد إيران باستثناء خراسان وطبرستان .

=

(ب) فى حوزة محمد شفيع جهانشاهى متولى الديوان الملكى الآن فرمان من ذاك الملك ، والذى ينتهى نسب شفيع إليه من ناحية أمة ، وموضوع الفرمان إرجاع نقابة السادات وتولية أوقاف ضريح معصومة قمم لأحد السادات الرضويين واسمه كما يذكره هو (المرتضى الأعظم الأكرم ملك السادات والنقبا سليل الأمام على بن موسى الرضا السيد أحمد نظام الملة والدين) ، ويذكر فيه أنه بموجب أوامر السلاطين الماضين خصوصاً (الخاقان السعيد شاهرخ ميرزا وهو الإمضاء النافذ لفرمان السلطان المرحوم المبرور الأمير تيمور كوركان أنار الله مرقدهما .. فوّض منصب نقابة السادات وتولية أوقاف الروضة المنورة والتربة المقدسة لبنت الأمام المعصومة سمية فاطمة عليها ، وعلى آبائها التحية والسلام .. للآباء العظام والأجداد الكرام للجناب المشار إليه ... إلخ) وهذا الفرمان بخط التعليق الواضح وكتبت فى صدر الفرمان بالثالث المذهب : (بالقدرة الكاملة الأحدية والقوة الشاملة الأحمدية لأبى المظفر جهان شاه بهادر سوزمز) وبآخره (تحريراً فى سابع وعشرين جمادى الأولى سنة سبع وستين وثمانمائة) ، ومهر ذيله بخاتم جهانشاه وفيه كتابه (من عدل ملك - جهانشاه - من ظلم هلك) . وبظهر الفرمان أختام عدة هى فيما يبدو ولعمال المالية والوزراء .

(١) كما ذكرنا فقد كان لجهان شاه طبع الشعر ، ونظم أشعاراً عديدة أثناء ثورة بيربداق فى بغداد وأرسل به إليه فأرسل ابنه إليه جواباً بالشعر على الوزن والقافية نفسهماوالقطعتان واردتان بتذكرة دولت شاه (طبعة لندن) ، ص ٤٥٩ .

وفى عام ٨٧١ هـ / ١٤٦٧م هاجم حسن بايندرى المعروف بأوزون حسن ، وقصد فتح ديار بكر ، التى كانت بلاده ، لكنه ابتعد عن جيشه أثناء الصيد ، وغافله عدوه وقتله ، وأسر ولداه أيضًا ، وقتل كثير من أمرائه ورجاله ، ونظم تاريخ هذه الفاجعة فى الشعر الآتى ، ويحسب نهاية بالجمل (٨٧٢) سنة قتله :

جـيش جـهـان شـاه بهـادر نويان	بكل مـاله من أسـباب العلو والقـوة
نفـرق شـمله فى ثانى عـشـر من ربيع	الثـانى وتاريخ ذلك (قـتله حـسن بيك)

ذم أخلاقه منجم باشى [1] المؤرخ التركى ، ووصفه بسوء السيرة ، وسفك الدماء ، والظلم وسوء الفعال ؛ إذ كان ميالاً إلى الكفر والفجور والزندقة وضاربًا بالأوامر الإلهية عرض الحائط ، وكان يقضى لياليه حتى الصباح ، فى الفسق والفجور ، وينام من الصباح إلى المساء ، ولهذا سمى (بالخفاش) [2] مات فى السبعين ، بعد حكم اثنين وثلاثين عامًا ، ودفن فى تبريز .

حسن على بن جهان شاه وانقراض حكم القرة قوينلو

خلف حسن على جهانشاه أباه ، وكان فيما سبق أن سقط من نظر أبيه ، وحين هرب منه لجأ إلى أوزون حسن ويقال إنه أصيب بالجنون من طول سجنه ؛ فلم يستطع أن يحافظ على انتظام ملكه ، وسرعان ما هرب من تبريز دار حكمه من أمام أوزون حسن إلى همدان ، فتعقبه أوزون حسن وأسره ، وقتله أقورلو محمد ، ولد أوزون حسن فى ٨٧٣ هـ / ١٤٨٦م ، وانتهت بقتله الأسرة القرة قوينلو ، وحكمها وجلس على عرشهم أسرة تراكمة الآق قوينلو .

(١) راجع تاريخ منجم باش (صحائف الأخبار) الجزء الثالث ، ص (١٥٠) ، طبعة إسلام بول - ١٢٨٥ هـ .
(٢) أحكام منجم باشى الذى كان سنيًامتعصبًا على جهان شاه ، الذى ينسب إلى التشيع ربما تكون مغرضة ، وقد ذكر خلاف ذلك غيره من المؤرخين .

الأسرة الآق قوينلو

المركز الأصلى لنشاط أسرة آق قوينلو ، أو التركمان البايندرية هو ديار بكر ، وأول أمير معروف لهذه الطائفة هو بهاء الدين قرة عثمان الملقب أيولك (دودة العلق السوداء) ولقب بهذا لإفراطه فى سفك الدماء وحصل على شهرته وصيته ، ولما هزم منافسه قرة يوسف قرة قوينلو ، هرب أمام حسد أخويه الأصغر منه وهما : أحمد ، وبير على ، وعجل إلى بلاط القاضى بهاء الدين فى سيواس[1] ، وفى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م ، أقدم قرة عثمان على قتل مضيفه القاضى بهاء الدين واستولى على ولايته ، لكن حين علم أن الجيش العثمانى بقيادة الأمير سليمان قادم إلى سيواس ، وأرزبجان ، ركن إلى الفرار ، وأثناء هجوم تيمور على آسيا الصغرى والشام ، دخل فى خدمة تيمور فكافأه بحكم ديار بكر ، ولم يمض وقت طويل حتى عاد قرة يوسف إلى أذربايجان بعد إطلاق سراحه من سجن مصر ، فبدأ قتال قرة عثمان ، لكن الموت صرعه كما سلف فى ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ، وخلفه ابنه الإسكندر ، وانهزم الإسكندر فى السنة التالية من جيش شاهرخ بدوره ، ومات قرة عثمان فى ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ ، وخلفه ابنه على بيك ، وتمرد ابنه الآخر حمزة على أخيه وفر لاجئًا إلى السلطان مراد الثانى العثمانى .

جهانجير - أوزون حسن

خلف على بيك ابنه جهانجير ، لكن أخاه أوزون حسن الحفيد الآخر لقرة عثمان ، بما أنه يفضله عزمًا وكفاءة تغلب عليه فى ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م [2] ، ويعد أقوى أسرة آق قوينلو وأشهرهم ، وجلس على عرش آمد فى ديار بكر ، فى السنة المذكورة ، وهى

(١) ورد شرح جامع عن القاضى بهاء الدين الذى كان رب السيف والقلم معًا فى • تاريخ الشعر العثمانى تأليف جيب ج ١ ، ص ٢٠٤ ، وكذلك ذكره شيلبرجر Schitberger فى كتابه (Bondage and travel) الذى نشرت ترجمته الإنجليزية جمعية هكلويت عام ١٨٧٩ ، كما ورد ذكر قرة عثمان فيه أيضًا .

(٢) راجع فى التاريخ السياسى لعصر أوزون حسن تحقيقات ومقالات العالم المعاصر البروفيسور فلاديمير مينورسكى V.minorsky المستشرق العالم بأى ران والمحب لها الذى له عن تاريخ تراكمه الآق قوينلو دراسات قيمة ومفصلة خاصة مقالتين الآتيتين فى دائرة المعارف الإسلامية تحت (Uzun Hasan) – ثم مجموعة مقالات (جمعية الدرسات الإيرانية Société des Etudes Iraniennes, Paris, 1831)
"La Perse au Xve siècle, entre l'Empirire Qttoman et Venise, Paris, 1933"

السنة التى فتح فيها محمد الفاتح أيضاً القسطنطينية ، وكان الرعب والفزع قد عم سائر أوروبا ، خاصة إيطاليا ، بسبب ظهور قوة العثمانيين وبطولتهم ، فبعث ذلك إلى توافد السفارات المختلفة من البندقية إلى إيران فى محالة لإثارة أوزون حسن على الأتراك ، على أمل تجميع أسباب القلق للسلطان العثمانى فى جهة الشرق ، فيمتنع عن مداومة الفتوح والحروب فى الغرب ، وبهذا المنوال فقد ظهرت أهمية (المسألة الشرقية) من جديد ، بعد أن هدأت فترة بعد إرسال سفراء إيطاليا إلى بلاط المغول فى قراقوم ، للمقصد نفسه وصار اكتساب ود الملوك الإيرانيون منظور نظر الدول الكبرى الأوروبية ، وقد خلف هؤلاء السفراء البنادقة وصفًا لرحلاتهم إلى إيران ، ووصفوا هذا البلد ضمن شرح وقائع رحلاتهم بنحو يلقى شعاعًا على أوضاع هذه الفترة المظلمة ، ويصف أيضاً أخلاق أوزون حسن وعاداته أثنى أحدهم المسمى رامزيو (Ramusio) فى مقدمته على رحلة كاترينو (catreno zimo) على أوزون حسن ووصفه بجلال القدر بل يقول : (لم يكن بين ملوك مشرق الأرض منذ تحول الحكم من الإيرانين إلى اليونانيين من يماثل فى العظمة والجلال الملك دارا الأخمينى وأوزون حسن) ، ثم يضيف : (مما يؤسف له أن بعض سلاطين الشرق المتميزين بالقوة والعقل عدموا المؤرخين الذين يسجلون أعمالهم البطولية ، فقد ظهر رجال بين سلاطين مصر ، وبين ملوك إيران ، لم يتفوقوا على الملوك السفاكين ، القدماء فى الكفاءة والقتال ، وحسب بل سبقوا كذلك القواد المشاهير اليونانيين والرومان فى فنون الضرب والطعان [١] ، ثم يتحدث بعد هذا فى مدح أوزون حسن والثناء عليه قائلاً : (وأوزون حسن ، الذى كان ملكًا فقيراً . وأدنى مرتبة ومقاماً من بقية إخوته ، ولم يكن لديه أكثر من ثلاثين فارساً وقلعة صغيرة ، وصل بشجاعته وكفائته إلى درجة أنه انبعث منازعًا ومنافساً فى عظمته ، الأسرة العثمانية ، التى أشاعت الفزع فى الشرق ، فى عهد حكم السلطان محمد الثانى ١٤٥١م - ١٤٨١م).

ويقول كونتريني Contreni يتناول البندقى [٢] ، الذى كان لدى أوزون حسن فى عام ١٤٧٤م : (يشرب الخمر وهو يتناول طعامه ، ويبدو أنه رجل حسن الطباع ، ويسر من صحبتنا واستضافتنا على سفرته ، ويحضر دومًا لديه جماعة من الموسيقيين ، والمطربين ، يعزفون ويغنون وفق هواه ، وينتشى هو بالسرور والسعادة ، وهو رجل نحيف

(١) راجع كتاب Narrative of Italian Travels in Persia طبعة جمعية هكلويت ، ١٨٧٣ م ، ص ٢ .
(٢) راجع كتاب (Travels Tana and Persia) طبعة وترجمة الجمعية السابقة نفسها ، ص ١٣٢ .

القوام طويل القد ، وتظهر على جبهته قليلاً من السحنة التتارية ، وهو قمحى اللون ، وحين يشرب الخمر ترتعش يداه ، ويبدو أنه فى السبعين من عمره [1] ، ويميل إلى اللهواء والمتعة بنحو غير متكلف ، لكن حين يتجاوز الحد يصبح خطيرا وهو أمير حسن الطبع بوجه عام) .

لم أصادف مثل هذا الوصف الواضح لهذا الرجل المهم فى أى من كتب التاريخ الشرقية ، لكن منجم باشى [2] فى كتابه صحائف الأخبار ذكر وصفًا له فى قوله : (كان سلطانًا عاقلاً ، وعادلاً ، وشجاعًا ومتقيًا ، ومتدينًا ، ومحبًا لأهل العلم والصلاح ، وراغبًا فى أعمال الخير والمرافق العامة وبنى أبنية كثيرة بنية الأغراض الدينية ، كما ذكر ، فقد هزمَ بجيش قليل ملكين كبيرين هما ، جهان شاه وأبو سعيد ، وحصّل من جرجان (جرجستان) الخراج ، وكان يتحكم على جميع بلاد آذربايجان ، والعراقين ، وكرمان ، وفارس ، وديار بكر ، وكردستان وأرمينية) .

ويتحدث المؤرخ نفسه عن حمايته للعلماء والأدباء فيقول : (جعل تبريز دار حكمه ، وجمع من البلاد المجاورة ، والقاصية كثيراً من العلماء وأملهم عنايته واحترامه الخاصين ، وأحد أشهر أولئك العلماء والأدباء ، والذى لقى منه العطايا والإحسان الكبير ، على القوشجى الذى عبر بلاده حين كان يعود من مكة)[3] .

(١) ذكر منجم باش أن عمره أربع وخمسون سنة وقت وفاته عام ١٤٧٧م .
(٢) راجع صحائف الأخبار لمنجم باشى ج٣ ، ص١٦٥ .
(٣) علاء الدين على بن محمد القوشجى المتكلم والأديب والمنجم المتوفى ٨٧٩هـ ، ولعبت بهذا اللقب لأن أباه كان مدرب صقور الصيد لدى ألغ بك ، بعد أن أنهى تعليمه فى سمر قند رحل إلى كرمان وألف بها شرحًا على كتاب تجريد الكلام فى تحريرى عقائد الإسلام تأليف الخواجة نصير الدين الطوسى ، وصوره باسم أبى سعيد التيمورى ، وشارك ألغ بك فى سمر قند بأن يعود إلى القسطنطينية بعد تنفيذ أمر السفارة فلما عاد عينه فى منصب التدريس فى مسجد أريا صوفية ، وعمل بها فى تصنيف الرسائل الفارسية والعربية العديدة ، راجع فى تزليفاته العربية تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج٢ ، ص ٢٣٤ ، وفى تأليفاته القادسية فهرس ربيه ج٢ ، ص ٤٥٦ .

وتزوج أوزون حسن فى شبابه وإمارته لديار بكر امرأة مسيحية ، هى دسبينا خاتون [1] ابنة (كالوجون) آخر امبراطور مسيحى لطرابزون ، وينتسب إلى الأسرة الكومننية . وولدت له هذه المرأة ولداً ، وثلاث بنات ، تزوج الشيخ حيدر والد الشاه إسماعيل الأول بواحدة منهن ، والمسماة مارتا خاتون .

المصادر التاريخية لهذا العصر

الوقائع التى ذكرها مير خوند ، وسائر المؤرخين الإيرانيين عن أسرتى القرة ، والآق قوينلو كثيرة الإيجاز غالبًا وغير وافية ، وأكمل التواريخ التى تزودنا بحكم أوزون حسن ، هو صحائف الأخبار لمنجم باشى (ج ٣ من ص ١٥٧ - ١٦٤) ، وبعده المصدر التركى الآخر الذى يقدم معلومات وفيرة ، وهو مجموعة منشآت فريدون بيك (ج ١ من ص ٢٧٤ - ٢٨٦) مع قلة ذكر تاريخ السنوات فى بعض تلك المراسلات ، التى تبودلت بين أوزون حسن ، ومحمد الفاتح ، وهو نقص يؤسف له ، وكتب رحلات السفراء الإيطاليين ، وغيرهم ، التى أشرنا إليها فيما سبق ، مصادر كثيرة القيمة أيضًا[2] .

وتفيض الثلاث سنوات أو الأربع سنوات من حكم أوزون حسن (١٤٥٣ - ١٤٥٦م) غالبًا بذكر أحداث الثورات المتوالية ، لأخوة حسن ضده خاصة جهانجير ، وكانت مواضع هذه الصراعات التى كان مسببها (سراى خاتون) أم إخوته - غالبًا خارج إيران ، وفيما حول ديار بكر والموصل ، وخاصة ماردين ، فكانت هذه الحروب تخرب هذه البلاد وتهدمها ، واستعاذ جهانجير بملك القرة قوينلو ، أى جهان شاه منافس أسرته واستمده ، وحين خرج فى ذاك الوقت ثانية أوزون حسن قاصداً خراسان ، أجبر على العودة ، لقمع تمرد أخيه جهانجير ، الذى كان يتلقى المدد من جهانشاه ، وكان جهانشاه

(١) راجع كتاب (رحلة تاجر إيطالى) الآنف الذكر ، ص ١٧٨ ، ويصف هذا المؤرخ تلك المرأة بقوله : كانت كثيرة الحسن بل تعد أجمل نساء عصرها وشهرة حمالها وحسنها عمت بلاد إيران كلها) .

(٢) ألف مولانا أبو بكر الطهرانى تاريخًا خاصًا ومفصلاً عن التراكمة ولم أعثر عليه - للأسف - حتى الآن رغم جهودى البليغة .

قد أرسل أميراً اسمه بيك لمعاونته ، وأخمد حسن هذا التمرد بالقرب من سواحل الفرات ولقى المتمردون هزيمة فادحة وغرق كثير منهم فى النهر وذبح خمسمائة أسير من بينهم رستم بيك نفسه ، مع ذلك صرف نظره عن قتل أخيه جهانجير وأويس ، أخويه بشفاعة والدته ، لكنه اصطحب على خان ابن جهانجير معه إلى أرزنجان كرهينة .

سفارة أوزون حسن إلى بلاط محمد الفاتح

بعد هذا النصر الذى قدر لأوزون حسن عام ٨٥١ هـ / ١٤٥٦م زاد جلاله وقدرته فخضع لحكمه كثير من أمراء آسيا الصغرى والشام ، وفى حدود عام ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م انتزع حصن كيف من الأيوبيين ، ونصب ابنه خليل الله ميرزا حاكماً عليه ، وفى العام نفسه ثار حسن على على والده جهانشاه ، والتجأ إلى أوزون حسن ؛ فاستقبله أولاً ، ثم طرده بعد ذلك ، بتهمة العقيدة الباطلة المنسوبة إليه ، وفى حدود عام ١٤٣١ م أرسل مراد بيك ابن أخيه سفيراً إلى إسلامبول [١] ، وكان السلطان إذ ذاك هو محمد الثانى الفاتح ، كان حسن يلتمس تخليص حميه كالجون إمبراطور طرابزون ، لكن السلطان العثمانى لم يهتم لطلبه ، وهاجم طرابزون ، وسيطر عليها ، وفى ذاك الأوان ، كان ديفيدكومنناس ، قد حل مكان أخيه الأكبر كاولجون ، وفى حكم هذه الناحية ، واقتاد معه آخر ممثل لحكم بيزنطة إلى إسلامبول ، عامله باحترام ، كما يذكر جيوفان ماريا انجيولتو ، لكنه مات فى النهاية فى السنة ١٤٦٢م نفسها [٢] .

وتاريخ الحروب بين أوزون حسن ، والسلطان العثمانى مضطرب ومختلط ، يقول منجم باشى إن أوزون حسن قبل أن يبدأ هجومه الأول على جرجان فى ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م ، ظهر بينهما خلاف بسيط فأرسل سفارة برئاسة خورشيد بيك إلى السلطان العثمانى محمد الثانى ، والتمس منه أن يصرف نظره عن مهاجمة طرابزون ، لكن السلطان كما سبق القول كان فتحها فى ١٤٦١ م .

(١) ذكر عبد الرحمان بيك شرف فى كتابه تاريخ الدولة العلية أن أوزون حسن أرسل أمه ساراخاتون فى سفارة إلى إسلامبول ، ويبدو أنها هى سراى خاتون التى ذكرت آنفاً .

(٢) راجع (رحلة تاجر إيطالى) ، ص ٧٤ .

هزيمة جهانشاه قرة قوينلو وقتله

فى أول ربيع الثانى ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م ، جرت بالقرب من خوى بأذربايجان حرب لجهانشاه مع أوزون حسن ، ولما ابتعد الأول بقصد الصيد عن حراسه ؛ انتهز الثانى الفرصة وهاجمه وقتله ، فصل عنقه عن جسده ، وأرسله إلى أبى سعيد التيمورى بخراسان ، ودفن جسده فى قبر والده قرة يوسف ، ثم ضمّ على إثر ذلك العراق وأذربايجان إلى ملكه ، وحاصر بغداد ، وتتعلق أول رسالة له إلى مراد خان فى منشآت فريدون بيك بهذا الفتح ، وفى هذه الرسالة راعى كمال الأدب والاحترام خلافًا لرسائله التالية ، لكن يبدو أن السلطان لم يهتم بهذه الرسالة ، وتشير الرسالة الثانية لحسن إلى محمد الفاتح والتى بغير عنوان للأسف إلى أهم واقعة وفتح حدث له ، أى يذكر هزيمة حسن على ولد جهانشاه قرب مرند .

فقد نهض هذا الأمير – الذى سبق أن احتمى به منذ سبعة أعوام – لحربه انتقامًا لقتل زبيه فاستنجد حسن أبا سعيد التيمورى وذكره بطاعة أسرته القديمة للأسرة التيمورية وخيانة وعداء القرة قوينلو القديمة لأسرته ، وفى مقابل هذا المدد والعون ، كان يعده بإعطائه العراق بشرط أن يملكه أذربايجان ، فلم يقبل أبو سعيد هذا الاقتراح بل أعد جيشه بحجة القصاص لقتل جهانشان وهاجمه ، لكنه لقى الهزيمة وأسر هو وولداه محمد وشاهرخ ، فسلمهم حسن إلى يادجار محمد حفيد شاهرخ ، فقتل هذا أبا سعيد انتقامًا لمقتل جدته جوهر شاه خاتون .

وصف حبس أبى سعيد وقتله بقلم سائح بندقى

يشير السائح البندقى كونتارينى ، الذى استقبله أوزون حسن فى أصفهان فى ٦ نوفمبر ١٤٧٤ م ، إلى ستارة منقوشة توضح قتل السلطان أبى سعيد ، وكيف أن أغورلو محمد ابن أوزون حسن ، غلّل عنقه بحبل ، وأتى به إلى مكان وقتله ، وهذه الستارة كانت بحجرة كان أوغلورلو محمد ، قد بناها ، وأرسل جسد أبى سعيد إلى خراسان بناءً على التماس أمه ، والتى كانت أسيرة أيضًا ، ودفن بها باحترام وتجليل .

ويعلن أوزون حسن فى رسالته التى بعثها إلى محمد الفاتح يخبره بهزيمة حسن على وجيشه المؤلف من ثلاثين ألف جندى ، أنه فتح آذربايجان ، والعراق ، وفارس ، وكرمان ، ويروم بعد ذلك أن يجعل من تبريز عاصمة له ، وقد أرسلت هذه الرسالة فيما يبدو عن طريق رسوله الذى يدعى سيد أحمد طغان وغلو .

وفى الرسالة الثالثة لأوزون حسن ، التى قلل فيها عن رسالتيه السابقتين مراعاة الاحترام للسلطان العثمانى يذكر فيها أن الرسول العثمانى (أمير بيك) قد أتاه ، ويقص فتح فتحه بعد شرح المفاوضات ، والمخاصمات التى كانت بينه وبين حسين بايقرا ، وهزيمة الأخير ، ويبين كيف قسم ونظم ولاياته ، ويعلن كذلك عن فتح خرم أباد من لرستان ، وهذه الرسالة غير مؤرخة ، وفى الرسالة الرابعة - وهى أيضًا بدون تاريخ - خاطب السلطان محمد الفاتح بكل إهانة وتحقير بلقب (قدوة الأمراء شمس الدين محمد بيك) ، وسمى شيراز التى كان قد فتحها حديثًا مقر سرير سلطنته ومسند خلافته ، كما أشار إلى فتح خوزستان .

ويصدر جواب من السلطان العثمانى على هذه الرسالة يمتزج بأقصى درجات الغضب والحنق ، وسمى نفسه مفتخرًا « ملك العظماء السلطان محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد » ، ويخاطب خصمه بلفظة «أنت» ، ويذكره بألا يغتر بإقبال الزمان المؤقت عليه ، ويهدده بأنه سيهاجمه فى آخر شوال ، وفى الأوان نفسه أرسل إلى ابنه الأمير سلطان مصطفى حاكم قرامان رسالة يأمره فيها بالحملة على أوزو نحسن ، ويصفه بهذه العبارة أنّ (أوزون حسن يستأهل الأسر والشنق) .

ويوجد رد مصطفى على أبيه ، ويقول فيه كيف هزم بفضل ربِّه (جدك أحمد باشا) جيش أوزون حسن ، بالقرب من قونيه فى ١٤ ربيع الأول ٨٧٧ هـ ، وأهلك أولاده يوسف ، وزينل ، وعمر[١] وتضاف إلى ما سبق رسالتان أخريان ، اندرجتا فى منشآت فريدون بيك وهما تفسير للرؤيا التى كتبها الشيخ آق شمس الدين بالعربية .

(١) راجع منشئات فريدون بيك ج ١ ، ص ٢٨٠ ، لكن يظن الخطأ فى تاريخها (٨٧٧هـ) ، ويبدو أنه (٨٧٩) .

أسباب خصومة العثمانيين لأوزون حسن

توضح بجلاء أحداث حروب أوزون حسن مع العثمانين ، بالنحو الذى ذكره السواح البنادقة مثل كاترينوزينو ، وجيوفان آنجليتو ، ومؤلف كتاب رحلة تاجر بندقى فى إيران فضلاً ، عما ذكره المؤرخ ، مثل منجم باشى ، وعبد الرحمن شرف بيك ، وإن لم يكن بالتفصيل فى ذكر تواريخ الأيام والسنين ، ولكن بوجه عام توضح أسباب هذا النزاع بين الطرفين ، ووقائعه ، فعلاوة على الصلف والتكبر المتزايد ، لأوزون حسن الظاهر من رسالاته المذكورة آنفًا ، فقد شكى السلطان العثمانى من جاره هذا لأمور وأسباب أربعة هى :

١ - مفاوضاته مع جمهورية البندقية بهدف الهجوم المشترك على العثمانيين من ناحية الشرق والغرب .

٢ - هجومه على جهانشاه قرة قوينلو التركمانى ، الذى انتهى بقتل الأخير ، وكذلك على على حسن بن بايقرار التيمورى ، وكان لهذين الاثنين علاقات مودة مع محمد الفاتح .

٣ - وعوده للإمبراطورية المسيحية طرابزون ، وكان يحثهم على مواجهة الاعتداء العثمانى .

٤ - انحيازه إلى بير أحمد ، وحمايته له ولسائر أمراء أسرة قرامان ، وكانوا الخصم القديم ، والعدو التقليدى لآل عثمان .

الحرب بين العثمانيين وإيران

تبرز هذه الحرب التى بدأت فى ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م ، وتنتهى فى ٨٧٨ هـ / ١٤٧٤م حالتين منفصلتين ، كان فى الأولى النصر حليف الإيرانيين ، وفى الثانية الظفر نصيب الأتراك ، ففى الحرب الأولى التى حدثت على سواحل الفرات قرب ملاطية ؛ انتهت بهزيمة العثمانيين ، بسبب الهجوم المتهور لمراد باشا حاكم (الروميلى) ، وهلك كثير

منهم فى مستنقعات الفرات فضلاً عما قتل فى ميدان الحرب ، وقتل اثنى عشر ألف رجل ، كان من ضمنهم كثير من ذوى المراتب العالية ، ظهروا مساء يوم العرض ، ويذكر أنجليتو البندقى ، الذى كان نفسه فى معسكر الأتراك ، أن الأتراك أفاقوا من هذه الهزيمة ، وصمموا على الانسحاب بجيشهم إلى داخل بلادهم من أقرب طريق ، فتقهقروا إلى طرابزون ، وسلكوا الوادى الذى جرت فيه أحداث الحرب الثانية . وحدثت هذه الموقعة الكبرى فى أواخر شهر أغسطس ١٤٧٤م وانهزم جيش أوزون حسن تماماً ، وقتل ابنه زينل ، ووقع قدر عظيم من الغنائم بأيدى الفاتحين ، وأصبح الأمير مصطفى خان بسبب هذه الحرب معروفًا وجليل المكانة ، ويذكر المؤلف نفسه : (لو كان أوزون حسن قد قنع بنصره الأول ؛ لعاد الأتراك يجللهم الخزى العظيم ، وما فقد هو ما اكتسب من الأراضى) [١] ، ويذكر عبد الرحمن شرف بيك فى (تاريخ الدولة العلية) أن هذه الهزيمة قلبت تاج دولة أوزون حسن ، وضمنت الأمن على حدود البلاد السلطانية نحو ثلاثين عامًا [٢] .

وعاد أوزون حسن بعد ذلك إلى تبريز وانشغل بالقنص وقنع بما فى يده من البلاد المضمومة ، وتناسى هزيمته ، لأنه لم يفقد بسببها شيئًا من بلاده الأصلية ، لكنه لم يهدأ فى راحة بسبب ثورة ابنه السلطان العثمانى الذى كان قد استولى على شيراز .

إذ إن أغورلو محمد لما سمع بأن أباه قادم إليه بجيش جرار فر إلى القسطنطينية فلقى بها الإعزاز الكبير من السلطان العثمانى ، ووعده بأن يجلس على عرش إيران بدل أبيه عدو السلطان ، وعاقب أوزون حسن بالمكر والحيلة ابنه بسبب عقوقه إذ تراءى أولاً بالمرض ؛ ثم أشاع نبأ وفاته .

تدبير أوزون حسن للقبض على ابنه وقتله

يحكى أنجليتو : (ذاع خبر فى هذه الأثناء ، وبلغ القسطنطينية أن أوزون حسن أصيب بمرض مهلك ، بسبب حزنه وألمه من تمرد ابنه ، وانتشرت شائعة بأن مرضه

(١) راجع الفصل السابع من (روايات انجيلتو) طبعة جمعية هكلويت ص ٨٨ .
(٢) راجع تاريخ الدولة العلية ، ص ١٧٢ .

يتزايد ، وأعلن بعض مقربيه الأوفياء باتفاق معه نبأ موته ، وأرسلوا فى الوقت نفسه رسولاً إلى أغورلو محمد ، وبعثوا بالخطابات والأدلة ، وبشروه فيها بموت أبيه وطلبوا منه الإسراع قبل أن يتلقف واحد من أخويه خليل أو يعقوب تاج السلطنة ، ولكى يمثلوا وفاته بشكل كامل قاموا بكافة مراسم تشييع جنازته ، فصار موته أمرًا يقينيًا فى سائر البلاد ، فصمم أوغورلو محمد ، وكان قد أتاه ثلاثة من الرسل واحد بعد الآخر برسالات خفية ، تحثه على العودة إلى تبريز فتوجه إلى طريق الرحلة إلى تبريز فى بضعة أيام مع بضعة من أصحابه ، ووصلها على أمل كبير من إعلان نفسه ملكًا على البلاد ، لكن لما وصلها رأى والده فى كامل الصحة ، وذهب إلى السجن بدل العرش ، ثم أمر بفصل عنق ابنه دون أن يبدى أقل رحمة أبوية له)[1] .

وعُوِّضت الهزيمة التى لقيها أوزون حسن من العثمانيين - إلى حد ما - بالنصر الذى حققه على جيش مصر ، وفتح مدينة (أورفا) وخرَّبها ، كما أنه حقق نصرًا جديدًا فى حربه لكرجستان ، وفرض على أهلها خراج ست عشرة ألفًا من الدوكات ، واستولى أيضًا على مدينة تفليس .

السلطان خليل ويعقوب

وفى النهاية ، بعد كل هذه الانتصارات حل أجله فى ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م ، وخلفه على عرشه ابنه السلطان خليل ، ولم يحكم هو الآخر أكثر من نصف العام ، إذ هاجمه أخوه يعقوب وهزمه قرب (خوى) وقتله[2] ، وبعد أن تملك هذا الأمير حكم نحو ثلاثة عشر عامًا ، وفى تلك المدة قتل الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد الصفوى ، الذى أرعبته قوته

(١) الفصل التاسع من روايات أنجيلتو ، ص ٩٦ .

(٢) بحوزة حكمت مجموعة خطية تشمل ١٢ مخطوطة آخرها اسمها ، كما كتب على ظهر المجلد (رسالة عرض الجيش تأليف مولانا جلال الدين محمد الدوانى) وتبدأ بقوله (اللهم صلى على محمد وآله وصحبه أجمعين ، قال الله سبحانه وتعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) يشاهد ويعاين هذا المعنى من قبس أشعة هذا النير القدسى المبصرون لمنظر التحقيق) وتنتهى بهذين البيتين : =

وشوكته المتزايدان ، وأسر أولاده ، ومنهم إسماعيل (مؤسس الأسرة الصفوية) ، وحبسه فى قلعة اصطخر بفارس ، ويذكر منجم باشى أنه شيد قصرًا منيعًا صيفيًا ، اسمه (هشت بشت) ، أو الجنات الثمانى خارج تبريز ، ولكن السائح والتاجر الإيطالى ينسب تشييده - فى رحلته - إلى أوزون حسن ، وكان عاقبة أمره ، برواية هذا السائح (لأن هذه الرواية لم ترد عند مير خواند ومنجم باشى) أن قتلته زوجته بالشرح الآتى :

« تزوج يعقوب سيدة من أسرة كبيرة وابنة لأحد الأعيان ، لكنها كانت امرأة فاسدة ، وماجنة ، وفكرت بعد أن سقطت فى شرك عشق أحد رجال البلاط ، فى قتل زوجها سلطان يعقوب ، طمعًا فى الزواج من حبيبها ، وتنصيبه ملكًا ، لأن يعقوب إذا لم يعقب ولدًا فسوف تخلفه هى بحكم قرابتها به ، وبعد أن حبكت المؤامرة مع ذلك الرجل أعدت سمًا ناقعًا ، وكان من عادة هذا الملك أن يدخل ليستحم فى حمام معطر ، وذات يوم ذهب إلى هذا الحمام ومعه ابنه الصغير ، وسنه نحو التاسعة ، ومكث اثنين وعشرين ساعة بالحمام حتى وقت مغيب الشمس ، ولما خرج من الحمام ذهب إلى الداخل بالقرب من الحمام ، وهناك تقدمت زوجته القاتلة ، وأعدت فنجانًا من الذهب الخالص يحوى

=

ما أفضل أن صار عيانًا لضميرك — المنبر سر الغيب من الأول إلى الأبد
ولم ير الفلك القديم دوراته — من له هذا العقل ونور البصيرة

وهذه الرسالة فى كيفية عرض الجيش على خليل سلطان الذى جرى فى بند أمير شمال شرق شيراز قبل وفاة أبيه أوزون حسن بعام واحد أى فى ٨٨١ هـ ، ولفلاديمير منيورسكى المتخصص فى تاريخ الآق قوينلو بحث دقيق ومفصل حول هذه الرسالة البديعة فى نوعها والفريدة فى كيفية عرض المجلد الأول القسم الأول وأرسل إلى حكمت نسخة مستقلة عليها إخصاؤه . ودراسة هذه الرسالة (عرض الجيش) لا تعرف القارئ بكيفيات عرض الجيش وحسب بل تزوده بمعلومات قيمة عن حكم خليل فى فارس وأبيه ونظام حكومة الآق قوينلو ، ودراسة مينوسكى قامت على مخطوطة هذه الرسالة واسمها (رسالة العرض) أو عرض نامه ، وتوجد ضمن مجموعة تحوى ٢١ رسالة خطية فى المكتبة الحميدية لإسلام بول وتشمل كليات مولانا جلال الدين محمد بن أسعد الدوانى المولود (٨٣٠) والمتوفى (٩٠٩ هـ) .

خمراً ممزوجًا بالسم أعدته يوم أن توجه السلطان إلى الحمام ، ولما أنها كانت تعلم أن السلطان يشرب الخمر عادة بعد الاستحمام أتت به إليه ، لكنها أخذت تظهر أكثر من الحد المعتاد من حبها ولطفها إلى زوجها بينما كانت آثار الخوف والفزع والشحوب تبدو على وجهها ، وكان الملك يرتاب فى أمرها فزاد ما رآه فى وجهها فى هذا اليوم من ارتيابه فيها ، فأمرها بأن تشرب من ذاك الخمر أولاً فاضطرت هذه المرأة الشريرة إلى تناول شىء منه ، ثم أعطت الكأس الذهبى إلى زوجها فشرب منه هو وابنه أيضًا ، ومات الثلاثة بسبب هذا السم القاتل فى منتصف الليل ، وفى الصباح ذاع خبر الموت الفجاءة ليعقوب ، وابنه وامرأته فى المدينة ، ولما سمع الأمراء والكبار خبر موت الملك ثار أحدهم منازعًا للآخر ، بحد أن سائر إيران صار نهبًا للحروب الداخلية لمدة ستة أعوام ، فكان يتولى حكمها هذا الأمير مرة ، وذاك أخرى ، إلى أن جلس فى النهاية شاب اسمه ألموت Alumut [1] ، وهو فى الرابعة عشر على العرش ، وظل يحكم حتى حكم الشاه إسماعيل)[2] .

باى سنغر بن يعقوب ورستم بن مقصود

يذكر منجم باشى فى حق يعقوب : (كان مشوقًا إلى الشراب ، واللهو العظيم ، ويرغب كثيراً فى الشعر ، وتجمع فى بلاطه كثيرون من الشعراء من أطراف العالم ، وأخذوا ، ينظمون فى مدحه القصائد الغراء ، وصار من بعده ابنه باى سنغر حاكمًا ، ولم يحكم أكثر من سنة وثمانية شهور حين خلفه ابن عمه رستم بن مقصود ، وخرج بجيشه قاصداً حرب بديع الزمان التيمورى ، لكنه عطف عنانه إلى أصفهان بسبب عصيان حاكمها له ، قبل أن تحدث هذه الحرب فى خراسان ، وما إن اقترب حتى فر هذا الحاكم المذكور إلى (قم) ، فتعقبوه وقتلوه ، وأتى برأسه إلى رستم بيك ، وفى العام نفسه ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م أرسل جيشًا إلى شيروان ، وأشهر فتحه بأن قام ، كما

(١) ذكرت هذه الكلمة بهذا الشكل فى رحلة السائح البندقى ، ويبدو أنه يقصد بها الميرزا محمود زوميرزا ألوند Alwand ثم تحرف اسمه .
(٢) ذكر منجم باشى موجزاً أن يعقوب مات فى محرم عام ٨٩٧ هـ (ج ٢ ، ص ١٦٦) .

كان يفعل تيمور منارات من جماجم أعدائه ، ومع هذا فقد جمع باى سنغر جيشًا من هؤلاء الشيروانيين أنفسهم ، وتقدم قاصداً الاستيلاء على أذربايجان ، وأطلق رستم بدافع عداوته لباى سنغر سراح أولاد الشيخ حيدر الصفوى (سلطان على والآخرين) المحبوسين بقلعة اصطخر وأرسلهم ليقاتلوا باى سنغر انتقاماً لمقتل أبيه ابن يعقوب من باى سنغر .

إطلاق سراح الأسرى الصفويين

استقبل رستم سلطان على الصفوى وصحبه فى تبريز استقبالاً حسنًا ، ثم سيرهم إلى قتال باى سنغر فى (أهر) ، وهناك هزموه وقتلوه ، ولما هدأ باله من ناحية قلاقل باى سنغر تولاه القلق ، بسبب القوة المتزايدة لسلطان على وفكر فى قتله فأرسل فى عقبه أحد أمرائه ومعه أربعة آلاف فارس ، وجرت حرب شديدة بين الطرفين قاتل فيها الصفويين بشجاعة الأسود كما يذكر أنجليتو[1] رغم أن عددهم لم يتجاوزوا سبعمائة رجل ، ومع أنهم هزموا وقُتل سلطان على ، لكنه أوصى بخلافة أخيه إسماعيل قبل موته وفر إسماعيل وأخوه إبراهيم إلى جيلان ومازندران ، وظلا مختفيين بها فترة ، وتواريا فترة أخرى فى لاهيجان ولشت نشا ، وأقام إسماعيل فى جيلان تحت حماية حاكمها كاركيا ميرزا على لكن أخاه إبراهيم عاد إلى أمه فى أردبيل متخفيًا فى لباس مختلف ، وراجت الدعايات الشيعية بين سكان بلاد جيلان رواجًا عظيماً وأخذ صوفيه لاهيجان والقزلباشية[2] بها يزدادون يومًا بعد أخر عدداً وعتاداً .

(١) راجع ص ١٠١ ، ترجمة وطبعة جمعية هكلويت ، ويقول كاترينو زينو فى ص ٤٦ :
(مع أن قوات الصفويين كانت معدودة إلا أنهم أظهروا بطولة عجيبة ، ولم يبق منهم أحد إلا وأصيب بالقتل أو بالجروح الشديدة) ، وقد خلط البنادقة بين سلطان على وأبيه الشيخ حيدر .

(٢) المؤرخ منجم باشى فى ص ١٨١ لقب القزلباش أى (ذو الرأى الحمراء) من المصدر المروى الأول مرة عن الشيخ حيدر ؛ إذ إنه أمر أتباعه أثناء الهجوم على شيراون بلبس هذه القلنسوة ، ونسب التاجر الإيكالى (ترجمة كتابه وطبعته ١٨٧٣ ، باريس) أيضًا استعمال التاج ذى الاثنتى عشرة تريكة أوطية من القطفية أو المخمل الأحمر على رؤوس الجنود والأتباع بما سبب ظهور مصطلح (قزلباش) إلى الشيخ حيدر ، وكان هذا التاج قلنسوة حمراء اللون وعليها عمامة لها طيات اثنتا عشرة بشكل مخروطى كان يكتب فيها أحيانًا أسماء الأئمة الاثنى عشر .

بداية استيلاء الشاه إسماعيل الأول [١]

شرع إسماعيل فى ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م ولم يتجاوز الثالثة عشر[٢] فى الاستيلاء على البلاد وبدأ فتوحاته بعون القبائل التسعة الذين تعاهدوا وتواثقوا معه وهم الاستجالو والشاطو ، والتكلو ، والروملو ، والأرساق ، وذو القدر ، والأفشار ، والقارجار ، وصرفية قراباغ[٣] وبعد أن زار رسميًا قبور أجداده المشاهير فى أردبيل وطلب من أمه العجوز مباركتها ودعائها بالخير هاجم شيروان عن طريق قراباغ وجوجشا ودنيز وأرزنجان ، وكانت ذاعت فى هذه الأوقات أخبار أن (ابن الشيخ) قام مطالبًا بحقه ؛ ولهذا أخذ مريدو الشيخ يتجمعون من كل حدب وصوب تحت لوائه فكانوا يتجهون إليه من الشام وحتى ديار بكر وسيواس حتى إنه رأى نفسه سريعًا على رأس جيش مؤلف من سبعة آلاف ، ولما عبر نهر (كر) هاجم قاتل أبيه أمير شيروان (فرخ يسار) ؛ وهزم جيشه بالقرب من (جلستان) المجاورة لشماخى وقتله وفتح شيروان وحاز خزائنه ، ثم قضى وقت ذاك الشتاء فى محمود أباد بالغرب من وذاك الموضع نفسه وجعل الأمير شمس الدين زكريا وزيره الأول ومولانا شمس الدين الجيلانى عالم الكلام فى عصره وزيره ، وحسين بيك الشاملو ، وأبدال بيك مستشاريه[٤] ، وفى هذا الموضع نفسه فى

(١) يذكر منجم باش أن الشاه إسماعيل ولد فى شهر رجب ٨٩٢ هـ / يوليو ١٤٨٧ م .

(٢) أفضل ما ظهر من دراسة عن تاريخ ظهور الأسرة الصفوية والشاه إسماعيل فى الآونة الأخيرة هو كتاب العالم الألمانى فالترهينز Valter Hintz والذى طبع ونشر فى برلين عام ١٩٣٦ ، وعنوانه (ظهور الحكومة الوطنية فى إيران فى القرن الخامس عشر)

(٣) يروى أسماء الطوائف للقزلباش الذى بايعوا الشاه كالتالى : -

١ - الاستاجلو ٢ - الروملو ٣ - التلكو ٤ - ذو القدر ٥ - الأفشار
٦ - القارجار ٧ - الشاملو ٨ - البيات ٩ - التركمان

(٤) بمكتبة مرتضى نجم أبادى بطهران مخطوطة فى تاريخ فتوحات الشاه إسماعيل مخدوف أوله وآخره ، لكنه ألف فى حياة هذا الشاه بوجه التحقيق ويحوى وقائع ظهوره وحربه لأمير شيروان عام ٩٠٥ حتى هزيمة محمد الشيبانى عام ٩١٦ فى مرو ، ومع أنه يمتلىء بالأخطاء والحذف ، لكنه لا يخلو من بعض الفوائد التاريخية ، كان مؤلفه شاعرًا متخلصًا (بالأمينى) وأدرج فى كتابه أشعارًا فيها تخلصه (وأمينى هذا ليس هو فضل الله روزبهان الأصفهانى صاحب تاريخ عالم أراى أمينى أو زينة العالم الأمينى ، لأن مؤلفه المعروف بالمولى خواجه كان من كبار خصوم الشاه إسماعيل ومالفيه) ، وتوجد بهذا الكتاب نوادر كثيرة منها ما ذكره فى إعلان المذهب الشيعى فى الخطب (أمر فى أوائل جلوسه أن يقرأ=

عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م حين استولى على (بادكوبة) وضرب حصاره على قلعة (جلستان) بلغه أن ألوند بيك الآن فى قوينلو تقدم بجيشه إلى نخجوان لقتاله ؛ فاتجه إليها ، وجرت حرب فى (شرور) بالقرب من نخجوان بين الجيشين ، وكان يقود التركمان الأمير عثمان الموصلى ، وكان يترأس الجيش الصفوى بيرى بيك قاجار فانهزم التركمان هزيمة فادحة وأسر قائدهم وقتل وفر ألوند بيك نفسه إلى ديار بكر وفتح إسماعيل تبريز وتوج نفسه ملكًا فيها[1] ، وفى السنة التالية أى فى ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م هاجم العراق العجمى وهزم مراد بيك آخر حكام القره قوينلو ، وهرب إلى شيراز وتعقبه إسماعيل ، وطوال العامين التاليين فتح كازرون وشيراز وكرمان ويزد وقضى شتاء عام ١٥٠٤م فى أصفهان هذا البلد نفسه الذى قدر له أن يصبح فيما بعد العاصمة المعظمة لحكم أولاده ، وكان هو إذ ذاك يؤسس قواعدها بإحكام ، وهناك قدم سفير إليه من قبل السلطان العثمانى بايزيد الثانى .

وسوف يلى تفصيل تاريخ ظهور هذه الأسرة الكبيرة الوطنية الإيرانية وارتقاء أمرها وتدهورها فى المجلد التالى لهذا الكتاب[2] .

=

خطباء البلاد خطبة الأئمة الأثنى عشر وضم (وأشهد أن عليا ولى الله وحى على خير العمل) إلى الأذان بعد أن سقطت منه فى بلاد المسلمين من عهد ظهور طغرك بيك السلجوتى وفرار البساسيرى ومعنى من ذاك الوقت حتى عام (٩٠٧) ٥٢٨ سنة ، ونفذ أمره الهمايونى فى الأسواق بلعن أبى بكر وعمر وعثمان وطعنهم وكل من خالف هذا يقتل ولم يكن لديهم شىء منكتبًا لفقه الأمامى ، وكانوا يعلمون الأمور الدينية ويعلمونها من المجلد الأول لكتاب قواعد الإسلام وهو من جملة مؤلفات الفقيه الشيعى جمال الدين بن مطهر الحلى ، وكان بجوزة القاضى نصر الله زيتونى ، إلى أن ارتفعت شمس حقيقة المذهب الاثنى عشرى يومًا بعد يوم) .

(١) يبدو أن الشاه إسماعيل أعلن فى ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م المذهب الشعى الاثنا عشرى مذهبًا رسميًا لإيران واعترف من ذلك الوقت حتى الآن دينًا رسميًا لكافة الإيرانيين ، يشار إليه من ذاك الوقت فى الخطبة والعملة ، وقد نظم مادة تاريخ الإعلان الرسمى للمذهب الشيعى الأمينى فى تاريخه المخطوط السابق الذى ألفه فى سيرة الشاه إسماعيل فى قوله : الملك الذى ازدهر به الملك والدين وخطَّ على أورق تلك الخطبة الحقة حين كان يفكر فى تاريخ حدوثها يجيبه الفلك (مجدد مذهب حق ، ص ٩٠٦) .

(٢) الجزء الرابع لتاريخ الأدب الإيرانى تأليف الأستاذ براون وعنوانه (التاريخ الأدبى لإيران فى العصر الحديث - كبمردج ، ١٩٢٤م) وعنوانه الإنجليزى هو :

Persian Literature in Modern times (1500-1924).

=

العلاقات التيمورية الصفوية

سوف نذكر بالتفصيل فى المجلد التالى لهذا الكتاب علاقة التيموريين بالصفويين أولاً علاقة باير والشاه إسماعيل ، وثانيًا بين همايون وشاه طهماسب ، وبوجه عام ظلت العلاقة الكثيرة الود بين الهند وإيران رغم اختلاف العقيدة والمذهب الذى بعث على انفصال إيران واستغلالها عن جيرانها السنة ، فمع أن المذهب الشيعى بعد قيام الحكم الصفوى فى تلك البلاد قد اختير ديانة رسمية وطنية فإن باير والشاه إسماعيل قد جمعهما قاسم مشترك وهو الخوف ، والخصومة اللذان حدثا لهما من شيبانى خان (شيبك) والأوزبك ، وقد عانت الأسرة التيمورية فى أواخر أيامها مصاعب وآلامًا كثيرة على أيديهم فى ما واء النهر وخراسان ، وتشمل السنوات بين ١٥٠١ و ١٥٠٧ م الانتصارات التى صارت نصيب شيبانى خان ، فقد فتح على التوالى مدن : سمرقند ، وفرغانة ، وطاشقند ، وخوارزم وأخيراً خراسان .

توفى السلطان حسين بايقرا الذى تحدثنا فيما سبق عن بلاطه اللمع فى هراة فى عام ١٥٠٦ م ، وقد جعل الضعف والخلاف الذى شب بين أولاده وأقاربه منهم بيسر طعمة لهجوم الأوزبك فهزمهم جميعًا فى ١٥٠٧ م شيبانى خان وقتل سائر هؤلاء الأمراء ، ولم ينج منهم سوى أمير واحد هو ولد السلطان حسين المسمى بديع الزمان فقد فر ولجأ أولاً إلى الشاه إسماعيل ثم استعاذ بالبلاط العثمانى فى إسلام بول وظل بها حتى وفاته .

انتصار الشاه إسماعيل فى مرو وهزيمة الأوزبك

هاجم الشاه إسماعيل خراسان ٩١٦ هـ / ١٥١٠م وتقابل مع الأوزبك ؛ وهزمهم فى معركة مرو ، وعثر على جثة شيبانى خان بين القتلى ، فأمر الشاه بتقطيع جثته إلى

=

وقد فصل المؤلف الشرح فى القسم الأول من الكتاب التاريخ السياسى ثم تاريخ النظم والنثر الفارسيين فى قسميه الثانى والثالث فى العصر الصفوى ، بعده حتى العصر الحالى ، وقد ترجم هذا الكتاب فى ١٣٠٤ ش صديقى العالم غلام رضا خان رشيد يا يسمى أستاذ جامعة طهران حسب رغبتى ونشره فى عام ١٣١٦ ش فى طهران ، وألحق به رسالة خاصة كتبها عن الأدب المعاصر .

أشلاء ، وأرسل بكل شلو منها إلى بلد ، وطليت عظام جمجمته بالذهب وجعل منها الشاه إسماعيل كأسًا يتناول بها خمره وأرسل إلى بايزيد خان الملك العثمانى بالقسطنطينية فروة رأسه المحشوة بالتبن وأرسل يدًا من يديه كعلامة إنذار مع رسول خاص مقرب من حاشيته وهو حاكم مازندران [١] ، وقد خلص الشاه إسماعيل خان زاده بيجوم أخت السلطان باير من أسرها ، وكانت قد وقعت بأيدى الأوزبك قبل ذلك بعشرة أعوام وأرسلت معززة مكرمة إلى أخيها الذى يذكر فى مذكراته القصة الشائقة للقائه بأخته [٢] ، وبعد ذلك تبادل هذان الملكان سفارات ودرية . وكان باير قد تلقب فى عام ١٥٠٨ م بلقب السلطان الذى يمكن ترجمته بالأمبراطور فى اللغة الإفرنجية ، ولما كان باير قد شرف نشاطه بعد ذلك بعامين عن فتح ما وراء النهر (١٥٢٦ – ١٥٢٩ م) وانشغل بهجومه وحروبه فى الهند حيث انتقل إليها ملك آل تيمور ، فلم يظل بهذا النحو أى داع للنزاع بينه وبين ملوك إيران ، ودامت المودة التى تأسست بهذه الصورة بنحو تام وتجددت هذه الصداقة القديمة وتأكدت فى الجيل التالى بسبب كرم ضيافة الشاه طهماسب لهمايون حين ابتعد مؤقتًا عن الهند وعاش فى حماه ، لكن تسامح باير وتساهله بشأن عقائد الشاه إسماعيل الشيعية بين رعاياه قد ولد نفورًا فيما بعد الشاطئ الشرقى لنهر جيجون لأن سكان ما وراء النهر فى ذلك العصر ، والعصر الحالى أيضًا كانوا ملتزمين ومتعصبين لعقيدة السنة والجماعة ؛ ومن هنا كانوا يختلفون مع الشاه إسماعيل اختلافًا معنويًا ؛ وقد كان ينزل عقابه وعذابه بشدة على السنة [٣] .

العلاقات الأدبية بين إيران والهند فى العصر الصفوى

لم تنحصر العلاقات الحسنة بين الهند وإيران فى ذاك العهد على حكام هذين البلدين بل عمت سائر عصر الحكم الصفوى ، وحتى بعده كما سنذكر فى الجزء التالى

(١) راجع تاريخ الهند تأليف إرسكين Erskine ج١، ص ٣٠٢ .
(٢) باير نامه طبعة إيلمنسكى ، ص ١١ .
(٣) راجع تاريخ الهند تأليف ارسكين ج١ ، ص ٣٢١ .

فقد كان يهاجر على الدوام عدد من شعراء إيران من وطنهم ويحلون بالهند حتى بعض أولئك الذين كانوا من أشهر شعراء عهدهم لكى يكتسبوا المال والجاه بالهند فى ظل رعاية سلاطينها المغول ؛ بقى بلاطهم حتى اليوم الأخير من حكمهم حين زال بعد ولاة الهند جاعلاً من اللغة الفارسية اللغة السياسية والدبلوماسية ، وليس هذا فحسب ؛ وإنما كان يعدها لغة الشعر والأدب .

الفصل السابع

كُتَّاب النثر فى العصر التيمورى

اتساع دائرة الأدب فى هذا العصر

سبق الحديث فى الفصل السابق بإجمالى عن ثراء الأدب والفن وغناهما فى هذا العصر ، ونود فى هذا الفصل الحديث بالتفصيل عن متقدمى الأدب الذين حازوا شهرة كبيرة ، ولو سعينا إلى دراسة جميع الشعراء والفضلاء فى هذا العصر ولو بسبيل الإجمال ؛ فلسوف نطلب أمرًا محالا بلا شك ؛ لأن مؤلف حبيب السير الذى يورد سير كافة الأدباء والشعراء المعروفين كخاتمة مقالته بذيل كل حكم قد أحصى على الأقل ٢١١ شخصية من هؤلاء عاشت فى العصر التيمورى منهم ٢٣ عاصروا تيمور ، وبقيتهم تتعلق بهذا العصر الذى ندرسه الآن (١) .

وقد بلغت مدينة هراة فى عهد حكم السلطان أبى الغازى حسين (٨٧٨ هـ – ٩١٢ هـ / ١٤٧٣ – ١٥٠٦ م) أقصى العلو فى هذه الناحية ، وتعد هذه الفترة هى ذروة ارتقاء الأدب ، لذلك العصر اللامع ، وتكتسب أهمية أكبر بسبب تأثيرها العظيم فى ظهور الأدب التركى العثمانى وارتقاء حاله ، وقد بحث بدقة بالغة هذا الموضوع (جيب) فى الجزء الثانى من كتابه (تاريخ الشعر العثمانى) .

(١) طبعت مجموعة السير التى ذكرها حبيب السير بعنوان (رجال كتاب حبيب السير) باهتمام عبد الحسين النوائى بمقدمة وفهرست فى طهران ١٣١٩ ش ، وتجمع مقدمة معلومات مفيدة عن تاريخ حبيب السير ، وقد ورد ذكر مشاهير العلم والأدبى لهذا العصر فى الجزء الثالث من المجلد الثالث من حبيب السير ، يجب أن يضاف إليهم من عاشوا فى العصر نفسه فى كنف تراكمة الآق قوينلو ، ومن ظهروا أوائل الدولة الصفوية ، وعليه فمجموعهم يصل (٢٧٤) شخصية .

تأثير الجامى وعلى شير النوائى وغيرهما فى الأدب التركى

يتحدث جيب فى كتابه (ص ۸ ، ۷) عن تلك المدة التى سماها المدة الثانية فيقول : (بلغت أوج الكمال فى النصف الثانى للقرن الخامس عشر ، وفى البلاط الوضاء للسلطان المحب للفضل والمراعى للأدب حسين بن بايقرا مدرسة هراة التى أولت الشعر الغنائى والغزل رعايتها وعنايتها وتتميز بإيثار الصنعة والزينة فى الأدب ، فيها اجتمع وتجسم معنى الأدب ومادته فى قالب التأليفات المتعددة للأديبين الكبيرين لهذا العصر وهما : الشاعر المتخلص بالجامى ، والوزير المسمى مير على شير ، ولأن هذين الأديبين العاليين مقاما نجمان هاديان للأدب التركى العثمانى فى سائر المدة الثانية (١٤٥٠ - ١٦٠٠ م) ؛فيجب أن نلقى نظرة على آثار هذين الأديبين القيّمين) .

ويذكر بعد إجمالاً هذين الشهيرين ويصف المدرسة التى يمثلها هذان الرجلان لكى يدخل فى تلخيص إيثار هذا العصر الصناعة البديعية فى قوله (من خصائص هذا العصر علاقة العبارات المعقدة والصناعة البديعية والتركيبات المتكلفة ، سينضم إليها نقص اللطف والسلاسة ؛ وهذا الميل المفرط إلى الصورة والظاهر فى الأدب أخطر منزلق فى طريق الشعراء المتقدمين ، وبسبب أن غرق كثير منهم رغم طبعهم الوقاد وقريحتهم الشعرية المتوهجة فى هاوية صناعات البديع وتجميل الكلام ؛ فقد أكسبوا أدبهم الصورة الصبيانية ، وما أكثر الأشعار النادرة التى هى بنفسها كانت لطيفة وجميلة ؛ لكنها فقدت لطافتها بسبب تشبيه لغوى أو استعارة غير ضرورية ...) .

احترام السلطان بايزيد الثانى للجامى

يشاهد الاحترام الكبير الذى بذله البلاط العثمانى فى حق الجامى [1] فى رسالتين فارستين كتبهما السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١م - ١٥١٢م) إليه

(١) راجع كتابنا (الجامى) طبعة طهران ، ص ٤٣ - ٥٠ .

واندرجتا في منشآت فريدرن بيك (ج ١ ، ص ٣٦١) ، الرسالة الأولى التى حررت بلغة مؤدبة وباحترام بنحو ما يظهر من جواب الجامى عليها صدرت بباعث اللطف والعناية بدون طلب خاص أو علة مقتضاة ، وزينت بمزيد إنعام السلطان ولطفة ، ويبرز السلطان فى رسالته الثانية امتنانه للجواب الذى كتبه الجامى إليه ويرسل إليه ألف فلورن [١] جائزة ، ويشكر الجامى فى رسالته الثانية وصول هذه الجائزة له ، وأرسل رسالته هذه إلى البلاط السلطان عن طريق من يسمى درويش محمد البدخشى المتجه إلى الحج ، وللأسف لا تحمل أى رسالة من هذه الرسائل الأربعة تاريخًا .

ووقع على المنوال نفسه موقع احترام هذا السلطان وثنائه نفران آخران من الفضلاء الإيرانيين هما : الحكيم جلال الدين الدوانى ، ومتكلم عصره فريد الدين أحمد التفتازانى ، لكن الأمر يختلف هنا فى أن التفتازانى بادر بالمكاتبة (٢٥ أكتوبر ١٥٠٥م) بينما تأخر جواب السلطان حتى (١٣ يوليو ١٥٠٧م) .

تأثير النوائى فى اللغة التركية

اهتم جيب فى كتابه تاريخ الشعر العثمانى (ج١ ، ص ١٢٨) بالنفوذ والتأثير العظيم للجامى وممدوحة الشهير على شير فى الشعر العثمانى ، ويشتهر هذا الوزير العظيم شهر باللغة فى النظم والنثر بالفارسية وبالتركية الشرقية (الجغاتائية) [٢] ، كما يذكر جيب كيف أن الفقيه الشهير العثمانى مؤيد الدين عبد الرحمن شلبى الذى ذاع صيته فينا بعد عصر بايزيد الثانى اضطر إلى الفرار من موطنه عام ١٤٧٦م والإقامة سبع سنوات فى شيراز ، وتحصيل العلم على يد جلال الدين الدوانى ، والخلاصة أن فى هذا العصر والزمان إيران بدأت فى بسط نفوذها فى الأدب التركى العثمانى فى ناحية الغرب كما امتدت نفوذها وتأثيرها فى القرن التالى فى الهند كذلك .

(١) الفلورن Florin ، وهى العملة الذهبية التى راجت فى الدولة العثمانية وهى تعادل تقريبًا تسعة شلنات .
(٢) راجع رسالة حكمت (أمير على شير النوائى) ، طبعة جمعية العلاقات الثقافية الإيرانية والسوفيتية – طهران ١٣٢٦ ش .

المؤرخون وكتاب التذاكر فى عصر التيموريين

فن التاريخ وسير الرجال

وحان الآن الوقت الذى سندرس فيه على سبيل الخصوص أشهر كتاب النثر فى هذا العصر ونقرب صفحا عن دراسة القضايا العامة ونؤخر دراستنا للشعراء للفصل التالى ، توجد أعمال كثيرة من هذا العصر شأن العصر السابق فى فنى الكتابة التاريخية وكتابة السير والتراجم ، ويستحق على الأقل تسعة أو عشرة من كتاب هذه الموضوعات أن نذكرهم ولو على سبيل الإجمال (1) ، وبوجه عام فأعمالهم تفوق فى كيفيتها

(1) نوع آخر من الآثار التاريخية المنثورة ظهر فى هذا العصر بناء على طلب على شير وتشجيعه فيما يبدو وازدهر كثيراً وهى الكتب المؤلفة فى سيرة النبى وآله وأصحابه ، وألف فى هذا المجال أربعة كتب فى وقت واحد ولمؤلفين معاصرين ، ولم يطبع منها شىء فيما أعلم ، وهى كالتالى :

(أ) شواهد النبوة للجامى فى ذكر بعض سيرة الرسول وآله وأصحابه وتابعين وتابعى تابعيه حتى أوائل الصوفية ، وألف فى ٨٥٥ هـ (راجع كتاب حكمت "الجامى") .

(ب) درج الدر فى سير خير البشر ، تأليف أصيل الدين عبد الله الحسينى الدشتكى الشيرازى الهروى المتوفى ٧٨٣هـ ، وهو مؤلف رسالة مزارات هراة التى طبعها فى هراة عام (١٣١٠هـ) عبد الكريم الأحرارى ، والسيد أصيل الدين من السلسلة الرفيعة للسادات الدشتكيين الشيرازيين الذين يفخر حكمت بالانتساب إليهم (راجع فارس نامه للنصارى ، طبعة طهران) ، وقد هاجر هذا المؤلف وابن أخيه من شيراز إلى هراة فى عهد أبى سعيد كوركان .

(ج) روضة الأحباب فى سيرة النبى والآل ، والأصحاب تأليف ابن أخى المؤلف السابق وهو جمال الدين عطاء الله بن فضل الله الحسينى الدشتكى الشيرازى الهروى ، وكان الاثنان من أجلة علماء هراة فى النصف الثانى للقرن الثامن الهجرى (راجع حبيب السير مجلد ٣ جـ ٣ ، ص ٣٣٥ - ٤٨) ، ومجالس المؤمنين للقاضى الشوشترى ، ص ٢٢٧ ، وروضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ، ص ٤٦٩ ، وأمل الأمل فى علماء جبل عامل) وكتاب روضة الأحباب هذا كثير التفصيل وبذى أهمية وشأن عظيم ، ولدى نسخة قديمة له خطت فى عهد المؤلف أو بعده بقليل وإن كانت - للأسف - ناقصة ، وتشمل سيرة الرسول حتى قتل عثمان (٣٥هـ) ونثرها مسجع ومصنوع ، لكنه يخلو من التكلف ويتصف بالسلاسة والسهولة ، ويصرح المؤلف فيه أنه من محدثى عهده ، وألف كتابه بطلب من على شير وزين عباراته بالآيات والأحاديث والأشعار العربية والفارسية .

(د) معارج النبوة فى مدارج الفتوة لشرف الدين حاجى محمد الفراهى الهروى المعروف بمعين المسكين واعظ هراة والمتوفى ٩٠٧ هـ ، وقد ألف كذلك كتبًا فى التفسير بالنثر المصنوع المزين ، ويشمل كتابه هذا مقدمة وأربعة أركان وخاتمة وترجمة إلى التركية عام ٩٦٤ هـ المولى مصطفى بن خالد التوقيعى (راجع كشف الظنون وحبيب السير ومخزن الغرائب وحدائق الحقيقة) .

أعمال من سبقهم لأن هؤلاء السابقين حرروا فى العصر المغولى تصانيفهم بأسلوب إنشائى مغلق ومعقد مثل كتاب وصاف الحضرة، لكنها تمتاز من حيث وفرة المعلومات والبحث فى التفصيلات وسعة التحقيقات ونقل الوثائق التاريخية عن أعمال المؤرخين فى العصر التيمورى مثل كتاب علاء الدين عطا الجوينى ورشيد الدين فضل الله وغيرهما ، ونذكر المؤرخين لهذا العصر حسب ظهورهم التاريخى :

حافظ أبرو

حافظ أبرو[1] اسمه أشهر من تآليفاته ؛ لأنه لم يطبع كتابه حتى الآن بل ونسخه الخطية كذلك قليلة جداً ونادرة ، وما هو معروف عن هذا المؤرخ هو نفس ما أورده ريبه تقريباً فى فهرسه (راجع فهرس ريبه ، ص ٤٢١ - ٤٢٤ ، تتمة فهرسه ص ١٦- ١٨ لمراجعة أجزائه الجغرافية)، اسمه كما يذكر ريبه هو خواجه نور الدين لطف الله ، ولد فى هراة أو فى خواف بقول مجمل الفصيحى الخوافى ، ولكن تاريخ مولده مجهول ، ونشأ فى همدان ، وبعد موت تيمور الذى كان يبذل له العناية والعطايا الوفيرة التحق ببلاط ابنه خلفه شاهرخ وحفيده باى سنغر ، وألف تاريخه الكبير باسمه[2]، ويعرف هذا التاريخ عامة باسم زبدة التواريخ ويسميه الفصيحى الخوافى (مجمع التوايخ السلطانية)، وأتمه المؤلف فى عام (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م أو ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م) أى قبل وفاته بنحو أربع سنوات[3].

(١) اسمه بقول الفصيحى الخوانى المعاصر له هو شهاب الدين عبد الله بن لطف الله بن الرشيد الخوافى المدعو حافظ أبرو ، له هذان البيتان :

أنا العبد الحقير مطيع الدولة   الكاتب العبد عبد الطف الله
المشتهر بحافظ آبرو   عند الأمير والشاه والجيش

(٢) فى (المجموعة العلمية للنسخ الفارسية) ج ٣ ، ص ٥٢ - ١١١ شرح مفصل ودقيق لمخطوطات ثلاثة لتاريخ حافظ أبرو بقلم البارون فيكتور روزن .

(٣) يبدو أن أبرو ألف باسم باى سنغر وأمره فى أربعة أجزاء ، تشمل الأجزاء الثلاثة الأولى الأحداث التاريخية حتى عهد جنكيز ، ويضم الرابع من موت أبى سعيد بهادر عام ٧٣٦ هـ حتى ٨٣٠ هـ ، وهى =

ويشمل هذا الكتاب أربعة أجزاء ضاع منها للأسف الجزء الثالث والرابع اللذان يتعلقان بملوك إيران المسلمين حتى وقت وفاة المؤلف (راجع مقالة روزن ، ص٥٣) ، وتوجد مخطوطات الجزء الأول والثانى فى بطرسبرج (ليننجراد) ووصفها روزن وصفًا بليغًا، وتوجد مخطوطة للجزء الأول الآن فى المتحف البريطانى تحت رقم or.2774 ، وكانت فى البداية فى مجموعة كتب الكونت دى جوبينو ، وأنا نفسى لدى نسخة للجزء الثانى وتشمل سيرة الرسول والخلفاء حتى نهاية عصر الخلافة ومؤرخة بتاريخ الجمعة ١٥ من شعبان ٨٩هـ، وقد نسخت فى هراة فى هذه السنة نفسه[١].

وفوق هذا التاريخ فقد ألف حافظ أبرو كتابًا فى الجغرافيا يوجد الجزء الأول منه فى المتحف البريطانى تحت رقم (١٥٧٥) ، وقد وصفه ريبه وصفًا كاملاً ، والنسخة الثانية له أيضًا موجودة فى بطرسبرج (ليننجراد)[٢]، وتمكن ريبه من استخراج معلومات وافرة تتعلق بحياة المؤلف خاصة رحلاته وأسفاره الطويلة من خلال هذا الكتاب الذى ألفه لشاهرخ عام ٨٢٠ - ٨٢٣ هـ / ١٤١٧ - ١٤٢٠م ؛ إذ إنه صاحب تيمور فى كثير من حروبه منها وقت أن فتح حلب ودمشق عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م كان المؤلف ضمن جيشه، وحين جلس شاهرخ على عرش الحكم سكن هوهراة، وعاش حياة أدبية حتى ٨١٨هـ / ١٤١٥م واستمرات حياته هذه، وحين كان يعود مع فرنسا الجيش الملكى من أذربايجان وافته المنية فى زنجان ودفن بها .

وقد ورد فى مخطوط تاريخ المجمل للخوافى فى ذيل عام ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م وهو الذى خالف كثرة من المورخين فى ذكرهم سنة موته فى السنة التالية[٣] ؛ إذ يذكر فى

= نهاية تأليف الكتاب ، ويسمى وحده زبدة التواريخ البايستغرية ، لكن المجلدات الأربعة كلها تسمى (مجمع التواريخ السلطان) وتوجد فى المكتبة الوطنية الإيرانية مخطوطة نفسية للقسم الثالث لهذا الكتاب خطت عام (٨٣٠ هـ) ، قد كتب شاهرخ بخطة شيئًا على حاشيته منه ، يبدو أنه النسخة الأصلية التى كتبت لمكتبة شاهرخ كما توجد نسخة مخطوطة نفيسة للجزء الرابع (زبدة التواريخ) فى مكتبة (ملك) وهى تتمة نسخة المكتبة الوطنية فيما يبدو .

(١) كتب براون محفوظة بمكتبة جامعة كمبردج .

(٢) توجد نسخة مخطوطة لجغرافيا أبرو فى طهران بحوزة (مدرس رضوى) أستاذ الجامعة .

(٣) سجل عبد الرزاق السمر قندى فى هذا البيت الآتى وفاته فى عام ٨٣٤ هو :

فى عام ثمانمائة وأربعة وثلاثين فى شوال وقعت وفاة حافظ أبرو بمدينة زنجان

ذيل وقائع سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة[١]: وفاة مولانا الأعظم مولانا شهاب الدين عبد الله الخوافى المعروف بحافظ أبرو جامع مجمع التواريخ السلطانية فى يوم الأحد ثالث شوال بموضع سرتشم وقت عودة الحضرة العليا الخاقانية من آذربايجان، ودفن بزنجان قرب مزار الشيخ الربانى أخى أبى الفرج الزنجانى[٢].

نقل عبد الرازق السمرقندى وهو المعاصر الأصغر سنًا للمؤلف من كتاب حافظ أبرو موضوعات كثيرة فى كتابه زبدة التواريخ، ونصف كتابه الجغرافى المذكور عبارة عن خلاصة لتاريخ ما بعد الإسلام الذى شرح وفصل القسم الأخير منه بشكل واسع حتى رمضان من عام ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م، وما ورد فى الجزء الثانى من زبدة التواريخ أسلوب إنشائى كثير البساطة ومباشر ويستحق أن يطبع كل ما يصلنا منه .

الفصيحى الخوافى

مؤلف مجمل التواريخ

عرف هذا المؤرخ وكاتب السير عن طريق كتابه المجمل وحسب، واطلعت على هذا الكتاب من ثلاث نسخ له : أولها : ملك مؤسسة اللغات الشرقية لوزارة الخارجية بلنينجراد ، وقد وصفها روزن بعد (درن dorn)، والثانية : كانت ملك الكولونيل رافرتى دارس لغة البشتو ثم اشتراها من أرملته أمناء أوقاف جيب، والنسخة الثالثة : أهداها إلى صديقى العالى القدر لواسترانج وهى أحدث من نسخة رافترى ، لكنها أكثر صحة وأكمل منها ولا ينقصها إلا وقائع عشرة أعوام من ٨٣٤ حتى ٨٤٤هـ[٣]، فى حين أن نسخة رافرتى المذكورة ينقصها وقائع ١٢٣ سنة (أى من ٧١٨ إلى ٨٤٠هـ).

(١) هذه العبارة نقلها المترجم من نسخة المجمل ملك محمد أنما النخجوانى الذى وضعها تحت تصرفه .

(٢) وردت سيرة فرج زنجانى المتوفى ٤٥٧ هـ / ١٠٥٦ م ، وكان من كبار الصوفية فى نفحات أنس رقم (قنب) وكتب الجامى بخطة فى حاشية قصته فى النسخة المخطوطة لنفحات التى بحوزة المترجم .

(٣) ونسخة أخرى لهذه الكتاب ولاينقصها غير السنوات العشر الأخيرة ملك مكتبة الصديق العالم محمد النخجوانى التبريزى ، وقد استفاد منها حكمت ، يهتم الآن العلامة محمد القزوينى وهو منبع أنوار المعلم والأدب على الدوام بتصحيحها ونشرها .

وفي عام ١٩١٥م أعددت مقالة في حدود ثلاثين صفحة عن كتاب المجمل بناء على طلب عدة من أساتذة اللغات الشرقية البلجيك ، وكانوا يقيمون مؤقتًا في كمبردج، وأشرت فيها إلى أن هذا الكتاب يضم مقدمة ومقالتين وخاتمة، لخص في المقدمة تاريخ العالم من بداية الخلق إلى مولد الرسول صلوات الله عليه، وفي المقالة الثانية وهي أكثر أجزاء الكتاب تفصيلاً وأهمية وردت وقائع السنة الأولى للهجرة حتى عام ٨٤٥ هـ ، أما الخاتمة والتي لا توجد للأسف في أي مخطوط فتشمل تاريخ مدينة هراة مولد المؤلف وموطنه .

وما نعرفه عن الفصيحي الخوافي مقتبس عن كتابه نفسه ، ولم أصادف ذكرًا عنه هو في موضع آخر ، ويقول روزن أنه ولد عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥م لكني لم أجد هذا في تاريخه [١] ، وعمل في ٨٠٧ هـ مع ثلاثة يذكر أسماءهم في أعمال تتصل بالأموال الديوانية وفي عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م حين كان شاهرخ متجهًا إلى شيراز لقمع ابن أخيه بايقرا كان هو في ركابه ، وفي ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م أرسل للقيام بمهام مالية في كرمان ، وفي ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م عاد ثانية إلى باذغيس ، وفي ٨٢٨هـ / ١٤٢٤ شمله باهتمامه الأمير باي ركابه ، وفي ذيل عام ٨٤١هـ / ١٤٣٧م يروي بضعة أبيات شعرية عن شهاب الدين عزيز الله الخوافي قالها بمناسبة مولد ابنه في ذي الحجة من العام نفسه ، وفي ٨٤٢ هـ يذكر مولد صغيره مغيث الدين أبو النصر محمد بن محمود في ذي القعدة ، وفي ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩م يتهم بالتقصير أمام جوهر شاد أنما وتأمر بحبسه ، ويعاد حبسه في عام ٨٤٥هـ / ١٤٤١م وهو عام إنشاء وقائع كتابه ، ويبدو أنه قدم كتابه في ١٥ ذي الحجة من تلك السنة نفسها إلى شاهرخ (مع أنه ظهر في شعر بنهاية إحدى المخطوطات الموجودة أن تاريخ إنهاء كتابه هو عام ٨٤٩هـ) .

وقد ألف هذا الكتاب بالنظام الحولي ، ووردت به أحداث السنوات بالترتيب ويحوي

(١) يصرح الفصيحي نفسه في ذيل وقائع عام سبع وسبعين وسبعمائة أن هذا العام هو عام ولادته ، وهو فصيح أحمد بن جلال الدين محمد بن نصر الدين يحيى ويصل نسبه إلى أبي أمامة صدي بن عجلان ابن وهب المباهلي من صحابة الرسول ، ونعرف أن هذه الصفحة لا ينتبه إليها براون ، وفوق ذلك يشيرا بإشارات صريحة وواضحة إلى أمور تتعلق بحياته الشخصية وأعماله الديوانية في ذيل وقائع السنوات ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨١٨ هـ .

ذكر وفيات كل طبقات الناس متجمعة بآخر كل عام ، ويستلفت النظر فى هذا الجزء الذى يذكر الوفيات أن عدد الشعراء والأدباء خاصة فى بلاد ما وراء النهر وخراسان كان كبيرا وعظيمًا ، وفضلاً عن ذلك نقف على أن فصيحى اطلع على قدر كبير من المصادر غير التى ذكرها سائر المورخين وكتاب التذاكر ، ومن هنا فإن كتابه يتمتع بقدر وقيمة خاصة . على أية حال ، فإن الصفتين البارزتين لهذا الكتاب هما بساطة أسلوبه واهتمامه الخاص بالمسائل الأدبية .

كمال الدين عبد الرازق السمرقندى

مع أن المؤرخ ولد فى هراة عام ٨١٦ هـ / ١٤١٣م [1] إلا أنه اشتهر بالسمرقندى لأن سمرقند كانت موطن أبيه مولانا جلال الدين إسحاق ، وكان يشغل فى جيش شاهرخ منصب قاضى العسكر ، وفى الخامسة والعشرين من عمره عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧م بعد موت والده ألف رسالة فى الصرف والنحو ووشحها باسم هذا السلطان ، ومن هنا صار موضع اهتمامه ورعايته ، وبعد أربع سنوات عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م أرسل فى سفارة إلى بلاط سلطان بيجانجار بالهند واستغرقت هذه السفارة ثلاث سنوات وأورد فى تاريخه شرحًا مسهبًا لرحلته هذه ، وفى عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م أرسل إلى جيلان ، وبعد أن مات شاهرخ فى هذه السنة لحق على التوالى بخدمة الأمراء مثل ميرزا عبد اللطيف ، وميرزا عبد الله ، وميرزا أبى القاسم باير ، وفى النهاية السلطان أبى سعيد ، ثم سلك بعد ذلك حياة العزلة والانزواء وصار شيخًا فى الفانقاة الشاهوخية فى هراة ، وكان هذا عام ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٣م وتوفى أيضًا فى المدينة نفسا عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م ، وقد نقلنا هذه المعلومات عن فهرس ريبه (ص ١٨١) ، والتى اقتبسها بدوره إما من معلوامت المؤرخ المذكور فى كتابه غالبًا أو من المعلومات التى زوردها حبيب السيد عنه (مجلد ٣ ج ٣ ، ص ٣٣٥) ، وقد أعد كاترمير فى مذكرات المكتبة الوطنية بفرنسا عن مخطوطاتها سيرة مفصلة لذلك المؤلف ولكتابه (كتاب كاترمير ج ١٤ ، ص ٥١٤) وفضلا عن ذلك ذكرت مراجع أخرى فى فهرس ريبه .

(١) صرح حبيب السير أنه فى ١٢ شعبان ٨١٦ هـ .

مطلع السعدين

لعبد الرازق كتاب تاريخى كبير واحد فيما نعلم واسمه مطلع السعدين ويشمل جزئين ، ويحوى وقائع مائة وسبعين سنة من مولد أبى سعيد المغولى ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤م حتى وفاة سمية حفيدة تيمور الميرزا أبى سعيد كوركان واقتبس اسم كتابه من اسمى هذين الملكين، وهما بزعمه اسما نجمى سعد ، وينتهى المجلد الأول بوفاة تيمور عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م وأشار المؤلف إلى مصادفة عجيبة وقعت وهى أن سنة موت الملك المغولى الكبير أبى سعيد بهادر تطابق سنة ميلاد تيمور مؤسس الحكم العظيم للتتار التيموريين فى آسيا المركزية .

ومع أن مخطوطات مطلع السعديين ليست كثيرة الوفرة لكنها موجودة فى غالب المكتبات [١] ، وهى فوق الحد المتوسط من حيث النفاسة والدقة فيما أعلم ، ورغم أن هذا الكتاب مقتبس فى الغالب عن زبدة التواريخ لحافظ أبرو لكنه يتصف بالأهمية الكبيرة وأسلوبه النقدى مهم وضرورى جداً [٢] لأنه يبحث بالتفصيل فترة غاية فى الأهمية من تاريخ إيران ومؤلفه نفسه شاهد غالب الوقائع بشخصه ؛ كان مشاركًا فيها وخط بقلمه كيفياتها .

(١) فى مكتبة طهران الوطنية توجد ثلاث نسخ لمطلع السعدين ليس لواحدة منها تاريخ نسخ لكنها خطت – فيما يبدو – فى حدود القرن العاشر وسقطت الصفحة الأخيرة منها ، وهى نسخة جيدة ، وتقل أخطاؤها إلى حد ما ، والأخرى خطها معين بن حسين المستوفي فى ١٠٣٤ هـ وهى نسخة كاملة ، أما الثالثة تشمل الجزء الأول وحده ، وسقطت الصفحة الأولى من النسخة الأولى للمكتبة الوطنية وقد وضع أحد الباعة الصفحة الأولى لتاريخ حبيب السير بدل هذه الصفحة الساقطة من هذه النسخة ، لكى يظهر أنها كاملة وباعها على ذلك الوجه .

(٢) توجد نسخة مخطوطة لمطلع السعدين فى مجلدين تحت رقم Or. 267,268 فى مكتبة جامعة كمبردج ونسخة أجو رقم Dd 305 مؤرخة بعام ٩٨٩ هـ فى مكتبة (كرابست كالج) أيضًا فى كمبردة ، وقد نشر الجزء الأول من المجلد الثانى لهذا الكتاب أى من جلوس شاهرخ بعد تيمور عام ٨٠٧ هـ حتى وقائع عام ٨٣٢هـ محمد شفيع أستاذ جامعة البنجاب مرتين ، والطبعة الثانية على الحجر فى عام ١٣٦٠ هـ وقدم لها بالأردية وحشاها .

معين الدين محمد الإسفزارى

معين الدين محمد الإسفزارى يستحق الاهتمام لأنه ألف تأريخًا عن مدينة هراة وسماه « روضات الجنات فى تاريخ مدينة هراة » وصدره باسم السلطان حسين أبى الغازى ، ويتضمن الأحداث حتى عام ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وكان له مهارة أيضًا فى الأسلوب المصنوع وعمل فى ديوان الإنشاء والأوامر أو المنشورات الحكومية ، وألف أيضًا رسالة فى هذا الفن وكان ينظم الشعر كذلك (حبيب السير مجلد ٣ ، ص ٣٤٢) وتوجد بالمتحف البريطانى ثلاث نسخ لهذا الكتاب (فهرس ريبه ، ص ٦٠ ، وتتمته ص ٦٤) ورابعة بجوزة ج . إلياس استنسخت عام ١٠٧٣هـ / ١٦٦٣م وهى فى متناول الدراسين ، وخامسة بحوزة هوتوم شيندلر وهى الآن بحوزتى .

وقد أعد باربيه دينمار (Barbier de deynard) مقالة عن هذا الكتاب المهم فى الجورنال الآسيوى (المجلد ١٦ ، ص ٤٦١) .

وينقسم هذا الكتاب إلى ستة وعشرين روضة شرح فيها المؤلف بالتفصيل ما يتعلق بمدينة هراة وأطرافها من ناحية جغرافيتها ووصف أرضها وأهميتها ، وكذلك من ناحية حكامها القدامى فى التاريخ الإسلامى وأسرة ملوك كرت وزوالهم بيد تيمور وبقية تاريخ آل تيمور حتى استيلاء السلطان حسين أبى الغازى على تلك المدينة ومادة تاريخ نهاية هذا الكتاب فى كلمة (شهر صفر) أى عام ٨٧٥ هـ .

ويذكر المؤلف فى عداد المصادر التاريخية لمؤلفه تاريخ أبى إسحاق أحمد بن ياسين ، والشيخ عبد الرحمن الجامى وسيفى الهراتى ، وكذلك كتاب (كرت نامة) تأليف ربيعى فوشنجى كم أشار كذلك إلى كتاب (مطلع السعديين) فى موضع بالروضة الثالثة عشر [1] .

(١) يوجد بطهران مخطوطات عدة لهذا الكتاب منها واحدة بمكتبة المدرسة العالية لسبه سالا وأخرى ملك مؤيد ثابتى وهى عند حكمت ، ويذكر هنا شيئًا من مقدمة الكتاب نموذجًا لأسلوبه : (كان دائمًا يجرى فى خاطرى أن أقيد بالتأليف وأسلك بالتحرير بعضًا من آثار هذه المدينة ذات السكنية وأوصافها وأحوالها وأوضاعها ، وهب قبلة المقبلين من أطراف العالم ووجهة آمال أصحاب القلوب من أولاد آدم وغلبة ازدحامها =

محمد بن خاوند شاه بن محمود المعروف

بمير خواند

لعل أشهر كتب التاريخ الضخمة هو روضة الصفا تأليف مير خواند المشتهر في إيران واجتذب الأنظار ، وقد طبع في ١٢٧١هـ على الحجر في بمباى ، وفي طهران عام ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٨ م ، ونشرت ترجمته التركية في ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م في إسلامبول كما انتشر بعض من أجزائه المستقلة الخاصة بأسرات معينة من السلاطين في أوروبا مترجمة أو غير مترجمة منها ترجمة إنجليزية بيد راتسك (Rehatsek) للقسم الأول منه ونشرت ثلاثة أو أربعة أجزاء له تحت إشراف الجمعية الملكية الآسيوية لإنجلترا ، ولكن لابد من القول إن هذه الترجمات ليس لها فائدة كبيرة ، فبصرف النظر عن أن طالب العلم يجد الموضوعات الخاصة بسيرة رسول الإسلام وصحابته وقدماء السلاطين في مصادر أقدم وأوثق من هذا الكتاب ، لم تكن ترجماته سليمة كثيراً ، ولم تكتب بسلاسة بل أرادت أن تقلد الأسوب الإنشائي لمير خواند ؛ ولهذا جاءت غير جيدة .

سبب اهتمام الإيرانيين وتقديرهم لهذا الكتاب أن أحد كبار مؤلفيهم المتأخرين وهو رضا قلي خان لله باشي المتخلص بهدايت ذهب إلى يكتب له تذييلاً أو تتمة فألف وقائع السنة التي تنتهي إليها هذا التاريخ حتى وقائع عهده أي حتى أواسط القرن

=

بالنسبة إلى زماننا الماضية كان سكان هذه الأرض الطاهرة وعمارها وغلبة ازدحامها بالنسبة إلى زماننا هذا واحداً من الألف وقليلاً من الكثير ، وأنشأ السلف في باب هذه البلد التي كالخلد مؤلفات وتأليفات في كيفية القضايا والوقائع شاملة لذكر كل نوع من العجائب والبدائع مثل الإمام إسحاق أحمد بن ياسين وثقة الدين الشيخ عبد الرحمن الفامي الذي ألف تاريخ هراة القديم وربيعي الفوشنجي الذي نظم كرت نامة والسيفي الهروي الذي ألف أحوال بعض من ملوك الكرت ..) .

ونثر هذا الكتاب يخالف منشئات ذلك العصر في سلاسته وسهولته وخلوه من التسجيعات المتكلفة المتداولة في زمنه ، ويستشهد بين الفينة والأخرى بالأشعار الرقيقة والأبيات اللطيفة من أشعار كبار السلف إلا في بعض مقدمات الوقائع حين وصف أوصافاً طويلة للربيع أو الصباح بأسلوب المترسلين أو المنشئين وسلم الإطناب ، وحرر سائر الحوادث والوقائع بأسلوب سهل غير متكلف ، ويذكر في المقدمة أن (الباعث على تأليف الكتاب هو سعيه إلى إبقاء ذكر سلطان الزمان وتخليد اسمه) ، قد بادر إلى ذلك لتشجيع الوزير قوام الدين نظام الملك .

التاسع عشر ، وهذه التتمة من أكبر مصادر العلم الطية لتاريخ العهود الأخيرة لإيران وتشمل أحداث ظهور (الباب) – مؤسس البابية – وما ارتبط به من حروب داخلية وقتل ونهب وسلب بفتنته .

ولم يذكر معلومات كثيرة عن سيرة مير خواند حتى حفيده خواند مير مؤلف حبيب السير لم يقدم دراسة طويلة عنه ، هاجر أبوه السيد برهان الدين[1] من موطنه بخارى إلى بلخ وتوفى بها وأمضى مير خواند أغلب أيامه فى هراة ، وكان يعيش تحت رعاية الأمير المراعى للعلم على شير النوائى وتحت حمايته ، وتوفى بهراة فى السادسة والستين بعد مرض طويل فى الثانى من ذى القعدة عام ٩٠٣ هـ / يونيو ١٤٩٨ م[2] .

يحوى كتاب روضة الصفا سبعة أجزاء ، الأول منها يشمل : تاريخ الأنبياء والمشاهير وسلاطين إيران قبل بعثة رسول الإسلام ، والثانى : فى سيرة الرسول والخلفاء الراشدين ، والثالث : فى تاريخ الأئمة الاثنى عشر والخلفاء الأمويين والعباسيين ، والرابع : لتاريخ سلاطين إيران بعد الإسلام حتى هجوم تيمور ، والخامس : فى تاريخ سلاطين المغول والتتار حتى تيمور ، والسادس : فى تاريخ تيمور وخلفاؤه حتى عام ٨٣٣ هـ / ١٤٦٠م ، والسابع : (وقد ألفه غيره ويحتمل أنه حفيده خواند مير ألفه بعد موت خاندمير ببضعة سنين) ، ويقتصر على سيرة الغازى حسين وممدوحيه وراعيته ويلطانته والذى توفى فى ٩١٢ هـ / ١٥٠٦م [3] ، والمجلد السادس :

(١) ذكر مجالس النفائس أن اسم أبيه هو السيد خواندشاه ، طبعة طهران ص ٩٤ ، ٢٧٠ .

(٢) مراجع حبيب السير مجلد ٣ جزء ٣ ، ص ٣٣٩ وفهرس ريبه ، ص ٨٧ وماذكر به من مراجع .
وكتاب سيلفستر ديساسى : (Mémoires sur Les Antiquités de La perse)

(٣) القسم السابع من روضة الصفا الشامل السيرة بايقر من مولده حتى وفاته وتاريخ أولاده حتى عام ٩٢٩هـ يحوى مقدمة قصيرة ألفها محمد بن خاوند شاه أو ير خواند المؤلف بوجه التحقيق ، لكنه بقية هذا الجزء نقول بالنص من حبيب السير إذا انطبق عليه كلمة كما يذكر جواند مير فى كتابه خلاصة الأخبار ، إن المجلد أو الجزء السابع لروضة الصفا بسبب فقدان مؤلفه للمصادر اللازمة له يتم بالنقص لا محالة ويرجو أن يكمله ، ويبدو أن خواند مير مات عام (٩٠٣) هـ بعد مرض مزمن كان يشكو منه فى آخر الجزء السادس من كتابه ويتألم كثيراً بسبب مرض بخاصرته وكبده ، ولم يلق فرصة لإتمام الجزء السابع من كتابه .

ويقول السير شارلز إليوت فى كتابه (١) باسلو جدير بالثناء فى معنى أن ترجمه هذا الكتاب مفيدة : إن هذا الإسلوب للإنشاء المتكلف ، هو تركيب من حسن حب الجلال والتظاهر الذى يسرى أيضاً فى الآخرين يظهر كل شىء عظيماً وكل فرة جليلاً ونادراً ، ويجعل القارئ دائماً يسير وسط الصفت العظمية والأخلاق الكريمة للأمراء والعظاء وكل امرئ ينال العطايا الجزيلة ويجعل سلاطين أوربا أمام عظمة خليفة الله المختظى بالفتح والأبدى عبيداً أذلاء ومهانين وحقراء ، هل يستطيع أى شاعر غربى أن ينقل قراءة إلى أرضه أكثر سحراً من ذلك ؟

خواند مير

يميل المؤلف إلى ذكر حفيد مير خواند الملقب بخواندمير (٢) ضمن مؤرخى العصر لثلاثة أسباب :

أولها : أنه كان واحداً من جملة الأدباء والفضلاء المشاهير الذى عاشوا فى العصر المنير للأمير على شير النوائى ، حاز برعايته النجاح والتوفيق .

ثانيها : أنه لم يكن داخل رفاق مير خواند وحسب بل كان له مرتبة التلمذة عليه فوق محبة الجد لحفيده .

ثالثها : أن أول تأليف له هو خلاثة الأخبار وهو عصارة وخلاصة لروضة الصفا وألفه عام ٩٠٥ هـ أى قبل نهاية العصر التيمورى محل بحث هذا الفصل بعامين ، ومع هذا فقد انتهى هذا المؤرخ من تأليف كتابه المهم حبيب السير الذى كررنا ذكره فى هذا الفصل السابق فى عام ٩٢٩ هـ وعاش المولف نفسه حتى عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م ، ومن هنا يجب وضعه فى الحقيقة ضمن مؤرخى العصر التالى خاصة أنه أورد قصة طويلة عن مؤسسن الأسرة الصفوية الشاه إسماعيل وختم كتابه باسمه فإن وضعناه ضمن مؤرخى العصر الصفوى كان أنسب .

(١) السير شارلز إليوت مؤلف كتاب (تركيا فى أوربا Turkey in Europe) طبعة ١٩٠٨ م ، ص ١٠٦ .

(٢) مؤلف حبيب السير هو غياث الدين بن همام الدين المشهور بخواندمير وأبوه هو همام الدين محمد بن برهان الدين محمد الشيرازى الذى عمل بضع سنوات فى وزارة السلطان محمود ميرزا ولد أبى سعيد الكركانى مرانه هى ابن مير خواند صاحب روضة الصفا، وقد أخطأ بعض المتأخرين حين ظنوا أنه ابن ميرخواند (راجع حبيب السير المجلد ٣١ الجزء ٣ ، ص ١٩٤ ، ودستور الوزراء ، ص ٧٨) ، لو كان برهان الدين الشيرازى هو والد مؤلف روضة الصفا ؛ فسوف يكون بهذا النحو مير ابن أخيه .

كتب التذاكر والتراجم

يصل الدور بعد المؤرخين أرباب السير وكتاب التذاكر ، ويستحق الذكر من بينهم ستة وكتبهم هى :

١ - تذكرة الشعراء لدولت شاه .

٢ - مجالس النفائس لعلى شير النوائى (باللغة التركية) .

٣ - نفحات الأنس للجامى .

٤ - مجالس العشاق لأبى الغازى السلطان حسين .

٥ - روضة الشهداء للحسين الواعظ الكاشفى .

٦ - رشحات عين لابنه على بن الحسين الكاشفى .

ونشير هنا بإجمال إلى كل واحد من هؤلاء الكُتاب لكن الجامى ، والنوائى ، والحسين الكاشفى لهم تأليفات أكثر شهرة فى سائر فنون الأدب ؛ ولهذا فسوف نفصل فى ذكر أحوالهم فى عقب شرحنا للتأليفات المنسوبة إليهم .

نفحات الأنس وبهارستان

ولد مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامعى الذى أخذ تخلصه (الجامى) من مدينة جام فى خراسان وولد بها فى ٢٣ من شعبان ٨١٧ هـ / ٧ نوفمبر ١٤١٤م، ويتمتع لكثرة أعماله الأدبية الجديدة بالاهتمام - كمًا وكيفًا - بشهرة كبيرة .

ويعد غالبًا خاتم أساتذة الشعر القديم (الكلاسى) الإيرانى (مع أننى أرى - للأسباب التى سوف أذكرها فيما بعد - أن هذا الرأى لا يطابق الحقيقة)، ويتميز بوفرة الآثار ولطاقة التعبير وقوة التصوير من ناحية الشعر العرفانى والصوفى، وهو يشبه فى ذلك سلفه العظيم الشيخ فريد الدين العطار فى القرن الثالث عشر الميلادى الذى إن تميز على الجامى بكثرة الأعمال، لكنه لا يبلغه فى لطف التعبير ، وللجامى

فوق أشعاره التى لا حصر لها كتاب فى التذكرة وسير الأولياء وكبار الصوفية سماه (نفحات الأنس من حضرات القدس) .

طبع هذا الكتاب فى كلتكا عام ١٨٥٩م طبعة فاخرة تضمنت توضيحات كثيرة الفائدة عن المؤلف بقلم المؤلف الإنجليزى ناسوليس (w.Nassaulees) ، وتشمل ٧٤٠ صفحة ذكر فيها من أجلة الصوفية رجالاً ونساءً (٦١١) شخصية، وتعد هذه التذكرة أحد المصادر المفيدة والسهلة لجمع المعلومات عن هؤلاء الصوفية ، ألف الجامى كتابه هذا فى عام (٨١١ هـ / ١٤٧٦م) ، وعلاوة على ذكره أحوال الكبار الذين تفاوت ذكرهم من ناحية الترتيب التاريخى وانتهوا باسم حافظ الشيرازى وكمال الخجندى والمغربى وغيرهم ممن كانوا يعيشون فى أواخر حكم تيمور وبداية حكم شاهرخ فقد قدم كتابة بمقدمة فى نحو أربعين صفحة فى تسعة فصول شرح فيها المبادئ المختلفة للتصوف وأعمال صوفية الإسلام وتواريخهم .

وأسلوب هذا الكتاب الإنسانى سلسل وسهل ويتناسب مع مثل موضوعه ، وفى الحقيقة فقد منع الجامى نوقه اللطيف وعظمة أخلاقة من يضل فى وادى الصنعة اللفظية والصناعة البديعية مثل سائر كتاب هذا العصر [١] .

والكتاب النثرى الآخر للجامى المسمى (بهارستان) أو الروضة ألَّف – فيما يبدو – بأسلوب جلستان السعدى وطرازه ، وفصله الأول أجزاء عن سير المشايخ وأعمالهم والفصل السابع خاص بذكر الشعراء وأشعارهم ، وألف هذا الكتاب بأسلوب جميل وجذاب والقصد منه التعليم والتربية وتفريح الخواطر لا التحقيق الدقيق فى سير الرجال والتذكرة بهم ، وقد ازدان أسلوب هذا الكتاب أكثر من نفحات الأنس بالصنعة اللفظية والبدائع وترجم إلى الإنجليزية فى الهند [٢] .

(١) بحوزتى – حكمت – نسخة فاخرة لنفحات الأنس كانت ملك مكتبة الأمير مظفر حسين ولد أبى الغازى بايقرا ، وبها إضافات وإصلاحات كثيرة خلال السطور والحواشى بل وثمانى عشرة صفحة كاملة بخط مؤلفها أى مولانا الجامى (راجع كتابى عن الجامى (الجامى) طهران ١٣٢٠ هـ . ش، ص ١٧٦) .

(٢) قامت الجمعية المعروفة باسم كاما شاسترا Kama Shastra بترجمة هذا الكتاب إلى الإنجليزية ونشره بالهند، وطبع على الحجر فى طهران نصه الفارسى فى عام ١٣١١ هـ بيد محمد محيط الطباطبائى، وقدم له بدراسة وتحقيق .

تذكرة دولت شاه

الأمير دولت شاه بن علاء الدولة بختيشا الغازى السمرقندى هو مؤلف الكتاب المعروف بتذكرة الشعراء المؤلف بالفارسية والموجود والذى اطلع خاصة غالب الأوروبيين بالشعراء الفرس وطريق ترجمة فون هامر لهذا الكتاب [1] ، وتنقسم هذه التذكره إلى طبقات سبع للشعراء ذكر فى كل طبقة عشرين شاعراً معاصراً ، كما ذكر أحوال السلاطين والأمراء الذين عاش أولئك الشعراء حياتهم فى ظل حمايتهم مرفهين ، وله مقدمة أيضًا فى شرح صناعة الشعر ، وخاتمة تحوى سيرة سبعة من الشعراء عاصروا المؤلف وتحدث فيها عن فضائل الجامى ومكارمه وعن مراعيه حسين بايقرا ، ويتسم هذا الكتاب بكبير الجاذبية والأسر، لكنه غير دقيق وغير موثوق به ويتضمن منتخبات رائعة من الأشعار وقدراً كبيراً من الأخطاء التاريخية التى سببت أخطاء الفضلاء والدارسين المدققين حتى (ريبه) ، طبع هذا الكتاب على الحجر فى بمباى ١٨٨٧م ، ونشرته أنا أيضًا بالمطابقة على أفضل مخطوطاته التى كانت تحت تصرفى عام (١٩٠١م) كأول مجلد لسلسة كتب التاريخ الفارسى [2]، ونشرت ترجمته التركية بعنوان (سفينة الشعراء) بيد سليمان فهمى فى إسلامبول عام ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣م .

وإنى أقدم تعريف بحياة دولت شاه فى مجالس النفائس تأليف معاصره الأمير على شير (فى الفصل الخامس منه) حين ذكر فى ترجمة هذه المجالس الفارسية المسماة (لطائف نامة) فى المجلس الخامس وعنوانه (فى ذكر لفائف الأمراء وسائر أمراء خراسان الذى كان لهم سلامة الطبع واستقامة الذهن اللتان بعثتا على النظم لكنهم لم يداوموا فيه) قوله : هو الأمير دولت شاه ابن عم الأمير فيروز شاه ابن الأمير علاء الدولة الإسفرايينى ... التى كانت قانون أبائه وأجداده وأمسك بخيوط الفقر

(١) الترجمة الألمانية لفون هامر ، طبعة فيينا عام ١٨١٨م .

(٢) سلسلة النسخ الفارسية Persian Histaical Texts, val. I. المجلد الأول منها هو تذكرة الشعراء أو Memoirs of the poets طبعة براون وتصحيحه فى لندن عام ١٩٠١م ، وتشمل مقدمة إنجليزية من (١٦) صفحة و (١١) صفحة فارسية، ونفى الكتاب (٤٥٠) صفحة .

والقناعة والدهقنة ، وأنفق مدة حياته هذه وهو عبارة عن نقد عمره في اكتساب الفضائل والكمالات وهما جمال الإنسان وحليته ، وألف في الموضوع الذي ألفت أنا فيه هذا المختصر "مجمع الشعراء" يقف كل من يطالعه على استعدادات مؤلفه وكمالاته ، وله هذا المطلع :

ما أجملك إذ أنيرت عين الحياة من شمس عارضك

فأنيرت دار قلبي من تلك العين المنورة

ويضيف النوائي من بعد الثناء على هذا الكتاب أنه بلغه أخيراً نبأ وفاة مؤلفه [1] إلا أن تذكرة (مرآة الصفا) - نقلاً عن ريبه [2] - تذكر تاريخ موته أنه في عام (٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م) ولا يتطابق هذا التاريخ مع التاريخ الذي ذكره النوائي في كتابه المجالس وهو عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠م إلا إذا ذهبنا إلى أن هذا الخبر الذي بلغ الأمير على شير في ذلك الوقت كان كاذباً [3] ، ألفت تذكره دولت في عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م وقد أمضى المؤلف إذا ذاك نحو الخمسين سنة من عمرة [4] .

مجالس النفائس

ونبحث الآن كتاباً للأمير على شير مراعي الشعراء والأدباء والفنانين في عصره وهو بنفسه له مرتبه رفيعة في فن الشعر واسم هذا الكتاب (مجالس النفائس) الذي ألفه باللغة التركية الشرقية أو الجغاتائية، وهي لهجة للغة التركية جاهد هذا الأمير في نشرها وتنقيتها [5] .

(١) مجالس النفائس طبعة وترجمة طهران ١٣٢٣ هـ ، ص ١٠٨ ، ٢٨٢ .
(٢) فهرس ريبه، ص ٣٥٤ .
(٣) في النسخ المخطوطة لمجالس النفائس التي أدركها حكمت لم ترد هذه العبارة التي تشير إلى موت دولت شاه، ويبدو أن براون رأى هذه العبارة في النسخة التي بحوزته ويشك في صحتها .
(٤) لا يمكن الحصول على معلومات كثيرة من كتاب تذكرة الشعراء نفسه فيما يتصل بسرة المؤلف ، وقد ألف خلاصة في الصفحة ١٤ (المقدمة وصدر كتابه باسم السلطان والوزير على شير) .
(٥) توجد رسالة لعلى شير بالتركية الجغتائية اسمها (محاكمة اللغتين) ألفها في تفضيل التركية على الفارسية وترجمها إلى الفارسية تورخان الكنجني، وطبعت في طهران عام ١٣٢٧ش .

ألف هذا الكتاب عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠م ولدىّ منه نسخة نفيسة خُطّت عام ٩٣٧ هـ في سمر قند، ويشمل مقدمة وثمانية مجالس [1] .

المجلس الأول : فى ذكر الشعراء الذين توفوا وقت طفولة المؤلف ولم يتشرف بخدمتهم ويذكر منهم أولهم وأهمهم جميعًا قاسم الأنوار التبريزى الذى مات عام ٨٣٥ هـ قبل ولادة على شير بتسعة أعوام ، ومن الشعراء المشاهير الذين ذكرهم فى هذا الفصل : الشيخ آذرى الإسفراينى ، والكاتبى ، والبساطى ، ويحيى سيبك ، والقدسى ، والطوسى ، وباب سودائى ، والبدخشى ، وطالب الجاجرمى والعارفى والمسيحى وزمير شاهى السبروازى .

المجلس الثانى : فى ذكر الشعراء الذين عرفهم المؤلف بشخصه وصاحبهم، لكنهم توفوا فى تاريخ تأليف الكتاب وأهمهم شرف الدين على اليزدى مؤلف ظفرنامة التيمورى .

المجلس الثالث : فى ذكر الشعراء الذين كانوا يعيشون فى أوان تأليف الكتاب وزمان المؤلف، وكان لهم معرفة به، ومثل الأمير شيخم السهيلى، والسيفى، والآصفى، والبنائى، وأهلى التريشى .

المجلس الرابع : فى ذكر الفضلاء الذين لم يكن النظم شغلهم ، ولكنهم كانوا ينظمون أبياتًا بين الحين والآخر مثل حسين الواعظ الكاشفى والمؤرخ ميرخواند .

المجلس الخامس : فى ذكر السلاطين والأمراء فى خراسان وسائر البقاع الذين أتفق أنهم كانوا ينظمون الشعر .

المجلس السادس : فى ذكر الفضلاء والشعراء الذين لم يكونوا من أهل خراسان لكن كانت لهم قريحة شعرية .

(١) لدى حكمت ترجمتان لكتاب مجالس النفائس اسم أولادهما (لطائف نامه) لفخرى الهراتى فى ٩٢٧ هـ فى هراج، والأخرى ترجمة حكيم شاه محمد قزوينى فى التاريخ نفسه فى إسلام بول ، وطبعت هاتين الترجمتين بالتوالى عام ١٣٢٣ هـ . ش فى طهران، وقدمت لهما وحشيتهما .

المجلس السابع : فى ذكر السلاطين والأمراء الذين كانوا ينظمون الشعر بأنفسهم أو كانوا ينشدون أشعار الآخرين بطريقة رائعة بحيث يمكن وضعهم فى عداد الشعراء .

والملوك الذين ذكرهم فى هذا الفصل هم: تيمور شاهرخ، وخليل سلطان، وألغ بيك وبايسنقر وميرزا عبد اللطيف وغيرهم من أمراء الأسرة التيمورية .

المجلس الثامن : فى ذكر أوصاف سلطان الأوان ومواهبه أى سلطان حسين بن بايقرا، والإشارة إلى الأحداث السياسية فى أيام حكمه ، وقد أوقف على شير مثل ميرخواند فصلاً من كتابة كاملاً على هذا السلطان .

ألف مسيو بلين **M.Belin** مقالة فى المجلة الآسيوية عام ١٨٦١م شملت ١٥٨ صفحة فى سيرة على شير، وجعل عنوانها الطويل هذا العنوان :

(Notice biographique et literaire sur Mei Ali chir Névâii, d'extraits tirés des auvres du même auteur) (1)

وترجم جزءًا من مجالس النفائس وسماه **(Galerie des poétes)**، وهذا الجزء الذى ترجمه هو المقدمة والمجلس السابع .

ويختلف هذا الكتاب عن تذكرة دولت فى أنه ألف بالتركية وأقل منها حجمًا ويشمل وحسب الشعراء المعاصرين للمؤلف ، ويجب أن نعرض هذه النقطة وهى أن النوائى مع ماله من تأثير عظيم فى نشر الشعر التركى العثمانى وإيجاده إلا أن الشعراء العثمانيين كانوا مجهولين تمامًا لديه أو أنه لم يكن له بهم اطلاع، ولم يذكر واحداً منهم .

(١) مفهوم هذا العنوان الطويل (ملاحظات بيوجرافية وأدبية حول مير على شير النوائى وملحق بها خلاصة مستخرجة لأعمال المؤلف نفسه) (المترجم) .

مع أنهم قالوا (كلام الملوك ملوك الكلام) ومع أن الأمير سام ميرزا الصفوى وهو نفسه كان مترجمًا مؤلفًا للتذاكر، قد جعل فى كتابه (التحفة السامية) [1] كتاب مجالس العشاق برهانًا على المواهب الأدبية لمؤلفه ، إلا أن كتاب مجالس العشاق الذى ألف عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م لا يمكن أن يوضع فى عداد السير والتراجم الجديرة بالاهتمام . ويبدأ هذا الكتاب بمقدمة مزينة بطراز الصنعة البديعية ومحلاة بأشعار الصوفية وبيان العشق الحقيقى المجازى وأن الثانى (قنطرة) للأول ، ثم يضم بعد ذلك نحو سبع وسبعين مقالة تسمى بالمجالس، وروى فى كل منها سيرة تزيد أو تقل لعارف أو سلطان مشهور بشكل أسطورى ونسب فى غالب المواضع حبًا عذريًا لكل منهم .

وكما أشار (ريبه) (ص ٣٥١) فإن خمسة وخمسين مقالة من هذا الكتاب موضوعة بالترتيب التاريخى وتبدأ بالإمام جعفر الصادق (متوفى ١٥١ هـ / ٧٦٨م) وتنتهى بالشاعر والأستاذ المعاصر للمؤلف وهو عبد الرحمن الجامى (متوفى ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م) ، وآخر مقالات هذا الكتاب تختص بسيرة المؤلف أو السلطان حسين بايقرا ابن عمر شيخ ابن تيمور كوركان، وذكر اسم هذا الكتاب فى هذا البيت :

لما أن أوراقه مملوءة بحديث العشق   سمي بمجالس العشاق

والنسخة التى تحت طائلتى حديثة ومقروءة واضحة وملك مكتبة جامعة كمبردج ، لكنى سمعت أن هذا الكتاب طبع على الحجر فى لكهناو [2] ، لكن لابد من إضافة أن

(١) (تحفه سامى) تذكرة الشعراء التى ألفها سام ميرزا الصفوى ولد الشاه إسماعيل الأول والمولود عام ٩٢٣ هـ والمتوفى ٩٦٩ هـ، وتشمل أسماء سبعمائة شاعر وأعمالهم من المعاصرين له أو القريبين إلى عصره، ونشرها فى ١٣١٤ هـ ش وحيد الدستجردى ملحقًا لمجلة (أرمغان) فى عامها السادس عشر فى طهران .

(٢) توجد نسخة مخطوطة نفيسة لمجالس العشاق فى مكتبة مدرسة سب سالار العالية، والنسخة المطبوعة على الحجر التى أشار إليها براون طبعت فى ١٣١٣ هـ / ١٨٩٧م بمطبعة نولكشور فى كانبور .

باير فى كتابه باير نامة قد أنكر صحة نسبة هذا الكتاب للسلطان حسين وانتقده بشدة، وأظهر أن مؤلفه هو كمال الدين حسين الجازرجاهى، وكان شخصًا يدّعى التصوف، ويتردد على جماعة الفضلاء التى تجتمع تحت ظل حماية على شير(١) .

روضة الشهداء

الحسين الكاشفى (٢) الملقب بالواعظ مؤلف كتاب معروف بأنوار السهيلى بولغ فى قيمته وقدره ، لكن كتابه الآخر المسمى (روضة الشهداء) هو محل دراستنا، والذى يصف فيه بأسلوب إنشائى ومرصّع عن الشهداء فى الإسلام ويشمل ذكر الأنبياء والأئمة خاصة الإمام الحسين الإمام الثالث للشيعة، ويحكى كيف انتقموا من قاتليه وكان من الجدير بالذكر هذا الكتاب هنا مع أنه ليس بذى قيمه واعتبار كبير من الناحية التاريخية ، وطبع هذا الكتاب على الحجر عام ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠م وفصلٌ فيه

(١) نص كلام باير نامة ترجمة عبد الرحيم خانان هو : (والآخر كمال الدين حسين جاز رجاهى كان متصوفًا، ولم يكن مع ذلك صوفيًا، وكان هؤلاء المتصوفة يتجمعون عند على شير بيل ويظهران الوجد ويقومون بالسماع ... له تصنيف ويمكن القول إنه ليس تصنيف اسمه (مجالس العشاق) ألفه باسم السلطان حسين ، تأليف واهٍ جدوا وأكثره كذب غير مستساغ ، وذكر كلام مسيئًا الأدب بحيث يشتم من بعضه رائحة الكفر حتى إنه نسب إلى كثير من الأنبياء والأولياء العشق المجازى؛ وأوجد لكل منهم معشوقًا ومحبوبًا ، ومن العجب والحمق هذا الذى أسسه قاله فى ديباجة السلطان حسين ميرزا: وهو أن هذا التصنيف والتحرير من تأليفه) .

(٢) مولانا كمال الدين الحسين الواعظ القاشفى متوفى (٩١٠ هـ) وتاريخ وفاته مذكور فى هذا البيت :

صرف فى الوعظ أيام عمره ولهذا   صار تاريخ وفاته أنه (دست الهداية)

وكتابة (روضة الشهداء) ألفه بأمر أحد الأمراء والسادات الكبار والمسمى بمرشد الدولة والدين عبد الله المعروف بسيد ميرزا ، وبناءً على ما ذكره المؤلف فى حديثه عن واقعة كربلاء بقوله (وتمر ٨٤٧ سنة على هذه الواقعة)؛ فإن تاريخ تأليف الكتاب هو (٩٠٨) أى قبل وفاة المؤلف بعامين ، وقد أوجز هذا الكتاب فيما بعد بعنوان (منتخب روضة الشهداء)، ويشمل عشرة أبواب وخاتمة واصطلاح (قراءة الروض) نشأ عن قراءة هذا الكتاب (نقلاً عن روضات الجنات)، وللاطلاع على سيرة الكاشفى راجع حبب السير مجلد ٣ جـ ٣ – مجالس النفائس طبعة طهران – العلماء لميرزا عبد الله أفندى الأصفهانى – مجالس المؤمنين للقاضى الشوشترى .

رييه الشرح (فهرسه، ص ١٥٢) ، وترجمة إلى التركية وزاد عليه إضافات بعد نصف قرن من تأليفه فضولى البغدادى [١] .

رشحات عين الحياة

ينتسب هذا الكتاب المؤلف عام ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣م ومادة تاريخه حكمة (رشحات) نفسها إلى القرن التالى، ولكن بما أن مؤلفه فخر الدين على وهو ابن الحسين الواعظ الكاشفى قد جمعه من المذكرات التى تيسرت للمؤلف فى توفيقه لزيارة الخواجة عبيد الله المعروف بخواجة أو سيد الأحرار وهو الشيخ الأعظم للطريقة النقشبندية فى ذى القعدة عام ٨٨٩ هـ / وربيع الثانى ٨٩٣ هـ، وكتابة هذا أيضًا فى ذكر أسلاف الشيخ وتعاليمه وكرامات مريديه فإنه يستحق البحث فى هذا الفصل [٢] ، وتوجد نسخة لهذا الكتاب فى المتحف البريطانى فصلً رييه شرحه حولها (ص ٣٥٣) ، ونسخة نادرة ولم يطبع منها شىء ، أما ترجمته التركية فقد طبعت فى إسلامبول عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠م [٣] .

(١) فضولى أذربايجانى الأصل وبغدادى المسكن هو محمد بن سليمان توفى فى ٩٦٨ هـ أو ٩٧٠ هـ فى بغداد بالطاعون وتسمى لروضة الشهداء (حديقة السعداء) ، راجع فى سيرته الشعر العثمانى تأليف حبيب وتذكرة أبو طالب وتاريخ أدب إيران تأليف براون الجزء الرابع، وروميو وجوليت تأليف المترجم حكمت (المران ١٣٢٠ هـ . ش) .

(٢) فى الأصل الفارسى ما معناه (يستحق البحث فى هذا الكتاب)، ولا يتناسب مع سياق المعنى المراد، (المترجم) .

(٣) لدى المترجم نسخة مخطوطة كاملة من رشحات على بن الحسن الكاشفى المعروف والمتخلص بصفى ، ويجب – فيما يبدو – أن تكون قد خطت فى القرن العاشر الهجرى، وتبدأ بقوله (الحمد طن رش وشحات الحقائق والحكم على قلوب العارفين بفيضة الأقدس الأقدم ...) وينتهى بهذا الرباعى :

رشحاتنا كثيرة الركات تنفجر كما الخضر من عين الحياة

يحد الحاسبون المتزنو الصفات تاريخ إتمامه من حروف (رشحات) أى ٩٠٩ هـ .

ويشمل الكتاب مقدمة وثلاثة مقاصد وخاتمة، وله مؤلفان آخران أحدهما مثنوى (محمد وإياز) على طراز ليلى والمجنون، والثانى (لطائف الطوائف) فى الحكايات اللطيفة والمفكاهات وتوفى ٩٣٩ هـ .

المؤلفات التى ظهرت فى هذا العصر فى مجال أقسام العلوم تقل أهمية عن التاريخ والسير ، لكن كتابًا أو اثنين من كل نوع يستحق الذكر قد وصلنا :

المواهب العلية

ألف حسين الكاشفى (راجع فهرس ريبه، ص ٩) - الذى سبق ذكره وهو مؤلف روضة الشهداء - تفسيرًا بالفارسية للقرآن للأمير على شير سماه ملوحًا باسم ممدوحة على شير (المواهب العلية) ... وكان فى بداية الأمر يقصد أن يؤلف تفسيرًا عظيمًا فى مجلدات أربعة بنحو مفصل ومسهب اسمه جواهر التفسير لتحفة الأمير [1] ، لكن بعد إنهاء المجلد الأول رأى أن يوجز نطاق عمله، ويعد مؤلفًا أصغر وأقصر ، ومن هنا ألف كتابه المواهب العلية [2] فى ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣م قبل وفاة المؤلف بأحد عشر عامًا . ومخطوطات هذا الكتاب عديدة ، لكنهم فى إيران الآن لم يهتموا كثيرًا بدراسته ، وفيما أعلم فإنه يدرس كثيرًا فى الهند وطبع فيها على الحجر [3] .

(١) يشمل جواهر التفسير تفسير أول القرآن من سورة الفاتحة إلى الآية ٨٤ من سورة النساء، ويوجد لهذا الكتاب نسخ عديد فى مكتبات الهند وأوروبا وإسلام بول .

(٢) مواهب عليه أو التفسير الحسينى طبع مرة فى كلكتا عام ١٢٤٧ وأربع مرات فى بمباى، وثلاث مرات فى لكنا وأفضل طبعات الجزء الأول منه ما طبعته فى طهران مطبعة إقبال بسعى الصديق الفاضل محمد رضا جلالى، وتشمل مقدمة مفصلة ومفيد فى سيرة الكاشفى وآثارة وتعريف تفسيره وهذه الطبعة مع الأسف ناقصة والمجلد الثانى يضم حتى نهاية الجزء السادس عشر من القرآن، ولم يطبع أكثر من هذا .

(٣) لدى مخطوطة لتفسير المواهب العلية نسخت عام ٩٣٢ هـ ، ويكتب المؤلف فى نهاية بعد ذكر على شير : وأنشأ ابنى العزيز مازال قدره عاليًا وقلبه صافيًا فى تاريخ انهائه هذا الرباعى ، ويناسب إيراده فى آخر هذه الأوراق وهو هذا :

قلت للقلم الذى كتب كتاب الإقبال هذا وخط نهاية الكلام بأيمن الفأل اكتب اليوم والشهر والسنة لتاريخه فكتب فى الحال (الثانى من شهر شوال) و (دوم ازشهر نوال) أو الثانى من شهر شوال تساوى بحساب الجمل ٨٩٩ عام تأليفه .

أخلاق جلالى - أخلاق محسنى

من الرسالات المؤلفة بالفارسية فى علم الأخلاق كتابان مشهوران كثيراً ورائجان بعد أخلاق ناصر (تأليف نصير الدين الطوسى) [1] فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى وهما (أخلاق جلالى) أو (لواقع الإشراق فى مكارم الأخلاق) تأليف فيلسوف العصر جلال الدين محمد بن أسعد الدوانى ما بين عامى ١٤٧٧ و ١٤٦٧م باسم أوزون حسن أوقوينلو [2] ، والآخر (أخلاق محسنى) تأليف الكاشفى المذكور فى عام باسم حسين بايقرا فى عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م [3] ، وهذه الكتب الثلاثة جميعًا طبعت طبعات مختلفة بالرصاص والحجر، ونسخها المخطوطه وفيرة وترجم (أخلاق محسنى) هرتفورد فى عامى ١٨٢٣ و ١٨٥٠م، وطبعت ترجمته عام ١٨٥١م ، لأن هذا الكتاب رائج جداً مثل أنوار السهيلى ، ويمتحن فيه طلاب اللغة الفارسية المتقدمون للوظائف فى الإدارة الإنجليزية للهند .

ولأن الفهم والقريحة الإيرانية غالبًا ما تهتم بالمباحث العرفانية وما وراء الطبيعة فإن اهتمامها يقل بعلم الأخلاق وتتمثل قيمة هذه الكتب الثلاث فقط فى أنها تلقى شعاعًا على الآداب ونوعية الفكر لدى الإيرانيين ، وألف أخلاق جلالى بأسلوب كثير التكلف والصعوبة ، ومن كان يدرس فيما سبق فى جامعة كمبردج للدورة العليا لدراسة اللغة الفارسية .

(١) راجع فهرس ريبه، ص ٤٤١ ، والمجلد الثانى لتاريخ أدب إيران لبراون ص ٢٢٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٥ .

(٢) طبع على الحجر أخلاق جلالى أولاً فى كلكتا عام (١٨١٠م) ، ثم فى لكنا وعام (١٢٨٣م) ، وأعيد طبعه فى (١٣٣٤ / ١٩١٦م) ولدى المؤسف نسخة خطية نفيسة ، وألفه الدوانى فى شيراز باسم الأمير خليل ولد أوزون حسن وكان يحكم فارس من ٨٧٤ هـ إلى ٨٨٢ هـ ، وقد قلد المؤلف نصير الدين الطوسى فى أخلاق ناصرى، ويقول فى آخر كتابه: (الحكيم المحقق نصير الملة والدين محمد الطوسى الذى أكثر هذه اللوامع من ضياء إشراق أنوار فوائده ...) .

(٣) أخلاق المحسنى ألفه الكاشفى لأبى المحسن ميرزا ولد السلطان حسين فى عام (٩٠٠ هـ) الذى يتألف من كلمة (أخلاق محسنى) أيضًا فى قوله شعراً .

ألف أخلاق محسنى كله   واكتب تاريخ تأليفه أيضًا من (أخلاق محسنى)

ولهذا الكتاب طبعات عديدة فى الهند وأوروبا، وترجمة فى عام ١٨٥١ إلى الإنجليزية وطبعة (كين H.G. Keene) .

نفذت أفكار أرسطو في الغالب عن طريق الترجمات ، شروح ابن سينا إلى الفلسفة والفكر الإسلامى ، وينقسم علم الحكمة فى نظره إلى قسمين : الحكمة العملية والحكمة النظرية ينقسم كل واحد من هذين إلى ثلاث شعب : الفلسفة أو الحكمة النظرية تتشعب إلى: الرياضيات، والطبيعيات، والإلهيات (مافوق الطبيعة أو ما بعد الطبيعة) ، وتنقسم الفلسفة النظرية إلى : تهذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن ، وهذه المؤلفات الأخلاقية التى نبحثها الآن تتحدث عن الأقسام الثلاثة للفلسفة العملية .

ترجم هذان الكتابان أخلاق جلالى وأخلاق محسنى إلى الإنجليزية، وطبعت ترجمتهما فقد ترجم طومسون **(W.F. Thompson)** فى لندن عام ١٨٣٩م أخلاق جـــلالى بعنوان **(Practical phylosophy of the Muhmmadam People)** وطبع وترجم وطبع أخلاق محسنى فى هرتفورد **Hertford** عام ١٨٥١م، ويمكن للقراء الإنجليز مراجعتهما .

أما مؤلفا هذين الكتابين ، فقد ولد جلال الدين الدوانى عام ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م فى قرية دوان من فارس قرب كازرون وكان أبوه قاضيًا فى كازرون ، وأمضى هو بدوره الشطر الأعظم من عمره فى هذه الولاية، وكان يقضى أغلب وقته فى التدريس بمدرسة دار الأيتام، وتوفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م ودفن فى دوان مسقط رأسه ، وقد تجاوز شهرته وصيته حدود موطنه فى أيام حياته، واشتهر – كما ذكرنا – فى البلاط العثمانى (راجع فهرس ريبه، ص ٤٤٢) ، ومع كل شهرته لم يخلف عنه آثارًا مهمة كثيرة اللهم إلا كتابه هذا أخلاق الجلالى وبعض الرباعيات التى شرحها كما شرح غزلية لحافظ . أما سيرة الكاشفى مؤلف أخلاق محسنى فقد سبقت آنفًا .

جواهر الأسرار - اللوائح - أشعة اللمعات

فى قسم النثر الثلاثة المشار إليها فى العنوان كمثال ونموذج ، والكتاب الأول والثالث مشرح لكتابين سابقين، لكن الثانى كتاب مستقل .

(جـواهر الأسـرار وظواهر الأنوار) اسم شـرح على المثنوى القيم لجـلال الدين الرومى ألفه كمال الدين حسين الخوارزمى صاحب المؤلفات الكثيرة (راجع فهرس ريبه، ص ١٤٤)، وقتل على أيدى أوزبك ما وراء النهر بين سنتى ٨٣٥ هـ و ٨٤٠ هـ ، وهو تلميذ الصوفى المعروف الشيخ الخواجة أبو الوفا ، كان يطالع بدقة مثنوى الرومى من أيام شبابه ، وألف عليه شرحًا مختصرًا اسماه (كنز الحقائق)، لكنه ألف بعده جواهر الأسرار؛ وهو شرح أكثر تفصيلاً، وطبع على الحجر فى الهند، وتوجد منه نسخة خطية متوسطة الخط بالمتحف البريطانى[١] ، كما يوجد قسم واحد من الدفتر الثانى فى مكتبة جامعة كمبردج [٢] ، والقسم الأساسى لهذا الكتاب مقدمة تشمل تاريخ التصوف واصطلاحاته ومبادئة .

والكتابان الآخران هما من آثار القلم النثر التأليف للشاعر الكبير والعارف المعروف مولانا عبد الرحمن الجامى .

أشعة اللمعات

أشعة اللمعات شرح لكتاب لمعات الشيخ العراقى الذى ذكرناه فى الفصل السابق ، وعلاوة على نسخته الخطية - وهى وفيرة جدًا - فقد طبع هذا الكتاب أيضًا فى إيران بدون تاريخ، ويشمل معه أيضًا بضع رسالات عرفانية أخرى ، يذكر الجامى فى مقدمتة فيما يتصل بالمصادر الأصلية للكتاب :

أما بعد ، واضح أن فى ذاك الوقت الذى صاحب فيه شيخ العالم العامل العارف العاشق صاحب النثر الفائق والنظم الرائق "الساقى لأرباب الهم من جام الكرم" فخر الدين إبراهيم الهمدانى المشتهر بالعراقى صاحب قدوة العلماء المحققين وأسوة العرفاء الموحدين أبا المعالى صدر الحق والملة محمد القونيوى (قدس الله تعالى سرهما) وسمع عنه حقائق فصوص الحكم ، قد أعد مختصرًا وسماه اللمعات بسبب اشتماله على لمعات من لوارق تلك الحقائق ، وصب فيه بعبارات رائقة وإشارات خالبة جواهر النظم

(١) رقم 1451 - 8dd ، راجع فهرس ريبه، ص ٥٥٨ .
(٢) فهرس جامعة كمبردج 238 -Or

على النثر، وفرج لطائف العربية بالفارسية؛ فاتضحت منه آثار العلم والعرفان وبانت فيه أنوار الذوق والجودان لكى يوقظ النائم ويوقف اليقظات على الأسرار ويشعل نار العشق ويحرك سلسلة الشوق ، لكن بسبب أنه صار تلوكه ألسنة (شاتمين مشهورين عديدين) وأصبح تمزقه يد (ساقطين فاشلين عدة) رقم أهل التقليد عليه برقم الرفض وطووا عنه ثوب القبول ، وكنت أنا الفقير حين أرى هذا الرفض والإنكار لا أهتم بالاشغال بأمره إلى أن استدعى مقابلة الكتاب منى وتصحيحة من هو هذا الولاء أجل إخوان الصفاء وأعز خلان الوفاء ، سيّره الله على عباده العرفاء ، الذى تحقق صيته الميمون فى أثناء دعائى هذا له بأفضل صورة من صور الرمز والإيماء بين الله وبين عباده ، ولم يكن لى أمام طلبه غير الانقياد حيلة ، فلما تصديت لهذه المهمة ومررت على تفاصيل أجزائه رأيت فى كل ورقة منه لمعة من أنوار الحقائق، ولكل صفحة له نفحة من أزهار المعارف ؛ فوقع لباطنى انجذاب إلى فهم حقائقه وحصل لخاطرى اضطراب بسبب صعوبة إدراك مقاصده . كانت نسخ النص مختلفة وكان ينحرف بعضها عن طريق الصواب؛ فرجعت إلى الشروح فى مواضع الإجمال ومواقع الأشكال؛ فلم ينحل بشكل واحد ولم يُفَصِّل مجمل واحد ، فلا جرم أن مر على قلبى هذا الخاطر بفهم اللطائف الماثلة وتمكن هذا الحافز منى باكتناه الحقائق الناظرة وهما أن أجمع شرحاً ملتقطًا من كلام مشايخ الطريقة وكبراء الحقيقة خاصة الشخين محى الملة والدين محمد بن عربى ومريده وتلميذه صدر الحق والدين محمد القونيوى ومتابعتهما (قدس الله أسرارهما) من أجل تصحيح عباراته وتوضيح إشاراته ، فسكن الخاطر بمقتضى تلك الداعية إلى ارتكاب هذا الأمر الخطير وتم بإمداد التوفيق الإلهى فى أسرع وقت ، وبما أن كثير من تلك الأحاديث المندرجة فى ذاك الشرح من قبيل أنها أشعت على قلبى من تأملى فى نيرات كلمات هذا النص؛ فكان الأحرى أن أسميها أشعة اللمعات وأن تنجلى بهذه الصفة على نظر الطلاب ، والمأمول من الناظرين المنصفين وليس المنكرين المتصفين بالعناد حين ينظرون إلى هذه المجموعة ويوكلون أفكارهم فى مدارستها أن يعتبرا من مواهب الحق سبحانه وتعالى ما يرونه من خير وكمال وأن يرجعوا إلى عجزى وقصور بشريتى كل ما يجدونه من عيب ونقصان وألا يجعلوا منى أنا الحقير على الخصوص هدفًا لسهام ملامتهم وألا يلقوا بأنفسهم فى ورطة التشنيع والإساءة والتوفيق من الله سبحانه وتعالى) :

وبعد المقدمة ، يقوم بشرح طويل للنقاط المختلفة فى العرفان ملحق به أسئلة وأجوبة عليها لإزالة المشكلات من الكتاب وينتهى بقطعة ملمعة من العربية والفارسية يضع بها كلمة (تممته) تاريخ لإتمام الكتاب وهو عام ٨٨٥ هـ [١] ، وهذه القطعة هى :

بآثام البشرية (الجامى) أسير	محا الله آثار آثامه
وبتسويد هذا الشرح أصاب التوفيق	مقراً بزلات أقدامه
وإذا قال (تممته) قد بدا	بما قال تاريخ إتمامه

اللوائح

لوائح الجامى جمع لائحة أى اللمحة والضوء ، وهى رسالة نثرية فى التصوف تمتزج فيها الرباعيات بالنثر وتشمل ثلاثين لائحة [٢] ، وقد نشر هذا الكتاب مطبوعًا على الزنكوغراف بمقدمة وترجمة إلى الفرنسية وملحقات بسعى وينفليد E.H.Whinfield وبمعاونة العالم محمد عبد الوهاب القزوينى ، وفتح نشر هذا الكتاب الطريق أمام الدراسة والتحقيق للتصوف والعرفان بإيران .

وطبع هذا الكتاب القليل الحجم فى عام ١٩٠٦م بإشراف الجمعية الملكية الآسيوية بلندن (المجلد السادس عشر من السلسلة الحديث للترجمات الشرقية) .

وأجد من قطعات هذا الكتاب الكثيرة البهاء مناجاة وردت بديباجته يقول فيها :

"إلهى، إلهى! خلصنا من الاشتغال بالملاهى، وأرنا حقائق الأشياء كما هى، وافتح عن بصر بصيرتنا غشاوة الغفلة، وأرنا كل شىء كما هو ولا تُجل الغناء علينا بصورة

(١) تاريخ إتمام الكتاب يتحقق من حساب حروف كلمة (أتممته) وهو ٨٨٦ هـ، وليس من (تممته) إذ ينقص التاريخ منها ، راجع كتابى (الجامى)، ص ١٨١ طبعة طهران .
(٢) راجع مرة أخرى (الجامى) المرجع السابق، ص ١٧٠ .

الوجود ولا تجب بالغناء جمال الوجود عنا واجعل هذه الصور الخَيالية مرآة لتجليات جمالك وليس علة احتجابك وابتعادك ، واجعل هذه النقوش المتخيلة أساس العلم والبصيرة لدينا وليس آلة الجهالة والعمى . إن الحرمان والهجران كله منّا نحن فلا تكلنا إلى أنفسنا وتكرم بتخليصنا من نواتنا وهبنا المعرفة بك" .

آثار الحروفية

سبقت الإشارة فى الفصل السابق حين ذكر أتباع الفرقة الحروفية إلى بعض الكتب الأصيلة التى ألفها كبار هذه الطائف أو ألفت حولهم ، ومن وجهة النظر الأدبية الخالصة فإن أكثر هذه الكتب والآثار – باستثناء بعض الكتب المنظومة مثل إسكندر نامة (١) ، لا يحوى كبير القدر والاعتبار (٢) مع أنها من وجهة دراسة المذاهب والوقوف على الخصائص الذاتية – لأهل المنطقة – كثيرة الأهمية .

لا يزيد كتاب جاويدان نامة لفضل الله الإستراباذى مع اشتماله على موضوعات فى خفى الأسرار عن سلسلة من الأفكار المخلَّطة والمضطربة وغير المفهومة لدى القارئ المستجد وما يقبل الفهم والدراسة وليس غيره من كتاباته العديدة هو رسالته التى كتبها ليلة قتله إلى أحد مريديه ، ويتضح كذلك من هذه الرسالة أن فضل الله لقى مصرعه فى شيروان، وسمى هذا المكان (كربلاء) مشيرًا إلى حادثة استشهاد الحسين بكربلاء (٣) .

نفوذ العقيدة الحروفية فى تركيا

لم تقم هذه الفرقة كما ذكرنا بعمل مهم فى إيران بل امَّحت تمامًا منها بعد إفناء مؤسسها وخليفته ، لكن الأمر اختلف فى تركيا: إذ إنتشرت عقيدتهم انتشارًا

(١) ترجمة كليمات موارث ونشره فى المجلدات مع من سلسلة جيب التذكارية .

(٢) يصدق هذا الحكم على أعمال الحروفية بالفارسية، لكن لا ينطبق على التركية وإلا ما ذكر (جيب) كما سبق فى الفصل السابق أن أول شاعر حقيقى للتركية العثمانية هو (نسيمى) .

(٣) راجع المقالة الثانية لبراون فى الجورنال الآسيوى عدد يوليو ١٩٠٧م، ص ٩ .

بليغًا ومع ما لحق بهم من كافة ألوان التعذيب والعقاب التى ذكرها المؤرخون الأتراك فلقد دخل كثيرون متابعين هذه الفرقة أهمهم نسيمى الشاعر الذى سلخ حيًا فى مدينة حلب عام (٨٢٠ هـ / ١٤١٧م) بتهمة فساد العقيدة ، ويذكر (حبيب) بالتفصيل الملفت للاهتمام شرحًا عنه وعن الحروفية وكذلك تلميذه رفيعى الشاعر التركى مؤلف (بشارت نامة) [1]، وما يستلفت النظر هنا أن الكتب الحروفية التى عنوانها مركب من كلمة (نامة) مثل هذه الكتب المؤلفة بالفارسية : آدم نامة – عرش نامة – هدايت نامة – استوا نامة – كرسى نامة – محبت نامة وغيرها ، فى متناول أيدينا ، وفى اللغة التركية فضلاً عن كتاب بشارات نامة المذكور آنفا نجد غيره مثل: آخرت نامة، وفضيلت نامة، وفقر نامة، وكتبًا أخرى كثيرة أدرجت أسماءها فى المقالة الثانية التى أعددتها فى أدب الحروفية للمجلة الآسيوية الملكية بلندن فى عدد يوليو ١٩٠٧م، وذكرت بإيجاز ٤٥ مخطوطة لهذه الفرقة ، ومع هذا فى الفهرس الوارد بهذه المقالة ناقص ولم يحدث حتى الآن بحث ودراسة بنحو دقيق عنهم وهم يستحقون دراسات وتحقيقات أكثر .

ذكر الحروفية فى المصادر الإنجليزية والفرنسية

يمكن دراسة هذه الطائفة وفهم تاريخها وأدبها والبحث والتدقيق فيهم إلى حد ما عن طريق ما ذكرته بإجمالى المصادر الإنجليزية والفرنسية عنهم ، فعلى سبيل المثال تجد ما كتبته أنا عن كتاب الجاويدان الكبير [2] والمقالتين اللتين نشرتهما بمجلة الجمعية الآسيوية بإنجلترا والفصل الذى أعده (جيب) فى كتابه تاريخ الشعر التركى وكذلك فى الكتاب الذى نشر فى سلسلة جيب فى مجلدها التاسع عام ١٩٠٩م وعنوانه :

(١) راجع (حبيب) فى تاريخ الشعر العثمانى ، الجزء الأول، ص ٣٣٦ – ٣٣٨ .
(٢) راجع فهرس المخطوطات الفارسية بمكتبة جامعة كمبردج، تأليف براون، ص ٦٩ .

Textes persans relatif ála secte des Hoarov Fis, pubbies, Traduits et amnates par M-Clement Huart suivies d'une Etude sur la religion des havr av Fis, par le Dr. Rizá Tev Flg, Connu sous le nom de feylesouf rizá.[1].

رد أسحق أفندى على الحروفية

اسم الرد الذى ألفه أسحق أفندى عى الحروفية بالتركية عتام ١٢٨٨ هـ ونشره عام ١٢٩١ هـ هو (كشف الأسرار ودفع الأشرار) مع حدة ألفاظه وشدة عباراته إلا أن كلامه مقرون بالصحة ونتيجة تحقيقات دقيقة ، يذكر المؤلف فى كتابة هذا بعد الخطبة :

"فيكن معلومًا أن فرقة البكتاشية هى أكثر جميع هذه الفرق التى أوقفت نفسها على إضلال المسلمين جرمًا، ومع أنه لا يتضح أنهم مسلمون صادقون من فعلهم وكلامهم إلا أنهم أثبتوا هذا الأمر وحققوه بوجه حاسم فى ١٢٢٨هـ ذلك أن الكتب التى ألفتها هذه الفرقة باسم (الجاويدان) عددها ستة، ألف واحدًا منها زعيم هذه الفرقة فضل الله الحروفى وحرر الخمسة الآخرون خلفاؤه ، ومع أن الكفر والزندقة يتضحان من هذه الكتب الخمسة وأن هذه الفرقة تعودت على تعليم هذه الكتب فى الخفاء فيما بينهم ودراستها داخل أنفسهم لكن فى ذاك العام أتباع فرشته زاده تجاسروا ونشروا كتابه الجاويدان المسمى عشق نامة مع أنه أماط اللثام فيه عن وجه كفرياته ، فلأجل هذا توجب بدون جدال تأليف رسالة لتحذير المؤمنين وإظهار حقيقة ماهية هذه المعتقدات الباطلة داخل كتبهم ، فعقدت الهمة على تحرير هذه الرسالة معتمدًا على الله تعالى وصنفتها فى ثلاثة فصول هى :

(١) عنوان الكتاب الطويل معناه (النصوص الفارسية المتعلقة بفرقة الحروفية ، ونشر كليمان هوارث وترجمته وتحشيته ، وملحق بها دراسة حول عقيدة الحروفية من قبل الدكتور رضا توفيق المشهور باسم الفيلسوف رضا) . (المترجم)

الفصل الأول : بيان أصل فضل الله الحروفى ومبدئه وأصول بعض البكتاشية وقواعدهم .

الفصل الثانى : بيان كفريات جاويدان فرشته زاده .

الفصل الثالث : بيان الكفريات التى وردت فى كتب الجاويدان الأخرى .

ويشرح المؤلف بعد ذكر مختصر للقرامطة وغيرهم من الفرق القديمة وذكر فضل الله الإسترابادى مؤسس الفرقة الحروفية كيف أن ميران شاه ولد تيمور ، وكيف قيده بحبل وجرّه على رءوس الأشهاد فى الحوارى والسوق وأزال من الدنيا وجوده الخبيث ، وانتشر من بعد خلفاؤه التسعة فى أطراف العالم الإسلامى ودخل من بينهم من تلقب لعليٍّ الأعلى خليفة فضل الله توفى ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م تكية حاجى بكتاشى فى الأناضول، واستمال إليه قلوب قاطنيها، وبدأ فى الخفاء نشر مبادئ الجاويدان وتعاليمه وزعم أنها أسرار حاجى بكتاش مكنوناتة الخفية وسماها (الأسرار)، وكان عقاب من يفشيها الموت ، ولكى يكشف ويوضح بعض الرموز الغامضة والصفحات المبهمة للجاويدان ألفت الجماعة رسالة اسمها مفتاح الحياة لا يفهم معانى كتاب الجاويدان وغوامضه من لا يمتلك هذه الرسالة .

تعذيب الحروفية فى تركيا العثمانية

ومع وجود كافة الاحتياطات فى تركيا العثمانية فقد صار الحروفيون والبكتاشيون فى أكثر من مرة نهب التعذيب الشديد حدثت إحداها أواخر عام (١٢٤٠ هـ) فى عهد حكم محمود خان إذ قُتل كثير منهم وخربت تكايدهم وسلمت أموالهم إلى مريدى الطريقة النقشبندية ، ولم ينج بروحه من مشايخهم ومريديهم إلا من انسلك داخل الطريقة النقشبندية والقادرية والرفاعية والسعدية ، وأخذوا يبثون عقائدهم فيها متخذين كافة الاحتياطات السرية وألوان الحسم ، ومع حدوث هذه المصائب والشدائد كلها انبعثت بعجل عقائدهم ثانية وهى الآن فى بلاد تركيا خلافًا لإيران وهى أصل هذه الجماعة ومنشؤها ذات انتشار واسع، ويبدو أنه لم يبق أثر لهذه الفرقة فى إيران الآن

مع أن كثير من تعاليمهم وعقائدهم لا تزال موجودة بين عارفى إيران بلا جدال، كما اختلط كثير من نظرياتهم العجيبة واصطلاحاتهم الغريبة بمبادئ فوق مثل (البابية) التى سيلى شرحها فيما بعد .

الأدب التركى فى هذا العصر

نظرة إلى الأدب التركى

ذكرنا مراراً فى هذا الكتاب هذه القاعدة، وهى أن التاريخ الأدبى لشعب أو قوم لا ينحصر وينحدّ بالآثار التى تكتب باللغة الوطنية لهذا الشعب ، ولأجل هذه النظرة بحثنا المؤلفات العربية التى حررها الإيرانيون فى كتابنا هذا ، لأجل هذا السبب نفسه يلزمنا الحديث شىء من التفصيل عن الأدب الواسع والجدير بالاهتمام التركى أيضًا الذى ظهر فى القرن التاسع فى بلاط آل تيمور خاصة فى هراة فى عهد حكم أبى الغازى السلطان حسين (٨٧٨ - ٩١١ هـ / ١٤٧٣ - ١٥٠٥م) ، ومع أن الموجدين للأعمال بهذه اللغة التركية هم غالبًا من الترك ولم يكونوا إيرانيين لكن اللغة الفارسية والتركية سواء فيما وراء النهر أو التركستان انتشرتا وراجتا بالكامل متواكبتين ولا تزالان تتمتعان بالانتشار الواسع ، وعدد المتحدثين بهما من ذياك الوقت حتى اليوم عدد ملفت للاهتمام والملاحظة ، وبسبب أن اللغة الفارسية تحظى أكثر من التركية بحسن التعبير والاصطلاحات اللطيفة فقد كانت فى الأغلب تقع موقع الاستعمال ، بل إن أكثر السلاطين والأمراء الأتراك الأصل التيموريين مثل ألغ بك وباى سنغر ، وميرزا حيدر دوغلات بل والسلطان حسين بايقرا نفسه كانوا يستخدمون الفارسية فى مقاصدهم الأدبية ، إلا أن الأمير الكبير على شير النوائى بذل مساعية أكثر من الجميع لتقديم اللغة التركية الجغتائية وإعلاء قدرها وأسبغ عليها درجة اللغة الأدبية ومنزلتها .

خدمات على شير للغة والأدب التركى

سعى على شير النوائى فى رسالة ألفها بالتركية وسماها (محاكمة اللغتين) إلى إثبات تفوق التركية ورجاحتها على الفارسية بشكل صريح ، وقد تحدثنا سابقًا عن آثاره وتواليفه العديدة [١] ، ومن يُردْ دراسات أوسع؛ عليه الرجوع إلى المقالة التى كتبها بلين الفرنسى فى المجلة الآسيوية بفَرنسا عام ١٨٦١م؛ وكذلك مقالة المؤلف نفسه التى أعدها فى دراسة (محبوب القلوب) تأليف النوائى [٢]، وطبعت فى المجلة نفسها عام ١٨٦٦م وعنوانها :

" Caractéres Maximes et pensées de Mir Ali chir Névâii" [3].

كما يذكر دولت شاه فى خاتمة تذكرته عديداً من الشعراء الأتراك بين معاصرية ، كما وردت أسماء مؤلفات عديدة وآثار كثيرة بهذه اللغة نثرًا ونظمًا فى فهرس (رييه) للمخطوطات التركية بالمتحف البريطانى ، وهى جميعًا من إنتاج هذا العصر .

ومع كل هذا فلا تستحق هذه اللهجة الخاصة التركية عناء التعليم إلا من دارسى الأدب التركى اللهم إلا مجرد قراءة كتاب نسيج وحده فى نوعه ، وألف باللغة الجغتائية وهو باير نامة أو مذكرات باير ملك الهند لأنه يلزم قراءة الإنجليزية أو الفرنسية [٤] ، لطلاب تاريخ إيران والهند إذا كان لديهم معرفة بهاتين اللغتين . ولا يمكن بأية حال وصف الحماس الذى انتاب مترجميه أى إرسكين الإنجليزية [٥] وبافت دى كورتى الفرنسى [٦] ، وغيرهما وقد تحملوا المشقة من أجل هذا الكتاب بالمبالغة والإفراط ؛ لأن

(١) لمزيد من الدراسة الآثار النوائى لابد من مراجعة منشورات جمهورية أوزبكستان السوفيتية التى نشرتها عام ١٩٤٨م بمناسبة الاحتفال الخمسمائة عشر لذكرى ميلاد النوائى فى تاشقند ، وقد طبعت آثار هذا العالم بجميع لغات الاتحاد السوفيتى ، وقدم فيها دارسوا هذه البلاد دراسات دقيقة ومفصلة عن هذا الأمير .

(٢) طبع فيما يبدو كتاب محبوب القلوب فى إسلامبول عام ١٨٧٢م .

(٣) معنى عنوان مقالة بلين هو (شخصية مير على شير نوائى ومبادئه وأفكاره . (المترجم)

(٤) ترجم دى كورتى هذا الكتاب عن التركية مباشرة ؛ ولهذا تتميز وتفضل ترجمة إرسكين وليدن لهذا الكتاب عن النص الفارسى .

(٥) راجع تاريخ الهند جـ١ ، ص ٥٢٢ تأليف إرسكين .

(٦) راجع مقدمة الترجمة الفرنسية، ص ٢ .

من تصفح هذا الكتاب بعين التدفيق يعلم أن له وضعًا خاصًا ولمؤلفه أوضاعًا وحالات خاصة تضفى على كتابه أهمية ومنزلة متميزة .

كل من قرأ باير نامة أثنى عليه

محال أن نجد فى وصف هذا الكتاب أفضل من وصف (الفينستون Elohin-stone) الإنجليزى [1] حين يصفه بقوله :

باير نامة يشمل تاريخًا دقيقًا لحياة واحد من السلاطين العظام التتار أظهر مؤلفه خلاله بشكل طبيعى آراءه وميوله خاليه من أى إخفاء وامتناع ، وفى الوقت نفسه متجافيًا عن كل المشاعر المفرطة فى التعصب أو الانحياز وبكامل الصراحة ، وأسلوب تحرير الكتاب كثير البساطة وعديم التلكف وفى الوقت نفسه حى ويموج بالحركة، ويبرز كالمرآة مزايا أهل عصره وبلاده فى السلوك والمظهر والتعامل والأحوال بوضوح وجلاء تامين ، ويمكن عده هذه الناحية النموذج الوحيد للتاريخ الصادق فى آسيا لأن الكتاب العاديين يسهبون الوصف والشرح فى مؤلفاتهم عن أعمال السلاطين والإغراق فى مدحهم بألفاظ فخمة وسامقة، لكنهم يتجاهلون ذكر أحوالهم وسلوك طبقتهم نفسها وأحداثها نفسه ويغضبون الطرف تمامًا عما يدنو طبقتهم من سائر الطبقات الدنيا ، لكن فى باير نامة - وعلى النقيض منهم - أظهر المؤلف الشخصيات والأدبيات والألبسة والأفراد وجسّم هذه الموضوعات بوصف بالغ الدقة حتى إن القارئ يرى نفسه بينهم وكأنه يعاين أولئك الناس ، ويفهم جيداً أخلاقهم وصفاتهم ويصف البلاد ، والولايات ، والمناظر ، والأقاليم ، والمحصولات ، أو المصنوعات الجميلة واليدوية فيما سافر إليه من مدن بالدقة والصدق والكمال الذى يقل نظيره حتى كتب رحلات السياحيين المحدثين خاصة حين نأخذ فى النظر الأوضاع والأحوال التى عاشها المؤلف وقت تأليفه لتلك المذكرات نقف حقًا معجبين مبهوتين .

كان هذا الكلام اليفنستون فى باير نامة ، وحقًا إنه كتاب تجاوز المعتاد فى سهولته وعدم تكلفه كأن مؤلفه كان يقص مذكراته لتسلية خاطره ، ولا يقصد أن

(١) راجع تاريخ الهند ج٢ ، ص ١١٧ .

يضطلع عليها أقرب المقربين إليه، ويمكن القول إنه لم يؤلف ملك قط وبأى صورة مثل هذا الكتاب حتى الآن ، ولم تذع مذكراته بهذا الحد من الانتشار الذى ذاع به باير نامة .

وفى الوقت نفسه الذى يسجل غالب الوقائع التاريخية العظيمة التى شارك فيها بنفسه لا يغفل عن ذكر التفصيلات ، فقد ذكر مثلاً كيف أنه حلق لحيته وشاربه لأول مرة فى الثالث والعشرين من عمره فى عام ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣م [١] ، وكيف شاهد لأول مرة نجم السهيل فى السماء [٢] أو أول مرة اجتاحته الرغبة فى تناول الخمر فى هراة عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٥م [٣] ، كذلك أول مرة جرب طبعه فى نظم الشعر التركى [٤] ويحكى كذلك كيفية زواجه غير الموفق من عائشة سلطان بيجوم [٥] ، وكذلك يجدر بالنظر ذكر عشقة المفرط المجنون لبابرى [٦] ، ومجالس شربه الخمر [٧] ، وتفصيل قطف العنب [٨] ووصف مجلس شرب خمر تعمد فيه اجتناب شرب المسكرات لكى يشاهد أثر السكر على عقول الشاربين ويحقق كيفيته ويعاينة بشكل غير منحاز وواقعى [٩] .

وقد سبق ذكر مبلغ قيمة الملاحظات والدقائق الجغرافية لهذا الكتاب ، غير أن مذكراته عن النباتات والحيوانات فى أسيا المركزية والهند أيضاً إلى الدرجة نفسها من الدقة ، كذلك آراؤه الدقيقة والخالية من الانحياز التى أبداها حول صفات الناس وعاداتهم ومن بينهم أقاربة الحكام والمعروفين فى عصره تتميز كلها بفائدة عظيمة وقيمة متناهية .

(١) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ١٤٦ .
(٢) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ١٥٣ .
(٣) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٢٣٩ .
(٤) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ١٠٧ .
(٥) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٦٢ .
(٦) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٦٣ .
(٧) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ .
(٨) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٦ .
(٩) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٣٠٤ .

وصف الأدباء والفنانين فى باير نامة

ليس يفضل فى الأهمية والفائدة الجزء الذى خصصه للأدباء والشعراء والمنشئين والفنانين أى جزء آخر من مذكراته من وجهة نظر دراستنا الحالية [١] ، فقد اعتقد بتميز رجال بلاط السلطان حسين على وجه الخصوص فبدأ أولاً بوصف هذا السلطان ثم ثنى بوزيره الشهير وأميره الكامل الصفات على شير [٢] ، ولأن سائر هذا الفصل يمكن مطالعته بالفرنسية فى ترجمة بافت دى كورتى (من ص ٣٦٤ إلى ٤١٥) فيكفينا هنا أن ننقل باختصار بعض الفقرات المفيدة من هذا الكتاب .

بعد أن يتحدث باير عن مولد السلطان حسين ، ووفاته وأسرته ، وصورته الجسدية يصف عقيدته الدينية ويذكر ميله إلى التشيع؛ إذ مال إلى هذا المذهب فى بداية حكمه لكن وزيره على شير كان يمنعه عن هذا المذهب ، كما يشير إلى مرض الروماتيزم المزمن الذى أصيب به، وأنه كان يمنعه من أداء الصلاة، لكنه لم يكن عذراً له عن ترك الصيام ، ونص عبارته هو [٣] :

(كان تائبًا ملتزمًا فى أول أخذه العرش حتى ستة أو سبعة أعوام ثم انهمك بعد ذلك فى شرب الخمر ، وظل يحكم خراسان نحو أربعين عامًا لم يمر منها يوم لم يشرب الخمر بعد صلاة العشاء فيه ، لكنه لم يشرب فى الصباح ، وكان أولاده وجميع جيشه وأهل مدينته على هذه الحال ، كانوا يفرطون فى المجون والفسق ، لكنه كان شجاعًا وبطلاً ، جالد بسيفه مراراً ولا نعرف واحداً من أولاد تيمور مثل السلطان حسين ، كان مطبوعًا على النظم أيضًا ورتب ديوانًا وكان ينظم بالتركية متخلصًا بالحسينى [٤] وبعض أبياته جيد ، لكن جميع أبيات ديوان فى وزن واحد) .

(١) راجع باير نامة طبعة ايلمينكس ، ص ٢٢١ - ٢٣١ .
(٢) راجع باير نامة طبعة ايلمينسكى .
(٣) نقلاً عن الترجمة الفارسية لباير يامه طبعة بمباى (ملك الكتاب) .
(٤) ذكر تخلصه (حسن) فى النص الإنجليزى بينما تخلصه كان (حسينى) كما هو معروف ، ولا نعلم كيف نشأ هذا الخطأ (راجع مجالس النفائس طبعة المترجم ، ص ١٣١) .

ويذكر أيضًا أن حدود ملكه كان يصل فى خراسان من المشرق إلى بلخ ، ومن الغرب إلى بسطام والدامغان ، ومن الشمال إلى خوارزم (خيوه) ، ومن الجنوب إلى قندهار وسيستان .

ثم يقول (كان عصرًا عجيبًا) وكانت كل من خراسان وهراة خاصة تمتلىء بالفنانين والصناع الذين ينعدم نظراؤهم، وكل من كان يلتزم بعمل كان يصرف همته وعنايته إليه بحيث يبلغ به أقصى الكمال .

وبعد السلطان يذكر على شير ويفيض فى مدح ذوقه الشعرى فله منزلة عالية فى أشعار العشق والغزل والرباعى لكنه يقل فى فن الكتابة الإنشائية ، ومع أن عديداً من شعره بالتركية إلا أن له ديوانًا بالفارسية تخلص فيه (بالفانى)، وكان راعيًا وحاميًا للفنون الجميلة والأدب ويدين الرسامون فى عهده مثل بهزاد وشاه مظفر الدين حصلا على شهرة عظيمة فى تلك الفترة بتشجيعه ، وكان شديد الولع والحب للشطرنج ، ولهذا كان يغلب (بيرمرتاض) الحكيم الذى كان يلاعب ندين ماهرين فى آنٍ واحد أحدهما يلاعبه فى حضوره منه والآخر فى غياب ... ويذكر أيضًا أن هذا الأمير كان يعيش عزبًا ويحيا حرًا من الزواج، وكان متحررًا مع أصدقائه ويجيز التساهل والتسامح معهم: ذات يوم يمدد على شير بك قدمه فى مجلس الشطرنج، فكانت تصل إلــى المولى بنائى فيقول على شير متفاكهًا : ما أعجب هراة هذه البلوى حين تمد قدمك فيها تصل إلى شاعر ، فيرد بنائى (حتى لو سحبتها تصل أيضًا إلى الشاعر) (ص ١١٤، طبعة بمباى) .

ويصف شيخم بك السهيلى وهو واحد من أمراء السلطان حسين كان له قريحة وذوق شعرى ، ولكنه كان ينتقد عليه أنه كان يستخدم أفكارًا وألفاظًا مرعبة ومفزعة فى غير محلها من ضمن ذلك بيته هذا :

فى ليل الحزن أزالت عاصفة آهاتى الفلك عن موضعه

والتهمت أفاعى سيل دموعى الربع المسكون

ومشهور أنه لما قرأ شعره هذا على مولانا عبد الرحمن الجازرجاهى ويقول فى حقه (هل تنظيم الشعر أو تخفيف الناس ؟) .

ثم يتحدث بعد هذا بابر عن كمال الدين حسين البازرجاهى، ويقول فى حقه: (مولانا مع أنه لم يكن صوفياً كان يتظاهر بالصوف ، لأنه كان يجتمع مع الآخرين فى أطراف بلاط على شير بك ويشاركهم الوجد والسماع ، لكن كان لهذا الرجل مبادئ وأصول أفضل من غالبهم؛ ولهذا يستحق الاهتمام والذكر ، وإلا فليس له غير ذلك وجه للتميز يقبل الذكر [1] ، وله كتاب ألفه وسماه مجالس العشاق نسب تأليفه للسلطان حسين ميرزا [2] ، وهو تأليف ضعيف وأغلبه يحتوى على أكاذيب غير مستساغة وتزوير غير مناسب يصل بعضها إلى حد الكفر والزندقة، وقد نسب فيه العشق المجازى إلى غالب الأنبياء والأئمة واخترع لكل منهم قصة من الفسق والفجور ، ومن علامات حمقه وسخفه أيضاً هو رغم أنه اعتبر فى المقدمة هذا الكتاب تأليفاً للسطان حسين نفسه ونسبه إليه لكنه غالباً ما كان يكتب بأعلى ما يذكره فى كتابة من شعره وأبياته كلمة (مؤلفة) .

ولم ينتقد بنقد بابر الجامى أكثر شعراء هذا العصر ، ولم يذكره بالتفصيل بل اكتفى بقوله : لم يكن أحد فى قدره فى علوم الظاهر والباطن فى عصره معروف والجناب المولى أعلى من أن يحتاج إلى التعريف ، وجال ذكره فى خاطرى لكى يذكر اسمه فى هذا الكتاب الحقير من أجل التيمن والتبرك به، ونسطر شمة من صفاته) (ص ١٣، من طبعة بمباى) .

ثم يذكر بعد ذلك شيخ الإسلام سيف الدين أحمد التفتازانى [3] حفيد سعد الدين التفازانى المعروف ويقول : (كان رجلاً كثير العلم ويتقن معرفة العلوم العربية والعقلية

(١) عبارة طبعة بمباى الفارسية معناها (كان مثل هؤلاء الصوفية تتجمعون ويظهرون الوجود ويقومون بالسماع وكان يفضل غالبهم فى تلك الأصول) ، والظاهر أن هذه الأصول هى أصول أوزان الموسيقى وليس بمعنى المبادئ والقيم كما جاء فى الترجمة الإنجليزية .

(٢) راجع هذا الكتاب فى ذكر مجالس العشاق على أنه كتاب لحين بايقرا .

(٣) راجع فى سيرة سيف الدين التفتارانى فى حبيب السير مجلد ٣، ص ٣٤٣ .

وكان كثير التقوى والتدين ، قيل إنه لم يترك صلاة الجماعة لنحو سبعين عاماً، وقد قتله الشاه إسماعيل الصفوى بيد أحد القزل باشية، ولم يعقب أحد) (ص ١١٣ م طبعة بمباى) .

وكان سبب قتله أنه امتنع عن قبول المذهب الشيعى الذى اشتهر الشاه إسماعيل بالتعصب له .

ثم يذكر باير شرحًا مفصلاً لمريد الجامى وتلميذه مولانا عبد الغافور اللارى [١] ، وهو الذى كتب حواشى على نفحات الأنس فيقول (كان رجلاً بلا انحياز أو تكلف لم يكن يُعار من الانسلاك فى أتباع أى رجل كان يقال له مولانا ، ولم يك يقر قراره حتى يبلغ المكان الذى يوجد به صوفى) (ص ١٢، طبعة بمباى) .

ثم يذكر بعد ذلك عن عطاء الله المشهدى ويقول (كان يحذق العلوم العربية وألف فى القافية رسالة فارسية، وعيبه أنه كان يأتى بأشعاره هو للتمثيل ، وأنه كان يلتزم بإيراده قبل كل بيت قوله (قلت) ، وله رسالة أخرى فى علم الصناعة البديعية والشعر اسمها بدائع الصنائع [٢] (ص ١١٤ طبعة بمباى) .

ويذكر فوق من ذكر من الشعراء آصفى وبنائى وسيفى البخارائى مؤلف رسالة مفيدة فى علم العروض والهاتفى ابن اخت الجامى واسمه عبد الله مثنوى كو أو ناظم المثنوى ، ثم حسين المعمائى ، ومحمد البدخشى ، ويوسف بديعى ، وأهى ومحمد صالح ، وشيخ حسن كامى ، وأهلى وهلالى ، وانتقد مثنوى (شاه ودرويش) تأليف هلالى

(١) مولانا رضى الدين عبد الغفور اللارى من خواص مريدى الجامى ، وله حاشية عى نفحات الأنس ، ومات ٩١٢ فى هراج وقبره بجوار قبر أستاذه فى شارع هراة ، راجع فى سيرته عين الحياة، وكتاب المترجم (الجامى) ص ١٧٦ .

(٢) رسالة فى علم القوافى تأليف عطاء الله بن محمود الحسينى ولدى المترجم مخطوطة لها ألفها باسم النوائى وتشمل تسعة حروف بعدد حروف القافية ، الحرف الأول : فى تعريف القافية ، والثانى : فى تعداد حروفها وبيان حروف الروى ، والثالث : فى بيان الحروف بعد الروى ، والرابع : فى حركات القافية ، والخامس : فى أنواع الروى ، والسادس : فى أنواع القافية ، والسابع : فى عبوب القافية الملقبة والثامن : فى عيوبها غير الملقبة، والتاسع : فى دراسة الحاجب والرف ... وسمى هذه الرسالة فى مقدمتها (منتخب كتاب تكميل الصناعة) .

بشدة قائلاً (جعل هلالى الدرويش عاشقًا والشاه معشوقًا؛ والنتيجة أن الدرويش أتى بفاحشة كثير فى الشاه، ومن أجل مثنوية جعل قليل الأدب جداً) (ص ١٥٥، طبعة بمباى) .

وتحدث باير عن الخطاطين بعد الشعراء ويذكر منهم سلطان على المشهد الذى كان يستنسخ للسلطان حسين والنوائى ويقول إنه كان يخط كل يوم ثلاثين بيتًا للملك ، وثلاثين آخرين للوزير .

ويذكر من النقاشين والمصورين بهزاد وشاه مظفر الذى كان شاعراً ويقول فى حق بهزاد : (جعل أمر التصوير رقيقًا جداً لكنه كان يرسم الوجوه غير الملتحية بطريقة سيئة ، وكان يضخم من غبغب الواحد منهم ، وكان يحسن رسم وجوه الملتحين) (ص ١١٥، طبعة بمباى) .

وفى موضع آخر ضمن حديثه عن شيبانى خان بعد فتحه هراة عام ٩١٣ هـ يتعجب من أمره حين كان يريد إصلاح رسوم بهزاد وإكمالها ، ثم يتحدث عن كثير من علماء الموسيقى والملحنين والعازفين والمطربين والمنشدين .

وفرة مصادر التاريخ لهذا العصر

المصادر اللازمة للتاريخ الأدبى لهذا العصر خاصة ما يتعلق منها بالشعراء كثيرة الوفرة والثقة لأنه يوجد علاوة على مذكرات باير التى تحدثنا عنها الآن تذكرة للشعراء مفصلة ألفها دولت شاه عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م ، كذلك ألف النوائى بعده بأربعة أعوام تذكرة مجالس النفائس ، وقد ذكرناهما من قبل ، ومن الأعمال المتعلقة بهذا العصر مجموعة أخرى بقلم أحد الأمراء واسمه ميرزا سام ولد الشاه إسماعيل الصفوى ، وقد ولد ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م ، وقتل فى ٩٨٤ هـ ١٥٧٦م ألف تذكرته باسم (التحفة السامية) فى ٩٥٧ هـ /١٥٥٠م ، وسوف نتحدث عن هذا الكتاب ومخطوطاته القليلة فى الجزء الرابع لهذا التاريخ ، كذلك فالمذكرات المتعلقة بسير الرجال والتى كتبت بشكل مفصل فى تاريخ حبيب السير تأليف خواند مير مصدر آخر للاعتماد عليه .

ومذكرات باير هى الأكثر فائدة وطلبًا من سائر هذه المصادر لأنها تتمتع بجانب النقد ، وجانب الفكاهة وهما جانبان لا يوجدان فى آثار كتاب التذاكر الآخرين ، لأنهم مزجوا سير الرجال بأوصاف ومديح مبالغ فيه ، وضيعوا القيمة الحقيقية للسيرة .

الفصل الثامن

شعراء العصر التيمورى

الذوق الأدبى فى العصر التيمورى

كما تكررت الإشارة فيما سبق إلى الذوق المتميز للفن وللفنون الجميلة فى العصر التيمورى بما فيها من الشعر أو التصوير قلما يتفق مع الذوق الحديث للأوربيين ، مع أن شعر هذا العصر يشبة كثيراً من الناحية الأدبية الأشعار التى نظمها الشاعر الإنجليزى (جون ليلى Johm LyLy) [1] وتلامذته اليوفسيتون Euphuists فى إنجلترا بعد شهرة الجامى بإيران بقرن من الزمان ، ففى إنجلترا لقى هذا الأسلوب المتصنع الشعرى والذى يفيض بالتكلف اللفظى قبول العامة فى عهد قصير، لكنه كان فى إيران محل الاهتمام فى مدة طويلة بالتناوب خاصة حين كان يزدهر فى ظل رعاية السلاطين الأتراك والمغول ، ولكن هذا الأزدهار والرواج لم يكن دائمًا، ولم يعم وينتشر فى سائر إيران لأنه يوجد نماذج كثيرة من الشعر والنثر الفارسيين وتزيّنا بحلية السهولة والسلاسة والجزالة الطبيعية ، وقد ظهرت قبل هذا العصر وبعده معًا .

التأثير العظيم للفارسية فى الشعرين التركى والهندى فى هذا العصر

ومع أن الأسلوب الأدبى الرائج فى هذا العصر هو الفارسية المصنوعة والممزوجة بالتكلفات اللفظية فمع هذا لم يحدث أن بلغ فى أى عصر آخر مثل هذا النفوذ الأدبى للفارسية فى البلاد المجاورة لإيران هى تركيا والهند وما وراء النهر ، وثبت واستقر هذا الأسلوب والنهج فى سائر بلاد آسيا الوسطى إلى حد أن وقر فى ذهن الدراسين

(١) الشاعر الإنجليزى جون ليلى مولود عام ١٥٥٣م وألف كتاب الـ (Euphues) و (the Anatamuy) أو تشريح الذكاء .

خاصة من درس منهم علم اللغة فى الهند أن هذا الأسلوب الشعرى والنوثرى هو خاص فقط باللغة الفارسية ، بينما من المسلم به أن الإيرانيين والأتراك والهند لم يكونوا وحدهم يتبعون هذا الأسلوب بل كان العرب أيضًا ، مع أن طبعهم القومى يميل إلى الأسلوب السهل والسلس وقلما نسوا حكمتهم الأدبية القديمة (خير الكلام ما قل ودل)، يميلون إلى الاهتمام فى مقالاتهم الأدبية أكثر إلى الصورة واللفظ وقلما اهتموا بأفكار الكلام ومعاينة ، واعتنوا بأسلوب المقال وصورة الكلام أكثر من رعايتهم مفاده ومفهومه وفضلوا الكلام المصنوع والمتكلف على البسيط والسلس ، وما أورده ابن خلدون فى هذا المقام معلومة كثيرة الفائدة [1] ، وهذا المؤرخ الكبير والمبتكر لم يعاصر تيمور وحسب ؛ بل واتصل به ولاقاه شخصيًا؛ إذ تلاقى به فى أواخر عام (١٤٠٠م) حين كان يفتح دمشق ، ولدراسة قوله يراجع الجزء السابق من هذا الكتاب [2] .

ويمكن للدراس وطالب الأدب المتابع الشعر الفارسى ويريد التعرف على أسلوب

(١) ابن خلدون هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمى الاشبيلى المولود بتونس ١٣٣٢م ، والمتوفى بالقاهرة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م، وهو القاضى المالكى بالقاهرة وصاحب كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر فى تاريخ العجم والعرب والبربر ، راجع الضوء اللامع وحياة ابن خلدون تأليف سيد محمد الخضر وفلسفة ابن خلدون تأليف الدكتور طه حسين ، ونص ابن خلدون ننقله هنا من المقدمة فصل ٤٨ من القسم السادس لفائدته العظمى : اعلم أن صناعة الكلام نظمًا ونثرًا إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى وإنما المعانى تبع لها وهى أصل فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب لكثرة استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر ويتخلص عن العجمة التى ربى عليها فى جبله، ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم إن قدمنا لذلك أن للسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل ، والذى فى اللسان والنطق أنا هو فى الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر وأيضًا فى المعانى موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعانى فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد فى نفسه، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لها باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه باعتباره تطبيقه على المقاصد والمعانى واحدة فى نفسها ، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذى يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه (والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

(٢) الجزء الثانى من تاريخ الأدب بإيران تأليف براون، ص ١٧ - ٨٩ .

الأدباء المتصنعين لهذا العصر على وجه الخصوص أن يراجع كتاب أنيس العشاق الذى ألفه شرف الدين الرامى فى مراغة من آذربايجان عام ٨٢٦ هـ، وترجم هذا الكتاب هوارت الفرنسى (M.CL. Huart) ونشره فى باريس عام ١٨٧٥م، وقد شرحته فى الجزء السابق [١] .

أسلوب الشعر المتصنع لم يكن عاماً[٢]

ولا يجب الاعتقاد بأن جميع الشعراء الذين كانوا فى هذا العصر أو ذكرنا أسماءهم فى هذا الفصل بل أولئك الذين كانوا يعيشون فى بلاط بايقرا بهرات قد

(١) رسالة أنيس العشاق أشق الدين الرامى باهتمام عباس إقبال وتقديمه طبعت ١٣٢٥ ش بطهران وشرف الدين هذا هو حسين بن محمد التبريزى من شعراء بلاط أويس جلاير وألف رسالة باسمه ، وننقل ما يلى من مقدمته للتمثيل على إنشائه المتكلف : "أما بعد، فالعرض من هذه المقدمات أنه فى تاريخ الفتح المتزايد لحضرة الملك أخذ البلاد إسكندر الزمان مولى ملوك العرب والعجم مالك رقاب الأمم حافظ بلاد الله ناصر عباد الله المؤيد من السماء المظفر على الأعداء باسط الأمن ناشر العدل والإحسان ظل الله فى الأرض قهرمان أهل الدنيا بالطول والعرض سلطانه ، ذات يوم كنت فى داخلى الصافى قد أحرمت الطواف بأشرف رصد كعبة الحكماء سلطان العلماء أستاذ البشر أفضل المتأخرين نصير الحق والدين محمد بن محمد بن الطوسى الأرق كأنه زينة الجنان :

فيكن مسيحاً فى معجزة إحياء التراب ليزيل رونق كل معجزات عيسى

فبلغ مسمع روحى من هاتف الغيب إشارة (فانظروا إلى آثار رحمة الله) فقت متعجباً :

أى جمال وشباب للدنيا وأى حال تجدد للزمان والمكان

نشر سقاة الربيع الكؤوس الشقائقية وعزف مطربوا المروج ألحان الطرب وعوج النرجس من السكر التاج الذهبى على فرق رأسه وأخرجت البراعم من الكأس المترع رأسها من منظر الأغصان فحظفت هذه عنان الاختيار من يد السكارى بالصبوح وفتحت تلك عين اعتبار النائمين فى نوم العدم :

كان الورد نائماً فى السحر نوماً هنيئاً فى لحاف البراعم فقرأت رياح الصبا عليه (يا أيها المزمل)

فقام السرو الحر بواجب الطاعة لسلطان الورد وزاد البلبل المنشد الهزار من أنغامه :

لم يكن السوسن قد تخلص من قيد المهد حتى نبت حول عذاره الخط الأخضر مثل الحسان

(٢) أعد إحسان يار شاطر رسالة دكتواره حول الشعر الفارسى فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى وقدم لها بالتاريخ السياسى والاجتماعى والثقافى لهذه الفترة، ودرس شعرها والمراعين له من الحكام وتأثير الشعر على العلاقات السياسية وأساتذته المقلدين والشاعرات وحالة الشعر ومواضع تدهوره وصناعته اللفظية ، وتحدث عن الشعراء وأنواع شعرهم وموضوعاته الأساسية بتحليل جزء كبير منه وهى رسالة مهمة رغم أنها لم تنشر عن الشعر فى القرن التاسع الهجرى .

اتبعوا جميعًا هذا الأسلوب للشعر المصنوع المزين ، ولكن هذا الأسلوب كان رائجًا حتى بين المؤرخين أيضًا ، وكتاب النثر الذين لم يقصروا من طول الكلام المصنوع، وكانوا يؤلفون فى المعنى الذى يمكنهم التأليف فيه صفحة واحدة عشر صفحات .

وأقدم شعراء هذا العصر الذين سنتناول ذكرهم الآن الشاه نعمة الله ولى الشاه قاسم الأنوار قد استثنوا من هذا الأسلوب والنهج المذموم ، ويتبع هذا الاستثناء الجامى نفسه، الذى يمكن عدّه النجم المضئ فى بلاط هراة خاصة وأحد كبار أساتذة الشعر الفارسى عامة ، كان هذا الأسلوب فى الأغلب محل اهتمام الناثرين المتصنعين والشعراء الذين عاشوا آخر هذا العصر ، ومن خصائص هذا العصر التشوق والميل إلى الألغاز والأحاجى ، وقد ظهر هذا الفن بين أمثال هؤلاء العراء ، ويرى نموذج كامل لهذا الأسلوب الإنشائى المصنوع فى كتاب أنوار السهيلى تأليف الحسين الكاشفى الذى يصف فيه - على سبيل المثال - صوت فأر فيقول (كان صراخة يصل فلم الأثير) .

وقد بينا فى الجزء الثانى لهذا الكتاب (ص ٣٤٩) بذكر أمثلة ونماذج عديدة من كليلة ودمنة ترجمة عبد الله بن المقفع فى القرن الثامن الميلادى فى العربية وصورته الفارسية بقلم نظام الدين أبى المعالى نصر الله فى القرن الثانى عشر كيف أن هذا الكتاب الجميل والبليغ قد صار موضع (تكلف وتصنع فى اللفظ والعبارة) من قبل الحسين الكاشفى فى أواخر القرن السادس عشر .

سيد نعمة الله الكرمانى

مع أن الجامى بلاد جدال هو أعظم شعراء هذا العصر إلا أننا رأينا من الأفضل أن نتابع الترتيب التاريخى والسبق الزمنى ونبدأ بأقدم الشعراء ، رحل هذا الشاعر فى سن الكهولة فى ٢٢ رجب عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣١م ودفن فى القرية الجميلة ماهان القريبة إلى كرمان ، وهى القرية نفسها التى قال فى وصفها أحد الظرفاء الهجائيين :

خطة ماهان هى جنة الله على أرضه   على شرط أن تحرك داخل النار [١]

وبجوار مقبرته الخانقاة التى يقيم بها غالبًا مريدوه وهو الدراويش النعمة الإلهية (نسبة إلى اسمة نعمة الله) لأنه يعد أحد الأولياء والمشايخ الكبار الصوفية فوق كونه شاعراً ، وتحوى أشعاره كلمات مبهمة وعبارات رمزية خفية تتعلق بفتنة آخر الزمن وظهور المهدى المنتظر ومن قبيل هذه الحوادث ، وقد ذهبت قبل عودتى بقليل من كرمان إلى هذه التكية فى سبتمبر ١٨٨٨م، واستقبلنى بكرم القائمون على هذا الضريح [٢] .

سيرة سيد نعمة الله

أفضل شرح لسيرة نعمة الله ما كتبه (رييه) فى فهرس المخطوطات الفارسية (ص ٦٣٤)؛ لأن مصدر معلوماته عنه وهى من كتب التذاكر والسير المعروفة التى ألفت فى سيرته قد تكاملت بوجود مخطوطة وبوجوه بتاريخ يزد المسمى (جامع المفيدى) ، وهذه الرسالة الموجودة بالمتحف البريطانى مخطوطة نادرة الوجود ألفت فى عصر الشاعر نعمة الله نفسه [٣] .

اسمه أمير نور الدين نعمة الله، ويصل بنسبة إلى الإمام الخامس للشيعة محمد باقر حفيد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ولد فى حلب فى عام ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م أو فى السنة بعدها ، لكنة عاش أكثر أيام شبابه فى العراق ، ونال فى الرابعة والعشرين من عمره زيارة مكة المكرمة وجاور فيها سبعة أعوام، وكان من خواص تلاميذة الشيخ عبد الله اليافعى وهو من مشاهير المؤرخين وكتاب الصوفية، وتوفى

(١) لا نعلم هل قيل هذا البيت فى حق ماهان ، وقد سمع أن اسم بعض من المدن الأخرى ذكر بدل ماهان .

(٢) خانقاه أوتكية الشاه نعمة الله عامرة ومعمورة ومقصد الزائرين وكعبة الساكين فى هذا التاريخ (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م) فى ماهان من كرمان ، وقد نجح المترجم أثناء خدمة فى وزارة المعارف فى إقامة بناء لانق لها من المال الموقوف عليه .

(٣) رقم هذه المخطوطة فى المتحف البريطانى هو (Add. 16837) .

اليافعى عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦م، وأمضى الشاعر آخر عمره فى سموقند وهراة ويزد ، وفى النهاية أقام - كما قلنا - فى ماهان بكرمان ، وقضى الخمسة وعشرين الأخيرة بها، وفى ٢٢ رجب ٨٣٤ هـ توفى عن عمر يربو على المائة عام [١] ، وقد زار عبد الرازق السمرقندى قبره فى عام ٨٤٥ هـ . والشاه نعمة الله هو سلطان الدراويش ويذكر دائمًا لقب (شاه) بمقدمة اسمه، وكان أيضًا محبوبًا من الملوك وخصة شاهرخ بالرعاية ، ودعا ملك الدكن أحمد شاه بهمنى أحد أعقابه للقدوم إليه، وكان يباهى بهذا دائمًا ، كما اتجه حفيدان آخران له مع والدهما إلى البلد نفسها وتزاوج بعض آخرون من أولاده، وقد بقوا بإيران بالأسرة الصفوية الحاكمة ونالوا القرابة إليهم .

ويعتقد (ربيه) (ص ٦٣٥) أن نعمة الله ألف فضلاً عن ديوان شعره خمسمائة رسالة فى التصوف لكن ديوانه أفضل أعماله، وسندرس منه شيئًا هنا ، وأكمل نسخة التى بين يدى نسخة مطبوعة على الحجر بطهران عام ٢٦ - ١٢٧ هـ [٢] لكن قطعًا عديدة من أشعاره وأعماله توجد بكثرة فى كتب التذاكر والسير .

(١) أشار نعمة الله نفسه فى أشعاره إلى طول عمره كمال قال فى موضع :

مضى من عمرى ما يقرب من مائة عام لم أوذ بحق الله فيها نملة

وقال فى موضع آخر :

وهبنى الحى الباقى سبعة وتسعين عامًا هانئة

وأيضًا هذا الغزل من ديوانه نظمه فى النزع كما يذكر الفصيحى صاحب المجمل :

سلم نعمة الله روحه إلى حبيبه ورحل وسقط سكران على باب الحانة ورحل
كابد آلام الهجران نحو مائه عام وسعد قلبًا بوصل الحبيب فى النهاية ورحل
(كل شىء هالك إلا وجهه) من الحق وهب قلبى الحى حياته فى عشقه ورحل
لما سمع نداء (ارجعى) من الحق وهب قلبى إلى حياته وعشقه ورحل
إن أحباء نعمة الله يتذكرون حتى لا تعتقد أنه راح من الذاكرة ورحل
عاش فى الدنيا مائه عام عازفًا ولم يضع كالغافل حياته ورحل

(٢) طبع ديوانه أخيرًا عام ١٣٥٦ هـ بطران عين نسخة مصححة بيد أبى القاسم السيرجانى فى ٥٦٠ صفحة ، ومع ما بها من أخطاء لكنها كاملة إلى حد ما .

أهمية تنبؤ نعمة الله

ترجع شهرة نعمة الله إلى ولايته وتصوفه فى الأغلب لا إلى شعره وشاعريته ومتطنوماته عامة عند القراء على نسق واحد وفى المرتبة المتوسطة ، فهو يماثل المغربى فى الأسلوب والمعانى ولكنه يفتقد تلك الحرارة والحماس والوصف الواضح الذى يرى فى غزليات شمس تبريز ، وأشعاره الخاصة التى تمثل أسلوبه ونهجه وإن لم تكن كثيرة هى التى نظمها من باب التنبؤ ، ولا يزال لها تأثير عظيم فغالب الإيرانيين حتى الذين لا ينتسبون إلى الطريقة النعمية الإلهية يستشهدون أيضًا بتلك الأشعار ، فكان البابية ممثلاً يقولون لى فى كرمان إن الشاعر تنبأ بعام ظهور الباب (١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤م) فى الأبيات الآتى ذكرها ، لكنى حين توجهت لزيارة نعمة الله فى ماهان استنسخت بمشقة بالغة من أتباع طريقة نسخة من تلك المنظومة ، وكانت من أقدم النسخ وأوثقها فى حوزتهم، ولاحظت أن فيها ذكر عام (١٢٧٤هـ) بدلاً من التاريخ المذكور وهو (١٢٦٠هـ) (أى د .ر .ع ذكرت بدلاً من س .ر .ع) [(١)] .

بينما ذكر رضا قلى خان فى مجمع الفصحاء المنظومة نفسه بشكل آخر وأثبت التاريخ محل الدراسة على أنه (١٢٠٤ - غ.ر.د)، وذكر فى كتابة تلك المنظومة بالعنوان التالى :

(فى إظهار بعض المرموزات والمكاشفات على سبيل الكنايات) [(٢)] .

وهاكم هذا القطعة أنقلها من النسخة التى كتبتها فى ماهان فى أغسطس ١٨٨٨م ، ولم يذكر من الخمسين بيتًا التى ضمنها مجمع الفصحاء غير أربعة وعشرين وزاد بدلاً من هذه بيتًا أو اثنين لم يردا بها ، وأتت فى النسخ الأخرى على غير هذا الترتيب فى الأبيات مع اختلافات فى الألفاظ :

(١) فى التاريخ وحروفه بحساب الجمل خطأ فالمفروض أن يكون تاريخ (١٢٧٤هـ) هو (١٢٠٤) لكى يوافق الحروف (د. ر. ع) وليس (ع) كما ذكر . (المترجم)

(٢) مجمع الفصحاء جزء ٢ ، ص ٤٥ ، طبقة طهران .

أرى قـــــــدرة الخــــــــالـق	أرى حـــــــالات الـزمـــــــان
وحـــالة عـــامنا هـذا مـخـتـلفـة	وأراه يخالف العام السابق والأسبق
لا أقـول هـذا الكلام من النجـوم	لـكـنـى أراه مـن الله الخـــــالـق
لما مضى من السنوات العين والراء	والدال رأيت أمـوراً عـجـيـبـة
أرى في خـرسـان ومـصـر والشام	والعــــراق فــتـنًا وحــــروبًا
وأرى ظـلـمـــــــة الـظـلـم من	ظالمى الديار بلا حـد وحـصـر
وأسـمع قـصـصًا كـثـيـرة الغـرابة	وأرى آلامـــــــــا فـى الـديـار
وأرى من الـيـــمـين والـيـــســـار	الحـروب والفتن والقـلاقل والظلم
وأرى بـين يـدى وجــــــــوانـبـى	الإغارة والقـتل والجيش الكـثـيف
وأرى العـــبـد قـد صـار سـيـداً	والســيـد قـد صـار عـبـداً
وأراهـم يسكـون عــملة جـديدة	ظاهرها ذهب لكن درهمها قليل العيار
وأرى الأغـراء الـصـاقـون فى كل	شـعـب ركـبـهـم الحـزن والذلة
وصــار كـل حـــاكـم من حكام	الدنيـا ضـحـيـة لحـاكم آخـر
وأرى الـقـمـر مـخـسـوفًـا	والشــمـس مــحــزونة
وأرى تنصيب البتكشي [١] وعماله	وعـزلهم واحـداً واحـداً ثانيـة
وأرى الأتراك والتاجيك قد خاصم	أحـدهـمـا الآخـر واشـتـبـكا

(١) كلمة التبكشى فى هذا البيت دليل على أن جزءًا من هذه الأبيات انتحل على الشاعر فى عهد الشاه طماسب الأول ؛ لأن خواجه مظفر وابن أخيه محمد صالح البتكشى كانا من رجال هذا فى خراسان واستراباد . راجع حبيب السير وعالم آراى إسكندر بيك منشى ، ص ٨١ .

والـ (بتكشى) هو موظف الضرائب عند المغول . (المترجم)

وأرى التجار قعد فى طريقه ... بلا رفيق بعد أن سلبه اللصوص

وأرى المكر والتزوير والتحايل ... الكبير من الصغار والكبار

وأرى أحوال الهند مخربة ... وظلم الترك والتتر

وأرى أماكن الخير قد أصابها ... الخراب وحلها الأشرار

وأرى بعض أشجار بستان العالم ... بلا ربيع وثمار

ولو وجد قليل من الأمن ... فأراه فى المناطق الجبلية

وأرى حاليًا المواساة والقناعة ... والاعتزال يقبل عليه الناس

ومع أننى أرى كل هذه الآلام ... فإنى أرى السعادة يتشربها الهموم

لكن لا تحزن لأنى أرى وسط هذه ... الفتن بيدر وصل الحبيب

فإنى أرى عالمًا رائقًا كوجه الحبيب ... بعد عامنا هذا وأعوام أخرى عديدة

أرى العالم هذا كأنه مصر ... وبلد سورة من العدل

وأرى الوزراء السبعة والسلطان ... قد رافقهم جميعًا التوفيق

وأرى العصاة فى خجل ... واستحياء من الإمام المعصوم

وعلى كف يد ساقى (الوحدة) ... أرى الخمر الطيبة المذاق

وأرى المهاجم يحب أصحاب البلد ... المدافعين والجميع فى ود ورفقة

وأرى السيف يجلى صدأ ... قلوب القساة وأراهم بلا اعتبار

وأرى كرة ثانية زينة الشرع ... ورونق الإسلام كليهما

وأرى الذئب يرعى مع الغنم ... والأسد يرتع مع الثعلب

وأرى كنوز كسرى وأموال ... الإسكندر قد ظهرت جميعًا

وأشاهد الأتراك العيارين   سكارى وأرى أعداءهم فى خمار

وأنظر إلى نعمة الله   منتحيًا عن الجميع ناحية

ولما انقضى الشتاء والخامس   أرى الربيع الجميل هو سادسه

ويظهر نائب المهدى   أجل إنى أراه بجلاء

أراه ملكًا تام العلم   ورئيسًا ذا وقار

وأرى الرعية عبيدة قد   تتوجوا جميعًا بالتيجان

وأرى فترة هذا الملك   تدوم أربعين سنة يا أخى

فإن انتهت فترته بالتوفيق   أرى ابنه خلفًا وذكرى له

أراه ملكًا تام العلم   وشاهًا عالى المحتد

سوف يكون هو نفسه الإمام   وأراه مدار العالم

أتهجى اسمه ميمًا وحاءًا وميمًا   ودالاً وهو اسم ذلك الشهير

أرى صورته وسيرته كالرسول   والعلم والحلم شعاره

وأرى يده البيضاء أبقاها   الله تمسك ذا الفقار (١)

وأرى مهدى الزمان   وعيسى الآوان كليهما قائين

واشم رائحة بستان الشرع   وأرى أزهار الدين متفتحة (٢)

(١) ذو الفقار هو اسم سيف على بن أبى طالب كما يروى المترجم .

(٢) من يقرأ تاريخ المسلمين بالأمس واليوم ، بَلْه تاريخ العالم كله ، ويراجع الأحداث فى كتاب بروان هذا نفسه يدرك أن هذا الوصف العام منطبق عليهم فى كل العصور ومتكرر على الأمم جميعًا وأن هذا التنبؤ منتحل فى الأغلب على الشاعر كما ذكر حكمت نفسه كما انتحلت رباعيات الخيام عليه . (المترجم)

أشعار وحدة الوجود

مع أن مثل هذه الأبيات ذات التنبؤ محل أكثر الاهتمام فى إيران لكنها قليل من كثير أشعار الشاعر ، فغالب شعره فى شرح مبادئ وحدة الوجود، ولذلك فإن قسمًا منه يشير إلى (النقطة) التى من مظاهرها تجلى المحيط ، واستدل البابيون أيضًا من هذه الأشعار على أنها إشارة إلى (الباب) الملقب (بالنقطة الأولى) كمثل حرف الألف الذى هو مظهر من مظاهر النقطة الرياضية فى عالم الحروف[1] ، ويكفى بضعة نماذج من قبيل هذه الأشعار لتوضيح المقصود :

(١) يقول نعمة الله فى القطعة الآتية مشيرًا إلى حالجة وعقدته ودعوته :

يا من تسأل عن أحوالنا	أن اسمى نعمة الله تركب من لفظ (الله)
وأنا السيد والدرويش وعبد الله	مت عن روحى فعشت بحبيبى
لست أنا المهدى ولكنى الهادى	وأنا مرشد الخلق فى الوادى
أنا عبد للمصطفى وعلام للحق	والإمام ذو السلامة والسلام

ويشير ثانية فيما يلى إلى معتقده ومذهبه :

يسألونى ما مذهبك	ما مذهبى أيها الجهلاء ؟
إن مرآتى التى أمامى تعكس	لى من الشافعى وأبى حنفية
وهما على طريق جدى	ومذهبى هو مذهب جدى
وأزيد كمالاً عن الجميع	فى علم النبوة والولاية

ويذكر أقطاب طريقته من اليافعى إلى على كرم الله وجهه فى القطعة الآتية :

كان شيخنا كاملاً ومكملاً	وكان قطب وقته والإمام الكامل
حين كان يتحدث فى الإرشاد	كان ينظم ببراعة درر التوحيد
كان اسمه عبد الله اليافعى	السالك من سالكى هذه الطريقة
كان- لكى تعرف- سيخ شيخى	هو صالح البربرى الروحانى
وكان شيخه كمال الكوفى	الذى اكتمل كثيرون من كماله
ثم أبو الفتوح السعيد	وهو سعيد والسعيد الشهيد
لقى الرعاية من أبى مدين	ووجد الولاية الكاملة من هذا الولى
ثم كان المغربى المشرقى فى صفائه	الشمس التامة والقمرى الطلعة
كان شيخ أبى مدين شيخ السعيد	الذى لم يعد له أحد فى التوحيد

ثـم ذلـك الـعـــــارف الـودود   الذى كانت كنيته (أبو السعود)

كـــان مـــسكنه بـالأنـدلس   وكــثــيــراً مــا تـلطف بروحى

وكان شيخه بدوره أبو البركات   بالكمال والجمال واللطف والصفات

ثم كـان أبو الفـضل البـغدادى   أفـضل الفـضــلاء الأســاتذة

كـان شـيـخـه أحـمـد الغـزالى   مظـهــــر الجـــلال الكـامل

كـانت خـرقـتـة ممزقـة وهو البكر   لأن نـســاجـــهـــا هو أبو بكر

وشـيخ النسـاج هو أبو القـاسم   مـرشـد العـصـر الذاكـر الدائم

ثم شـيـخ الهـدى أبو عـثـمـان   الذى لم يناظره شيخ فى العرفان

ثـم مـظـهــــر لـطف الـوهـاب   الشـــــيـخ أبـو عـلى الـكـاتـب

وشيخه هو المعدود شيخاً كاملاً   ويـســمى (أبو على الرودبارى)

وشـيـخـه بدوره الجنيـد البـغدادى   مـصـر المعنى ودمـشق السـعـادة

وخاله السرى السقطى هو شيخه   ومـــحــــرم حـــالة وســــره

ثم معروف (الكرخى) شيخ السرى   حين انكشـف لـه منه أســـراره

ونال هذا إجازة الإحسان من موسى   وتـرك الكـفـــر ولقى نور الإيمان

ووجـد الحـال فى خـدمـة الإمـام   إذ ظل بواب بلاطه عشـرة أعـوام

واعلـم جـيـداً شـيخ المعـروف   إنـه الـشـــــيـخ داود الـطـائـى

وشـيـخـه بدوره الحبيب المحبوب   العــجــمى الطـالب والمطلوب

والحـسـن البـصـرى شـيـخـه   بـل شـيخ شـيـوخ الجـامـعـة

صـــاحب عـليــــا الولى   وصــــــار مـنـظـور نـظـره

وخـرقــة على من رسـول الله   فمن له مثل هذه الخرقة اللطيفة

وهذه هى نسبتى الطيبة بتمامها   بتمامها وحبذا لو كنت على الإسلام

وفى البيت الرابع الذى يذكر الشافعى وأبا حنيفة كتب اتفاقية (بيش) ، والصحيح بالباء الفارسية لأن المعنى يقتضيها كما أنها لا يمكن أن تتكرر فى البيت السادس (المترجم) .

- الغزلية ١ -

الملك والشحاذ وإحداهما واحد   والغنى والفـقـيـر وإحـداهـمـا واحـد

نحن مـرضى ونشـرب الثـمـالة   والمرض والثمالة والدواء واحد همو واحد

ليس فى كل الأكوان غيـر واحـد   لا تقل اثنين لأن الله واحــد هو أحــد

أرى مـــــئـــــة ألـف مـــــرآة لكن عليها مزيد الروح واحد هو واحد

نـحن مــبــتلون ببــلاء عظيم والمبـتلى والبـلاء واحـدهمـا واحــد

القطرة والموج والبحـر والجـوهرة الأربعة عندنا لا شك واحد همو واحد

فيا نعمة الله أن رقم الكون هو واحد فــــهلم إطابه إنه واحــــد إنه واحـــد

- الغزلية ٢ -

ظهرت النقطة في الدائرة وكانت غير موجـودة فـأظهـرت هذه النقطـة الدائرة

النقطة هي على مـحـيط الـدائرة عـــنـــد مــن يــرســم الـــدائـــرة

فـــاتصـل أولـهـــا بـآخـــرهـا ولما تمت النقطـة أوجـــــدت الدائـرة

ولما تمت الدائرة وضع الفـرجـار رأســة على قـدمـيــة مـســتـريحًـا

نـحـن بـلا وجـــــود كـلـنـا بـلا وجـــــود وأنـت الموجــــــود

قلت إن كل العـالم خـيـاله ولما أرجـعـت البـصـر كـان هو نفس خـيـاله

لم يـسـمع أحـد شـعـرًا أطيب من شـــعـــر ســيـــد نـعـمـــة الله

- قطعة -

اعلم أنه مسمى واحد الأسماء مئه ألف ووجود واحد له مئه ألف اعتبار

صـــورتـه الـكـأس ومـــعـناه الخـــمـــر مع أن هذين عندنا شيء واحـــد

واعلم أن الخمر والخمار واحد واحد والاثنين واحد وافهم جيدًا فقد قلت إنه الملك الرحمن

كـل الـعـــــالم بـلا وجــــــوده والعـالم علم على وجوده وجوده

العـالم نشـأ عن بسط وجـوده العـام وكل مـا ترى من وجـوده العـام

هـويـتـــــه هـو الـذاتـيــــــة و (نحنيتنا) عارض فافن عن هذا الفناء

(نـحنيـتنا) عـــالم نقـــاب العـــالم بل إن العـالم بذاته حجاب العالم

وهذه الحـــجـــاب باق يا عـــزيزى   يا خليل الله برهان يا بنى [1]
أقصُ عليك حـــال العـــالم بتـــمـــامـــه   لكى تحـيط به علمًـا والســلام

وتشمل النسخة المطبوعة لديوان نعمة الله نحو أربعة عشر ألف بيت ويلحق بها قدر من الرباعيات ونعرف من البيت الآتى أن ظهروه الأدبى ظل حتى سن شيخوخته وكهولته :

وهبنى الحى الباقى سبعة وتسعين عامًا هانئة

قاسم الأنوار

والشاعر الثانى لهذا العصر الجديد بالاهتمام صوفى أيضًا كالشاعر سابقة وأوجز ريبه فى فهرسه (ص ٦٣٥) المعلومات الآتية فى سيرته :

ولد السيد قاسم الأنوار فى سراب (سراد) بولاية تبريز عام ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦م وتتلمذ فى علوم الشريعة على الشيخ صدر الدين الأردبيلى أحد أجداد الصوفية ثم

(١) البيت يخاطب فيه الشاعر ابنه خليل الله برهان الدين وهو خليفته ولد عام (٧٧٥ هـ) ، ومن العارفين المشاهير راجع طرائف الحقائق طبعة طهران ص (٣٠) ، وأصل هذه القطعة للتمثيل الشعره هو :

يك مسمى دان واسما صن هزار   يك وجود وصن هزارش اعتبار
صورتش جام است ومعنى مى بود   كَرچه هردونزد مايك شى بود
دردومى دان يك يكى ردويكى   نيك دريابش كه كَفتم نيككى
بيو جوداو همه عالم عدم   بر وجود وجود أو عالم علم
عالم از بسط وجود عالم اوست   هرچه من بينى زجود عام اوست
اوئى أو ذاتى ومائى ما   عارضى باشد فناشو زين فنا
جاودان است اين حجاب أى جان من   أى خليل الله من برهان من
حال عالم بتو ميكَويم تمام   تابدانى حال عالم والسلام (المترجم)

أخذ من بعده على يد الشيخ صدر الدين اليمنى وهو نفسه من تلاميذه الشيخ أوحد الدين الكرمانى ، ثم مكث فترة فى جيلان وذهب إلى خراسان وتوطن هراة فى عهد تيمور وابنة شاهرخ ، وبها تجمع حوله من الأطراف مريدون وتلامذة كثيرون وحصل من العظمة والنفوذ بالحد الذى ركز الشاه عليه اهتمامه ، ويحكى عبد الرازق فى مطلع السعديين أن شاهرخ لما هاجمه عام (٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م) بعد المسجد الجامع بهراة (أحمد لر) وجرحه ، وقد سبق هذا ، حامت شبهة ميرزا باى سنغر حول قاسم وقيل إن القاتل كان تحت حمايته ، ولهذا أصر قاسم على ترك هراة والذهاب إلى سمرقند لكى يعيش فيها تحت رعاية ألغ بك [١] ، ومع هذا فقد آب إلى خراسان بعد عدة سنوات وتوطن مدينة (خرجد) من ولاية (جام) وتوفى بها عام ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣م [٢] .

العلاقة القريبة لقاسم الأنوار بالشيخ صدر الدين الأردبيلى جد الملوك الصفوية يؤيدها شجرة نسب هذه الأسرة الواردة فى كتاب (سلسلة النسب الصفوى) بشكل كامل ، ولدى مخطوطة من هذا الكتاب [٣] ، ويتحدث المؤلف عن الشاعر على أنه من التلامذة الكثيرين الحماسة والشوق عند الشيخ ، ويذكر حكاية مفادها أن الشيخ رأى فى عالم المكاشفة والرؤيا أن قاسم يقسم فى مجد أردبيل النور على بقية مريدى الشيخ؛ ومن هنا تلقب (قاسم الأنوار) من شيخه .

كما أنه نظم هذه الأشعار فى موت الشيخ الصفى والد الشيخ صدر الدين [٤] .

(١) راجع ما يشبه الأسطور فى حكاية (أوزلى) بهذا الشأن فى كتابه (ملاحظات فى الشعراء الفرس) طبعة لندن ١٨٤٦ ، ص (١٠١) .

(٢) قبر قاسم فى لنجر فى جام خراسام بناه على شير ، راجع مقدمة حكمت على كتاب مجالس النفائس ص (يط) .

(٣) مؤلف هذا الكتاب هو حسين بن شيخ أبدال الزاهدى، الذى ألفه فى عهد سليمان الصفوى بعد فتح قندهار عام (١٠٥٩ هـ) وذكر تلمذة أجداد الصوفية إلى جده الأعلى زاهد جيلانى ، وقد طبع عن المخطوطة ملك بروان فى برلين (١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤م) طبعة جيدة بمقدمة كاظم زاده من الفضلاء المعاصرين لبراون ، فرحم الله بروان الذى تكلف طبع هذا الكتاب لحبه لأدب إيران .

(٤) خطأ بروان فى ترجمة هذه الأبيات: إذ نسب القطعة لموت الصفى فى حين أنها ترثى ابنه كما يصرح بهذا البيت الأول وهو أن صدر الولاية أى صدر الدين نقد أبيه صفى الدين أى ولده وخليفته ، إذ خلفه فى الإرشاد عام ٩٣٥ هـ وظل فى إشاده إلى أن مات فى التسعين من عمره، وقد استدرك بروان خطأه هذا فى الجزء الرابع لكتابه (ص ٤٤ - ٤٥) .

صـــدر الولاية وهو نقـد الشـيخ الصـفى

كـان مـرشـد هذه الطريقـة نحـو تـسـعين عـامًـا

عطسـت روحـــة وقت رحــيلهـــا قـــائلة

يـا مـلـك المـوت قــــــــد ورصـلـت إلـى الـلـه

ولمــا رأى ملك الموت حــــاله تعــــجب

وقــــال يا شـــــيخ ألف يـرحــــمك الـلـه

واحـتـرق القـاسـمى من فـراق هـذا السـيـد

فــــاصـــبـــر فى فـــراقــــه صـــبـــرك الله

شبهة الإباحة الإلحاد فى تعاليم قاسم

أشار الجامى فى نفحاته بين سيرة قاسم الأنوار إلى الشبهة التى حامت حوله فى حـادثة مـحـاولة قـتل شـاهرج (٨٣٣ هـ / ١٤٢٦ م) والتى أدت نـفـيـه من هـراة إلى سـمرقند حين يقـول (تـوزع أهل الزمـان على قبوله وإنكاره وخلف أثرين أولهما ديوان أشعاره الشامل وقائعه وأسراره الظاهرة عن أنوار كشفه وعرفانه وأثر نوقه ووجدانه ، والثانية التى تنسب نفسها إليه ويعتبرون أنفسهم مريديه، ورأيت بعضًا منهم وسمعت عن بعض آخـر منـهم ، وكـان أكـثـرهـم خـارجين عن ربعـة الاسـلام وداخلين فـى دائرة الإباحة والتهاون بالشرع والسُنة) .

ومن هنـا توجـد أدلة علـى أساسـهـا أسـاءوا الظـن بقاسـم وعقـيدته ويبدو أنه كـان على اتصـال بـأتـبـاع التـشـيع خـاصـة الصـفـوية بل كـان له اتصـال أيضًـا بالحروفية .

أعمال قاسم الأدبية

أعمال قاسم الأدبية عبارة عن ديوان غزل وبضعة مثنويات ولم يطبع منهما شيء ولدى منهما مخطوطان تاريخ الأول هو ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م أى بعد وفاة المؤلف بأربع وعشرين سنة [1] ، وبعض هذه الأشعار بالتركية والآخر باللهجة المحلية (الجيلية) ، وتعقب هذه الأشعار فى هذا النسخة العتيقة رسالتان مؤلفتان كلهما أو بعضهما بالنثر اسم الأولى (أنيس العارفين) ، والثانية (أنيس العاشقين) أو (رسالة الأمانة) ، كما تشمل منظومة تبدأ بهذا البيت :

ألا أيها الشاه الملكى لقدس اللاهوت بقيت مقيدا فى شرك الناسوت

وأشعار قاسم بالحد الذى يمكن لأجنبى أن يحكم عليها متوسطة وأسلوب منهجها فى الغالب هو أسلوب الصوفية مثل المغربى وغيره من هم على شاكلته ومشربه ، ويمكن إثبات بضع الغزليات الآتية كنموذج :

- ١ -

أيها الساقى املأ ذال الكأس المصفاة كرماً منك

للروح المقدسة تلك وللنفس المعلاة تلك

ويوم أن تقدم الكأس لآخر مرة

تصدق بجرعة على ذاك الواعظ اللطيف

(١) بمكتبة المدرسة العالية لهسب سالار نسختان لديوان قاسم الأنوار خط واحدة منها على الدامغانى عام ٨٢١ هـ فى حياة المؤلف ، وتشمل مثنوية مقامات العارفين ومثنوية أنيس العارفين وهى تحت رقم ٢٦٦ (راجع فهرس مكتبة هذه المدرسة ج ٢ ، ص ٦٥٥) .

هل تود أن ترقص ذرات العالم معك

انشر في رقصك ذاك الزلف الصليبي

فارحل أيها الناصح وامكث ولا تكثر من قول

أساطيرك فلا يمكن إزالة هذا المرض الجنوني من رأسي

قلت افن عن نفسك حتى تجد طريقك إليها

وأنا لا أدري تفسير هذا اللغز والرمز

كلما متُّ مرة نلت مئة روح أخرى

ولا يمكن تقدير الإعجاز المسيحي

إن قاسمًا لا يعشق قط عن طواعية منه

ولكن ما العمل مع مالك القلوب هذا [١]

(١) أصل الغزلية للتمثيل بها :

ساقي زكرم بركن أن جام مصفى را | أن روح مقدس راوآن جامن معلارا
روزى كه دهى جامى ازبهر سرانجامى | يكجدعه تصدق كن آن واعظ رعنارا
ضواهى كه برقص آيد ذرات جهان باتو | دررقص برافشانى آن زلف جليبارا
ناصح بروبنشين فاسانه مخوان جندين | ازسر نتوان بردن آن علت سودارا
كفتى لكه زخود كم شوتاراه بخود يابى | تفسير غى دائم اين رمز ومعمارا
هرباركه من مردم صد جان دكر بردم | احصانتوان كردن اعجاز مسيحارا
قاسم نشود عاشق هركز بهواى خود | ليكن سوجه توان كردن آن مالك دلهارا

(المترجم)

- ٢ -

كنا معك في أطوار الكائنات قبل

بناء الخانقاة والدير وسومنات [١]

سلمتني رسالتك أثناء حكايتك فأي

حاجة للمراسلات وأنت معي دائمًا

لا يتأتى منا مخالفة للحبيب لأنا

كنا مع الحبيب في أنواع الواردات

احذر أن تجر ثانية على لسانك ذكر

غيره فالعارفون لا يلقون بالاً للأغيار

ليست الإفاقة شرطًا حتى تكون في الطريق

لأن كل ذرة من ذرات الكون ساقيات

فلا تجادل مبالغًا أيها الزاهد

وأعلم أن الطيبات حلال للطيبين

اصمت يا قسم ولا تجذب عنان الكلام

حتى يقص شيخ العشق عليك حديث الباقيات

(١) سومنات اسم صنم عظيم للهادكة سميت باسمه المدينة التي كان بها ، وقد حطمه محمود الغزنوي في إحدى حملاته على الهند ، ووزع منه أجزاء على أمصار العالم الإسلامي . (المترجم)

- ٣ -

هذا الغزل يستحق الاهتمام بسبب ما يحويه من أدلة على أفكار الحروفية :

قــال ســتــة أيام وســبـع ســمــاوات

ثم على العــرش اســتــوى فى النهــايات

لله تعــالى عــروش غــيــر مــتناهيــة

وأصــرح لك أن العــروش هى جــملة الذرات

هو المســـتــــوى باسم بأعلى كل ذرة

وأن تــعـــــــــرف هــذا تــنــل المــرادات

كلما أذكر هذا يضحك ؛ الفقيه ساخراً

وأقـول أنا هيـهـات لكل مـا يقـوله الفـقـيـه

كل من شرب شراب الله من كأس محمد

نجــــا من الـظـلـمـــــات والـطـامـــــات

فلا تصرخ صراخ السكر فأنت سكير هواك

وغــاية العــيــمــاء أن تتــبــاهى بالجــهل

نقــرأ الفــاتحــة يا قــاســمى من أجل

دفع البــلايا وصــحــبــة الفــقــيــد المقلد

مع أن تأثير الحروفية ونفوذهم ظاهر فى هذا الغزل [1] ، لكن لا يمكن بالاستناد على مثل هذه القرائن وحدها القطع بأن قاسم الأنوار كان أحد أتباع هذه الفرقة ، ومع

(١) لا نرى نفوذاً لأفكار الحروفية فى هذا الغزل كما يرى براون بل هى أفكار القائلين بالوحدة وأن جملة ذرات الكون جميعًا هى عرش واحد ومظهر لله الواحد . (المترجم)

أن صحبته لأحد مريدى فضل الله الإسترابادى وسوء الظن الذى حل به كلها دلائل قوية لهذا الحكم ، لكنه مع كل هذا ذكر فى شعره كثرة من الأولياء والمشايخ ومدح كبار علماء الكلام مثل الغزالى والمتصوفة مثل الشيخ أحمد جام وبايزيد البسطامى ، وعبد الله الأنصارى ، ومن الشعراء العرفاء مثل فريد الدين العطار وجلال الدين الرومى ويأمر فى موضع ما القراء بجميع شعر الشاعرين الأخرين فى مجلد واحد فى قوله :

اترك الاثنينية واجمع فى مجلد واحد كل شعر مولانا والعطار

وفى أحد أشعاره الملمعة بالتركية والفارسية يوجد (ترجيع بند) يتكرر بقوله (جلبى بيزى أوتوتما) أى (لا تنسيا يا شلبى) ، ويمكن أن يكون شلبى أفندى هو المقصود من خطابه هذا وهو مرشد الدراويش المولوية فى قوينة بآسيا الصغرى ، وليس من هذه الأشعار النصف تركية غير منظومتين أو ثلاث تتصف باللطف والعلو .

والمنظومات التى أنشأها باللهجة المحلية (ويبدو أنها الجبلية) أكثر وفرة وأشد اجتذابا للاهتمام فى ديوان ومع اطلانها على هذه اللهجات بشكلها فى القرون القديمة ليس بحد الكفاية ولا يمكننا أن نترجمها بدقة فمع هذا نورد هنا قطعة أتت فى المخطوطتين معًا :

أنت قبلة روحى أيها الجيلى ملاك العالم

وقمر فلك المكرمة والسرو أمنية الرياضى

لست جيليا بل أنت ملاك ومن قلبك وروحك مخلوط

والجيلى الذى يكون مثلك هو حور وملاك

فديت بقلبى ودينى وجسدى من أزال عنى النوم بجماله

وأنت قبلتى فإلى أين أنتقل من مدينة لأخرى ومن جبل لآخر ؟

أشرح لك ماذا أحل بى من ظلم ألفك المسكى

ولو حدث لذكرت ما فعل بى شعرة شعرة

لو وصل عكس جمالك المرآة لحظة واحدة

فمتى يصل من هو دائمًا فى مقابلتك

قلت بغمزة عينيك لى البارحة احك عن همومك

بالنهار فاحك تكرمًا ثانية قصة البارحة

قلت له يا مراد الروح وعدت بوصلك فَقال

انسْ تلك الحكاية وذاك المطلب

قفلت له يا عزيزى أنا ذللت من عشقك

فقال لا لا تذل فإن ذلك يزول بعزتى عندك

فقلت له أنا عاشقك فما دواء مرضى فقال أنت

تقول هذا الكلام فلا تحتاج إلى الدواء

ضل قاسمى وذهل عن نفسه بسبب الفراق

والهم فاهدِ الضال من فراقك تكرمًا منك

ويتضح من أشعار قاسمى الأخرى أنه كام مطلعًا على أحوال ولاية جيلان وغيرها من سواحل بحر الخرز لأنه يذكر فيها أستارًا ولاهيجان وأردبيل وغيرها من بلاد هذه الناحية، ويمكن الوقوف على معلومات أكثر عن حياته من الدراسة الدقيقة لأشعاره بلا شك . لكننا نكتفى لضيق المجال بإيراد قطعتين أخذناها من مثنوى أنيس العارفين ويذكر بالتفصيل فى مقدمته المثورة اسمه وهو (على بن نصير بن هارون بن أبو القاسم الحسينى التبريزى المعروف بقاسمى) .

القطعة الأولى : تمثيل لإنسان مخطئ ومرتكب للذنوب لا يتخلى عن الإثم حين يحلو مذاقة فى فمه وهى هذه :

كان أحد الزنوج بلا دين وإنصاف وقد أضاع غول الغفلة عمره هباءً

لديه في طاجن بضعة مئات من الحليب الردئ سقط فيه بالقضاء فأر ومات

فالتقط الفأر وأخرجه بسرعة وكان الفأر المشؤوم قد مات بسبب حرصه

فذهب الزنجي إلى القاضي متضايقًا وأخذ معه الفأر وقص سوء ما حدث له

فحكم القاضي بأن الحليب محرم أمام العامة والخاصة

فلم يرض الزنجي الساقط بهذا الحكم وقال أخطأت أيها القاضي

فقد تذوقته وكان عذبًا في فمي فإذا كان حلواً فلماذا يحرم

لو كان الحليب مراً لقلب أنا بحرمته بلا جدال

كان طبع هذا الزنجي معكوسًا نجسًا فلا جرم أنه كان يعكس المر بالحلو

يا أسود الوجه سواد الزنوج تكون لديك الطاعة مرة والذنوب عذبه

يغدو الباطل عذبًا في فم النفس ويكون الحق مراً ويشمل طبعها

لأن المرضى والصفراويين مزاجًا يحدون السكر بطعم الزاج

وسائر القلوب المريضة بمرض الدنيا يصفره وجوه أصحابها بسبب اللهفة على المال

يا من أسرتك فخاخ لذة الدنيا لا تلق حتفك كالفأر بسبب الحرص على للذاذة

إن صارت طاعة الله مرة في فمك فإن علاج ذائك هو الدواء المر

إن الدواء المر يفيد في النهاية ويهب الشفاء والعافية للمريض

القطعة الثانية : تتصف بأهمية أكبر ويصف فيها كيف تم اللقاء بين الشيخ الصفى جد الصفويين والشيخ السعدى الشيرازى الشاعر المعروف ، ويؤيد (سلسلة النسب الصفوى) صحة هذه الحادثة أو إمكان حدوثها [1]؛ إذ إنه يذكر مولد هذا الشيخ فى أواخر أيام بنى العباس بتاريخ ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢م ، ويضيف (وكان وقتذاك قد رحل الشيخ شمس التبريزى عن الدنيا منذ خمسة أعوام والشيخ محى الدين بن عربى منذ اثنى عشر عامًا والشيخ نجم الدين البكرى قبل ذاك التاريخ باثنين وثلاثين عامًا وكان الشيخ فى الثانية والعشرين وقت وفاة مولانا الرومى، وفى الواحده والأربعين وقت موت الشيخ السعدى الشيرازى ومات فى الخامسة وقت استيلاء هولاكو على إيران) .

ونلحظ فى الصفحة الأخرى من هذا الكتاب نفسه حكاية رحلة الصفى إلى شيراز للأخذ عن الشيخ نجيب بزغوس فلما وصلها علم بموته ، وأشار إلى هذه الحادثة فى مثنوى (أنيس العارفين) فى قوله :

شيخ العالم شمس الأولياء	إمام الدين صفى الأصفياء
الذى اشتهرت به أردبيل	وامتلأت بالنور من جماله
مكرم الطلاب الوالهين	الواقف على أسرار الملك الصمد
لما بلغ مدينة شيراز المشهورة	رافق الشيخ السعدى
وسألة أيها الحكيم الذى نورت	بجمال عينيك العالم

(١) قصة لقاء صفى الدين وصحبته للشيخ السعدى ذكرت أيضًا براحة فى كتاب صفوه الصفا الذى ألفه توكلى بن إسماعيل المشهور بابن البزاز الأدبيلى عام ٧٥٩ هـ (الفصل الرابع الباب الأول) ، وهذا الكتاب من لطائف نثر القرن الثامن وأورد نوادر فى عبارة جميلة ، وهو كله فى سيرة صفى الدين وخطّه بجميل الخط ميرزا أحمد بن حجاج كريم، وطبع فى بمباى عام ١٣٢٩ هـ، وفى صدره هذا الرباعى :

صاحب قدم منهج هذا الطريق للهداية	وصحاب آية فى سبل الهدى وإمام
وهو سلطان الزمان صفى الحق والدين	مالك تخت الولاية وتاجها وقلنسوتها

وقد اعتز الملوك الصفوريون بهذا الكتاب لأنه سند ولاية جدهم الأعلى فصححه أبو الفتح الحسينى فى طهاسب الصفوى وأزال منه اللون السنى القليل وحذف منه كل المقترحات والأحاديث والبيانات التى تنفق والمذهب السنى ، وكتب قبل أسماء أجداد الصوفية كلمة (سيد)، وشملت خاتمته التى زادها سير أعقاب الصفى ، وذكر للشاه إسماعيل كشفًا وكرامات ، ويوجد كتاب جامع من هذا الملخص فى المكتبة الوطنية بطهران تحت رقم ٤٧ .

مـا المقـصـد فى صـحـراء الطلب	ومـا هو المسـبب لكل آلام القلب
وأعـاد من كـمـال همـتـه الطاهرة	مع السـعـدى القـول والقص
فلمـا سـمع القـصـة تحـيـر	واندهش من كـمـال همـتـه
فـقـال للصـفى أى المحتظى بالمعانى	المرتفع الهـامـة بكمـال همتك
إن ذاك المقـام الذى وجـدته	ليس عـشـاً لطائر السـعـدى
كان الأليم مـقيماً بقلبى لهذا الكلام	وعجزت عن إدراك سر هذا المعنى العظيم
لكن إن سـمـحـت أنظم لك فى	ديوانى جـواهر عـدة من منجـمى
فـأجـابة الشـيخ أن الألم بعـينه	هو أن أرواحنا مفـردة من غيـر الحبيب
لى بقلبى كـثـيـر من ديوان الحق	فـلا أهتم بديوان غـيـره
نـحـن تـولـينـا آلامـه	وتبـرأنا من الحـيـاة والعـالم
لقـد جُنَّ قلبى بآلام الحـبـيب	وتعـرَّت عن التـفـكيـر فى غـيـره
فبكى الشيخ السعدى بشدة من هذا	الكلام وقال للشيخ أيها العظيم الموفق
لقد حـزت قصب السؤدد بصـولجـان	الطلب فـداوم على الطلب فى الحـال
إن ملكـت والحق بلا نـهـايـة	وفـرمـانه (الله يهـدى من يشـاء)

ونستنبط من هذه القطعة كيف توجه الشيخ الصفى إلى سيراز واشتهرت باسمه أردبيل (أرديفيل) وتعرف إلى الشيخ الأجلّ السعدى وحصل للأخير انتباه عظيم من صفائه وطهره واقترح أن يذكره فى ديوانه وينظم مدحه فيه فرفض الصفى وقال إنه فى شغل بمحبوبه الحقيقى بحيث لا يفكر فى شىء آخر فحرك استغناؤه أحزان السعدى فبكى بحرقة واعترف بعلو قدره .

ويمضى الزمان بين هذين الشاعرين اللذين سبق شرح حالهما - وإن لم يبلغا فى الشعر مبلغًا كبيرًا مهمًا لكن المنزلة والشأن الرفيع - حتى زمن الأستاذ العظيم الجامى الذى يصل إلى أوج الكمال تاريخ هذا العصر الأدبى بسببه ، ونصادف فى هذا الزمن القصير عدة عديدة من شعراء الدرجة الثانية يستشكل تفضيل أحدهم على الآخر إلى حد ما ، لكن من بينهم ستة يستحقون بتفاوت ذكرهم بإيجاز ، وبوجه عام

ليس لدينا تفصيل من سيرهم ولا علم بسماتهم الشخصية مع أن سير أغلبهم وردت فى كتب التذاكر والتراجم العديدة لهذا العصر ، وسوف نتحدث عن كل منهم حسب ترتيب سنوات وفاتهم .

الكتبى النيسابورى

الكاتبى النيسابورى أو الترشيزى المتوفى عام ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤م مقدّم فى الترتيب الزمنى وربما فى الناحية الفنية على بقية شعراء ذلك العصر ، ووضعه النوائى فى مجالس النفائس ضمن الشعراء الذين عاشوا فى عهده، لكنه لم ينجح فى ملاقاتهم ويقول فيه (مجالس النفائس طبعة المترجم، ص ١٠) : (كان ممن لا نظير لهم فى عصره وكان يجرى منه المعانى الغريبة فى كل نوع شعرى مال إليه خاصة القصائد بل ابتكر ابتكارات أغلبها كان طيبًا وله مثنويات مثل التجنيسات ، وذى البحرين ، وذى القافيتين ، والحسن ، والعشق ، وناظر ومنظور ، وبهرام وجلندام ، لكن غزلياته وقصائده كانت الأجمل ، وبدأ فى آخر عمره نظم الجواب على خمسة النظامى وأظهر فيه دعاويه، ويبدو أنه لم يتم لهذا السبب ...) .

وينقل النوائى بعد ذلك أبياتًا من قصائده ، وكذلك رباعية الذى استند عليه خواند ميرفى تحديد وقت موته أثناء الوباء الذى عم استراباد عام ٨٣٨ هـ :

خربت استراباد بنار قهر الوباء وكان

ترابها أطيب رائحة من المسك

لم يبق فيه أحد عجوزًا كان أو شابًا وحين تسرى

النار فى الهشيم لا يبقى أخضر أو يابس

وقد خص صاحب تذكرة الشعراء الكاتبى بعشر صفحات ، ويرى أنه ولد فى قرية واقعة بين ترشيز ونيسابور ، ولذا يسمى مرة بالتريزى وأخرى بالنيسابورى ، تعلم

صنعة الخط والكتاب عند نسيمي [1] الشاعر، وفي النهاية نفس الأستاذ على تلميذه ، فترك الكاتبي نيسابور وذهب إلى هراة ولما رأى أنه ليس من يطلب فنه في بلاد هراة خف إلى استراباد وشيروان والتحق فترة ببلاط سلطان شيروان شيخ إبراهيم ونال نه عطايا جزيلة ، لكنه كان ينفق في أقل زمان ما كان يحصل عليه ويبتلى ثانية بالفقر الفاقة كما يحكى قوله :

طلبت البارحة من ينصح لي الشعرية

لكي نأكل منها ويأكل الضيفان

فقال ... حن والدهن فمن يعطيني الدقيق

فقلت من أجرى طاحونة الفلك [2]

ثم رحل الكاتبي من شيروان إلى آذربايجان وأنشأ قصيدة في مدح السلطان إسكندر بن قرا يوسف التركماني، ولما لم يقدره هذا الملك ولم يله بجائزة عجاه بشد . توجه إلى أصفهان وصاحب بها صائن الدين تركه [3] واعتقد فيه وعزم على أ. يمدح السلاطين، ولا يخدم بلاطهم ويتبع طريق العرفاء والصوفية ، ويرى دولت شاه إحدى منظوماته ويظهر كيف حدثت فيه ثورة فسلك وادي التقوى والقناعة ، ثم آب إلى رشت من أصفهان وعاد منها ثانية إلى استراباد ومات فيها في آخر الأمر .

(١) راجع في سيرة (نسيمي) تذكرة الشعراء، ص ٤١٢ ، ومجالس النفائس، ص ١٦ ، ١٩١ .

(٢) في النص الفارسي معناه خطأ (فقال من أجرى طاحونة الفلك) .

(٣) صائن الدين على تركة (بضم التاء) الأصفهاني من أجلة فضلاء عصر شاهرخ وعرفائه ، وينتسب إلى أسرة (تركة) بأصفهان التي ظهر منها في القرون الثامن والتاسع والعاشر رجال مبرزون في العلم ، توفي بهراة عام ٨٣٥ هـ (حبيب السير مجلد ٣ جـ ٣ ، ص ١٤٥) ، وفي مكتبة بها . ملك الشعراء نسخة جامعة لكلياته من النظم والنثر والكتب والرسائل قد خطت في حياة المؤلف (٨٢٧ هـ) ، وهذه الكتابات نموذج كامل للنثر الفصيح لعصره ولها فوائد ونادر تاريخية وأدبية كثيرة .

وقد أحســـن الجامى الحـكم عليه من دولت شاه وقلل فى مدحه فيذكر فى الفصل الســابع من بها بهارســتان (له معان خاصة كثيرة وله أيضًا أســلوب خاص فى أداء هذه المعانى لكنّ شعره ليس على نسق واحد وليس مستويًا؛ وإنما هو تخليط) .

ولدى مخطوط لديوانه ولم يطبع فيما يبدو حتى اليوم ومؤرخ بعام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م ، ويشمل ثلاثة آلاف بيت فى الغزل والقطعة الرباعية ، بوجه عام فيغلب على قطعاته الجوانب الشخصية؛ ومن هنا تحتل أهمية كبيرة لدراسة سيرته مع أننا نجهل – مع الأسف – علل نظمها وأسباب إنشائها ؛ ومن هنا فلا يمكن الخروج بفائدة كاملة منها ويصل فى المخطوط بحوزتى عدد هذه القطع إلى مائه وخمس وغالبها مكون من بيتين ، ومنها وحسب قطعتان تذكران تاريخًا للأولى تذكر تاريخ وفاة منوتشهر شــاه أو قتلة عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م ، والثانية تذكر تاريخ وفاة الأمير عادل شاه فى ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤م، ونختار منها للتمثيل هذه القطعة التى تتصف بامتياز خاص، ويستلفت النظر منها القافية البديعة والالتزام :

إن ترد يا قلبى أن تكون فارسًا فى طريق العزة

فاعدُ بسرعة بحصان همتك فى ميدان القناعة

ولكى تقف بقلبك على ســر كل أمــر يوجــد

فأنثر نقد حياتك كله على أقدام أهل السر

وإذا ضاع جوهر روحك حين تغربل الأرض القفر

فلا تترك من هذا الممر على قلبك غبارًا وأعد تنقيته

وإذا اعتبرت مجلسك وقيامك بالحق فيستوى

أن تجلس بأرمــينيــة أو تقــوم فى الأبخــار

وفى القطعة التالية تبدو إشارته إلى سلمان الساوجى أو إلى عارفى الهراتى معاصره، وكان سلمان يسمى بقول النوائى فى مجالسه بسلمان الثانى (مجالس النفائس طبعة طهران، ص ٢٠ ، ١٩٤) .

أولئك المتحازون إلى جانب سلمان فى دعواهم

لماذا يتعرضون ناقدين لشعرى

إن شعرى واضح باطنه عن شعر سلمان

فلا أقول شيئًا إلا وجميع الناس يفهمونه بجلاء

وقد أشار فيما يبدو فى هجرة الآتى إلى كمال الخجندى أو إلى كمال الدين غياث الفارسى الشيرازى المعاصر للكاتبى باحتمال قوى وخسرو وحسن الشاعرين الدهلويين الذين سبق ذكرهما :

لو أن حسن سلب المعنى من خسرو

فلا يمكن منعه لأن خشرو أستاذ بل أعظم الأساتذة

ولو سلب حسن المعانى من ديوان كمال

لا يمكن أن تقول له شيئًا لأن سارقًا سلب سارقًا

وفى قطعتى هجاء مقبولتين وننقلهما فيما يلى يبرز الخلاف القائم بين الكاتبى والشاعر المعاصر له المتخلص بـ (بدر) ، ويذكر دولت شاه [1] مختصرًا عنه فى قوله (كان بدر الشيروانى لسنوات مقدم الشعراء فى شيروان ومضافاتها فلما جاء الكاتبى من خراسان إلى شيروان حدثت بينه وبين مولانا بدر مشاعرة ومعارضية)، ثم يذكر القطعة الأولى ويجعلها دليلاً على المعارضة بين هذين الشاعرين ويضيف: (يفضل

(١) دولت شاه، ص ٣٧٧ .

بعض شعر بدر على شعر الكاتبى ولكن أهل سمرقند يعتقدون خلاف هذا ، وهاتان القطعتان هما :

- ١ -

لقبى هو الكاتبــى يا بدر لكن اسم محمد وصلنى من السماء
فصـار اسمى محمداً وأنت بدر أمزقك من بعضك بإصبعى[1]

- ٢ -

قلت بالبارحة لبدير السيئ العرق لست شاعراً؛ لأن من كان من الشعراء لابد من إثارته؛ فقال: علقت لى شعراً فى كل مدينة؛ ولهذا يقول شعره يحق له التعليق أو الشنق لكنه يمدح فيما يلى شعر أبى إسحاق الشيرازى صاحب ديوان الأطعمة :

الشيخ أبو اسحاق دامت نعمته مع أنه طبـخ لى خيـال الطعـام
مــد ســفرة مليــئة بالنعـــم ولقى الجميع على سفرته العطاء

ويذم فيما يلى شاعراً اسمه (شمس علا) وضمن فيه من شعر عبيد الزاكانى المعروف :

غـابـت أخـيـراً من الدنيـا شـمس العـلا
ذاك الذى كـان أحيـانًا يدخل دائرة الإحـصـاء
رحـل وتـرك عنـه ديـوان شـــــعـــــر
ولا يبـقى ديوانه أيضـا إذا أرادوا منـه الفـائدة

(١) يختلف معنى هذا الشطر الأخير فى مخطوطة أخرى؛ إذ يصير (أفرقك بسبابتى) .

وفى القطعة الآتية يتهم (نسيمى)[1] الذى علمه الخط والكتابة بالسرقة الشعرية :

نسيمي لما رأى فى مدينة نيسابور		أشعار الكاتبى المليحة

ذهب إلى مشهد وفضح نفسه بأنه		أكل الملح وسرق أيضًا الملاحة

ويدوم أيضًا شاعرًا سارقًا للشعر:

ليس شاعراً من يقتبس وقت نظمه الشعر

من أشعار الأساتذة الشعراء

إن من يصنع بيته من الطوب القديم

يكون مثل البيت الحديث البناء هش البنيان

ويخاطب فى القطعة الآتية أحد ممدوحيه من السلاطين ويطلب منه بلطف الكناية زيادة الخمر فى ليلة الوليمة :

أيها الملك الذى بسبب الخوف من شمسك

تقوس ظهر الطاق اللامكانى مثل قبة الفلك

إن تنعمان لا يقل عن جودك العظيم

ولكن الخمر التى يأتون بها قليلة مثل سنوات من يكرهك

(١) خص دولت شاه نسيمى بمقالة روى فيها كيفية انتقالة من نيسابور إلى مشهد، ويذكر أيضًا أنه كان كاتبًا معروفًا وأستاذًا فى الشعر ونظم الألغاز وفن التذهيب والتلوين والتصحيف والتوريق ويأخذ عنه التلاميذ ، وقال إنه نظم فى ليلة واحدة ويوم واحد ثلاثة آلاف بيت كما يتمتع بهشية قوية ، وكان يلتهم فى اليوم والليلة اثنى عشر مسنًا من الطعام والفاكهة ويهضمها بلا عناء ، فى أعجب شهية الصادقة وطبعه الموافق :

يمكن لهذا الشخص أن يأكل مثل هذا الطعام		أنه يستطع النظم لكل هذا المقدار

وفى مكتبة طهران الوطنية نسخة نادرة لديوان لطف الله النيسابورى من المشاهير الشعراء لهذا العصر ، ويبدو أن نسيمى هو الذى خطة .

ويخاطب أيضًا فى هذا الرباعى قلمه :

يا ألمى من هذا القلم بقير المداد

الذى يفضح أسرار قلبى للعدو والصديق

قلت أقطع سنّه لكى يخرس

فلما قطعته صار أفصح مما كان

وفى ديوان الكاتبى إشارات إلى بعض الأماكن مثل (سارى) فى مازندران وإلى سائر الأفراد غير المعروفين مثل خواجة نظام عبد الرحمن و شاعر تخلصه أمينى وشابور وجشيد وأردشير ، ويبدو أنهم كانوا من الزرادشتيين فى هذا العصر لأنه ذكر اسم الشخصين الأولين وقت طلب الشراب ، ويبدو أن الثالث كان واحدًا تمرد على ملك شيروان ولما قبض عليه الملك تردد بين قتله أو يمل بصره فحبذا الكاتبى العقاب الثانى لعقاب فى قوله :

لا تقتل أيها الشاه أردشير القائد	مع أنه حطم قواعد شيروان
قلت هل أقتله أو أعمى بصره	إن القتل مذموم فاعم فيه الشيطان

عارفى الهروى

شاعر آخر لا محيص من ذكره وأهم أعماله أثره المعروف وهو منظومة صوفيه وتمثيلية التى سماها (حال نامة) وشهرت غالبًا على الألسنة والأفواه بسبب موضوعها بمثنوى (الكرة والصولجان) وألفه فى أسبوعين فى عام ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م ، ونال مكافأة له من ملكه الممدوح جوادًا وألف دينار (فهرس رييه، ص ١٣٩ وتتمته ص ١٨٥) ، وكان قد تجاوز الخمسين من عمره ، ولعله ولد سنة وفاة حافظ الشيرازى أى عام ٧٩١ هـ، ويبدو أنه مات عام ٨٥٣ هـ ١٤٤٩م ، وما إن المنحازون له يلقبونه (سلمان الثانى) كما ذكرنا لأنه كان يشبه سلمان فى أسلوب وطريقته من ناحية ، ومن

ناحية أخرى كما ذكر على شير فى مجالس النفائس أن الشاعرين عانيا آلام الرمد ، وقال عارفى نفسه :

الدواء الأبيض على جفن عينى الأحمر   هو بعينة على ملح مسحوق على الشواء

ومع أن تقريبًا جميع كتاب التذاكر (ماعدا رضا قلى خان صاحب مجمع الفصحاء) ذكروا عارفى لكن تفصيلات سيرته التى ذكروها قليلة ، ومثنوية (حال نامة) وهو بقول الجامى (من شعره الأفضل) يشمل خمسمائة بيت ، ولم يطبع فيما يبدو حتى اليوم (١) ، ويوجد مخطوط نفيس جميل له فى مكتبة جامعة كمبردج كتب عام ٩٥٢ هـ .

والأشعار التالية وهى فى وصف جواد ملك كان يلعب بالصولجان نموذج لبعض أشعار هذا المثنوى الذى ذكره جامى والنوائى معًا؛ ولذا يمكن الحكم بأنها شعر مقبول :

من عرشه الشمس ومسنده القمر

السلطان محمد سلطان العالمين

هو الملك الذى حين التقط الصولجان

صار القمر كرة له والفلك ملعبًا

لحظة أن أدخل قدمه فى السرج

آثار جميع النقع من الكرة الأرضية

ولما آثار قدمه ريح السحاب

كان كأنه خلط النار بالرياح

وكان صولجان الشاه وهو فى بحثه الدائب

يلقف الكرة من لجام الفلك

(١) مثنوى حالة نامه لعار فى طبع ونشر باهتمام جوين سيلز بلندن عام ١٩٣١م .

وإذا لم يكن يحجم عن عدوه ونزوه

فقد كان يعدو على الكرة الفلكية

حين كان يغرق كل مرة في عرقه

كانت تهطل الأمطار منه وتبرق البروق خلالها

كانت النيران تتولد هاربة من حافره

وريح الصرصر تتعلق بذيله

ويشمل سائر هذه المنطوقة على التشبيهات البديعة ، والاستعارات الغريبة اشتقت جميعًا من لعبة الكرة والصولجات ، ولا تبدو في مذاق بعض القراء الأوروبيين لطيفة بل متكلفة ومصنوعة ولا يمكن أن نسمى في الحقيقة مثل هذا الإنتاج الأدبى (شعراً) .

ولا يمكن الحكم إلا بصعوبة على من كان الأهم من الشعراء الذين ماتوا فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ويصعب ذكرهم ، حتى نصل إلى نهاية هذا القرن حين ظهر أكبر شعراء العصر أى الجامى الذى يمكن عده واحداً من مشاهير أساتذة الشعراء الإيرانيين ، وعدد هؤلاء الشعراء من ناحية الكم الكبير ، ويتضح لمن يراجع كتب التذاكر حكمنا هذا حتى إن دولة شاه يذكر أربعين شاعراً ظهروا فى هذا العصر ، ويحصى النوائى فى مجالسه ستة وأربعين شاعراً فى المجلس الأول منها [1] فى حين أنه لم يذكر فى هذا المجلس غير الشعراء الذين كانوا يعيشون فى عهده ولم يلتق هو بهم ، ويجهل دارسوا الأدب الفارسى أسماء بعض من هؤلاء الشعراء ونظم أغلبهم أشعاراً بمنتهى الجمال والظرف ، غير أنه قل واحد منهم أن بلغ مرتبة من الجمال بحيث يعصم اسمه وشهرته من وصمة النسيان؛ لأنه لم يكن على شهرة الشاعر غير شرف مجالسه الأمراء والسلاطين الذين كانوا يعنون بأمر الفضلاء والأدباء فى بلاطهم ، وكان هؤلاء أيضًا يعيشون فى كنف

(١) فى الترجمة الفارسية لمجالس النفائس وعنوانها (لطائف نامه) يشمل المجلس الأول اثنين وأربعين شاعراً وذكر فى الترجمة الفارسية التى قام بها حكيم شاه محمد قزوينى أربعون شاعراً ، ويمكن أن يكون قد ذكر فى النسخة التركية لبراون ستة وأربعون شاعراً (راجع حاشية، ص ٢٠ للمجالس، طبعة طهران) .

رعايتهم وحمايتهم ويبعثون على الجلاء والبهاء فى بلاط سلاطينهم ، وقد غلب على دولة شاه - وهو يشرح هذه النقطة ضمن كلامه - أنه كان يوجز القول عن مثل هؤلاء الشعراء ، لكنه يفضل الحديث عن ممدوحيهم ؛ فعلى سبيل المثال ينهى كلامه فى ذيل حديثه عن شاه نعمة الله ولى ، الذى كان على وجهة التحقيق من كبار والمشايخ والأدباء والشعراء والفنانين الذين كانوا مبعث بهاء شاهرخ وجلال [1] ، ويذكر من بين الشعراء الشيخ آذرى الإسفريانى (متوفى ٨٣٩ هـ / ١٤٦١م) ، وبابا السودائى الأبيوردى (متوفى ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م) ، ومولانا على شهاب الترشيزى وأمير شاه الشيزوارى (متوفى ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م) ، والكاتبى الترشيزى (متوفى ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥م) ، ويقول إن ذكر تصانيف هذه الجماعة ودواينهم أمر مشهور فى الربع المسكون ثم يقول بعد هذا بذكر أربعة من الفنانين المشهورين ... لكن فى الحقيقة لم تكن أشعار هؤلاء الشعراء التى فى الغالب لم تنشر حتى اليوم وتقل مخطوطاتها مشهور خارج حدود خرسان حتى فى عين حياتهم ، وما يبعث على كثير السرور النوادر التى نقرأها ضمن قص الوقائع المتصلة بسيرهم فى تاريخ العصر كحكاية لقاء الشيخ الآذرى مثلاً بالشاه نعمة اللّه والتى انتهت بكفه عن مدح الملوك وانسلاكه فى التصرف وسفره إلى الهند [2] ، أو مثلاً قصة أمير شاهى الذى كان من أعقاب حكام السربدارية فى خراسان وشيعى المذهب، ولهذا رصّ فى مدحه القاضى نور الله بن السيد الشريف المرعشى الشوشترى شرحًا مطولاً فى كتابه مجالس المؤمنين [3] ، ويقول دولة شاه

(١) فى ص ٣٤٠ من التذكرة يذكر دولت شاهى .

"أما عن المشايخ والكبراء والشعراء الذين ظهروا فى عهد السلطان شاهرخ فهم : سلطان العلماء والمحققين شمس الملة والدين محمد الحافظ البخارى المعروف بالخواجة بارسا أى الزاهد قدس الله روحه والخواجة صائن الدين تركه أو مولانا الفاضل حسين الخوارزمى وقدوة العلماء ومفخرة الفضلاء مولانا على شهاب وأمير شاهى السبزاورى ، ومولانا الكاتبى الترشيزى ، ومولانا نسيمى الذين يشتهر ذكر تصانيفهم ودواوينهم فى الربع المكسون ، أما الفنانون الأربعة الذين كانوا فى عاصمة شاهرخ وعدم نظيرهم فى العالم فى عصرهم فهم الخواجة عبد القادر المراغى فى علم الأدوار والموسيقى ، ويوسف الأندكانى فى الغناء والطرب ، والأستاذ قوام الدين فى الهندسة والتصميم والمعمار ، ومولانا خليل الصمور الذى كان ثانى مانى - نور الله تعلى مرقدهم" .

(٢) دولت شاه، ص ٣٩٩، طبعة ليدن .

(٣) ألف تاريخ مجالس النفائس فى حدود ٣٩٩٣ هـ / ١٥٨٥م ، راجع فهرس ريبه، ص ٣٢٧ .

بإسلوبه المبالغ المعهود [١] : (يتفق الفضلاء على أن حرقه خسرو ولطف حسن ، ورقة كمال وصفاء شعر حافظ تجمع كله فى شعر أمير شاهى) وأنه نفسه كان يعلم بعلو قدره كما يتضح فى الشعر التالى الذى أنشده حين أجلسوه متأخراً عن الجماعة مرة فى مجلس أحد السلاطين :

أيها الملك إن مدار الفلك لا يأتى بمثل فى ألف عام فريد نوعه متحلياً بمئات الفنون فإنهم إن أجلسونى أسفل كل من هب ودب - فما يحضرنى من اللطائف فى هذا المقام إن مجلسك بحر وفى البحر بلا خلاف يستقر اللؤلؤ بعمقه والزبد بأعلاه

أو الإشارة إلى الزبد الخارج من فم قدسى هراتى نتيجة لشلل أصابة فى وجهه فى هذا البيت : مع هذا الزبد من فمى الذى لى فإن أنظم الشعر الذى يتقطر منه الماء [٢]

ومثل هذه الأشعار تجدر بالذكر من حيث إنها تخص العصر الذى نبحثه لكن لا يمكن تسميتها شعراً حقيقياً بمعنى الكلمة ويجلى دولت شاه فى كلامة الآتى مشداً لكلام السلاطين التيموريين حين يقول [٣] :

(أما الولاية ذات السعادة للأميرباى سنغر فكانت فى شهور سنة اثنتين وثمانمائة كان له جمال مع كمال وإقبال وعظمة مساعدة ، وصار شهرة العلم فى رعاية الفنون والاتصاف بها وراح الخط والشعر فى عهده وتوجه لبلاطه بسبب ماذاع من شهرته الفنانون والفضلاء من كل حزب وصوب ، يقال إن أربعين خطاطًا حسن الخط كانوا يعملون فى مكتبته بالكتابة ، وكان مولانا جعفر التبريزى المقدم عليهم ، وكان يراعى الفنانين ويعز الشعراء ويجهد فى تأمله ولديه الندماء والجلساء الظرفاء ولم يظهر من سلاطين الزمان بعد خشرو برويد مثل باى سنغر فى لهوه وتجمله ، وكان ينظم الشعر التركى والفارسى الجيد ويفهمه ، وكان يخط ستة خطوط ويتخلص بميزار بايستغز :

(١) دولت شاه، ص ٤١٧ .

(٢) مجالس النفائس طبع طهران، ص ١٥ ، ١٩٠ .

(٣) دولت شاه، ص ٣٥٠ .

صار بى سنغار المتسول فى ربعك إن الملك هو المتسول بربع الحسان

يحكى أن الخواجة يوسف الآندكانى لم يكن يناظره فى عهد باى سنغر مطرب ومغن فى الدنيا كان اللحن الداوودى ليوسف يمزق نياط القلوب وكان ينثر تنغمه الخسروانى الملح على الأكباد المجروحة ، وطلب السلطان إبراهيم بن شاخرج من شيراز يوسف أكثر من مرة من باى سنغر وألح فى ذلبه ، وفى النهاية أرسل مائة ألف دينار إليه لكى يرسل إليه يوسف فأجاب باى سنغر أخاه بهذا الشعر :

نحن لا نبيبع يوسفنا فاحتفظ أنت بنقودك

وجرت بين ألغ بك وباى سنغر وإبراهيم لطائف ومكاتبات كثيرة يضيق بإيرادها لكن الزمان الغدار والفلك الظالم أصاب هذا الملك المظفر فى أوان الشباب ، ولم يرهم شبابه الموكلون بالقضاء والقدر، وذات ليلة بسبب الإفراط فى السراب أسره بأمره رب الأرباب النوه الثقيل للغناء واعتقد أهل هراة أن سبب وفاته كان السكتة .

يقولون إن الموت هو طرفة نوم لكن هذا النوم الثقيل استولى علينا

وتبختر الأمير وهو نصف سكران إلى مطبقة التراب لكى يبعث فى صباح المحضر مع مختمرى الحشر الحيارى ويطلب من شقاة (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) لخمر المصفاة المزيلة للخمار (وكأسًا دهاقًا)، والرجاء الواثق هو أن يتجاوز الحاكم الرحيم عن ذنوبة التى لا يزيلها غير قطر ندى الرحمة ووقعت هذه الواقعة الهائلة لباى سنعر فى دار السلطنة هرة الحديقة البيضاء (سيبيد) فى شهور ستة سبع وثلاثين وثمانمائة وكان فى الخامسة والثلاثين ، والشعراء الذين كانوا ملازمين لباى سنغر فى عهد حكم شاهرخ هم باب سودائى ومولانا يوسف أميرى شاهى السبزاورى ، ومولانا الكاتبى الترشيزى وأمين يمين الدين الترلآبادى رحمهم الله) .

وأنشأ الشعراء المراثى لباى سنغر، لكن أمير شاهى تفوق على جميعهم بهذا الرباعى ولله در قائله :

بكى وناح الدهر كثيراً فى مأتمك

وجعل الشقائق كل دماء عينه فى ذيل ثوبه

ومـــزق الـورد عـــبـــاءتـــه الأرجــــوانيـــة

وتطـوق الـقـمــرى باللـبــادة الســـواء

وقد فاق دولت شاه أغلب المؤرخين المعاصرين مع كل عيوب تذكرته وأسوأها عدم الصـحـة وفـقـدان الدقـة والإطناب فـى تطريز الكلام فـى تمكنه من وصف الأوضـاع الممتزجة بالقتل والانهماك فى الخمر والفجور ، وفى الوقت نفس حب الفنون الجميلة والتذوق الأدبى ، وكل هذا من خصائق البلاط التيمورى ، وللبرهنة على هذا الحكم يبدو مفيداً أن نزيد من ذلك الكتاب مثالا آخر على النص السابق وهو فى وصف الميرزا ألغ بك الذى أوردهن فى آخر سيرة عصمت البخارائى ، وهو أستاذ بساطى وخيالى والمعاصر رستم خورياتى وطاهر أبيوردى وبرندق بخارائى ، فيقول بعد ذكره وفاة خواجة عصمت فى ٨٢٩ هـ [1] .

أما السلطان المغفور له ، سعيد ألغ بك كوكان سقى الله روضة وأنار الله برهانه فقد كان ملك العالم العادل والقاهر ، وصاحب الهمة ، وكان عالى المرتبة فى علم الفلك ، وكان بغاية اللطف فى المعانى ، وكان العلماء فى عهده فى الدورة العليا وللفضلاء فى مدته المراتب العظمى كان مطلعًا على الدقائق فى الهندسة ، وكان فى علم الهيئة بفتح المجسطى ، وافق الفضلاء والحكماء أنه لم يستقر فى العصر الإسلامى بل من عهد ذى القرنين حتى هذه اللحظة ملك له حكمة ألغ بك وعلمه فى مستقر السلطة ، كان على علم تام فى علوم الرياضة حتى إنه ألف زيج النجوم بالاتفاق مع حكماء عهده مثل مفخر الحكماء والعلماء القاضى زادة الرومى [2] ومولانا غياث الدين جمشيد [3] ، ومات

(١) دولت شاه طبعة ليدن ، ص ٣٦١

(٢) قاضى زاده الروحى هو صلاح الدين موسى متوفى نحو ٨٤٠ هـ كان من معاونى ألغ بك فى تأليفه وتأسيسه الزيج الجديد الكاوكانى (راجع مطلع السعدين للسمرقند) .

(٣) غياث الدين جمشيد الكاشى هو جمشيد بن مسعود بن محمود الملقب بغياث الدين من علماء الفلك والرياضة الذى كان يساعد الأمير فى إنشائه زيجه عام ٨٢٣ هـ ، ثم توفى بعد هذا بقليل وله رسالة فى شرح الآلات الفلكية إنها بأمر ألغ بك عام ٨١٨ هـ (راجع مطلع السعدين) .

هذان العظيمان الفاضلان قبل إتمام هذا العمل فأوكل السلطان جميع همته على هذا الأمر وأتم باقى المرصد والزيج وألف (الزيج السلطانى) ، وكتب خطبته باسمه واليوم ذلك الزيج متداول لدى الحكماء ومعتبر ويفضله البعض على الزيج النصيرى الأيلخانى ، وبنى فى سمرقند مدرسة عالية لا يظهر فى البلاد ما يماثلها فى بهائها ورتبتها وقدرها ويسكن هذه المدرسة اليوم ويدرس بها أكثر من مائة طالب علم ، وحكم فى عهد والده شاهرخ بلاو سمرقند وما وراء النهر أربعين سنة مستقلا كوكان له قواعد مقبولة فى رسوم الحكم والعدل والإنصاف .

يحكى عن أن ألغ بك كان من الفراسة وقوة الحافظة يجد أن كل حيوان كان يصيده كانوا يسجلون تاريخه ويكتبون على صفحات متى صيد وأين وكم من الحيوان صادوه ، وشاء الله أن يضع هذا السجل ولم يعثروا عليه رغم بحثهم عنه وأصيب موظفوا المكتبة بالهلع ، فقال ألغ بك لا تحزنوا لأننى أحفظ تلك المعلومات من أولها لآخرها فطلب دفتراً وأخذ الملك يملى التواريخ والكتاب يكتبون عنه تلك التواريخ والمعلومات حتى تم هذا الدفتر .. وشاء الله أن يظهر بعد فترة السجل الأول وطابقوا النسختين فلم يجدوا خلافا بينهما إلا فى عدة مواضع قليلة وروى كثيراً من هذه النوادر عن طبعه وذهنه .

أما الشيخ عارف الأذرى عليه الرحمة فقد حكى أنه صاحب خاله فى شهور سنة ثمانمائة فى قراباغ ، وكان خاله راوى القصص للأمير الكبير صاحب القرآن تيمور فكان يذهب إلى موضع ألغ بك فى أيام الطفولة ، وكان يشارك الأمير اللعب لعدة سنوات بحماس الطفولة ويقص عليه الأسماء والحكايات ، وكان للأمير كما هى عادة الأطفال معه أنس وسرور حتى شهور اثنين وخمسين وثمانمائة حين فتح الملك المذكور خرسانة ، ونزل فى اسفرايين فنهض بعد اشتعال الرأس شيباً وخف إلى بلاط الملك وحين رآه من بعيد فى لباس الفقراء والصالحين قال له بعد تقديم السلام والسؤال عن الحال : أيها الدرويش يبدو أنك صاحبنا وجليسنا القديم ، ألست ابن أخت من كان يقص القصص علينا ؟ فتعجب من ذهن الملك [illegible]راك وحافظته النقية ؛ فأجابه بالإيجاب ، وحكى له

ما ذكره من حكايات قراباغ وغزو كرجستان عجائب تلك الديار ، ويروى كثير من دقة خطر هذا الملك بحيث لا يحتمل هذه التذكرة مزيداً منها .

وبعد هذا اللقاء المذكور بعام أى فى عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م قتل ألغ بك هذا الأمير الذكى ذو القريحة بيد ابنه العاق عبد اللطيف فقتل هو بدوره بعد ذلك بسبعة شهور (١) .

مولانا حسين الكاشفى

تدور جميع الأعمال الأدبية تقريباً للفترة الأخيرة التمورية وهى موضع دراستنا حول أحد الحماة والمظاهرين للفضل والأدب وهو الوزير (مير على شير النوائى) بحيث تنتهى الآثار الأدبية هذه لهذا العصر بالشاعر الأستاذ ذى الفنون المتخلص بالجامى وعدنا فى الفصل السابق حين كنا نتحدث عن آثاره النثرية بأن نشير أثناء هذا الفصل إلى سيرته وأعماله .

يذكر خواند مير فى حبيب السير فى المجلد الثالث الجزء الثالث (ص٣٤١ من طبعة بمباى الحجرية) ، وخلاصة كلامه فيه أن اسمه كمال الدين حسين ولقبه الواعظ وحرفته الوعظ ، وكان جميل الصوت وصاحب تنغيم مؤثر وتبحر كبير فى علم الكلام والحديث ، كان يعتلى منبر الوعظ صباح كل يوم جمعة فى (دار السيادة السلطانية) فى هراة ثم بعد ذاك فى مسجد الأمير على شير ويلقى مواعظه كل يوم ثلاثاء فى المدرسة السلطانية ، وكل أربعاء فى ضريح أبى الوليد أحمد ، وفى أواخر حياته كان يعظ حيناً فى أيام الخميس فى تكية السلطان أحمد ميرزا ، وكانت له يد طولى فى الفلك وصناعة الإنشاء وتبحر فى سائر فنون الأدب أيضاً ، وكان ابنه فخر الدين على الذى خلفه فى الوعظ ينظم الشعر ونظم مثنوى عشق اسمه (محمود واياز) ، ولم تكن حرفة الواعظ – فيما يبدو – نظم الشعر بل كان يبرز فضله فى الكتابة النثرية خاصة

(١) المشهور أنه بعد قتله أباه بستة أشهر . (المترجم)

فى كتابة المعروف (أنوار السهيلى) ، وهذا الكتاب الذى ألفه بإنشاء مطنب ويمتلىء بالصناعة اللفظية تقليد لكليلة ودمنة ولقى شهرة عظيمة فى الهند ، وكان موضع اهتمام الطلاب الهنود حين يتعملون اللغة الفارسية وقرر ضمن الكتب الدراسية الرسمية لسنوات طويلة للمتقدمين إلى شغل الوظائف فى الخدمة الحكومية (الإنجليزية) للهند ، ومن الكتب المفصلة الفارسية التى طبع فى المطابع الإنجليزية أسلوبه يمتلىء لابن المقفع ترجمته الفارسية القديمة فى الجزء الثانى من كتابنا هذا من ص ٣٥٠ حتى ٣٥٣ ، ونضيف هنا إلى سائر مؤلفات الكاشفى التى ذكرت أنفًا أن له كتابًا آخر اسمه (مخزن الإنشاء)[1] لم يقع تحت ناظرى وقد مات فى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م قبل أن يكتب خواند مير سيرته بتسعة عشر عامًا .

الأمير على شير النوائى

بلغت أهمية على شير وعظمته سواء من ناحية التأليف الأدبى أو رعاية الأدباء كما سبق فى الفصل السابق بالحد الذى يمكن تسميته بلا مبالغة (ما سيناس) عصره

(١) مخزن الإناشء كتاب ألفه الكاشفى فى الأنواع المختلفة للرسائل والمنشآت والعناوين والتقاليد الخاصة بالرسائل والمكاتيب العربية والفارسية والنظم والنثر باسم السلطان بايقرا ووزيره النوائى عام (٩٠٧هـ) ويشمل :

العنوان : ما لا فوت للكاتب من تملكه ، الصحيفة الأولى : الخطابيات ، الصحفية الثانية : الجوابيات ، الصحيفة الثالثة : مسائل متفرقة ، الخاتمة : فى الأدعية والثناء ، ثم أوجز المؤلف كتابه هذا لأبى المحسن ميرزا فى كتاب أسعاه (صحيفة شاهى) ، وموضوعات هذين الكتابين ومندرجاتها رتبت فى صورة جداول منظمة بأسلوب كان طريفًا جديداً فى ذاك الوقت من نوعه ، ويحوزة سيد أحمد مهذب خال حكمت نسخة نفسية لصحيفة شاهى خطت فى ٩٣٢هـ وتبدأ بهذا البيت :

يا من باسمك لقيت لصحيفة الشاهية   شهرة من الثرى إلى الثريا

وطبع هذا الكتاب فى لكناو (راجع فهرس ريه ص ٥٢٨ ، وحاجى خليفة مجلد ٢ ص ٤٠٨ وفهرس اسبرنجر (Boblio theca Sprenger, No. 1580)

وبلاده[1] ، وهو صديق الجامى وحاميه وراعيه الذى ألف باسمه كثيراً من مؤلفاته وبعد أن مات هذا الشاعر عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م نظم الأمير رثاء فيه ذكر مطلعه خواند مير[2] ، ويذكر اسمه فى مواضع كثيرة حين يذكر فضلاء هذا العصر خاصة فى حبيب السير الذى تكرر ذكر هذا الأمير المتقد البصيرة فى حديثه عن شعراء عهد حسين بايقرا ، ويذكر باير فى مذكراته (باير نامة) هذا الأمير بتجليل مع أنه كان يأخذ فى الأغلب جانب النقد ويقلل من مدحه الناس والثناء عليهم بعكس كتاب التذاكر مثل دولت شاه وخواند مير (باير نامة طبعة بمباى ص١٠٨) ، ويقول فى حقه إنه لم ير أميراً مثله فى إكرامه ورعايته للعلم وفضلا عن الكتاب والشعراء الذين لا حصر لهم ولقوا منه التشجيع وشملتهم رعاية فإن مصورين فنانين مثل بهزاد وشاه مظفر وموسيقيين معروفين لا عديل لهم مثل قول محمد والشيخ النائى ، والحسين ، والعودى يدينون إليه جميعًا برقى أمرهم ، وكان هو نفسه عالمًا فى الموسيقى ماهرًا وعازفًا أستاذًا ومصوراً بارعا وكان فى اللغة التركية بلا نظير إذ إنه نظم وأنشأ بهذه اللغة أربعة دواوين غزلية وخمسة مثنويات طويلة على أسلوب خمسة النظامى ومثنويا يقلد فيه منطق الطير للعطار وسماه لسان الطير وكان يتخلص بالغانى فى شعره الفارسى التى ينظمها ، وكان قصير الباع فيها بقول باير لأن إن كان بعض أبياته الفارسية جيدة لكن أغلبها ضعيف واه ، ومعلوماته فى علم العروض تخلو من الصحة والدقة ويقول باير فى رسالة ألفها باسم (ميزان الأوزان) إنه أخطأ فى أربعة أوزان من الأربعة والعشرين وزنًا رباعيًا التى درسها .

(١) ما سيناس Maecenas Cilinius اسم أحد عظماء الروم ، وكان نصير الأدب وصديقًا للشاعر الرومى هراس ، ولد (٧٣) ومات (٨) قبل الميلاد .

(٢) عبارة حبيب السير هى (وسلك الأمير على شير تركيبًا غراء فى سلك الإنشاء فى رثاء مولانا نور الدين عبد الرحمن وأذكر مطلعه الذى بخاطرى :

ينزل ظلم جديد كل لحظة من جماعة الفلك ولكل نجم منها إحراق لبلاء جديد

أنظر حبيب السير مجلد ٣ جـ ص ٣٣٤

وتزيد شهرة هذا الأمير الشعرية بأشعاره التركية وتقل فى أشعاره الفارسية ، ومع هذا يذكر فى تاريخ الأدب الفارسى بإعزاز وإجلال لحمايته وتشجيعه العظيمية لكافة أنواع الأدب والفنون الجميلة ، ولمن يريد مزيداً من المعلومات عن سيرته وتآليفاته الرجوع إلى المقالة المفيدة التى أعدها (بلين) الفرنسى عنه ونشرها فى الجريدة الأسيوية فى باريس عام ١٨٦١م .

ولد مير على شير فى هراة عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، وتوفى بها أيضاً فى الثانى عشر من جمادى الثانية عام ٩٠٦هـ / ١٥٠١م ودفن ، وكانت حياته السياسية فى تلك البلاد وفى تلك الفترة المليئة بالفتن مستثناه إذ اقترنت بالهدوء والاستقرار واجتذب فى تلك الفترة محبة السلطان حسين بايقرا وثقته فى عهد سلطنته ، وكان رفيق صباه وتعليمه ولم يكن يهتم بالجاه والجلال الذى ينوى والماكنة السياسية ولا يأبه بهما بل أعرض عنهما بسبب ميله الطبيعى لكى ينشغل ستفرغ - بالتأمل النفسى والدراسة الأدبية وأثر عدم الزواج طوال عمره ، ودخل بهداية أستاذ زمانه الجامى الطريقة النقشبندية ولم يكن حد لحماس إلى الأعمال الخيرية وقبل إنه بنى نحو (٣٧٠) مسجداً ومدرسة وكاتب قوى كثيراً التآلف إذ يذكر (بلين) ٢٩ كتاباً من تواليفه ألفها فى الفترات المختلفة ما بين تملك بايقرا السلطة ووفاته ، وأخر مؤلفاته كتاب اسمه (محاكمة اللغتين) سعى فيه إلى إثبات تفوق اللغة التركية على الفارسية ، وقد ألف هذا الكتاب عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م أى قبل وفاته بعام واحد[1] .

(١) راجع فى سيرة النوانى وأعماله مقدمة حكمت على مجالس النقائس طبعة طهران عام ١٣٢٣ وأعمال مؤتمر شهر مايو عام ١٩٤٨م المنعقد فى طاشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان فى الذكرى الخمسمائة لولادته فى مجلة (بيام نو) أو الرسالة الجديدة طبعة طهران عدد ٤ السنة الرابعة .

الجامى

هو مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامى ولد فى المدينة الصغيرة (جام)[1] فى خراسان فى ٢٣ شعبان ٨١٧هـ / ٧ نوفمبر ١٤١٤م ومات بهراة فى ١٨ محرم ٨٩٨هـ / نوفمبر ١٤٩٢م ، إنه من الأساتذة المشهورين الذين ربتهم أرض إيران لأنه كان يجمع فى شخصه الشاعر العظيم والمحقق الدراسى الدقيق والعارف ذا المرتبة الكبيرة له علاوة على كليات أشعاره الشاملة لثلاثة دواوين غزلية وسبعة مثنويات ومقدار من القطع والأبيات المتفرقة تأليفات فى تفسير القرآن وإثابت نبوة الرسول ، وفى علم الحديث وسير الأولياء والصوفية ، وله مؤلفات فى الصرف والنحو العربى والعروض والقافية والموسيقى وفن الألغاز وسائر الفنون ، ويحصى كتاب (التحفة السامية) له سنة وأربعين مؤلفًا وأعمٍ أنه لم يكتمل بعد فهرس جامع وكامل لمؤلفاته وكان معاصرو الجامى يجلونه كثيرًا لا فى وطنه وحده بل كان كما سبق السلطان العثمانى يحترمه كثيرًا وسعى كثيرًا بدون جدوى إلى الحاقة ببلاطه .

ذكره بإعزاز غالب معاصريه وعدده من السمة السابقة بحيث أن مقامه يجل عن المدح والثناء وفى غنية من ترجمة أحواله ، كما يقول باير بعد ذكره إنه كان عديم المثيل والعديل فى عصره فى العلوم الصورية والمعنوية إنه ليس بحاجة إلى مدح وثناء وإنما لم يورد ذكره إلا من باب التيمن والتبرك .

ويبدأ سام ميرزا ولد الشاه إسماعيل الصفوى يذكره قبل الجميع فى الصحيفة الخامسة من كتابه التحفة السامية ويقول : (لا يحتاج الجامى إلى تقرير عن حاله أو تبيين زمره بسبب غاية علو فطرته ونهاية حدة فضيلته إذ إن أنوار فضائله طوت ما بين أقصى الشرق وأقصى الغرب وامتد سماط نواله وعطائه من بداية العام إلى نهايته (بيت) .

(١) هو مسقط رأس الجامى هو خرد جرد من نواحى ولاية جام وليس المدينة الصغيرة المسماة (تربت جام) بجوار ضريح الشيخ أحمد جام جنده بيل (راجع كتاب الجامى لحكمت ص ٥٩) .

لم يخط الجامي ديوان شعر بل مد سماطا كما يفعل الكرماء

لم يخط الجامي ديوان شعر أن تجده بكثرة مادا مدح الكرام وذم اللئام

ويذكر السمرقندى فى تذكرته بخاتمتها عن الشعراء المعاصرين اسمه قبل على بنشر ويصفه بنحو قريب من الأوصاف السابقة[١] .

وألف النوائى رسالة مقصورة على ثنائه ووصفه أسماها (خمسة المتحيرين) فضلاً عن الذكر الموجز الذى أورده فى صدر كتابه مجالس النفائس ، وقد سماها بهذا الاسم ، وهى التى فصل بلين فى مقال له شرحها ، لأنها تنقسم إلى خمسة أقسام هى المقدمة وثلاثة فصول وخاتمة بالنحو التالى :

المقدمة : فى بيان أصل الجامى ومولده وحياته معرفة المؤلف به .

الفصل الأول : ويشمل الأحداث والمحادثات التى جرت بين المؤلف والجامى .

الفصل الثانى : يشمل المراسلات والمكاتبات التى تبادلها الأثنان .

الفصل الثالث : يشمل الكتب التى ألفها الجامى حسب طلب المؤلف أو اقتراحه .

الخاتمة : تشمل الكتب والمراسلات التى درسها المؤلف بناء عن إرشاد الجامى ونصحه ، وكذا يفصل وفاته وعزائه الذى أقيم له بمنتهى الإجلال والتعظيم فقد شيعه إلى مثواه الأخير أفراد الأسرة الحاكمة والنجباء والأعيان والعلماء والفضلاء بهراة وجمع كبير من عامة الناس[٢] .

(١) نص عبارة دولت شاه (ص ٤٨٣) معناه

ملأ ساقى الروح كأس المعانى بالشراب الصافى

ثم روى بعده الجامى القرناء من خمره هذه الكاس

مادامت مصطبة الجامى مفترحة تقوص مجلى الرنود المشاهير ، وطالما ظل عروس الفكر البكر مخطوبة لهذا الرجل عقمت وسقمت مخدرات حجرات الدعوى أخرس سواد ديوانه ومنشآته ببغاوات الهند القاضمات للسكر ولم يعد العذاب الكلام فرسان ميدان الفارسية يضعون أصابعهم على ملاحة كلام الملحاء ماداموا قد شربوا [illegible] شهد أشعاره .

(٢) تر[illegible] التركة الجغتائية هذ[illegible] الرسالة المفيدة محمد نخجوانى إلى الفار[illegible] [illegible]كمت نسخة [illegible]

لكن الأفضل والأقيم بين كل هذه التراجم ترجمة تلميذه المشهور عبد الغفور اللادى (مات فى شعبان ٩١٢هـ / ١٥٠٦م ، ودفن بجوار قبر أستاذه) بشأنه[١] .

وخلاصة القول إن جميع القضايا الأساسية المتصلة بحياة الجامى درسها الكابتن ناسوليس فى المقدمة البيوجرافية لطبعة كتاب نفحات الأنس (طبعة كلكتا عام ١٨٥٩م) ، ورغم أن هذه المقدمة وقعت موقع الطعن بسبب الحملة التى بلا مبرر والشديدة ضد التصوف والتى أعلنها المؤلف إلا أن تفصيلات سيرة الجامى ذكرت فيها بصورة أفضل مستندة إلى الأدلة بأكثر مما جرى لسير أخرى كسيرة الجامى تخلصا له[٢] كما أثبت تواريخ تأليف كثير من أعماله ، المنظومة والمنثورة التى ظهر غالبها فى الخمس عشرة سنة الأخيرة من عمره الطويل وهذه التواريخ وكذلك النسخة الأصلية لديوان أشعاره الموجودة لحسن الحظ تقدم قاعدة وأساسًا كثير الإحكام والقوة لأن نسخة مخطوطة بخط المؤلف نفسه لكلياته توجد فى سان بطر سبرج (لنين جواد) بمؤسسة اللغاز الشرقية لوزارة الخارجية الروسية وصفها بالتفصيل البارون فيكتور روزن [٣] ضمن وصفه وبيانه لمخطوطات تلك المؤسسات فانحل كثيراً من النقاط التاريخية المشكوك فيها عن طريق هذا الكتاب بشكل حاسم[٤] ، وتزيد وتكثر المصادر والمراجع عن سيرة هذا الشاعر الكبير وصفاته إذا أريد دراستها فقد كان يشاهد منه من عهد الصبا فطنة وذكاء خالصان وكان يفوق أقرانه جميعاً بسرعة عجيبة كلما كان يزداد نمواً

(١) أدرج فى تكملة نفحات الأنس وحواشيه ما أعده اللارى من شرح أحوال مفصل فى حق أستاذه وتوجد نسخ عديدة من هذا الكتاب ، راجع كتاب الجامى لحكمت ص ٥٥ ، ١٧٥ ، ورشحات عين الحياة وسفينة الأولياء ، وفهرس ريبه ص ٣٥٠

(٢) إشارة إلى هذا الشعر الذى قاله الحاجى :

مسقط رأس جام ورشحه قلمى — جرعة شيخ الإسلام جامى

فالإجرام أن يكون أهل الكلام — (جامى) تخلصى لهذا السببين

(٣) المجموعة العلمية لمؤسسة اللغات الشرقية بوزارة الخارجية (سان بطرسبرج ص ٢١٥-٢٥٩) .

(٤) توجد بالمكتبة الوطنية بطهران نسخة كاملة تقريبًا وقديمة كانت ملك المكتبة السلطانية وهى بخط المؤلف باحتمال القوى ، ونسخة بخط المؤلف لشواهد النبوة تايرخ كتابتها الثانى من صفر عام ٨٩١هـ .

ووعيًا انشغالاً بالكتاب فضائل العلوم وتكميل نفسه لدى العلماء المعروفين ، فكانوا يكتسبون عنه المعارف يكتف (ناسوليس) فى مرتبة تحقيق وفضيلة :

حين ندرس الجامي لا من ناحية الشعر والشاعرية بل من ناحية التحقيق والفضل وحدها لا يبقى وجه لإنكار أنه كان على قريحة فياضة وعلم كبير ، لكن بسبب أنه لم يكن فيما يبدو معصومًا من ملكة العجب والاحتيال للأسف[1] ، فإن كبرياءه الشديد وشعوره باحتقار المعاصرين هما من خصائص تآليفه لم يحب أبدًا أن يجعل نفسه مرهونًا بتعليم أستاذ فى كسب العلم ، وقال : لم يظهر لى أستاذ وجدته أعلى منى ويحق أن أخذ عنه بل على النقيض من ذلك كل أستاذ لى أباحثه العلم أغلبه ، ومن هنا فليس لأحد منهم قط حق الأستاذية والتعليم فى عنق ، إنما إذا كان على أن أشكر معلمًا فقد كان هو أبى وحده علمنى علم اللغة .

استقلالية الجامي :

ومن الصفات الحميدة الأخرى للجامي التي يمكن قد نشأت عن ملكة كبريائه هى أباء نفسه وترفعها عن مدح الأغنياء ونفاق الأقوياء ، وهى صفة قل أن وجدت فى شعراء عصره وقد خص على بن حسين الكاشفى الذى كتب سيرته ذكر هذه الصفة وقال : لم يستطيع شاعر قط أن يعبر عن مفاد أشعار النظامى مثل الجامى :

بما أني لم أطر من باب أحـد في عهد شبابى تاركًا كنفك وبابك

فقد أرسلت الجميع إلى بابى وكنت تعطينى ما لم أكن أطلب[2]

(١) ماينسبه تاسوليس إلى الجامي من (العجب والاختيال) محل نظر لأن لدينا كثيرًا من الأدولة من سيرته على كمال تواضعه وانكساره وأفضل دليل أنه مع فضائله الصورية والمعنوية ، فلم يجعل من نفسه شيخًا أو داعيًا للإرشاد بل ظل تابعًا ومريدًا لشيخ النقشبندية الخواجة عبيد الله السمرقندى وكان يتباهى بالأخدعة ، راجع كتاب الحاجي لحكمت ص ٨٧ - ٩٦ وما قاله الجامى عن دراساته وكلام فخر الدين على صاحب الرشحات فى نفس المعنى بعبارة لطيفة فى نفس الكتاب ص ٦٤

(٢) راجع مقدمة ناسولينى ص ٥ وكتاب الجامى ص ٩٣

ويظهر خلافًا لذى الجامى احترامه العظيم لشيوخه الروحيين ومعلميه الذين كانوا يرشدونه فى الطريق الصوفى ويمدح فيهم عظمة الشأن وجلال القدر ، وقد فصل ناسوليس هذه النقطة فى مقدمة فى سيرة الجامى(١) .

مع أن الجامى جافى تملق الكبار ومداهنتهم ولعل هذه الصفة هى التى جعلته ينال الاحترام العظيم والشهرة والواسعة وقل شاعر إيرانى أن يماثله نجاحًا فى هذا الاحترام والشهرة ، ومع أنه عمر طويل ولم يقع له حادثة مؤسفة أو مصيبة وشدة من جفاء الحظ له حتى أن كبار الشعراء الذين زادوا عليه شأنًا ومقدمًا كالفردوس وناصر خسرو والأنورى والسعدى وحافظ لم يأمنوا أمثال هذه الحوادث ، فمع هذا فقد وقعت له حادثة وحيدة غير سعيدة ذكرت فى سيرته وخرج منها سليمًا معافى بسبب كامل أستاذيته ومهارته وقد حدثت له فى بغداد حين كان متجهًا إلى مكة عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م(٢) وسببها أن بعض المفسدين رووا قطعة من مثنوى سلسلة الذهب فاتهم بسببها بكرهه لأولاد على بن أبى طالب ، ومع أنه أنشأ قطعة كثيرة الفصاحة (٣) فى مدح الحسين بن على قبل زيارته لقبره بكربلاء إلا أن مجلسًا غاصا بالناس قد أقيم له فى محضر علماء بغداد للتنفتيش عن عقيدته وتمكن الجامى من رد هذه التهمة بيسر عنه ويعكس الاتهام على حاسديه والمغرضين به ، وقال لو أنه كان

(١) مقدمة ناسوليس ص ٥ – ١١

(٢) المقدمة السابقة ص ١٢ وكتاب الجامى ، ص ٨٢

(٣) جاء فى الرشحات (ونزل فى غزة جمادى الآخر سنة سبع وسبعين وثمانمائة بغداد وتوجه إلى الحلة بعد هذا ببضعة أيام لزيارة الروضة المقدسة للحسين فلما بلغ كربلاء نظم هذا الغزل :

جعلت ما مآقى قدمين تسعيان إلى قبر الحسين	ورحلتى له فرض عين فى مذهب العشاق
ولو وطأ خدام مرقده رأسى بأقدامهن	لتجاوز رأسى حقًا منفرق الفرقدين
إن من له الشعر الجعد المسكى على غداره	أنى له أن يحتاج فى زينته إلى شعر مستعار
فكن يا جامى شحاذًا لحضرته حتى يتبدل	عذاب البين والفراق إلى راحة الوصال
فاذرف الدمع فى المشرب الكريم	لتقضى حاجة رسائل أداء الدين

يخشى من نظم هذه الأشعار فلأن خشيته ناشئة عن احتمال تصور أهل خراسان أنه شيعي ، ولم يدر بخلده قط أن تتهيأ له المشاق والشدائد بيد شيعة بغداد بسبب هذه الأشعار[1] لكن هذه الحادثة آلمته بعد ذلك بشدة فنظم أشعاراً في ذم أهل بغداد تبدأ بهذه الأبيات :

(١) وردت بالرشحات قصة المباحثة والمجادلة بين (رافضة بغداد) والجامي بالتفصيل وهي (وافتضح خصم مولانا المسمى نعمت الحيدري في هذا المجلس وحلق بعض أهل شيروان شاربه بالخنجر والسكين ثم وضعوا على رأسه القلنسوة الخشبية العريضة التي يلبسها المذنبون وأركبوه معكوساً على حمار وطافوا به مع أقرانه وأعوانه في سائر سكك المدينة وسوق بغداد تعذيراً لتشهيره ، وبعد حدوث هذه الحادثة وجفوة أهل بغداد له نظم هذا الغزل .

افتح أيها الساقي غطاء قدحك على شرف	الشط وأزل من خاطرى كدورة أهل بغداد
لا يشترون الزهق والسلامة في طريق العشق	فما أسعد من تعود الجفاء واللامة
إن العاشق الذى نقب خفية	دار الوصال لا يأبه بعواء الجفاء والملامة
إن وصف العاشقين له لون له ولاصقة	فقلل طلب هذا الوصف من أسراء اللون والرائحة
إن هذه البلد يا جامي ليست المقام	الصادق السلس فانهض لكى نتجه إلى أرض الحجاز

وأقام ببغداد أربعة شهور وتوجه إلى الحجاز بعد عيد الفطر في تلك السنة .

والقطعة التي سببت كل هذه الجلبة والصخب العام في بغداد وردت بالدفتر الأول لسلسلة الذهب في باب معنى الرفض وذم الرافضة :

انظر هذا الرفض الذى رفض العقل وتجاوز الحدود
قال كلاماً في مدح على لا يتأتى إلا من الكاذب
ان قدر على أعلى من أن يصل إليه فهم الرافض
وأى عار لعلى نفسه أعظم من أن يمدحه طغمة من الأدنياء
لا تقل أنهم أدنياء فهم أكثر دناءة من الأدنياء وأكثر في النقص من الأنقص عن الأنقص

واستشهد بحكاية عن شاعر أنشد قصيدة غراء في مدح الملك فلم يثن عليه غير جاهل لم يعرف خصائص الشعر فلما رأى هذا الشاعر هذا بكى ، وقال بآخر هذه الحكاية :

ليست رؤيته مثل رؤية العين الفاهمة للشعر فأنى أعار من ثنائه على شعرى
ومثله الرافض الشرير المحتال حين يمدح علياً
يصاب على بالعار من مدحه وينوء كاهله منه
بل لو قلت إن الميل القلبى لا يخلو قط من نسبة جائزة وعلاقة
أقول إن الرافض بغاية الوضاعة وعلياً بغاية فكيف يخلو الميل من المناسبة؟

أفتح أيها الساقى غطاء قدحك على شرف

الشط وأزل من خاطرى كدورة أهل بغداد

حبى للشط لا من قدح القمر لأن لا أحد

قط من أبناء هذا البلد يستحق أن أذكره

لا تطمع فى الوفاء والمروءة من الأنياء

ولا تطلب صفة الآدمية من طبع الشياطين

ومع كل هذا الزهد والعرفان فقد كان الجامى يتمتع بروح الفكاهة وخفة الظل ، فحين كان ينشد هذا البيت بشأن مطلع غزل كان نظمه :

أقصى عليك حكاية فانهما كل تصل من تأملها إلى جواب :

ثم أورد حكاية الرافض الذى سؤال أحد علماء السنة أن يصف له عليًا فساله العالم من على ؟ هل هو على الذى تعتقد فيه أم على الذى نعتقد نحن فيه ؟ ثم أورد إذاك شرحًا يثبت فيه فضائل عل ويمنع من سب الخلفاء الثلاثة نقله بقول الرشحات من بعض كتب القاضى عضد الدين الإيجى ويروى آخر قول هذا القاضى :

كان الرسول بداية الكحال المصطفوى ... مضار نهاية الخلافة النبوية

كان خاتم الرسل والأبياء ... فصار على خاتم خلافته من بعده

وأبت جماعة مبايعته ... وأخطات فى هذا الأدباء

كان على هذا فى كمال أخلاقه ... وسيرته نفس ما كان لأبى بكر وعمر

فلا تلعنهما لأنك تلعنه ... ويقبح لعن المحب لحبيبه

وليس للرافض مشابهة به ... فى أى معنى وجهة

إنه يتوجه لموهومه ووهمه ... لأنهما يليقان به

قد يخت له عليًا وتزعزع ... خاطره بسبب جبه له

هذا هو كلام الرشحات وما قيده من شعر للجامى لبيان عقيدته والعهدة عليه .

من شدة وجودك فى روحى الحزينة وعينى السهرانة

أظن كل من يظهر لى من بعيد أنه أنت

فقاطعه أحد الحاضرين مستفسرًا على غير أدب (ولو ظهر حمار من بعيد؟) فأجاب الجامى علي الفور (أظنه أنت!) .

وفى مناسبة أخرى نظم هذه القطعة فى أحد شعراء زمانه يتخلص بـ (ساغرى) اتهم معاصريه بسرقة معانى أشعاره :

كان ساغرى يقول سرق اللصوص معانى شعرى

كلما وأوا معنى جميلاً فى شعرى

فرأيت أن أكثر أشعاره ليس فيها معنى واحد

كان صادقًا فيما قال من أنهم سرقوا معانيه

فلما سمع ساغرى هذه القطعة شكا الجامى إليه فقال قلت (شاعرى) لا (ساغرى)[1] ، غير أن بعض الظرفاء حرفوا كلامى لكى يضايقوك .

وذكر فى مادة تاريخ وفاة الجامى قطعتان أحسن من غيرهما أولادهما قوله تعالى (ومن دخله كان أمنًا : السورة ٣ الآية ٩١) ، والأخرى عبارة فارسية وهى (دود أزخراسان برآمد) أى تصاعد دخان الهم من خراسان وكلتاهما بحساب الجمل (٩٨٩) أو تاريخ وفاته .

(١) (شاعرى) تعنى شاعر ، و(ساغرى) تخلص الشاعر و (ساغر) تعنى الكأس .

الآثار المنشورة للجامى :

حان الآن الحديث عن مؤلفات الجامى العديدة وتنقسم إلى المنثور[1] منها والمنظوم وقد سبقت الإشارة بين أعماله النثرية والمهمة إلى كتبه نفحات الأنس وهو ترجمة لأحوال الصوفية والأوليات مؤلف ٨٨٣هـ/١٤٧٨م ، وشواهد النبوة مؤلف ٨٥٥هـ/١٤٨٠م ، وشرحه على لمحات الشيخ العراقى المسمى بأشعة اللمعات المؤلف ٨٨٦هـ/١٤٨١م ، واللوائح ومن بينها فيما أعلم لم يطبع شواهد النبوة وحده ولدى مخطوطة جيدة له وها كم موضوعات :

المقدمة : فى معنى النبى والرسول وسائر المسائل المتعلقة بهما .

الركن الأول : فى الشواهد والأدلة التى ظهرت قبل ولادة الرسول .

الركن الثانى : فى بيان ما ظهر من مولده حتى بعثته .

الركن الثالث : فى ذكر ما ظهر من بعثته حتى هجرته .

الركن الرابع : فى شرح ما ظهر من الهجرة حتى وفاته .

الركن الخامس : فى تفصيل ما ليس له خصوصية بأى وقت من الأوقات السابقة ولكن آثار دلالته ظهرت بعد وفاة الرسول .

الركن السادس : فى بيان الشواهد والأدلة التى ظهرت بوساطة أصحابه والأئمة من أولاده رضوان الله عليهم .

الركن السابع : ما ظهر من شواهد فى زمن التابعين وأتباع التابعين حتى الطبقة الأولى للصوفية[2] .

الخاتمة : فى عقوبة أعداء أسرة النبوة .

(١) راجع كتاب الجامى لحكمت فيما يخص أعمال الجامى النثرية ص ١٦٦ - ١٨٣

(٢) يجب أن يقارن هذا الترتيب بنفحات الزنس ، طبعة ناسولين ص ٣١

وأُلفَ هذا الكتاب بأسلوب كثير السلاسة ولو طبع فلسوف يكون مقدمة مفيدة علمية لعقيدة المسلمين فى شأن رسول الإسلام .

وللجامى أيضًا ثلاثة كتب فى التصوف ولم أجد الفرصة والتوفيق لدراستها ، أولها رسالة اسمها اللوامع ، والثانى شرحه على الكتاب المشهور فصوص الحكم ، تأليف الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى المؤلف ٨٩٦هـ/١٤٩١ والثالث شرحه على النصوص تأليف تلميذ الشيخ صدر الدين القونيوى وسماه نقد النصوص وهو من أقدم مؤلفات الجامى لأنه ألفه عام ٨٦٣هـ/١٤٥٨م .

ومن الآثار القليلة الحجم للجامى ذكر نحو اثنتى عشرة رسالة ذكرت ضمن فهرس أسماء مؤلفاته الذى ضم ٤٦ عملاً وأوردة صاحب التحفة السامية بينما بتضاعف عدد هذه الرسائل الصغيرة فى تذكرة مرآة الخيال [(١)] ويقول صاحبه إن الجامى خلف بعد وفاته ما يزيد عن تسعين رسالة وكتابًا ، وهذه الرسائل الصغيرة عبارة عن تفاسير متفرقة لبعض أجزاء من القرآن مثل تفسير سورة الفاتحة وشرح أربعين حديثًا ورسالة فى الأحاديث المروية عن أبى ذر ورسائل كلامية فى التوحيد الإلهى مثل الرسالة التهليلة فى شرح إله إلا الله وآداب الحج المسماة بمناسك الحج ... وغيرها وترجمة أحوال بعض الصوفية الكبار وكلماتهم مثل الرومى وخواجه بارسا وعبدالله الأنصارى وكذلك فى أخلاق الصوفية وأعمالهم مثل تحقيق مذهب الصوفية وشروح على بعض أشعار الصوفية العربية والفارسية مثل شرح القصيدة التائية والميمية وخمرية عمر بن الفارض المصرى وشرح البيت الأول للمثنوى الشمهور بـ (رسالة الناى) وشرح رباعى لخسرو الدهلوى وشرح بعض رباعيات نظمها فى نفسه ، وفوق ذلك فللجامى رسالات فى العروض والقافية (طبعة بلوكمان فى كلكتا عام ١٨٧٢م)

(١) عبارة مرآة الخيال تأليف شير على خان اللودى ومطبوع على الحجر فى بمباى فى ص ٧٣ معناها (كان من صفاء الظاهر والباطن بدرجة الكمال وألف تسعة وتسعين كتابًا وقعت كلها موقع القبول عند أهل العلم فى إيران وتوران والهند ولم يستطع أحد أن ينكرها) .

وفى الموسيقى وشرح على كتاب مفتاح الغيب وشرح آخر على كتاب (كافية ابن الحاجب) على النحو[1] الذى ألفه لابنه ضياء الدين يوسف ومجموعة من المراسلات والمنشئات ورسائل عدة فى فن اللغز وكان متداولاً جدًا فى ذاك الوقت .

وآخر ولعله أفضل كل كتب الجامى النثرية كتابه (بهارستان) الذى ألفه بأسلوب جلستان السعدى فى ٨٩٢هـ/١٤٨٧م ويشمل ثمانية فصول وسمى كل فصل روضة كالتالى :

الروضة الأولى : فى حكايات عن أولياء الله وكبار الصوفية .

الروضة الثانية : فى كلام الحكماء .

الروضة الثالثة : فى عدالة السلاطين .

الروضة الرابعة : فى السخاء والكرم .

الروضة الخامسة : فى تقرير حالة العشق .

الروضة السادسة : فى النوادر والمطابيات[2] .

الروضة السابعة : فى أحوال الشعراء[3] .

الروضة الثامنة : فى حكايات الحيوانات .

ويشمل هذا الكتاب عبارات خليط من النظم والنثر ويزيد النظم فيها إلى حد ما وطبع عام ١٨٤٦ فى (فينه) بترجمة ألمانية بقلم شلشتا فسارد **Schlechta Wssehrd** كما طبع مرارًا فى إسلام بول ، كما طبعت ترجمته الإنجليزية الكاملة فى ١٨٨٧

(١) يسمى هذا الكتاب المشهور بـ (شرح الجامى) أيضًا (فوائد الضيائية) نظرًا لأنه كان باسم ابنه ضياء الدين وهو من النصوص المتداولة فى بلاد الشرق .

(٢) ذكر فى هذه المطايبات ٥٢ لطيفة ونادرة بعضها يفتقد الظرف .

(٣) الروضة السابعة بيان لتفصيلات من سيرة ٣٦ شاعرًا وموضوعات قالها فى حق معاصريه .

عن طريق جمعية كاما شاسترا وترجمة أخرى للروضة السادسة بقلم ويلسون Wilson تسمى (persian wit and Humiun)[1] وبما أن القارىء الدائب يمكنه أن يحيط علمًا كاملاً بسهولة من محتويات هذا الكتاب لذا فلا يغنى الإسهاب فى شرحه هنا[2] .

الأعمال المنظومة للجامى :

زادت شهرة الجامى من حيث شعره وشاعريته ولابد من الحديث عن أعماله المنظومة.

أعماله هى سبعة مثنويات تسمى (السبعة) زو (هفت أورنج) وأرنج بمعنى الوثر والهفت اورنج الثوابت السبعة المسماة بالدب الأكبر ، ثم ثلاثة دواوين مستقلة أو مجموعة أشعاره وهى بالترتيب : الأول : اسمه فاتحة الشباب جمعه فى ٨٨٤هـ/١٤٧٩م ، والثانى واسطة العقد الذى جمع فى ٨٩٤هـ/١٤٨٩م ، والثالث خاتمة الحياة الذى جمعه فى ٨٩٦هـ/١٤٩٠م أى قبل وفاته بعامين .

السبعة أو الثوابت السبعة :

أما الثوابت السبعة أو الهفت أورنج فشمل هذه المثنويات السبعة الآتية :

١ - سلسلة الذهب المؤلف فى (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) [3] .

(١) أى (الذكاء والظرف الإيرانى) (المترجم) .

(٢) طبع بهارستان طبعة أنيقة على الحجر عام ١٣١١ ش فى طهران بقدمة من محيط طبا طباتى .

(٣) سلسلة الذهب يشمل ثلاثة دفاتر تاليف الأول منها يما يبدو بين عامى ٨٧٣هـ و ٨٧٧هـ (راجع كتاب الجامى ص ١٨٥ - ١٨٩ ، ومقالات ابرتسون المتعمقة لأستاذ بجامعة كمبردج فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية أكتوبر ١٩٤٥ وأبريل ١٩٤٦) ، وتاريخ الدفتر الثانى عام (٨٩٠هـ) كما ورد فى النص الإنجليزى السابق ، وليس للدفتر الثالث تاريخ ولكن لابد أن يكون بعد (٨٩٠) .

٢ – سلامان وابسال الذى نشره فوربز فلكونر Forbes Falconer عام ١٨٥٠م وترجمة إلى الإنجليزية عام ١٨٥٦م وتشمل طبعة على ١١٣١ بيتًا وترجمة أخرى بالنثر الإنجليزى وموجزه بقلم المؤلف المعروف ادوارد فيتزجرالد Fitz Gerald نشرت فى لندن عام ١٨٥٦(١) .

٣ – تحفة الأبرار الذى نظمه عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م وطبعه أيضًا فوربز فلكونر عام ١٨٤٨م ويشمل ١٧١٠ بيتًا (٢) .

٤ – سبحة الأحرار وطبع مرتين بالرصاص فى ١٨١١ ، ١٨٤٨م ومرة على الحجر فى ١٨١٨ فى كلكتا(٣) .

٥ – يوسف وزليخا المؤلف ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م وهو أشهر المثنويات السبعة وترجمه شعرًا بالألمانية ونشره روزنزويج Rosmzweig فى فينا عام ١٨٢٤م ، وترجم للإنجليزية بقلم جريفيث Griffith فى لندن ١٨٨٨م وترجمة متوسطة جدًا أخرى بقلم روجرز فى لندن عام ١٤٩٢م .

٦ – ليلى والمجنون المؤلَّف عام ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م وترجمة إلى الفرنسية شيزى chezy ونشره بباريس عام ١٨٠٥م ، وإلى الألمانية هارتمان فى ليبزج عام ١٨٠٧(٤) .

٧ – خردنامة إسكندرى أو رسالة العقل الإسكندرية وهى أقلها من ناحية الإهتمام بها ولم تنشر أو تترجم إلى الآن فيما أعلم .

(١) نظم مثنوى سلامان وأبسال فيما يبدو عام ٨٨٥هـ وراجع كتاب الحاجى لحكمت ص ١٨٩ ومقالة الإنجليزية المفصلة طبعة طهران عام ١٩٤٧ وعنوانها Fitz Gerald's Translation Jam أو ترجمة فيتزجرالد للجاحى .

(٢) راجع كتاب الجامى ص ١٩٣

(٣) ألف سبحة الابرار فى عام ٨٨٧هـ وطبع على الحجر أيضًا بطهران عام ١٣١٥ ش راجع كتاب الحاجى ص ١٩٥

(٤) راجع كتاب حكمت روميو وجوليت لشكسبير ومقارنته بليلى والمجنون للنظامى ، طهران ١٣١٩ ش ص ١٩٣

سلسلة الذهب :

لدى نسخة جيدة من كتاب سلسلة الذهب خطت عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م ، ويبحث هذا المثنوى مباحث مختلفة : فلسفية ، وأخلاقية ، ودينية بتمثيلات وحكايات ويشمل نحو (٧٢٠٠) بيت ، وعدم الارتباط أو الانقطاع بين موضوعات أحدها عن الآخر وكذلك بسبب اختيار بحر غير مناسب له بعث فيما يبدو على أنه يقل عن غيره من المثنويات فى الشهرة والرواج ولذا قلت نسخه ، صدر هذا الكتاب باسم السلطان حسين وقال : الشاه حسين الذى عقد عدله يد الفلك عن التعدى .

ثم ألف بعد ذلك لغزًا أو معمى فى غاية الفن والمهارة باسمه ويتصف بكثير التعقيد والإشكال .

وللتمثيل لهذا المثنوى ننقل هذه الحكاية وتشمل قصة بكاء شاعر أنشد قصيدته الغراء فى حضرة الملك ولم يثن عليها غير جاهل لم يكن عارفًا بأسلوب الشعر :

شاعر فى النظم ساحر   وفى فن المديح ماهر
نشر لواء المدح من أجل الشاه   وأنشأ قصيدة مليئة بالبديع والصنعة
مدح الملوك جائز عقلاً وشرعًا   لأنهم ملوك والملك ظل الله
ومدح الظل يعود إلى مدح صاحب الظل   بنَفَس الشاعر صاحب القلب
فحملها يومًا إلى من يحسن الإلقاء   لكى يلقيها على مسامع الملك

لأن النظم يتوجب له حسن الصوت حتى يزيد جماله جمالاً
فألقى القصيدة من أولها لآخرها وأبلغها إلى مسمع الشاه حرفًا حرفًا
حسن البيان والألقاء واجب للشعر لهذا قال الله تعالى (رتل القرآن)
فلما انتهى إلقاؤه واستراح من أداء القصيدة

أصاح الشاعر سمعهع لأهل المجلس لكى يسمع أصوات المدح له
إن الشاعر تقوى روحه حين يثنى عليه خبير بالشعر
وليم ينبس أحد ببنت شفة ولم يعط الشعر حقه من الثناء
وفجأة صاح مشهور بالجهل والغرور كان يجلس بعيداً عن صدر المجلس :
(باركك الله يا فلان لقد أحسنت وأحسنت تظم الجواهر في مدح الشاه)
فلما نظر إليه الشاعر وضع يده على وجهه وانخرط فى العويل
وقال لقد قصم ظهرى بحديثه هذا بل أن ثناء هذا الخبيث قتلنى

لو تركت مدح الملوك والفقراء	فلن يسود هذا وجه حظى
لكن المدح الذى أبداه هذا المغفل	قد بدل سعادتى
وكل ما نما فى تستان الجهل	جذوره خبيثة ولو كانت غصونه مقبولة
والشعر الذى يقبله ذوق العامة	يعلم الخاصة أنه واه وفج
ميل كل امرىء إلى من يشاكله	وما يحكم به فهو من حنس أصله الفج
إن الغراب يصيح بالصوت القبيح للغراب	وأنى له أن يعرف شدو بليل الرياض ؟
والبومة ترضى بركن خرب	فأنى لها أن تتخذ من قصر الملك مسكنًا لها ؟

وينقسم مثنوى سلسلة الذهب إلى ثلاثة دفاتر ينتهى منها الدفتر الأول بمنظومة فى شرح العقائد تسمى (اعتقاد نامة) ويبرز فيها الجامى نفسه سنى الاعتقاد مع مرتبته فى التصوف والعرفان وجعل أصول الدين عناوين لقطعة المنظومة واحداً بعد الآخر وهى كالتالى : فى وجود الحق سبحانه ، فى وحدة الحق ، فى صفات الحق تعالى ، فى وجود الملائكة ، فى الإيمان بالأنبياء ، فى فضل محمد على سائر الأنبياء ،

فى خاتمة نبوته ، فى شريعته ، فى معراجه ، فى الكتب السماوية ، فى قدم الكتب السماوية ، فى فضل أمة الرسول على سائر الأمم ، فى شرف آله وأصحابه وخلفائه ، فى الإشارة إلى أنه لا يجوز تكفير أهل القبلة ، فى عذاب القبر ومنكر نكير ، فى نفختى صور إسرافيل فى نظار الصحائف ، فى الميزان ، فى الصراط ، فى موقف الحشر ، وفى الإشارة إلى خلود الكفار فى النار وخروج بعض العصاة بالشفاعة ، فى الجنة ومرابتها .

والدفتر الثانى يشمل غالبًا على التحقيق فى الأقسام المختلفة والوجوه المتنوعة للعشق المجازى والحقيقى وحكايات للتمثيل عن أحوال والأولياء والعشاق .

والدفتر الثالث يشمل غالبًا على حكايات السلاطين ، وبنهايته أخبار عن الأطباء منها حكايتان منقولتان عن كتاب تشهار مقاله للعروضى السمرقندى واحدة تنسب إلى ابن سينا بشأن طبيب كان فى بلاط سمرقند وشفى جارية بالعلاج البدنى ، والأخرى تتعلق أيضًا بابن سينا وكيف أنه أنقذ أحد أمراء آل بويه من مرض الجنون .

وبعد ذلك مقال فى بيان نوعين من الشعر ، فأحدهما راحة للروح والآخر تثبيط للقلب . ثم مقالة بديعة جدًا فى سير الشعراء السابقين الذين وجدوا من السلاطين الغابرين مراتب وظلت أسماؤهم لسبب مدحهم على صحيفة الزمان ، ومن يذكرهم هناك من الشعراء هم الرووكى والعنصرى والسنائى والنظامى والمعزى والأنورى والخاقانى وظهير والسعدى وكمى وسلما السادجى ، ثم ينقل حكاية عن تشهار مقالة فى قصة العنصر الذى (أزال عقدة من قلب محمود بسبب قص زلف إياز) ببيتين .

وينتهى مثنوى سلسلة الذهب فجأة بخاتمة مؤجزة جدًا وحين يقرأها الإنسان يشعر بأنه يمكن إنهاؤه فى أى موضع من ذلك الدفتر ، بعبارة أخرى يمكن فى سلسلة الذهب أن تفقد كثيرًا من الحلقات بهذه السلسلة بدون أن يحدث اختلال فيها وبدون أن يضيع المثنوى ، ويشمل هذا الكتاب على تحقيقات عالية لكن الإسهاب وفقدان وحدة المعنى فى موضوعاته يعد عيبًا فيه .

سلامان وأبسال :

يمكن للقراء الإنجليز بسهولة الإفادة من المعزى والمفهوم للحكاية التمثيلية العجيبة (سلامان وأبسال) عن طريق الترجمة الشعرية الحرة والخلاصة التى أعدها لهذا المثنوى فيتزجيرالد ، وترجمته الشعرية الحرة كثيرة الجمال وفصيحة إلى حد ما لكن الوزن المخصوص الذى استخدم فيها هو Hiawatha وأيضًا الحكايات والتمثيليات الزائدة تفسد غالبًا تناسق الموضوع واستواءه ولهذا لم يقع فى موقع القبول الشديد .

وهذه الحكاية كثيرة اللطف والدقة فى نوعها وشخصياتها هم ملك اليونان والحكيم معلمه ومستشاره وابنه الجميل والعزيز المسمى سلامان ثم أبسال وهى المربية الجميلة لهذا الولد والزهرة وهى النجم السيار (فينوس) والتى تحسم الموضوعات العجيبة وغير الطبيعية إلى حد ما ولادة سلامان بدون أم تلده ، والشاعر مع أنه نفسه كان متزوجًا إلا أنه ذم بشدة فى هذا المثنوى الزواج . عشقت أبسال طفلها الذى أرضعته من لبنها ومع وجود الفارق السنى بينهما إذ كانت تكبره بنحو عشرين عامًا . وحين يبلغ سلامان الرشد والبلوغ تفتنه وتجذبه إليها بسحر فلا يوافق الملك والحكيم على هذا ويجبر الحكيم بقوة مغناطيسية سلامان على جمع كوم عظيم من الحطب فى الجنة الأرضية التى فر إليها مع أبسال ويعرض العاشق والمعشوق نفسيهما إلى حريق الحطب ونتيجة لذلك تحترق أبسال المسكينة تمامًا وتصير ترابًا ، لكن سلامان يخرج من الحريق بدون أن يصيبه ضرر سالمًا ومعافى لكنه تطهر وتنقى من كل الشهوات والرغائب الجسدية واستحق التاج والعرش فيعيهما إليه أبوه ، وقد شرح بإسهاب فيتزجيرالد هذه الحكاية فى مقدمة ترجمته (ص٥ - ٧١) وهى تمثيل قائم بنفسه وبدون أى نوع من التفسير الواضح الجلى لمغزاها من قبل الشاعر وننقل هنا قطعة من أصل هذا المثنوى الذى أضفى عليه المترجم نوعًا من اللطافة فى نظر محبى الأدب الفارسى ، وتتضمن هذه القطعة وصفًا للعاشق والمعشوق وشرح ضيق الملك من هبوطهما على الجزيرة المسحورة التى كانا يمضيان أيامهما عليها فى اللهو واللعب :

لكثرة الأسماك التى دفعت زورقهما وبسبب أنفاس البحر أصابهما الضجر[1]
ظهر دغل وسط البحر يخرج وصفه عن كل تفكير
لم يبق أى طائر فى العالم ولم يسعد بهذا المكان الممتع
ففى ناحية تجلت الطيور وهى تغرد مثل التذرج ذى التاج والقمرى ذى الطوق
وفى ناحية أخرى اصطفت طيور تنشد ألحانها وجعلت من مناقيرها آلة العزف والناى
وقد تشابكت أغصان الأشجار النضرة فيها وتجرأت الطيور فى الصياح عليها
وتساقطت الفاكهة تحت الأشجار وقد اختلط يابسها تطريُها
وبأسفل كل شجرة عين ماء انقسمت ما بين نور الشمس وظلها
وارتعشت يد الأغصان من الرياح وامتلأت قبضتها بالدنانير لكى تنثرها
ولما لم تكن قبضتها مقبوضة بقوة انصبت الدنانير من بين أصابعها
كأنها جنة إرم ولما اختفت تفتحت براعم ظهورها
أو جنة عدن لكن فى غير أيام الحساب واحتجبت هناك بالحجاب
فلما رأى سلامان جمال الدغل قصّر فكر السفر
وأقام مع أبسال فى الدغل بقلب فارقه الخوف والرجاء
كلاهما سعيد لا يفترقان كالجسد والروح وكلاهما هانئ هناء الورد مع السوسن
فى صحبة بعيدة عن اختلاط الغرباء وفى راحة نائية عن امتراج الحزن
لا يخاصمها لائم ولا ينافقهما منافق
الزهور بلا وخز الشوك أمامهما والكنز بلا لدغ الأفعى بجانبهما

(١) فى الأصل البيت الأول معناه الحرف (من خلف الأسماك ..) بما لا يقتضى السياق والأصح أن يكون على ما نحو ما ترجمناه على أساس أن (ازپس) طبعت خطأ وصحتها (ازبس) (المترجم) .

يناماان فى مرج كل وقت ويرتويان من عين كل لحظة
وحيناً يناجيان البلبل وحينا يتحدثان مع الببغاء العذب الشدو
مرة يتجولان مع الطاؤوس وأخرى يتمشيان مع القطا
وبإيجاز ، فقد أفهم قلباهما باللهو والطرب وكانا يصلان اليوم بالليل فيهما
ما أجملٍ من أن يكون الحبيب فى أحضانك والعاذلون بعيداً عنك . . .

تحفه الأحرار :

تحفة الحرار منظومة تعليمية وتربوية تشمل موضوعات كلامية وأخلاقية وتضم فوق حمد الله والصلاة على رسوله والمناجاة عشرين مقالة منها المقالة العشرون والتى يخاطب فيها ابنه الصغير ضياء الدين يوسف ، وكان إذ ذاك فى الرابعة من عمره بينما كان الشاعر نفسه فى الستين ، وكل واحدة من هذه المقالات تنتهى بحكاية أو أكثر ومثل أورده ليوضح مقانه ويؤيده . ويشير الجامى فى المقدمة المختصرة المنثورة ببداية المثنوى إلى أنه نظمه بأسلوب مخزن الأسرار للنظامى ومطلع الأنوار لخسرو الدهلوى . وأشعار المثنوى عامة خشنة وعلى نسق واحد ولا يمكن عدها أفضل نماذج أعماله ، وننقل هنا مثالاً قطعة من المقالة المشار إليها التى بها نصحه لابنه :

المقالة العشرون فى نصح ابنى العزيز الذى تربى فى بستان الطفولة بنبات العقل الحسن وتعقبه فى مدرسة البلاغة حتى نهاية الكمال :

يا من أنت هلال ليلة أملى	وعين حظى رهينة التفكير فيك
إن الهلال يهل بعد ثلاثين يوماً	وأنت هللت بعد ستين عاماً
عمرك أربع سنوات حين يحصى	لفتكن سنواتك الأربع أربعين وأربعونك أربعاً ثانية
وكل أربعينك هى أربعين الاعتكاف الصوفى	حين تسير فى درجات الكمال فى العلم والذوق

كـان اسـمك يوسف مـصـر الوفـاء
فليكن لقبك ضيـاء للدولة والدين

أجـعل من قلمى كـاتبًـا للحكمـة
وأولف من أجلك رسالة الحكمة هذى

ومع أنك لا تفهم النصح فى سنك هذا
لكن اعمل بها حين تصل سن الفهم

وحتى لا يخرج شعر وجهك عن برقعه
لا تخط خارج منزلك إلى السوق والحى

كن سلسلة لتقـيـيـد قـدميك
وكن حـبيس حـرمك

لا تـفـارق فـى أى وقـت
مصاحبة اخوتك وتتجه إلى الغرباء

إن رؤية الغريب ليست ميمونة لك
لاسـيـمـا إذا كـان يكبرك سنا

وإذا انشـغلت بالكتّـاب
وأغطوك لوح الأبجـدية

فـلا تجـالس السـفلة
وانفرد عن الجميع واجلس وحيدًا

ومع أن حرف الألف ليس معوجًا فى ذاته
لكن انظر كيف يعوج فى اللام الف

وحين تضع لوح التـعليم أمـامك
فاستقم عليه كالالف ولا ترفع عنه أصبعك

طأطئ برأسك حـيـاء مـثل الدال
واعقد عينيك بلوحك مثل الصاد

ولا تظهـر صف أسنانك كـالسين
فى ضـحك لهـذا وذاك

لا تقسم قلبك نصفين بسبب الفكر المضطرب
وضيق فمك عن الحدث مثل الميم

مجاذبة الناس الكلام سعى عابث
فـاتركـه حتى لا يضرك الصداع

احتفظ آداب تلقى الدرس عن معلمك
حتى تستفيد جيدًا من الكتاب

صـفـعـة مع أنهـا تمنح التـعليم
إلا أنه من الأفـضل ألا تصـيبك

وهذه القطعة مع أنها تشمل نصائح أبوية جداً ورفيعة القدر لكنها ليست موضوعاً مناسباً للشاعرية والفنية الشعرية ، وفى نفس الحال فأفكارها المعقدة المصاغة بأسلوب الألغاز والأحاجى الذى نحت النصائح الأخلاقية من أشكال الحروف الأبجدية جعلتها من الصعوبة إلى حد أنه لا يمكن ترجمتها إلى النثر .

سبحة الأبرار :

مثنوى سبحة الأبرار منظومة تعليمية أيضاً تشمل موضوعات كلامية وعرفانية وأخلاقية وتشبه كثيراً تحفه الأبرار ونفس درجتها من فقدان الترابط فى موضوعاتها وقل أن تجتذب الطباع فى صورتها ومادتها[1] .

والحكاية الآتية تتصل بإبراهيم الخليل والشيخ العابد للنار والتى وردت أيضاً فى بستان السعدى[2] ، ودرسها فوربز فى كتابه (القواعد الفارسية) ونوردها هنا للتمثيل :

(١) خلافاً ليراون فيرى الدارسون الإيرانيون أن سبحه الأبرار من حيث لطافة الأبيات والحكم والأخلاق وعلو المعنى والبحر المقبول البديع من أجمل مثنويات الجامى (كتاب الجامى ص ١٩٦) .

(٢) أنقل نص قطعة السعدى من البوستان فيما يلى لتسهل مقارنتها بكلام الجامى (البوستان - الباب الثانى)

سمعت أن أبن السبيل لم يأت إلى مضيفة إبراهيم لمدة أسبوع
ولم يكن يأكل وجباته لحسن أخلاقه إلا ومعه فقير يأتى من الطريق
فخرج ونظر فى كل اتجاه وأرجع النظر فى أطراف الوادى
فلم يكن غير واحد فى الصحراء مثل الصفصافة أبيض شعره ورأسه من هموم الشيخوخة
فهش له وبش بحب ونادى عليه كما يفعل الكرماء :
يا من أنت إنسان العين لعينى تفضل علينا وتناول خبزاً وملحاً
فقال نعم وقام ناهضاً ومتقدماً له لأنه أدرك أخلاقه عليه السلام
فأجلس المتولون لمضيفة الخليل هذا الشيخ الذليل بإعزاز
وأمرهم فرتبوا المائدة وجلس الجميع على سائر أنحائها
فلما بدأ الجميع بالبسملة لم ينطق بها الشيخ =

كان أحد عنين فى السن غريبا عن نور الهدى ويمتلئ وجهه بدخان معبد النار
فارق معبده وصار ضيفًا على مائدة الخليل
فلما رأى الخليل الخلل فى دينه لم يرض به على مائدته
وقال له إما أن تؤمن بواهب الرزق يا أن تفارق مائدتنا
فنهض الشيخ قائلاً يا طيب الطوية لا يمكن أن تعطينى دينك من أجل أكلة
فتوجه بشفة يابسة وفم لم يذق الطعام من ذلك المنزل إلى بقية الطريق
فنزل من على الوحى إلى الخليل «يا من أنت جميل فى كل صفاتك
مع أن هذا الشيخ ليس على دينك فإن منعه عن الطعام ليس هو مذهبك
انقضى عليه أكثر من سبعين عاماً وهو يتعبد فى دار الكفر
لم أمنع عنه رزقه يوماً بسبب عدم اعتقاده
فما ذا يحدث لو تعطيه بضع لقيمات من طعامك»
فناداه الخليل من خلفه وشاركه على مائدة كرمه
فسأله العجوز يا لجة الجود ما سبب منع عطاك
فقص عليه الخطاب الذى وصله والعتاب الذى يحرق الكبد

= فقال أيها الشيخ العجوز لا أرى فيك صدق الشيوخ وغيرتهم
أليس شرطًا أن تذكر اسم الواهب الرازق حين تأكل على رزقه
فقال لا أسلك طريقًا لم اسمع به من شيخى العابد للنار
فعلم الرسول الحسن الفأل أن هذا العجوز الفاسد الحال بمجوسى
فطرده بذلة لم رآه غريبًا فإن النجس ينكره الأطهار
فنزل من الخلاق الجليل ملاك الوحى يصيح لائمًا «يا خليل
قد وهبته الحياة والرزق مئة عام وأنت نفرت فيه من لحظة واحدة ؟ !
إن كان يسجد للنار فلماذا تؤخر عنه يد جودك ؟ »

فقال الشيخ : إن من يخاطب لائمًا حبيبًا له من أجل غريب
كيف أترك طريق البعد عنه ولماذا لا أحتظى بمعرفته ؟
فاستقبل قبلة الإحساس وبايعه وآمن بربه

هذه الحكاية والمغزى الذى سلكه فيها عظيم جدًا لكن غالب نقاد الشعر الإيرانيين يرجحون شعر السعدى على كلام الجامى .

يوسف وزليخا :

المثنوى الخامس من مثنويات الثوابت السبعة هو قصة (يوسف وزليخا) الأكثر شهرة ورواجًا وكذا أصله وترجمته فى طائلة الأيدى ونشر جميع هذا المثنوى مع ترجمته الشعرية الألمانية ويحلق بهما الحواشى والإيضاحات بقلم بارون ورزنزويج فى قطع ظريف فى فيينا عام ١٨٢٤م ، كما نشر مرارًا فى بلاد المشرق[١] ، وكما سبقت الإشارة فقد ترجمه روجر نظمًا إنجليزية عام ١٨٩٢م ، لكن لا يمد عن هذه الترجمة موفقة كثيرًا ، وقام جريفيث بترجمة بعض قطعه الجميلة فى باب طبيعة الجمال وحيلة الأصلى إلى الظهور والتجلى وفى باب أن الحب المجازى هو القنطرة والصراط للعشق الحقيقى[٢] ونشرتها ، وأردت بداية ضمن مقال عن التصوف ونشر فى سلسلة (النظم الدينية فى العالم)[٣] كما أعيد طبعها فى الجزء الأول لتاريخ الأدب فى إيران ص٤٣٩ و٤٤٢

ونظمت هذه حكاية على أساس سورة يوسف السورة الثانية عشرة فى القرآن والتى تسمى (أحسن القصص) وموضوعها أحد أشهر مواد الحكايات العشقية التى

(١) راجع فهرس الكتب الفارسية فى إدارة الهند أو مكتبها تاليف إتيه ص ٧٤٦

(٢) هذا القول تفسير لمعنى كلام الصوفية (المجاز قنطرة الحقيقة)

(٣) النظم الدينية فى العالم أو "Religious systems of the world" طبعة سوان سوننشين Swan Sonnenschien عام ١٨٩٢ ص ٣١٤

استلفتت الأنظار فى إيران وتركيا العثمانية بل ونظر الشاعر الكبير الفردوسى بعد نظمه للشاهنامة[1] وقام من بعده كثرة من أستاذة الشعر الفارسى بنظمها ، وأورد فى حاشية كتبا تاريخ الشعر العثمانى (الجزء الثانى ص ١٤٨) حبيب قائمة كاملة وخلاصة للشعراء الأتراك الذين نظموا هذه الحكاية ، لكن مثنوى الجامى يجوز بجدارة أعلى مقام بين كافة نظامى هذه القصة المشهورة ، ويرجع أغلب شهرته إليه .

والقطعة التالية عن ترجمة فون روزنزويج (الجزء الثانى ص ١٩) نموذج لهذا المثنوى وهى حكاية (بازغة) وكانت سيدة مثل زليخا وعشقت يوسف ولكنها تحولت من فرط عشقها من عشق المخلوق إلى عشق الخالق :

ولما سمع يوسف هذا الكلام

نثر غذاء الروح من عينه

وقال أنا صنعة هذا الصانع

قنعت برشفة من بحره

هذا الفلك نقطة واحدة من قلم كماله

وهذه الدنيا برعمة واحدة من روضة جماله

الشمس لمعه من نور حكمته

والفلك حُبَابَةٌ من بحر قدرته

جماله طاهر من تهمة العيب

مستتر فى حجاب الغيب

صنع المرايا من ذرات العالم

وعكس على كل منها وجهه

(١) صحة انتساب مثنوى يوسف وزليخا موضع شك ، راجع مقالة الأستاذ عبد العظيم قريب .

وكل ما يبدو جميلاً في عينك المتفرسة
إن تمعنت فيه فهو إنعكاس وجهه
فمعاذ الله أن تبتعدى عن الأصل
لأن نورك يذهب حين ينتهي الانعكاس

ليلى والمجنون :

تقل نسخ المثنويين الأخيرين للمثنويات السبعة أى ليلى والمجنون وخردنامه الكسندرى لكنى طالعت بدقة ودرست هذين الاثنين من مخطوطة بديعة كتبت فى ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م ، وتتعلق بمكتبة كلية ترينتى Trinity College فى كمبردج واخترت وترجمة هذه القطع للتمثيل :

فى معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين

لما يتنفس صبح الأزل من العشق	أشعل الشعق نار الشوق فى القلم
فأطل القلم برأسه من لوح العدم	ورسم مائة رسم بديع الهيئة
والأفلاك هم أبناء العشق	والأركان الملقاة بالأرض ألقاها العشق
لا يتميز الخبيث من الطيب بلا عشق	وما انفصل عن العشق عدم ذاته
وهذا السقف العالى اللازوردى	الذى يدور ويلف ليل نهار
هو نيلوفر بستان العشق	والكرة المدورة لصولجان العشق
والغناطيس الذى بطبع الحجر	جذب إليه بشدة الحديد

والعشق الذى جذب إليه الحديد / إنما أطل برأسه من داخل حجر المغناطيس
وأنظر إلى الحجر حيث لا ينجذب / إلى الحجر فى هذه الدار فإنه غريب عن الشعق
وقس على هذا المعانين / لجذبات عشق معشوقيهم
ومع أن العشق مؤلم / إلا انه راحة للصدور السليمة
وأنى للمرء أن ينجو من محن / الفلك المعكوس الدوران بدون دولة العشق؟

فى سبب نظم الكتاب والباعث على ترتيب هذا الخطاب

لما أمطت اللثام عن هذا السر / وجعلت هذه الطرفة لحن عزفى
ذاق ببغاء قريحتى طعم السكر / من قصة يوسف وزليخا
فقفز من قلمى عذب الحديث السكرى / بسبب قريحتى العذبة
فأثار فى العالم ثورة / وأحل بقلوب العشاق سروراً
كان نظمى لقصة يوسف وزليخا / منبع اللطف لكنه لم يرو غليلى
اذ كان طير قلبى يود أن / يشدو ثانية من موضع آخر
فلما اقترعت بالفأل الميمون / وقعت القرعة على قصة المجنون
ومع أن قلبى هذين الأستاذين / العظيمى البنيان فى عالم الشعر
قد تحدثا فى نقاطها / وأوفياها حقها من النظم والثانى من الهند
الأول من كنجه كالكنز يصب الجواهر / كالببغاء ينثر السكر
الأول يقرع أذن الأعداء / والثانى يجلى عروس المعانى
الأول نقش على الحجر بنظمه لها / والثانى أضفى عليها الرواء بحسن صنعته

ذاك رفع العلم إلى أوج الإعزاز	وهذا سحر صناعة السحر
فعقدت بدورى ظهرى أتعقبهما	وامتطيت ناقة الريح
وحيثما بلغ جواداهما	فهو من خاطرهما الفياض المفيض
فسبقت أيضًا نقاقة	ووصلت إلى غبارهما
فلو تخلفت عن ركبهما	فيكفينى ما أصاب وجهى من غبارهما

وهذه الحكاية من خردنامة إسكندرى من نفس المخطوط اقتبستها وترجمتها :

(حكاية تلك الحدأة التى صدقت أسطور الضفدع فأضاعت ما بيدها من مال طمعًا فى مال النسى) :

والآن يذكرنى دور الزمان	بالتمثيل بقصة الضفدع والحدأة
كانت حدأة وهى طائر يصيد فى الجو	قد أقعدها ضعف الشيخوخة عن الصيد
زايلت قوة الطيران جناحيها وريشها	ووهنت مخالبها عن صيد غرضها
فكرهت حياتها بسبب ضعفها	وتوطنت أحد المستنقعات
وبعد مدة تباطأت فى سيرها عليه	فسقط فجأة ضفدع فى مخلبها
فصاح صارخًا هذا الضفدع المسكين	ما بين تبدل بك فرحى ترحًا
لا تتعجل لحظة فى قتلى واصرف	عنان سرعتك عن هلاكى
لست غير طعمة نتفر الطبع	فلا يستسيغنى الفم ولا تستحلينى المعدة
ليس جسدى غير جلد غير مستساغ	فكيف يقنع به آكل اللحوم
فإن فتحت نقارك بحريتى	بشرت قلبى بالسعادة
وأرشدك إلى سمكة فى كل لحظة	عن طريق سحرى وطلسمى
تربت فى الماء الرائق	وطعمت من ألوان النعمة

كل أجسادهم لحم ليس بها جلد ويقل بها العظم

ظهورها زرقاء وبطونها بيضاء خالصة وعيونها كعكس نور الكواكب فى الماء

وهي كالفلك أثناء الليل فى نثار الكرم لأن ظهورها وجوانبها تمتلىء بالدراهم

وليس من طبع العقلاء رفض مقترحى ولقمة واحدة منها أفضل من مائة مثلى

ففتحت الحدأة منقارها تقسم بتحريض الضفدع فسقط خارجًا من منقارها

ونزل فى قفزة واحدة فى المستنقع وارتهنت الحدأة بالحرمان ثانية

وجلست جائعة على أرض الضياع فلا ضفدع بمخلبها ولا سمكة بمنقارها(١)

وأنا مثل هذه الحدأة المحرومة انعقد طريق السعادة أمام قلبى وروحى

ان الكلام يجرى من الفكر ومن حضور القلب لكن كلامى يمتلئ بالخطأ بسبب نقص فكرى

وحرمان حظى بسببى أنا فليس لدى رباطة الجأش ولا لطف المقال

فهلم أيها الساقى وهات كأسًا وأحضره بالتناوب كالفلك المتتابع الدوران

بهذه الخمر التى تريح القلب وتخلصنى من رجس الطين

وهلم أيها المطرب بعودك ذى الأذن المنصوبة وأجعله يترنم بتعريكة لأذنه

ترنيمات وترجيعات تنبه القلب وتحمل رسالة ملاك الوحى إلى العلماء

مقارنة الجامى بالنظامى من ناحية الشعر

لأن سبعة الجامى تقليد لخمسة النظامى بوجه التحقيق ؛ فيمكن أن يجدر هنا موازنة مختصرة لأسلوب كل منهما ، وبما أن مثل هذا التحكيم فى نظرى لا يخلو من الصعوبة من ناحية التذوق الأدبى على رجل أجنبى مثلى فقد طلبت من زميلى الإيرانى

(١) معنى البيت حرفيًا (ولا سمكة بإبهامها) (المترجم) .

ميرزا بهروز ابن الطبيب والمؤلف المعروف ميرزا أبى الفضل الساوجى وهو شاب متحلٍ بالذوق واللياقة وله يد فى الأدبين العربى والفارسى أن يعد مقالة مختصرة فى هذه الموازنة وأنقل خلاصتها هنا :

الجامى لايبارى النظامى فى حلاوة شعره وسلاسة بل يتفوق عليه ، لكنه لا يصل إليه فى استحكام العبارة والمتانة والتصور الشعرى والفصاحة ، وتتوجب المعرفة العميقة للغة الفارسية لكى يفهم نظامى ويدرك مقصوده ، فى حين أن كل شخص يمكنه أن يقرأ شعر الجامى والاستمتاع به ، ولهذا فقد ذاع ذكره واسعًا فى الهند وتركيا العثمانية وبكل مكان فيه اللغة الفارسية لغة أجنبية ، فضلاً عن أن النظامى كل له مرتبة العلم العليا فله اليد الطولى لا فى اللغة والأدب والتاريخ وحسب بل فى العلوم أيضا خاصة الرياضيات ، ولا يمكن للقارئ أن يفهم كلامه جيداً إلا إذا كانت له معرفة واسعة بتلك العلوم كذلك عمق المعانى ودقتها ولطفها وهو من سمات شعر النظامى فى شعر الجامى .

كان النظامى ينافس ويبارى فى إسكندرنامه (أحد مثنوياته الخمسة الذى يشابه فى بحره وموضوعه القسم الخاص بالإسكندر من الشاهنامة) سلفه العظيم الفردوسى لكنه بتحكيم كثير من النقاد تخلفه عنه بمراتب[1] ، لكن فيما يبدو كان النظامى أكثر تعصبًا من الفردوس فى الناحية الدينية ، بينما قلّ فى عصر الفردوس تسلط هذه العقائد وسطوتها ، بحيث يقول النظامى :

راج سوق المجوسية فى الدنيا بحيث صرت تستحى «من كونك مسلماً»

نحن مسلمون وهو مجوسى - فلو كانت تلك هى المجوسية فماذا يكون الإسلام ؟

فارجع يا نظامى إلى الخرافات ؛ لأن صوت طير النصيحة قد غدا مر الذاق

(١) راجع فى مقارنة الفردوس بالنظامى شعر العجم لشبلى النعمانى ، الجزء الأول .

ومع أن الجامى عارف وصوفى ، ولكنه كان يتبع فى الأصول الإسلامية اعتقادات العامة وقلما أظهر الاهتمام والعناية بإيران قبل الإسلام بينما أظهر الفردوسى وكذلك النظامى بدرجة أقل اهتمامًا خاصًا بتلك الفترة ، ولم يخف الجامى أنه مدين لسلطة بأى نحو بل إنه اقتفى أثره بنهاية الدقة فى الحقيقة بالرغم من أنه تحدث بين الفنية والأخرى عن بعض الموضوعات والمقالات التى كانت من ابتاكارته الخاصة(١) ، ولم يقلد الجامى النظامى فى عناوين فصول مثنوياته وأبوابها وأوزانها وحسب بل اقتفى أثره فى الأمور الشخصية الكثيرة الخصوصية ، فمثلاً يخاطب متشبها بالنظامى ابنه ذا السبع سنوات ويأمره بنصائح عديدة فى غالب مثنوياته مع خلاف وحيد هو أنه النظامى حرص ابنه على تعلم الطب ، لكن الجامى فضل لابنه تعلم العلوم الدينية والكلامية ، وتبدو المشابة بين هذين الأستاذين بنحو خاص فى ذكر أسباب نظم المثنويات ، لكن ضيق المجال يجبرنا على عدم التمثيل(٢) ، إن هذه الموازنات التقويمية بين أعمال الشعراء الكبار الإيرانية تحوز أهمية فائقة ، وقد أهملت حتى اليوم وقد منعتنا للأسف دراساتنا الممهدة فى التاريخ الأدبى ونقصى سير الشعراء وإحصاء مؤلفاتهم وهو ما تنقى به دراستنا من القيام بهذا العمل المفيد فى هذا الكتاب وما سبقه من أجزاء .

عزليات الجامى

حين نبحث بدقة الغزليات أو الأشعار الغنائية التى مرتب منه الجامى ثلاثة دواوين مستقلة ، فلسوف يطول بنا الحديث والبحث ، وقد قام فى أوربا علماء ألمان بدراسات

(١) راجع شرحه لحروف البسملة مثنوى تحفة الأحرار .

(٢) راجع فى سبب نظم نظامى وجامى لقصة ليلى والمجنون كتاب (رميو وجوليت طبعة طهران ، عام ١٣١٩هـ) ويلاحظ محاولة هذا الشاب الباحث لتفضيل الفردوس ، لأنه يتعصب لقومه وهم على وثنيتهم قبل الإسلام وأوقف شعره على حكاية أساطيرهم ووسم الجامى العامة بسبب أنه كان سنيًا ملتزمًا . (المترجم)

مطولة فى هذه الغزليات وحدها خاصة فون روزنزويج[١] ورّوكرت Rückert[٢] وفيكر هازر wickerhauser ، وبلوتنكرانز[٣] Blûten;ranz .

ونظرًا للمقام السامى والمرتبة العالية للجامى وكثرة أعماله فلابد من أن يؤلف له كتاب منفرد خاص به[٤] ، ويؤدى حقه تمامًا لأنه يجدر بالبحث والتحقيق لا من حيث إنه أستاذ فى فن الغزل وحسب بل بسبب تأثير كلامه العميق فى الأدب الفارسى والتركى .

وأكتفى هنا بذكر بصفة نماذج من غزلياته أخذتها من ديوانه (طبعة إسلام مبول عام ١٢٨٤هـ ١٨٦٧م) واخترتها على عجالة تامة ، كما راجعت بالإضافة إلى النسخة المخطوطة النسخية المطبوعة لديوان فى لكنا وعام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م ، وهى بحوزتى أيضًا وأكثر تفصيلاً[٥] .

-١-

يا من بدا جـــمـــالك فى كل مـــا بـدا

ألا كـانت أول روح مـقـدسـة لك فـدا

أبكى من فـراقك لحظة بلحظة كـالناى

وأى أطرف من أننى لست منفصلاً عنك لحظة واحدة

(١) راجع كتاب روزنزويج عن الجامى طبعة فيينا عام ١٨٤٠م .
(٢) كتاب أعمال روكرت الذى ألف خلال ٢٣ عامًا (١٨٤٤ - ١٨٧٦م) .
(٣) راجع كتاب بلوتنكرانز طبعة ليبزنج عام ١٨٥٥م ، وطبعة فيينا عام ١٨٥٨م .
(٤) وفق المترجم حكمت فى تأليف كتاب عن الجامى عام (١٣٢٠ ش) استقصى فيه مع ما غير من نواقص كثيرة سيرة الجامى ، وأعمال وصفاته الشخصية وآراء وأفكاره وقبره وعلاقته بالسلاطين فى عصره ، وطبعة وزارة الثقافة فى طهران .
(٥) بحوزة حكمت ثلاث نسخ لديوان الجامى الأولى بخط النسخ تعليق الهروى المجدول والمذهب الجميل ، ويبدو أنه خط فى عهد قريب من المؤلف ؛ إذ ليس به تاريخ ، والثانية المخطوطة الجامعة الشاملة لدواوين الغزل الثلاثة والمكتوبة عام ٩٣٥هـ أى بعد وفاة الشاعر بسبعة وثلاثين عامًا ، والثالثة مكتوبة بالنستعليق الجميل المجدول والمذهب وأهداها لى صديقى العظيم إبراهيم قوام ، بلا تاريخ ، ولكنها بغير أخطاء ، وبالمكتبة الوطنية بطهران نسخة جامعة لكافة أعماله ، ويظن أنها بخط المؤلف نفسه .

إنه العشق وحده الذى يتجلى فى الدارين

مرة فى لباس الملك وأخرى فى رداء الشحاذ

يتأتى سمعك صوت واحد على قسمين

أولهما تسميه النداء والآخر الصوت

فانهض أيها الساقى وصب جرعة تكرما

وأزل عن العشاقين المحزونين بالكأس حزنهم

هذا الكأس الخاص حين يخلصنى من ذاتى

لا يبقى فى عين الشهود غير الله

فيا جامى ليس غير العشق طريق الهدى

إلى الله ، قلناه والسلام على تابع الهدى

– ٢ –

نسيم الصبح زرمنى ربا نجد وقبلها

لأن ريح الحبيب يهب من تلك المواطن الطاهرة

إذا زاد شوق الوصل فأى معنى للطعن

إذا تعقب المجنون المحامل من أجل رائحة هودج ليلى ؟

قلبى يفيض بحب حبيبى وقلبه فارغ

فما معنى قولهم من القلب إلى القلب رسول ؟

وصلت سلمى من سفرها وأنا سقيم البدن

فخذ يا صاح روحى تحفة منى واقبلها

لا تنزل أيها السحاب دموع الحسرة على طريقها

حتى لا يضار حافر جوادها فى بداية الرحلة من طينه

كان بقلبى بسبب هجرة مئة عقدة مستعصية

فلما وقع نظرى على جماله انحلت فى الحال كل العقد

إن لدى الجامى أحزانًا من جور الزمان

الخزنة نهاية ولكن خوف إملاك الندامى يطولها[1]

(١) الأصل الفارسى للتمثيل بشعر الجامى هو :

نسيم الصبح زُرْمِنّى ربا نجد وقَبِّلها

كه بوى دوست فى آيد ازآن پاكيزه منزلها

چو كَردد شوق وصل افزون چه جاى طعن اكر مجنون

ببوى هودج ليلى فتد دنبال محملها

دل من پرز مهريار واوفارغ بنودست آن

كه ميكَويندراهى قست دلها اسوى دلها

رسيد اينك زره سلمى ومن ازضعف تن زينسان

فخذ يا صاح روحى تحفة منى واقبلها

مريزاى ابرديده آب حسرت برسراهش كه

دور اولى سم اسبش اذآسيت چنين كلها

مرااز هجراودردل كَره مى بود صد مشكل

چوديدم شكل أو فى الحال حل شده جمله مشكلها

زجو دورغم فرجام جامى غصه هادارد

ولكن خوف إملاك الندامى لم يطولها

وقد تأثر الجامى فى الوزن والقافية لهذه الغزلية بأشهر غزليات حافظ الشيرازى ومطلعها :

ألا يا أيها الساقى أدر كأسا وناولها

كى عشق آسان نمودأول ولى افتاد مشكلها

ومعنى المصرع الثانى : لأن العشق بدا سهلاً فى البداية لكن المشاكل وقعت . (المترجم)

-٣-

هنا طرف الروضة وشط الجدول وشفة الكأس

فأنهض إيها الساقى فالورع هنا حرام

إن سكر الشيخ فى صومعته ذوق السماع

فهذا هو حالى هنا والحانة والمدام

وضعت شفتك على طرف الكأس وأنا لا أدرى

ما الذى أسكرنى هنا هل شفتاك الشقائقية أو الخمر ؟

لم تنعقد قلوبنا وحدنا بشعرك الأسود

بل إن شعرك هنا فخ لكل طير قلب مقيد

تستل سيفك لكى تشق قلوبنا نصفين

اترك السيف فتكفينا غمزة من عينيك هنا

لا تشرح مشكلتنا أمام أرباب العقل

ولا تذكر النقاط الخاصة فهذا مجلس عام

سكر الجامى من عشقك ولم ير خمراً ولا كأساً

والحفل محفل العشق ولا محل هنا للخمر والكأس

-٤-

الحسان آلاف لكن مقصودى منهم جميعًا هو واحد

وكلامى واحد ولو مزقونى بالسيف مئة قطعة

محفل الملاح مجمع طيب ولكن القمر

الذى يزدهر به هذا المحفل واحد

نريد أن نتحف كل خطوة من قدميه بتحفة مختلفة

لكننا نقصر لأن روحًا واحدة فى جسمنا

صرت من الضعف حد أنه لا يظهر بدون

النواح والصراخ أن واحدًا موجودًا داخل القميص[١]

حيث يبرق لعل (شيرين) الخلاب يستوى

فى نظر (فرهاد) محطم الجبل الياقوت بالحجر

حطمت شرفنا وسمعتنا ومنعتهما عن الحسان

أجل فمن بين مئة خليل محطم للأصنام ليس غير واحد

اقفل فمك يا جامى عن الكلام فى هذا المحفل

لأن فيه يستوى صوت البلبل والغراب[٢]

هذه الغزلية من حيث الوزن يشبه غزلية مجهولة المؤلف ، ويبدو أن البيت الرابع منها مقتبس عن المتنبى فى القطعة المشهورة التى نظمها الشاعر العربى أيام طفولة وهى :

(١) مضمون هذا البيت الذى يصف فيه الشاعر ضعفه يرى أيضًا فى أشعار المسعدى فى قوله :

من ضعف اليد وضيق المكان   لم أعد أستطيع تمزيق قميص

ويقول :   إذا هبت بى اليد وضيق معها   فلم يبق جسد داخل الملابس

(٢) بقية هذه الغزلية المشهورة للجامى معناها :

أى دليـل من سـاكنى الحـانـات

لا يمكن أن تجـد دليـلاً عنهم من لا أثر لهم

ولك واحد من الحسان القمريات مظهر لشأن آخر

وشـأن محـبـوب روحى ذاك تجل لهم جـميـعًا

وأرواحنا فـداؤه تسـيـر لاسـتـرضـائنا

نحن الوالهين من ربع إلى آخر ساحبةً ذيل ثوبها

الأفضل فى الطريق إلى الحانة أن تصير ترابًا فيه

يا قلبى فربما يمر ذاك السكير صابًا الخمر على تلك الناحية

أبلى الهوى أسفًا يوم النوى بدنى وفرق الهجر بين الجفن والوسن

روح تردد فى مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

كفى بجسمى نحولاً إننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وفى كلمات الجامى وأشعاره الملمعة الكثير الذى يشاهد بوضوح فيه تأثير الأدب العربى من بينه هذا البيت :

كنت من طائفة الشاربين للثمالة وقتًا لم يبد فيه أثر للكرم والكرامة[1]

وهو بالقطع اقتباس عن شعر عمر بن الفارض المصرى الذى يقول فيه :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وفضلاً عن ذلك يمكن ملاحظة تأثير غزليات حافظ والسعدى أيضًا فى شعره بوضوح ، كما أنه تأسى مثنوى المولوى الرومى وأفكاره فى رسالته (نى نامه) أو سالة الناى[2] .

= لا تقل نقاط العشق مقلدًا أيها الواعظ

واشرب خمرًا أكثر وذق أيضًا مَرّتَه

فضع عنك يا جامى خرقة الورع لأن الرفيق

الخلص والرنود لا بداية لهم ولا نهاية

(١) يشير براون هنا إلى تشابه هذا الغزل مع الغزل المعروف المنسوب إلى حافظ وترجمة فى كتابه (سنة بين الإيرانيين) باسم شاعر مجهول وهو هذا :

إن ملك محفل المعشوقين هو واحد اليوم ولو كان المعشوقين آلافًا فقلبى على ذاك الواحد

(٢) رسالة الناى أو شرح بيتين من المثنوى للرومى رسالة صغيرة مطبوعة على الحجر فى طهران عام ١٣٠٢هـ ، فى حاشية مجموعة من الرسائل والكتب الصوفية مثل أشعة اللمعات وغيره فى ص ٣٨٢ ، كما أن مجلة أرمغان فى السنة ١٧ عدد ٨ ، ص ٥٧٦ ، أدرجتها وتبدأ بهذين البيتين :

استمع إلى الناى حين يحكى ويشكو آلام الفراق

لأن الناى هو الذى يقول دائمًا : لست غير موجة فى بحر القدم

وهذه الرسالة فى نحو خمسمائة بيت ، ويختلط النثر فيها بالنظم .

وينتهي كلامنا بهذه النقطة حول الجامى[1] ...

الذى إن يكن خاتم الشعراء فهو بالتحقيق أحد كبار أساتذة الشعر ، وهى أن الأفكار الصوفية وعقيدة وحدة الوجود واضحة فى أكمل صورة وأوضح نحو فى أشعار هذا الرجل الذائع الصيت ، ومع أن بعض أساتذة الشعر يساوونه أو يتفوق عليه فى بعض النواحى ؛ ولكن لم يبلغ درجة كماله أى شاعر ولا ناظم باللغة الفارسية : فى تنوع موضوعاته ، وتفننه فى الفنون المختلفة ، وإعجاب المعاصرين له ، وثناؤهم على قريحة الوضاءة فى محله ، وسلطنته فى عالم الشعر حتمية وجديرة .

(١) القطعة الآتية التى تشمل المادة التاريخية لوفاة الجامى تشير إشارة وافية إلى تعدد فنونه ، وأن له فى كل علم عملاً وتأليفًا ، وذكرها فى نهاية حواشى هذا الكتاب هو حسن الختام .

الجامى الذى كان شمس فلك الكمال	صنف علمًا فى كل كتاب بلا حصر
رحل عن الدنيا وبقى بين الشعراء	تاريخ وفاته فى (الأشعار الحالية للألباب)

«أشعار دلفريب ، ٨٩٨هـ»

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣- مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيتل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى آنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

٢٢٧-	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وأخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مورين	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كليناور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عبد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٨٩٣ / ٢٠٠٥